

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء السادس

طبع على نفقة
معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش


بسم الله الرحمن الرحيم


التاريخ القويم
لمكة وبيت الله الكريم

بعض الأدباء والشعراء بمكة في عصرنا الحاضر

الشعراء والأدباء تقريباً بمنزلة واحدة لكن مع الفارق، فالشاعر البليغ لا بد أن يكون أديباً بطبيعة الحال، أما الأديب فمهما كان أديباً ممتازاً فإنه قد لا يكون شاعراً، ومن هنا نقول: كل شاعر أديب وليس العكس، فكما أن الشعراء في كل واد يهيمون، كذلك الأدباء عن كل حالة يكتبون. وكل من الشعراء والأدباء يمكن لهم قيادة الناس، إن صلحت أحوالهم وكانوا على أخلاق نبيلة، ببلاغتهم وحسن أسلوبهم.

ففي الحديث الصحيح: « إن من البيان لسحرا » رواه البخاري في كتاب الطب. وروى أيضاً في كتاب الأدب « إن من الشعر حكمة ». فهذان حديثان رواهما البخاري في موضعين من صحيحه.

فمن هنا يعلم تأثير الشعر والأدب في توجيه الناس.

والأدباء والشعراء بمكة من قريش معروفون، من عصر الجاهلية ومن عصر الإسلام، ولقد تأثروا كثيراً بدين الإسلام القويم، لأن الدين الإسلامي جامع لمكارم الأخلاق، فشعراؤنا وأدباؤنا معروفون في كل عصر وزمان، لأن البلاغة والبيان والشعر والأدب من طبائع العرب، ولقد ذكرت دواوينهم وأسماؤهم في بطون الكتب والأسفار، وفي كتاب سلافة العصر طائفة من أقوالهم وأشعارهم، وقد ألف بعض المعاصرين لنا شيئاً في تراجم بعض الموجودين اليوم. لكن نحن هنا، لسنا في صدد سرد أسمائهم وأقوالهم، وإنما نحب أن نذكر ما يأتي في بالنا من أسمائهم، من المعاصرين لنا من أهل مكة ومن استوطنها من المدينة المنورة أو من جدة فقط، دون التعرض لذكر غيرهم من الفضلاء، لأن هذا التاريخ خاص بتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة ثاني الحرمين ومدينة جدة باب الحرمين.

فإليك جدولاً فيه أسماء من يأتي في بالنا من الأدباء والشعراء والخطباء، من أهل مكة المشرفة، بدون مراعاة للترتيب في الوظائف وكبر السن:

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
١	الشيخ أحمد بن أمين بيت المال	كان من الأدباء والشعراء، ولا ندري متى توفي، ونظن أنه توفي بعد سنة (١٣٠٠) هجرية وهو من مكة المكرمة.

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
٢	الشيخ محمد سرور الصبان	بدأ حياته الأدبية كاتباً وشاعراً ، وله كتاب اسمه (أدب الحجاز) جمع فيه بعض المواد الأدبية لمعاصريه ، وهو أحد وزراء المالية السابقين ، وله خدمات جليلة ، وهو من جدة .
٣	الأستاذ محمد عمر عرب	كان أديباً نشيطاً ، منذ أن كان تلميذاً بمدرسة الفلاح بمكة في عهدنا وقد توفي في سنة (١٣٧٥) هجرية تقريباً رحمه الله تعالى وهو من مكة المكرمة .
٤	الأستاذ فؤاد شاكر	إنه أديب كبير وشاعر بليغ وخطيب رائع ، اشتغل بالأدب منذ شبابه ، وكان يصدر بالقاهرة مجلته المسماة (مجلة الحرم) وذلك منذ سنة (١٣٤٥) هجرية تقريباً ، وهو من مكة المكرمة .
٥	الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي	إنه شاعر كبير وأديب شهير وخطيب بليغ ، ويلقب عندنا بشاعر الملك وهو من مكة.
٦	السيد عبدالحميد الخطيب	أديب وعالم ومؤلف كبير . ألف كتباً كثيرة ، وضع تفسيراً قيماً للقرآن العظيم في أخريات حياته . مات سنة (١٣٧٩) هجرية تقريباً ، وهو من مكة.
٧	الأستاذ محمد سعيد العامودي	أديب كبير وكاتب شهير ، وله ذوق كبير في الشعر ، وله قصائد شعرية ، وفي النادر يقوم خطيباً في المجتمعات ، وهو من مكة ، وله مؤلفات عديدة .
٨	السيد محمد أحمد شطا	إنه عالم فاضل وأديب نابغ ، وهو من أهل الفطنة والذكاء . إنه إذا كتب في موضوع يسرك أن تقرأ ما كتب وإذا خطب استمعت إليه بكليتك ، وهو مع هذا لا يقول الشعر وهو من مكة.
٩	الأستاذ حامد كعكي	عالم فاضل وكاتب بارع ، توفي رحمه الله سنة (١٣٧٦هـ) تقريباً . وهو من مكة.

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
١٠	الأستاذ محمد البياري	أديب مارس الكتابة في صدر شبابه ، وهو من مكة .
١١	السيد حسن كتبي	أديب كبير ، له أسلوب بارع متميز ، وله عناية بالدراسات الإسلامية ، وهو من مكة .
١٢	الأستاذ حسين سرحان	أديب شهير وشاعر كبير ، وهو من مكة ، وله مؤلفات لم نطلع عليها .
١٣	الأستاذ أحمد السباعي	أديب كبير وكاتب اجتماعي شهير ، وهو قلّما يقول الشعر ، وقلّما يخطب في المجتمعات ، وهو صريح في آرائه ، يتكلم بحرية ، وكان يصدر مجلة قريش يطبعها بمطبعته ، وله مؤلفات كثيرة منها : (تاريخ مكة) .
١٤	الأستاذ عبدالله عريف	أديب شهير وكاتب كبير ، كان يتولى إصدار جريدة البلاد السعودية ، ثم اشتغل الآن بإدارة أمانة العاصمة .
١٥	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي	إنه أديب ممتاز وكاتب كبير ثقة ، إذا كتب يكتب بحساب وأمانة ، إنه زينة الأدباء والكتاب وهو من مكة ، وله بعض المؤلفات .
١٦	الأستاذ حسين عرب	إنه شاعر كاتب كبير وأديب شهير ، وله بعض المؤلفات ، وهو من مكة .
١٧	الأستاذ أحمد محمد جمال	كاتب معروف وأديب كبير ، يغار على الدين الإسلامي ، ويناضل عن الشريعة الغراء ، وله مواقف شريفة في بعض الأمور وآراء قيمة في بعض المسائل . إنه أديب ممتاز يقرّبه الجميع ، كما له بعض مؤلفات نافعة ، وهو من مكة المكرمة .
١٨	الأستاذ صالح محمد جمال	إنه شقيق الأستاذ أحمد محمد جمال المتقدم ذكره ، وهو أيضاً أديب كبير وكاتب شهير ، وله مواقف مشرفة حاسمة . كان يصدر جريدة الندوة بمكة ، وله مؤلفات قيمة وآراء صائبة ، وهو من مكة.

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
١٩	الأستاذ محمد فدا	إنه أديب فاضل ، يتذوق الشعر ويقوله ، وإذا خطب في المجتمعات يخطب بقوة وانطلاق . إنه قائم بإدارة مدرسة الثغر النموذجية بجدة ، وله في تربية النشء طريقة ممتازة ، وهو من مكة .
٢٠	الأستاذ عبدالله عبدالجبار	أديب معروف ، إذا كتب تغريك كتابته ، وإذا خطب في المجتمعات كانت خطبته مؤثرة ، وهو يتذوق الشعر ويقوله وهو من مكة .
٢١	الأستاذ إبراهيم جدع	أديب وشاعر معروف له بعض المؤلفات ، وهو من جدة .
٢٢	الأستاذ محمد سعيد باعشن	أديب وكاتب معروف يتوقد ذكاءً وقد اشتغل في بعض الصحف ، وهو من جدة.
٢٣	الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود	إنه كاتب معروف ، وله نشاط كبير في فن الأدب ، توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٦٤هـ) تقريباً . وهو ممن ألف كتاب (وحي الصحراء) المطبوع منذ سنوات ، وهو من مكة .
٢٤	السيد عبدالله شطا	أديب فاضل ، وخطيب منشئ بارع ، وهو من مكة .
٢٥	السيد علوي شطا	إنه من حفظة القرآن ، وأديب وكاتب ، قلّما يخطب في المجتمعات ، وهو من مكة .
٢٦	الأستاذ أحمد علي	عميد كلية الشريعة ، وهو كاتب إسلامي وله مباحث أدبية وجغرافية وكثيراً ما يكتب عن الرحلات المفيدة ، وهو من مكة .
٢٧	الأستاذ إبراهيم فطاني	عالم فاضل ، وأدديب شاعر معروف ، وهو من مكة .
٢٨	الأستاذ حسين فطاني	أديب شاعر ، قوي الأسلوب ، وهو من مكة .
٢٩	الأستاذ سراج خراز	أدديب كبير وشاعر متمكن ، قوي البيان ، وهو من مكة .
٣٠	الأستاذ ياسين طه	كاتب معروف ، وله مشاركة في كتابة القصة

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
		القصيرة ، وهو من مكة .
٣١	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار	كاتب وأديب معروف ، يصدر جريدة عكاظ بجدة ، له في بعض المسائل آراء صريحة وأفكار طليقة .
٣٢	الأستاذ علي حسن فدعق	إنه كاتب معروف وأديب كبير ، يتذوق الشعر ، ويقوله .
٣٣	الأستاذ عبدالله بغدادي	أديب قوي البيان ، وله كتاب مطبوع اسمه (المسامرات الأدبية) ، وهو من مكة.
٣٤	الأستاذ محسن باروم	كاتب واسع الثقافة ، متمكن من مادته ، وأديب شهير ، وهو من مكة .
٣٥	الأستاذ عبدالقادر عثمان	أديب معروف وخطيب في المجتمعات ، وهو من مكة .
٣٦	الأستاذ عبدالوهاب آشي	أديب كبير وشاعر شهير ، وهو معروف بذلك منذ نشأته ، وهو من مكة .
٣٧	الأستاذ عبدالله بلخير	إنه أديب وشاعر كبير ، وهو ممن ألف كتاب (وحي الصحراء) المطبوع منذ سنوات ، وهو من مكة .
٣٨	الأستاذ حسن عبدالله القرشي	شاعر غزير الشعر رقيقه ، له عدة دواوين ، بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع ، وهو من مكة .
٣٩	الأستاذ حامد دمنهوري	أديب متزن واسع المعرفة ، مارس كتابة القصة الطويلة ، وأصدر بعض رواياته ، وهو من مكة .
٤٠	السيد هاشم زواوي	أديب شهير ، مارس عمل الصحافة ردحاً من الزمن ، وهو من مكة .
٤١	الأستاذ عبدالغني قستي	أديب معروف وشاعر رقيق ، وهو الآن يمارس عمل الصحافة ، وهو من مكة .
٤٢	الأستاذ طاهر زمخشري	إنه أديب معروف وكاتب شهير ، وله مقدرة تامة في فنون الشعر ، وله عدة دواوين ، وهو من

بعض الأوصاف والملحوظات	الاسم	عدد
مكة .		
أديب كبير وكاتب شهير ، يتذوق الشعر ويعرفه ، ولولا أنه اشتغل بطب الأسنان لما سكت صوته وما وقف قلمه ، وهو من مكة .	الدكتور عصام خوقير	٤٣
كاتب وأديب ، له بعض المؤلفات ، وهو من جدة .	الأستاذ محمد علي مغربي	٤٤
كاتب وأديب له كتاب (دليل المؤلفات السعودية) وهو من مكة .	الأستاذ مصطفى عطار	٤٥
كاتب قدير وأديب شهير وخطيب مصقع يتذوق الشعر ولا يقوله ، ولولا أنه وزير للبترول لكانت له مؤلفات عديدة ، وهو من مكة .	الأستاذ أحمد زكي يماني	٤٦
أديب ذواقة ، وهو خريج كلية الشريعة بالقاهرة ، عني بنشر أدب البعثات العلمية ، وهو صاحب كتاب (من وحي البعثات) ولولا اشتغاله بالوظائف لكان له إنتاج أدبي كثير ، وهو من مكة المكرمة .	الأستاذ صالح جمال حريري	٤٧
أديب كبير سيال القلم ، غزير العلم والمعرفة ، وله عناية بالأدب والتاريخ . وهو من المدينة المنورة .	الأستاذ محمد حسين زيدان	٤٨
شاعر رقيق وأديب معروف ، وكاتب واسع الاطلاع ، وهو من مكة .	الأستاذ إبراهيم أمين فودة	٤٩
كاتب وأديب وشاعر كبير مبدع ، وهو من مكة .	الأستاذ محمد حسن فقي	٥٠
أديب معروف وكاتب شهير ، وله أكثر من مؤلف ، وهو من مكة .	الأستاذ عبدالسلام الساسي	٥١
كاتب وأديب معروف ، له عناية ببعض الأبحاث .	الأستاذ عبدالله أبو العينين	٥٢
كاتب اجتماعي وشاعر رقيق الشعر ، وهو من مكة .	الأستاذ محمد عبدالقادر فقيه	٥٣

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
٥٤	الأستاذ أحمد عبدالجبار	شاعر رقيق عذب الشعر ، وكاتب مبدع ، له ديوان غير مطبوع ، اسمه (واحة العبير) ، وهو من مكة .
٥٥	الأستاذ حسين سراج	أديب معروف وكاتب قدير ، وهو من مكة .
٥٦	الشيخ عبدالجليل برادة المدني	عالم فاضل وأديب معروف ، يتذوق الشعر ويقوله ، توفي رحمه الله تعالى سنة (١٣٢٥هـ) وهو من المدينة المنورة .
٥٧	الشيخ علي بن عبدالله الطيب المدني .	عالم فاضل وشاعر أديب ، له أبيات رقيقة لطيفة ، وهو من المدينة المنورة .
٥٨	الأستاذ محمد عمر توفيق	أديب معروف وكاتب شهير ، رشيق العبارة ، سلس الألفاظ ، له أبحاث قيمة في مواضيع شتى ، يتذوق الشعر ويقوله ، وله بعض المؤلفات ولولا أنه وزير للمواصلات ووزير الحج والأوقاف بالنيابة لبرز في عالم الأدب أكثر ، وهو من المدينة المنورة .
٥٩	الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري	أديب وكاتب معروف ، ويعنى بالآثار الإسلامية وبآثار المدينة المنورة وتاريخها ، وله مؤلفات عديدة . وهو أول من أصدر في المدينة المنورة مجلة (المنهل) الشهيرة ، وهو من المدينة المنورة .
٦٠	الأستاذ ضياء الدين رجب	عالم فاضل وكاتب أديب وشاعر غزير المادة ، وهو من المدينة المنورة .
٦١	السيد أحمد العربي	أديب وشاعر وخطيب واسع الثقافة والاطلاع ، وهو من المدينة المنورة .
٦٢	الأستاذ علي حسن غسال	كاتب وأديب معروف ، وله بعض المؤلفات ، وهو من مكة .
٦٣	السيد علي حافظ	
٦٤	السيد عثمان حافظ	هما شقيقان من المدينة المنورة ، وهما أديبان معروفان ، لهما في عالم الصحافة والأدب نشاط

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
		كبير وهما يصدران جريدة المدينة المنورة . وقد أسسا مدرسة الصحراء بين المدينة وبدر ، ولهما أبحاث قيمة في مختلف النواحي .
٦٥	الأستاذ عبدالعزيز الربيع	كاتب وأديب معروف ، وهو من المدينة المنورة .
٦٦	الأستاذ محمد حسن عواد	أديب وكاتب قدير واسع الاطلاع والثقافة ، يتوقد ذكاء وفطنة ، وعشق الأدب منذ نشأته ، وله بعض المؤلفات ، وهو من جدة .
٦٧	الأستاذ أحمد قنديل	أديب وكاتب معروف وشاعر غزير المعنى ، له بعض المؤلفات من الدواوين وغيره ، وهو من جدة .
٦٨	الأستاذ حمزة شحاته	أديب وكاتب معروف يتذوق الشعر ويقوله ، له بعض المؤلفات من الدواوين وغيرها لم تطبع بعد ، وهو من جدة .
٦٩	الأستاذ محمود عارف	أديب وكاتب معروف ، يتذوق الشعر ويقوله ، له ديوان مطبوع ، وهو يعمل بجريدة عكاظ ، وهو من جدة .
٧٠	الأستاذ عبدالوهاب نشار	عالم فاضل وأديب شاعر ، اشتغل بالتدريس ردحاً من الزمن ، ثم تركه واشتغل الآن بالتجارة ، وهو من جدة.
٧١	الأستاذ عبد المجيد شبكشي	كاتب وأديب معروف ، عشق الكتابة منذ أول شبابه ، وهو اليوم يشتغل في الصحافة والأدب ، وهو من أهل جدة .
٧٢	الدكتور حسن نصيف	علاوة على أنه طبيب شهير ماهر إنه أديب كبير وشاعر . وأكثر شعره من الزجل ، إنه كثير النشاط خفيف الروح ، وله بعض المؤلفات ، وهو من جدة .
٧٣	الشيخ عبدالحق نقشبندي	هو من المدينة المنورة . أديب وكاتب شهير .

عدد	الاسم	بعض الأوصاف والملحوظات
٧٤	السيد أحمد ياسين الخياري	هو من المدينة المنورة . عالم فاضل وأديب معروف .
٧٥	السيد هاشم رشيد	هو من المدينة المنورة . وكاتب معروف .
٧٦	الأستاذ حسن الصيرفي	هو من المدينة المنورة . كاتب معروف .
٧٧	الشيخ محمد عمر برّي	هو من المدينة المنورة رحمه الله تعالى ، أديب معروف .
٧٨	الشيخ محمد العمري	هو من المدينة المنورة . وكاتب معروف.
٧٩	الشيخ محمد عبيدالله المدني	هو من المدينة المنورة . كاتب معروف رحمه الله تعالى .
٨٠	الأستاذ محمد سعيد الدفتردار	هو من المدينة المنورة . عالم فاضل وأديب معروف .
٨١	الأستاذ هاشم الدفتردار	هو من المدينة المنورة . أديب معروف.
٨٢	الأستاذ ضياء الدين رجب، زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً.	إنه عالم فاضل وأديب وكاتب ماهر ، رأينا له مقالات كثيرة في الصحف ولا ندري هل له مؤلفات أم لا . وهو من المدينة المنورة .
٨٣	السيد عبيد مدني	إنه أديب وكاتب شهير اشتغل في بعض الصحف مدة ، وكان يكتب فيها المقالات القيمة وهو من المدينة المنورة .

هذا ما تذكرناه من أدباء مكة المشرفة ، سواء من كان من مواليدها أو ممن نشأ بها أو استوطنها من المدينة المنورة أو من جدة ، وضعناهم هنا بدون ترتيب ، فنرجو المعذرة ممن غاب عنا أسماؤهم ، وقد وضعنا أمام كل اسم جملة صغيرة للتنويه عنه ، ولم نذكر شيئاً عن تراجمهم ولا عن مؤلفاتهم ، فإن ذلك يطول شرحه ويحتاج إلى مؤلف خاص ، مع العلم بأن هناك كثيراً من الأدباء البارزين ، في جميع بلدان مملكتنا لم نذكر أسماءهم هنا ، لأن هذا الكتاب خاص بتاريخ مكة المشرفة وأهلها ، لا يتناول غيرها ولا غير أهلها ، فمعذرة إلى الجميع . على أن بعض أدبائنا قد طبعوا بعض الرسائل في عصرنا الحاضر عن الأدب والأدباء جزاهم الله خير الجزاء عن خدمة بلادهم ، وذلك ككتاب « وحي الصحراء » وكتاب « أدب الحجاز » وكتاب « نفثات بأقلام الشباب » وغيرها .

ونعتقد لو تفرغ أدباؤنا لخدمة الشعر والأدب والكتابة لكانت إنتاجاتهم عظيمة ، لكنهم اشتغلوا بمطالب الحياة في الوظائف والأعمال .

وكثير ممن ذكرناهم هنا ، هم من زملائنا منذ الصغر في عهد الدراسة بمدرسة الفلاح بمكة المشرفة ، وبعضهم من زملائنا في عهد الأستذة بمدرسة الفلاح بجدة ، وبعضهم لهم صحبة وصداقة معنا .

هذا وإننا نعتقد أن صناعة الأدب والشعر في وقتنا الحاضر ستبلغ منتهى الجودة والكمال ، لأن منابع العلم ومعاهده عندنا كثيرة ، وجميع الشبان عندنا طموحون نشيطون في جميع الميادين . كما أننا نعتقد أن هناك كثيراً من الأدباء الفضلاء لا يرغبون في الكتابة في الصحف والمجلات حياءً وضعفاً منهم ، فهم يتوهمون أنهم إذا نشروا مقالاً أو بحثاً من الأبحاث يكونون هدفاً للاعتراضات والنقد ، وهذه النظرية منهم غير مقبولة ولا ممدوحة ، لأنهم يطمرون أنفسهم بأنفسهم ، فالفارس لا يكون فارساً إلا بعد أن يقع ويسقط مراراً ، فالشباب يجب عليه أن يقدم على العلم والأدب وعلى الأمور المحمودة بشجاعة وقوة جنان ، وقديماً قال الشاعر :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

وإننا نوصي إخواننا الأدباء الفضلاء أن يرفقوا بالناهضين بالأدب من المتجددين ، وأن يغمضوا أعينهم عن بعض الأخطاء ، ولا يرشقوهم بالنقد اللاذع حتى تقوى أقلام الشبان المستجدين في فن الأدب ، وحتى تنمو فيهم روح النهوض والإقدام والشجاعة ، وبذلك تتقوى فيهم ملكة الشعر والأدب ، وروح الإقدام والشجاعة فيروج سوق الأدب والكتاب والشعر ، والله الموفق للصواب .

نسأل الله تعالى لنا ولهم العفو والعافية والنعم الوافية والسعادة التامة في الدارين بفضله ورحمته آمين .

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
١	الأستاذ أحمد السباعي	١) تاريخ مكة، وهو كتاب قيم جداً . ٢) فلسفة الجن . ٣) مطوفون وحجاج . وله كثير من المؤلفات قد ذكرناها في أول

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		كتابنا هذا عند ترجمته . فراجعها إن شئت .
٢	الأستاذ فؤاد شاكر	١) رحلة الربيع .
		٢) وحي الفؤاد .
٣	الأستاذ محمد سرور الصبان	١) آراء في اللغة .
		٢) المعرض .
		٣) أدب الحجاز .
٤	الأستاذ أحمد علي أسد الله	١) آل سعود.
٥	الأستاذ عبدالله جفري	١) حياة جائعة .
		٢) كيف نعيش .
٦	الأستاذ عبدالله عريف	١) رجل وعمل .
٧	الأستاذ عبدالله منّاع	١) لمسات .
		٢) سأذهب .
٨	الأستاذ محمد مليباري	١) مع الخط .
٩	الأستاذ صالح محمد جمال	١) دليل الحاج على المذاهب الأربعة .
		٢) أخبار مدينة الرسول ﷺ .
		٣) من أجل بلدي .
١٠	الأستاذ أحمد محمد جمال	١) ما وراء الآيات .
		٢) دين ودولة .
		٣) مع المفسرين والكتاب .
		٤) مبادئ ومثل .
		٥) مكانك تحمدي .
		٦) سلسلة على مائدة القرآن ، ٤ أجزاء .
		٧) إستعمار وكفاح .
		٨) الطلائع ، ديوان شعر .
		٩) ماذا في الحجاز ، تراجم أدبية .
		١٠) سعد قال لي ، مجموعة قصص .
		١١) نحو سياسة عربية صريحة .
		١٢) الإسلام أولاً .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		١٣) رفقاً بالقوارير . ١٤) تاريخ البلد الحرام، له وللأستاذ عبدالعزيز الرفاعي .
١١	الأستاذ حسن عبدالله القرشي	١) فارس بني عبس . ٢) شوك وورد . ٣) البسمات الملونة . ٤) مواكب الذكريات . ٥) الأمس الضائع . ٦) انتحار الألحان . ٧) سوزان . ٨) نداء الدماء . ٩) أنا الساقية . ١٠) ثنيات الوداع . ١١) خطوات في الشعر والنقد . ١٢) شوقي عبقرية خالدة . ١٣) شخصيات أدبية .
١٢	السيد حسن كتبي	١) الأدب الفني . ٢) رجال في حياة . ٣) قصة حياتي . ٤) المدرسة الفاضلة . ٥) السياسة علم وفن وأدب .
١٣	الأستاذ حسين فطاني	١) بور سعيد الباسلة .
١٤	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي	١) تاريخ البلد الحرام ، له وللأستاذ أحمد محمد جمال. وله مؤلفات أخرى في الأدب والإجتماع والتاريخ غير مطبوعة .
١٥	الأستاذ حسين سرحان	١) ديوان السرحان .
١٦	الأستاذ حسين عرب	١) ديوان العرب .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
١٧	الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي	١) ديوان الغزاوي .
١٨	الأستاذ حمزة شحاته	١) الرجولة عماد الخلق الفاضل .
١٩	الأستاذ عبدالسلام الساسي	١) نظرات جديدة في الأدب المقارن . ٢) في ظلال الصراحة . ٣) نفثات من أقلام الشباب الحجازي ، له وللسيد هاشم زواوي ، وللأستاذ علي فدعق . ٤) شعراء الحجاز . ٥) الشعراء الثلاثة في الحجاز . ٦) مهدي المصلح . ٧) الحجاز في عصر النور . ٨) رسائل في الأدب العصري .
٢٠	الأستاذ علي فدعق	١) أيام في الشرق الأقصى .
٢١	الأستاذ عبدالله عبدالجبار	١) التيارات الحديثة . ٢) قصة الأدب في الحجاز ، له وللأستاذ عبدالمنعم خفاجة . ٣) أمي . ٤) الشياطين الخرس. ٥) العم سحتوت . ٦) الأسكوبي شاعر المدينة
٢٢	الأستاذ إبراهيم علاف	١) البعث . ٢) أشواق وآهات .
٢٣	الأستاذ محمود عارف	١) المزامير.
٢٤	الأستاذ علي حسن غسال	١) الفجر الجديد . ٢) زهر وشوك . ٣) عبيد الأسى . ٤) الزحف المقدس .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٢٥	الأستاذ محمد علي مغربي	١) البعث . ٢) الذكريات . ٣) مكة . ٤) الحديث المعاد . ٥) أقاصيص .
٢٦	الأستاذ حامد دمنهوري	١) ثمن التضحية . ٢) ومرت الأيام .
٢٧	الأستاذ محمد سعيد العامودي	١) من تاريخنا . ٢) خاطرات . ٣) مقالات وكلمات . ٤) شعراء حجازيون . ٥) كتاب أعلام المكيين ، وهو قاموس عظيم لتراجم أعلام مكة من الأمراء والعلماء والأدباء ، وهو يبدأ من عصر الرسول ، عليه صلوات الله وسلامه ، حتى هذا القرن الرابع عشر الهجري .
٢٨	الأستاذ عبدالكريم الخطيب	١) من زوايا التاريخ . ٢) من أعلام الإسلام .
٢٩	الأستاذ محمد عمر توفيق	١) طه حسين والشيخان . ٢) ستة وأربعون يوماً في المستشفى .
٣٠	الأستاذ أحمد طاشكندي	١) أرامكو وامتياز الزيت .
٣١	الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود	١) من وحي الصحراء ، له وللأستاذ عبدالله بلخير .
٣٢	الأستاذ طاهر زمخشري	١) أحلام الربيع . ٢) أنفاس الربيع . ٣) المهرجان . ٤) أصداء الرابية . ٥) همسات .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		٦) أغاريد الصحراء. ٧) ألحان مغترب . ٨) على ضفاف النيل .
٣٣	الأستاذ عبد الغني قستي	١) أحزان قلب .
٣٤	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار	١) الإسلام طريقنا للحياة . ٢) الشيوعية والإسلام . ٣) الصحاح ومدارس المعجمات العربية . ٤) لبس في كلام العرب ، من تحقيقاته . ٥) الفصحى والعامية . ٦) وفاء العربية بحاجة العصر الحديث . ٧) صقر الجزيرة . ٨) محمد بن عبد الوهاب . ٩) الخرْج والشرائع . ١٠) كتابي . ١١) البيان . ١٢) المقالات . ١٣) كلام في الأدب . ١٤) قطرة من يراع . ١٥) المكتبات . ١٦) الهوى والشباب .
٣٥	الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً	هو صاحب مجلة المنهل . هو من المدينة المنورة ، وله من المؤلفات المطبوعة ما يأتي: ١) التوأمان ، رواية إجتماعية إسلامية . ٢) اصطلاحات في لغة الكتابة والأدب . ٣) آثار المدينة المنورة . ٤) السيد أحمد فيض أبادي . ٥) تحقيق أمكنة مجهولة من الحجاز وتهامة. ٦) المنهل الفضي .

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
٧) تاريخ مدينة جدة . ٨) التحقيق المدعم عن مسجد الراية وبئر جبير بن مطعم بمكة . وهذا الكتاب الأخير مخطوط غير مطبوع.		
هو من جدة وله من المؤلفات ما يأتي: ١) وحي الشاطئ ، وهو ديوان شعر وهو مطبوع. ٢) الإلياذة الإسلامية الجديدة ، وهو ديوان شعر وهو مطبوع . ٣) نبع الصفا ، وهو ديوان شعر وهو غير مطبوع. ٤) كتاب دراسات أدبية (أدب البهاء زهير) وهو غير مطبوع . ٥) كتاب أثر الفتوحات الإسلامية .	الأستاذ محمد إبراهيم جدع	٣٦
هو من جدة وله من المؤلفات مايأتي : ١) كتاب كما رأيتها، وهو تسجيل رحلته إلى مصر وهو كتاب مطبوع . ٢) أصداء ، وهو ديوان شعر وهو كتاب مطبوع. ٣) أغاريد ، وهو ديوان شعر وهو كتاب مطبوع. ٤) الأبراج ، وهو ديوان شعر وهو كتاب مطبوع. ٥) المركاز ، وهو كتاب في جزئين أشعار فكاهية ، وهو كتاب مطبوع . ٦) الزوايا ، وهي أبحاث إجتماعية ، غير مطبوع. ٧) مع التيار ، وهو معالجة الأدب وقضاياه في	الأستاذ أحمد قنديل	٣٧

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		بلادنا ، غير مطبوع. ٨) اللوحات ، وهي ديوان شعر ، غير مطبوع. ٩) ديوان آخر لم يوضع له اسم ، غير مطبوع. ١٠) قالوا وقلت ، وهو رباعيات شعرية ، غير مطبوع.
٣٨	الأستاذ محمد حسن عواد زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً	ولد بمكة ، ونشأ وتعلم بجدة . وله من المؤلفات المطبوعة ماياتي : ١) خواطر مصرحة ، وهي مقالات وطوبيات وأفكار حرة ثائرة ، ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية . ٢) آماس وأطلاس ، ديوان شعر من سن (١١) إلى (١٥) سنة . ٣) البراعم أو بقايا الأماس ، ديوان شعر الصبا من سن (١٦) إلى سن (٢٠) سنة . ٤) تأملات في الأدب والحياة ، وهو أبحاث ومقالات في الأدب والنقد والاجتماع . ٥) من وحي الحياة العامة ، وهو مقالات قصار وشذرات. ٦) نحو كيان جديد . وهو ديوان شعر الشباب من سن (٢٠) إلى سن (٣٠) سنة . ٧) في الأفق الملتهب ، وهو ديوان شعر من سن (٣٠) إلى سن (٤٠) سنة . ٨) رؤى أبولون ، ديوان شعر حر من سن (٣٠) إلى سن (٤٠) سنة . ٩) محرر الرقيق ، ترجمة وتحليل لشخصية سليمان بن عبدالملك الأموي ، ومقارنة بينه

اسم الكتاب الذي ألفه	اسم المؤلف	عدد
وبين إبرهام لنكولن في قضية التحرير ، ترجم إلى الإنجليزية . ١٠) الساحر العظيم ، أو يد الفن تحطم الأصنام ، ملحمة شعرية ناقدة ساخرة . أما مؤلفاته غير المطبوعة فهي كما يأتي: ١) طريق الخلود ، قصة إجتماعية طويلة . ٢) تلخيص إلياذة هوميروس . ٣) المحتقب ، معجم صغير لغوي على طريقه مبتكرة . ٤) الأوكاس ، قصائد هجاء هدامة كاشفة لكثير من مخازي أدعياء الأدب المكابرين . ٥) معركة العناصر ، مجموعة قصائد شعرية تناولت بالنقد الفني إنتاج جماعة معينة من الأدباء المحليين الإتباعيين . ٦) ديوان شعر لم يسمّ بعد ويتضمن شعر ما بعد الأربعين . ٧) المنجع الفسيح ، نظرية إجتماعية مبسطة عن الوطن العربي . ٨) الأدب الإنكليزي ، ملخصات عن الأمهات ، وعن التوريد في الأدب الإنكليزي. ٩) رحلة إلى نجد . ١٠) رحلة إلى القنفذة . ١١) أفكار ذاتية جديدة ، مقالات وآراء وأبحاث ومنافسات نشر أكثرها في صحف مختلفة . ١٢) في رحاب الخلود ، خواطر حول العقاد ومذهبه وإنتاجه بمناسبة وفاته .		

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٣٩	السيد هاشم الزواوي زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً	هو من مكة المكرمة ، أديب فاضل وكاتب لبق ، اشتغل بجريدة أم القرى ثم أسندت إليه إدارة مجلة الحج ، ثم أسندت إليه بعض الوظائف .

هذا ما أمكن لنا جمعه من المؤلفات الحجازية ، وأصحابها من العلماء العظام والأدباء الكرام ، وفقهم الله تعالى لخدمة العباد والبلاد ، فبعض هذه المؤلفات مطبوعة وبعضها غير مطبوع ، فنرجوا المعذرة ممن غاب عنا أسماؤهم ، كما نرجوا المعذرة من علماء وأدباء مملكتنا السعودية ، من غير منطقة مكة المكرمة ، فإن ذكرهم يحتاج إلى وقت غير قليل وإلى فراغ البال والفكر ، كما يحتاج إلى إقرار مؤلف خاص وإلى طبعه ، فنحن نوكل هذه إلى أدبائنا الكرام ، وفق الله تعالى جميع العاملين لخدمة دينهم وأوطانهم آمين.

خاتمة ما تقدم

هذا ما تذكرناه من أسماء علمائنا وأدبائنا الذين هم من أهل قرننا ونرجو المعذرة ممن نسينا وضع اسمه وذكره . والعذر عند كرام الناس مقبول.

ولنختم هذين المبحثين بما يأتي:

إن العلم بلا عمل والعلم بلا عقل خسران مبين وإن الأديب بلا أدب والشاعر بلا شعور وذوق، غرور ووبال، إنه يجب على العالم أن يتحلى بعلمه وعلى الأديب أن يتزين بأدبه وعلى الشاعر أن يكون ذا شعور وإحساس لينتفع الناس بعلمهم وأقوالهم. وهناك طائفة دخلاء عليهم ليسوا من أهل العلم ولا من أهل الأدب ولا من الشعراء ومع ذلك يدّعون أنهم منهم. وما أحلى قول بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى في هذا المعنى :

إننا في زمان لو أن فيه ... أعلمَ الناس لم يكد يتكلّمْ

قد قضى العمر وهو غرٌّ جهول ... ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

وقال بعض مشايخنا من العلماء الأعلام رحمهم الله تعالى يقسّم أنواع الشعراء:

الشعراء فاعلمنّ أربعةْ ... فشاعر يَجري ولا يُجرى معهْ

وشاعر يخوض وسْط المعمعهْ وشاعر لا تشتهي أن تسمعهْ

وشاعر لا تستحي أن تصفعهْ

ونحن نقول أيضاً على وزن هذه الأبيات من الأدباء ما يأتي:

الأدباء فاعلمنّ أربعهْ فكاتب يَجري ولا يُجرى معهْ

وكاتب يخوض وسْط المعمعهْ وكاتب لا تشتهي أن تسمعهْ

وكاتب لا تستحي أن تصفعهْ

ونقول مثلها أيضاً في العلماء ما يأتي:

العلماء فاعلمنّ أربعهْ فعالم يَجري ولا يُجرى معهْ

وعالم يخوض وسْط المعمعهْ وعالم لا تشتهي أن تسمعهْ

وعالم لا تستحي أن تصفعهْ

فالنوع الثالث الذي لا تشتهي أن تسمعه سببه ركاكة أقواله وضعفها، والنوع الرابع الذي لا تستحي أن تصفعه سببه جهله وزيفه وفساده وضلاله، نسأل الله تعالى أن يرزقنا علماً نافعاً وأدباً عالياً وقبولاً حسناً ورزقاً واسعاً آمين.

كتاتيب الصبيان في صدر الإسلام

لا يعقل أن لا يكون لأي أمة من الأمم مهما بلغت من الضعف والجهل والقلّة محلات خاصة للتعليم غير أن هذه المحلات تكثر وتقلّ بحسب استعدادهم الفطري لقابليّة التعليم.

وهذه المحلّات المختصة للتعليم كانت تسمى قديماً وإلى الآن «الكُتّاب» بضم الكاف وتشديد التاء نسبة إلى الكتابة، وبعبارة أخرى نسبة إلى موضع الكتابة ومثله في هذا المعنى «المَكْتَبْ» بفتح الميم وكسر التاء، وجمع الكُتّاب الكتاتيب وجمع المكتب المكاتب. وأما كلمة «المُكْتِب» بضم الميم وكسر التاء فهو الذي يعلّم الكتابة، والكُتّاب بضم الكاف أيضاً جمع كاتب ومثله الكَتَبة بفتحتين. أنظر مختار الصحاح.

وبمرور القرون وتطور الناس في المدنيّة أطلقوا على الكُتّاب إسم «المدرسة» نسبة إلى موضع الدرس أو التدريس فإذا كان الطلاب في مراحلهم العالية أطلقوا

على المدرسة إسم «الكلية أو المعهد» وهكذا تتغيّر الأسماء بحسب تطوّر المدنيّة وبرامج الدراسة في كل عصر وزمان.

وإليك الدليل على وجود الكتاتيب لتعليم الصبيان في صدر الإسلام، فقد ذكرنا في كتابنا «تاريخ الخط العربي وآدابه» المطبوع سنة (١٣٥٨) هجرية بمصر على نفقة مكتبة الهلال بشارع الفجّالة كثيراً من الأدلة على وجود التعليم في الكتاتيب في الجاهلية والإسلام نقتطف منه ما يأتي:

لقد ذكروا أن ورقة بن نوفل ابن عم أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنهما كان يكتب بالعبرانية فكان يكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، ولا بد أنه تعلّم في صغره الكتابة في الكتاتيب.

وذكروا أن رسول الله ﷺ دخل المدينة وكان فيها يهودي من يهود ماسكة يعلّم الصبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر رجلاً يعرفونها ، منهم زيد بن ثابت رضي الله عنه، وكان يكتب الكتابتين العربية والعبرانية وهو من جملة كتّاب النبي ﷺ فقد تعلّم هو وجماعة من غلمان الأنصار من أسارى غزوة بدر.

وكان الأوس والخزرج مشهورين في الكتابة وكذلك ثقيف. وذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب: أن رسول الله ﷺ أمر عبدالله بن سعيد بن العاص أن يعلّم الناس الكتابة بالمدينة وكان كاتباً محسناً. وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: علمت ناساً من أهل الصُفّة الكتابة والقرآن، والصُفّة دكّة في ظهر المسجد النبوي كان يأوي إليها المساكين وإليها ينسب أهل الصُفّة.

والذي يظهر لنا أن الكتابة والقراءة كانت منتشرة بالمدينة أكثر من مكة ، وقد اهتم المسلمون في المدينة بتعليم القراءة والكتابة ، ففي غزوة بدر لما أسر المسلمون جماعة من قريش وكانوا أكثر من سبعين رجلاً أراد هؤلاء فداء أنفسهم بالمال فقبلت الفدية من الأميين وجعلت فدية الكاتب منهم تعليم عشرة من صبيان المدينة.

قال في كتاب «التراتيب الإدارية» : أخرج ابن عساكر عن ابن ثعلبة قال: لقيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ادفعني إلى رجل حسن التعليم فدفعني إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم قال: دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك. أنظر فضائل أبي ثعلبة الخشني من «كنز العمال» «زقلت» اهـ. انتهى من الكتاب المذكور.

وجاء في الجزء الثاني من كتاب «التراتيب الإدارية» أيضاً ما نصه: باب في المكاتب لقراءة الصبيان في كتاب «الدّيات» من صحيح البخاري: أن أم سلمة بعثت إلى معلّم الكتّاب أن ابعث إليّ غلماناً، وترجم البخاري في الأدب المفرد: باب السلام على الصبيان فأسند إلى ابن عمر أنه كان يسلّم على الصبيان في المكتب.

وسئل الأستاذ الكبير الشيخ المختار الكتبي عن الأصل في ترك المعلّم للصبي قراءة الخميس والأربعاء والجمعة فأجاب بأن الصحابة كانوا قبل ولاية عمر إنما يقرئ الرجل ابنته وأخاه الصغير ويأخذ الكبير عن الكبير مفاهمة لسيلان أذهانهم فلما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم وكانوا يُسَرْمِدون القراءة في الأسبوع كله.

فلما فتح عمر الشام ورجع قافلاً للمدينة تلقّاه أهلها ومعهم الصبيان وكان اليوم الذي لاقوه فيه يوم الأربعاء فظلّوا معه عشيّة الأربعاء والخميس وصدر يوم الجمعة فجعل ذلك لصبيان المكاتب وأوجب لهم سنة للإستراحة ودعا على من عطّل هذه السنة ثم اقتدى به السلف في الاستراحات المشروعة إلى يومنا هذا وهي يوم النحر وثلاثة بعده، ويوم الاثنين سروراً بمولد المصطفى عليه السلام وثلاثة قبل المولد وثلاثة أيام بعده، ويوم المولد كانوا يسمونها التجميمات اهـ. انتهى من الكتاب المذكور.

وكانت العادة في كتاتيب التعليم أن الأطفال الذين يذهبون إلى الكتاتيب للتعليم كانوا يكتبون ويقرأون في ألواح خشبية طول كل لوح نحو ثلاثين سنتيمتراً في عرض عشرين سنتيمتراً تقريباً ويزخرفون رأس اللوحة على شكل مثلث، واللوحة تكون قطعة واحدة من الخشب ، فكان الأستاذ يكتب على لوح الطفل بضعة أحرف هجائية في سطر واحد فإذا حفظها الطفل غسل لوحه بالماء فيكتب له الأستاذ فيه حروفاً أخرى وهكذا الحال حتى يجيد الطفل القراءة والكتابة ، فإذا أجادهما أمره الأستاذ بكتابة بعض الآيات القرآنية من السور القصار ليحفظها ، فإذا حفظها أمره الأستاذ بكتابة آيات أخرى وهكذا حتى يتم الطفل حفظ جزء (عمّ يتساءلون) وبعد ذلك يبدأ الطفل بالقراءة في كتب المطالعة والعلوم ويبدأ يتعلّم

الخط والإملاء والحساب في الدفاتر والأوراق. وكانت جميع كتاباتهم بالحبر الأسود وأقلام القصب أي البوص.

وكان الأطفال بعد أن يغسلوا ألواحهم بالماء يمسحونها بشيء اسمه «المَضَر» بفتح أوله وثانيه، وهو مثل المضير في الشكل ونظنّه كان يأتي من الخارج فإذا مسحوها به ظهرت منه رغوة ثخينة كالصابون فيمسحون بهذه الرغوة وجه اللوحة فإذا جفّت بعد دقائق صارت بيضاء اللون صالحة للكتابة. هكذا كانت حالة الكتاتيب عندنا وفي جميع البلدان ثم تطور الأمر وبطلت الألواح الخشبية وصار الأطفال يتعلّمون في الدفاتر والأوراق بعد ظهورها وكثرتها.

خلاصة الكلام على التعليم بمكة المكرمة

ومما تقدم يتلخص الكلام على التعليم بمكة المشرفة في أنه مرّت عليه ثلاث حالات :

الأولى: من بعد سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية كان قليل من الناس يعرفون القراءة والكتابة.

والثانية: من بعد سنة (١٣٢٠) أي من بعد تأسيس المدرسة الصولتية ومدرسة الفلاح بمكة وجدة انتشر التعليم أكثر من قبل ولم يكن أحد يعرف اللغات الإفرنجية كالإنكليزية والفرنسية ونحوهما لكنهم كانوا يعرفون اللغة التركية لتدريسها في بعض المدارس كالمدرسة الرشدية بمكة.

والثالثة من بعد سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية إلى وقتنا الحاضر ، أي في العهد السعودي، فالتعليم انتشر في جميع البلاد والمملكة وكثرت المدارس كثرة فائقة وتطورت أمور التعليم تطوراً عجيباً في جميع مراحله وتقرر تدريس اللغات الإفرنجية في جميع المدارس رسمياً حكومية كانت أو أهلية ، فصار الناس يتكلمون الإنكليزية والفرنسية وغيرهما بطلاقة ومهارة ، يتكلمونها ويكتبونها ويقرؤونها.

فهذه ثلاث حالات مرّت على أمور التعليم بمكة المكرمة من بعد سنة (١٣٠٠) هجرية إلى وقتنا هذا. أما ما قبل هذا التاريخ فقد كان التعليم في مكة في المسجد الحرام وفي كتاتيب الصبيان وفي حالة غير منظمة كالتعليم في بقية البلاد

الإسلامية سابقاً ولاحقاً. فسبحان مقلّب الأمور ومغيّر الأحوال لا إله إلا هو الكبير المتعال.

عدد كتّاب رسول الله ﷺ

بمناسبة ذكرنا للكتاتيب التي كانت في العصر الأول من الإسلام نذكر هنا استطراداً عدد كتّاب النبي ﷺ.

فلقد اختلفوا في عدد كتّاب رسول الله ﷺ. قال في كتاب «التراتيب الإدارية»: وأوصلهم الشبراملسي في كتاب «القضاء» من حاشيته على المنهج في فقه الشافعية إلى أربعين، وأوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين فقال:

كتّابه اثنان وأربعونا ... زيد بن ثابتٍ وكان حينا
كاتبه وبعده معاويهْ ... ابن أبي سفيان كان واعيهْ
كذا أبو بكر كذا عليّ ... عمر عثمان كذا أبيّ
وابن سعيد خالد وحنظلهْ ... كذا شرحبيل بخط حسّنهْ
وعامر وثابت بن قيس ... كذا ابن أرقم بغير لبسِ
واقتصر المزّيّ مع عبد الغني ... منهم على ذا العدد المبيّنِ
وزدت من مفترقات السِير ... جمعاً كثيراً فاضبطنه واحصرِ
طلحة والزبير وابن الحضرمي ... وابن رواحة وجهماً فاضممِ
وابن الوليد خالداً وحاطبا ... هو ابن عمرو وكذا حويطبا
حذيفة بريدة أبانُ ... ابن سعيد وأبا سفيانُ
كذا ابنه يزيد بعض مسْلمهْ ... الفتح مع محمد بن مسْلمهْ
عمرو هو ابن العاص مع مغيرة ... كذا السجل مع أبي سلمة
كذا أبو أيوب الأنصاريُّ ... كذا معيقب هو الدوسيُّ
وابن أبي الأرقم فيهم أعدد ... كذاك ابن سلول المهتدي
كذا ابن زيدٍ اسمه عبدا لله ... والجدّ عبد ربه فلا اشتباه
واعدد جهيماً والعلا ابن عتبة ... كذا حصين ابن نمير أثبتِ
وذكروا ثلاثة قد كتبوا ... وارتدّ كل منهم وانقلبوا

ابن أبي سـرح مع ابن خطلٍ   وآخـر أُبهـمَ لم يسـمَّ لي
و لم يعد منهم إلى الدين سوى   ابن أبي سرح وباقيهم غوى

انتهى من الكتاب المذكور.

الخط العربي ومكانته

بمناسبة ما ذكرناه عن أمور التعليم في الحجاز يجب أن نأتي هنا بشيء عن الخط العربي ومكانته السامية في نفوس العالم الإسلامي وما له من الجمال والحسن مما يستحوذ على الألباب لأننا من المنتسبين إليه ومن أنصاره ودعاته.

فالخط العربي محفوظ ما دام القرآن الكريم محفوظاً، والقرآن محفوظ بأمر الله سبحانه وتعالى إلى قيام الساعة كما قال عز شأنه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولقد خدم الحروف العربية علماء المسلمين خدمة جليلة بحيث لا يتطرّق إليه أي خلل ولا يطرأ عليها أي تغيير، فعلماء القراءات الأجلاّء لم يكتفوا بقراءة القرآن بمجرد النظر إلى صور الحروف العربية فقط بل وضعوا لقراءتها قواعد تحفظ اللسان من الخطأ في نطق الحروف وألّفوا في ذلك كتباً قيمة تسمى «علم التجويد» بينوا فيها مخارج الحروف وألقابها وصفاتها وما يفخّم منها وما يرقّق وما يدغم منها وما يظهر...إلخ. و لم يكتفوا بهذا أيضاً بل اشترطوا في قراءة القرآن التلقي والأخذ عن أفواه المشايخ المحققين ليكون النطق بالأحرف صحيحاً كما أنزل.

وجاء علماء النحو فخدموا اللغة العربية خدمة لا تزحزحها عواصف الأجيال ولا مر السنين والعصور من حيث سلامة النطق بالكلمات صحيحة مستقيمة متمشّية على نطق العرب الفصحاء في الأزمان الغابرة حتي لا تشوبها لكنة الأعاجم ولا يطرأ عليها غلطات الألسنة على مرور الزمن وألّفوا في ذلك كتباً جليلة تسمى «علم النحو أو علم القواعد العربية» فمن درس هذه الكتب عصم من الوقوع في الخطأ.

فبعلم التجويد يحفظ اللسان من الخطأ في جوهر الحروف العربية وذات الكلمة من حيث مطلق النطق من مخارجها، وبعلم النحو والصرف يحفظ اللسان من الخطأ في صفات الحروف والكلمات من حيث الحركات الإعرابية في أواخرها والنطق بها صحيحة على حسب أصلها وأوزان مصادر الأفعال.

فهل نجد لأي أمة من الأمم أنه اجتمع لحفظ لغتها ما اجتمع للّغة العربية الكريمة التي هي أفضل الأمم وأشرفها على الإطلاق؟

ثم جاء بعد هؤلاء العلماء الأجلاّء علماء الخط والفنون الجميلة فبذلوا جهوداً جبارة في قرون عديدة حتى جعلوا للحروف العربية حسناً وجمالاً يعجز القلم عن التعبير عنه وألبسوها من ثياب الوَشْيِ والزخرفة ما يستهوي الأفئدة ويخطف الأبصار.

وللدين الإسلامي الحنيف أعظم الفضل في نشر الخط العربي في الأقطار، وظهور الخط العربي كان من الحجاز بعد أن وصل إليه من الحيرة والأنبار، وهما من مدن العراق وصل إليهما من اليمن بواسطة كندة والنبط. ووصول الخط إلى الحجاز كان بواسطة عبدا لله بن جدعان وبشر بن عبد الملك كما بيّنا ذلك مفصّلاً في كتابنا «تاريخ الخط العربي وآدابه».

واختلفوا في أول من أدخل الكتابة إلى الحجاز فقيل حرب بن أمية القرشي جدّ معاوية بن أبي سفيان رضي ا لله تعالى عنه وقيل سفيان بن أمية وقيل أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة وقيل غير ذلك.

والاختلاف صوري لا يضر فقد يكون أحدهم أدخلها في بلدة من بلدان الحجاز بينما يكون الآخر أدخلها في بلدة أخرى، وعلى هذا يمكن تعدد الأولية ونسبتها إلى كل منهم.

أما دخول الكتابة إلى مكة المكرمة فقد أجمع المؤرخون على أن أول من حمل الكتابة إليها حرب بن أمية ابن عبد شمس وكان قد تعلمها في أسفاره من عدة أشخاص منهم بشر بن عبدالملك.

وأما دخولها إلى المدينة المنورة فقد ذكروا أن رسول ا لله ﷺ دخلها وكان فيها يهودي من يهود ماسكة يعلّم الصبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر من الرجال يعرفونها منهم: زيد بن ثابت الأنصاري وفيها اهتم المسلمون بتعليمها

ونشرها فإنه لما كانت غزوة بدر الكبرى أسر المسلمون جماعة من قريش وكانوا أكثر من سبعين رجلاً فأرادوا فداء أنفسهم بالمال فقبلت الفدية من الأمّيين وجعلت فدية الكاتب منهم تعليم عشرة من صبيان المدينة.

ثم تدرّج الناس في تحسين الخط العربي شيئاً فشيئاً حتى وصلوا به إلى هذا الشكل البديع والجمال الرائع، ولا يظن أن له بعد هذا الجمال جمال. وا لله تعالى أعلم بالغيب.

ولقد فصلنا الكلام على الخط العربي في كتابنا «تاريخ الخط العربي وآدابه» الذي يقع في نحو خمسمائة صحيفة، فمن أراد الوقوف على أصل الخط العربي ونشأته وتطوره فعليه بكتابنا المذكور. وإليك صورة بعض الخطوط العربية من كتابة مؤلف هذا التاريخ.

وإليك صورة الصحيفة الأولى من «تحفة الحرمين» في بدائع الخطوط العربية لمحمد طاهر الكردي مؤلف هذا التاريخ عفا ا لله تعالى عنه وغفر له ولوالديه وللمسلمين آمين.

ومما يجب علينا ذكره والتنبيه عليه: هو أن الخط العربي قد ضعفت العناية بتعليمه في بعض البلدان العربية ما عدا مصر فإنها نهضت به إلى أوج الكمال نهضة تشكر عليها، ففيها مدرستان خاصتان لتعليم الخط العربي وما يتبعه من النقش والزخرفة والتذهيب.

أما الخط العربي في مملكتنا السعودية فقد كاد أن يقضى عليه في مدارسنا، فالنظر إليه نظرة قصيرة ثانوية، فلا يعتنى به بتاتاً ولقد اقترحنا مراراً على المسؤولين في الإلتفات إليه والعناية به وفتح مدرسة خاصة لتعليمه على اختلاف أنواعه حتى أننا قدمنا لهم برنامجاً ونظاماً خاصاً لهذه المدرسة ولكن لم يحن الأوان لقبول هذه الإقتراحات النافعة. وإننا نكرر هنا اليوم إقتراحنا بفتح مدرسة لتعليم الخط العربي وتخصيص مكافآت شهرية للطلاب خصوصاً وأن عدد المدارس قد كثرت في بلدان المملكة ولا بد أن يكون لكل مدرسة من خطاط موظف بها لا ينتقل إلى

غيرها، ولم يدفعنا إلى تكرار هذا الإقتراح في هذا الكتاب إلا إخلاصنا في تقديم الخدمات التي تتعلق بالصالح العام.

"إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" !

التعليم في الحجاز قبل سنة ١٢٦٤ هجرية

لم نر من تكلم من المؤرخين عن التعليم قبل سنة (١٢٦٤) أربع وستين ومائتين وألف من الهجرة، والمعقول أن يكون التعليم في الأزمان الماضية في المساجد في جميع الممالك الإسلامية كجامع الأزهر الشريف بمصر وجامع الزيتون بالمغرب.

وليس المسجد الحرام بمكة بأقلٍ نصيباً منهما، فقد ذكر الغازي رحمه الله تعالى في آخر الجزء الثالث من تاريخه ناقلاً عن العلاّمة الحضراوي في كتابه «تاج تواريخ البشر» في ذكر ولاة مكة المشرفة وجدة من الباشوات من طرف الدولة العثمانية بعد خروج الدولة المصرية وانقضاء مدتهم من الحجاز عند ترجمة المشير «الحاج محمد حسيب باشا» الذي تولى مكة في السنة المذكورة سنة (١٢٦٤هـ) ثم عزل عنها بعد سنتين من توليته ما نصه: «الحاج محمد حسيب باشا هو الذي أخرج مكاتب الصبيان من المسجد الحرام وفرقهم في الزوايا ورتب لكل فقيه مائة غرش بالخزينة العامرة...» ثم ذكر نبذة كبيرة مما قام المذكوربعمله بمكة شرفها الله تعالى مدة توليته عليها لم ننقل كل ذلك لعدم الحاجة إليه هنا . ومعنى كلمة مكاتب الصبيان : أي الكتاتيب الخاصة بتعليم الصبيان .

فاستنتجنا من هذه العبارة التاريخية المهمة أن تعليم الصبيان القراءة والكتابة وبعض العلوم الأولية كان في نفس المسجد الحرام، فعند كل فقيه جملة من التلاميذ يعلّمهم. وقد دام هذا الحال في العصور السابقة إلى زمن والي مكة التركي الحاج محمد حسيب باشا المذكور، ثم إن هذا رأى أن الصبيان الصغار قد يلوثون المسجد الحرام ولا يراعون حرمته فأخرجهم منه إلى بعض الزوايا القريبة من المسجد في السنة المذكورة أو في التي بعدها.

وهذا الحال كان بالضبط في الجامع الأزهر الشريف في القاهرة من قديم الزمان فإنه كان بداخله كثير من مكاتب الصبيان ولكل مكتب فقيه خاص

يعلّمهم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن، وهؤلاء جميعاً أوقاف وخيرات تصرف إليهم شهرياً وسنوياً في الأعياد.

ثم إنه في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة أو في السنة التي بعدها رأت الحكومة المصرية نقل مكاتب الصبيان من داخل الجامع الأزهر إلى أماكن خصصتها لهم مع حفظ حقوقهم في سائر ما يستحقونه من الأوقاف والخيرات والإعانات وكان هذا الحال أيام وجودنا بالأزهر الشريف لطلب العلم.

ثم كان المسجد الحرام مركزاً لطلاب العلوم والفنون من قديم الأزمان، فإذا أتقن الصبي القراءة والكتابة وحفظ بعض المتون تقدم للدرس في حلقات العلم بالمسجد الحرام أو التحق ببعض المدارس التي بنيت حول المسجد الحرام لطلب العلم على المذاهب الأربعة التي بنتها السلاطين والملوك وخصصوا لطلبتها ومدرّسيها أوقافاً سنوية ورواتب شهرية كمدرسة الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد صاحب اليمن التي وقفت لفقهاء الشافعية سنة (٧٧٠) سبعين وسبعمائة، وكمدرسة دار العجلة وكان يدرّس بها الفقه الحنفي قبل السنة المذكورة، وكمدرسة غياث الدين أعظم شاه صاحب بنغالة التي وقفها على أهل المذاهب الأربعة في سنة (٨١٣) ثلاث عشر وثمانمائة وغير ذلك مما لسنا في صدد سردها وحصرها.

هذا ما كان في الحجاز من كيفية التعليم ولم تعرف الدراسة بالمدارس والمعاهد على الصفة التي عليها اليوم إلا من بعد سنة (١٣٣٠) ألف وثلاثمائة وثلاثين هجرية تقريباً.

نسأل الله التوفيق والسداد والعمل بما علمناه آمين.

أول من جمع الصبيان في المكاتب

وبمناسبة ما تقدم نقول: إن أول من جمع الأولاد في المكاتب للتعليم هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جاء في كتاب «عنوان البيان» أن أول من جمع الأولاد في المكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمر عامر بن عبدالله الخزاعي أن يلازمهم للتعليم وجعل رزقه من بيت المال وأمره أن يكتب للبليد في اللوح ويلقّن الفهيم من غير كَتْب. وسألوه تخفيف التعليم فأمر المعلّم

بالجلوس بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي، ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ويستريحون بقية النهار.

ولما خرج رضي الله عنه إلى الشام عام فتحها ومكث شهراً ثم رجع إلى المدينة وقد استوحش الناس منه فخرجوا للقائه تلقاه الصغار على مسيرة يوم. وكان ذلك يوم الخميس فباتوا معه ورجع بهم يوم الجمعة فتعبوا في خروجهم ورجوعهم فشرع لهم الإستراحة في اليومين المذكورين فصار ذلك سنة متبعة، ودعا بالخير لمن أحيا هذه السنة.

انظر الفواكه الدواني على رسالة أبي زيدان القيرواني. انتهى من كتاب «عنوان البيان».

ومن اللطائف المناسبة لهذا المقام ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه لقي أعرابياً فسأله: هل تحسن القراءة؟ قال: نعم. فقال: إقرأ بأم القرآن، فقال الأعرابي: والله ما أحسن البنات فكيف الأم، فضربه عمر بالدِّرَّة، بكسر الدال المهملة وتشديد الراء، وهي السوط وأسلمه إلى الكتّاب ليتعلّم فمكث فيه حيناً ثم هرب، فلما رجع لأهله أنشدهم:

أتيت مهاجرين فعلّموني	ثلاثة أسطر متتابعاتِ
كتاب الله في رَقٍّ صحيح	وآيات القرآن مفصّلاتِ
وخطّوا لي أبا جادٍ وقالوا	تعلّم سَعْفَصاً وقُرَيِّشاتِ
وما أنا والكتابة والتهجّي	وما خطُّ البنين مع البناتِ

التعليم بالحجاز من بعد سنة ١٣٠٠

كان التعليم في الحجاز ضعيفاً في عهد الدولة العثمانية وكان ممزوجاً باللغة التركية قراءةً وكتابةً، وذلك فيما بعد سنة (١٣٠٠هـ) ثلثمائة وألف. ولم يكن بمكة إلا عدد قليل من المدارس، فمنها:- المدرسة الرشدية وكان مقرها أولاً بأجياد ثم انتقلت إلى المعلاة في بيت المكاتب الذي بناه ثم باعه وهو على يمين الصاعد إلى المقبرة وقبيلها، فلما انقضى حكم الأتراك عن الحجاز لا زالت المدرسة بمقرها أيضاً وسميت «بالمدرسة السعودية» أي في عهد حكومتنا السعودية إلى سنة

(١٣٧٥هـ) ثم صارت الآن مقراً «للمدرسة الرحمانية الثانوية» ولا يزال إلى اليوم بعض من تعلّم من أهل الحجاز في المدرسة الرشدية على قيد الحياة.

ومنها: مدرسة برهان اتحاد، ومنها: مدرسة الشيخ محمد خياط، ومنها: المدرسة الفخرية العثمانية. وكل هذه المدارس لم يبق لها أثر بعد الأتراك.

ومن أقدم المدارس بمكة المدرسة الصولتية «بالصاد» الواقعة بحارة الباب بزقاق الخَنْدَريسة، فقد أسسها الشيخ محمد رحمه الله ابن خليل الله المولود ببلدة «كيرانه» من توابع دهلي عاصمة الهند سنة (١٢٩١) هجرية، وقد اشتغل بالعلم حتى صار من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان ثم رحل من الهند إلى مكة فاشتغل بالتدريس في المسجد الحرام مدة طويلة.

وفي سنة (١٢٩٢) اثنتين وتسعين ومائتين وألف من الهجرة جاءت إلى مكة للحج امرأة من أثرياء بلدة كلكته بالهند تدعى: «صولت النساء بيكم» فاتصل بها الشيخ محمد رحمه الله، المذكور ورغبها في إنشاء مدرسة بمكة المشرفة للتعليم فوافقت على ذلك وفوضته بإنشائها وفتحها ، وأعطته النفقات اللازمة لإخراج هذه المدرسة إلى حيز الوجود، فبنى الشيخ محمد رحمه الله بحارة الباب المدرسة وسماها «المدرسة الصولتية» نسبة إلى منشئها المذكورة «صولت النساء بيكم» رحمهما الله تعالى.

وقد ابتدئ بالتعليم فيها من شعبان سنة (١٢٩٣هـ) . وقد تخرّج منها كثير من أبناء مكة ، وصاروا من العلماء الأعلام ، وتولوا مناصب كبيرة بها . والحمد لله لا تزال هذه المدرسة التي هي أول مدرسة أسست بمكة ، مفتوحة الأبواب إلى يومنا هذا . ويتولى إدارتها الآن حفيد مؤسسها الشيخ محمد سليم رحمه الله فجزى الله مؤسسها ومنشئها والقائمين بها خير الجزاء .

ثم أنشئت «مدرسة الفلاح» بمكة في سنة (١٣٢٩) تسع وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، وقد أنشئت قبلها بجدة في سنة (١٣٢٠) عشرين وثلاثمائة وألف «مدرسة الفلاح» أيضاً والذي أنشأهما المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل حفظه الله تعالى بمؤازرة نخبة من أعيان جدة وفضلائها كالشيخ عبد الرؤوف جمجوم وأخيه الشيخ محمد صالح جمجوم رحمهما الله تعالى، كما أنشأ الحاج محمد علي زينل أيضاً مدرسة أخرى في دُبي في الخليج الفارسي ومدرسة رابعة في بومباي بالهند. وسمى كل واحدة منهما «مدرسة الفلاح» أيضاً. فسبحان الموفق

للخيرات. ولقد قامت مدارس الفلاح بتعليم أبناء مكة على أكمل وجه فتخرّج كثيرون منها وصاروا من العلماء وتبوّؤا مناصب كبيرة في الحكومة، ولا زالت إلى اليوم مفتحة الأبواب لطلاب العلم والأدب فجزى الله القائمين بها خير الجزاء وبارك الله في حياة مؤسسها الحاج محمد علي زينل التاجر الشهير بتجارة اللؤلؤ بالهند.

ثم ذكر الغازي برامج التعليم في عهد الشريف الحسين ما رأينا نقله خوفاً من التطويل.

أما التعليم في عهد حكومتنا السعودية وفقها الله تعالى فقد كثرت المدارس بالمملكة حتى صارت تعدّ بالمئات بمختلف أنواعها وذلك لازدياد عدد سكانها ورغبة من حكومتنا في نشر التعليم والثقافة في أنحاء البلاد. ولا ننسى ما يبذله حضرة صاحب السمو الملكي «الأمير فهد بن عبدالعزيز» الذي هو أول وزير للمعارف، من الجهد والعناية بالتعليم من جميع نواحيه زاده الله تعالى توفيقاً لكل خير آمين، وقد أردنا أن نكتب عن جهود وزارة المعارف وجميع أسماء المدارس وبرامج التعليم بالمملكة ولكن ذلك يقتضي إطالة الكلام ويكفي في تاريخنا هذا الإلمام بالشيء.

ومما يجب ذكره لحكومتنا السعودية من ناحية التعليم إيفاد البعوث إلى الخارج فكانت أول بعثة أرسلت من هذه البلاد المقدسة إلى مصر في سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية، أي في السنة الثالثة من حكم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز، وكان مدير المعارف إذ ذاك الشيخ ماجد الكردي رحمه الله، فقد أرسلوا أربعة عشر طالباً إلى مصر القاهرة بالأزهر الشريف ودار العلوم.

أما مؤلف هذا الكتاب «محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي» فقد كان والده رحمه الله تعالى وأسكنه الجنة أخذه بعد أن تخرج من مدرسة الفلاح بمكة إلى مصر وأدخله الجامع الأزهر الشريف لطلب العلم قبل حكم جلالة الملك عبدالعزيز على الحجاز بثلاث سنوات، أي في أول سنة (١٣٤٠) أربعين وثلاثمائة وألف.

ثم بعد ذلك توالت إرسالية البعوث إلى الخارج حتى اليوم ليرتشفوا من مناهل العلوم المختلفة والفنون المتنوعة في معاهد العلوم الدينية وغيرها: كالطب والهندسة والكيمياء والكليات الحربية والبحرية ومدارس الصناعات والطيران وغيرها.

ولولا خوف التطويل لذكرنا جميع المبتعثين من ابتداء الأمر إلى الآن. والحقيقة أن مسألة الإبتعاث لخطوة أساسية مهمة تذكر لحكومتنا السنية بالشكر والثناء العاطر.

نسأل الله التوفيق لما فيه صلاح العباد والبلاد آمين.

قال أمير الشعراء شوقي بك رحمه الله تعالى في الحث على طلب العلم:

هل علمتم أمة في جهلها ... ظهرت في المجد حسناء الرداء

باطن الأمة من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء

فخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء

واقرأوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء

واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نضرتها للضعفاء

واطلبوا المجد على الأرض فإن ... هي ضاقت فاطلبوه في السماء

انتهى من المطالعة العربية.

بعض العادات في المدارس سابقاً

نذكر هنا ما جرت عليه المدارس من إطلاق بعض الأسماء منذ العهد التركي إلى اليوم.

فقد كانوا يطلقون على الفصول: الصف، ثم الصنف، ثم تغير هذا فصاروا يقولون الآن: الفصل، مثلاً فصل: «أ» وفصل «ب» وفصل «ج».

وكانوا يطلقون على سنوات الدراسة هكذا: السنة الأولى، والسنة الثانية، والسنة الثالثة، والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، وهلم جرًّا.

والآن يطلقون على مراحل التعليم كما يأتي: المرحلة الإبتدائية ومراحلها ست سنوات، والثانوية مثلها، والعالية ولها سنوات مقررة.

ثم كانوا يطلقون على المدرّس هذه الألقاب: «خوجة» وهي لفظة تركية معناها المدرّس، ثم صاروا يقولون عليه: «معلّم»، ثم صاروا يقولون: «شيخ»، ثم صاروا يقولون «مدرّس» ثم الآن يقولون: «أستاذ».

وهكذا سرى تجديد الألقاب حتى على المدرّسين وا لله تعالى أعلم ماذا يقولون في المستقبل.

مدارس البنات بمكة المشرفة

تقدم أن ذكرنا أنه لم يكن في الحجاز مدارس قبل سنة (١٢٩٠) ألف ومائتين وتسعين هجرية غير كتاتيب صغيرة لتعليم القراءة والكتابة والخط والحساب، ثم أول ما أنشئت في مكة من المدارس بعد السنة المذكورة مدرسة الصولتية «بالصاد المهملة» ثم مدرسة الفلاح التي تأسست في سنة (١٣٢٩) ألف وثلاثمائة وتسع وعشرين هجرية. ثم بعد ذلك تأسست مدرستان أو ثلاثة كل ذلك لتعليم البنين فقط.

أما تعليم البنات فلم يكن شائعاً لدينا أبداً اللهم إلا أنه كان تعليم البنت في بيتها عند أبيها أو أخيها أو عمها أو خالها وهذا في النادر، ولقد بقي تعليم البنات كذلك إلى سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين من الهجرة فرأى بعض فضلاء جدة وأثريائها أن يعلم بناته الصغار مع بنات جيرانه فجعل لهن غرفة خاصة في منزله أشبه بالكتّاب وخصص لهن معلماً من أهل الديانة كبير السن، فكان يعلمهن القراءة والكتابة من الضحى إلى الظهر فتسامع الناس بذلك وأتوا ببناتهم الصغار إلى هذا المنزل للتعليم وحصل مثل ذلك في مكة المشرفة أيضاً. ثم صدر الأمر الرسمي بفتح مدارس في جميع المملكة العربية السعودية لتعليم البنات وكان ذلك في سنة (١٣٧٩) ألف وثلاثمائة وتسع وسبعين هجرية، ومن ذلك الحين انتشرت مدارس البنات في جميع المملكة العربية السعودية فكان الإقبال عليها كثيراً. ولقد أحضرت الحكومة نساء متعلمات من الخارج لتعليم البنات في هذه المدارس. نسأل ا لله تعالى أن يجعل العاقبة خيراً.

إن تعليم البنات أمور دينهن واجب كتعليم الأولاد ولكن بمقدار محدود أي يكفي في تعليمهن مسائل الدين الحنيف وأمور الحياة المنزلية مع التربية والآداب المطلوبة.

ونسأل ا لله تعالى أن يحفظ علينا ديننا وآدابنا وعاداتنا الإسلامية العربية وأن يجنبنا الفساد والفتن ما ظهر منها وما بطن آمين إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب الدعوات.

وكان أول رئيس لتعليم البنات الشيخ عبدالعزيز بن رشيد، ثم الشيخ ناصر بن حمد الراشد، ثم الشيخ راشد بن صالح بن خنين، ثم الشيخ محمد بن عبدالله بن عوده، ثم الشيخ عبدالعزيز المسند منتدباً لمدة عام، ثم الشيخ عبد الملك بن عبدالله بن دهيش.

التربية والتأديب في المدارس

لقد كان في عهدنا الأول أي من سنة (١٣٣٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين وما بعدها إلى سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين تقريباً التربية والتأديب في المدارس بالغان إلى أقصى حدّ في الكمال. وكان هناك نوع من القسوة الشديدة في التأديب إذا اقتضى الأمر ووقع خطأ كبير من التلميذ. وهذه القسوة التي تقع أحياناً على طلبة المدارس كانت برضاء أولياء أمورهم فلقد كان والد التلميذ يأتي إلى المدرسة ويقول لحضرات الأساتذة: لقد وضعت ابني بين يديكم لتعليمه وتربيته فلكم اللحم ولي العظم. ومعنى هذا الكلام لكم الخيار في ضربه على لحمه بحيث لا يحصل عليه جرح ولا كسر، ولقد كان أهل الطالب ووالده يخوفونه بشكايته إلى المدرسة فكان يخاف من ذلك أشد الخوف ويرتدع عن شيطنته، ولقد كان في العهد السابق إذا لم يحفظ التلميذ دروسه أو صار يلعب كثيراً فقد يضربه أستاذه نحو خمسة عشر عصاً وإذا حصل منه ذنب كبير فيضربه الأستاذ نحو ثلاثين عصاية ولذلك كان بعض أشقياء الطلبة يمشي بعض الظهر في اشتداد الحر في وسط المسجد الحرام ويقف بعض الوقت على الحجارة والرخام التي في الشمس ليدبغ جلدة أسفل رجليه حتى لا يؤثر فيه الضرب كثيراً. ولقد كان الضرب على القدمين يوضعان في الفلقة وهي عبارة عن عصا غليظة غلظ الساعد يربط فيها قماش أو حبل من الطرفين فيضع التلميذ قدميه في داخل القماش بعد أن يمسك بالعصا تلميذان قويان كل واحد منهما من أحد طرفيها ثم يلفان على رجليه تلك العصا حتى يضيق الحبل على رجليه ثم يرفعان رجليه أمام أستاذه فيضربه هذا كما يشاء. هكذا كان الضرب في مدارسنا في عهدنا الحاضر فلذلك كان الأستاذ مرهوب الجانب محترماً لدى كافة الطلبة، والويل لمن يراه أستاذه يلعب في الطرقات.

ثم جاء العهد السعودي فصدر قرار من مديرية المعارف العامة سابقاً بمنع الضرب في جميع المدارس منعاً باتاً.

الكلام على مدارس الفلاح وتأسيسها بالحجاز

الحاج محمد علي زينل هو أشهر من نار على علم عندنا بالحجاز وفي الخارج خصوصاً في باكستان وهندستان والبحرين وعمان فهو تاجر شهير في الجوهرات واللآلئ وغيرها من قديم الزمن، لذلك اتخذ إقامته في الهند مدينة بمبي بالهند مع احتفاظه باللباس الحجازي والعمامة المكية التي لا تفارقه أبداً، ويبلغ الآن من العمر ٨٧ (سبعة وثمانون سنة) هجرية. ولمحله التجاري في بمبي مكانة مرموقة ولشخصه الكريم ثقة تامة في جميع أنحاء الهند. يقصده كبار الأعيان والشخصيات البارزة يشاورونه ويأخذون بآرائه السديدة. ولا غرابة في ذلك فبيت زينل بجدة والهند معروف مشهور من قديم الزمن في عهد الأتراك وفي عهد الشريف الحسين رحمه الله تعالى وفي العهد السعودي، فبيتهم بيت تجارة وهم وكلاء لكثير من الشركات الأجنبية. والملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود لم يستلم جدة حين حكم الحجاز إلا من عميد آل زينل بجدة الحاج عبدالله علي رضا الذي كان قائمقام جدة، أي حاكمها منذ زمن الأتراك والأشراف والسعوديين رحمهما الله تعالى رحمة واسعة، وقد وضعنا صورتهما في هذا الكتاب في غير هذا المحل، فعائلة بيت زينل من أشرف العائلات بالحجاز وبالهند.

انظر: صورة رقم ٢٩٣، الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح بمكة وجدة

نعود إلى الكلام على مؤسس مدارس الفلاح الحاج محمد علي زينل فنقول: إن بيت زينل هم من أهل جدة كما أسلفنا القول وكلهم أهل خير واستقامة وديانة، فرأى الحاج محمد علي زينل علي رضا أن الجهل ضارب أطنابه في ربوع الحجاز وأن أفضل عمل يقدمه لهم المحسنون وأهل الخير هو فتح المدارس لهم لتعليمهم العلوم الدينية والعصرية فاستشار فضلاء المواطنين من أهل جدة فحبذوا رأيه وناصروه وآزروه وتعاونوا معه على البر والتقوى، وما أسرع ما يبادر أهل جدة إلى عمل البر والخيرات، وكان ذلك بعد سنة (١٣٢٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرين هجرية، فما مرت سنتان أو ثلاثة إلا وقد استعد الحاج محمد علي زينل

لفتح مدرسة بجدة لأنها موطنهم، يساعده في ذلك بعض فضلاء جدة وفي مقدمتهم الشيخ عبد الرؤوف جمجوم رحمه الله تعالى فافتتح بالفعل بجدة مدرسة وسماها «مدرسة الفلاح» بتخفيف اللام. وكان قبل هذه المدرسة بجدة مدرسة أخرى تسمى «المدرسة الرشدية» وذلك في عهد الأتراك، وكان يدرّس فيها اللغة التركية. وقد أسندت إدارة مدرسة الفلاح إلى العلاّمة الشيخ حسين مطر من أهل مصر ومن علماء الأزهر الشريف فقام بإدارتها خير قيام وبقي في إدارتها إلى أن توفي رحمه الله تعالى في ٢٧ محرم سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية وإليك صورة الشيخ حسين مطر رحمه الله تعالى، وكان وكيله فيها الشيخ عمر بكر حفني من أهل جدة المتوفى في ربيع الثاني سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية. وإليك صورتهما مع جميع أساتذة مدرسة الفلاح أخذت لهم في سنة (١٣٥٨). وقد رقم لمدير المدرسة الشيخ حسين مطر برقم واحد ولوكيله الشيخ عمر حفني برقم ٣ ويرى مؤلف الكتاب محمد طاهر الكردي الخطاط بينهما في الوسط وقد رقم له برقم ٢.

انظر: صورة رقم ٢٩٤، الشيخ حسين مطر مدير مدرسة الفلاح بجدة
انظر: صورة رقم ٢٩٥، أساتذة مدرسة الفلاح بجدة ١٣٥٨هـ،

ولقد بنى الحاج محمد علي زينل أمدّ الله تعالى في عمره بناية جميلة خاصة لتكون مقراً لمدرسة الفلاح بجدة بناها في الطرف الشمالي لجدة في أواخر عمرانها عند سورها بجهة باب مكة فلما امتد العمران واتسعت جدة أصبحت هذه المدرسة كأنها في وسط جدة وهي ظاهرة معروفة إلى اليوم وعليها قبة جميلة وإليك صورتها.

انظر: صورة رقم ٢٩٦، مدرسة الفلاح بجدة

ولا نبالغ إن قلنا أن أكثر أهل جدة قد تعلموا فيها وتخرجوا منها، وبعد وفاة الشيخ عبد الرؤوف جمجوم التي كانت في سنة (١٣٣٨) أصبح أخوه الشيخ محمد صالح جمجوم وكيلاً لمدارس الفلاح بجدة ومكة بعد أن اتخذ الحاج محمد علي زينل مدينة بمبي مقر إقامته ومحل تجارته، وكان يعاون الشيخ محمد صالح جمجوم في تجارته وأعماله الأخرى أخوه الشيخ صلاح جمجوم، وإليك صورتهما:

انظر: صورة رقم ٢٩٧ ، الشيخ محمد صالح جمجوم من أهالي جدة ت ١٣٦٣هـ،
انظر: صورة رقم ٢٩٨ ، الشيخ صلاح جمجوم من أهالي جدة ت ١٣٦٥هـ،

ولقد بقي الشيخ محمد صالح جمجوم وكيلاً لمدارس الفلاح بمكة وجدة إلى أن مات رحمه الله تعالى في السنة المذكورة، وستأتي ترجمته وافية إن شاء الله تعالى في أواخر الكتاب عند الكلام على مدينة جدة. فانظرها هناك فإنها ترجمة لا مثيل لها في البلاد.

ثم بعد تأسيس مدرسة الفلاح بجدة رأى الحاج محمد علي زينل بثاقب فكره وحسن نيته وقوي عزيمته أن يفتتح مدرسة أخرى بأم القرى «مكة المكرمة» مهبط الوحي الأمين فافتتح حفظه الله تعالى وأثابه على أعماله المجيدة هذه المدرسة بمكة المشرفة وسماها أيضاً «مدرسة الفلاح» فجعل مديرها السيد محمد حامد من أهل جدة فمكث يديرها سنوات قليلة ثم لا ندري هل مات بعد ذلك أم ذهب إلى جدة يقيم بها. فتولى إدارة المدرسة بعده الحاج محمد عطاء الله الهندي وهو متعلم مثقف وذلك سنة (١٣٣٢هـ) فمكث بها سنوات ثم سافر إلى الهند فتولى إدارة المدرسة السيد محمد طاهر الدباغ. وبعد سنوات أخذه الشريف الحسين ملك الحجاز الأسبق وجعله وزيراً للمالية فتولى إدارة المدرسة بعده الشيخ عبدالله حمدوه السنّاري وكان من كبار الصالحين الأتقياء حازماً عاقلاً حكيماً فكان فيها إلى أن توفي سنة (١٣٥٥هـ) رحمه الله تعالى ثم تولى بعده إدارة المدرسة السيد بكر الحِبْشي، بكسر أوله وسكون ثانيه فمكث بها إلى أن توفي رحمه الله تعالى، ثم تولى بعده إدارة المدرسة الشيخ محمد الطيب المراكشي وهو من العلماء الصالحين فمكث بها حتى توفي في الخامس والعشرين من شهر صفر سنة (١٣٦٤) رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه.

انظر: صورة رقم ٢٩٩ ، الشيخ محمد الطيب المراكشي ت ١٣٦٤هـ،

وهذا الرجل من الأساتذة القدماء في المدرسة وممن يعوّل عليهم. ثم تولى بعده إدارة المدرسة السيد إسحاق عزوز فمكث بها سنوات ثم تنحى عنها فخلفه السيد محمد رضوان وهو شاب عاقل فاضل دين، فقام يديرها بهمة ونشاط وعزم وإخلاص وما زال بها إلى الآن أمد الله تعالى في حياته وكلل أعماله بالنجاح.

لقد كان الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح مخلصاً في جميع أعماله خصوصاً لمدارس الفلاح التي أنشأها بماله، فكان لا يبخل عليها بقليل ولا كثير وكان إذا سمع برجل من العلماء الفضلاء يتصل به ويرغبه في الإشتغال في مدارس الفلاح سواء كان في مكة أو في جدة بشتى الوسائل، وبذلك كان في مدارس الفلاح كثير من العلماء الفضلاء. ولقد كان التعليم فيها بلغ قمة المجد فكانوا يعلمون الطلاب والتلامذة بجد وإخلاص ويرشدونهم إلى التربية العالية والأخلاق الشريفة. وكان يدرس فيها جميع العلوم الدينية والعصرية بمختلف أنواعها، وكان فيها قسم خاص بتحفيظ القرآن الكريم تحفيظاً جيداً لم يعهد مثله ولا يوجد اليوم مثله فلقد كان بعض أولياء التلامذة يدخلون أبناءهم في قسم تحفيظ القرآن برغبة شديدة ابتغاء رضوان الله تعالى من غير نظر إلى مكافآت أو معونات. وكان جميع الطلبة يحفظون كثيراً من المتون والقطع الأدبية من النثر والنظم، وكانت أوقات الدراسة فيها من الصباح إلى أذان الظهر ثم ينهب الجميع إلى بيوتهم للغداء وبعد ساعة ونصف يحضرون إلى المدرسة مرة ثانية ليواصلوا الدراسة إلى أذان العصر. وكان بعض الأساتذة إذا رأى من الطلبة تقصيراً في عدم إتمام المقررات يأمرهم بالجلوس بعد صلاة العصر بالمدرسة فيدرسهم نحو ساعة في بعض المسائل ابتغاء وجه الله تعالى لا يتطلبون من المدرسة مكافأة ولا من أوليائهم شيئاً. وبذلك أنتجت مدارس الفلاح بمكة وجدة إنتاجاً عظيماً وأخرجت للبلاد رجالاً ممتازين في الديانة والعلم والأدب.

إن مدارس الفلاح كان يدرّس فيها جميع العلوم والفنون ويحفظ فيها الطلبة غالب المتون من نظم ونثر. إن التعليم فيها كان في منتهى الإخلاص والإتقان حتى تعليم الهجاء للأطفال الصغار فإننا ما زلنا إلى اليوم نتذكر أن الهجاية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: (١) هجاية (٢) هجاية القراءة (٣) قراءة. فمثلاً كلمة «إِسْتَغْفِرْ» فإنها تقرأ بالهجاية هكذا: ألف تحتها كسرة إِ، سْ فوقها سكون إِسْ، تَ فوقها فتحة تَ، غ فوقها سكون إِغْ، فَ تحتها كسرة فِ، رَ فوقها سكون أرْ، = أما هجاية القراءة = فهكذا: إِسْ، إِسْ تَ، إِسْ تَ غْ، إِسْ تَ غْ فِ، إِسْ تَ غْ فِ رْ، = وأما القراءة = فهكذا: إِسْتَغْفِرْ، تقرأ دفعة واحدة. هكذا كان تعليم الهجاء لنا في مدرسة الفلاح بمكة المشرفة، واليوم لا عناية عندنا بتعليم الهجاء ولا عناية لنا بتعليم العلوم، نسأل الله الصلاح والفلاح.

ولقد تقدم الكلام أن العطلة الدراسية في المدرسة في نهاية كل عام لا تتعدى الشهرين مطلقاً فإنها كانت بعد انتهاء الإختبار العمومي في المدرسة وظهور نتيجة الإختبار تقفل أبوابها فتبدأ العطلة من أواخر شهر القعدة وتنتهي إلى العاشر من محرّم في كل عام.

والخلاصة أن أساتذة مدارس الفلاح كانوا ممتازين في العلم والأدب والأخلاق وكانوا يساعدون بعضهم ويحبون بعضهم. ومما يسجل التاريخ لمدرسة الفلاح أنه عند حصول الأزمة المالية في الحجاز في أوائل العهد السعودي أي في سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين للهجرة تقريباً فكّر بعضهم الاستغناء عن بعض المدرّسين فيها لقلة مواردها ثم أجمعوا بالاتفاق على أن لا يخرج من عندهم أي أستاذ وأن جميعهم راضون بنقصان رواتبهم الشهرية وبذلك ضربوا المثل الأعلى للمحبة والإخلاص لبعضهم. وتمتاز مدارس الفلاح بأمر في غاية من التعقل والحكمة وهو: أنها لا تحيل أحداً من المدرّسين فيها للتقاعد لكبر سنّه بل إن كل واحد منهم يشتغل بالمدرسة إلى أن يموت أو ينتقل إلى وظيفة أخرى في غير المدرسة باختياره التام. وتمتاز المدرسة أيضاً بصفة كريمة وهي: أنه إذا غضب أحد الأساتذة من المدرسة لأمر من الأمور وانقطع عن الحضور إليها أياماً فإن بعض الأساتذة يذهبون إليه، وقد يذهب مدير المدرسة إليه فيأخذون بخاطره ويطيبون قلبه حتى يرضى تمام الرضى فيعود إلى المدرسة معززاً مكرماً فرحاً مسروراً. وهذا الأمر لا وجود له في زماننا الحاضر في أي مدرسة أو دائرة حكومية مع أنه أمر مهم للغاية ففيه روح المحبة والإخلاص والتعاون.

انظر: صورة رقم ٣٠٠، المؤلف على باب مدرسة الفلاح بجدة سنة ١٣٥٢هـ.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بعض كبار أساتذتها الفضلاء من أهل العلم والصلاح والاستقامة في العهد السابق. فممن كان في مدرسة الفلاح بمكة:

١) الشيخ عبدالله حمدوه السناري، وهو مدير المدرسة إلى أن توفي في سنة (١٣٥٠هـ).

٢) والشيخ حسن السناري، وهو رئيس قسم تحفيظ القرآن بالمدرسة وتوفي في السودان.

٣) والشيخ محمد أمين فودة.

٤) والشيخ عيسى رواس، المتوفى سنة (١٣٦٥هـ).
٥) والشيخ أحمد ناضرين، المتوفى سنة (١٣٧٠هـ).
٦) والشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، المتوفى سنة (١٣٦٣هـ).
٧) والشيخ زيدان الشنقيطي ، المتوفى بمصر سنة (١٣٥٧هـ).
٨) والشيخ محمد الطيب المراكشي.
٩) والشيخ محمد العربي الجزائري.
١٠) السيد محمد طاهر الدباغ.
١١) والشيخ عمر حمدان المغربي توفي سنة (١٣٦٨هـ).
١٢) والشيخ سليمان الغزاوي خطاط المدرسة منذ بدايتها إلى وفاته وقد بلغ الثمانين، توفي سنة (١٣٥٩هـ).

هذا ما تذكرناه من قدماء الأساتذة فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة وبارك في حياة الباقين خصوصاً من أهل وقتنا الحاضر الفضلاء الأخيار.

وممن كان في مدرسة الفلاح بجدة من أهل العلم والخير والاستقامة.

١) السيد محمد حامد المصري وهو من علماء الأزهر.
٢) الشيخ حسين مطر، وهو مدير المدرسة إلى أن توفي.
٣) الشيخ سرحان.
٤) الشيخ عمر حفني.
٥) الشيخ عبدالعزيز فتح الله.
٦) الشيخ فتح الله الصاوي.
٧) السيد محمد المرزوقي.
٨) الشيخ عبد الوهاب نشار.
٩) ومحمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب فلقد خدمها نحو خمسة عشر عاماً وإليك صورته وهو على باب المدرسة أخذت له في سنة (١٣٥٢هـ).

هذا ما تذكرناه من أساتذتها القدماء فرحم الله تعالى من مات منهم وبارك في حياة الباقين خصوصاً من أهل وقتنا الحاضر الفضلاء الأخيار.

ونرى من الواجب أن نضع صورة مدير مدرسة الفلاح بمكة المكرمة في وقتنا الحالي وهو السيد محمد رضوان، وهذه صورته:

انظر: صورة رقم ٣٠١، السيد محمد رضوان مدير مدرسة الفلاح بمكة المكرمة

والمذكور شاب من أهل الدين والإستقامة والشهامة والمروءة، وهذه صفات آل رضوان بمكة المكرمة. والحقيقة التي لاحظناها أن مدارس الفلاح لها التوفيق التام في اختيار مديرها وأساتذتها في كل وقت وحين. ولا يفوتنا أن نقول: إن التعليم في مدارس الفلاح بمكة وجدة كان مجاناً منذ تأسيسها إلى اليوم، وإذا نظرنا إلى أن الحاج محمد علي زينل رضا رئيسها الموفق العزيز يصرف وحده على هذه المدارس سنوات طويلة أكثر من نصف قرن منذ تأسيسها إلى اليوم أكبرنا من هذه الهمة العلياء والإخلاص العظيمين وأكبرنا أيضاً فيه هذا التوفيق العظيم من الله العزيز العليم. عامله الله تعالى بلطفه ورحمته وفضله وإحسانه وأجزل له الثواب يوم القيامة، ونظن أنه افتتح مدرسة ثالثة في دُبيْ بالخليج الفارسي ومدرسة رابعة في بُمبي بالهند.

هذه نبذة عن مدارس الفلاح بالحجاز ولولا خوفنا من إطالة الكلام لكتبنا كثيراً عن أساتذتها الممتازين قديماً وحديثاً وعن تلامذتها البارزين الذين تولوا مناصب ممتازة في جميع مرافق البلاد والذين يشار إليهم بالبنان إلى اليوم. أسعدهم الله تعالى وأسعد بلادهم الطاهرة وبارك في حياة مؤسسها وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة آمين.

هذا وقد تطورت أمور التعليم في العهد السعودي خصوصاً في السنوات الأخيرة هذه فقد اتسعت رقعتها وامتدت ميادينها حيث قد انتشرت المدارس في كل مدينة وفي كل قرية في المملكة السعودية. ففي مكة وحدها توجد من المدارس الحكومية البيان الآتي:

عدد المدارس الإبتدائية (٥١) إحدى وخمسون مدرسة.

وعدد المدارس المتوسطة (٧) سبع مدارس.

وعدد المدارس الثانوية (٢) اثنتان.

وعدد المعاهد (٣) ثلاثة معاهد.

مع العلم بأن مدارس الفلاح قد تطور برنامجها فأصبح فيها الابتدائي والمتوسط والثانوي.

ولولا أني مريض حال كتابة هذه السطور لأسهبت في الكلام على مدارس مكة وجهود وزارة المعارف في رفع مستوى التعليم بها، وبالمملكة السعودية نسأل الله تعالى التوفيق والسداد وإصلاح الحال والأحوال آمين.

نظرة تأمل في مدارس الفلاح

لقد كانت مدارس الفلاح بمكة وجدة وبمْبي بالهند ودُبيْ، بضم الدال المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة في منتهى التقدم الدراسي في جميع مراحلها من السنة الأولى الهجائية إلى آخر السنة التكميلية. وبما أنني من خريجي مدرسة الفلاح بمكة المكرمة سنة (١٣٣٩) ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين هجرية ثم من أساتذة مدرسة الفلاح بجدة من أول سنة (١٣٤٩) هجرية فإنه يجب أن أكتب عن هاتين المدرستين نبذة صغيرة غير ما تقدم هنا عن مشاهداتي وخبرتي الشخصية فأقول وبا لله التوفيق:

إن أساتذة تلك المدرستين بمكة وجدة هم من خيرة الأساتذة وإن مدير مدرسة مكة الشيخ عبدا لله حمدوه السناري هو من خير الناس، وكان من أهل العلم والصلاح التام، كانت له أحوال حسنة في تربية التلامذة وتهذيبهم وتعليمهم رحمه ا لله تعالى رحمة واسعة، وكان من أساتذتها الشهيرين الشيخ حسن السناري وكان هذا رئيس قسم تحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة، وكانت له قوة خارقة وشدة صارمة في تحفيظ القرآن، ولم يكن بمكة أحفظ منه للقرآن العظيم، وما حفظ عنده أحد القرآن ونسيه أبداً إلا النادر جداً ممن كتب ا لله تعالى عليه ذلك، وما زال كثير منهم عندنا على قيد الحياة. وكان للشيخ حسن السناري رحمه ا لله تعالى وأحسن إليه، طريقة خاصة فريدة في تحفيظ القرآن الكريم للطلبة وهي أخذهم بالشدة والصرامة وعدم الضحك والانبساط معهم، إنه ما كان أحد منهم يقدر أمامه في غرفة الدراسة على التكلم مع زميله أو المزاح معه قط، وما كان أحد منهم يقدر على التساهل في حفظ ما خصصه له الأستاذ، وكان رحمه ا لله تعالى لا يقبل من أحد غلطة واحدة، والويل لمن لم يحفظ لوحه وسورته. إن من وجد عليه غلطات في القرآن الكريم يضربه ثم يوقفه في الغرفة ووجهه على الجدار ليحفظ

لوحه من جديد، وبعد ساعة أو أكثر يستمع له بنفسه، إنه لا يقدر أحد من الطلبة أن يتنفس أمامه من شدة خوفه وهيبته منه.

إنه رحمه الله تعالى ما رؤي في غرفته الدراسية ضاحكاً أو مبتسماً قط، إنه إذا أراد ضرب أحد الطلبة بالعصا في رجليه يضع المنديل على فمه ولا يظهر منه إلا عينيه المفزعتين.

إنه رحمه الله تعالى كان في ليالي رمضان في صلاة التراويح مع المدرسة بالمسجد الحرام يمر على جميع أئمة التراويح من طلبته ليستمع قراءتهم، وكان يصلي التراويح وراء الصفوف حتى لا يراه أحد من طلبته فيفزع منه فيغلط في القراءة. كان رحمه الله تعالى هذا دينه مع عظيم ديانته وصلاحه وتقواه.

وكان رحمه الله تعالى من شدة حفظه للقرآن الكريم حفظاً جيداً يستمع لثلاثة من الطلبة في آن واحد وفي سور مختلفة ، يضعهم أمامه وكل واحد منهم يقرأ لوحه ، فإذا غلط أحد منهم يردّ عليه في ساعته وهذه الحالة نادرة جداً لا يقدر عليه إلا من فتح الله قلبه ونوّر بصيرته، ففي القرآن الكريم: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ لكن لله خرق العوائد واليوم لا يوجد أحد مثله قط لا في الحجاز ولا في غيرها.

والحق يقال إن تحفيظ القرآن الكريم لا يصلح له إلا مثل هذا الرجل فإن تحفيظ القرآن لا يصلح له التساهل واللين بل لا بد من الشدة والصرامة.

وهناك من الأساتذة من أهل الصلاح والتقوى والفضل والاستقامة كثيرون وكلهم والله كانوا من الأخيار ولو شئنا أن نكتب عن فضائلهم لطال بنا المقام، وأما مدير مدرسة الفلاح بمكة الشيخ عبدالله حمدوه السناري ومدير مدرسة الفلاح بجدة الشيخ حسين مطر فإنهما من الفضل والعلم والتقوى والحكمة والسياسة بمكان عظيم، إنه لم يأت بعدهما أحد مثلهما ، وإن كنا نعترف بفضل الجميع ونحترمهم. فمن علامة آخر الزمان أنه لا يأتي زمن إلا والذي قبله خير منه ، وإن من ينظر إلى التعليم والتربية في وقتنا الحاضر ومن ينظر إليه في الزمن الماضي يدرك الفرق العظيم بينهما ويشهد لهذا كل المعمرين الفضلاء من زملائنا الكرام بارك الله تعالى في حياتهم الغالية، وليس في هذا أدنى ريب ومن لم يعترف بهذا فهو من المكابرين الجهلاء.

نقول هذا بياناً للحقيقة وتسجيلاً للواقع في هذا التاريخ المبارك تاريخ «بلد الله الأمين» ونسأل الله تعالى أن يحفظنا من الخطأ والزلل والأمراض والعلل بفضله ورحمته وأن يجزي عنا مؤسس مدارس الفلاح ومؤسس جميع المدارس والمعاهد العلمية خير الجزاء إنه تعالى على ما يشاء قدير وبإجابة دعوات عباده الفقراء الضعفاء لجدير فهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على نبينا الحبيب «محمد» وعلى آله وأزواجه وذريته وصحابته آمين. والحمد لله رب العالمين.

نظرة تأمل في المؤلفات المدرسية قديماً وحديثاً

يمكن لنا أن نقسم الأزمان بعد انتشار العلوم والفنون من بعد الإسلام بنحو ثلاثة قرون أو خمسة إلى قسمين تقريباً:

(١) القسم الأول، عهد الأئمة والعلماء الأعلام الكبار الذين أناروا للأمة الإسلامية الكريمة طريق الهداية والرشاد فهؤلاء لهم من المؤلفات العظيمة ما لا يحصر ولا يعد، وما زالت الأمم الإسلامية بعدهم تتبع مناهجهم وتسير على خطاهم. وهذه المكتبات العامة في البلاد الإسلامية وفي البلاد الأوروبية مليئة بكتبهم ومؤلفاتهم. أما ما قبل هذه القرون الأوائل فقد كان العلم والمعرفة والإيمان تملأ قلوبهم، وكان الله تعالى يقذف في قلوبهم نور العلم والتقوى بدون حساب وبدون الاشتغال في الأسباب، كما أنه لم تكن وسائل الكتابة من الأوراق والأقلام والحبر منتشرة في تلك القرون انتشارها اليوم. فلقد كانوا يكتبون على الأخشاب والعظام والجلود وصفائح الأحجار كما بينا ذلك في كتابنا المطبوع (تاريخ الخط العربي وآدابه) وكانوا إذا قرأوا شيئاً أو سمعوا حديثاً أو قصيدة مرة واحدة حفظوه عن ظهر قلب من غير أن يغلطوا فيه بحرف واحد، والحكايات في ذلك كثيرة.

ومن نظر إلى حديث: (من يبسط ثوبه) أو (أيكم يبسط ثوبه) إلى آخر الحديث كما جاء في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة في باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله تعالى عنه ما لفظه: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوماً: (أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لم ينس شيئاً سمعه، فبسطت بردة عليّ حتى فرغ من حديثه

ثم جمعتها إلى صدري فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً). هذا الحديث ربما جاء مثله في صحيح البخاري أيضاً.

إن من ينظر إلى هذا الحديث الشريف يعلم علم اليقين أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنشر هذا الدين الحنيف رجالاً وفتح لهم أعين قلوبهم ونور بصائرهم وقذف في بواطنهم نور العلم والعرفان واليقين والإيمان وأمدهم بالأسرار الإلهية والكنوز الخفية الصّمدانية.

(٢) والقسم الثاني ، من بعد القرون الأولى الثلاثة أو الخمسة إلى نهاية القرن الثالث عشر، أي إلى سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة للهجرة، في هذه القرون أيضاً نجد العلوم والفنون على ميدان أوسع وبتطورات جديدة وفي ازدهار تام بما يشفي الفؤاد وينعشها في جميع البلاد الإسلامية مع ظهور بعض المطابع والمكتبات والجرائد والصحف في القرن الأخير، كما لا يخفى على المطلعين وأهل الثقافة.

لقد كنا نتعلم في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة منذ سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين هجرية (١٣٣٢هـ) في كتب مؤلفة تأتينا من مصر، وهي وإن كانت كتباً مدرسية مؤلفة للطلبة والناشئين إلا أنها معدودة من الكتب القيمة القوية جداً، وكان التلامذة يتلقونها بقوة وفهم مع الإخلاص العظيم في مشايخنا وأساتذتنا، فلقد كنا نحفظ المتون في مختلف العلوم كألفية ابن مالك في النحو ومتن التصريف والأمثلة المختلفة ومنظومات في الفقه ومنظومات في الإملاء وفيما يكتب بالواو أو بالياء، وكان هناك كتاب الدروس النحوية بأجزائها الثلاثة وعلم البلاغة كنا نحفظ هذه الكتب كلها غيباً كما نحفظ كتاب الترغيب والترهيب لنخبة من علماء مدرسة الفلاح، وكنا نشتري كتاب مجموع المتون ونشتري كتب اللغة كمختار الصحاح، وفقه اللغة وجواهر الأدب وأسلوب الحكيم، والمفرد العَلَم والدرر البهية في علم الحساب لمحمد إدريس بك وكتاب الهندسة له أيضاً رحمه الله تعالى، وكتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري، وكتاب تاريخ الخياط وكتاب لباب الخيار في التاريخ أيضاً، وكتاب التربية والآداب الشرعية وكتباً أخرى في الفقه والحديث والتفسير وعلم الفرائض وغير ذلك.

كل هذا ونحن تلامذة في المدارس وكان هذا شأن الطلبة سواء كانوا بمدرسة الفلاح بمكة أو بمدرسة الفلاح بجدة أو بمدارس أخرى من الحرمين الشريفين أو في

غيرهما من مدن الحجاز كما هو معروف لدى المعمّرين من زملائنا وإخواننا الفضلاء أمد الله تعالى في حياتهم ووفقهم للخيرات.

أول من أرسل المساعدات النقدية للحرمين

قال الغازي في تاريخه: وفي مرآة الحرمين أول من أرسل صرة النقود إلى الحرمين المقتدر بالله العباسي سنة (٣٢٠) ثم تبعه الأمراء والخلفاء يزيد كل منهم على سلفه ما يليق بكرم نفسه، وكان أول من جهزها إلى مكة من سلاطين آل عثمان السلطان محمد خان ابن السلطان يلدرم خان كان يرسلها من بلاد الروم إذ لم تكن بلاد العرب في ذلك الحين دخلت حوزة آل عثمان وكانت من أجل ذلك تسمى الصدقة الرومية، واقتفى أثره ولده وخلفه السلطان مراد خان ، وكان يرسل أضعاف ما أرسله أبوه ثم السلطان بايزيد خان ضاعف الصدقة، ولما آل الأمر إلى السلطان سليم خان أرسل الصدقات الرومية أضعاف ما كان يرسله أبوه وجعل له دفتراً لتسجيل فيه العطايا وقرر لجماعة من المجاورين بالحرمين مائة دينار لكل شخص تدفع إليهم من خزينة مصر، فكان يقوم بإرسالها الجراكسة وسمي هذا مال الذخيرة، وكذلك رتب الأمير مصلح بك لثلاثين شخصاً يقرأون القرآن كل يوم اثنا عشر ديناراً لكل منهم في السنة وسجل ذلك في الدفاتر الرومية، وكذلك تطلق الذخيرة على صدقة كانت تخرجها الجراكسة من خزينة مصر وأبقاها السلطان سليم بعد افتتاحه بلاد العرب وأخذه الأقاليم مصر والشام وحلب تفرّق على العربان أصحاب الإدراك أو المدارك وعلى فقراء أهالي مكة، ومما يتصل بهذه الخيرات المرتبات التي خصصتها مصر لأهل الحرمين ولعربان الطرق وما تقوم به تكيتا مكة والمدينة من إطعام الفقراء والمساكين، وهاتان التكيتان من آثار محمد علي باشا جد الأسرة المالكة لمصر، وجميع نفقاتهما ومرتبات موظفيها من قبل الحكومة المصرية. اهـ. انتهى من تاريخ الغازي.

مقدار ما كان يحمل إلى بيت المال أيام المأمون

ذكر ابن خلدون في مقدمته رحمه الله تعالى عند الكلام على آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها ما يأتي : وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبدالحميد

عمل ما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون في جميع النواحي نقلته من جراب الدولة:

عدد	البلدة	مقدار ما يحمل من الغلّة
١	غلاة السواد	سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل النجرانية متتا حلّة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلاً.
٢	كنكر	أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم.
٣	كور دجلة	عشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانية دراهم.
٤	حلوان	أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم.
٥	الأهواز	خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل.
٦	فارس	سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل.
٧	كرمان	أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون ألف رطل.
٨	مكران	أربعمائة ألف درهم مرة.
٩	السند وما يليه	أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً.
١٠	سجستان	أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيذ عشرون رطلاً.
١١	خراسان	ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفا نقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الإهليلج ثلاثون ألف رطل.
١٢	جرجان	اثني عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الإبريسم ألف شقة.

عدد	البلدة	مقدار ما يحمل من الغلّة
١٣	قومس	ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة.
١٤	طبرستان والروبان ونهاوند	ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف، ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلاثمائة، ومن الجامات ثلاثمائة.
١٥	الري	اثني عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل.
١٦	همدان	أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف، ومن رب الرمانين ألف رطل، ومن العسل اثني عشر ألف رطل.
١٧	ما بين البصرة والكوفة	عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم.
١٨	ماسبذان والدينَوَر	أربعة آلاف ألف درهم مرتين.
١٩	شهرزور	ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم.
٢٠	الموصل وما إليها	أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل.
٢١	أذربيجان	أربعة آلاف ألف درهم مرتين.
٢٢	الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل اثني عشر ألف زق ومن البزاب عشرة، ومن الأكسية عشرون.
٢٣	أرمينية	ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن القسط المحفور عشرون، ومن الزق خمسمائة وثلاثون رطل، ومن المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصوبخ عشرة آلاف رطل، ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون.
٢٤	قَنسرين	أربعمائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل.
٢٥	دمشق	أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

عدد	البلدة	مقدار ما يحمل من الغلّة
٢٦	الأردن	سبعة وتسعون ألف دينار.
٢٧	فلسطين	ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل.
٢٨	مصر	ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.
٢٩	برقة	ألف ألف درهم مرتين.
٣٠	أفريقية	ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن البسط مائة وعشرون.
٣١	اليمن	ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع.
٣٢	الحجاز	ثلاثمائة ألف دينار.
٣٣	وأما الأندلس	فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبدالرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات، يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

قال: ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة، فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض، ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات ، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالانكدار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

كيف كان القدماء يؤرخون الحوادث والأزمان

جاء في كتاب «فصول مختارة من كتب التاريخ» من الجزء الأول بالعنوان المذكور ما نصه: ليس أمة من الأمم من الشرقيين وغيرهم ممن سلف أو خلفها إلا ولها تاريخ ترجع إليه وتعوّل عليه في أكثر أمورها ينقل ذلك خلف عن سلف وباق عن ماض إذ كان به تعرف الحوادث العظام والكوائن الجسام وما كان في الأزمان

الماضية والدهور الخالية. ولولا ضبط ذلك وتقييده لانقطعت الأخبار ودرست الآثار وجهلت الأنساب.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة، فأما حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان بأرض اليمن فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم كملك تبع الأكبر وتبع الأصغر وتبع ذي الأذعار، وتبع ذي المنار، وأرّخوا بملك ذي نواس، وملك جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم الدوسي، وملك آل أبي شمر من غسان بالشام، وأرّخوا بعام السيل وهو سيل العرم الذي ذكره الله عز وجل في القرآن، وخروج عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء من مأرب في قومه من الأزد وغيرهم من كهلان وحمير وتفرّقهم في البلاد. ثم أرّخوا بظهور الحبشة على اليمن، ثم غلبة الفرس على اليمن وإزالة الحبشة إلى أن جاء الله بالإسلام.

فأما تاريخ ولد معد بن عدنان فإنهم كانوا يؤرّخون بغلبة جرهم العماليق وإخراجهم إياهم عن الحرم، ثم أرّخوا بهلاك جرهم في الحرم، ثم أرّخوا بعد ذلك بعام التفرّق وهو العام الذي افترق فيه ولد نزار بن معد بن عدنان من ربيعة ومضر وإياد وأنمار، ثم أرّخوا بعد ذلك بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين أحياء العرب وقبائلها التنازع والحروب فاستبدلوا الديار وتنقلوا في المساكن. وأرّخوا بحجة الغدر وكانت قبل الإسلام بنحو من مائة وخمسين سنة وكان سببها أن أوساً وحصبة ابني أزنم بن عبيد خرجا في عدة من قومهما حجاجاً فلقوا بأنصاب الحرم أناساً من اليمن معهم كسوة للكعبة ومال للسدنة حمل ذلك بعض ملوكهم، فقتلوهم وأخذوا ما كان معهم ودخلوا مكة فلما كان في أيام منى فشا الخبر بالناس فوثبوا بهم وتحزّب معهم قوم فانتهبت الناس بعضهم بعضاً فسميت حجة الغدر.

وأرّخوا بالحرب بين ابني وائل: بكر وتغلب المعروفة بحرب البسوس، وكان الذي هاجها قتل جساس بن مرّة بن ذهل بن شيبان كليباً لقتل كليب ناقة يقال لها سراب لجار لخالة جساس، وهي البسوس بنت المنقذ التميمية. وأرّخوا بحرب ابني بغيض بن ريث بن غطفان المعروفة بحرب داحس والغبراء وذلك قبل البعث بنحو من ستين سنة.

وبحرب الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة وهو العنقاء، وإنما سمي العنقاء لطول عنقه، وهما أخوان لأب ولأم نسبا إلى أمهما قتيلة. وأرّخوا بعام الخنان وهو عام شمل أكثر الناس فيه الخنان، قال النابغة الجعدي:

فمن يك سائلاً عني فإني من الفتيان في عام الخنان

وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرّخ بيوم من أيامها المشهورة في حروبها. فكانت بكر وتغلب أبناء وائل تؤرّخ بعام التحالق من حرب البسوس أيام حروبهم المنسوبات.

وبنو عامر بن صعصعة يؤرّخون بيوم شعب جبلة وكان قبل الإسلام بنيف وأربعين سنة بين بني عامر وأحلافها من عبس وبين من سار إليهم من تميم وعليهم حاجب ولقيط ابنا زرارة بن عدس ومن عاضدهما من اليمن مع ابني الجون الكنديين.

وإياد تؤرّخ بخروجها عن تهامة وحروبها مع فارس، الحرب المعروفة بوقعة دير الجماجم، وبتلك الموقعة سمي الدير لكثرة الجماجم وذلك في ملك سابورا ذي الأكتاف ملك فارس.

ثم أرّخوا بعام الانتقال من ديارهم إلى بلد الروم، وآخر من دخل منهم إلى هناك في أرض الجزيرة والموصل في خلافة عمر بن الخطاب نحو من أربعين ألفاً كانوا على النصرانية وأنفوا من الجزيرة حين أخذوا بها.

وتميم تؤرّخ بعام الكلاب وهي الحرب التي كانت بين ربيعة وتميم. والأوس والخزرج ابنا حارثة تؤرّخ بعام الآطام -لما تحاربوا على الآطام- وهي الحصون والقصور، وكانت الأوس والخزرج تتمتع بها فأخرجت في أيام عثمان بن عفان.

وطيء وجديلة تؤرّخ بعام الفساد وهي الحرب التي كانت بين الغوث بن طيء وجديلة بن سعد بجبلي طيء أجا وسلمى وما يلي ذلك من السهل.

ولم يزل من وصفنا من قبائل العرب يؤرخون بالأمور المشهورة من موت رؤسائهم ووقائع وحروب كانت بينهم إلى أن جاء ا لله بالإسلام فأجمع المسلمون على التاريخ من الهجرة. ذهب قوم من أصحاب السير والآثار إلى أن آدم لما هبط من الجنة وانتشر ولده أرّخ بنوه من هبوطه فكان ذلك هو التاريخ حتى بعث ا لله نوحاً فأرخوا من مبعثه حتى كان الطوفان فكان التأريخ منه إلى نار إبراهيم، فلما

كثر ولد إبراهيم افترقوا، فأرّخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى يوسف، ومن يوسف إلى مبعث موسى ومن مبعث موسى إلى ملك داود وسليمان، وما كان بعد ذلك من الكوائن والأحداث.

وأرّخ بنو إسماعيل من بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل فلم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت معد، وكان كلما خرج قوم من تهامة أرّخوا بمخرجهم، ومن بقي من بني إسماعيل يؤرّخون بخروج آخر من خرج منها من قضاعة وهم سعد ونهد وجهينة بنو زيد بن ليث حتى مات كعب بن لؤي فأرّخوا من موته إلى الفيل، ومنهم من كان يؤرّخ بيوم الفجار بين قريش وسائر كنانة بن لؤي وبين قيس بن عيلان. ومنهم من كان يؤرّخ بحلف الفضول وكان بعد منصرفهم من الفجار وإنما سمي الفجار؛ لأنهم تفاجروا فيها واقتتلوا في الأشهر الحرم.

وبعث رسول الله ﷺ وقريش تؤرّخ بموت هشام بن المغيرة المخزومي والفيل. وقد ذكر للإبراهيميين تواريخ كثيرة منها التاريخ بوفاة إبراهيم ثم بوفاة إسحاق. وفي الإسماعيليين من كان يؤرّخ بوفاة إسماعيل وغير ذلك. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول وما زال الناس إلى عصرنا هذا وإلى أن تقوم الساعة يؤرّخون أمورهم بالمسائل المعروفة لديهم، فمثلاً الذي يولد في يوم الجمعة يسمونه جمعة ومن ولد في شهر محرّم يسمونه محرّم ومن ولد في رجب يسمونه رجب ومن ولد في شعبان يسمونه شعبان ومن ولد في رمضان يسمونه رمضان أو غير ذلك من الأسماء وتعليلاتها.

مبدأ وضع التاريخ الهجري وغيره

قال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ما ملخصه: اختلف في أصل لفظ التاريخ فذهب قوم إلى أنه عربي وأن معناه نهاية الشيء وآخره، يقال فلان تاريخ قومه إذا انتهى إليه شرفهم. وذهب آخرون إلى أنه فارسي وأن أصله «ماء زور» فعرب مؤرّخ ثم جعل اسمه التاريخ، ويقال منه أرّخت وورّخت بالهمزة والواو لغتان، ولذلك قالوا في مصدره تأريخ وتوريخ كما يقال تأكيد وتوكيد فأرّخت لغة قيس وورّخت لغة تميم.

والمعروف عند العلماء أن ابتداء التاريخ بالهجرة كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختلف في السبب الموجب لذلك فذكر النحاس أن السبب فيه عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه باليمن قدم عليه فقال: أما تؤرّخون كتبكم فاتخذوا التاريخ، وذكر أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل أن السبب فيه أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها نعمل. قد قرأنا كتاباً منها محله شعبان فما ندري في أي الشعبانين الماضي أو الآتي، فأحدث عمر التاريخ، وذكر صاحب حماة في تاريخه أنه رفع إلى عمر رضي الله عنه صك محله شعبان فقال: أي شعبان لا ندري الذي نحن فيه أم الذي هو آت؟ ثم جمع وجوه الصحابة وقال: إن الأموال قد كثرت وما قسمناه منها غير مؤقت فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك؟ فقالوا: يجب أن نعرف ذلك من أمور الفرس، فاستحضر الهرمزان وسأله فقال: إن لنا حساباً نسميه «ماء زور» ومعناه حساب الشهور والأيام فعمل عمر التأريخ.

وقال في «ذخيرة الكتاب»: لما أراد عمر التأريخ جمع الناس للمشورة فقال بعضهم: نؤرّخ بمبعث النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل بوفاته، وقال بعضهم: بل بهجرته من مكة إلى المدينة لأنها أول ظهور الإسلام وقوته، فصوبه عمر واجتمع رأيه عليه.

ثم بعد اتفاقهم على التأريخ من الهجرة اختلفوا في الشهر الذي تقع البداءة به فأشار بعضهم بالبداءة برمضان لشرفه وعظمه، فقال عمر: بل بالمحرّم لأنه منصرف الناس من حجهم، فرجعوا القهقري ثمانية وستين يوماً وهي القدر الذي مضى من أول المحرّم إلى ذلك الوقت واستقر تاريخ الإسلام من الهجرة. قال القضاعي في «عيون المعارف» وكان ذلك في سنة تسع عشرة أو ثماني عشرة من الهجرة.

قال القلقشندي: واستقرت تواريخ الأمم على أربعة تواريخ ابتداء بعضها مقدّم على ابتداء بعض:

أولها: غلبة الاسكندرية على الفرس وعليه تاريخ السريان والروم إلى زماننا.

والثاني: ملك دقلطيانوس ملك الروم على القبط وعليه تاريخ القبط إلى زماننا.

والثالث: الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم وعليها مدار التاريخ الإسلامي.

والرابع: هلاك يزدجرد آخر ملوك الفرس وبه تؤرّخ الفرس إلى زماننا، وكان هلاكه بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوماً. انتهى الكلام باختصار على وضع التأريخ الهجري من كتاب «صبح الأعشى». وحيث تكلمنا عن التأريخ الهجري نرى تكملة للبحث والفائدة أن نذكر أيضاً ما أورده القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» عن بقية التواريخ وبيان أصولها وهو مبحث مهم مفيد.

قال رحمه الله تعالى في كتابه المذكور بصحيفة ٢٣٥ من الجزء السادس ما نصه:

قال القضاعي في «عيون المعارف في تاريخ الخلائف» كانت الأمم السالفة تؤرّخ بالحوادث العظام وبملك الملوك، فكان التأريخ بهبوط آدم عليه السلام ثم بمبعث نوح ثم بالطوفان ثم بنار إبراهيم عليه السلام، ثم تفرق بنو إبراهيم فأرّخ بنو إسحاق بنار إبراهيم إلى يوسف، ومن يوسف إلى مبعث موسى عليه السلام، ومن موسى إلى ملك سليمان عليه السلام، ثم بما كان من الكوائن، ومنهم من أرّخ بوفاة يعقوب عليه السلام ثم بخروج موسى من مصر ببني إسرائيل، ثم بخراب بيت المقدس. وأما بنو إسماعيل فأرّخوا ببناء الكعبة و لم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت بنو معد، وكان كلما خرج قوم من تهامة أرّخوا بخروجهم. ثم أرّخوا بيوم الفجار ثم بعام الفيل. وكان بنو معد بن عدنان يؤرّخون بغلبة جرهم العماليق وإخراجهم إياهم من الحرم ثم أرّخوا بأيام الحروب: كحرب بني وائل وحرب البسوس وحرب داحس.

وكانت حمير وكهلان تؤرخان بملوكهما التبابعة وبنار ضرار: وهي نار ظهرت ببعض خراب اليمن، وبسيل العرم، ثم أرّخوا بظهور الحبشة على اليمن. وأما اليونان والروم فكانوا يؤرّخون بملك بختنصر ثم أرّخوا بملك دقلطيانوس القبطي.

وأما الفرس فكانوا يؤرّخون بآدم عليه السلام ثم أرّخوا بقتل دارا وظهور الاسكندر عليه ثم بملك يزدجرد. والذي ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماه في تاريخه في دائرة اتصال التواريخ القديمة بالهجرة عشرون تاريخاً ذكر ما بينها وبين

الهجرة من السنين إلا أنه لم يراعِ الترتيب في بعضهـا وأهمـل منهـا تـأريخ يزدجـرد لوقوعه بعد الهجرة.

وبالجملة فالتواريخ على قسمين:

القسم الأول: **ما قبل الهجرة وقد أوردت منه تسعة عشر تأريخاً:**

الأول : من هبوط آدم عليه السلام. وقد اختلف فيما بينه وبين الهجرة اختلافاً كبيراً: فمقتضى ما في التوراة اليونانية على اختيـار المؤرّخـين أن بينهمـا ستة آلاف سنة ومائتين وست عشرة سنة، و على اختيـار المنجّمـين أن بينهمـا خمسـة آلاف وسبعمائة وتسع وستين سنة.

ومقتضى ما في التـوراة السـامرية على اختيـار المؤرخـين خمسـة آلاف ومائـة وسبع وثلاثون سنة، وعلى اختيار المنجّمين ينقص عن ذلك.

ومقتضى ما في التوراة العبرانية علـى اختيـار المؤرّخـين أن بينهمـا أربعـة آلاف وسـبعمائة وإحـدى وأربعـين سـنة، وعلـى اختيـار المنجّمـين ينقـص مـائتين وتسـع وأربعين سنة.

الثاني : من الطوفان. وبينه وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وتسـعون سنة على اختيار المؤرّخين، وعلى اختيار المنجّمـين ثلاثـة آلاف وسبعمائة وخمـس وعشرون سنة وثلثمائة وستة أيام.

الثالث : من تبلبل الألســن. وبينـه وبـين الهجـرة علـى اختيـار المؤرّخـين ثلاثـة آلاف وثلثمائة وأربع وستون سنة، وعلى اختيار المنجّمين ينقص عن ذلـك مـائتين وتسع وأربعين سنة.

الرابع : من مولد إبراهيم عليه السلام. وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرّخـين ألفان وثمانمائة وثلاث وتسعون سنة، وعلى اختيار المنجّمين ينقص عن ذلك مـائتين وتسع وأربعين سنة.

الخامس : من بناء إبراهيم الكعبة. وبينه وبين الهجرة ألفـان وسـبعمائة وثـلاث وسبعون سنة.

السـادس : مـن وفـاة موسـى عليـه السـلام. وبينـه وبـين الهجـرة علـى اختيـار المؤرّخين ألفان وثلثمائة وثمان وأربعون سنة.

السابع : من عمارة سليمان عليه السلام بيت المقدس. وبينه وبين الهجرة ألف وثمانمائة وستون سنة.

الثامن : من ابتداء ملك بختنصر. وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وتسع وستون سنة. قال صاحب حماة: بلا خلاف.

التاسع : من تخريب بختنصر بيت المقدس. وبينه وبين الهجرة ألف وثلاثمائة وخمسون سنة.

العاشر : من ملك فيلبس أبي الاسكندر. وبينه وبين الهجرة تسعمائة وخمس وأربعون سنة ومائة وسبعة عشر يوماً.

الحادي عشر : من غلبة الاسكندر على ملك فارس وقتل دارا ملك الفرس، وبينه وبين الهجرة تسعمائة واثنتان وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوماً.

الثاني عشر : من مولد المسيح عليه السلام. وبينه وبين الهجرة ستمائة وإحدى وثلاثون سنة.

الثالث عشر : من ملك أرديا لونص. وبينه وبين الهجرة خمسمائة وتسع وستون سنة.

الرابع عشر : من ملك أرد شير أول ملوك الأكاسرة من الفرس، وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وست وأربعون سنة.

الخامس عشر : من خراب بيت المقدس المرة الثانية. وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وست وأربعون سنة.

السادس عشر : من ملك دقلطيانوس آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم على القبط، وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وواحد وعشرون يوماً.

السابع عشر : من غلبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليونان ومصر. وبينه وبين الهجرة مائتان وخمسون سنة ومائتان وستة وأربعون يوماً.

الثامن عشر : من عام الفيل، وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ. وبينه وبين الهجرة ثلاث وخمسون سنة وشهران وثمانية أيام.

التاسع عشر : من مبعث النبي ﷺ. وبينه وبين الهجرة ثلاث عشرة سنة وشهران وثمانية أيام.

القسم الثاني: **ما بعد الهجرة**

وفيه تاريخ واحد وهو من هلاك يزدجرد آخر ملوك الفرس وكان بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوماً. انتهى من صبح الأعشى، وهو كما لا يخفى مبحث نفيس عن وضع التأريخ، وقد تراه مطوّلا لكنه مفيد ويحتاج إليه.

وما أحلى كلام أمير الشعراء أحمد شوقي بك رحمه الله تعالى في «التاريخ» في كتابه دول العرب وعظماء الإسلام حيث يقول:

من سخر الصخر الأصم للقلم	حتى جرى نوراً عليه في الظلم
يضيء أثناء الصفا وطوراً	ينجد كهفاً بالسنى وغَوراً
لكل شيء عنصر ومنحت	وما أبو الأقلام إلا المنحت
كم دُميةٍ مما جلا مخلقة	مغنيةٌ ما أغنت المعلقة
قديمة تعرف الحديثا	حادثة في الدهر أو حديثا
قد نشأ التاريخ في حجر الحجر	وشب ما بين الكهوف والحجر
أليس في الصخر وفي الأديم	جلّ حديث العالم القديم

ثم قال أمير الشعراء بعد خمسة أبيات منها:

سبحانه قص حديث آدم	على تنائي العهد والتقادم
ورفع التاريخ أعلى منزلة	بنصّه في كتبه المنزلة
بين الأناجيل علت أصوله	وفي الحواميم غلت فصوله
ألم يك التاريخ ظل العالم	وأقدم الأعلام والمعالم
توهم الخلد به الأوائل	وظن أن نال البقاء الزائل
وطلب الصيت به قديماً	والذكر فوق الأرض مستديماً
والنفس ترجو همة الخلود	في العلم والبنيان والمولود
توهم الحياة بعد موت	وتزعم الوجدان بعد فوت
ضاقت على النوابغ الآجال	فكان في الذكر لهم مجال
في كل ذي روح هوى الحياة	أودعه مصرف الآيات
فكن إذا أحببتها فخم الهوى	لا تك والشاة على حد سوا
أنظر إلى الآباء كيف هاموا	بالخلد واحتالت له الأفهام

ثم قال أيضاً بعد أربعة أسطر:

من درس التاريخ أو من درسه   يمضي الزمان وهما في المدرسه
لا يبلغان في الكتاب غاية   ولا الكتاب بالغ النهاية
ذاك كتاب الناس والأيام   من آدم الجد إلى القيام
تأنق الدهر به ما شاء   وأتقن التأليف والإنشاء
أنفق فيه زمن الشباب   وما أتم فيه غير باب
يكبر أن يطويه السجل   وعن نوائب البلى يجل
عال على كف المغير الماحي   ولو مشت عليه بالرماح
مستهزئ بالغاشم البليد   تهازؤ المصحف بالوليد
لا يمحى من الجميل ما رسم   ولا يزول في القبيح ما وسم
فإن وجدت خاطراً مطالباً   ونازعاً من الطباع غالباً
فقف على آثار أعيان الزمن   واغش الطلول وتنقل في الدمن
وعالج النجوى والادّكارا   يهيئا للحكمة الأفكارا
فالروح في التاريخ الاعتبار   وحكمة تودعها الأخبار
وخذه من محقق أمين   وميّز الغث من الثمين
إياك والمتنوخ المقصا   ما كل من قصّ فقد تقصّى
وقدّم المعبّر المبينا   تجده في مظلمة مبينا
وتلق منه جوهراً أو صائغاً   وتسق في الفضة عذباً سائغاً
فمن كريم الشعر والبيان   عينان في التاريخ تجريان
لولا أوابِدُ من البوادي   مشت على أيامها العوادي
الشعر بعد موتها أحياها   في شعرها تمثّلت دنياها
وإن ملكت مرّة أن تصنعه   فاخش بأن تخلقه وتصنعه
وهبه لم يأمن عوادي العبث   أليس كالكير الذي ينفي الخبث
ما أقبح الكذب على الرفات   والكذب من أراذل الصفات
من غشّ نفساً جمع المظالما   ماذا ترى فيمن يغشّ عالما

انتهى.

كيفية ثبوت هلال ذي الحجة في عصر ابن جبير

لم تكن في العصور السابقة اخترعت وسائل الاتصال السريعة بين البلـدان من تيلفونات وتلغرافات وراديوات ونحوها كما هو الشأن في عصرنا هذا، لذلك يتشوف الإنسان إلى كيفية ثبوت هلال ذي الحجة أو ثبوت هلال رمضان أو شوال لما يترتب على ثبوته الحج والصوم والفطر.

ولقد وصف ابن جبير في رحلته الشهيرة باسمه كيفية ثبوت هلال ذي الحجة عام وجوده بمكة المشرفة وهو عام (٥٧٩) تسع وسبعين وخمسمائة من الهجرة فقال رحمه الله تعالى:

استهل هلال ذي الحجة ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس، وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب وشأن من البهتان غريب ونطق من الزور كان يعارضه من الجماد فضلاً عن غيره رد وتكذيب، وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفي ثلاثين والأفق قد تكاثف نوره وتراكم غيمه إلى أن علته مع المغيب بعض حمرة من الشفق فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها. فبينما كذلك أن كبر أحدهم فكبر الجم الغفير لتكبيره ومثلوا قياماً ينتظرون ما لا يبصرون ويشيرون إلى ما يتخيلون حرصاً منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة كأن الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه، فاختلقوا شهادات زورية ومشت منهم طائفة من المغاربة أصلح الله أحوالهم ومن أهل مصر وأربابها فشهدوا عند القاضي برؤيته فردّهم أقبح ردّ وجرّح شهاداتهم أسوأ تجريح وفضحهم من تزيّف أقوالهم أخزى فضيحة وقال: يا للعجب لو أن أحدهم يشهد برؤية الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسج لما قبلته فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة؟ وكان أيضاً مما حكى من قوله: تشوشت المغارب، تعرضت شعرة من الحاجب فأبصروا خيالاً ظنوه هلالاً. وكان لهذا القاضي جمال الدين في أمر هذه الشهادة الزورية مقام من التوقف والتحري حمده له أهل التحصيل وشكره عليه ذوي العقول وحق لهم ذلك فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة أتوا لها من كل فج عميق فلو تسومح فيها بطل السعي وقال الرأي والله يرفع الالتباس والبأس عنه، فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ظهر الهلال أثناء فرج السحاب وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة فزعقت العامة زعقات هائلة وتنادت بوقفة الجمعة وقالت الحمد

لله الذي لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة إذا لم تكن توافق يوم الجمعة ليست مقبولة ولا الرحمة فيها من ا لله مرجوة مأمولة تعالى ا لله عن ذلك علواً كبيراً، ثم إنهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضي فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكي الحق وتضحك الباطل فردها وقال يا قوم حتى مَ هذا التمادي في الشهوة وإلى مَ تستنون في طريق الهفوة؟ واعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثر في أن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بها ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة، فإن كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم في تأخير المبيت بمزدلفة بأس إذ هو جائز عند أئمة المسلمين، وإن كانت يوم السبت فبها ونعمت وإما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغرير بالمسلمين وإفساد لمناسكهم لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة كما أنها عندهم جائزة يوم النحر . فشكر جميع من حضر للقاضي هذا المنزع من التحقيق ودعوا له وأظهر من العامة الرضى بذلك وانصرفوا عن سلام والحمد لله على ذلك . انتهى من رحلة ابن جبير.

بدء ظهور المطابع

وجاء عن اختراع الطباعة وتاريخها تفصيلات مهمة أحببنا ذكرها لما لها من الفوائد المتعددة والمعلومات القيمة وذلك في الجزء الأول من كتاب «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف من الهجرة بالآستانة وهذا نصها:

قد اختلفت الروايات في اختراع المطبعة، فبعض المؤرخين نسبها إلى مدينة متز وبعضهم إلى استراسبورغ وهارلم وبعضهم إلى فينيسيا وروميـة وبعضهم إلى فلورانسة وباسيل، وفي رواية أوريان جونيوس أن مخترع المطبعة هو يوحنا كستار من هارلم، أول كتاب طبعه كان على وجه واحد وذلك في سنة (١٤٤٢) ميلادية. وقال آخر : لا شك أن الطبع على قطع الخشب كان معروفاً عند أهل الصين قبل الميلاد بأحقاب عديدة، وكان أيضاً معروفاً في بلاد أوروبا عند الرهبان فكانوا ينقلون الكلام من ورقة إلى أخرى على الخشب إلا أن ذلك كان نادراً، أما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحد بعد واحد فلم يعرف إلا في متأخر الزمن، أعني في القرن الرابع عشر للميلاد.

وقال بعضهم: أصل اختراع هذه الحروف أن شاباً كان اسمه يوحنا غانسفليش ويعرف بفانبورغ سافر مرة إلى استراسبورغ وكانت مشهورة يومئذ بأنها سوق الكتب فأخذ يفكر في إحداث طريقة لتكثيرها فخطر بباله تركيب حروف وتحليلها، ثم اجتمع برجل آخر فسبكاها وذلك في سنة (١٤٤٠م) ثم أنشأ مطبعة وتفرق بعض من كان فيها فساروا إلى إيطاليا فاشتهرت هذه الصناعة فيها وذلك سنة (١٤٦٥م) وبعد أربع سنين اشتهرت في باريس، وبعد سنة واحدة اشتهرت في أسبانيا، وبعد خمسين سنة عمّت في أوروبا، وفي سنة (١٦٣٧م) صدر أمر من ديوان الإنكليز بأن لا يزيد عدد الطبّاعين على أربعة نفر وأنه بعد موت أحدهم لا يقوم آخر في محله إلا بإذن مطران كنتربوري، إلا أن هذا الحكم نسخ عند إثبات حقوق الأهلين وذلك سنة (١٦٩٣م). وكانت الكتب تمتحن عندهم وينظر فيها وتنتقد وفي سنة (١٧٩٥م) بطلت هذه العادة أيضاً وأمر بأن تطبع أسماء الطبّاعين في أوائل الكتب وأواخرها.

فأما طبع الجوائب أي الأخبار الطارئة فأول ما اشتهر منها كان في أكسفورد وذلك سنة (١٦٦٥م) وكان ديوان الملك هناك لأجل الطاعون الذي وقع بلندرة، فلما عاد الملك إلى المدينة المذكورة سمي ذلك الجرنال «كازتة» وبقي هذا الإسم خاصاً بجرنال الدولة فهو بمنزلة المونيتور في باريس، وأصل إسم الكازتة منقول عن قطعة من الفلوس تعرف بهذا الإسم في فينيسيا وذلك أنه طبع فيها صحيفة تشتمل على أخبار مختلفة وكانت تباع بتلك القطعة فلزمها هذا الإسم.

ومعنى الجرنال باللغة الفرنساوية يومي أو يومية، وكان اشتهاره في فرنسا سنة (١٦٣١م) وفي جرمانيا سنة (١٧١٥م). وأول ما يصح أن يسمى بجرنال في بلاد الإنجليز من حيث اشتماله على أخبار عمومية هو ما طبع في سنة (١٦٦٣م). وفي سنة (١٨٥١م) بلغ عدد الجرنالات المطبوعة في لندرة مائة وتسعة وخمسين اشتملت على (٨٩١٥٦٠) إعلاناً، وبلغ عدد جرنالات إنكلترة كلها مائتين واثنين وعشرين اشتملت من الإعلانات على أقل من تلك، وكان في سكوتلاند مائة وعشرة اشتملت على (٢٤٩١٤١) إعلاناً، وفي إرلاند مائة جرنال اشتملت على (٢٣٦١٢٨) إعلاناً، والأداء على كل إعلان في جرنالات إنكلترة وسكوتلاند شلين ونصف يدفعها صاحب الجرنال للميري، وفي إرلاند شلين واحد وعلى كل جرنال طابع ميري ثمنه يني واحد. ففي سنة (١٨٥٠م) بلغ عدد

الطوابع بإنكلترة (٦٥٧٤١٢٧١) وفي سكوتلاند (٧٢٤٣٠٤٥) بسعر يني و(٢٤١٢٦٤) بسعر نصف يني وفي إرلاند (٦٣٠٢٧٢٨) بسعر يني و (٤٣٣٥٨) بسعر نصف يني.

ووزن ما يطبع في إنكلترة من الجرنالات اليومية والأسبوعية يبلغ نحو مائة وخمسين طناً، وفي باريس فيها نحو ما في لندرة، وفي أمريكا ثمانمائة جرنال منها خمسون تطبع في كل يوم، وأول جرنال اشتهر فيها كان في سنة (١٧١٩م) وأول طبع بآلات البخار ظهر في مطبعة التميس وذلك سنة (١٨١٤م) وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة ألفاً وأربعمائة صحيفة وعلى الوجهين نحو تسعمائة، ثم اخترع مستر لتل آلة مزدوجة فكان يطبع بها في الساعة نحو اثني عشر ألف صحيفة. وفي بلاد أمريكا آلة تطبع في الساعة عشرين ألف صحيفة ما بين جرنال وغيره، انتهى المنقول. وأنا أقول: إن جرنال دولة الإنكليز حين اشتهاره لم يكن يطبع فيه إلا أمور قليلة الجدوى كالقبض على بعض السرّاق، وقصاص بعض المذنبين، ونصب بعض المتوظفين مما لا يحتاج إلى أعمال الفكر في معان بديعة وعبارات بليغة ولا سيّما أن السجع في جميع اللغات الإفرنجية غير معروف في المنثور وهو وإن لم يكن قد زاد اليوم تحسيناً وتنظيماً إلا أنه لا يحسب من الجرنالات التي يتكلم فيها على السياسيات على وجه التعليل والمناظرة وذلك كالتيمز، والستاندرد، والهرالد، والدلي نيوز، والمورنن بوسط، والستار والصن ونحوها فإن هذه بلغت إلى أعلى درجات البراعة والبلاغة.

ومن العادة عند هؤلاء المنشئين أن كل واحد منهم ينشئ مقالة أو أكثر على الأحوال الواقعة ويبني عليها قواعد تثبتها في المستقبل ويستشهد لها بالماضي ويسأل فيها ويجيب ويستحسن ويستقبح وينصح ويشير حتى تخاله واعظاً خطيباً أو شاعراً أديباً أو مؤرخاً لبيباً حتى إن الجرنالات العامية لا بد وأن يكون فيها شيء من ذلك قلّ أو كثر، وبغير هذا لا يكون بمجرد النقل عن آخرين جرنالاً فإن مجرد النقل وإن يكن دليلاً على الذوق فغير دليل على البراعة. نعم إذا تميّز الجرنال بصفة تخصصه من تحري النقل ومن الترجمة من لغات شتى كجرنال غالنياني مثلاً فإن ذلك يكون شافعاً في ترويجه شفاعة الإنشاء والبراعة غير أن الحكم في الغالب هو أن يكون صاحب الجرنال منشئاً وناقلاً لا ناقلاً فقط.

وفي الجملة فينبغي أن تقر بفضل جوائبي الإنكليز على غيرهم من جميع الجوائبيين وسبب ذلك ثلاثة أمور :

أحدها : أنه لا تحريج عليهم فيما يرتأونه من الأمور السياسية والأحكامية وغيرها، وذلك من بعض قوانين بلادهم.

والثاني : أن عندهم من يبلّغهم الأخبار من جميع أطراف الدنيا، فصاحب التيمس عنده كتّاب في كل مدينة مشهورة من مدن أوروبا وغيرها وكلهم مهرة في الكتابة والسياسة.

والثالث : أن جوائب الإنكليز أفضل طبعاً وورقاً من غيرها، أما جوائب الفرنسيين فإنهم وإن يكونوا من أصحاب البلاغة والبراعة إلا أن باعهم في السياسيات قصير بالنسبة إلى أولئك وليس عندهم أيضاً مبلغون للأخبار مثلهم، ولهذا جرت العادة عندهم بأن يجعلوا نصف الجرنال لحكايات وقصص من كتب مشهورة، ومثل هذا عند الإنكليز منكر وأنا أيضاً أنكره فإن الجرنال غالباً ما يكون في ورق أكبر من ورق الكتب فلا يحسن أن يجعل منه كتاب ولا سيّما أن ورق الجرنالات الفرنساوية غير جيد فإذا علم هذا علم أيضاً سبب إيثارنا النقل من جوائب الإنكليز على ما سواها ولا سيّما الفصول الطويلة التي تنبئ عن علائق الدول بعضها ببعض وعما يمكن الحدس فيه في المستقبل بالنظر إلى دوام صلتها وارتفاعها وانخفاضها وما بها من الداء وما لها من الدواء فإن كثيراً من هؤلاء الكتّاب من أهل السياسة فضلاً عن كونهم من أهل الدراية والكياسة، وهذه الحوادث هي التي تعنونها بالحوادث الخارجية وهي في الحقيقة الأخبار السياسية وإن يكن حسبها بعض جهلة العرب من قبيل التاريخ لظنه أن الأخبار لا بد وأن تكون مؤدّاة بعبارة كان، وحدث، وجرى، ووقع واتفق ونحو ذلك:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

فأما الحوادث التي لا حدس فيها ولا أعمال نظير وهي من قبيل كان وصار وأخواتهما فهي التي اصطلحنا على تسميتها بحوادث شتى ولعلها تعجب من لا يتعمل للدقائق المعاني وتبحر الأفكار أكثر إلا أن نسبتها إلى تلك كنسبة فلك صغير إلى بارجة حيث مرفأ التحقيق عن راكبه في قاموس اليم سحيق وبرّ اليقين والتعويل محجوب عن عين إدراكه بغياهب التقليل من التعليل . انتهى من الكتاب المذكور.

وهنا نذكر بعض المطابع الموجودة بمكة المشرفة فقط :

فمنها : مطبعة الحكومة وكان أول تأسيسها في عهد الأتراك سنة (١٣٠٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة تقريباً ، ومنها : المطبعة الماجدية ، ومنها : مطبعة الندوة ، ومنها : مطبعة قريش؛ وراجع ما ذكرناه عن المطابع في كتابنا «تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه» وفي وقتنا هذا قد كثرت المطابع في المملكة العربية السعودية.

منع دخول الكفار الحرمين الشريفين

قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً» رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وفي صحيح مسلم في كتاب الجهاد والسير في باب إجلاء اليهود من الحجاز أن النبي ﷺ أجلى اليهود من المدينة لم نذكر هنا خوف التطويل.

نزلت هذه الآية بل سورة التوبة كلها عام تسعة من الهجرة وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينادي في الموسم الذي أعقب نزول هذه الآية الشريفة التي هي القانون المعتبر الصارم والأمر المطاع الحازم: «ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» . وكان المراد بذلك منع المشركين من الحج وعدم دخولهم البلد الحرام لأنه لا تؤمن غوائلهم من إيقاع الفتنة والشقاق بين قبائل العرب المسلمين، ولا شك أن هذه سياسة نبوية في غاية الحكمة ونظرة دينية في غاية الدقة نرى فوائدها إلى يومنا هذا وقد مضى على ابتداء هذا المنع الشرعي أربعة عشر قرناً.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ بفتح النون والجيم في القراءة السبعية وفيه لغات أخرى ككتف وعضد والمعنى أنهم نجس نجاسة معنوية لا حسية، قال ابن عباس رضي الله عنهما أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال الحسن رحمه الله تعالى من صافح مشركاً توضأ، لكن أهل المذاهب على خلاف هذين القولين فإنهم طاهرون لدخولهم في آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ هذا نهي للمسلمين عن تمكين المشركين من دخول الحرم، قال العلماء: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على قسمين:

أحدها : الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال، ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وإذا جاء رسول من دار الكفر إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج إليه الإمام أو يبعث إليم من يسمع رسالته خارج الحرم وجوّز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثاني : سائر بلاد الإسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة أو أمان لكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم لحاجة. انتهى.

وفي صحيح مسلم في آخر كتاب الوصية عند حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع وقالوا: ما شأنه اهجر، استفهموه . قال : دعوني فالذي أنا فيه خير ، أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، قال: وسكت عن الثالثة أو قال فأنسيتها . قال أبو إسحاق إبراهيم حدثنا الحسن بن بشر قال حدثنا سفيان بهذا الحديث . انتهى .

أسماء من دخل مكة المشرفة من الإفرنج

قال صاحب كتاب الرحلة الحجازية: لما مات رسول الله ﷺ ارتدت العرب في أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبي بكر رضي الله عنه وذلك بتأثير المشركين منهم حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى النبوة منهم طليحة في الشمال، ولهيعة في اليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، وقام غيرهم بالدعوة لنفسه في وسط البلاد. هنالك استنفر أبو بكر المسلمين إلى قتال أهل الردة وبعث إليهم أحد عشر لواء وأمرهم أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الإسلام فساروا وأبلوا في قتالهم بلاءً حسناً وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الأكبر في رجوع الناس إلى الإسلام.

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقه في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الإسلام وسار على سننه من أتى بعده من الخلفاء إلى اليوم لذلك ترى

الآن أهل الحرمين أنفسهم يبالغون في مراقبة الأجانب الذين يفدون إلى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالاً أحد من الأجانب بالمرة وإن فعل فما هو إلا مورط نفسه إلى حتفه من أهل البلاد ولذلك فإن الأجانب من عمال السكة الحديدية ما كانوا يغادرون هذه المحطة لجهة الجنوب ولو لضرورة.

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية إنما كانوا يتزيّون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ويدّعون أنهم على الدين الإسلامي ونخص بالذكر منهم بوركات السويسري وبورتون الإنكليزي وهورجرنج الهولاندي وكورتلمون الفرنساوي اهـ. وقال صاحب الكتاب المذكور في موضع آخر : وفي سنة (١٣١١) ساق الإنكليز مراكبهم مرة أخرى إلى مياه ثغر جدة عندما قتل الأعراب وكيل القنصل الإنكليزي وجرحوا وكيلي القنصل الفرنساوي والروسي وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد، وكلهم مسلمون من الأهالي الذين لم يحسنوا سيرتهم مع إخوانهم من مواطنيهم ارتكازا على الحماية الأجنبية فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب اهـ.

قال الغازي في تاريخه : وفي سنة ألف وثمان وتسعين أعطيت ولاية جدة ومشيخة الحرم لمحمد بيك وذلك بعد عزل أحمد باشا، ففي السادس والعشرين من شعبان وصل جدة فدخل مكة واستمر إلى أوائل رمضان ثم نزل جدة وكان من أحسن ما فعل النداء بجدة أن لا يسكنها نصراني وكان بها عدة منهم فخرجوا منها وشدد في التفتيش عليهم حتى أسلم بعضهم وسافر الآخرون إلى ينبع وهذه غيرة إسلامية ، فإن دخولهم جزيرة العرب مما ابتليت به هذه الأمة بسبب أحمد باشا، ذكره في منائح الكرم اهـ. وفيه أيضاً أنه في سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة نحر بمنى كما تنحر الإبل رجلان من الإفرنج وهما من الإفرنج الذين توجهوا إلى المدينة النبوية اهـ.

وجاء فيه أيضاً نقلاً عن الجامع اللطيف: يروى أن رجلاً يهودياً أو نصرانياً كان بمكة يقال له جُرَيج فأسلم ، فقد مقام إبراهيم ذات ليلة فوجد عنده أراد أن يخرجه إلى ملك الروم فأخذ منه وقتل اهـ.

وجاء في تاريخ الغازي أيضاً عن سيل الجحاف الذي كان في سنة ثمانين للهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان والذي دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة وجاءه دفعة واحدة وهدم الدور الشارعة على الوادي ودخل الوادي وقتل الهدم ناساً كثيراً ورقي الناس في الجبال واعتصموا بها فسمي بذلك سيل الجحاف، فكتبوا في ذلك إلى عبد الملك بن مروان ففزع لذلك وبعث بمال عظيم إلى عامله على مكة عبدالله بن سفيان المخزومي ، ويقال: بل كان عامله الحارث بن خالد المخزومي يأمره بعمل ضفاير للدور الشارعة على الوادي للناس من المال الذي بعث به وعمل ردم على أفواه السكك يحصّن بها دور الناس من السيول.

وبعث رجلاً نصرانياً مهندساً في عمل ضفاير المسجد الحرام وضفاير الدور في جنبتي الوادي، قال: فأمر عامله بالصخر العظام فنقلت على العجل وحفر الأرباض دون دور الناس فبناها وأحكمها من المال الذي بعث به، قالوا: وكانت الإبل والثيران تجرّ تلك العجل حتى ربما أنفق في المسكن الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مراراً . اهـ.

وبمناسبة أن عبدالملك بن مروان بعث إلى مكة المشرفة رجلاً نصرانياً مهندساً لعمل ضفاير المسجد الحرام ، أورد الغازي في تاريخه ذكر من أتى إلى مكة والمدينة من الإفرنج ناقلاً عن أحمد زكي باشا الملقب « بشيخ العروبة » فقال: ورأيت مقالة الشيخ أحمد زكي باشا سكرتير مجلس الوزراء (أي المصري) في ذكر من زار مكة والمدينة من نصارى الإفرنج ولا بأس بذكرها هنا لمناسبة المقام وهذا نصها: قد تمكن أفراد طائفة من الإفرنج من دخول الحجاز بل من زيارة البقاع المقدسة والأماكن المطهرة ولكنهم لم يكتبوا عنها بالمرة أو إن كانوا كتبوا فمن باب الاستطراد. ومن هذه الفئة :

أولاً : الثلاثة النصارى الذين رآهم نيبور في مكة فقد روي أن ملاّحاً إنجليزياً توجه إليها في عام (١١٧٥) هجرية قاصداً أوروبا عن طريق القسطنطينية، وأن رجلاً آخر أتى اليمن عن طريق مكة وركب البحر سراً إلى بلاد الهند، وأن جرّاحاً فرنسياً ذهب إلى مكة لمعالجة أمير الحج بعد أن أعطاه القوم الأمان على نفسه وعلى دينه ولكنهم اضطروه في أثناء الطريق إلى الدخول في الإسلام.

ثانياً: توماس كيت وهو عسكري أسكتلندي أسره المصريون في محاربة الإنجليز مع محمد علي الأكبر بمدينة الإسكندرية (١٢٣٢) ثم أسلم وانتهى أمره أن صار والياً على المدينة المنورة ثم قتل في محاربة الوهابيين.

ثالثاً: طبّال إنجليزي في الجيش الذي حارب محمد علي بالإسكندرية أيضاً فقد أسره المصريون ودخل في الإسلام باسم عثمان وتمكن بدهائه من الاستحواذ على كل أموال سيده المسلم، وكان يجتهد في التوفيق بين التوراة والإنجيل والقرآن.

رابعاً: الكابتن جورج فورستر سادلير ذهب إلى المدينة في (١٢٣٥) رسولاً إلى إبراهيم باشا القائد المصري، وامتاز على كل ما عداه من الأوروبيين الذين دخلوا الحجاز بأنه بقي محافظاً على زيّه الإفرنجي ولكنه لم يقترب من أسوار المدينة، أرسلته شركة الهند الشرقية ليهنئ البطل المصري على انتصاراته ويعرض عليه مساعدة المراكب الإنجليزية، ثم عاد عن ينبع وهو أول أوروبي اجتاز شبه جزيرة العرب من الشرق إلى الغرب.

خامساً: برتو لوتش الذي كان قنصلاً بمصر لدولة السويد فقد ذكر يشار برتني أنه أول أوروبي زار مكة دون أن يرتد عن دينه ولكنه عندما وصلها تملّكه الجزع والهلع فلم يتملك من الدرس والبحث.

سادساً: الإنجليزي تنت الذي قال ملتزان عنه أنه ذهب إلى مكة (١٢٢٨) هجري باسم الحاج عبد الواحد.

سابعاً: فراتي الطلياني الذي لقي في سفره من الأهوال ما لا يوصف وفي آخر الأمر ادّعى الإسلام وتردد كثيراً بين مكة والمدينة وجمع له المسلمون إعانة تاجر بها فأصبح من ذوي اليسار ومشاهير التجار.

ثامناً: دوتي الإنجليزي فقد كتب رحلته في الحجاز وما لاقاه من المشاق ولم يزر أحد الحرمين بل سيق إلى الطائف وإلى جدة في خطب طويل.

تاسعاً: في سنة (١٣٠٠) هجرية تمكن الدكتور المورسلي الفرنسي من الحج وقد كان مقيماً في الجزائر وهو من الأوروبيين الذين تمكنوا كل التمكن من زيارة الكعبة المعظمة وهو قد أسلم إسلاماً خالصاً لا يعتوره أدنى ريب.

عاشراً: ولاننسى شارل هوبر فقد اقترب كثيراً من مكة عند عودته من الحائل (١٣٠٢) وشاهد الحرم وجباله عن بعد ثم تمكن بفضل مساعي خادمه من النجاة

إلى جدة وهو مدفون بها وقبره موجود إلى الآن في جبانتها وقد صوره كور تلمون بالفتوغرافية وطبعه في رحلته.

قال: وهناك طائفة أخرى من الإفرنج المستقلين المتظاهرين بالإسلام قد كتبوا كثيراً أو قليلاً عن الحرمين الشريفين ودوّنوا ما شاهدوه في موسم الحج وما وصلوا إليه من المعلومات الصادقة أو البعيدة عن الحق، وإليك بيانهم بحسب ترتيبهم التاريخي دون الشرح والتفصيل:

فأولهم: حامل رايتهم هو الطلياني باريتما فهو فاتح هذا الباب لكل من أتى بعده من الأفراد وكانت زيارته للحرمين في سنة (٩٠٨) هجري في أيام السلطان قانصوه الغوري وتسمى باسم يونس.

الثاني: الفرنسي فنسان لبلان في (٩٦٨).

الثالث: الألماني بوهان ويلد في سنة (١٠١٦هـ).

الرابع: الإنجليزي جوزيف بتس في سنة (١٠١٩) هجري.

الخامس: الإسباني باديا إلى لبيش في (١٢٢٢هـ) باسم علي بك العباسي وتحصّل على شهادة بأنه من الأشراف وسلالة العباسيين.

السادس: الألماني أولريخ جاسبار سيتزن في (١٢٢٧) هجري.

السابع: السويسري جون سود ويج بركرت في (١٢٣٠) باسم الشيخ حاج إبراهيم. وذكر الريحاني أيضاً في تاريخ نجد دخول هؤلاء الثلاثة (أي باديا وأولريخ وبركرت) فقال: إن ثلاثة من العلماء المستشرقين المستعربين دخلوا مكة يوم كان الوهابيون مستولين عليها، أول هؤلاء رجل إسباني اسمه دومنفوبا ديا أي لبلخ، انتحل إسماً ونسباً وديناً عربياً وجاء من قادش عن طريق الجزائر إلى الحجاز هو علي بك العباسي الأمير المكرّم والعالم المحترم رسول بونابرت إلى البلاد العربية. أجل قد جاء حاجاً مستكشفاً فنزل في جدة تحف به الخدم والحشم وسار إلى مكة المكرمة محرماً مثل من جاءها من أهل نجد فدخلها في ٢٣ يناير (١٨٠٧) ١٤ ذي القعدة (١٢٢١) وقد شاهد جموع الوهابيين وحج معهم واعتمر وكان في ظاهره عربياً قحاً ومسلماً حقاً لا تعيبه كلمة بقوله ولا تخوز فعلة أو إشارة فما شك أحد في دينه أو في نسبه. وقد اجتمع علي بك بالشريف غالب فقال إنه في العقد الرابع من العمر وأنه على جهله ذو حصافة ودهاء. رآه لأول مرة وهو يدخن النارجيلة

التي كانت محجوبة خوفاً من الوهابيين فلم ير السائح الأوروبي غير النبريج الذي كان يتصل من خرق في الحائط بالنارجيلة وراءه في الغرفة المجاورة للمجلس، والعباسي كان هذا عالماً يحمل في حقائبه أدوات للرصد والمساحة فاستخدمها في مكة وجوارها دون أن يعترضه أحد من الناس بل كان محترماً من الجميع. وقد حاز فوق ذلك شرفاً لم يحزه سواه من المستشرقين ولا يحوزه إلا الأفراد القلائل من المسلمين ألا وهو شرف كناسة الكعبة ولكنه على ما يظهر لم يفلح حتى النهاية في تنكره، فعندما قصد إلى المدينة زائراً صدّه الوهابيون فعاد إلى ينبع ومنها إلى مصر فباريس حيث اجتمع بنابليون وعيّن في حاشية أخيه يوسف بونابرت. وقد عاد علي بك إلى الشرق في سنة (١٨١٨) ميلادية فسافر من دمشق ليرحل رحلة ثانية في البلاد العربية ولكنه وهو لا يزال في أول الطريق أصيب بالدوزنطارية فمات في المزاريب.

ومن هؤلاء العالم الألماني أولريخ زتسن الذي قضى عشرين سنة يدرس ويتأهب لرحلته في الشرق فجاء سوريا سنة (١٨٠٥) ميلادية وأقام في الشرق الأدنى بضع سنين ثم سافر إلى الحجاز في زي درويش اسمه الحاج موسى فدخل مكة حاجاً (١٨١٠) ميلادية وارتحل منها إلى اليمن فزار صنعاء ونزل إلى عدن. قد كان في نية زتسن أن يجتاز شبه الجزيرة إلى الخليج ليسوح في الشرق الأوسط، فعاد من عدن ووجهته الجبال ولكن عند مروره بتعز اعترضه بعض الناس وقد أرابهم أمره فقتلوه.

الثالث: من المستشرقين الذين ساحوا في الحجاز السويسري المشهور بركهارت المسمى بالحاج عبدالله جاء الحجاز عندما كان محمد علي باشا هناك فنزل في جدة في ١٥ تموز (١٨١٤) ميلادية وسار منها إلى الطائف ثم دخل مكة المكرمة في ١٩ رمضان (١٢٣٠) هجري، ٤ أغسطس (١٨١٤) ميلادية بعد استئذان صديقه العظيم وهو يومئذ سيد الحرمين فحج مع من حجوا في ذاك العام وأقام في مكة ثلاثة أشهر ثم سافر إلى المدينة فأدى الزيارة في أبريل (١٨١٥) ميلادية يوم كان محمد علي باشا هناك ولكنه مرض في المدينة فعاد إلى القاهرة في ربيع ذاك العام وتوفي فيها. كان بركهارت في قيافته وفي إسلامه محترماً موقراً يصف نعمة يتبجح لها: (ما شعرت في مكان آخر بمثل الطمأنينة التي كنت أشعر بها وأنا في مكة) قاله الشيخ أحمد زكي باشا.

الثامن : الطلياني جوفاني فيناني في (١٢٣٠) هجري باسم الحاج محمد.

التاسع : ليون روش في (١٢٥٧هـ) باسم الحاج عمر.

العاشر : الفرنسي ده كوريه في (١٢٥٧) هجري باسم الحاج عبد الحميد بك.

الحادي عشر : الفنلندي جورج أغسطوس والين في (١٢٦١) هجري باسم ولي الدين.

الثاني عشر : الإنجليزي سير ريشار برتن في (١٢٦٩) هجري باسم الحاج عبدا لله.

الثالث عشر : الألماني هنريش فريهرفون مالتزان في (١٢٧٦) هجري باسم سيدي عبدالرحمن.

الرابع عشر : الإنجليزي هرمان بيكنل في (١٢٧٨) هجري باسم الحاج عبد الواحد.

الخامس عشر : الإنجليزي جون ويركين في (١٢٩٤) باسم الحاج محمد أمين.

السادس عشر : الهولندي كرستان سنوك هرجونجي في (١٣٠٣) باسم عبد الغفار، وهو صديقي ومن كبار المستشرقين ولا يزال موجوداً إلى الآن.

السابع عشر : الفرنسي خرفي كور تلمون في (١٣١١) هجري باسم الحاج عبدا لله، وقد تعرف بي عند رجوعه إلى القاهرة وتفاوضنا الحديث كثيراً ولا يزال بقيد الحياة.

الثامن عشر : السويسري الدكتور هيس في (١٣٢٨) هجري، ولا يزال باقياً إلى الآن ينفع بعلمه الواسع خصوصاً فيما يتعلق ببلاد العرب وأهلها، وهو من أعز أصدقائي ومن كبار المستشرقين وهو آخر من دخل الحجاز من الإفرنج. انتهى ما ذكره الشيخ أحمد زكي باشا. وفي الرحلة الحجازية لمحمد لبيب: أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة وكتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية إنما كانوا يتزيون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ويدّعون أنهم على الدين الإسلامي ونخص بالذكر منهم بوركات السويسري، وبورتون الإنكليزي، وهور جريج الهولندي، وكور تلمون الفرنساوي، وأولهم هو أسبقهم إلى التورط بنفسه في بلاد العرب وبوركات

سويسري الجنس بوزاني المولد وفد إلى مصر ودخل الأزهر بعد أن ادّعى الإسلامية وسمى نفسه إبراهيم المهدي وتعلم فيه العربية ثم سافر إلى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين وكتب عنها كتابه الذي هو أحسن ما كتبه الفرنجة خصوصاً في صفة بلاد العرب وقبائلها. ومات في مصر على زيه الإسلامي.

وفي المجلد الأول من مجلة المنار في صفحة (٧٨٣) وفي (١٨٠٩) ميلادية تمكن الفرنساوي روش وكان مترجماً عند الأمير عبد القادر الجزائري من الدخول بصفة زي عربي إلى مكة المكرمة حيث حظي بلقيا وحفاوة شريفها سيدي محمد بن عون وأعلمه أنه وافد من قبل الأمير ليحصل على التصديق من علماء العرب على فتوى أفتاها علماء مصر والقيروان. وسافر من مكة للطائف، ولدى عودته إلى مكة حضر جمع الحج الشريف ولكن دل عليه بعض الحجاج الجزائريين فكشفوا خبره وفضحوا أمره وقبضوا عليه وساقوه إلى السجن والناس حوله تحاول الفتك به فسلّمه شريف مكة كتاب أمان وبعض نقود يستعين بها على سفره، وأشخصه إلى جدة. وفي (١٨١٣م أو ١٨١٥) احتال السائح السويسري بورك هادو حتى دخل مكة والمدينة ورجع مستمداً ببعض معلومات عن حالة البلاد الجغرافية وعن أهاليها وتظاهر في آخر أمره بالإسلام وعليه مات وقبره بمصر واسمه عليه هكذا: (عبدا لله بوركهارد) ومشهور عند العامة باسم الشيخ بركات. انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي.

ومنهم: السويسري يوهان لودفيج بوركهارت المولود في لوزان وهو من فضلاء المستشرقين وقد طاف بكثير من البلدان العربية وقد أسلم بإخلاص وأتى مكة للحج وزار المدينة المنورة وقضى بالحجاز شهوراً وألّف كثيراً من الكتب المهمة ثم أقام في القاهرة من سنة (١٨١٤) ميلادية ومات ودفن بها، وقد ذكره الجبرتي باسم الشيخ إبراهيم الإنجليزي.

ومنهم: المسيو «إتيان دينه» الإفرنسي فلقد أسلم بإخلاص وحسن إسلامه وحج في سنة (١٣٤٧هـ) ألف وثلاثمائة وسبع وأربعين هجرية، وألّف كتاباً قيماً عن حجته إلى البيت الحرام وكتاباً آخر عن حياة النبي ﷺ أجاد فيه وأبدع بقوة حجته، ومن بدائع تآليفه كتابه المسمى «إنك لفي وادٍ وأنا لفي وادٍ» رد فيه على من تنقص الإسلام والرسول ﷺ كأمثال لامنس اليسوعي وغيره، فلقد بيّن فساد طريقة هؤلاء الأوروبيين الذين حاولوا أن يحللوا السيرة المحمدية وتاريخ ظهور

الإسلام بحسب العقلية الأوروبية فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً لأن هذا غير هـذا ولأن المنطق الأوروبي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء الشرقيين عليهـم الصلاة والسـلام، إلى آخـر مـا ذكـر عـن المسيو «اتيـان دينـه» الإفرنسـي الأمـير شكيب أرسلان رحمه الله تعالى في تعليقاته وحواشـيه علـى الكتـاب القيـم الفريـد «حاضر العالم الإسلامي».

ومنهم: المستر عبدالله فلبي الإنجليزي حضر من بلاده في زمن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بعدما حكم الحجاز رحمه الله تعالى سنة (١٣٤٣هـ) فلازم عبـدالله فلبي جلالة الملك عبدالعزيز وأظهـر لـه ولاءه وخدماتـه كمـا أظهـر إسـلامه وأتـى الحرمين وأقام بمكة كثيراً وساح في أطراف المملكة السعودية، ثم ظهرت منه بوادر الخيانة والمكر فأخرجه الملك عبدالعزيز من المملكة فسـافر إلى بـلاده إنكلـترا وارتـدّ عن الإسلام وألّف كتباً عن أحوال المملكة السعودية.

وإن شاء الله تعالى نكتب نبذة صغيرة في أول الفصل ونقول: إن المستشـرقين لا يقصدون مـن الوصـول إلى الأمـاكن المقدسـة إلا للوقـوف علـى عـادات أهلهـا والنيل مـن كرامـة الديـن الإسـلامي الحنيـف بـالكذب والـزور وليخدمـوا بلادهـم وحكوماتهم الإفرنجية ليستولوا على خيرات البلاد الإسلامية... إلخ.

فممن وصلوا إلى مكة المكرمة: العالم السويسري ليدريكك بركهارد فإنه سمى نفسه إبراهيم عبدالله وتزيا بزي المسلمين ودخل مكة والمدينة ووصف موسم الحج وصفاً بارعاً وكتب مؤلفه (في البلاد العربية) ونشره في لندن وألمانيا عام (١٨٢٩) ميلادي.

ومنهم: الرحّالة الألمـاني فـون مالـترن، فلقـد وصـل إلى الحرمـين وتزيـا بـزي الحجاج المغاربة وطبع رحلته في ليبسك بألمانيا سنة (١٨٦٥) ميلادية.

ومنهم: السير ريشارد برتـن، فقـد زار الحرمـين وتزيـا بـزي المسـلمين وسمـى نفسه عبدالله وكتـب مؤلفـاً سمـاه (مكـة والمدينـة) نشـره في لنـدن سـنة (١٨٥٧) ميلادية في مجلدين مصورين.

ومنهم: سـنوك هرغرونيـه الهولنـدي فقـد وصـل الحرمـين ووصـف الحيـاة في الحجاز وموسم الحج في سنة (١٨٨٥) ميلادية.

ومنهم: سائح إسباني تظاهر بالإسلام وسمى نفسه علي بك العباسي ودخل الكعبة المشرفة.

ومنهم: المستشرق النمساوي الذي أعلن إسلامه في سنة (١٩٢٦) ميلادية وسمى نفسه محمد أسد، فقد أتى الحجاز وزار البيت الحرام ودرس القرآن الكريم وقضى في الحجاز خمس سنوات وألّف كتاباً اسمه: «الطريق إلى مكة» وكتاباً آخر اسمه: «الإسلام على مفترق الطرق»، وهذا الرجل ربما أسلم عن يقين وحسن إسلامه.

هذا ولم نبحث في وقتنا الحاضر عمن دخل من الكفار والإفرنج إلى الحرمين الشريفين لكن سمعنا أن بعضهم قد أظهر الإسلام وأظهره في بعض المحاكم الشرعية بالمملكة العربية السعودية والله تعالى أعلم بنياتهم هل هي حسنة أم خديعة.

بعض الكفار الذين دخلوا مكة للعمل بها بإذن الحاكم الشرعي

ذكرنا في هذا الكتاب حكم دخول الكفار إلى الحرم ومكة وما جاء هنا في هذا الفصل من دخول بعضهم إلى مكة كالنصراني الذي بعثه عبد الملك بن مروان لعمل الضفاير لرد السيل، وكأبي بحر المجوسي النجار الذي استقدمه عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس، وكالعملة من الفرس الذين استحضرهم ابن الزبير رضي الله عنهما لبناء الكعبة «إن صحت الرواية».

إنما كان دخول هؤلاء إلى مكة بإذن من ولي الأمر ولضرورة المصلحة التي اقتضت ذلك وقد فوض الشرع الشريف لولي الأمر فقط في بعض الأمور التصرف فيها حسبما تقتضيه المصلحة، فأحياناً تكون بعض الأمور الممنوعة جائزة عند الضرورة ومقتضيات الأحوال، ففرق بين دخول الكافر إلى مكة والحرم بإذن الحاكم وللقيام بمصلحة خاصة ليس في المسلمين من يمكنه القيام بها وبين دخوله بدون إذن وبدون مصلحة مبررة، وإليك قصة بعض من دخل مكة للعمل بها بإذن ولي الأمر:

قال البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» بصحيفة (١٠٥): ورد في كتاب الأغاني من أن ابن سريج سئل عمن تعلّم الغناء على القاعدة التي كان يغني عليها

مع أنها ما كانت معروفة عند العرب. فقال: إنه تعلّمها من عملة من الفرس، كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها. انتهى من الرحلة الحجازية للبتنوني.

نقول: لم نرَ هذا الخبر بأن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما استحضر عملة من الفرس لبناء الكعبة سنة (٦٤) من الهجرة في غير كتاب الرحلة الحجازية من التواريخ، فإن كان هذا الخبر له أصل من الصحة في كتاب الأغاني أو غيره فإننا نفسّر معنى ذلك أن عبدا لله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما إنما استحضر من عملة الفرس من كان مسلماً أو أنه لم يجد من يقوم ببناء الكعبة على الوجه الأكمل غيرهم والضرورات تبيح المحظورات والله تعالى أعلم.

وجاء في تاريخ الإمام الأزرقي عند الكلام على «سيل الجحاف» الذي كان بمكة في سنة ثمانين من الهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان، وقد جاء صبح يوم التروية، أي ثامن ذي الحجة بالغبش قبل صلاة الصبح وقد كان الحجاج آمنين نزلوا في وادي مكة فذهب بهم وبمتاعهم ودخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة وجاء دفعة واحدة وهدم الدور والشوارع على الوادي، وقتل الهدم ناساً كثيراً ورقى الناس في الجبال واعتصموا بها فكتبوا ذلك إلى عبد الملك بن مروان ففزع لذلك وبعث بمال عظيم وكتب إلى عامله يأمره بعمل ضفاير للدور الشارعة على الوادي للناس من المال الذي بعث به وبعمل ردم على أفواه السكك لتحصين دور الناس من السيول، وبعث رجلاً نصرانياً مهندساً في عمل ذلك. وعمل ضفاير المسجد الحرام وضفاير الدور في جنبتي الوادي. انتهى باختصار من الأزرقي.

ومعنى الضفاير البناء بالحجارة بدون طين ولا نورة أي ما يشبه الرضم لكن على صفة مخصوصة لرد السيول على الدور والمسجد الحرام.

وقال الغازي في تاريخه في الجزء الأول بصحيفة (٦٢٧) ما نصه:

وفي سنة مائة وستين هجرية قدم عيسى بن علي بن عبدا لله بن عباس من العراق إلى مكة بأبي بحر المجوسي النجار فعمل له سقوفاً في داره التي عند المروة وباب داره التي يقال له دار مخرمة، فعمل أبو بحر قبة ساج خارجها أخضر وداخلها أصفر. انتهى من الغازي.

نقول: إن ما ذكره الغازي من أن عيسى بن علي بن عبدا لله بن عباس جاء بأبي بحر المجوسي النجار لعمل أبواب داره التي عند المروة وعمل سقوفها قد ذكره أيضاً الإمام الأزرقي في تاريخه عند الكلام على «صفة قبة زمزم وحوضها وذرعها» فإنه رحمه ا لله تعالى بعد أن ذكر ذرعها وحوضها قال: وحول هذا الحوض اثنتا عشرة أسطوانة ساج طول كل أسطوانة أربعة أذرع وما بين حد الأساطين ووجه زمزم أربعة عشر ذراعاً وفوق الأساطين حجرة ساج طولها في السماء ذراعان، وعلى الحجرة قبة ساج خارجها أخضر وداخلها أصفر وطول القبة من وسطها من داخل أربعة عشر ذراعاً، وكانت هذه القبة عملها المهدي في خلافته سنة (١٦٠) ستين ومائة، عملها أبو بحر المجوسي النجار الذي كان جاء به عيسى بن علي بن عبدا لله بن عباس من العراق يعمل أبواب داره التي على المروة يقال لها دار مخرمة ويعمل سقوفها في سنة ستين ومائة...إلخ. انتهى من الأزرقي.

ولقد سمعنا سماعاً متواتراً: أنه في موسم حج سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية قدم إلى مكة المكرمة للحج أربعة من الإفرنج كانوا قد دخلوا في دين الإسلام ونزلوا في الفنادق بمكة المشرفة أحدهم من إنكلترا، والثاني من فرنسا، والثالث من ألمانيا، والرابع من سويسرا وا لله تعالى أعلم هل هم صادقون في إسلامهم أم إنهم يتظاهرون بذلك لرؤية الحرمين الشريفين والكتابة عنهما. على كل حال نحن لنا الظاهر وا لله يتولى السرائر.

لطيفة

ومن اللطائف المناسبة لهذا المبحث الطريف: ما حكاه لنا صديقنا العزيز سعادة السيد أحمد هاشم مجاهد وكيل وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة.

فلقد أخبرنا أنه لما كان في جدة في شهر ذي القعدة عام (١٣٨٤هـ) حضر إلى مكتبه أحد محرري الصحف الأجنبية من الإفرنج لأخذ بعض المعلومات من سعادته عن الحج والحجاج، فلما انتهى الصحفي الإفرنجي من مهمته قال لسعادته: لا أدري لماذا يمنع المسلمون الإفرنج من دخول مكة المكرمة أو المدينة المنورة، إن هذا لتعصب شديد، بينما المسيحيون لا يمنعون المسلمين من دخولهم في الكنائس؟

فأجاب سعادة السيد أحمد مجاهد: إن ذلك يرجع لأمرين أساسيين:

الأول : أن المسلمين يؤمنون بسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة السلام ويحبونهما ويحترمونهما كباقي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلا معنى إذن من منعهم دخول كنائسهم لرؤيتها، وأما اليهود والنصارى من الإفرنج فإنهم لا يؤمنون بنبينا وسيدنا « محمد » ﷺ فلا معنى إذن أن يدخلوا إلى الحرمين الشريفين الطاهرين المقدسين لأن مكة المكرمة هي بلد الله الأمين وأن المدينة المنورة هي بلد رسوله ﷺ فلا يدخل فيهما إلا من كان يؤمن بالله وملائكته وبجميع كتبه ورسله.

والثاني : أن منع دخول الكفار إلى الحرم لم يكن من تعصب المسلمين بل هو من أمر الله عز وجل ومن أمر نبينا « محمد » ﷺ منذ ظهور الإسلام فلذلك لا يمكن لجميع المسلمين أن يتساهلوا في هذا الأمر مطلقاً، مع العلم بأن الكفار ليسوا ممنوعين من دخول المسجد الحرام بمكة أو المسجد النبوي بالمدينة فقط وإنما هم ممنوعون أيضاً من الاقتراب من نفس البلدتين الطاهرتين، أي إذا وصلوا إلى حدود الحرم منهما منعوا من الوصول إلى أطراف الحرم، والمسافة بين أول حد الحرم ونفس البلدة نحو عشرين كيلومتراً تقريباً. هذا هو السبب الأساسي لمنع الكفار من دخول الحرمين الشريفين.

كيفية استقاء الماء قديماً وحديثاً

هذا المبحث نكتبه لبيان كيفية استقاء الناس الماء قديماً وحديثاً. أما الإستقاء من نحو البئر أي من كل ما هو بعيد الغَور فإنه يكون بمختلف الوسائل كالدلاء النتخذ من الجلد وأنواع المواعين وكالسطل المسمى بمصر « الجردل » والتنكة المسماة بمصر « الصفيحة ».

فيدلى مثل هذه الأشياء بالرشاء « بكسر الراء » وهو الحبل وجمعه أرشية إلى نحو البئر ثم يجذب منها وقد امتلأ بالماء، والجذب يكون إما باليد وإما بالبكرة المثبتة على خشبة معترضة فوق البئر، وقد تجذب الدلاء بالبكرة بواسطة البقر أو الإبل إذا كانت كبيرة لا يحتمل جذبها الإنسان.

أما إذا كان الماء في مستوى الأرض كالنهر والحوض الممتلئ فإنه يؤخذ بالمواعين كالقدور والكيزان والصفائح.

هذه الحالة معروفة من قديم الأزمان ولا تزال إلى الآن وهي الحالة الطبيعية المعقولة قبل أن تبتكر الآلات الرافعة للماء.

وأما حمل الماء إلى المنازل والبيوت فقد كان ذلك بواسطة القِرب الجلدية في جميع الأقطار والبلدان من قديم الأزمان، وفي القِرب أيضاً كان يوضع السمن والعسل ونحوهما لأنها متخذة من جلد الحيوانات وهي حالة بدائية طبيعية.

ثم إن حمل قِرب الماء إلى الدور كان إما بواسطة الإنسان يحمل قربة على ظهره فيفرغها حيث يشاء كما هو الحال بالحجاز ومصر وغيرهما إلى اليوم، وقد ورد ذلك في سنن النسائي عن ابن مسعود: كان النبي ﷺ يأمرنا بالصدقة فما يجد أحدنا ما يتصدق به حتى ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره فيجيء...الحديث. وفي صحيح البخاري روى أن عائشة بنت أبي بكر وأم سليم لمشمرتان يرى خدم سوقهما ينقلان القرب على متونهما يفرغان في أفواه القوم، وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب أن أم سليط وهي من نساء الأنصار بايعت رسول الله ﷺ كانت تزفر لنا القرب يوم أحد.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتد وجعه ﷺ قال: صبوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح فأعهد إلى الناس. قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس وسكبنا عليه الماء حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتنّ...إلخ.

أو كان حمل القِرب بواسطة الحيوانات كالبغال والحمير، فكانوا يحمّلونها قرب الماء ويذهبون بها إلى بيوتهم ولا يزال اليوم بمكة يحمل بعضهم على حماره أربع تنكات «أي صفائح» يمشي به حيث يشاء.

وإلى الآن يحمل بعضهم بمكة القربة الممتلئة بالماء على ظهره وبعضهم يحمل الماء في تنكتين «أي صفيحتين» بواسطة عود يضعه على منكبه ويربط كل تنكة في طرف العود فيمشي بهما حيث أراد، ويطلق عندنا بالحجاز على من حمل تنكتين من الماء أنه حامل للزّفّة، بتشديد الزاي والفاء وفتحهما، وبعضهم يحمل تنكة واحدة فقط فوق رأسه كما تحمل النساء الفلاحات بمصر الماء من نهر النيل في جرة يضعنها فوق رؤوسهن فيذهبن إلى بيوتهن.

وإليك بعض الصور الفتوغرافية لحمل الماء.

انظر: صورة رقم ٣٠٢، سقاء يحمل قربة من الماء

انظر: صورة رقم ٣٠٣، سقاء يستقي بالزفة وهي حمل تنكتين من الماء

وإن شاء الله سيبطل حمل الماء في القربة والتنكة في الحجاز قريباً عندما يعم مشروع مجاري المياه في المواسير كما هو في البلدان الأخرى.

هذا وقد عمت مكة المكرمة والمشاعر المقدسة شبكة المياه الحلوة وشبكة للمجاري كما عم ذلك جميع مدن المملكة العربية السعودية.

تنظيف طريق الحج من مكة إلى عرفات

قال الغازي في تاريخه: وفي تاريخ السنجاري في حوادث سنة (١٠٨٥) خمس وثمانين وألف من الهجرة وفي شوال من هذه السنة شرع الشيخ محمد بن سليمان في تنظيف الحجون وأمر بجعل ظفيرتين من الجانبين رضماً بلا طين. وكان ابتداء عمله يوم السبت سادس شوال، ولما فرغ من ذلك شرع في إصلاح مدرج منى وتكرر ركوبه لذلك مراراً عديدة فبرحه وبنى ظفيرتين أيضاً من جانبي المدرج. انتهى.

وقال الغازي أيضاً: وفي شهر رجب سنة ألف ومائة واثنتين وثلاثين من الهجرة عمّر بطريق النيابة عن الأمير إسماعيل بك بن إيواز بك مولانا الشيخ سالم بن عبدالله البصري المحك بطريقة العمرة، فكسر أحجاره وجعله حجراً مفروشاً، وكان يؤذي الماشي والراكب ودكّه بالنورة وكذلك درج الحجون وكذلك درج ربع أبي لهب.

بمناسبة قيام الحكومة السعودية بإصلاح جميع مرافق الحج وإصلاح طرقه أحببنا أن نكتب عن هذا فصلاً خاصاً ننوه عن إصلاح طريق الحج من قديم الزمان إلى اليوم فنقول: جاء في تاريخ الإمام الأزرقي ما خلاصته: إن أمير المؤمنين المتوكل على الله لما بعث إلى مكة إسحاق بن سلمة الصايغ وهو شيخ له معرفة بكثير من الصناعات وبعث معه أكثر من ثلاثين رجلاً أصحاب صناعات شتى لإصلاح كل ما يحتاج إلى إصلاحه فوصلوا مكة في ليلةٍ بقيت من رجب سنة (٢٤١) إحدى وأربعين ومائتين فقاموا بإصلاح وضع الذهب في زاوية الكعبة المشرفة من داخلها وعمل منطقة من فضة ركّبوها فوق إزار الكعبة في تربيعها وغير ذلك.

ثم صاروا إلى منى وعملوا ضفيرة لرد سيل الجبل عن المسجد ودار الإمارة وأصلحوا الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ من منى إلى الشعب ومعه العباس بن عبدالمطلب الذي يقال له: «شعب الأنصار» الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ البيعة على الأنصار. وكانت هذه الطريق قد عفت ودرست، وعملوا كثيراً من الإصلاحات التي لا تتعلق بهذا الفصل لذلك لم نذكرها هنا.

وجاء في تاريخ الغازي عند ذكر الحجون وكَداء «بالفتح والمد» وهو الثنية التي بأعلى مكة التي يهبط الإنسان منها إلى المقبرة ويقال لها: الحجون الثاني، ما يأتي:

وفي سنة (٨١١) ثمانمائة وإحدى عشرة سهّل بعض المجاورين بمكة موضعاً مستصعباً في رأسه وسهّل أيضاً غيره من المجاورين في النصف الثاني من سنة (٨١٧) سبع عشرة وثمانمائة طريقاً في هذه الثنية غير الطريق المعتادة، وهذه الطريق تكون على يسار الهابط من هذه الثنية إلى المقبرة والأبطح، وكانت خربة ضيقة جداً فنحت ما يليها من الجبل بالمعاول حتى اتسعت فصارت تسع أربع مقاطر من الجمال محملة وكانت قبل ذلك لا تسع إلا واحداً وسهلت أرضها بتراب ردم فيها حتى استوت وصار الناس يسلكونها أكثر من الطريق المعتادة وجُعل بينهما حاجز حجارة مرصوصة وكان في بعض هذه الطريق قبور فأخفى أثرها ثم جعل مشد العمائر بالمسجد الحرام سودون المحمدي في سنة سبع وثلاثين وثمانمائة هذين الطريقين طريقاً واحدة حسنة تسع علة من المقاطر من الجمال المحملة. انتهى من تاريخ الغازي.

وجاء في تاريخ القطبي المسمى: «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» ما خلاصته: أن الملك الظاهر جقمق أول ما ولّي التفت إلى مكة المشرفة فأرسل الأمير سودون المحمدي إلى مكة ليقيم بها ويقوم بجميع العمائر وذلك سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة فأجرى الإصلاحات الكثيرة بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام والمواضع المأثورة بمنى ومزدلفة وعرفات وقطع جميع أشجار السلم والشوك الذي كان بين المارين في طريق عرفة، وكانت تمزق كسوة الشقادف والمحابر عند مزاحمة جمال الحاج في ذلك المحمل، وكانت الحرامية تكمن تحت الأشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحجاج وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه، فقطع الأمير سودون جميع تلك الأشجار وأزال الصخار الكبار ونظف الطريق ووسعها فشكره

الحجاج على ذلك ودعوا له حيث كانت تضر المسلمين وإلا فشجر الحرم لا يعضد ولا يقطع فرحمه ا لله تعالى وأثابه الحسنى. اهـ.

وجاء فيه أيضاً: أن الأمير خوش كلدي نائب جدة في حدود سنة (٩٥٠) خمسين وتسعمائة قطع أشجار السلم ما بين المأزمين وكسر الأحجار في سفح الجبلين ومهد ووسع الطريق للحجاج ودفع بذلك عنهم شر السرّاق الذين كانوا يكمنون خلف تلك الأحجار، وشكره الناس أثابه ا لله تعالى. اهـ.

وفي تاريخ الغازي نقلاً عن تاريخ السنجاري أن الشيخ محمد بن سليمان شرع في تنظيف الحجون بمكة وذلك في شوال من سنة (١٠٨٥) خمس وثمانين وألف. وأمر بجعل ظفيرتين من الجانبين رضماً بلا طين، ولما فرغ من ذلك شرع في إصلاح مدرج منى وتنظيفه وبنى ظفيرتين من جانبي المدرج. انتهى.

وجاء فيه أيضاً: ثم في سنة (١٣٤٠) أربعين وثلاثمائة وألف أصلح طريق الحجون ووسّعه جلالة الملك الشريف حسين بن علي بحيث تسير فيه المحامل والهوادج والسيارات بسهولة تامة، وقد بنى على إحدى حافتي الجبل بهذه الطريق جداراً يفصل الطريق الجديدة عن بقية الطريق القديمة ويقي المارة في القديمة من الوقوع في الجديدة. وأصبحت المحامل والهوادج والسيارات تسير في الطريق الجديدة والمشاة والركبان على الخيل وغيرها والجمال غير المحملة تسير في الطريق القديمة. انتهى كل ذلك من الغازي.

وفي عصرنا هذا قامت الحكومة السعودية بإصلاح طريق الحج كله وتنظيفه من النواتئ والأحجار والصخور بل وتكسير بعض الجبال، فتم كل ذلك في عام (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف فصارت الطرقات واسعة سهلة السير للراجل وراكب الدواب والسيارات «الأوتومبيلات».

انظر: صورة رقم ٣٠٤، لبعض الحجاج والخيام والسيارات في منى
انظر: صورة رقم ٣٠٥، شارع الاسفلت في الطريق ما بين منى ومزدلفة

ومما يلحق بهذا الفصل تكسير عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما جبل الفلق بمكة الذي هو فوق محلة القرارة كما ذكره الغازي في تاريخه حيث يقول: جبل الفَلَق بفتح الفاء وسكون اللام، سمي بالفلق لأن ابن الزبير رضي ا لله تعالى عنه وعن أبيه ضربه حتى فلقه فسهل الطريق بالجبل، لأن المال كان يأتي من العراق فيدخل به مكة فيعلم به الناس فكره ذلك فسهل طريق الفلق ودرّجه فكان إذا

جاءه المال دخل به ليلاً ثم ليسلك به المعلاة في الفلق حتى يخرج به على دوره بقعيقعان فيدخل ذلك المال ولا يدري به أحد وعلي رأس الفلق موضع يقال له رحا الريح كان عولج فيه موضع رحا الريح حديثاً من الدهر فلم يستقم وهو موضع قلّ ما تفارقه الريح. انتهى من تاريخ الغازي، ورأينا هذا الكلام أيضاً في تاريخ الأزرقي.

وقد روى الأزرقي أيضاً في تاريخه: أن يحيى بن خالد بن برمك هو الذي ضرب وسهّل جبل الحزنة وهو الثنية التي تلاصق شعب أبي لهب بين ذي طوى والزاهر الكبير، قال وهي ثنية قد ضرب فيها وفلق الجبل فصار فلقاً في الجبل يسلك فيه إلى الممادر والممدرة بذي طوى عند بئر بكار ينقل منها الطين الذي يبني به أهل مكة. اهـ.

فيعلم مما تقدم أن تكسير الجبال وتمهيد الطرق كان معروفاً في الأزمنة السابقة غير أن وسائل العمل وكيفيته كانت مختلفة، ففي تلك الأزمان كانوا يكسرون الجبال الصلبة بإيقاد الحطب عدة ليالي كما ذكرنا ذلك عند إصلاح الأمير إبراهيم المهمندار عين حنين وعرفات على حساب بنت السلطان سليمان خان. وأما في زماننا عصر القوة الكهربائية فإنهم يثقبون في الجبل عدة ثقوب ثم يضعون فيها الديناميت ويشعلون الفتيل المتصل به فيثور بعد بضع دقائق فيتكسر الجبل قطعاً قطعاً.

دخول الفيل إلى مكة

بلاد الحجاز خالية من الحيوانات المفترسة الكبيرة ما عدا ما يتسلط على بعض المواشي كالذئب وابن آوى «أبو الحصين» والجعير الذي يأكل الحمير ويندر أن يرى بها صنف الأسد، أما الفيل فلا يوجد منه شيء أصلاً اللهم إلا ما يجلب إليها من الخارج كما نذكر من ذلك أربع قصص وقفنا عليها في التاريخ وهي:

(الأولى) قصة أصحاب الفيل وهي شهيرة، وخلاصتها أن أبرهة الحبشي سار بجيشه ومعه الفيل يريد مكة لهدم بيت الله الحرام، فلما كانوا بالمغمّس «بفتح الميم الثانية وتشديدها» وهو واقع بين الجعرانة والشرائع في طريق السيل إلى الطائف كما في هامش تاريخ الأزرقي وتهيأوا لدخول مكة ووجّهوا الفيل الأبيض العظيم الذي معهم واسمه محمود إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي فقام إلى جنب

الفيل والْتقم أذنه فقال: أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد ا لله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك محمود وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد في الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فوجهوه إلى اليمن راجعاً إلى المشرق ففعل مثل ذلك فوجهوه إلى مكة فبرك فأرسل ا لله تعالى عز شأنه عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيلٍ فجعلهم كعصف مأكول. قيل كان مع أبرهة فيل واحد عظيم، وقيل اثنا عشر فيلاً، وقيل ثمانية أفيال، وقيل كان معه ألف فيل والأصح كان معه فيل واحد وا لله تعالى أعلم.

فلم يدخل فيل أبرهة مكة المشرفة المحروسة، وما جاء في الرحلة الحجازية للبتنوني رحمه ا لله تعالى بأنه يقال: إن الفيل دفن بمكانه المشهور بباب جرول بمكة الذي يخيم عنده المحمل المصري، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرفيق فهذا القول لا صحة له مطلقاً لأن الفيل لم يدخل مكة فكيف يدفن فيها؟ بل لم يدخل الحرم كما قال ابن الأثير وتبعه الفاسي وجزم المحب الطبري وشيخه ابن خليل أن الفيل وقف عن السير إلى مكة في وادي محسّر «بضم الميم وفتح الحاء وكسر الشين المشددة» وهو وادٍ بين منى ومزدلفة وهو من الحرم كما هو مذكور في حاشية ابن حجر على الإيضاح. قال الأزرقي في تاريخه: وذرع منى من جمرة العقبة إلى وادي محسّر (٧٢٠٠) مائتين وسبعة آلاف ذراع. وفي هذه الحاشية لكن نظر الفاسي بقول ابن الأثير أن الفيل لم يدخل الحرم، ويقال لوادي محسّر وادي النار قيل لأن رجلاً اصطاد فيه فنزلت نار فأحرقته، وقيل لأن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رأى اثنين على فاحشة فيه فدعا عليهما فنزلت نار فأحرقتهما. انتهى من حاشية الإيضاح.

نقول: ونحن نذهب مع قول القائل أن الفيل لم يدخل الحرم مطلقاً وأن ا لله تعالى قد أهلك أصحاب الفيل في الحل بالمغمّس عند عرفات كما يأتي هنا بيان موقع المغمّس وا لله تعالى أعلم بالغيب.

هذه خلاصة يسيرة ونبذة صغيرة عن أصحاب الفيل والقصة كاملة مذكورة في أوائل الكتاب في سيرة النبي ﷺ، قال صاحب كتاب «مرآة الحرمين»: وكانت واقعة الفيل سنة (٥٧١) ميلادية، وكانت ولادة النبي ﷺ عام الفيل.

نقول: المغمّس الذي أهلك ا لله فيه أبرهة وقومه المذكور في القصة هنا هو مكان معروف واقع على يسار مستقبل القبلة بعرفات، فمن وقف تحت منارة

(مسجد نمرة) مستقبلاً جبل الرحمة بعرفات يكون المغمّس على يساره والمغمّس واد متسع جداً ومنه يظهر بوضوح تام منظر عرفات وجبل الرحمة والشاخص الذي عليه، فبين المغمّس وهذا الجبل أقل من اثنين كيلو متر يعني أن المغمّس يقع من بعد حدود الواقف بعرفات وبين المغمّس وبين مسجد نمرة أقل من اثنين كيلو متر أيضاً، فعليه يكون من المحقق أن أبرهة وقومه أهلكهم االله تعالى في الحل لا في الحرم فلم يدخل أحد منهم أرض الحرم مطلقاً أي لم يصل إلى جهة مسجد نمرة لأن هذا المسجد واقع عند حدود الحل من الحرم. هذا ما حققناه و لم نجد من فصّل ذلك أحد من المؤرخين فالحمد لله على التوفيق.

والثانية : ما ذكره الفاسي في الجزء الثاني من كتابه «شفاء الغرام» ما يأتي:

ومنها : أنه في سنة (٧٣٠) ثلاثين وسبعمائة أيضاً حج الركب العراقي ومعهم فيل وما عرفت مقصد أبي سعيد خدابنده ملك التتار بإرساله، وقد ذكر خبره البرزالي نقلاً عن العفيف المطري لأنه قال بعدما سبق ذكره من خبر الفتنة: وكان الركب العراقي ركباً صغيراً ووصل معهم فيل وقفوا به المواقف كلها وتفاءل الناس منذ رأوه شراً وكنا خائفين أن يقع بسببه شر إذا وصل إلى المدينة المنورة فوصل إلى أن بلغ الفرش الصغير قبيل البيداء التي ينزل منها إلى بئر الحرم من ذي الحليفة فجعل كلما أراد أن يقدم رجلاً تأخر مرة بعد مرة فضربوه وطردوه وكل ذلك يأبى إلا الرجوع إلى القهقري إلى أن سقط إلى الأرض ميتاً في يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي الحجة وذلك من معجزات النبي ﷺ وهذا من غرائب العجائب والحمد لله على ذلك.

وقد ذكر خبره النويري في تاريخه بمعنى ما ذكره المطري وقال: قيل إنه انصرف عليه من وقت خروجه من العراق إلى أن مات زيادة على ثلاثين ألف درهم وما علم مقصد أبي سعيد في إرساله ذلك. اهـ. انتهى ما ذكره الفاسي في شفاء الغرام.

والثالثة : ما ذكره الغازي في تاريخه أيضاً نقلاً عن كتاب «إتحاف فضلاء الزمن» ما نصه:

وفي غرة شعبان ورد إلى مكة الوزير محمد باشا متولي اليمن من البر وأثقاله من البحر وجاء ثقله في سفينة من الحديدة حملتها فيل برسم الهدية لمولانا السلطان الأعظم عثمان خان فأخرج الفيل المذكور من السفينة إلى أم قرين، بالتصغير

موضع على مرحلة من مكة وحاولوا على أن يدخلوه مكة فما أطاع فكانت أوفى كرامة وخرج جماعة من مكة للفرجة عليه ورؤيته وذهبوا به من هناك إلى جدة وظهر شؤمه وحصل جدب وفناء وتوفي الوزير الذي أتى به سادس عشر شوال من السنة المذكورة ودفن بالمعلا. انتهى من تاريخ الغازي.

نقول: لم نسمع أن بين مكة وجدة موضع على مرحلة منهما يقال له «أم قرين» والظاهر أن المراد بأم قرين هو «بحرة» إذ بينها وبين مكة أو جدة مرحلة واحدة، فبحرة تقع في منتصفهما وقد جاء ذكر «القرين» بالتصغير في رحلة ابن جبير الذي كان في القرن السادس الهجري ومن وصفه للقرين عرفنا أنه أراد به الموضع الذي يقال اليوم «بَحْرَة» بفتح الباء وسكون الحاء، فعلم مما تقدم أنه إذا أطلق القرين أو أم القرين بين مكة وجدة فالمراد به نفس «بحرة» بدون شك وقد يطلق على جبل الرحمة بعرفات قرين بالتصغير أيضاً، فافهم ذلك فإنه لا يوجد في كتاب. وقول الغازي "سادس عشر شوال من السنة المذكورة" لم يذكر السنة في هذه القصة لكن تقدمتها قصة أخرى كانت سنة (٩٩٩) تسع وتسعين وتسعمائة فإن كان يشير إلى هذه السنة فهل كان في حواليها سلطان اسمه عثمان خان؟ والله تعالى أعلم بذلك.

ولقد رأينا في التاريخ أن السلطان عثمان الأول توفي سنة (٧٢٦) والسلطان عثمان الثاني تولى سنة (١٠٢٧) والسلطان عثمان الثالث تولى سنة (١١٦٨) من الهجرة.

والظاهر أنه أراد الراوي بالسلطان عثمان خان السلطان عثمان الثاني والله تعالى أعلم بالمراد وإليه المرجع والمعاد. وأيضاً هذا الفيل المذكور لم يدخل مكة.

(والرابعة) ما ذكره الغازي أيضاً في تاريخه نقلاً عن أبي الفيض أنه قال: وفي سنة (١٣١٨) ثماني عشرة وثلاثمائة وألف أهدي إلى أمير مكة وشريفها عون الرفيق بن الشريف محمد بن عبد المعين فيلاً من أغنياء السادة فورد الفيل مكة، وكان الأمير يشهد به المشاهد كلها ويمشي في شوارع مكة ويطلع به الطائف وبقي على ذلك إلى أن قتله بعض الأشراف في أوائل عام الرابع والعشرين بعد الثلاثمائة والألف، ذكره أبو الفيض. انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي.

انظر: صورة رقم ٣٠٦، الشريف عون الرفيق حاكم مكة المشرفة وأميرها المتوفي بعد عام ١٣٢٠هـ

فظهر مما تقدم أن الفيل في القصة الأولى وفي القصة الثالثة لم يدخل مكة ودخلها في القصة الثانية والرابعة.

ولم نرَ في التاريخ عن دخول الفيل مكة غير ما تقدم.

وما ذكره الغازي عن أبي الفيض أن الفيل قتله بعض الأشراف في أوائل عام الرابع والعشرين بعد الثلاثمائة والألف وهم منه، والأصح أن قتل الفيل كان في أوائل عام الثالث والعشرين حيث قتله كان قبل وفاة الشريف عون الرفيق أمير مكة، والشريف المذكور توفي بالطائف في جمادى الأولى سنة (١٣٢٣) ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف كما ذكره الغازي في الجزء الثاني من تاريخه.

نقول: بما أن الشريف عون الرفيق صاحب الفيل المذكور هو من أهل عصرنا وإن مات قبل ولادتنا بسنتين فقد اتصلنا في اليوم السادس من شهر رجب عام (١٣٧٦) بالشيخ حسن عَشّي بكسر الشين المشددة، رئيس الطباخين بمكة لأنه كان كثير الاتصال والاجتماع بالشريف عون الرفيق المذكور بل إن الشريف المذكور ربّى الشيخ حسن العَشّي منذ صغره واتخذه كابنه واعتنى بتربيته حتى صار رئيساً للطباخين فكان يثق به ثقة عظيمة ولا يأكل إلا ما يقدمه له بنفسه. والشيخ حسن المذكور ولد في عام (١٢٩٧) وهو مع كبر سنه تراه فاضلاً محترماً، نظيف الملبس، مرفوع القامة، حاضر الذهن، لطيف الخلق، ومع شيخوخته تراه في صحة جيدة وعافية تامة عليه الهدوء والوقار وسيماء الخير والطيب.

فحينما اجتمعنا به طلبنا منه أن يخبرنا بقصة فيل الشريف عون الرفيق فقال ختم الله لنا وله بخير وراحة تامة على الإيمان الكامل ببلده الأمين آمين:

في عام (١٣١٥هـ) أرسل السيد محمد السقاف الكبير الذي كان ببلاد جاوى فيلاً صغيراً من الهند هدية للشريف عون الرفيق حيث كان صديقه وأرسل مع الفيل سايساً هندياً يتولى شؤونه فكان السايس يكلم الفيل باللغة الهندية والفيل يفهم كلامه، فعند وصول الفيل إلى مكة صاروا يقدمون له كل يوم أرزاً مطبوخاً باللبن الحليب والسكر لمدة خمسة عشر يوماً ثم صاروا يقدمون له أنواع المأكولات كالقصب السكر.

قال الشيخ حسن المذكور: ومن عجيب ما رأيت من أمر الفيل أنه دخل علينا في مطبخ الشريف عون بغتة فكسر الصحون وقلب القدور وأكل ما وجده، وكان

في المطبخ رجل هندي اسمه "فيروزدين" فضربه بطرف خرطومه فانفلج نصفه الأسفل.

قال: وكان الفيل يمشي في الأسواق ويضرب للناس السلام بزلّومته "خرطومه" إذا أمره السايس، وكان في كل عام يطلع معنا إلى الطائف وفي يوم من الأيام اعتدى على أحد الشحاتين فجذبه بخرطومه وغرز نابه في فخذ الرجل فمات، فلما بلغ الخبر الشريف عون أمر بقطع نابه وأمر سايسه أن يكلمه بالهندية في ذلك جزاء له على ما فعل فرضخ الفيل لقص نابه ونام على الأرض فجاء النجار وقص الناب بالمنشار، قال: وأنا أنظر قص نابه.

قال الشيخ حسن: وقد لبث الفيل حتى سنة (١٣٢٣) ثم قتل بالطائف ودفنوه تحت باب الحزم. والذي قتله الشريف زيد بن فواز أمير الطائف فإنه أمر أربعة من العبيد بقتله فضربوه بستٍ رصاصات بالبندق المارتيني، فلما سمع بذلك الشريف عون غضب غضباً شديداً فخاف الشريف زيد وهرب منه ثم مات الشريف عون بعد ذلك في السنة المذكورة. غفر الله لنا وله.

هذا ما أخبرنا به الشيخ حسن العَشّي حفظه الله تعالى عن قصة فيل الشريف عون الرفيق.

ما ذكره بعض المفسرين عن وجود صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في التابوت

ذكر بعض المفسرين أن صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت موجودة في تابوت بني إسرائيل من صورة آدم إلى صورة نبينا « محمد » ﷺ كانت مصورة من الأزل، قالوا كان فيه حتى صور بيوت المرسلين مع صورة بيت محمد ﷺ، وكانت صورته في ياقوتة حمراء مع صورة وقوفه وهو يصلي وحوله أصحابه فكان التابوت عند آدم عليه السلام ثم توارثه ذريته حتى وصل لموسى عليه الصلاة والسلام فكان يضع فيه التوراة ورضاض الألواح وكان إذا قاتل قدّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ثم لما مات موسى ومات هارون وضعوا في التابوت بقية مما تركاه مع التوراة وقطع الألواح كعصا موسى ونعلاه وعمامة هارون وقفيز من المنّ الذي كان ينزل عليهم. والتابوت هو صندوق من الخشب

طوله ثلاثة أذرع وعرضه ذراعاً مموّه بالذهب. هذا ما ذكره بعض المفسرين والله تعالى أعلم بما فيه فهو علاّم الغيوب.

صور الأنبياء التي كانت عند ملك الروم

ونذكر هنا ما جاء في « تاريخ الخميس » من حفظ صور الأنبياء ورسومهم عليهم الصلاة والسلام لدى « هرقل » ملك الروم. ولقد ورد في صحيح البخاري أنه كان في الكعبة المشرفة من الأصنام والصور ومن ضمنها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأمر ﷺ بإزالة تلك الصور ومحوها وذلك يوم الفتح، ولذلك لا نستبعد وجود صور الأنبياء لدى ملك الروم. وهنا نحب أن نذكر نقطة دقيقة وهي: أن رسول الله ﷺ لما نظر إلى صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام قال: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط فلم يقل عليه الصلاة والسلام أين رأوهما حتى يرسموا صورتهما -فتأمل- قال في مختار الصحاح: الأزلام هي السهام التي كانت أهل الجاهلية يستقسمون بها. انتهى.

وهذا نص ما جاء في تاريخ الخميس عن صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

عن هشام بن العاص قال: بعثني أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ورجلاً من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فلما وصلنا إليه أمر لنا بمنزل حسن ونزلنا فأقمنا ثلاثاً فأرسل إلينا فدخلنا عليه فدعا بشيء كالربعة العظيمة منهّبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتاً فاستخرج حريرة سوداء فنشرها فإذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الإليتين لم أرَ مثل طول عنقه وإذا ليس له لحية وإذا له ظفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عليه الصلاة والسلام وإذا هو أكثر الناس شعراً، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة بيضاء وإذا رجل له شعر قطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلب الجبين طويل الخد شارع الأنف أبيض اللحية كأنه يتبسم قال: هل تعرفون هذا ؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء وإذا رسول الله ﷺ فقال:

هل تعرفون هذا؟ قلنا نعم، إنه محمد رسول الله ﷺ وبكينا، قال: والله يعلم أنه هو. ثم قام قائماً ثم جلس وقال: الله بدينكم إنه لهو. قلنا:نعم إنه هو كما ننظر إليه فأمسك ساعة ينظر إلينا ثم قال: أما إنه كان آخر الصور هو ولكن عجلته لكم لأنظر ما عندكم، ثم عاد ففتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة أدماء سحماء فإذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس متراكب الأسنان مقلص الشفتين كأنه غضبان قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وإلى جانبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبل قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان حسن الوجه قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل أبيض مشرب بحمرة أخفى خفيف العارضين حسن الوجه قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة تشبه صورة إسحاق إلا أن على شفته السفلى خالاً قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه الصلاة والسلام، ثم فتح آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه النور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة كأنها صورة آدم كأن وجهه الشمس قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل أحمر أحمس الساقين أخفش العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفاً قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه الصلاة والسلام، ثم طواها فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة رجل ضخم الإليتين طويل الرجلين راكب على فرس فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا رجل شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

قلنا: من أين لك هذه الصور فإنا نعلم أنها على ما صورت عليها الأنبياء لأنا رأينا صورة نبينا محمد ﷺ مثله؟ فقال: إن آدم سأل ربه عز وجل أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل الله صورهم وكانت في خزانة آدم عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فلفعت إلى دانيال في خرقة من حرير فهذه بأعيانها الصور التي صورها دانيال ثم قال: والله إن نفسي طابت، وفي غير هذه الرواية لوددت الخروج عن ملكي وأن أكون عبداً لسرير ملكه حتى أموت، ثم أجازنا وسرّحنا، فلما قدمنا على أبي بكر رضي الله عنه حدثناه بما رأيناه وبما قال لنا وبما أخبرنا فبكي أبو بكر رضي الله عنه وقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل. قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت النبي ﷺ قال الله تعالى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. روى هذا الحديث أبو بكر القفال الشاشي عن الحسن صاحب الشافي عن إبراهيم بن الهيثم كذا في المنتقى. وعن كعب الأحبار أنه لما أدرك إبراهيم الوفاة جمع أولاده وهم يومئذ ستة ودعا بتابوت ففتحه وقال: أيها الأولاد انظروا إلى هذا التابوت فنظروا إلى ذلك التابوت فرأوا بيوتاً بعدد الأنبياء كلهم وآخر بيوت الأنبياء بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء فإذا هو قائم يصلي وعن يمينه الكهل المطيع أبو بكر الصديق رضي الله عنه مكتوب على جبينه: هذا أول من يتبعه من أمته، وعن يساره الفاروق عمر بن الخطاب مكتوب على جبينه: قرن من حديد أمين شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، ومن ورائه ذي النورين عثمان بن عفان آخذ بحجرته مكتوب على جبينه: ثالث الخلفاء، ومن بين يديه علي بن أبي طالب شاهر سيفه على عاتقه مكتوب على جبينه: هذا أخوه وابن عمه المؤيد بنصر الله.

انتهى ما ذكره صاحب « تاريخ الخميس » ولا ندري هل هذه الصور للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا زالت موجودة في المتاحف الإفرنجية أو في القصور الملكية في بعض الجهات أم أنها فقدت لا يعلم ماذا جرى في أمرها. الله تعالى أعلم بالغيب.

جاء في تاريخ الأزرقي في أول الجزء الثاني: وعن العلاء المكي عن جابر بن ساج الجزري قال: جلس كعب الأحبار أو سلمان الفارسي بفناء البيت فقال: شكت الكعبة إلى ربها عز وجل ما نصب حولها من الأصنام وما استقسم به من الأزلام فأوحى الله تعالى إليها أني منزل نوراً وخالق بشراً يحنون إليك حنين

الحمام إلى بيضه ويدفون إليك دفيف النسور، فقال له قائل: وهل لها لسان؟ قال: نعم وأذنان وشفتان. اهـ.

صور العرب التي كانت في بيت الملوك بالأندلس

ومما يناسب ما تقدم من ذكر صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي كانت عند هرقل ملك الروم ورآها هشام بن العاص وصاحبه حينما بعثهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليدعواه إلى الإسلام ما جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» أن موسى بن نصير بعد أن افتتح قرطبة وما يليها من الحصون والقلاع والمدائن وافتتح طليطلة التي تسمى «بمدينة الملوك» وجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك، وفي هذا البيت وجد أربعة وعشرين تاجاً، تاج كل ملك ولي الأندلس، كان كلما هلك ملك جعل تاجه في ذلك البيت وكتب على التاج اسم صاحبه وابن كم هو ويوم مات ويوم ولي، ووجد في ذلك البيت أيضاً مائدة عليها اسم سليمان بن داود عليه السلام ومائدة من جزع، فعمد موسى إلى التيجان والآنية والموائد فقطع عليها الأغشية وجعل عليها الأمناء ليس منها شيء يدرى ما قيمته. فأما الذهب والفضة متاع فلم يكن يحصيه أحد. اهـ.

ثم جاء في الكتاب المذكور عند ذكر ما وجد موسى بن نصير في البيت الذي وجد فيه المائدة مع صور العرب ما نصه :

قال : وذكروا أن هرم بن عياض حدثهم عن رجل من أهل العلم أنه كان مع موسى بالأندلس حين فتح البيت الذي كانت فيه المائدة التي ذكروا أنها كانت لسليمان بن داود عليه السلام فقال: كان بيتاً عليه أربعة وعشرون قفلاً كان كلما تولى ملك جعل عليه قفلاً اقتداء منه بفعل من كان قبله حتى إذا كانت ولاية لذريق القرطبي الذي افتتحت الأندلس على يديه وفي ملكه قال: والله لا أموت بغم هذا البيت ولأفتحنه حتى أعلم ما فيه، فاجتمعت إليه النصرانية والأساقفة والشمامسة وكل منهم معظم له. فقالوا له: ما تريد بفتح هذا البيت ؟ فقال: والله لا أموت بغمه ولأعلمن ما فيه. فقالوا: أصلحك الله. إنه لا خير في مخالفة السلف الصالح وترك الاقتداء بالأولوية فاقتد بمن كان قبلك وضع عليه قفلاً كما صنع غيرك ولا يحملك الحرص على ما لم يحملهم عليه فإنهم أولى بالصواب منا ومنك فأبى إلا فتحه. فقالوا له: أنظر ما ظننت أن فيه من المال والجواهر وما خطر على

قلبك فإنا ندفعه إليك ولا تحدث علينا حدثاً لم يحدثه فيه من كان قبلك من ملوكنا وإنهم كانوا أهل معرفة وعلم. فأبى إلا فتحه ففتحه فوجد فيه تصاوير العرب ووجد كتاباً فيه: إذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء الذين هيئاتهم هكذا هذه البلاد فملكوها. فكان دخول المسلمين من العرب إليه في ذلك العام. انتهى من كتاب الإمامة والسياسة.

مجزرة مكة

المجزرة : هي موضع نحر الإبل والبقر والغنم وتسمى المذبح أو السلخانة عند أهل مصر، وقد جرت العادة من قديم العهد أن تكون المجزرة والمقبرة خارج عمران البلدة محافظة على النظافة.

والعادة أن تكون المجزرة في بلدة آهلة بالسكان، أما مواطن البدو والعربان الذين يألفون السكن في الجبال والوديان والذين خدورهم ومنازلهم متباعدة بعضها عن بعض فإنه ليس لديهم موضع خاص للذبح فإنهم يذبحون حيثما اتفق لهم بجوار خدورهم وخبائهم أو في سفح جبل أو تحت شجرة أو فوق صخرة وليس في ذلك أدنى ضرر عليهم، لأن الهواء الطلق في الصحراء وانبساط الشمس في البيداء ينهبان الرائحة وينشفان الفضلات من الروث والدم فلا يبقيان للمكروبات من أثر.

إذا علمنا هذا يمكننا أن نجزم بأن المجزرة لم تكن معروفة بمكة المشرفة قبيل الإسلام لقلة سكانها وتباعد البيوت فيها، وكانت حالتهم حالة بداوة فلما جاء الله بالإسلام ودخل الناس فيه أفواجاً أفواجاً من كل حدب وصوب ازداد السكان بالنسبة لما قبله فكثر ذبح الأنعام تبعاً لأصول الدين الحنيف كذبح الأضحية أو الفدية أو التصدق باللحوم وولائم العرس فكان من الضروري أن يكون هناك موضع خاص للذبح.

ولما كانت المروة بمكة هي مكان تحلل المعتمر كان أفضل بقعة لذبح المعتمر المروة لذلك قالوا يستحب الذبح بالمروة للمعتمر، لكن هذا الاستحباب يكون بالنسبة لصدر الإسلام لأن مكة لا زالت على فطرتها الأولى تقريباً فلم يكن بها العمران إلا قليلاً وفي قلب البلدة ولم يكن العمران كما في وقتنا هذا من العمارات الضخمة والقصور الشاهقة، فما كانت بجهة المروة بيوت ومنازل حتى تتأذى

بالدماء السائلة من الذبائح بل كانت الجبال وما بينها من المنعطفات والمتعرجات ظاهرة واضحة بشكلها الطبيعي، فكانت الشمس والهواء يذهبان بالروائح وينشفان الدماء والفضلات. أما الآن وقد ازدحمت المروة بالبيوت والسكان فلا يستحب الذبح بالمروة بل يحرم لتحقق حصول الإيذاء للمقيمين حول المروة.

فعلى هذا يمكن لنا أن نقول كانت بجزرة مكة في صدر الإسلام بالمروة، لكن ليس في مكان السعي والطريق العام وإنما في نواحي جبل المروة إلى جهة المدّعى وإلى جهة القرارة ولذلك كانت المواشي تباع بالمدّعى عند "مسجد الغنم" اليوم ذلك المسجد الصغير جداً الذي على رأس الزقاق بآخر المدّعى وأول الجودرية، فقد ذكر الأزرقي بصحيفة ١٩٢ من الجزء الثاني من تاريخه أن بهذه الجهة سوق الجزارين وبها أيضاً سوق الغنم كما جاء بصحيفة ١٦٣ وموقف الغنم كما جاء بصحيفة ٢١٨.

ثم لما وصل العمران إلى المدّعى وكثر الناس عما قبل انتقلت المجزرة من الموضع إلى شعب أبي دب كما ذكره الأزرقي بعدة مواضع، وقال في صحيفة ١٧٠ من الجزء الثاني وشعب أبي دب الذي يعمل فيه الجزارون بمكة بالمعلاة، وقال في صحيفة ١٨٢ "شعب أبي دب بالحجون" والأزرقي توفي في منتصف القرن الثالث للهجرة.

فعلم من كلام الأزرقي أن المجزرة كانت بالحجون بالمعلاة لكن لا نعرف بالضبط في أية بقعة كانت فما زالت المجزرة في موضعها بالحجون من ذلك الزمن إلى عصرنا الحاضر أي إلى سنة (١٣٦١) إحدى وستين وثلاثمائة وألف، لكن في عصرنا كان موضعها بالضبط وراء جبل مقبرة المعلاة من الجهة المؤدية إلى جرول لعدم وجود العمران هنالك في ذلك الوقت. وقد سمى الأزرقي هذا الموضع الأحداب وذات أعاصير كما جاء ذلك بصحيفة ٢٣١ من الجزء الثاني.

ثم إنه في السنة المذكورة أي سنة (١٣٦١) نقلت هذه المجزرة القديمة العهد إلى جهة بئر العتيبية لأن العمران اتصل إلى جهة هذه المجزرة بالمعلاة.

ثم إنه في سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف في زماننا هذا نقلت هذه المجزرة أيضاً من العتيبية إلى جهة العُشَر "بضم العين وفتح الشين" وخريق العُشَر واقع بآخر المعابدة بعد ثنية أذاخر. ولقد بنيت هذه المجزرة الجديدة بناية جميلة على الطراز الحديث في أول سنة (١٣٧٦) واستعملت للذبح بعد بنايتها بسنة

واحدة بعد أن أصلح الطريق الواقع بين الجبال المؤدي إليها وعبّد بالأسفلت ليكون سالكاً سهلاً للسيارات والمشاة. وإليك صورة المجزرة الجديدة بخريق العُشَر.

انظر: صورة رقم ٣٠٧، المجزرة الجديدة في ربع أذاخر بخريق العشر

انظر: صورة رقم ٣٠٨، مجزرة ربع أذاخر من الداخل بخريق العشر

والله تعالى أعلم هل تقوم القيامة والمجزرة الجديدة في موضعها الحالي أم تنتقل مئات المرات إلى مواضع مختلفة نائية تبعاً لامتداد العمران بمكة إلى ما شاء الله؟ ذلك علمه عند ربي فهو علاّم الغيوب بيده ملك السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم لا إله إلا هو العزيز الغفار.

ثم نقلت المجزرة إلى مسفلة مكة غرب جبل السرد ولا تزال به حتى الآن.

تجارة العرب

لما كان العرب يتصفون بالشجاعة والنخوة والشهامة وعزة النفس وعلو الهمة فقد كانوا يكرهون البطالة والكسل ويحبون التجارة والعمل والاكتساب من الوجه الحلال الشريف.

ولقد كان المهاجرون والأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يشتغلون بالتجارة والبيع والشراء، فقد جاء في أوائل صحيح البخاري في كتاب العلم في باب «حفظ العلم» عن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَات... -إلى قوله-: الرَّحِيمُ﴾ إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون. انتهى.

نقول: هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم مع قيامهم بالحروب ونصرة الدين الحنيف لتكون كلمة الله العليا لا ينسون أخذ نصيبهم من الدنيا بدون أن يركنوا إليها فقد كانوا يعطون حقوق الله تعالى في أموالهم ويعطون حقوق الضيف وحقوق الجار وحقوق الفقير ويواسون بعضهم ويؤثرون على أنفسهم فأين أولئك الرجال الذين لهم سابقة الفضل في الخيرات من زماننا هذا زمان الفتن والفساد. نسأل الله السلامة والعافية.

وجاء في صحيح البخاري أيضاً عن أنس بن مالك قال: قَدِم عبدالرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وعند الأنصاري امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق. فأتى السوق فربح شيئاً من أَقِطٍ وشيئاً من سَمِن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرة فقال: مَهْيَمْ يا عبدالرحمن؟ فقال: تزوجت أنصارية، قال: فما سُقْتَ؟ قال: وزن نواة من ذهب، قال: أَوْلِمْ ولو بشاة. اهـ.

فانظر رحمك الله كيف كان الأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم وانظر إلى تضحيتهم العظيمة في سبيل الأخوة الإسلامية والحب في الله ولقد أثنى الله تعالى عليهم في سورة الحشر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فرضي الله عن المهاجرين والأنصار فهم السابقون المختارون الأبرار فأين ذلك العصر الزاهر الأنور من عصرنا هذا المظلم الأبتر، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

ثم انظر إلى شهامة عبدالرحمن بن عوف وعزة نفسه فإنه رضي الله تعالى عنه لم يرض أن يقاسمه سعد الأنصاري الكريم أهله وماله، وإنما طلب أن يدلوه على السوق ليتاجر فيه فيأكل من كسب يده، وبالفعل فقد نزل إلى السوق وربح فيه وجمع مالاً فتزوج من ماله الخاص ثم صار فيما بعد من كبار الأغنياء المعدودين.

وتجارة العرب كانت من منتوجات بلادهم كالغزل وبعض الأعشاب والنبات والفواكه والألبان والجلود وبعض المحصولات، فكانوا يتاجرون بمحصولات البلاد في أسواقهم وفي خارج بلادهم إذا سافروا إلى جهة الشام أو اليمن ثم يأتون من هنالك بالبضائع المرغوبة في بلادهم للتجارة أيضاً.

وكان من أشهر تجارهم: أمية بن خلف، وعبدالله بن جدعان، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم.

قال الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة رحمه الله تعالى في الجزء الأول من كتابه «حياة سيد العرب» عن تجار العرب وتجارتهم ما نصه:

وكان من تجار قريش في العصر النبوي من يملك الملايين. روى الحافظ الذهبي في تاريخه أن ثروة الزبير بن العوام رضي الله عنه قدرت بعد وفاته بأربعين ألف

ألف درهم، أي أربعون مليون درهم. وكانت كل عشرة دراهم تقدر بدينار. وقدرت ثروة طلحة بن عبيدا لله رضي ا لله عنه بثلاثين ألف ألف درهم، أي ثلاثون مليون درهم، وكذلك قدرت ثروة عبدالرحمن بن عوف رضي ا لله عنه بعد وفاته فكانت أعظم من ثروتي الزبير وطلحة، وأيضاً صفوان بن أمية رضي ا لله عنه تقدر ثروته مثلهم أو يفوق عنهم.

ولم يكن أحد هؤلاء اكتسب درهماً واحداً من غير طريق التجارة، لأنه لم يحدثنا التاريخ أن أحداً من هؤلاء تقلد أمارة أو قاد جيشاً في الفتوحات الإسلامية أو صار خليفة للمؤمنين، بل حدثنا التاريخ بضد ذلك، إن قواد الجيوش وأمراء المؤمنين في الصدر الأول من الخلافة ماتوا فقراء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً بل لما حضرت أبا بكر الصديق رضي ا لله عنه الوفاة جاءته أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها فقالت له: يا أبتاه إنك كنت ذا مال وتجارة فدلّنا على مالك، فأجابها: إني كنت ذا مال وتجارة وقد أنفقت مالي على رسول ا لله ﷺ وفي سبيل ا لله فإذا أنا متّ فاطوي فراشي هذا وأودعيه بيت مال المسلمين.

وكذلك عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي رضي ا لله عنهم مثل سلفهم وكذلك سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة رضي ا لله عنهم فإنهم أعظم القواد الذين فتحوا فارس والروم في عصر الخليفتين، لم يحدثنا التاريخ عن عظم ثروتهم بل ماتوا فقراء ولو أن طلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف تأمروا على قيادة الجيش أو صاروا من أمراء المؤمنين لأصبحوا فقراء مثل إخوانهم حيث لم تأت ثروتهم إلا عن طريق التجارة فلو اشتغلوا بالأمارة لكانوا مثلهم.

فهكذا كانت قريش أغنى العرب بواسطة التجارة. انتهى من الكتاب المذكور.

أسواق مكة في الجاهلية والإسلام

جاء في الجزء الثاني من كتاب «شفاء الغرام» للفاسي ما يأتي: روينا في تاريخ الأزرقي خبراً فيه حج الجاهلية ومواسمهم وأسماء الشهور بسنده إلى الكلبي قال فيه: فإذا كان الحج في الشهر الذي يسموه ذي الحجة خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة يقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس على مراعيهم وراياتهم منحازين في المنازل، يضبط كل

قبيلة أشرافها وقادتها ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء فيجتمعون في بطن السوق فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنّة فأقاموا بها ثمان ليال أسواقهم قائمة ثم يخرجون لذي المجاز فيقيمون بها إلى يوم التروية ويخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز، وإنما سميّ يوم التروية لترويهم في الماء بذي المجاز ينادي بعضهم بعضاً، يتروون من الماء لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ، وكان يوم التروية آخر أسواقهم. وإنما يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز التجار ومن كان يريد التجارة ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية فيتروون من الماء فينزل الحمس أطراف المسجد الحرام من غرة يوم عرفة وينزل الحلة عرفة، وكان النبي ﷺ في سنيه التي دعا فيها بمكة قبل الهجرة لا يقف مع قريش والحمس في طرف الحرم وكان يقف مع الناس بعرفة.

ثم قال: وكانوا لا يتبايعون في يوم عرفة ولا أيام منى فلما أن جاء الله تعالى بالإسلام أحل الله ذلك لهم فأنزل الله عز وجل في كتابه: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾. وفي قراءة أبي ابن كعب: في مواسم الحج، يعني منى وعرفة وعكاظ ومجنة وذي المجاز فهذه مواسم الحج.

ثم قال الكلبي: وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذي المجاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثاً من الدهر.

فأما عكاظ فإنما تركت عام خرج الحروري بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة خاف الناس أن ينتهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن.

ثم تركت المجنة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وعرفة.

وقال أبو الوليد الأزرقي: وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء في عمل الطائف على بريد منها وهي سوق لقيس عيلان وثقيف وأرضها لنصره، ومجنة سوق بأسفل مكة على بريد منها وهي سوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، وهي التي يقول فيها بلال رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل تبدون لي شامة وطفيل

وشامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة، وذو المجاز سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة قريب من كبكب على فرسخ من عرفة، وحباشة سوق الأزد وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونا وحلى بناحية اليمن وهي من مكة على ست ليال وهي آخر سوق خربت من أسواق الجاهلية. وكان والي مكة يستعمل عليها رجلاً يخرج معه بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام من أول شهر رجب متوالية حتى قتلت الأزد والياً كان عليها بعثه داود بن عيسى بن موسى في سنة سبع وتسعين ومائة، فأشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخرّبها وتركت إلى اليوم.

وإنما ترك ذكر حباشة مع هذه الأسواق لأنها لم تكن في مواسم الحج ولا في أشهره وإنما كانت في رجب. اهـ باختصار. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: سوق المجاز يطلق عليه اليوم بئر المجاز وهو واقع بين عرفات والشرائع عند جبل كبكب.

وسوق عكاظ واقع بالطائف بوادي المبعوث بين عشيرة والأضاخر شرق مطار الطائف، وبين عكاظ والطائف ليلة واحدة بمسير الإبل وبينه وبين مكة ثلاثة أميال.

تاريخ إبطال أسواق العرب

قال الأزرقي في تاريخه: قال الكلبي: وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنّة وذي المجاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثاً من الدهر، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة خاف الناس أن ينتهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ثم تركت مجنّة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة.

قال أبو الوليد: وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء في عمل الطائف على بريد منها، وهي سوق لقيس عيلان وثقيف وأرضها لنصر.

ومجنة سوق بأسفل مكة على بريد منها وهي سوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، وهي التي يقول فيها بلال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

وهــل أردن يومــاً ميــاه مجنــة   وهــل يبـدون لي شـامة وطفيـل

وشامة وطفيل جبلان مشرفان على مجنة.

وذو المجاز: سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة قريب من كبكب على فرسخ من عرفة. وحباشة: سوق الأزد وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونا وحلى من ناحية اليمن وهي من مكة على ست ليال وهي آخر سوق خربت من أسواق الجاهلية. وكان والي مكة يستعمل عليها رجلاً يخرج بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام من أول شهر رجب متوالية، حتى قتلت الأزد والياً كان عليها بعثه داود بن عيسى بن موسى في سنة سبع وتسعين ومائة، فأشار فقهاء مكة على داود ابن عيسى بتخريبها فخرّبها وتركت إلى اليوم. انتهى من الأزرقي.

ما جاء عن أسواق العرب في كتاب حياة سيد العرب

وجاء في كتاب «حياة سيد العرب» عن أسواق العرب ما نصه:

كان للعرب أسواق في الجاهلية يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر قبائل العرب من بعد منهم ومن قرب فكانوا ينزلون «دومة الجندل» وهو المسمى اليوم «بالجوف» وهو واقع شمال الجزيرة قريب من الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء فيقوم بعشائهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل وإذا غلب على السوق بنو كلب يقوم بعض رؤساء كلب بعشائهم فتقوم أسواقها إلى آخر الشهر ثم ينتقلون إلى سوق «حجة» وهو المشهور في ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بها وكان يقوم بطعامهم المنذر بن ساوى أحد بني عبدالله بن دارم ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين فتقوم سوقهم بها ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر فتقوم أسواقهم بها أياماً ثم يرتحلون فينزلون (عدن) من اليمن فيشترون منها (اللطائم) وهي الأقمشة وأنواع الطيب ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ومنهم من يجوزها إلى صنعاء ثم تقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والأدم والبرد، وكانت تجلب إليها من معافر ثم يرتحلون إلى عكاظ في أول شهر شوال. وكان سوق عكاظ بمثابة المؤتمر العام والمعرض العام لعموم قبائل العرب قاطبة فكان يجتمع فيه فحول الشعراء والخطباء والملوك والأمراء وكانت تجري بينهم مسابقة في الشعر والخطابة والشجاعة وغير ذلك، فتقوم أسواقهم بعكاظ ويناشدون الأشعار ويتحاجون ومن له أسير سعى في

فدائه ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تيم وكان أحدهم الأقرع بن حابس ثم ينتقلون منها في نهاية شهر شوال فينزلون مر الظهران وهو (وادي فاطمة) في أول ذي القعدة فتقوم أسواقهم فيه طيلة الشهر، وهذا الوادي واقع شمال مكة ويبعد عنها من ٢٥ ميلاً إلى ٣٠ ميلاً، وهو وادٍ خصب كان به في الأزمان السالفة نحو ثلاثمائة عين ماء، فلعدم وجود الأيدي العاملة دمرت ولم يبق منها الآن سوى أربعة وأربعين عين ماء بخيوفها ثم ذكر مؤلف الكتاب المذكور أسماء هذه العيون لا داعي لأن نسردها نحن ثم يرتحلون إلى الحج والوقوف بعرفة، فإذا قضوا مناسكهم نزلوا مكة للطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فكانت قريش تقوم بضيافتهم بمكة حتى يرتحلوا.

وكانت لقريش اليد الطولى في التجارة فكانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف.

وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام فإذا جاء الشتاء ذهبوا إلى اليمن ببضائع الحجاز وما يتبقى من بضائع الشام فيبيعونها، ثم يشترون من اليمن الأقمشة اليمانية وأنواع الطيب ويأتون بها إلى مكة ثم يرتحلون في الصيف إلى الشام ببعض أدم الحجاز وبضائع اليمن وبعد تصريفها يشترون من الشام ما يصلح لأسواقهم من البضائع ويأتون بها إلى مكة. وكان فيهم من أصحاب رؤوس الأموال العظيمة مثل أمية بن خلف وعبدالله بن جدعان وخديجة بنت خويلد والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وغيرهم. وكان منهم من يستطيع أن يحمل من التجارة على ألف بعير لشخصه برأس ماله فكانت تنفق هذه البضائع في أسواقهم: عكاظ، ومر الظهران، وذي المجاز وبمكة ومنى وغيرها.

وكانت قريش لا تعرف الأسفار إلى الشام قبل هاشم بن عبد مناف بن قصي جد النبي ﷺ فكان هاشم هو الذي أخذ لهم (الإيلاف) من قبل قيصر ملك الروم بالشام، ومن عموم القبائل القاطنة بين الشام ومكة وذلك أنه لما سافر من مكة إلى الشام وتعرّف بقيصر ملك الروم وجد نفسه قادراً على التكلم معه فقال له: أيها الملك إن لي قوماً وهم تجار العرب فإني رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمّنهم وتؤمّن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابها فيمكّنوا من بيعه عندكم فهو أرخص عليكم فكتب له كتاباً فيه أمان لمن أتى منهم فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما يمر بحيّ من العرب على طريق الشام أخذ من أشرافهم

(إيلافاً) والإيلاف هو أن يأمنوا عندهم وفي طريقهم وأرضهم بغير حلف وإنما هو أمان الطريق. فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بينه وبين الشام حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب فكان ذلك أعظم بركة على قريش في تجارتهم فخرج تجار قريش بتجارة عظيمة ومعهم هاشم يحوزهم، فلم يبرح يجمع بين قومه وبين العرب ويؤيد إيلافهم حتى ورد الشام فباعت قريش تجارتهم واشترت من الشام بضائع شتى وعادت إلى مكة. ومنها صارت في كل صيف ترحل إلى الشام.

وأخذ لهم عبد شمس «حبلاً» من النجاشي الأكبر فارتحلوا بسبب ذلك إلى أرض الحبشة، والحبل هو العهد والأمان. وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة ملوك فارس فارتحلوا للتجارة إلى العراق وأرض فارس. وأخذ لهم عبد المطلب حبلاً من ملوك اليمن «حمير» فارتحلوا بسبب ذلك رحلة الشتاء إلى اليمن.

ثم قال صاحب الكتاب المذكور في هامشه عن موضع عكاظ ما يأتي:

عكاظ قال الأصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الأتيداء. وقال ابن دريد: وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون -أي يتفاخرون ويتناشدون-.

وفي المصباح المنير: عكاظ على وزن غراب، سوق من أعظم أسواق الجاهلية وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن. وأصح الأخبار في ذلك والذي ينطبق على الواقع هو قول أبي عبيد: هي صحراء مستوية لا جبل فيها ولا علم وهي بين نجد والطائف.

وهذا الموضع الذي تحدد بقول الأصمعي أن بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال والذي تبين شكل موضعه بقول أبي عبيد هي صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم وهي بين نجد والطائف يدل دلالة قطعية أنها ركبة وتبتدئ ركبة من عشيرة غرباً وتنتهي بحرة مران شرقاً، ومن عشيرة إلى الطائف ليلة بحساب سير الإبل وبينها وبين مكة ثلاث ليال، وهذه ركبة هي الصحراء التي لا جبل بها ولا علم وهي بين نجد والطائف وهي التي تسع جموع قبائل العرب قاطبة. ومن عادة العرب أنهم لا يختلطون في المناهل والمنازل كاختلاط الحجاج بعرفة بل كل قبيلة تنحاز عن الأخرى في مكان منفرد متباين عن القبائل الآخرين وذلك لما بين القبائل في الجاهلية مع بعضها البعض من الدماء والثارات وطالما وقعت بينها الحروب

بسوق عكاظ ولذلك لا يوجد مكان بهذه الصفة غير ركبة لأنها هي المكان الفسيح الواسع الذي يمكن اجتماع عموم قبائل العرب فيه. وأما من قال باحتمال أن يكون «السيل الكبير» فهو لا ينطبق عليه الوصف لأنه أولاً لم يكن فيه سعة تتحمل عشر تلك القبائل، وثانياً المسافة بينه وبين مكة ليلتان. فهذا ما ظهر لي بعد البحث والتنقيب في التاريخ والأمكنة المذكورة. انتهى من الكتاب المذكور بتصرف واختصار.

حضور النبي ﷺ إلى سوق عكاظ

جاء في صحيح البخاري في كتاب «الصلاة في باب الجهر بقراءة صلاة الفجر» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبرالسماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن. انتهى.

وجاء في صحيح البخاري أيضاً عن أسواق العرب في كتاب «البيوع» في باب الأسواق التي كانت في الجاهلية فتبايع بها الناس في الإسلام: حدثنا عليّ بن عبدالله حدثنا سفيان عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثّموا من التجارة فيها فأنزل الله ليس عليكم جناح في مواسم الحج قرأ ابن عباس كذا. انتهى.

نقول: ومعنى ما تقدم من اجتماع العرب في أسواق مكة كعكاظ وذي المجاز ومجنّة وغيرها للبيع والشراء، هو كالعادة الجارية إلى اليوم في بعض البلدان والقرى من اجتماع الناس والعرب والبدْو في أسواق خاصة لبيع البضائع والسلع ولا يزال

في المحطات الواقعة على طريق المدينة المنورة كالصفراء والحمراء يفتح السوق في يوم خاص من كل أسبوع يحضر إليه من هو ساكن في بطون الجبال والأودية من البدْو والعرب يشترون منه ما يلزمهم من لحم وسمن وزبدة وتمر وجبن ودقيق وحبوب وقماش وغير ذلك بما يكفيهم أسبوعاً واحداً حتى يأتي يوم افتتاح السوق في الأسبوع التالي وهكذا.

وكذلك يقع مثل هذا الأمر في الممالك الأخرى كمصر والعراق والشام واليمن، ففي الأرياف والفلاحين والقرى تفتح الأسواق يوماً واحداً من كل أسبوع وهذا أمر طبيعي لاحتياج الناس إلى بعض اللوازم ولعدم قدرتهم إلى الارتحال إلى المدن الكبيرة فيأخذون ما يحتاجون من أسواق القرى والمحطات المجاورة لمحلاتهم وسكنهم.

ثم الآن بطلت أسواق العرب القديمة المذكورة التي كانت في الجاهلية وصدر الإسلام لاتساع رقعة البلاد وكثرة الناس وانتشارهم في كل محل ومكان حتى اتصلت هذه المواقع المذكورة بعضها ببعض خصوصاً بعد اختراع السيارات وأسباب المواصلات، فصار جميع العرب يأخذون ما يحتاجون إليه من نفس مكة، وأما الأسواق التي تكون اليوم بمنى ومزدلفة وعرفات في أيام موسم الحج فهي كالأسواق العادية التي تكون بمكة والمدينة وجدة والطائف ونحوها، وهي أسواق كثيرة متعددة عامرة لذلك ليست لها ميزة تذكر.

وأما الأسواق الأسبوعية الأخرى فهي لا زالت إلى اليوم تفتح في القرى والمحطات البعيدة عن المدن في كل الممالك والأقطار.

أسماء بعض الأسواق

هذا وقد كان بمكة كثير من الأسواق المتنوعة لبيع جميع ما يلزم للإنسان من الضروريات والكماليات، ولقد ذكر الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني من الهجرة في كتابه تاريخ مكة من الأسواق ما يأتي:

عدد	اسم السوق	محل السوق
١	سوق البزازين	هو بجهة سوق الليل تقريباً.
٢	سوق العطارين	كان بقرب المسجد الحرام جهة باب بني شيبة.
٣	سوق الفاكهة	وهو بسوق الليل.

عدد	اسم السوق	محل السوق
٤	سوق الصيارفة	وهو بأول أجياد.
٥	سوق الغزّالين	وهو بأول أجياد أيضاً.
٦	سوق الرطب	وهو بسوق الليل.
٧	سوق الغنم	وهو بالجودرية عند المدّعى.
٨	سوق الصغير	وهو بموضعه المعروف اليوم.
٩	سوق ساعة	بالمعلا عند أول شعب عامر.
١٠	سوق الرقيق	وهو عند جبل أبي قبيس.
١١	سوق اللبّانين	وهو بجهة سوق الليل.
١٢	سوق الخيّاطين	وهو عند دار أم هانئ بالحزورة.
١٣	سوق الخلقان	وهو بالمسعى.
١٤	سوق الحطب	وهو عند الشبيكة جهة الهجلة.
١٥	سوق الحمارين	ثم سمّي بسوق الكراع، وهو عند المدّعى.
١٦	سوق العلاّفين	وهو أمام باب أجياد.
١٧	سوق الحوّاتين	وهو بأجياد الكبير.
١٨	سوق القوّاسين	وهو بجهة حراء، الظاهر يقصد به صانعو الأقواس.
١٩	سوق البقّالين	وهو بجهة باب أم هانئ عند باب الوداع.
٢٠	سوق البرّامين	وهو بجهة المروة.
٢١	سوق الحدّادين	وهو بجهة سوق الليل.
٢٢	سوق الحجّامين	وهو عند المروة كما هو في عصرنا هذا.
٢٣	سوق الحذّائين	وهو ما بين الصفا والمروة.
٢٤	سوق الليل	وهو بموضعه المعروف اليوم.
٢٥	سوق الورّاقين	بأسفل مكة.
٢٦	سوق اللقاقين والمزوّقين	وهو بجهة القبان عند المروة.
٢٧	سوق الحبوب والسمن والعسل	وهو بجهة القبّان عند المروة أيضاً.
٢٨	سوق الخيّاطين	عند باب إبراهيم جهة السوق الصغير اليوم.

عدد	اسم السوق	محل السوق
٢٩	سوق الجزّارين	وهو بالمدّعى.
٣٠	سوق النجّارين	وهو بجهة سوق الليل.

انتهى ما ذكر من الأسواق المذكورة في كتاب الأزرقي ونحن قد وضعناها على هذا الترتيب وقد أخذنا محلات هذه الأسواق من نفس كتاب الأزرقي أيضاً بعد المراجعة التامة فيه في كثير من الصحائف، فالحمد لله على توفيقاته.

مباسط الحراج بمكة في الجاهلية

قد يظن بعضهم أن الحراج ويسمى بمصر «سوق الكَانْتُو» أمر مستحدث، ولكنه أمر معمول به من قديم الزمن، وهذا معقول لأن الحراج مكان يبيع الإنسان فيه ما يحتاج إلى بيعه، وقد يبسط أمتعته وخردواته نهاراً فوق فراش أمامه إن كانت من القطع الصغيرة ثم يرفعها إذا أقبل الليل في صناديق يقفلها ويمضي إلى منزله حتى إذا أصبح ذهب إلى مكان الحراج وأخرج ما في الصندوق وبسطها أمامه للبيع، وهذه الصناديق خاصة لأهل الحراج لا تنقل وإنما تكون بلصق جدار البيوت التي في جوانب الحراج، وهذه عادة جارية إلى اليوم كالصناديق الموجودة بحراج الحلقة بالمعلا، وقد ذكر الإمام الأزرقي الحراج في الجاهلية بهذه الكيفية في تاريخه في الجزء الثاني عند الكلام على رباع بن عدي بن كعب حيث يقول: وكانت للخطاب بن نفيل دار صارت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كانت بين دار مخرمة بن نوفل التي صارت لعيسى بن علي وبين دار الوليد بن عتبة بين الصفا والمروة وكان لها وجهان: وجه على ما بين الصفا والمروة، ووجه على فج بين الدارين فهدمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته وجعلها رحبة ومناخاً للحاج تصدّق بها على المسلمين وقد بقيت منها حوانيت فيها أصحاب الأدم.

فسمعت جدي أحمد بن محمد يذكر أن تلك الحوانيت كانت أيضاً رحبة من هذه الرحبة، ثم كانت مقاعد يكون فيها قوم يبيعون في مقاعدهم وفي المقاعد صناديق يكون فيها متاعهم بالليل، وكانت الصناديق بلصق الجدار ثم صارت تلك المقاعد خياماً بالجريد والسعف فلبثت تلك الخيام ما شاء الله وجعلوا يبنونها باللبن النيء وكسار الآجر حتى صارت بيوتاً صغاراً يكرونها من أصحاب المقاعد في

الموسم من أصحاب الأدم بالدنانير الكثيرة، فجاءهم قوم من ولد عمر بن الخطاب من المدينة فخاصموا أولئك القوم فيها إلى قاض من قضاة مكة فقضى بها للعمريين وأعطى أصحاب المقاعد قيمة بعض ما بنوا فصارت حوانيت تكرى من أصحاب الأدم وهي في أيدي ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى اليوم. انتهى من الأزرقي.

موضع الحراج أي المزاد

بمكة عدة مواضع للحراج «بفتح الحاء» أي المزاد لبيع السلع والأمتعة قديمة كانت أو جديدة، وبها أيضاً حراج للغنم والمواشي وحراج للحطب والفحم وحراج لبيع السيارات ونحوها. وللحراج شيخ ونظام خاص ويبدأ البيع في بعضها من ارتفاع الشمس ضحوة النهار إلى الظهر وفي بعضها من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب.

وأكبر حراج بمكة للأمتعة هو حراج سوق الليل وذلك من قديم الزمان، وحراج الجفالي بالغزّة. فحراج سوق الليل هو من قديم الزمان بسوق الليل، ثم إنه في سنة (١٣٦١) إحدى وستين وثلاثمائة وألف انتقل هذا الحراج من محله القديم إلى زقاق البيض جهة المسعى ثم انتقل أيضاً من زقاق البيض إلى محله القديم بسوق الليل في سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف بسبب توسعة المسجد الحرام والشوارع.

ومن العجيب أن الحراج الكبير دائر بين سوق الليل وبين المسعى من قديم الزمن، فقد جاء في تاريخ الغازي في الجزء الأول أن الأمير بيسق الذي كان نائباً في الحكم بمكة عن الشريف حسن بن عجلان حال سفره إلى أطراف مكة أمر في شهر ربيع الآخر سنة (٨٠٤) أربع وثمانمائة بنقل السوق من المسعى إلى سوق الليل، فلما رجع الشريف حسن بن عجلان إلى مكة أمر بإعادته إلى المسعى وذلك في عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفي العصر الجاهلي أو في صدر الإسلام كانت الرحبة التي بين دار أبي سفيان ودار حنظلة بن أبي سفيان بجهة المسعى من الناحية الشرقية حراجاً أو موضعاً لبيع ما تحمله العير من السراة والطائف وغير ذلك من الحنطة والحبوب والسمن والعسل، كما ذكره الأزرقي. وكان سوق الغنم بالمدّعى بأول الجودرية عند

مسجد الغنم كما ذكره الأزرقي. ولقد روى الغازي في تاريخه أن سوق بيع الحطب كان بالمدّعى وذلك سنة (٩١٨) ثمان عشرة وتسعمائة نقول: وفي عصرنا الحاضر يباع الحطب والفحم بالحلقة بالمعلا بل صار يباع أيضاً جهة جبل حراء، فسبحان مغيّر الأحوال ومقلّب الليل والنهار.

سوق المسعى قبل التوسعة السعودية

كان المسعى سوقاً عاماً يباع فيه الحاجيات من الأطعمة والمشروبات المثلجة والأقمشة والألبسة والمجوهرات والعطورات والخردوات والمكتبات وجميع ما يلزم للإنسان من الكماليات والضروريات. وكان سوق المسعى من أهم الأسواق بمكة يقع على جانبي المسعى، والسعي يكون في وسط السوق وكل دكان فيه يختص ببيع نوع من الحاجيات.

وسوق المسعى ليس بحديث وإنما هو في هذا المكان من قديم الزمان كما كانت الحزورة «عند باب الوداع» التي كان فيها دار أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها سوق مكة في الجاهلية.

معرفة حكم البيع والشراء

ويجب على من يتعاطى البيع والشراء في الأسواق أن يعرف أحكام البيوع وما يتعلق بها من المسائل حتى لا يقع في محظور. فقد جاء في أوائل الجزء الثاني من كتاب «التراتيب الإدارية» للعلامة المحدّث الشهير الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي ما يأتي:

وفي الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم الفاسي قال عمر: لا يدخل الأعاجم سوقنا حتى يتفقهوا في الدين. يريد والله أعلم فقه ما يلزمه في خاصة نفسه. قلت: أي من أحكام البيوع وأصل ذلك من فعله عليه السلام فإنه كان يعلم كل من يتعاطى عملاً أحكامه وتكاليفه.

وقال المجاجي في شرح مختصر ابن أبي جمرة قال علماؤنا: لا يجوز أن يتولى البيع والشراء ويجلس في السوق لذلك إلا من هو عالم بأحكام البيوع والشراء وأن تعلم ذلك لمن أراده فرض واجب متعين عليه وحكى على هذا الإجماع.

وبهذا قال مالك في كتاب «القراض» وفي المدونـة: ولا أحب مقارضة من يستحل الحرام ومن لا يعرف الحلال من الحرام وإن كان مسلماً. وقد روي أن عمر بعث من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه. اهـ.

ونحوه لابن رشد في المقدمات وفي الشبرخيتي على المختصر قال القباب: لا يجوز للإنسان أن يجلس في السوق حتى يعلم أحكام البيع والشراء. وبعث عمر من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه. اهـ.

وفي المدخل لأبي عبدالله بن الحاج قد كان عمر بن الخطاب يضرب بالدرة من يقعد في السوق وهو لا يعرف الأحكام ويقول: لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا أو كما يقول.

وقد أمر مالك بقيام من لا يعرف الأحكام من السوق لئلا يطعم الناس الربا، سمعت سيدي أبا محمد يذكر أنه أدرك المحتسب يمشي في الأسواق ويقف على الدكان ويسأل صاحبه على الأحكام التي تلزمه في سلعته من أين يدخل عليه الربا فيها وكيف يحترز منها فإن أجابه أبقاه في الدكان وإن جهل شيئاً من ذلك أقامه من الدكان ويقول: لا يمكنك أن تقعد في سوق المسلمين تطعم الناس الربا وما لا يجوز. اهـ.

وفي نهج البلاغة أن علياً عليه السلام قال: من اتجر بغير فقه فقد ارتطَم (ارتبك) في الربا. قال ابن أبي الحديد في شرحه، لأن مسائل الدين مشتبهة بمسائل البيع ولا يفرق بينهما إلا الفقيه. اهـ منه ص (٤٧٩) من المجلد الرابع.

وفي قوت القلوب لأبي طالب المكي: كان عمر رضي الله عنه يطوف بالأسواق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه وإلا أكل الربا أو أبى. اهـ.

وعزى بعض المتأخرين إلى الترمذي مرفوعاً «لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين» ولم أجده في كتاب البيوع من الجامع ولا في الجامعين للسيوطي ثم وجدته في كنز العمال معزواً له. انظر ص (٢١٨) من ج١.

وفي تنبيه المغترين كان مالك يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه فإذا وجد أحداً منهم لا يفقه أحكام المعاملات ولا يعرف الحلال

من الحرام أقامه من السوق وقال له: تعلّم أحكام البيع والشراء ثم اجلس في السوق فإن من لم يكن فقيهاً أكل الربا.

وقال الزرقاني في شرح المختصر عند قوله: «وتجارة لأرض حرب» عن مالك أنه لا تجوز شهادة التجار في شيء من الأشياء إلا أن يتعلموا أحكام البيع والشراء. اهـ.

وفي البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية للشيخ أبي سعيد الخادمي الحنفي على التاجر أن يتعلم أحكام البيوع صحة وفساداً وبطلاناً حلاً وحرمة وربا وغيرها، قال في التتارخانية عن السراجية: لا ينبغي للرجل أن يشتغل بالتجارة ما لم يعلم أحكام البيع والشراء ما يجوز وما لا يجوز.

وعن البزازية لا يحل لأحد أن يشتغل بالتجارة ما لم يحفظ كتاب «البيوع». وكان التجار في القديم إذا سافروا استصحبوا معهم فقيهاً يرجعون إليه في أمورهم، وعن أئمة خوارزم أنه لا بد للتاجر من فقيه صديق. اهـ.

وانظر شرح الشيخ أبي سالم العياشي على نظمه في «البيوع» لدى قوله فيه:

لا تجلسن في السوق حتى تعلما ... ما حلّ من بيع وما قد حرما
وفي الشرا أيضاً وذاك واجب ... أيضاً على جميع من يسبب
لنفسه أو غيره ما يعرف ... حكم الذي في فعله تصرف
ودفعك المال لمن لا يعلم ... حكم البياعات قراضاً يحرم

وانظر أيضاً قول أبي زيد التلمساني في نظمه لبيوع ابن جماعة التونسي:

ولم يحل جلوسه في الشرع ... حتى يكون عارفاً بالبيع
أعني به في سائر الأسواق ... وذاك معلوم بالاتفاق
وهكذا في كل علم يجهله ... في نفسه في كل شيء يفعله
لا سيّما القاضي مع الشهود ... وعَمِمَّنْ واحذر من الوعيد
ولم يجز أن تدفع الأموالا ... لرجل لا يعرف الحلالا
وذلك في القراض والبيوع ... وجملة الأحكام في المشروع

قلت: وهذا هو الأصل في المدينة العصرية لعلم إمساك الدفاتر والتخريج في المدارس التجارية والتحصيل على إجازاتها بعد المباراة في التحصيل على درجاتها «زقلت». انتهى من كتاب «التراتيب الإدارية».

جاء في كتاب «التراتيب الإدارية» نقلاً عن كتاب «مناقب عمر» لابن الجوزي ما يأتي: قال الحسن قال عمر: من اتجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول إلى غيره، وفيه عن الأكيدر العارضي قال، قال عمر: تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة، وفي كنز العمال معزواً إلى عمر لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس، وفي المناقب عن بكر بن عبدا لله قال: قال عمر: مكسبة فيها بعض دناءة خير من مسألة الناس، وفيه عن ذكوان قال: قال عمر: إذا اشترى أحدكم جملاً فليشتره عظيماً سميناً فإن أخطأه خيره لم يخطئه سوقه.

وخرج ابن الجوزي في تلبيس إبليس ومناقب عمر عن خوات التميمي قال: قال عمر: يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عالة على المسلمين. وفي «العقد الفريد» قال عمر بن الخطاب: لا يقعدنّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وأن ا لله إنما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفيه قال عمر: حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءته خلقه، وأخرج ابن ماجة من طريق عبد الملك بن عمير عن عمرو بن حريث عن أخيه سعد بن حريث قال: قال رسول ا لله ﷺ: من باع عقاراً أو داراً و لم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك له، "زقلت".

وعن محمد بن عاصم قال: بلغني أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل هل له حرفة فإن قيل: لا ، قال: سقط من عيني، (زقلت). انتهى من الكتاب المذكور.

ما يوجد من المهن والسماسرة والصيارفة في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم

كان الناس من عهد رسول ا لله ﷺ يتّجرون في جميع ما يلزم للإنسان من البزّ -القماش- والعطورات والأسلحة والعقاقير -الأدوية- والدباغة والخرازة والنسيج

والخياطة والنجارة وغير ذلك، وكان في سوقهم وزّان وكيّال وصراف وسماسرة -أي دلاّلين-.

فقد جاء ذكر كل ذلك في كتاب التراتيب الإدارية، ولولا خوف التطويل لنقلنا منه كثيراً، فمن أراد الوقوف على ذلك فليرجع إلى الكتاب المذكور فإنه كتاب مهم جداً لكن لا بأس أن ننقل منه ما جاء عن الصرّافين والسماسرة من الكتاب المذكور، ليعلم أن هاتين الصنعتين كانتا موجودتين من قبل الإسلام كما يفهم مما يأتي، فقد جاء في الكتاب المشار إليه في الجزء الثاني منه ما نصه:

«باب في الصراف» ذكر من كان يتجر في الصرف على عهد رسول الله ﷺ: في الصحيح عن أبي المنهال قال: كنت أتجر في الصرف فسألت زيد بن أرقم رضي الله عنه والبراء بن عازب عن الصرف فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف فقال: إن كان يداً بيد فلا بأس وإن كان نسيئاً فلا يصلح -والصرف: بيع الذهب بالفضة، والنسأ: التأخير-. انتهى من الكتاب المذكور.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً عن السماسرة ما نصه:

«الدلاّل وهو السمسار» في الصحيحين عن طاووس عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتلقى الركبان وأن يبيع حاضر لباد، وفي البخاري عن طاووس عن أبيه، سألت ابن عباس ما معنى قوله: لا يبيعن حاضر لباد؟ قال: لا يكون له سمساراً.

[زقلت] قال شيخنا في الفجر الساطع: المراد بالسمسار هنا هو المتولي العقد بين البائع والمشتري بأجر كالسماسرة القاعدين بالحوانيت، وليس المراد بالدلال كما سبق اهـ.

وفي فتح الباري: السماسرة، بمهملتين، هو في الأصل القيم بالأمر والحافظ له ثم استعمل في متولي البيع والشراء لغيره. اهـ.

وفي القاموس: السمسار، بالكسر: المتوسط بين البائع والمشتري، قال الشمس ابن الطيب الفاسي في حواشيه: قلت هو الذي يسميه الناس الدلال فإنه يدل المشتري على البائع، وهو لفظ أعجمي كما قاله الخطابي في معالم السنن

وغيره وأغفل المصنف ذلك ، اهـ. وقد ألف في مسألة السماسرة وأحكامهم أبو العباس الأبياني التونسي. انتهى من كتاب التراتيب الإدارية.

حكم بيع بيوت مكة وأجارتها

لما كانت «مكة» شرّفها الله تعالى بلد الله الأمين وفي هذه البلدة المقدسة بيت الله المعظم وفيها تؤدّى فريضة الحج والعمرة وهما من أركان الإسلام وفيها مولد رسوله العزيز المكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صار لبيع دورها وكرائها حكم خاص منذ ظهور الإسلام.

وهذه البلدة المطهرة قد دخلها رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم في السنة الثامنة من الهجرة صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان فتحها بدون قتال يذكر فعليه صارت كلها ملكاً لرسول الله ﷺ ولقد اختلف العلماء في هذا الفتح فبعضهم يقول: إن مكة فتحت عنوة، وبعضهم يقول: إنها فتحت صلحاً. واختلفوا أيضاً هل رسول الله ﷺ بعد فتح مكة منَّ بها على أهلها فيجوز بيع دورها وكراؤها أو أنّ رسول الله ﷺ أقرّها وفرقها للمسلمين، فلا يجوز البيع والكراء لدورها. لهذا نعقد هذا المبحث لبيان حكم بيع دورها وإجارتها وننقل حكم ذلك من تاريخين مهمين: الأول من تاريخ الإمام الأزرقي، والثاني من تاريخ الغازي فمن اطلع عليهما استغنى عن غيرهما.

ماجاء في تاريخ الأزرقي عن بيع وإيجار دور مكة

قال الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى عند الكلام على من كرى بيوت مكة وما جاء في بيع رباعها... إلخ ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا يحيى بن سليم قال: حدثني عمر بن سعيد بن أبي حسين قال: حدثني عثمان بن أبي سليمان عن علقمة بن نضلة قال: كانت الدور والمساكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ما تكرى ولا تباع ولا تدعى إلا السوائب، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن، قال يحيى: قلت لعمرو بن سعيد: فإنك تكري، قال: قد أحل الله الميتة للمضطر إليها.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبيدالله بن أبي زياد عن ابن أبي نجيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: من أكل كراء بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه ناراً.

حدثنا أبو الوليد حدثني قال جدي: حدثنا يحيى بن سليم حدثنا عبدالله بن صفوان الوهطي قال: سمعت أبي يقول: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: كان ساكن مكة حياً من العرب فكانوا يكرون الظلال ويبيعون الماء فأبدلها الله تعالى بهم قريشاً فكانوا يظلون الظلال ويسقون الماء.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن حماد بن شعيب الكوفي عن الأعمش عن مجاهد قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع رباع مكة وعن أجر بيوتها. حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن ابن جريج قال: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، قال ابن جريج : قرأت كتاباً من عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد وهو عامله على مكة يأمره أن لا يكرى بمكة شيء، قال ابن جريج: أخبرني عطاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينهى أن تبوب أبواب دور مكة.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني أحمد بن ميسرة حدثنا عبد المجيد بن أبي رواد عن أبيه قال: بلغني أن مجاهداً كان يقول: الكراء بمكة نار، فقال أبي: سمعت عبدالكريم بن أبي المخارق يقول: لا تباع تربتها ولا يكرى ظلها، يعني مكة، وقال: إني قدمت مكة سنة مائة وعليها عبدالعزيز بن عبدالله أميراً فقدم عليه كتاب من عمر بن عبدالعزيز ينهى عن كراء بيوت مكة ويأمره بتسوية منى، قال: فجعل الناس يدسون إليهم الكراء سراً ويسكنون، قال : وقال أبي: حدثني إسماعيل بن أمية عن رجل من قريش أنه قال: لقد أدركت الناس وإن الركبان يقدمون فيبتدرهم من شاء الله من أهل مكة أيهم ينزلهم ، ثم نحن اليوم نبتدرهم أينا يكريهم .

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن أمية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرج الرقيق والدواب من مكة و لم يدع أحداً يبوب داره بمكة حتى استأذنته هند بنت سهيل وقالت: إنما أريد بذلك إحراز متاع الحاج وظهرهم، فأذن لها فعملت بابين على دارها.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أن ابن صفوان قال له: كيف وجدتم إمارة الأحلاف فيكم؟ قال: التي قبلها خير منها. قال: فقال ابن صفوان: فإن عمر قال كذا لشيء لم يذكره سفيان، قال ابن عباس: أسنّة عمر تريد، هيهات هيهات تركت وا لله سنّة عمر شرقاً ومغرباً قضى عمر أن أسفل الوادي وأعلاه مناخ للحاج وأن أجياد وقعيقعان للمريحين والذاهب واتخذتها أنت وصاحبك دوراً وقصوراً. انتهى من التاريخ المذكور.

وقال الإمام الأزرقي أيضاً عند الكلام على من لم يرَ بكراء بيوت مكة وبيع رباعها بأساً ما نصه:

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي وإبراهيم بن محمد الشافعي قالا: أخبرنا عبدالرحمن بن الحسن ابن القاسم بن عقبة الأزرقي عن إبراهيم عن علقمة بن نضلة قال: وقف أبو سفيان بن حرب على ردم الحذائين فضرب برجله فقال: سنام الأرض، إن لها سناماً يزعم ابن فرقد، يعني عتبة بن فرقد السلمي، إني لا أعرف حقي من حقه له سواد المروة ولي بياضها ولي ما بين مقامي هذا إلى تجنى، وتجنى ثنية قريب من الطائف ، قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه فقال: إن أبا سفيان لقديم الظلم ليس لأحد حق إلا ما أحاطت عليه جدراته.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاووس قال: قيل لصفوان بن أمية وهو بأعلى مكة: إنه لا دين لمن لم يهاجر، فقال: لا أصل إلى منزلي حتى آتي المدينة ، فقدم المدينة فنزل على العباس رضي ا لله عنه ثم أتى المسجد فنام ووضع خميصة له تحت رأسه فأتاه سارق فسرقها فأخذه فجاء به إلى نبي ا لله ﷺ فأمر به أن تقطع يده، فقال: يا رسول ا لله هي له، قال: فهل لا كان ذلك قبل أن تأتيني به؟ فقال: ما جاء بك، قال قيل: إنه لا دين لمن لم يهاجر، قال: ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة فقروا على سكناتكم فقد انقطعت الهجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبدالرحمن بن فروخ أن نافع بن عبد الحارث ابتاع من صفوان بن أمية دار السجن وهي دار أم وائل لعمر بن الخطاب رضي ا لله عنه بأربعة آلاف درهم فإن رضي عمر فالبيع له وإن لم يرض فلصفوان أربعمائة درهم.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن ابن جريج أخبرني هشام بن فجير عن طاووس قال: الله يعلم أني سألته عن مسكن لي فقال: كل كراه يعني مكة، قال ابن جريج: وكان عمرو ابن دينار لا يرى به بأساً، قال: وكيف يكون به بأس والربع يباع ويوكل ثمنه وقد ابتاع عمر رضي الله عنه دار السجن بأربعة آلاف درهم وأعربوا فيها أربعمائة عمرو القايل.

حدثنا أبو الوليد قال: حدثني أحمد بن ميسرة عن عبد المجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد عن أبيه قال: بلغني أن طاووساً وعمرو بن دينار كانا لا يريان بكراء بيوت مكة بأساً، قال عبدالعزيز بن أبي رواد: وذكر لعمرو بن دينار قول عبد الكريم بن أبي المخارق: لا تباع تربتها ولا يكرى ظلها فقال: جاءوا به يا خراساني على الروى. انتهى من الأزرقي.

ما جاء في تاريخ الغازي عن حكم بيع وإيجار بيوت مكة

أما الغازي رحمه الله تعالى فقد ذكر في الجزء الأول من تاريخه عند الكلام على حكم بيع دور مكة وإجارتها ما نصه:

قال الفاسي في شفاء الغرام: اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في حكم بيع دور مكة وإجارتها، فحكى الشيخ أبو جعفر الأبهري عن الإمام مالك أنه كره بيعها وكراها، وذكر اللخمي بن رشد في مقدماته أنه لم يختلف قول مالك وأصحابه في أن مكة افتتحت عنوة وأنهم اختلفوا هل منّ بها على أهلها فلم تقسّم لما عظم الله من حرمتها أو أقرّت للمسلمين، قال: وعلى هذا جاء الاختلاف في كراء بيوتها. انتهى. وحراز البيع والكراء في دور مكة ينبني على القول: بالمنّ بها على أهلها ومنع ذلك ينبني على القول بأنها فرّقت للمسلمين، قلت: ورجح الفاسي القول بالمنّ وأطال الكلام في ذلك. وحاصل ما ذكر أن عمل علماء الصحابة وخلفائهم يرجّح القول بالمنّ، وذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبدالله ابن الزبير رضي الله عنهم اشتروا دوراً بمكة ووسّعوا بها المسجد الحرام وكذلك اشترى أمير المؤمنين معاوية دار الندوة ودار أم المؤمنين خديجة بنت خويلد وغير ذلك من دورها، واشترى لعمر رضي الله عنه عامله على مكة نافع بن عبد الحارث داراً للسجن له من صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم، ولا ريب في أن من ذكروا من الصحابة رضي الله عنهم أعلم ممن بعدهم بما يصلح

في أرض مكة وأنه لو كان عندهم علم عن النبي ﷺ بأنها أقرت لما أقدموا على ما فعلوا، ويبعد جداً أن يصح ذلك عن النبي ﷺ ويخفى عليهم وعلى غيرهم من علماء الصحابة رضي الله عنهم فإنه لم يحفظ عن غيرهم أنه أنكر على أحد منهم ما فعل ولو كان عندهم علم بخلاف ما فعل المشار إليهم لما سكتوا عن الإنكار عليهم، قال: وفي شراء عمر ومن ذكر معه دلالة واضحة على أن مكة مملوكة لأهلها إما لمنّ النبي ﷺ بها على أهلها كما هو أحد القولين عند القائلين بأنها فتحت عنوة أو لأنها فتحت صلحاً، قال: واختلف مذهب الإمام أبي حنيفة في أرض مكة فروي عنه كراهة بيعها فقيل مراده لا يجوز البيع، وذكر قاضي خان أنه ظاهر الرواية، وقيل يجوز مع الكراهة وأجاز ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد بن الحسن وعليه الفتوى على ما قال الصدر الشهيد الحنفي وبه جزم حافظ الدين الحنفي.

واختلف مذهب أبي حنيفة أيضاً في إجارة أرضها، فروي عنه وعن محمد بن الحسن عدم جواز ذلك، وروي عنهما جواز ذلك مع الكراهة.

واختلف في ذلك أيضاً مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فروي عنه جواز ذلك ومنعه، وذكر الموفق ابن قدامة الحنبلي أن رواية الجواز أظهر في الحجة، وذكر ابن المنجا من الحنابلة رواية المنع على المذهب ولم يختلف مذهب الشافعي في جواز بيع دور مكة وإجارتها. اهـ. انتهى من تاريخ الغازي.

ثم قال الغازي في تاريخه ما نصه: وقال العلاّمة قطب الدين المكي رحمه الله تعالى، وأما حكم بيع دور مكة فقد ذكر الإمام قاضي خان أنه لا يجوز بيع دورها عند أبي حنيفة رحمه الله في ظاهر الرواية وقيل يجوز مع الكراهة وهو قول محمد وأبي يوسف، قال صاحب الواقعات وعليه الفتوى.

وروى الحسن عن أبي حنيفة أن بيع دور مكة جائز وفيها الشفعة وهو قول أبي يوسف وعليه الفتوى، ذكره في عيون المسائل قال قوام الدين في شرح الهداية: بيع بناء مكة جائز اتفاقاً لأن بناءها ملك الذي بناه، ألا ترى أن من بنى في أرض الوقف جاز أن يبيع بناءه فكذا هذا.

وأما بيع أرض مكة فلا يجوز عند أبي حنيفة رحمه الله وهو ظاهر الرواية عنه وهو قول محمد، وعند أبي يوسف يجوز، ورجح الطحاوي قول أبي يوسف وقال: رأينا المسجد الذي كان للناس سواء العاكف فيه والباد لا ملك لأحد فيه ورأينا

مكة على غير ذلك فقد أجيز البناء فيه، قال رسول الله ﷺ يوم دخلها: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» فلما كانت مما يغلق عليه الأبواب ويبنى فيها المنازل كان صفتها صفة المواضع التي يجري فيها الأملاك ويقع فيها التوارث، ولا يجوز احتجاج المخالف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ لأن المراد المسجد الحرام لا جميع أرض مكة. انتهى ملخصاً.

وأما إجارة دور مكة فقد ذكر صاحب التقريب قال: روى هشام عن أبي حنيفة أنه كره إجارة بيوت مكة وقال لهم أن ينزلوا عليهم في دورهم إذا كان فيها فضل وإن لم يكن فلا، وهو قول محمد رحمه الله. انتهى.

وروى محمد في الآثار عن أبي حنيفة عن عبدالله بن زياد عن أبي نجيح عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «من أكل من أجور بيوت مكة شيئاً فإنما أكل ناراً» أخرجه الدارقطني بإسناد ضعيف، وقال: الصحيح أنه موقوف، وروى أنه كره إجارتها لأهل الموسم و لم يكره للمقيم، لأن أهل الموسم لهم ضرورة إلى النزول والمقيم لا ضرورة له.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نهى أن يغلق بمكة باب دون الحاج فإنهم ينزلون كل موضع رأوه فارغاً، وكتب عمر بن عبدالعزيز في خلافته إلى أمير مكة أن لايدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فإنه لا يحل لهم، وكانوا يأخذون ذلك خفية ومساترة.

وهذا مبني على أصل وهو أن فتح مكة هل كان عنوة فتكون مقسومة مغنومة و لم يقسمها النبي ﷺ وأقرها على ذلك فتبقى على ذلك لا تباع ولا تكرى ومن سبق على موضع فهو أولى به، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والأوزاعي رضي الله عنهم، أو كان فتحاً صلحاً فتبقى ديارهم بأيديهم يتصرّفون في أحوالهم كيف شاءوا سكناً وإسكاناً وبيعاً وإجارة وغير ذلك. وبه قال الإمام الشافعي وأحمد وطائفة من المجتهدين رحمهم الله تعالى، وعلى ذلك عمل الناس قديماً وحديثاً. انتهى.

وفي كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب» للعلاّمة السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي اختلف الفقهاء في بيع دور مكة وإجارتها، فمنع أبو حنيفة من بيعها وأجاز إجارتها في غير أيام الحج ومنع منهما في أيام الحج لرواية الأعمش عن

مجاهد أن النبي ﷺ قال: مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها، وذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى جواز بيعها وإجارتها لأن رسول الله ﷺ أقرّهم عليها بعد الإسلام على ما كانت عليه قبله وثم لغنمها و لم يعارضهم فيها وكذلك بعده.

هذه دار الندوة وهي أول دار بنيت بمكة صارت بعد قصي لعبد الدار بن قصي وابتاعها معاوية في الإسلام من عكرمة بن عامر بن هشامٍ بن عبد الدار بن قصيٍ وجعلها دار الإمارة وكانت من أشهر دار ابتيعت ذكراً وأنشرها في الناس خبراً، فما أنكر بيعها أحد من الصحابة.

وابتاع عمر وعثمان رضي الله عنهما ما زاداه في المسجد من دور مكة وتملك أهلها أثمانها، ولو حرّمِ ذلك لما بذلاه من أموال المسلمين ثم جرى به العمل إلى وقتنا هذا فكان إجماعاً متبوعاً، وتحمل رواية مجاهد مع إرسالها على أنه لا يحل بيع رباعها على أهلها تنبيهاً على أنها لم تغنم فتملك عليهم، فلذلك لم تبع وكذلك حكم الإجارة. انتهى. انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي.

إلى هنا انتهينا من ذكر ما ورد عن حكم بيع وإيجار دور مكة وبيوتها، فلنذكر الآن عمل الناس في ذلك وما سنّه حكام مكة وولاتها من النظام والقرارات في مسألة إيجارات بيوت مكة في قرننا هذا الرابع عشر للهجرة، أما ما كان قبل ذلك فلا نقدر أن نتوصل إليه لعدم ورود شيء في التاريخ.

تشكيل هيئة خاصة للنظر في مشاكل الإيجارات وسنّ قانون لها

لما كانت قضايا الناس لا تنقضي ومشاكلهم لا تحصر في جميع مرافقهم الحيوية كان من الواجب على الحكومة جعل هيئة خاصة تنظر في مصالحهم وتعمل على تسوية أمورهم وتقضي بينهم بالعدل والإنصاف.

ولهذا رأت الحكومة الهاشمية السابقة تشكيل هيئة للنظر في المعاملات العامة والمسائل المتنوعة التي تقع بين الناس من إيجارات العقار والدكاكين والقهاوي وغير ذلك. ولقد سنّت لذلك أنظمة وقوانين تكفل راحة الناس وتحفظ حقوقهم ولا تجعل أحد الطرفين متعدياً وظالماً للطرف الثاني.

ولنذكر هنا عن هذه الهيئة وأنظمتها نقلاً من الجزء الثالث من تاريخ الغازي فقد جاء فيه ما نصه:

وفي الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة (١٣٤٠) أربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة نشرت الحكومة الهاشمية وأذاعت للعموم قانون هيئة المعاملات العمومية وهذا نصه:

بما أن لهيئة المعاملات العمومية دائرة رسمية حائزة أهمية كبرى بالنظر للقضايا التي تراها المتعلقة بمسائل الإيجارات والديون والكشفيات ونحوها رؤي من الضروري تأسيس مواد لها تكون دستوراً لكافة أعمالها، وهي كما يلي:

هيئة المعاملات العمومية

المادة الأولى: تشكل من رئيس وأعضاء من أربعة إلى ستة أشخاص من أهل اللياقة والمعرفة.

المادة الثانية: عند غياب الرئيس ينوب منابه أحد الأعضاء في فصل الدعاوى والمطالبات مشتركاً مع بقية أعضاء الهيئة.

وظائف الرئيس

المادة الثالثة: النظر والتأمل في القضايا التي ترفع إليه من أربابها وحسمها بموجب المواد المدونة بهذا القانون.

المادة الرابعة: يجب عليه محافظة الحقوق العمومية بحيث أنه يسوي بين أرباب الدعاوى بدون تفاضل.

المادة الخامسة: عند اقتضاء المصلحة ينتدب بعض أعضائه للأماكن التي يراد الكشف عليها لتقدير إجارتها وما هو في معنى ذلك.

وظائف الهيئة

المادة السادسة: الاشتراك مع الرئيس في المسائل المرفوعة من ذويها إلى الهيئة ومطالعة القرارات والتوقيع على مسوداتها.

المادة السابعة: إنقيادها بما يكلفها به رئيسها من الذهاب إلى المواضع التي يراد الكشف عليها.

المادة الثامنة: ينبغي مواظبتها على الحضور بدائرتها.

المادة التاسعة: كاتب للهيئة لإدارة أمورها التحريرية وفراشي أسوة بالدوائر الرسمية.

المادة العاشرة: عند احتياج الدائرة إلى نفر أو نفرين من أفراد الشرطة لجلب الأشخاص المدعى عليهم، يجب مساعدة مديرية الشرطة.

المادة الحادية عشرة: المسائل المتعلقة بإيجار العقارات ويستوي في ذلك الدور والحوانيت والأفران والطواحين وطلب إخلاء الساكن يتبع فيها ما يأتي:

المادة الثانية عشرة: إذا تعدد الشركاء المستحقون في أحد الدور أو الدكاكين ورغب أحدهم السكنى بها فعليه أن يدفع على كل عشرة واحداً زائداً لصاحب الاستحقاق الآخر إرضاء لخاطره، وإذا أراد كل واحد منهم السكنى وكان الموضع غير محتمل القسمة فيؤجر على الغير ويعطى كل على قدر حصته.

المادة الثالثة عشرة: بطلب أحد الملاكين إخلاء داره أو حانوته أو ما هو في معناهما المؤجرة على أحد الناس ينظر فيه، فإن كان له دار أخرى ساكناً بها وكانت ملكاً له لا يلتفت إلى طلبه، وإذا تبين أنه بدار يقطنها بالإجارة فهو أحق من الغير بعد أن يحرر على نفسه سند بأنه لو أجرها في غضون مدة الإيجار يكون مجبوراً بردها لصاحبها القديم ويجازى من قبل الحكومة.

المادة الرابعة عشرة: من علم أن ناظراً على وقف يطلب إخلاء أحد السكان بدار أو دكان ونحوه لإسكان من يستحق الربع في ذلك الوقف وتحقق أمره لدى الهيئة بمطابقته للواقع، يروج طلبه بعد إجراء حكم المادة (١٣) من تحرير السند إلخ.

المادة الخامسة عشرة: من يدعي بخس الأجرة تكشف عليه الهيئة مع بعض أعضاء البلدية وتحقق مدعاه، فإن رأت زيادة الأجرة أو بقاءها على الحالة الأصلية تقرر ذلك ويصير إنفاذه.

المادة السادسة عشرة: بإسكان شخص في جزء دار مثلاً لمدة معينة فعند انقضائها إذا وجد المالك راغباً لها من بابها وكان الساكن يريد البقاء في محله فقط الذي هو جزء من تلك الدار يجري الكشف عليها من قبل الهيئة لتقسيم المحل الذي يسكنه إن أمكنت القسمة بحيث يصلح لسكنى كل واحد منهما بدون ضرر على أحدهما.

المادة السابعة عشرة: إذا رغب المستحقون في وقف أن يكون بينهم بالمهايأة فلا بأس من ذلك على أن تكون باعتبار السنين لا الأشهر.

المادة الثامنة عشرة: الساكن إذا امتنع عن دفع الإيجار المقرر أو الإخلاء، فبعد إحضاره وإلقاء التنبيهات الأكيدة عليه يجرى بحقه حكم المادة التالية.

المادة التاسعة عشرة: بامتناع المقرر عليه الإخلاء أو دفع الإجارة يحبس حتى يذعن ويخضع لأوامر الحكومة، وإذا طلب إمهاله إلى مدة زهيدة وأعطي الكفالة اللازمة لذلك يرخص له.

المادة العشرون: الذين يتخلفون عن الحضور عند طلب الهيئة لهم لسماع الدعوى المقامة عليهم وتكرر الطلب بشأنهم يجازون بالحبس من ثلاثة إلى عشرة أيام.

المادة الحادية والعشرون: الدعوى التي تقام على أنثى بخصوص الإيجارات أو نحوها من الكشف على دار سكناها لتقدير إجارتها وتمتنع عن إجابة داعي الحكومة بواسطة ذويها أو شيخ المحلة يجرى الكشف وتجبر لسماع الدعوى أو تقيم وكيلاً عنها، وإذا لم تمتثل فبمعرفة البلدية وشيخ المحلة ترمى حوائجها وترغم على الخروج من تلك الدار.

المادة الثانية والعشرون: المستأجر لشيء إذا أجر بعضه أو كله على الغير لمدة سنة مثلاً وانقضت مدة الإجارة وأراد ذلك المستأجر أن يكون بذاته في الموضع المؤجر عليه فله ذلك ويخرج المستأجر من باطنه حيث لم يكن هو المستأجر الأصلي.

المادة الثالثة والعشرون: عند حصول التناكر بين أرباب الحقوق في شيء من الإجارة والديون القديمة، أي العائدة لسنة (١٣٣٤) يرفع الأمر إلى المحكمة الشرعية لثبوتها بالوجه الشرعي.

المادة الرابعة والعشرون: إذا غاب المستأجر عن البلاد بحيث كان مسافراً وانتهت مدة إجارته، فإن كان سفره إلى الأقطار الخارجية ولم يكن بإحدى الجهات التابعة للحكومة العربية الهاشمية ولا يوجد وكيل عنه بدفع الإجارة أو أهل ساكنون بالموضع المؤجر عليه يؤذن للمؤجر بالتأجير على غيره.

المادة الخامسة والعشرون: بوجود أشياء للغائب في مستأجراته فبمضي أجل الإجارة تستلم تلك الأشياء المحكمة الشرعية بمعرفة الضابط والهيئة المخصوصة لمثل هذا لديها، وإذا عاد صاحبها ترد إليه بعد حسم مصاريف النقل وخلافه وذلك عند مطابقة غيابه لما جاء بالمادة (٢٤).

المادة السادسة والعشرون: بتحقيق سفر المستأجر إلى أحد الثغور العربية وانتهاء مدة إجارته تخابر الحكومة المحلية بتلك الجهة في تحصيل الأجرة أو التكليف بتوكيل من يقوم بالإخلاء عند عدم الرغبة والمحاسبة للمدة المشغل لها موقع الإجارة.

المادة السابعة والعشرون: بامتناع المؤجر عن قبض الإجارة المقررة يؤمر الساكن بإيفائه ويكلف المؤجر باستلام الأجرة فإن أبى تسلم إلى المحكمة الشرعية لحفظها إلى أن يراجع في استلامها.

المادة الثامنة والعشرون: المستحكرات حكمها كحكم الإيجارات، فإذا ادعى أربابها بخس الأجرة وكانت وقفاً أو معداً للاستغلال تنظر فيها الهيئة كغيرها وتجري التحقيقات اللازمة وبمقتضى ما يثبت لديها تعطي القرار.

المادة التاسعة والعشرون: إذا تعهد المؤجر للمستأجر بإجراء التعمير الضروري في مستأجراته ثم تخلف، فبموجب الشروط يحال التعمير لعهدة البلدية لإجرائه بنظرها وصرف المصاريف من صندوق دائرتها ثم تتحصل من المؤجر أو من الإجارة فيما بعد وعلى البلدية أن لا تهمل أمر التعمير.

المادة الثلاثون: لو أسكن أرباب العقارات أحداً في مساكنهم ابتغاء مرضاة الله، أي مجاناً ثم أرادوا إخراجهم فللهيئة مساعدتهم.

المادة الحادية والثلاثون: بموت المستأجر في أثناء المدة المؤجرة عليه تبقى الأجرة على حالتها باسم الورثة بدون فسخ وهو أحق بالسكنى من الغير.

المادة الثانية والثلاثون: المتخلف من الإيجارات القديمة بطرف المستأجرين من قبل سنة (١٣٣٥) تحال إلى المحكمة الشرعية لفصلها بالوجه الشرعي.

المادة الثالثة والثلاثون: إذا أجر المستأجر عموم الأماكن المؤجرة عليه للغير سواء كانت دوراً أو حوانيت وتضرر المؤجر الأصلي من وضع المستأجر لما يوهن البناء أو يضرّ به كعمل فرن أو طاحون فإنه يؤمر بإزالته وإن لم يمتثل يخرج الساكن

دفعاً لما ينشأ من الضرر، وإن كان المتضرر منه كالحشيش ونحوه فيخبر المؤجر الحكومة وهي تجبره على إخراجه.

المادة الرابعة والثلاثون: مستغلات العقار سواء كانت ملكاً أو وقفاً عند إرادة أرباب الإستحقاق محاسبة ناظرها أو ما أشبه ذلك ترى بمحاكم البلاد الشرعية لتطبيقها على ما يقتضيه الإيجاب الشرعي.

المادة الخامسة والثلاثون: كل ما كان من متعلقات العقار في مسائل الإجارة وصادف أن الخصم من المتسربلين بسلك العسكرية الجليلة يصير النظر فيها من قبل الهيئة على أن طلب الخصم يكون بواسطة المرجع الإيجابي.

المادة السادسة والثلاثون: رضاء الخصمين بقبول حكم الهيئة عليهما في إحدى القضايا المشروحة آنفاً المنطبقة على القانون ثم طلبهما نقض الحكم أو رؤيته بجهة أخرى لا بأس من إحالتها إلى مقام حجة الأمة قاضي القضاة للنظر فيها فإذا ظهر ما يوجب الخلاف يعطى الإيضاح عنه شرعاً وبموجبه يجري اللازم.

المادة السابعة والثلاثون: الديونات بكافة أنواعها إذا صدر فيها حكم من المحكمة الشرعية ليس من صلاحية الهيئة نقضه أو الاعتراض عليه أو التدخل فيه قطعياً.

المادة الثامنة والثلاثون: الخرجات التي بالحوانيت الكائنة بالشوارع العمومية، عندما ترى البلدة إزالتها ويجري ذلك فعلاً ليس للمستأجر حق في مراجعة المؤجر لإرجاع أجرته إليه بل يمكث مستمراً على قبولها نهاية مدة الإجارة. وهذا إذا لم يمس شرف المكان فإذا مسّه يجري الكشف عليه ويعطى له ما يستحقه من مقدار النقص وإذا تحسن يستحصل منه الزيادة بقدر ما يستحق ذلك التحسين.

المادة التاسعة والثلاثون: في أثناء مدة الإجارة إذا حصل خراب ضروري تعميره بإحدى الدور أو الدكاكين لا حق للمؤجر بطلب الزيادة من المستأجر.

المادة الأربعون: الدكاكين والبيوت والأفران وما شابه ذلك إذا تغيرت عن حالتها الأصلية بأن جرت فيها إصلاحات متعددة أوجبت صرف مبالغ طائلة فعلى موجب التحسين الذي صار فيها يزاد في أجرتها بما تستحقه من الكشف والتقدير.

المادة الحادية والأربعون: الوكيل كالأصيل في التأجير ومجرياته، وأما المستأجر فإذا كان وكيلاً عن شخص غائب ومن عائلة الموكل الساكنة بالدار وتحقق ذلك

بصورة واضحة أو كان بها بضاعة أو خلافه فهم أحق بالإجارة وإن كان بالعكس فيجبر على الخروج والمالك أحق بتأجيرها على الغير.

المادة الثانية والأربعون: الساكن بالدار أو الدكان باستئجار من المؤجر عليه أولى بالإجارة من الغير عند عدم رغبة المستأجر الأصلي لعقد الإجارة.

المادة الثالثة والأربعون: كل دعوى من متفرعات مسائل الإيجارات لم تكن داخلة بضمن مواد هذا القانون تقرر فيها الهيئة بحسب اجتهادها بما يظهر لها مع مراعاة حفظ حقوق الطرفين ثم ترفعها لمرجعها للنظر فيها وإيفاء ما يرى نحوه.

المادة الرابعة والأربعون: عموم قرارات الهيئة ترفعها لمرجعها -مقام رئاسة الوكلاء الفخيمة- لإجراء ما يجب فيها.

المادة الخامسة والأربعون: تحضر هذه الهيئة أمام قاضي القضاة لتحليفها اليمين اللازم على أنها تنظر في دعوى الخصمين بدون مراعاة أحدهما عن الآخر.

المادة السادسة والأربعون: لا تكون هذه المواد مرعية الإجراء ونافذة المفعول إلا بعد عرضها على السدة الملوكية واقترانها بالتصديق العالي الملوكي (٢٨) ذي الحجة سنة (١٣٤٠).

إيضاحات

تقرر بمجلس الوكلاء الفخام في (٢٩) ذي الحجة سنة (١٣٤٠) هجرية بعدد (٤٧) التصديق على مندرجات هذا القانون وصدرت الإرادة السنية الهاشمية في المحرم سنة (١٣٤١) هجرية بصدده بإنفاذ مقتضاه، وللبيان جرى تحريره في (٤) المحرم سنة (١٣٤١) هجرية. انتهى من الغازي.

قرار الحكومة الهاشمية بشأن إيجار العقارات

نذكر هنا صورتين فقط من القرارات التي كانت تصدرها الحكومة الهاشمية السابقة بشأن الإيجارات لتعطينا فكرة عامة للناس على ما درجوا عليه من سالف الأزمان في الإيجارات السنوية، وقد نقلنا نص الصورتين من الجزء الثالث من تاريخ الغازي، فالصورة الأولى لعام (١٣٣٨هـ) وهذا نصها:

وفي ٢٩ ذي الحجة سنة (١٣٣٧) هجرية قررت الهيئة المشكلة من وكيل النافعة ونائب وكيل الداخلية وأعضاء مجلس الشيوخ ورئيسه وهيئة المعاملات وأعضاء البلديات الثلاث تحت رئاسة قاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء بالنظر للظروف الحاضرة بأن يجعل الإيجار للبيوت على معدل إسقاط الثلث من الأجرة بالنسبة لمبلغها سنة (١٣٣٣) والدكاكين على معدل إسقاط الربع وذلك بالنسبة لمبلغها سنة (١٣٣٣) وأن ثلثي مبلغ أجرة الدور وثلاثة أرباع أجرة الدكاكين يعطى منها النصف في الحال والنصف الآخر إلى مدة نصف زمن الإجارة المعقودة وبموجبه جرى النداء، ومن أراد أداء الإجارة دفعة أو أراد أن يتفق الآجر والمستأجر على كيفية مخصوصة فلهم ذلك.

والصورة الثانية لعام (١٣٤٣) وهذا نصها:

وفي ٢٩ ذي الحجة سنة (١٣٤٢) أعلن إعلاناً رسمياً من مقام نيابة رئاسة الوكلاء ليعلم كافة المستأجرين وأرباب العقارات أنه قد تقرر أن تكون الإجارات في عام (١٣٤٣) القادم باعتبار إجارة العام الماضي تماماً على أن إيجار القهاوي والدكاكين والأفران والطواحين يسلم دفعة واحدة، وأما البيوت فيدفع إيجارها الثلثان مقدماً والثلث الباقي في شهر رجب سنة (١٣٤٣) ولا يمكن إخراج ساكن من مسكنه، وأما الدفع فيكون الثلاثة الأرباع منه ذهباً والربع الباقي فضة كالمعتاد، ومن لم يتبع هذه الأوامر المشروحة آنفاً سيجري بحقه الجزاء بموجب القانون المخصوص لعقوبة من يخالف أوامر الحكومة ولإعلان العموم بذلك صار الإعلان. انتهى من الغازي.

قرار الحكومة السعودية بشأن إيجار العقارات

نذكر هنا صورتين فقط من القرارات التي كانت تصدرها حكومتنا السعودية بشأن الإيجارات لنعطي فكرة عامة للناس على ما درجوا عليه من سالف الأزمان في الإيجارات السنوية، وقد نقلنا نص الصورتين من الجزء الثالث من تاريخ الغازي. فالصورة الأولى لعام (١٣٤٤) هـ وهذا نصها:

قرر مجلس الشورى الأهلي إيجار عام (١٣٤٤) بهذه الصورة:

١) يعتبر مقدار أجرة عموم العقارات في عام (٤٤) كعام (٤٣).

٢) إيجارات الدور والقهاوي والحكورات يسقط نصفها في عام (٤٤) ويدفع ربعها حالاً والربع الباقي يؤجل إلى غرة شعبان سنة (١٣٤٤).
٣) يسقط الثلث من كامل أجرة الدكاكين والأفران والطواحين ويدفع الثلث من كاملها حالاً ويؤجل الباقي إلى غرة شعبان سنة (١٣٤٤).
٤) الدور والدكاكين وسائر الأماكن المشغولة بأمتعة الغائبين يجري فيه الإيجار الشرعي لدى الحاكم الشرعي.
٥) إذا امتنع المستأجر عن دفع الأجرة المقررة أعلاه يجبر بالإخلاء.
٦) يقتضي تشكيل لجنة بعنوان «مجلس العقار» مؤلفة من خمسة أنفار، واحد من أعضاء مجلس الشورى الأهلي، وواحد من دائرة الأوقاف، وواحد من هيئة البلدية، وواحد من التجار، وواحد من أرباب العقار لتكون مرجعاً للنظر في الدعاوى المتعلقة بالعقارات. وعند وقوع اختلاف بين المؤجر والمستأجر تقرر ما يلزم إجراؤه في ذلك بموجب المواد المشروحة أعلاه ثم ترفع الكيفية إلى مرجع التنفيذ ويعين لها غرفة مخصوصة بدائرة الحكومة لاجتماعها يومياً (٢٨) ذي الحجة سنة (١٣٤٣).

والصورة الثانية لعام (١٣٤٩) وهذا نصها:

صدر الأمر السامي بالموافقة على قرار اللجنة الخاصة المتعلق بإيجار العقارات لعام (١٣٤٩هـ) وهو:

لدى اجتماعنا وتداول الآراء نحو إيجارات الدور والدكاكين والقهاوي والطواحين وكافة المستملكات تقرر أن تكون إيجاراتها على حسب ما كان في العام الماضي أي عام (١٣٤٨) غير تقسيط الأجرة فإنه يدفع على ثلاث دفعات وتكون في الدور خاصة، فأول قسط منها وهو النصف يدفع في أول محرم، والنصف الثاني قسط منه يدفع في أول شعبان والثاني في آخر ذي القعدة، وأما القهاوي والطواحين وما شاكلها تكون على قسطين طبق ما أجر في العام الماضي في دفع الأقساط، وعلى الهيئة المنتخبة تطبيق هذا النظام على المؤجرين والمستأجرين على حسب ما كان في العام الماضي، وعلى ذلك جرى القرار متفقاً. انتهى من الغازي.

أجور العقار لعام (١٣٦٨هـ)

جاء في جريدة البلاد السعودية التي صدرت بمكة المشرفة بتاريخ اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية بعدد (٧٦٢) عن أجور العقارات للعام المذكور ما نصه:

جاءنا من أمانة العاصمة ما يأتي:

تبلغنا من المقام السامي أنه قد صدرت الإرادة الملكية الكريمة بأن يكون إيجار العقار في عام (١٣٦٨) حراً على أساس التراضي بين المالك والمستأجر. انتهى من الجريدة المذكورة.

فلما صدر هذا المرسوم الملكي تشوش الناس وحصل اضطراب بينهم، لأن الأكثرية لا يملكون عقارات، فالتمسوا من جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى النظر في المصلحة العامة للأمة وعدم حرية الإيجارات حتى لا يتحكم بعض أرباب العقارات فيهم تحكماً قاسياً بل يزاد في الإيجارات نسبة مئوية معلومة.

فوافق رحمه الله تعالى على زيادة الإيجارات بنسبة عشرين أو خمس وعشرين في المائة، ومشى الناس على هذا المنوال حتى نهاية سنة (١٣٧٣) ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف وهي السنة التي توفي فيها جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى وأسكنه الجنة وذلك في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول. فتولى بعده ابنه جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز أدام الله توفيقه ونصره.

أجور العقار لعام ١٣٧٤هـ

جاء في جريدة البلاد السعودية التي صدرت بمكة المشرفة بتاريخ اليوم الخامس من شهر صفر سنة ألف وثلاثمائة وأربع وسبعين هجرية بعدد (١٦٥٩) عن أجور العقارات للعام المذكور ما نصه:

جاءنا من وزارة الداخلية ما يلي:

تبلغنا من صاحب السمو الملكي رئيس مجلس الوزراء المعظم بعدد ٤٥١ وتاريخ ٢/٢/٧٤ الأمر الصادر من جلالة مولاي الملك المعظم الذي يقضي بأن

يكون تأجير العقار على اختلاف أنواعه في المملكة للعام الحالي حراً بطريق التراضي بين المالك والمستأجر، وإذا حصل اختلاف بينهما فللساكن مهلة شهرين فقط من تاريخ إخطار المالك له بالإخلاء يدبر فيها أمره فاعتمدوا موجب الأمر الملكي الكريم وأعلنوه للناس. انتهى من الجريدة المذكورة.

فجرى الناس على هذا القرار الملكي من عام صدوره المذكور إلى عامنا هذا الذي نحن فيه وهو عام (١٤٠٦هـ).

خلاصة ما تقدم عن دور مكة وإيجاراتها

يعلم من كل ما تقدم أنه قد مر على عقارات مكة وبيوتها ثلاثة أدوار:

الدور الأول: كانت البيوت والمساكن على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم ما تكرى ولا تباع ولا تدعى إلا السوائب، قال عبدالله بن صفوان الوهطي: سمعت أبي يقول: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: كان ساكن مكة حياً من العرب فكانوا يكرون الظلال ويبيعون الماء فأبدلها الله تعالى بهم قريشاً فكانوا يظلون في الظلال ويسقون الماء.

قال ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وقال أيضاً: قرأت كتاباً من عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد وهو عامله على مكة يأمره أن لا يكرى بمكة شيء. وقال أيضاً: أخبرني عطاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينهى أن تبوب أبواب دور مكة.

والدور الثاني: جواز بيع بيوت مكة وكرائها وهذا على القول بأن النبي ﷺ لما فتح مكة منّ بها على أهلها.

قال العلاّمة قوام الدين في شرح الهداية: بيع بناء مكة جائزاً اتفاقاً لأن بناءها ملك الذي بناه، ألا ترى أن من بنى في أرض الوقف جاز أن يبيع بناءه فكذا هذا، اهـ.

ومن منع بيع دور مكة وكراءها يستند على القول بأن رسول الله ﷺ فتح مكة عنوة فتكون مغنومة مقسومة للمسلمين، فمن سبق على موضع فهو أولى به وأن رسول الله ﷺ لم يقسّم مكة على المسلمين حين فتحها لما لها من الحرمة والتعظيم.

فعلى جواز بيع بيوت مكة وكرائها مشى المسلمون إلى اليوم.

الدور الثالث: الاستغلال التام في إيجارات بيوت مكة شرفها الله تعالى وزادها أمناً ورخاءً وبركة، وذلك بسبب كثرة ورود الحجاج إليها والطمع في هذه الدنيا الفانية الخسيسة فارتفعت أجور العقارات ارتفاعاً فاحشاً أدى إلى تدخل ولاة الأمور في ذلك، فكانوا يصدرون في أول كل عام قراراً يضمن مصالح الطرفين المالك والمستأجر إلى نهاية سنة (١٣٧٣) ثم صدر قرار ملكي يجعل الإيجارات في مطلق الحرية بين المالك والمستأجر، كما تقدم بيان ذلك بالتفصيل.

ورب سائل يقول متى بدأ الاستغلال في إيجارات دور مكة وما سبب ذلك؟ فنقول: لا يمكن تحديد بدء الاستغلال لعدم ذكره في التاريخ ولكن نقول عن طريق الاستنتاج: كان بدء الاستغلال من منتصف القرن الثالث عشر للهجرة، ثم زاد الجشع في أواخر حكم الأتراك للحجاز ولا يزال في ازدياد إلى عامنا هذا حيث تمكن الحرص والبخل في قلوب الناس، أما قبل ذلك فقد كان الناس في حالة مرضية من القناعة والكرم والإيثار والرحمة، نسأل الله السلامة والعافية من كل ما لا يرضي الله عز وجل.

أما سبب الاستغلال فشيئان: الأول، الطمع الكثير والحرص الشديد. والثاني، أن المستأجر بمكة إذا استأجر داراً لعام واحد بثلاثة آلاف ريال مثلاً فإنه في موسم الحج قد يؤجرها للحجاج بأربعة آلاف ريال أو أكثر لمدة قد تكون أقل من شهر واحد فيكون المستأجر كأنه ساكن في الدار بدون أجرة، بل إنه ربح جزءًا أيضاً، وهناك من يؤجرها بنحو نصف إيجارها ومنهم من لا يؤجر داره في الموسم. والعادة الجارية عندنا بمكة أن الإيجارات تكون سنوية لا شهرية بخلاف العادة في جميع الممالك حيث أن المتبع في الخارج أن تكون الإيجارات شهرية وأن الساكن بالأجرة في محل لا يتمكن من تأجير محله على غيره. لذلك يطلب مالك العقار بمكة من المستأجر زيادة الأجرة في كل عام.

ثم إن العادة الجارية عندنا أن المستأجر للدار إذا شغل جزءًا منها لا يؤجر الجزء الخالي لغيره من أهل البلاد بل يبقيه خالياً إلى أن يأتي موسم الحج فيؤجره للحجاج فقط لإقامتهم بمكة مدة يسيرة جداً.

وهناك فرق عظيم بيننا وبين أهل مصر في الإيجارات، فعندنا بالحجاز إيجارات العقار والدكاكين ونحوها لا تكون إلا لعام كامل دفعة واحدة، وفي مصر تكون الإيجارات شهرية.

وعندنا أيضاً لا تكون في الدار الواحدة مهما كانت كبيرة إلا عائلة واحدة ويندر جداً أن يسكن أكثر من عائلة في دار واحدة، أما في مصر ففي كل دار عدة من العائلات.

وعندنا أيضاً كان يصدر قرار حكومي في أول كل عام لتحديد أجرة السكن للمالك والمستأجر منذ العهود السابقة التي فصلنا بيانها فيما تقدم حتى نهاية سنة (١٣٧٣) ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، ثم إنه من بعد هذه السنة المذكورة صدر قرار حكومي أن يكون الاتفاق بين المالك والمستأجر بالحرية التامة في تقدير الأجرة، أي لا تتدخل الحكومة بينهما ولا تزال الحالة كذلك إلى عامنا هذا.

أما في مصر فإن حكومتها تصدر قراراً خاصاً في إيجارات الدور والدكاكين والقهاوي ونحوها في كل عشرة أعوام مرة واحدة أو كل خمسة عشر عاماً لا ندري، ونحن نعتقد أن تدخل الحكومة بين أرباب الأملاك والمستأجرين من الواجب الضروري وحبذا لو تشكلت لجنة خاصة بالحجاز وسنّت نظاماً دقيقاً في صالح الطرفين يسيرون بموجبه في كل عام على الدوام.

ومن جملة الأضرار البليغة التي تلحق المستأجرين إذا كانت إيجارات العقارات حرة ولم يكن هناك قانون ونظام في مصلحة الطرفين «المالك والمستأجر» ما نذكره هنا من الحكاية الآتية على سبيل المثال وهي :

استأجر رجل داراً لكامل عام واحد حسب العادة الجارية بمكة ثم حصل فيها خراب يقتضي إصلاحه، فطلب المستأجر من المالك إصلاح الخراب فامتنع من ذلك بتاتاً مع أن الشرع والعرف يحكمان على المالك بإجراء الإصلاح على نفقته. فماذا يفعل المستأجر معه في حالة امتناعه عن الإصلاح ؟

فلو رفع الأمر إلى الحكومة لتجبر المالك بإصلاح ما خرب من الدار فقام هذا بالإصلاح رغم أنفه، فمما لا شك فيه أنه بعد انتهاء مدة الإجارة لن يجدد المالك عقد الإيجار للعام المقبل بل إنه يطلب من المستأجر إخلاء الدار فإن امتنع من ذلك طلب المالك من الحكومة الأمر عليه بالخروج من الدار فتجبره الحكومة بالإخلاء

بموجب قانون حرية العقار فيتشتت أمره لصعوبة العثور على المساكن في هذه الأوقات.

وإن قام المستأجر بإجراء إصلاح الخراب الواقع بالدار على نفقته الخاصة ليزيل الضرر عنه ثم طالب بعد ذلك المالك بدفع نفقة الإصلاح فإن المالك لن يدفع له شيئاً مطلقاً بحجة أنه لم يأمره بإجراء الإصلاح.

فعليه تكون نتيجة كل ذلك وصول الضرر البليغ للمستأجر ووقوع المالك في الحرمة من جهة أكل أموال الناس بالباطل وليس ذلك مما ترضى به شريعتنا السمحاء البيضاء النقية.

إذن أفلا يكون من الأفضل وضع قانون للإيجارات يكفل مصلحة الطرفين «المالك والمستأجر»؟ فمن أصحاب الأملاك من لا يراعي حقوق الضعفاء والمضطرين، ومن الضعفاء من يأكل الحرام والحلال وينكر فضل المحسنين، نسأل الله التوفيق والسداد لما فيه نفع العباد والبلاد، كما نسأله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن، كما نسأله الستر في الدنيا والآخرة بفضله ورحمته.

أول هيئة للأمر بالمعروف بمكة

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه: صدر الأمر السامي في أواخر صفر سنة (١٣٤٥) خمس وأربعين وثلاثمائة وألف بتعيين هيئة تقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تكون أعمالها تتبع الأمور من جهة المعاملات والعادات فما وافق الشرع منها تقره وما خالفه تزيله.

وأن تمنع البذاءة اللسانية التي تعودتها السوقة، وأن تحث الناس على أداء الصلوات الخمس جماعة، وأن تراقب المساجد من جهة أئمتها ومؤذنيها ومواظبتهم وحضور الناس بها وغير ذلك من دواعي الإصلاح، وأن تتخذ في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوسائل الموصلة إلى ذلك بالحكمة، وإذا أعياها أمر من الأمور رفعت فيه إلى أولي الأمر لإجرائه.

فعيّن رئيس تلك الهيئة الشيخ عبدالله الشيبي، ونائبه السيد حسين نائب الحرم، وكاتب الهيئة الشيخ عباس عبد الجبار.

وأعضاء الهيئة من أهل مكة: محمد عقيل، محمد شرواني، عبدالرحمن بشناق، عمر جان، عمر فقيه، عبدالرحمن الزواوي، حسين باسلامة.

ومن أهل نجد: محمد بن مضيان، علي المنصور آل هديان، أحمد بن ركيان، عبدا لله السليمان آل مهنا.

وتعين مركزها بمدرسة السيد أحمد عيد بباب الصفا.

نظام وتعليمات لهيئة الأمر بالمعروف بمكة

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه: وفي ١٨ صفر سنة (١٣٤٦) ست وأربعين وثلاثمائة وألف صدر البلاغ بتعليمات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا نصه:

صدر الأمر الملكي السامي بالمصادقة على التعليمات التالية:

أولاً: تنشأ هيئآت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتكون مراكزها في مكة وجدة والمدينة وينبع والطائف وبقية الملحقات.

ثانياً: يكون عدد أعضاء كل هذه الهيئات على قدر اللزوم.

ثالثاً: يشترط في أعضاء هيئات الأمر بالمعروف أن يكونوا من أرباب العلم بالشريعة ومن ذوي الأخلاق الطيبة والصفات الحسنة.

رابعاً: يعين لكل هيئة من الهيئآت عدد كاف من الجنود للقيام بالواجبات الملقاة على عاتق الهيئة، على أن يكون هؤلاء الجنود من المتصفين بالتقوى والمعاملة بالحسنى.

خامساً: تجتمع هذه الهيئة مرتين في الأسبوع.

سادساً: الأمور التي تنظر فيها هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي:

١) تنبيه الناس إلى أوقات الصلاة وسوق المتخلفين منهم إليها بالحسنى إلى أقرب مسجد.

٢) مراقبة المحلات التي تجري فيها أمور مخلة بالشرع والآداب.

٣) دعوة الناس بالحسنى إلى ترك المعاصي والمخازي والبدع والخرافات والإلحاد.

٤) منع البدع في المآتم والأفراح.

٥) منع العوام عن السباب والشتائم.

٦) الأخذ بيد الضعيف والرفق بالأرامل والعجزة في أخذهم وعطائهم.
٧) الرفق بالحيوان.
٨) تقوم هيئة الأمر بالمعروف بإزالة كل ما هو مجمع عليه من المعروف وترجع فيما هو مختلف فيه إلى هيئة مراقبة القضاء.
٩) يقتضي تشكيل فرعين لهيئة الأمر بالمعروف المركزية بمكة: فرع في حارة المعلا وفرع في حارة الباب.
١٠) يشدد على جنود الهيئة في الامتناع عن استعمال العنف والشدة مع أفراد الناس الذين يجلبون إلى الهيئات.

وفي التاريخ المذكور من السنة المذكورة صدر أيضاً بلاغ بتعيين أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا نصه:

نحن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، بعد الاطلاع على أمرنا الصادر في ١٦ صفر سنة (١٣٤٦) ست وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية بشأن تشكيل هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد أصدرنا أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى: قد عينا كلا من الآتية أسماؤهم بعد أعضاء في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الشيخ عبدالرحمن بشناق رئيساً، عمر فقيه، محمد نور كتبي، محمد شرواني، أسعد مشفع، عبدا لله بن عمار، عبدا لله بن مطلق، سليمان الصنيع، محمد الخضري، محمد عبدالرحمن العقل وهؤلاء كلهم أعضاء.

المادة الثانية: على نائبنا العام تنفيذ أمرنا هذا.

صدر بأمرنا في ١٨ صفر سنة ١٣٤٦. انتهى من التاريخ المذكور.

نقول: لقد تطورت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية وتغير الأعضاء الذين ذكرهم الشيخ الغازي رحمه ا لله تعالى وكلها تابعة لفضيلة الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ، وهو رجل عاقل متزن لا يعامل الناس بالعنف والشدة بل يقدم لهم النصائح والإرشادات. نسأل ا لله تعالى أن يوفق الجميع لمرضاته وأن يرحمنا بواسع رحمته آمين.

حكم الدولة التركية العثمانية في الحجاز

كان الحجاز مع جميع الممالك الإسلامية تحت حكم الدولة التركيـة العثمانيـة. والعثمانية نسبة إلى ملكهم الأول السلطان الغازي عثمان بن أرطغـرل بـك المتوفـى سنة (٧٢٦) سبعمائة وست وعشرين هجرية رحمه الله تعالى، وهو المؤسس الأول للدولة التركية المدفون في مدينة (بورصة). وكانت تركته عبارة عـن بعـض خيـول وثلاثة قطعان من الغنم وجبة وسيف، كما جاء ذلك في كتاب «تلخيص التـاريخ العثماني» . ومعنى الغازي الذي يغزو الكفار. فلقد كان غـالب سـلاطين الأتـراك العثمانيين يغزون من حولهم من الإفرنج، فمن غزا منهم يلقب بالسلطان (الغازي).

خدمة الأتراك للخط العربي ومحافظتهم على الآثار الإسلامية

والحق يقال أيضاً أن الدولة التركية العثمانية قامت بتعمير جميع الأماكن الأثرية الإسلامية في كافـة البلـدان والأقطـار خصوصـاً بـالحرمين الشـريفين ومسـجديهما الحرمين، قامت بتعميرها على أكمل وجه وأجمل صورة مع القـوة والمتانـة في البنـاء حيث صارت كل عمارة في غاية من الروعة والجمال، وما زال كل ذلك موجـوداً في جميع الأقطار الإسلامية، وما نؤاخذ تركيا الجديدة الـتي كـان يرأسـها مصطفـى كمال باشا رحمه الله تعالى منقذ تركيا من براثن الأعـداء إلا بمسـألة تطويـر تركيـا من التعليم الديني إلى التعليم العصري المتحرر وبمسألة استبدال كتاباتهم التي كـانت بالحروف العربية منذ القرون الأولى القديمة بالحروف اللاتينية، فلم يبق أحد في بلاد الأتراك اليوم من يعرف القراءة والكتابة التركية بـالحروف العربيـة اللهـم إلا القليـل النادر من المعمّرين منهـم. وبذلـك انقطعـت صلـة الأتـراك اليـوم بجميـع مؤلفـاتهم المكتوبة من قديم العصور بالحروف العربيـة الجميلة في أنـواع العلـوم والفنـون. إن الخط العربي اليوم مـا وصـل إلى هـذا الحسـن والجمـال إلا بسـبب خدمـة الأتـراك القدماء له، فلقد خدموه حتى أوصلوه إلى السموات ثم تركوه اليوم ونبذوه بتاتاً لا يعرفون كتابته ولا قراءته.

فنقترح على الحكومة التركية اليوم أن يجعلوا التعليـم في بلادهـم علـى نوعـين، التعليم بالحروف العربية كما كانوا سابقاً وذلك محافظة منهم علـى تراثهـم العلمـي العظيم، والتعليم باللاتينية أيضاً مجاراة للعصر الحديث حيث قـد ألفـوه. نقـول هـذا

مخلصين غيرة منا على الآلاف المؤلفة من الكتب العلميـة والفنيـة والتاريخيـة بلغتهـم التركية والتي كتبت وألّفـت بـالحروف العربيـة ففيهـا مـن المؤلفـات القيمـة الثمينـة النادرة ما لا يوصف. فإنه يستحيل ترجمة كل ذلك إلى اللاتينيـة. والله الهـادي إلى سواء السبيل.

تأليف أول وزارة حجازية بعد عهد الأتراك

لقد ذكرنا فيما تقدم حكم الدولة التركية العثمانية على الحجاز.

وإليك الكلام على تأليف الوزارة الحجازية:

قال الغـازي رحمـه الله تعـالى في تاريخـه «إفـادة الأنـام بذكـر أخبـار بلـد الله الحرام» ما يأتي:

لما استقل الشريف الحسين بن علي رحمه الله تعالى بالحجاز في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية أصدر أمره بتـأليف وزارة حجازيـة وذلـك في سابع ذي الحجة من السنة المذكورة، وإليك صورة الإرادة السنية الصادرة نقلاً من الجزء الثالث من تاريخ الغازي.

حضرة العالم الكامل الشيخ عبدالله سراج إنه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفر أسباب العمران لا بد لها مـن دواويـن يتـوزع عليهـا النظـر في الحكومة وما هو في معنى ذلـك مـن المصـالح العامـة والخاصـة ويتعـين لهـا أسـباب الوظائف التي تبنى عليها المسؤولية وتكوين حكومة لبلادنـا المحروسـة، وبـالنظر إلى ما تحققنا فيكم من الكفاءة والاستقامة عزمنا بعد الاستعانة بـالله عـز وجـل علـى توجيه منصب قاضي القضاة بعهدكم وتعيينكم وكيلاً عن رئيس الوكلاء العظـام، وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم وهم:

١) ولدنا عبدالله بن الحسين: لوكالة الخارجية، ويكون أيضاً وكيلاً عـن وكيـل الداخلية.

٢) وعبدالعزيز بن علي: رئيس أركان حـرب، ووكيـل رئاسـة الجنـد مـع ترفيـع درجته عن رتبته الحاضرة.

٣) والشيخ علي المالكي: وكيلاً للمعارف.

٤) والشيخ يوسف بن سالم: رئيس البلدية سابقاً وكيلاً للمنافع العمومية.

٥) والشيخ محمد أمين: مدير الحرم الشريف سابقاً وكيلاً للأوقاف مع بقائه في نظارة أمور الحرم، وكلما يتعلق بوظيفته الشريفة.
٦) والشيخ أحمد بن عبدالرحمن باناجه: وكيلاً للمالية.

وذلك لما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على ما يرضي الله. وإننا ننتظر منكم المبادرة إلى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها، وأرجو الله سبحانه أن يجعلنا مظهر توفيقه فهداه في كل ما يحبه ويرضاه.

في ٧/ ذي الحجة الحرام سنة (١٣٣٤) هجرية، انتهى من الغازي.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

تأليف مجلس الشورى لأول مرة في الحجاز في عهد الحكومة السعودية

لما حكم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى الحجاز في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية صدرت إرادته السنية بتأليف مجلس شورى لتداول الآراء، ووضع الأنظمة والقوانين رعاية لحقوق الأمة ومصالحها، فقد جاء في الجزء الثالث من تاريخ الغازي عن هذا الأمر ما يأتي:

وفي آخر شوال سنة (١٣٤٤) هجرية صدر بلاغ رسمي هذا نصه:

امتثالاً لأمر الله تعالى في استشارة أهل الرأي والخبرة والرجوع إلى آرائهم فيما يهم من الأمور ورعاية لحقوق الأمة وأداء الأمانة التي حملنا إياها أمرنا بما هو آت.

١) يؤلف مجلس استشاري في كل من مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف للنظر في المسائل الهامة المحلية، وتكون هذه المجالس بالانتخاب بدرجة واحدة.
٢) يؤلف مجلس مكة من عشرة أعضاء سوى الرئيس الذي تختاره الحكومة، ومجلس المدينة من ستة أنفار سوى الرئيس، ومجلس ينبع من أربعة أعضاء سوى الرئيس، ومجلس الطائف من أربعة أعضاء سوى الرئيس.

٣) يؤلف مجلس عام يدعى بمجلس الشورى العام ينتخب أعضاؤه من قبل المجالس الاستشارية المحلية، ويؤلف أعضاؤه من ثلاثة عشر عضواً، أربعة من مكة واثنان من المدينة واثنان من جدة وآخرين من ينبع وواحد من الطائف وثلاثة من رؤساء العشائر.

٤) الذين لهم حق الانتخاب هم طوائف العلماء وأعيان البلاد والتجار ورؤساء الحرف والمهن.

٥) الأعضاء المنتخبون يجب أن تتوفر فيهم الشروط الآتية وهي: إجادة القراءة والكتابة، وحسن السيرة، وعدم صدور أحكام مخلة بالدين والشرف.

٦) مدة عضوية هذه المجالس سنة واحدة.

٧) على نائبنا العام تنفيذ أمرنا هذا.

ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها

عبدالعزيز

مجلس الشورى

قد انتخب بمجلس الشورى من أهل مكة حضرات الأفاضل: الشريف شرف عدنان، وعبدا لله الشيبي، وحسين باسلامة، وماجد الكردي، ومحمد الألفي، وعبدالرحمن الزواوي، وعبد الوهاب عطار. ومن أهل المدينة: الشيخ عبد الجليل مدني، والشيخ سعيد دشيشة. ومن أهل جدة: عبدا لله الفضل وسليمان قابل، وقد صدر الأمر الملكي بإسناد رئاسة المجلس للشريف شرف عدنان. اهـ.

نقول: هذا ما ذكره الغازي رحمه ا لله تعالى في تاريخه عن أول وزارة حجازية وعن أول مجلس للشورى في الحجاز، أي بعد زوال حكم الدولة التركية العثمانية عن الحجاز وغيرها من البلاد الإسلامية وذلك بعد الحرب العالمية الأولى التي كانت في سنة (١٩١٤) ميلادية. ثم بعد زوال عهد الأشراف من الحجاز في سنة (١٣٤٣) هجرية وبروز العهد السعودي في الحجاز بقي مجلس الشورى معمولاً به إلى يومنا هذا وإن تغير أعضاؤه بحسب الأزمنة وتطور الأحوال.

قال الشاعر المصري الكبير محمد حافظ إبراهيم بك المتوفى في سنة (١٣٥١هـ) عن وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه حين وفاته بجعل الخلافة شورى ما يأتي:

يا رافعاً راية الشورى وحارسها | جزاك ربك خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها | وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد بحملة | إلى الجماعة إنذاراً وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رايها شعباً | فجرّد السيف واضرب في هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها | طعم المنية مراً من مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها | فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبدّ برأي في حكومته | إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به | رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

تأليف أول وزارة سعودية

لما حكم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه ا لله تعالى الحجاز في أوائل سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية لم يكن هناك وزراء بالمعنى المتعارف عليه، فكان يحكم البلاد وحده أو من ينوب عنه وهو ابنه سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، فكان هذا نائبه على الحجاز وكان رئيس الشعبة السياسية في ديوان جلالته هو الشيخ يوسف ياسين رحمه ا لله تعالى وكان وزير المالية هو صاحب المعالي الشيخ عبدا لله بن سليمان، وكان هذا الرجل هو اليد اليمنى لجلالة الملك عبدالعزيز وهو الوزير الأوحد في المملكة لا يلقب أحد بالوزير غيره، وجميع دوائر الحكومة السعودية كان يطلق عليها مديريات فيقال مثلاً: مدير الأوقاف، مدير الصحة. . . إلخ، وكان الملك عبدالعزيز قد أوصى في حياته أن يكون ابنه الأكبر سمو الأمير سعود بن عبدالعزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية بعد وفاته وأن يكون ابنه الثاني سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز ولياً للعهد بعد أخيه سمو الأمير سعود.

ثم لما توفي الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه ا لله تعالى في شهر ربيع سنة (١٣٧٣) هجرية وصار الملك سعود بن عبدالعزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية يؤازره ويعضده أخوه سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز ولي العهد رأيا ومعهما الأسرة المالكة إخوانهما الأمراء تأليف وزارات للمملكة تمشياً مع سنة

لتطور ومجاراة لجميع الممالك في أقطار الأرض، فصدر أمر جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز بتشكيل الوزارات، فتألفت أول وزارة سعودية في المملكة كما يأتي:

١) صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود وزيراً للخارجية ورئيساً لمجلس الوزراء.
٢) صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز آل سعود وزيراً للمعارف.
٣) صاحب السمو الملكي الأمير مشعل بن عبدالعزيز آل سعود وزيراً للدفاع.
٤) صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود وزيراً للزراعة.
٥) صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز وزيراً للمواصلات.
٦) صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن فيصل وزيراً للداخلية والصحة.
٧) صاحب المعالي الشيخ عبدالله السليمان وكان من قبل وزيراً للمالية أيضاً.

هذه أول وزارة سعودية تألفت في المملكة، ثم تغير أعضاء الوزارات بحسب المصلحة، ولسنا في صدد بيانهم والكلام عنهم لأننا لا نتكلم عن جميع أحوال المملكة بل نتكلم عن تاريخ مكة المكرمة فقط، فليعذرنا القارئ الكريم على هذا الإيجاز.

أول وزارة للحج والأوقاف

لم تكن عندنا قبل سنة (١٣٨١) ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من الهجرة وزارة خاصة للحج والأوقاف، وإنما كان منذ كان رئيس المطوفين بمكة المكرمة ووكلاء المطوفين بجدة هم الذين ينظرون في مسائل الحجاج وما يتعلق بهم، وكانت الأوقاف العامة مديرية فيقال لرئيسها مدير الأوقاف العامة، هكذا كان الحال منذ قديم الزمن.

فلما كانت السنة المذكورة (١٣٨١) عملت الحكومة السعودية (أول وزارة للحج والأوقاف) ومقرها مكة المكرمة ومهمة هذه الوزارة تتلخص بالنظر لمصالح الحجاج بتوسّع عظيم والنظر إلى كافة أوقاف الحرمين بصفة عامة. فكان من أعمال هذه الوزارة النظر في مدينة الحجاج التي بنيت منذ سنوات فأدخلت فيها تعديلات كثيرة، وسيكون في المستقبل القريب النظر إليها أكثر، كما أنها قامت في سنة (١٣٨٤) هـ بإنشاء مدينة للحجاج في مدينة ينبع فنزل الحجاج فيها في العام المذكور بعد رسوّ البواخر فيها ثم منها يسافرون بالسيارات إلى المدينة المنورة كما

هو الشأن في مدينة جدة. وقد كان الحجاج ينزلون في مدينة ينبع ومنها إلى المدينة بالجمال في عهد الأتراك وفي عهد الأشراف، فلما كانت سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية بَطُلَ وقوف البواخر في مدينة ينبع، فكانت تقف كلها في مدينة جدة، وبذلك انقطعت عن ينبع مصالح الحجاج من السنة المذكورة إلى سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية، ففكرت وزارة الحج والأوقاف في تسيير خط الحجاج من مدينة ينبع وقت الحج كالعهد السابق فإذا وقفت البواخر في ينبع سافر منها الحجاج إلى المدينة المنورة بالسيارات مع بقاء وقوف البواخر في مدينة جدة كما هو الحال في جميع العصور. وإن شاء الله تعالى ستنظر وزارة الحج والأوقاف إلى ميناء ينبع وإلى مصالح الحجاج في المستقبل أكثر مما مضى.

فأول وزير للحج والأوقاف هو معالي الأستاذ حسين عرب، فلما استقال من منصبه لأسباب صحية خلفه بالنيابة معالي الأستاذ محمد عمر توفيق زيادة على مهام منصبه الأصلي حيث إنه وزير للمواصلات فقام بأعمال الوزارتين خير قيام وإن كان في ذلك تعب كما لا يخفى. أما أول وكيل لوزارة الحج والأوقاف فهو سعادة السيد أحمد هاشم مجاهد في العهدين المذكورين وما زال وكيلاً لها إلى اليوم وإنه لجدير بها وبأكبر منها لمعرفته وإخلاصه ومثابرته على الأعمال بصبر وجلد وهو الذي تقدم من حبه لبلده المقدس «مكة المكرمة» بطبع هذا التاريخ على نفقته الخاصة جزاه الله تعالى خير الجزاء.

هذا ولقد طلبنا من وزارة الحج والأوقاف إعطاءنا نبذة صغيرة عن مهمة أعمال وزارة الحج والأوقاف فورد إلينا البيان الآتي للعلم بها في الجملة:

نبذة عن أعمال الحج والأوقاف

لقد طلبنا من وزارة الحج والأوقاف أن تكتب لنا نبذة مختصرة عن أعمال هذه الوزارة للعلم بها فأرسلت لنا هذه النبذة وهي على اختصارها مفيدة وافية بالغرض وإليك نص ما جاءنا:

في شوال عام (١٣٨١) هجرية تكونت وزارة الحج والأوقاف من المديرية العامة للحج والمديرية العامة للأوقاف ومصلحة المساجد. وشكّل الديوان العام للوزارة وانتظم العمل بها حسب الرغبة السامية، فمن أعمال هذه الوزارة:

أولاً: إنشاء المساجد في كافة المملكة العربية السعودية وتعيين الأئمة والمؤذنين وخدم المساجد حتى تؤدى الصلوات المفروضة بها حسب الشرع. وكذلك إصلاح ما كان من المساجد يحتاج إلى إصلاح وفرشها وعمل المطهرات اللازمة للمصلين ومراقبة كل ذلك بالموظفين اللازمين. وقد قامت الوزارة بإنشاء ما يزيد عن مائة مسجد وإصلاح عدد كبير من المساجد. ولا تزال تعمل لذلك ولديها الإدراة الفنية المزوّدة بالمهندسين الأكفّاء. وقد بلغ عدد المساجد التي تحت إدارة هذه الوزارة في جميع الوزارة في جميع المملكة (أحد عشر ألف مسجد) والموظفين الذين يعملون في هذا الحقل (خمسة عشر ألف موظف).

ثانياً: وأيضاً تقوم الوزارة بحفظ وصيانة جميع الأوقاف الخيرية وتنفذ فيها شرط واقفيها ومن هذه الأوقاف ما هو موقوف على الحرمين الشريفين وفقرائه وما هو موقوف على صالح المساجد وما هو موقوف لميراث خيرية معينة بالمقدار ومحددة بالزمن، ولكل وقف من هذه الأوقاف سجل خاص يحصر فيه إيراد الوقف ومصروفاته. وقد أنشأت الوزارة عدة أوقاف على أحدث طراز بدلاً من التي هدمت للصالح العام وتقوم بإدارتها بواسطة مديري الأوقاف والأجهزة الخاصة بذلك في كافة مدن المملكة.

وللحرمين الشريفين وما يتعلق بهما أوقاف في كافة البلدان الإسلامية تسعى الوزارة بأن يصل ريع هذه الأوقاف إليها لصرفها حسب شرط واقفيها. ولدى الوزارة سجلات بها إحصاءات هذه الأوقاف، نسأل ا لله أن يوفق ولاة الأمور في جميع البلدان الإسلامية بتسهيل مهمة الوزارة حتى يصل الحق لأهله.

ثالثاً: تقع في إدارة هذه الوزارة جميع المكتبات العامة في المملكة، فهي تشرف على هذه المكتبات وتسهل أمر المراجعين في الكتب والمطبوعات، وتعين في هذه المكتبات العامة الموظفين الأكفاء من المتعلمين وأهل الدراية، كما تعين لهم الخدم والفراشين حسبما يحتاجون إليه، وتضع في هذه المكتبات العامة جميع اللوازم والأدوات المحتاجين إليها وتحضر لهم الأثاث اللازم لكل غرفة من الفراش والكراسي والأنوار والمراوح الكهربائية والمكيفات والدواليب اللازمة لصيانة الكتب وحفظها ودفاتر السجلات لقيد أسمائها فيها حتى يشعر المراجعون بطمأنينة وراحة تامة إلى غير ذلك من لوازم المكتبات العامة.

رابعاً أعمال الوزارة في شؤون الحج هي كما يأتي:

إن حرص الحكومة السعودية على راحة الحجاج جعلها تخصص المبالغ الطائلة وتجنّد الموظفين الأكفاء لهذا الغرض حتى أن الحاج يشعر عند وصوله إلى الأراضي المقدسة أنه يؤدي نسك أحد أركان الإسلام الخمس. فعندما يصل الحاج إلى أحد موانئ المملكة سواء عن طريق الجو أو البحر أو البر يجد الموظفين الذين يستقبلونه ويرشدونه إلى كافة الإجراءات الواجبة عليه وذلك بواسطة المذياع ومكاتب الاستعلامات التي بها من الموظفين المترجمين لعدة لغات ما فيه الكفاية. وبالوزارة المذكورة مديرية خاصة بأعمال الحج بها عدة إدارات وأقسام وهي: الإحصاء والتسجيل، وقضايا المطوفين، وحسابات الطوائف، والاستعلامات، وإدارة الحج بمكة وإدارة الحج بالمدينة المنورة وإدارة الحج برابغ وإدارة الحج بينبع وإدارة الحج بجدة وإدارة المستودعات.

وعندما يصل الحاج إلى الميناء يجد في استقباله موظفي الوزارة ثم نقيب المطوفين الذي يوصله إلى وكيل مطوفه وهذا الوكيل يقوم بكافة ما يلزم الحاج من إحضار السيارة التي تقله إلى البلدين الشريفين مكة والمدينة، فإذا وصل مكة يجد في استقباله موظفي الوزارة ونقيب المطوفين الذي يبعث معه من يوصله إلى دار مطوفه الذي يقوم بإرشاده لأداء النسك وإسكانه في دار مناسبة ثم إذا حان الوقت للصعود إلى عرفات أجرى كل ما يلزم له لأداء الحج ومن ثم عودته إلى بلاده.. فترى الحاج مغتبطاً مستأنساً مما يجده من عناية وإكرام وإن قصد الحاج المدينة المنورة يجد الدليل بالمدينة يقوم بجميع الواجبات التي من شأنها شعور الحاج بأنه في بلده وبين أهله كل ذلك مقابل مبالغ بسيطة معروفة وضعتها الحكومة السعودية تؤخذ من الحاج عند قدومه وتوزع بواسطة الوزارة على كل من يقوم بخدمة الحجاج وهم: المطوفون والوكلاء والنقباء والزمازمة (الذين يسقون الحاج الزمزم) والحمال وما إلى ذلك.

وخلاصة القول فإن أعمال الوزارة كثيرة في هذا الحقل ويشترك في هذا المضمار جميع رجالات الحكومة وعلى رأسهم جلالة الملك فيصل والوزارات جميعها. انتهى.

أول رابطة للعالم الإسلامي بمكة المكرمة

تأسست رابطة العالم الإسلامي منتجة للمؤتمر الإسلامي في دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة من ١٤-١٦ ذي الحجة ١٣٨١ الموافق ١٨-٢٠ مايو ١٩٦٢. وهي هيئة إسلامية مقرها «مكة المكرمة» وهدفها أداء فريضة الله علينا في تبليغ دعوة الإسلام وشرح مبادئها وتعاليمها ودحض الشبهات عنها ومجاهدة المؤامرات الخطيرة التي يريد بها أعداء الإسلام فتنة المسلمين عن دينهم وتمزيق وحدتهم وإخوّتهم والنظر في القضايا الإسلامية بما يحقق مصالح المسلمين وآمالهم وحل مشاكلهم ولتحقيق هذا الهدف نتخذ الوسائل التالية:

١- دعوة عدد من كبار دعاة الإسلام المرموقين في العالم الإسلامي كله لتبادل الرأي وتنسيق الجهود وتطوير وسائل الدعوة والتبليغ على أساس من تجاربهم جميعا.

٢- الاستفادة من منافع الحج وذلك عن طريق:

أ- انتقاء صفوة من أقوى الدعاة بمختلف اللغات كي يوجهوا الحجيج أثناء الموسم ويذكروا مشاعرهم ويذكرونهم بالأمانة في أعناقهم بعد أن يعودوا إلى بلادهم.

ب- عقد ندوة كبيرة تضم قادة الرأي والتوجيه في الحقل الإسلامي.

ج- تنظيم مجالات التعارف بين وفود الحجيج.

٣- دعم أجهزة الإذاعة بالرجال والبرامج بعدة لغات حتى يبلغ صوت الدعوة آذان أكبر عدد من المسلمين.

٤- رفع مستوى النشر عن طريق الصحافة والكتب وبجميع اللغات والعمل على إنشاء دار للنشر الإسلامي في مكة (عاصمة الإسلام).

٥- إنشاء مكاتب يقوم عليها رجال ذوو دين وكفايات وأخلاق فاضلة تكون بمثابة مراكز دائمة النشاط تنشر دعوة الإسلام، ويشرف عليها مكتب مركزي تحت إشراف الأمين العام.

٦- العمل على أن يكون الحكم بالإسلام في البلاد الإسلامية.

٧- إنشاء هيئة تؤلف من علماء جديرين بالإفتاء.

٨- نشر اللغة العربية بين الشعوب الإسلامية.

٩- تنظيم جولات للدعاة.

وتتألف رابطة العالم الإسلامي من:

١- المجلس التأسيسي وهو اليد العليا التي ترسم سياسة الرابطة وتشرف على اتجاهها وسير كافة أعمالها في سبيل تحقيق أهدافها. وتجتمع اجتماعاً دوريا خلال العام بدعوة من الأمين العام ورئيس المجلس سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الأكبر في المملكة.

٢- ينتخب الأمين العام انتخاباً مباشراً ويتولى العمل مدة خمس سنوات قابلة للتجديد، وقد انتخب معالي الشيخ محمد سرور الصبان أميناً عاماً وهو الممثل الرسمي لدى سائر المراجع الحكومية والشعبية.

أما عدد أعضاء المجلس التأسيسي فيبلغ حوالى (٤٥) عضواً من سائر أمصار العالم الإسلامي ومن أفاضل علمائه. والرابطة تعقد في كل خمس سنوات مؤتمراً إسلامياً كبيراً لتدارس شؤون الإسلام والمسلمين.

انظر: صورة رقم ٣٠٩، الشيخ محمد سرور الصبان – وزير المالية وأمين عام الرابطة الإسلامية الأسبق

التطويف أو الطواف

لا ندري متى تخصص طائفة من أهل مكة ومن المجاورين بها في تطويف الناس بالبيت الحرام وتلقينهم دعاء الطواف المأثور وغير المأثور كالمرشدين لهم في كيفية أداء واجبات الحج والعمرة وسننهما، فإن الحاج الغريب مهما كان عالماً ومتعلماً فإنه قد يقع في خطأ وهو يؤدي مناسكه من حيث لا يدري ولا يشعر، كيف لا وهو في بلد لم يشاهدها وفي أماكن العبادة وأداء المناسك لم ير مثلها في أي البلاد، فإذن لا بد للقادم من دليل يعرفه المشاعر العظام ومرشد يرشده إلى كيفية أداء المناسك خصوصاً إذا كان القادمون من العوام.

وهؤلاء الأدلاء والمرشدون نسميهم عندنا بمكة (المطوفين) وبالمدينة المنورة (الأدلاء). أما متى تخصص طائفة لذلك فلا ندري ولكن نعتمد في هذا المبحث على صديقنا المطوف الفاضل والمؤرخ البحّاثة الأستاذ أحمد السباعي المكي مؤلف كتاب (تاريخ مكة) فإنه قال في صحيفة (٢٣٣) من مؤلفه المذكور ما نصه: ولعل صناعة التطويف ابتدعت في هذا العهد لأن الشراكسة بحكم جهلهم اللغة العربية وميلهم إلى الأبهة والبذل كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم ويدلهم على

مشاعر الحج ويتلوا أمامهم أدعيته، وقد ذكروا أن السلطان قايتباي حج في عام (٨٨٤) ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره وأن القاضي إبراهيم ابن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية، ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج بمكة، فيما قرأته من تواريخ مكة. انتهى كلامه.

نقول: لا ندري بالضبط متى يبتدئ عهد الشراكسة فربما كان في القرن الثامن للهجرة، ويقول الأستاذ السباعي أيضاً في صحيفة (٣٢٩) من كتابه المذكور ما نصه:

ويبدو أن مهنة الطوافة التي ذكرنا أنها ابتدعت في عهد الشراكسة اتسع نطاقها قليلاً في أوائل العهد العثماني لأن أمراء الأتراك ورؤساءهم كان لا بد لهم من أشخاص يطوفونهم، فإذا كان أول مطوف عرفناه في عهد الشراكسة كان قاضياً في مكة فالذي يظهر أن الطوافة في العهد العثماني خرجت من سلك القضاة قليلاً إلى بعض الأعيان في مكة، وقد تقدم بنا في حوادث عام (١٠٣٩) قصة محمد المياس الذي كان يطوف أمير التركي واستطاع أن يحتال له في القبض على أمير مكة بعد أن أغرى أمير مكة بالوصول إلى منازل أمير الترك خارج البلاد حتى تيسر القبض عليه.

ومحمد المياس لم يرد اسمه بين قضاة مكة أو علمائها ولكنه تبين من اعتماد أمير الترك عليه في إغراء أمير مكة أنه من وجهائها، وبذلك بدا لنا أن مهنة الطوافة انتقلت من القضاة إلى الأعيان في مكة ولا بد أنهم كانوا من المتفقهين. انتهى كلامه.

ويقول الأستاذ السباعي أيضاً في صحيفة (٣٩٣) من كتابه المذكور ما نصه: وفي عام (١٣١٨) ثماني عشرة وثلاثمائة وألف قسّم الشريف عون طوافة بلاد مصر وجاوه والهند والمغرب وبلاد الأناضول وغيرها أقساماً تسابق المطوفون إلى شرائها لذلك ألغى سؤال الحاج عن مطوفه وألزم بتبعية المطوف الذي اشترى حقوق الطوافة للبلاد التي يتبعها ذلك الحاج، ويقول إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين»:

إن جميل باشا جاء إلى مكة فأبطل تقسيم بلاد الجاوه ثم عادت التقسمات في عهد راتب باشا. انتهى كلامه.

وقال الأستاذ السباعي أيضاً في صحيفة (٤١١) من كتابه المذكور ما نصه: واتسع نطاق الطوافة في هذا العهد «يقصد عهد الشريف الحسين بن علي رحمه الله تعالى الذي نهض بثورته المشهورة عام (١٣٣٤)».

وزاد عد المطوفين بعض الشيء وكان أمراء مكة يخصصون بعض المطوفين لطوافة جهات خاصة من الآفاق، وأقدم تقرير في الطوافة علمت به هو تقرير يملكه آل جاد الله بتوقيع الشريف غالب رحمه الله في عام (١٢٠٥). ولعل بعض الأسر من المطوفين يحوزون أقدم من هذا التقرير وتوسع الشريف عون الرفيق في توزيع البلاد الإسلامية إلى أقسام تقرر لها مطوفون فكان كل مطوف مسؤولاً عن البلد التي خصصت له، وشرع بعد هذا يقرر على الحجاج رسوماً للمطوف. وفي سنة (١٣٢٦) صدر قرار بمجلس الإدارة بتعريفة الحجاج ونشرته جريدة الحجاز وهو كما يأتي:

عدد	
١	جنيه عثماني أجرة مسكن بمكة للجاويين.
٢	جنيه عثماني إكرامية مطوف وضيافة في عرفة ومنى (ومن توفي قبل الوقوف بعرفة فعليه نصف المقرر).
١٠	روبيات هندي إكرامية المطوف لعموم أجناس الهند.
٢	جنيه عثماني على الداغستاني إكرامية مطوف وأجرة خيمة في عرفة ومنى وبيت مكة.
٥	ريال مجيدي على حجاج مصر والشام والمغرب إكرامية المطوف.
٢	ريال مجيدي على حجاج الصعيد وغزة والعراق وأولاد علي والأكراد، وعلى كل حاج عدا من ذكر أن يدفع لمطوفه إكرامية جنيه واحد للميسور ونصف جنيه لمتوسط الحال.

انتهى كل ما ذكره الأستاذ السباعي في كتابه عن الطوافة، وللأستاذ المذكور كتيب لطيف الأسلوب طريف الموضوع اسمه «مطوفون وحجاج» وهو مطبوع يباع.

هذا وقد ذكر الغازي في تاريخه في الجزء الثاني نقلاً عن «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا تقسيم الشريف عون الجهات وبيعها للمطوفين مفصلاً. ولقد

لخّصه الأستاذ السباعي بما هو مذكور هنا فلا داعي لتكرار ذكره، وقد توفي الشريف عون بالطائف سنة (١٣٢٣).

وذكر الغازي أيضاً في الجزء الثاني من تاريخه أن مجلس الإدارة قرر إكرامية لسائر المطوفين في سنة (١٣٢٦) ونشر ذلك في جريدة الحجاز، وساق الغازي رحمه الله تعالى نص القرار الذي نشرته الجريدة أضربنا عن ذكره هنا خوف التطويل.

وجاء في «الرحلة الحجازية» لمحمد نبيل البتنوني بصحيفة (١٢٣) وما بعدها عن المطاف والمطوفين وكيفية الطواف، لكن ما جاء فيها لا يتعلق بما نحن بصدده هنا.

فعلم مما تقدم أن التطويف لم يذكر في التاريخ إلا من عهد الشراكسة «أي من أول القرن الثامن الهجري تقريباً» ثم ما زال يتسع نطاقه حتى وصل إلى عهدنا الحاضر، وهو له أنظمة وقوانين وله مشيخة ونقباء.

والذي يتبادر إلى ذهننا والله تعالى أعلم أن التطويف كان معروفاً من قبل الشراكسة بكثير وربما كان من القرن الأول للهجرة وكان معروفاً عملياً من غير أن يطلق عليه اسم «التطويف» واسم «المطوفين» فإنه لما انتشر الإسلام في أقطار الأرض وأتى المسلمون من كل فج عميق إلى مكة لأداء فريضة الحج كان من الضروري أن يرشدهم أهل مكة إلى كيفية الطواف لبيت الله الحرام وأماكن المشاعر وطريق الحج فإن الغريب في أي بلدة كان فهو يحتاج إلى مرشد ورفيق يرشده إلى معالمها، وأما في مكة من أماكن العبادة والمشاعر وأداء واجبات الحج والعمرة أولى بالإرشاد والمرافقة للغريب القادم لأن الوقوع في الخطأ في الواجبات والأركان يؤدي إلى وقوع الجزاء وإخراج الفدية، والغريب القادم أحرص الناس على أداء ما يجب عليه في مناسك الحج والعمرة، فلا بد له إذن من مرشد من أهل مكة يرشده إلى كيفية ما يطلب منه شرعاً على الوجه الصحيح.

فعليه لا يستغني الغريب القادم من القرن الأول للإسلام إلى يوم القيامة من المرشد والدليل يرشده إلى ما يجب اتباعه ويجنبه عما يكره عمله، وهذا المرشد والدليل هو المسمى في عرفنا اليوم (بالمطوف) وإن كان في العصور الأولى السابقة لم يطلق عليه هذا الاسم، والمتبادر إلى الذهن أن أهل مكة في ذلك الوقت كانوا يرون من الواجب عليهم أن يرشدوا الغريب إلى المناسك والعبادة مدفوعين بعامل

التعاون إلى البر والتقوى وعمل الخير والتعليم لأداء نسك الحج لوجه الله تعالى لا يريدون من الحجاج جزاء ولا شكورا.

وهذا أهل الجاهلية كانوا يكرمون الحجاج ويطعمونهم الطعام ويسقونهم الماء العذب الموضوع فيه التمر والزبيب وهو المسمى عندهم بالسقاية والرفادة، وكانت مستمرة أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين، قال الغازي في تاريخه: قال السيد التقي الفاسي رحمه الله: إن الرفادة كانت أيام الجاهلية وصدر الإسلام واستمرت إلى أيامنا. قال وهو طعام يصنع بأمر السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج، قال القطب: وأما في زماننا فلا يفعل شيء من ذلك ولا أدري متى انقطع. اهـ.

وفي تاريخ الأزرقي أن عمرو بن لحي أول من أطعم الحاج بمكة سدايف الإبل ولحمانها على الثريد وأنعم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن، وكان قد ذهب شرفه في العرب كل مذهب وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف...إلخ، اهـ. والسدايف جمع سديفة وهي الناقة السمينة والسديف شحم السنام، قاله في المنجد. روى الأزرقي في تاريخه أن قصي بن كلاب قال لقريش: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل الحرم وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم فيدفعونه إلى قصي فيصنعه طعاماً للحجاج أيام الموسم بمكة ومنى فجرى من أمره في الجاهلية على قومه وهي الرفادة حتى قام الإسلام وهو في الإسلام إلى يومك هذا وهو الطعام الذي يصنعه السلطان بمكة ومنى للناس حتى ينقضي الحاج. اهـ.

وروى فيه أيضاً: أن هاشم بن عبد مناف كان يقول لقريش إذا حضر الحج: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته خصكم الله بذلك وأكرمكم به ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا أضيافه وزوّار بيته يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد. وكانت قريش ترافد على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير رغبة في ذلك فيقبل منهم لما يرجى لهم من منفعة. انتهى من الأزرقي.

على هذا المنوال كان يعامل الحجاج قبل الإسلام وبعده إلى أيام التقي الفاسي، ثم لما تقادم العهد وتيسّر طريق الحج امتلأت بيوت مكة وطرقاتها من الحجاج من مختلف الأجناس واللغات فكان لزاماً تخصيص أدلاّء ومرشدين (وهم المطوفون) يقومون بخدمة هؤلاء الحجاج وفود بيت الله الحرام من كافة الوجوه بصورة منظمة وأصول رسمية مرعية، ولهم في مقابل خدمتهم أجر معلوم على كل حاج.

ونرى أنه لو وضع نظام دقيق وقوانين محكمة للمطوفين بواسطة العقلاء والفضلاء منهم وباشتراك رجال تنظيم السياحة والاجتماعيين وذوي الخبرة والمهارة من خارج المملكة لكان لهذا الحج والحجيج نتيجة باهرة كبيرة وعاد ذلك للبلدة الطاهرة بالخير العميم والنفع العظيم. نسأل الله صلاح الحال في الحال والمآل آمين.

قال البتنوني الذي حج في سنة (١٣٢٧) في كتابه «الرحلة الحجازية» مقترحاً بتعليم المطوفين ما نصه: ولو كان مولانا الأمير «يعني أمير مكة الشريف الحسين رحمه الله تعالى» يقضي بأن يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها ما هو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك أكبر خدمة دينية لأن جل الموجود منهم الآن يجهل مأموريته الكبرى وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقي في ذهن الحاج ما ليس من الدين في شيء كمسألة الكنفاني والزلباني مثلا وهما حجران في طريق جدة إلى بحرة يزعمون أن واحداً منهما كان كنفانياً والآخر زلبانياً وكانا يغشّان الحجاج فمسخهما الله حجرين!!

ومسألة الناقة والحجام والحجامة بجبل عمر: ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة وإلى جوارها حجران يزعمون أن النبي ﷺ كان بهذا المكان بناقته فأتى رجل حجّام مع امرأته وأمسكا بالناقة التي لم تنهض برسول الله ﷺ فمسخهما الله معهما على هذه الصورة!!

ومسألة سارق الصندوق وهو صخرة إلى جهة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فمسخه الله عليها!! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بإزالته خدمة للدين المتين.

والأدهى من ذلك أنهم يحرفون ألفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف بتفخيمهم ما لا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم ما لا يصح ترقيقه، بل منهم من يقلب الحرف بآخر لتقريبه إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً فيقولون

مثلاً: (وكِنَا عذاب النار) في قوله تعالى:﴿وقِنَا عذاب النار﴾ و (مهمد رسول الله) في محمد رسول الله و (يا أرهم الراهمين) في يا أرحم الراحمين و (اللوهم) في اللهم ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعاً. انتهى من الرحلة الحجازية.

نقول: إن البتنوني رحمه الله قال الكلام المذكور منذ خمسين عاماً فأكثر وكلامه هذا صحيح بالنسبة لزمنه والسنة التي حج فيها حيث كان التعليم ضعيفاً بمكة و لم تكن بها من مدارس سوى مدرستين «المدرسة الصولتية» و «مدرسة الخياط» وكانتا حديثتي عهد ويدرّس بهما مبادئ العلوم الأولية ثم بعد ذلك فتحت مدرسة الفلاح بمكة ومدرسة الفلاح بجدة فازداد الإقبال على التعليم سواء في المدارس أو في المسجد الحرام.

ثم الآن في العهد السعودي الزاهر كثرت المدارس الابتدائية والثانوية والعالية في جميع أنحاء المملكة وتوجد منها بمكة فقط نحو عشرين مدرسة يدرس فيها جميع العلوم وبفضلها صار غالب أهل مكة من مطوفين وغيرهم من أهل العلم والفضل بل يوجد منهم من يضرب بهم المثل في العلم والأدب والشهامة والأخلاق وقليل منهم من لم يكن له حظ في التعليم.

أما مسألة الخرافات التي ذكرها البتنوني فقد انمحت من البلاد هي وغيرها و لله الحمد بسبب تمسك حكومتنا السنية بالشريعة الغراء وقيام رجال الدين والآمرين بالمعروف بالقضاء على جميع أنواع الخرافات وكل ما ليس له أصل في الدين.

وأما تحريف بعض الألفاظ في الأدعية والغلط فيها فهذا يحدث من خَدَمة المطوفين ومن صغار المتعيشين من الطواف والسعي ومن لغة بعض حجاج الأعاجم الجهلاء وربما كان لبعض هؤلاء عذر قهري طبيعي كعدم استطاعتهم لنطق الأحرف العربية على الوجه الصحيح. وهذا شيء لا يؤاخذون به شرعاً.

لكن بقي علينا أن ننبه بعض جهلاء المطوفين للحجاج الأعاجم الذين لا يعرفون اللغة العربية أن يترفقوا بحجاجهم وأن يرحموا غربتهم وذلّهم وانكسارهم وأنهم وفد الله وضيوف بيته الحرام وقد حلوا بمكة التي يأمن فيها الوحش والطير، فكم رأينا من هؤلاء الحجاج من يلقون من مطوفيهم كثيراً من العنت والجور وهم حجاج أغراب لا يعرفون أين يرفعون ظلامتهم ولا كيف يراجعون وهم لا يفهمون من اللغة العربية شيئاً بينما فيهم الأذكياء والمفكرون والفلاسفة وقد يرجع

بعضهم ساخطاً مشمئزاً مما رأى وسمع فيكتب عنا بما لا نحب ويكون دعاية سوء لهذه البلاد المقدسة، اللهم اصلح أحوالنا ونوّر أبصارنا واحي قلوبنا واغفر لنا وارحمنا ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا واهدهم معنا إلى الصراط المستقيم آمين بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اقتراحنا في الطوافة

لما كانت الطوافة والزيارة من الأمور الهامة جداً بالنسبة للحرمين الشريفين وبالأخص مكة شرفها الله تعالى التي يقع فيها أعمال الحج وهو الركن الخامس للإسلام فإنه يجب تنظيم الطوافة تنظيماً دقيقاً لحضرات المطوفين من ناحية القيام بواجباتهم الدينية والاجتماعية نحو حجاج بيت الله الحرام الذين أتوا من كل فج عميق للوقوف بالمشاعر العظام امتثالاً لأمر الله عز شأنه.

ولسنا نقصد وضع قانون للمطوفين من جهة مصالحهم الشخصية فهذا أمر راجع إليهم وقد قام فريق من فضلائهم في هذه السنوات يدعون إلى تنظيم أمر المطوفين وهذه الدعوة يشكرون عليها.

وإنما نحن ندعو هنا إلى ما يكفل لهم مصالحهم ومصالح الحجاج من حيث قيامهم بتعليم جهلاء الحجاج أحكام الحج والطواف والسعي والوقوف والرمي والذبح وغير ذلك من أعمال الحج وإلى تنبيههم إلى آداب المسجد الحرام والمسجد النبوي وكيفية الزيارة الشرعية.

ثم رعايتهم لمصالح الحجاج ومعاملتهم باللطف والحسنى فإنا نسمع من كثير الحجاج الشكوى المريرة من بعض مطوفيهم وبالأخص الحجاج الذين لا يعرفون اللغة العربية.

وخلاصة القول: إننا نحب أن لا يلاقي حجاج بيت الله في هذه البلدة الطاهرة إلا كل إكرام ورعاية لتكون ألسنتهم تلهج بالثناء العاطر على الجميع إن شاء الله تعالى.

وهذه مصر ولبنان وغيرهما يعملون من الدعايات الواسعة للسياحة والاصطياف في كل عام ويصرفون على ذلك مبالغ طائلة مع تنظيم أمر المرشدين والأدلاء إلى معالم المدينة وآثارها مما يكفل لهم أكبر عدد من الزوار والسواح.

وجدير بنا وقد جعل الله لبلادنا المقدسة موسماً سنوياً يفد إليها المسلمون من جميع الأطراف من مشارق الأرض ومغاربها طوع اختيارهم بدعاية إلهية وبوازع ديني، ونحن إنما نحتاج إلى دعاية لمصالح أنفسنا من حسن المعاملة والخلق الكريم لا سيما ونحن أهل الحرمين الشريفين، فالعالم الإسلامي ينظر إلينا نظرة خاصة فيجب علينا أن نظهر بالمظهر اللائق بنا وببلادنا الشريفة. نسأل الله التوفيق لأعمال البر والخير آمين.

نبذة عن أعمال المطوفين في خدمة الحجاج

لقد قدمنا الكلام على المطوفين وحالة العرب في خدمة الحجيج زوّار بيت الله الحرام. والآن نحب أن نذكر نبذة عنهم وعن خدماتهم للحجاج الكرام في كل عام بمكة المكرمة، لقد طلبنا من الفاضل الكريم الشيخ عبدالرحمن مظهر رئيس مطوفي حجاج الهنود والباكستانيين أن يكتب لنا نبذة عن أعمالهم وأن يخبرنا عن أسماء الهنود فأرسل لنا أسماءهم ونبذة عن أعمالهم فنحن لم نكتب أسماءهم الكريمة لأنهم بلغوا أربعمائة نفس من مطوفي الهنود والباكستانيين فقط ولو كتبنا أسماءهم لاضطررنا إلى كتابة جميع أسماء مطوفي العرب والجاويين وأهل السودان والصينيين وغيرهم وهؤلاء قد يزيدون على أربعة آلاف مطوف عندنا، فذكرهم جميعاً مما يطول بيانه ويحتاج إلى مؤلف خاص، لذلك نعتذر لحضرات جميع المطوفين عن حصرهم وذكر أسمائهم الكريمة. ولكن لا بأس أن نذكر هنا ما جاءنا عن رئيس مطوفي الهنود والباكستانيين الشيخ عبدالرحمن مظهر حفظه الله تعالى عن نبذة من أعمالهم وإليك بيان ذلك وهو:

نبذة من أعمال مطوفي الباكستان والهند في خدمة حجاج بيت الله الحرام:

١- استقبال الحجاج بواسطة وكلائهم بجدة والمدينة القادمين بحراً وجواً وبراً وتسجيل جوازاتهم لدى الجهات المختصة وتنظيم بياناتهم وتقديمها إلى النقباء لإرسالها إلى الرؤساء بمكة المكرمة.

٢- استقبالهم في مكة والقيام بأداء مناسكهم ثم تقدم الضيافة المناسبة لهم وتأمين راحتهم ثم استئجار الدور القريبة من المسجد الحرام لسكناهم مدة إقامتهم بمكة وتعيين الزمزمي التابع لهم بإرسال دوارق الزمزم إلى بيوتهم مدة إقامتهم بمكة المكرمة.

٣- استلام الأجور المقررة لسياراتهم إلى المدينة المنورة أو إلى عرفات أو إلى جدة وتسليمها إلى رئاسة النقابة العامة للسيارات واستلام الاعتمادات إلى الشركات المختصة بإركابهم ومراجعة القراجات لحصول سياراتهم ثم تحميل عفشهم وترحيلهم إلى الجهة التي يقصدونها.

٤- القيام بتصعيدهم إلى منى وعرفات وتأمين الخيام اللازمة لهم أيام الحج في منى وعرفات.

٥- ملاحظة راحتهم وأداء المناسك في مشاعر الحج منى وعرفات ومزدلفة بموجب السنة المطهرة.

٦- عمل الكشوف اللازمة بأسمائهم وأرقام جوازاتهم وأخذ التصاريح الرسمية لتسهيل عودتهم بعد انتهائهم من أداء فريضة الحج.

٧- يقوم وكلائهم في جدة بإكمال إجراءات سفرهم إلى بلادهم حسب ترتيب قدوم أفواجهم أولاً فأول.

٨- إذا مرض أحد الحجاج يقوم المطوف بإحضار الطبيب له ويشرف على علاجه حتى شفائه، وعند اللزوم يقوم بإدخاله المستشفى.

٩- إذا توفي أحد الحجاج يقوم المطوف بما يجب نحو غسله وتكفينه وتجهيزه ودفنه ثم إدخال تركته إلى بيت المال بمكة لإرسالها إلى ذويه في بلاده.

والخلاصة أن المطوف هو الشخص الوحيد بالنسبة للحاج الغريب كمضيف وأخ وصديق وملاحظ ومسؤول أمام الحكومة السنية من حين قدومه إلى مغادرته البلاد المقدسة شرفها الله وأدام خادمها المحبوب الملك فيصل بن الإمام عبدالعزيز آل سعود مؤيداً منصوراً. انتهى ما ذكره الشيخ عبدالرحمن مظهر وفقه الله تعالى وأدام عليه الصحة والعافية وهذه الأعمال هي لكافة المطوفين لجميع الأجناس.

تطوير حالة الطوافة والمطوفين

كانت حالة الطوافة وشؤون المطوفين تراعى فيها التقارير والمراسيم الصادرة في الأزمنة الماضية من عهد الدولة التركية وعهد الأشراف، ثم رأت الحكومة السعودية تطوير حالتهم ووضع أنظمة تضمن مصلحة المطوفين والأدلاّء والزمازمة ومصلحة الحجاج الكرام وفود بيت الله الحرام فأصدر جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية المرسوم الآتي المنشور بجريدة

«الندوة».بمكة المكرمة بتاريخ يوم الأربعاء ١٢ جمادى الأولى سنة (١٣٨٥) هجرية الموافق ٨ سبتمبر سنة (١٩٦٥) ميلادية وهذا نص المرسوم المذكور:

مرسوم ملكي رقم ١٢ بتاريخ ١٣٨٥/٥/٩ هجرية :

بعون الله تعالى نحن فيصل بن عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية :

بناء على المادتين ١٩ و٢٠ من نظام مجلس الوزراء الصادر بالمرسوم الملكي رقم ٣٨ وتاريخ ٢٢ شوال (١٣٧٧هـ) وبعد الاطلاع على نظام المطوفين العام الذي صدر الأمر بالموافقة عليه وإنفاذه برقم ٩٢٦٧ وتاريخ ٣-١١-١٣٦٧هـ وعلى الأوامر المعدلة له، وعلى نظام وكلاء المطوفين ومشائخ الجاوه الذي صدر الأمر بالموافقة عليه وإنفاذه برقم (١٤٥١٨) وتاريخ ٢١-١٠-١٣٦٥هـ وعلى نظام هيئة الأدلاء بالمدينة المنورة الذي صدر الأمر بالموافقة عليه وتنفيذه برقم ١٤-١-١٤٥ وتاريخ ١٣٥٦/١٢/٢٥هـ.

وبناء على قرار مجلس الوزراء رقم ٥٤ وتاريخ (١٣٨٣/١٢/٢٧هـ) حول إصلاح وتطوير طوائف وخدمات الحجاج.

وبناء على قرار مجلس الوزراء رقم ١٥٩ وتاريخ ١٣٨٥/٣/١٧هـ رسمنا بما هو آت:

١) يقفل باب المعلمانية وباب الانفصال بين الشركاء اعتباراً من تاريخ العمل بهذا المرسوم ولمجلس الوزراء أن يضع قواعد جديدة للمهنة تتمشى ومقتضى المصلحة العامة.

٢) يكون لكل حاج الحرية المطلقة في السؤال عن المطوف والدليل الذي يريده ويكون للمطوف الحرية المطلقة في اختيار الوكيل والزمزمي الذي يريده وتلغى كافة التقارير والتخاصيص التي بأيدي المطوفين والأدلاء والزمازمة.

٣) يحق للمطوف خدمة الحجاج الذين يسألون عنه وذلك دون تحديد لعددهم على أن تراعي وزارة الحج والأوقاف عند محاسبة كل مطوف على مصلحته أن تصرفها له كاملة عن المائتي حاج الأول ونصفها عن المائتين التالية وربعها عما يزيد عن ذلك من الحجاج.

٤) يكون الدليل حراً في قبول التعامل مع المطوفين على أن تراعي وزارة الحج والأوقاف عند محاسبة كل وكيل على مصلحته نفس الحكم المنصوص عليه

بالمادة ٣ من هذا المرسوم وذلك بالنسبة لكل مطوف على حدة ومن يتعاملون معهم.

٥) يكون الزمزمي حراً في قبول التعامل مع المطوفين على أن تراعي وزارة الحج والأوقاف عند محاسبة كل زمزمي على مصلحته أن تصرفها له كاملة عن الثلاثة آلاف حاج الأول وثلثيه عما يزيد على ذلك من الحجاج.

٦) تحدد خدمة الأدلاء بالمدينة المنورة بواقع عشرة ريالات عن كل حاج تستوفى ممن يرغب الزيارة مع العوائد المقررة ويحق للدليل خدمة الحجاج الذين يسألون عنه وذلك دون تحديد لعددهم على أن تراعي وزارة الحج والأوقاف عند محاسبة كل دليل على مصلحته أن تصرفها له كاملة عن الألف حاج الأول ونصفها عن الألف حاج التالين وربعها عما يزيد على ذلك من الحجاج.

٧) الحجاج الذين لم يسألوا عن مطوف أو دليل يعين المطوفون والأدلاء لهم من أفراد الطائفة الذين لم يحصلوا على الحد الأدنى للمصلحة الكاملة مع مراعاة إمكانية كل مطوف ووفقاً للترتيبات واللوائح المشار إليها في المادة ١٣ مع مراعاة أحكام المادتين ٣ و ٦ من هذا المرسوم.

٨) تلغى رئاسات وهيئات المطوفين الثلاث ورئاسات وهيئات الأدلاء والوكلاء والزمازمة والأمناء والجمعيات العمومية والنقباء وتناط مهماتها بوزارة الحج والأوقاف مع الاستفادة من الموظفين الحاليين في الهيئات المذكورة طبقاً للمصلحة والنظام.

٩) يظل مجموع التعرفة السابقة كما هو فيما عدا مقرر الدليل المحدد في المادة ٦ لمن يرغب الزيارة وتعتمد تفاصيلها بعد الإلغاءات المشار إليها في المادة ٨ كالآتي:

خدمات المطوف بمكة ٥٠ ريالاً.

خدمات للوكيل بجدة سبعة ريالات.

خدمات للزمزمي بمكة ثلاثة ريالات و٣٠ هللة.

أجور نقل الحجاج وأمتعتهم إلى مدينة الحجاج من الباخرة أو الطائرة ذهاباً وإياباً ستة ريالات.

نفقات طارئة للحجاج ٧ ريالات و٧٠ هللة.

مقرر الدليل لمن يرغب الزيارة عشرة ريالات.

المجموع الكلي: ٨٤ ريالاً.
المجموع: ٧٤ ريالاً.

١٠) يفتح حساب مستقل لدى مؤسسة النقد العربي السعودي وتورد إليه المبالغ المستحصلة بمقتضى المادة ٩ وتمسك وزارة الحج والأوقاف حساباً خاصاً لكل طائفة ترحل إليه الوفورات الخاصة بها بعد إنفاذ أحكام المواد ٣و٤و٥و٦ ويصرف من ذلك الحساب الخاص على تنظيم أمور الطائفة المعنية وعلى مساعدة أفرادها بمقتضى المادة الثانية كما تمسك حساباً خاصاً لما عدا ذلك من التفرقة مما هو مقرر لتأدية نفقات الخدمات المعلومة التي تؤدى للحجاج بواسطة وزارة الحج والأوقاف وترحل إليه وفوراتها بنفس أغراضها ولأية خدمات اضطرارية للحجاج ويتم الصرف بمقتضى لائحة مالية تعدها وزارة الحج والأوقاف ويقرها مجلس الوزراء وتكون الحسابات المذكورة خاضعة للتفتيش والمراقبة.

١١) تصرف وزارة الحج والأوقاف من وفورات حساب كل طائفة من الطوائف المشار إليها في مساعدة المحتاجين من أفراد الطائفة صاحبة الشأن ويكون ذلك وفقاً للقواعد الآتية:
أولاً: تكون المساعدة بحد أعلى خمسة آلاف ريال لكل فرد منهم أو بما يكمل مصلحته إلى الحد المذكور.
ثانياً: يراعى في تحديد قدر المساعدات التي تصرف لأفراد كل طائفة أن تكون في حدود حصيلة الرصيد الخاص بها عن كل موسم مع تحقيق المساواة فيما بينهم في نطاق القاعدة المشار إليها في البند الأول السابق.

١٢) على الرؤساء والهيئات والنقباء المشار إليها في المادة الثامنة من هذا المرسوم تسليم كافة ما بعهدتهم من سجلات ووثائق ومستندات إلى وزارة الحج والأوقاف لتنظيمها والرجوع إليها عند الاقتضاء.

١٣) على وزارة الحج والأوقاف أن تباشر مهماتها بمقتضى الترتيبات واللوائح التي تضعها لذلك ويقرها مجلس الوزراء.

١٤) يلغى كل ما يتعارض مع أحكام هذا المرسوم من أنظمة وأوامر وقرارات ولوائح وتعليمات سابقة عليه ويعمل به من تاريخ نشره.

التوقيع

فيصل

هذا المرسوم الملكي يصدر لأول مرة من هذا النوع في شؤون المطوفين والطوافة. وا لله تعالى أعلم ماذا يخرج من الأنظمة والترتيبات عن إصلاح حالة الطوافة والمطوفين بما يتفق مع مصلحتهم ومصلحة الحجاج الكرام وفود بيت ا لله الحرام. وحيث أننا لسنا من طائفة المطوفين فإننا لا نقدر أن نكتب هنا شيئاً عنهم فيما مضى أو فيما يأتي وا لله تعالى هو مدبر أمور خلقه في السموات والأرض لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

إحصاء البلدان التي يحضر منها الحجاج في كل عام

وهنا لا بد لنا أن نذكر جميع البلدان من أقطار الأرض التي يحضر منها الحجاج إلى الحرمين الشريفين «مكة والمدينة» في كل عام منذ بدء ظهور الإسلام إلى قيام الساعة، وإليك هذه البلدان في الجدول الآتي:

عدد	اسم البلدة
١	مصر : بجميع جهاتها ومديرياتها
٢	والشام : بجميع أطرافها وما حولها من البلدان
٣	واليمن : بجميع أطرافها
٤	والعراق : بما يتبعها من جنس الأكراد
٥	ونجد : بجميع ما فيها من البلدان
٦	والكويت
٧	وقطر "بفتحتين"
٨	والبحرين
٩	وعمان
١٠	وإمارات الخليج
١١	وحضرموت : بجميع ما يتبعها من المدن

عدد	اسم البلدة
١٢	وعدن -بفتحتين-
١٣	ولبنان
١٤	والأردن
١٥	وفلسطين : بجميع أطرافها
١٦	والسودان : من أقصاها إلى أقصاها
١٧	وليبيا
١٨	وتونس
١٩	والجزائر
٢٠	ومراكش
٢١	وبلاد شنقيط : بجميع مدنها وقراها
٢٢	وموريتانيا
٢٣	ونيجيريا
٢٤	والنيجر
٢٥	والسنغال : بجميع أطرافها

عدد	اسم البلدة
٢٦	وفولتا العليا
٢٧	والصومال : بجميع أطرافها
٢٨	والحبشة
٢٩	والكاميرون
٣٠	وأنجولا
٣١	وغانا
٣٢	وغينيا
٣٣	ومالي
٣٤	وتشاد
٣٥	والكونغو
٣٦	وتوجو
٣٧	وداهومي
٣٨	وليبيريا
٣٩	وتانجانيقا
٤٠	وزنجبار
٤١	وأوغندا
٤٢	وبلاد جنوب أفريقيا
٤٣	وكينيا
٤٤	وكديفور
٤٥	وغامبيا
٤٦	ومالاقاسي
٤٧	وجزر موريسيا
٤٨	وماليديف
٤٩	وبلاد إيران : بما فيها من الأكراد
٥٠	وبلاد تركيا : بجميع مدنها وأطرافها
٥١	وأفغانستان : بجميع مدنها

عدد	اسم البلدة
٥٢	وباكستان : بجميع مدنها
٥٣	وبلاد الهند : بجميع أطرافها
٥٤	وبلاد الصين
٥٥	واليابان
٥٦	وسيلان
٥٧	وبعض بلاد روسيا
٥٨	وبلاد بخارى
٥٩	وبورما
٦٠	وكامبوديا
٦١	وفيتنام
٦٢	وبلاد جاوه : بجميع أطرافها
٦٣	وأندونيسيا : بجميع مدنها
٦٤	وماليسيا
٦٥	وتايلند
٦٦	وفيليبين
٦٧	وكوريا
٦٨	وكيبتون
٦٩	واليونان
٧٠	وقبرص
٧١	ويوغوسلافيا
٧٢	والبرتغال
٧٣	وهولندا
٧٤	وأسبانيا
٧٥	وإيرلنده
٧٦	والمسلمين من إيطاليا
٧٧	والمسلمين من ألمانيا
٧٨	والمسلمين من الولايات المتحدة "أمريكا"

عدد	اسم البلدة
٧٩	والمسلمين من كندا
٨٠	والمسلمين من أستراليا
٨١	والمسلمين من الأرجنتين
٨٢	والمسلمين من الدانمارك
٨٣	والمسلمين من بنما
٨٤	والمسلمين من بورندي
٨٥	والمسلمين من روديسيا
٨٦	والمسلمين من سويسرا
٨٧	والمسلمين من فرنسا
٨٨	والمسلمين من نيبال

عدد	اسم البلدة
٨٩	والمسلمين من ساحل العاج
٩٠	والمسلمين من نيوزيلندا
٩١	والمسلمين من هونغ كونغ
٩٢	والمسلمين من يوغسلافيا
٩٣	والمسلمين من كشمير
٩٤	والمسلمين من جيبوتي
٩٥	والمسلمين من بلاد التكرور
٩٦	والمسلمين من بلاد السند
٩٧	والمسلمين من بلاد الداغستان

هذا ما تذكرناه من الممالك والبلدان التي يأتي منها الحجاج في كل عام منذ بدء الإسلام إلى يوم القيامة، ولم نذكر ما يأتي إلى الحج من بلاد الحجاز لأن مكة المشرفة هي عاصمة الحجاز فهم أهلوها وذووها ولقد صدق الله تبارك وتعالى حيث يقول في سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، نعم والله إنه يأتي إلينا الحجاج من كل فج عميق ومن كل مكان سحيق من أطراف المعمورة ومن أقطار الأرض كلها، إنهم يأتون إلى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام بكل شوق وبكل رغبة فرحين مستبشرين ثم يرجعون إلى بلادهم سالمين غانمين وكل واحد منهم يقول: الحمد لله رب العالمين.

المقابر الشهيرة بمكة

المقابر الشهيرة بمكة سبعة:

الأولى: مقبرة المعلا بالحجون، بفتح الميم واللام وسكون العين ضد المسفلة وهي أقدمها وأشهرها وأفضل مقابر المسلمين بعد البقيع بالمدينة ويقال لها المعلى بلام وياء كما ذكره الفاسي، قال العلاّمة علي القاري رحمه الله تعالى في منسكه المعلا بفتح الميم واللام ضد المسفلة واشتهر بين العامة بضم الميم وتشديد اللام

المفتوحة، وله وجه في القواعد العربية. اهـ. وقد جاء عنها في تاريخ الغازي ما نصه:

الفصل السابع في ذكر مقابر مكة وفضلها وذكر بعض من دفن بها ومن دفن بغيرها بمكة -فمنها المعلاة- ويقال المعلى بلام وياء، ذكره الفاسي قال العلاّمة الشيخ علي القاري في منسكه: المعلا بفتح الميم واللام ضد المسفلة واشتهر بين العامة بضم الميم وتشديد اللام المفتوحة وله وجه في القواعد العربية. انتهى. أخرج الأزرقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: نعم المقبرة هذه مقبرة أهل مكة، وعن يحيى بن محمد ابن عبدا لله بن صيفي أنه قال: من قبر في هذه المقبرة بعث آمناً يوم القيامة، يعني مقبرة أهل مكة. انتهى.

وذكر الفاسي في شفاء الغرام هذا الحديث أيضاً من رواية الجندي ونصه:

قال الجندي فيما رويناه عنه في فضائل مكة له حدثنا عبدا لله بن غسان قال: حدثنا عبدالرحيم بن زيد العمي عن شقيق ابن سلمة بن وريل عن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه قال: وقف رسول ا لله ﷺ على الثنية إلى آخر الحديث، ثم قال الفاسي: وهذا الإسناد فيه سقط بين عبد الرحيم وشقيق. انتهى.

وفي «تحصيل المرام» عن ابن مسعود قال: وقف رسول ا لله ﷺ على الثنية، ثنية المقبرة وليس بها يومئذ مقبرة فقال: يبعث ا لله عز وجل من هذه البقعة أو من هذا الحرم سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألف وجوههم كالقمر ليلة البدر، فقال أبو بكر الصديق: من هم يا رسول ا لله؟ قال: الغرباء. أخرجه المُلاَ في سيرته، قال السيد عبدا لله الميرغني في كتاب العدة: قوله الغرباء يحتمل حمله على الحقيقة أو على من تحقق بقوله ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب وهم صالحوها وهم غير محصورين لأنها معدن الأولياء وبرزخ الأصفياء. ويقال عن أهل مكة أن هذه البقعة هي الشعبة التي فيها الشيخ عبد الوهاب الكبير المشهور ويسمونها شعبة النور، وقيل هي التي فيها السيدة خديجة والفضل وغيرهما وا لله أعلم بصحة ذلك. انتهى.

وعن حاطب بن بلتعة عن النبي ﷺ قال: من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين. أخرجه الدارقطني وأبو داود والطيالسي، وعن ابن عمر: إن من قبر بمكة مسلماً بعث آمناً يوم القيامة. أخرجه أبو الفرج. انتهى.

قال الأزرقي : قال جدي: لا نعلم بمكة شعباً يستقبل ناحية من الكعبة ليس فيه انحراف إلا شعب المقبرة فإنه يستقبل وجه الكعبة كله مستقيماً. قال: وكان أهل الجاهلية وفي صدر الإسلام يدفنون موتاهم في شعب أبي دب ومن الحجون إلى شعب الصفى صفى السباب، وفي الشعب الملاصقة لثنية المدنيين التي بها اليوم مقبرة أهل مكة، ثم تمضي المقبرة مصعدة لاصقة بالجبل إلى ثنية أذاخر بحائط خرمان. قال الفاسي: حائط خرمان هذا الموضع الذي يقال عنه الخرمانية وهو بالمعابدة بظاهر مكة وثنية أذاخر فوق هذا المكان وهي ثنية مشهورة وكانت تنتهي المقبرة إليها في الجاهلية. انتهى.

وكان يدفن في المقبرة التي عند ثنية أذاخر آل أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس وآل سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. وقال الأزرقي في محل آخر فكان أهل مكة يدفنون موتاهم في جنبتي الوادي يمنه وشامه في الجاهلية وفي صدر الإسلام ثم حوّل الناس جميعاً في قبورهم في الشعب الأيسر لما جاء من الرواية فيه ولقول رسول الله ﷺ: نعم الشعب ونعم المقبرة. قال ابن ظهيرة في «الجامع اللطيف» : المراد باليمن هو شعب أبي دب المعروف الآن بشعب العفاريت -وبعضهم يقول له شعب العقاريب- وفيه كان يدفن في الجاهلية وصدر الإسلام. وأبو دب رجل من بني سواة بين عامر سكنه فسمي به. ويقال إن قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ في شعب أبي دب. هذا وإنه ﷺ جاء إليها وزارها وقيل في غير هذا المحل من المعلاة. وقيل بالأبواء وهو المشهور، والمراد بالشام هو شعب الصفى بتشديد التحتية المسمى قديماً بصفى السباب وهو الذي عند أذاخر والخرمانية في طرف المحصب ويسمى المحصب شعب الصفى وهو خيف بني كنانة وإنما سمّي شعب الصفى لأن ناساً في الجاهلية اختاروا هذا المكان واصطفوه لمفاخرتهم إذا فرغوا من مناسكهم ونزلوا المحصب المذكور ووقفوا بفم هذا الشعب وتفاخروا بالآباء والأيام والوقائع في الجاهلية ثم يظهر أن صدور هذا الأمر يعني هذا التفاخر إنما كان يقع من شبانهم ليظهر وجه التسمية. انتهى.

انظر: الصور أرقام ٣١٠ للمعلا من جهة أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ورقم ٣١١ ، ٣١٢، ٣١٣ لقبور المعلا ، وأخرى لجانب منها .

انتهى كل هذا من تاريخ الغازي، ثم ذكر أيضاً في تاريخه أسماء من دفن بمقبرة المعلاة من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين لم ننقل ذلك حتى لا يطول بنا

الكلام، نسأل الله تعالى أن يميتنا ببلده الحرام وأن يجعل قبرنا في مقبرة المعلا وأن يعفو عنا ويغفر لنا ولهم ولكافة أموات المسلمين والمسلمات من مشارق الأرض ومغاربها إنه غفور رحيم وبعباده لطيف خبير آمين.

ولقد بني سور على مقبرة المعلا في قسميها القسم الذي يلي الجبل وفيه باب واحد، والقسم الذي يلي جهة البلدة وفيه بابان، وقد ذكر الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه نقلاً عن تاريخ السنجاري عن سور المقبرة ما يأتي:

وفي سنة ثمان وتسعين وألف (١٠٩٨هـ) ابتدئ بعمل حائط على مقبرة مكة المشرفة وذلك لما أنهي إلى الوزير سليمان أمير ياخور الذي ولّي الوزارة سنة (١٠٩٧) ما يحدث من التلويث والنجاسة في القبور بالحج حيث نزول الحجاج ونصبهم خيامهم عليها وطبخهم قدور الطعام فيها فانتدب لعمارتها الشلبي عثمان حميدان وزير مكة فقسم المقبرة قسمين وجعل لكل واحد منهما سوراً بأبواب. انتهى منه.

نقول: لقد جدِّدَ بناء سور المقبرة مراراً وكان آخر مرة في عصرنا سنة (١٣٧٣) بواسطة بلدية مكة -أمانة العاصمة-.

والثانية : مقبرة الشبيكة. قال ابن ظهيرة في الجامع اللطيف: نقل الفاسي رحمه الله تعالى عن الفاكهي أن مقبرة المطيبين قديماً كانت بأعلى مكة ومقبرة الأحلاف بأسفل مكة، ثم قال: والظاهر أن مقبرة الأحلاف هي هذه المقبرة يعني بذلك الشبيكة لأنه لا يعرف بأسفل مكة مقبرة سواها ودفن الناس بها إلى الآن مشعر بذلك، ثم قال : والمطيبون بنو عبد مناف بن قصي وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر والأحلاف بنو عبد الدار بن قصي وبنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب. انتهى.

قال ابن ظهيرة (فائدة): وفي سبب تسميتهم بالمطيبين والأحلاف نقل عن ابن إسحاق أن قصياً لما هَلَكَ قام بنوه بعده بأمر الرئاسة واقتسموا مآثره كما تقدم ثم إن بني عبد مناف بن قصي وهم عبد شمس ونوفل وهاشم والمطلب أجمعوا أن يأخذوا ما في أيدي بني عبد الدار بن قصي مما كان قصي قد جعله إلى بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا أنهم أحق بذلك منهم لشرفهم عليهم فافترقت قريش فرقتين: فكانت طائفة منهم مع بني عبد مناف على رأيهم وطائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما جعله قصي إليهم، ثم أخرج

بعض نساء عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فغمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا وتعاهدوا أن لا يتخاذلوا فسموا المطيبين، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا عند الكعبة أن لا يسلم بعضهم بعضاً فسموا الأحلاف، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ففعلوا و لم يزالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام فقال رسول الله ﷺ: ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدّة. انتهى من «الجامع اللطيف».

ولقد كانت مقبرة الشبيكة مسوّرة والذي بنى عليها السور الشيخ علي الشحومي المغربي سنة (١٢٧٤) أربع وسبعين ومائتين وألف، وبنى بها محلاً يغسل فيه الموتى وبنى أمامها رباطاً لفقراء نساء أهل مكة كما ذكره الغازي في تاريخه، ثم هدم هذا السور وبقي بعض آثاره بمرور الزمن وعدم العناية به ثم إنه بني على هذه المقبرة سور جديد في سنة (١٣٧٤) أي بعد مرور مائة سنة على بناء السور الذي قبله.

والثالثة: مقبرة الشيخ محمود بآخر ريع الرسام وأول جرول للخارج من مكة، والشيخ محمود المذكور هو ابن إبراهيم بن أدهم وقد بنى سور هذه المقبرة الشيخ علي الشحومي المغربي سنة (١٢٧٥) خمس وسبعين ومائتين وألف، والشحومي هو الذي بنى أيضاً سور مقبرة الشبيكة قبل هذه المقبرة بعام واحد كما ذكره الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب «تنزيل الرحمات على من مات» قال: ودفن بهذه المقبرة العباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه حامل الراية يوم فتح مكة قال: ودفن خلفه العباس بن عبدالله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سنة ثمانين من الهجرة، وقبرهما معروف. اهـ.

والرابعة: مقبرة المهاجرين بالحصحاص (أي مقبرة الزاهر) قال ابن ظهيرة في «الجامع اللطيف»: وهو ما بين فخّ والجبل المسمى بالمقلع وبالبكاء أو الزاهر كما هو مقتضى كلام الأزرقي والفاسي فتكون المقبرة المذكورة في المحل المعروف الآن بالمختلع الذي يبيت به أمير الحاج عند قدومه ثم يصبح ويدخل مكة، قال: وسبب تسميتها بمقبرة المهاجرين أن جندع بن أبي ضمرة بن أبي العاص اشتكى وهو بمكة فخاف على نفسه فخرج يريد الهجرة إلى المدينة فأدركه الموت وهو بهذا المحل فدفن فيه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ

﴿يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فسميت مقبرة المهاجرين به، أخرجه الأزرقي ووقع مثل ذلك لغير جندع أيضاً، قال: وممن دفن بهذا المحل جماعة من العلويين قتلوا فيه في حرب وقعت بينهم وبين عسكر موسى الهادي في سنة (١٩٩) تسع وتسعين ومائة، ويسمى هذا المحل أيضاً بإضاءة بني غفار وهي التي قال النبي ﷺ: أتاني جبريل وأنا بإضاءة بني غفار فقال: يا محمد إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف فقلت: أسأل الله المعافاة إلخ، انتهى من «الجامع اللطيف» باختصار.

الخامسة: مقبرة العدل هي بأعلى مكة في طريق منى وهي حدثت قريباً في عهد الحكومة السعودية من سنة (١٣٤٥) تقريباً سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف تقريباً.

والسادسة: مقبرة الخرامية وهي واقعة بمحلة المعابدة أمام مدخل شعب أذاخر عند القصر الملكي وهي مقبرة صغيرة مثلثة الشكل على يمين الصاعد إلى منى من الشارع العام.

هذه المقبرة قديمة يرجع عهدها إلى أيام الجاهلية، ويقال دفن بها بعض الصحابة منهم عبدالله بن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين وقد كانت مقبرة لآل العيص وآل المخزومي وكان الناس في هذه الجهة لا يزالون يدفنون موتاهم إلى عهد قريب.

ولما كانت هذه المقبرة صغيرة جداً وقد ضاقت بالأموات جعل عليها سور مرتفع أحاط بها من جميع الجهات ولم يجعل لها باب ولا منفذ لمنع الناس من الدفن فيها بتاتاً.

انظر: صورة رقم ٣١٤، جدار مقبرة المهاجرين من الخارج
انظر: صورة رقم ٣١٥، مقبرة المهاجرين

وقد ذكر الإمام الأزرقي هذه المقبرة في تاريخه بما ملخصه:

كان يدفن في المقبرة التي عند ثنية أذاخر آل أسيد بن أبي العيص بن أبي أمية بن عبد شمس، وفيها دفن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما ومات بمكة في سنة أربع وسبعين وقد أتت له أربع وثمانون، وكان نازلاً على عبدالله بن خالد بن أسيد في داره وكان صديقاً له فلما حضرته الوفاة أوصاه أن لا يصلي عليه الحجّاج، وكان الحجّاج بمكة والياً بعد مقتل ابن الزبير فصلّى عليه

عبدالله بن خالد بن أسيد ليلاً على ردم آل عبدالله عند باب دارهم ودفنه في مقبرته هذه عند ثنية أذاخر بحائط خرمان، ويدفن في هذه المقبرة مع آل أسيد آل سفيان ابن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وهم يدفنون فيها جميعاً إلى اليوم. انتهى من الأزرقي.

والسابعة : المقبرة التي بين قهوة الششة والشبيبة قبل السد الجديد بالمعابدة.

والثامنة : مقبرة ربع المسكين في الملاوي بالمعابدة أيضاً.

وقد توجد بأطراف مكة بعض المقابر الحديثة بحسب امتداد العمران فيها في عصرنا هذا أضربنا عن ذكرها لعدم مسيس الحاجة إليها مكتفين بالمقابر القديمة المشهورة.

عدم معرفة مقابر من دفن بمكة من الصحابة والتابعين

وبمناسبة الكلام على مقابر مكة شرفها الله تعالى نقول: إن ما اشتهر لدى الناس عن تعيين القبور بأن هذا قبر فلان وهذا قبر فلان لا أصل له من الصحة وخبر غير موثوق به، فقد تغيرت معالم المقابر وتبعثرت الأحجار المكتوبة على قبور أصحابها من الصحابة والتابعين مراراً وتكراراً منذ بدء الإسلام إلى اليوم ونستدل على ذلك بدليلين :

الأول : ما نراه الآن في عصرنا الحاضر في قبور المعلا من اندثار معالمها واختلاط بعضها ببعض وتفرق أحجارها المكتوبة -شواهدها- المكتوبة منذ مئات السنين بمختلف الخطوط العربية في أنحاء المقبرة وما نرى من عمل دافني الموتى الجهلاء من التصرف الخاطئ بوضع بعض تلك الأحجار القديمة في أي قبر حديث أو قديم يفتحونه ثم يضعونها في داخله كغطاء له أو يضعونها فوقه مع بعض الأحجار كعلامة على أنه قبر.

الثاني : وهو أقوى من الدليل الأول ما ذكره العلماء في هذا المعنى، وإليك ما وقفنا على بعض نصوصهم، فقد قال ابن جبير في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) عن مقبرة المعلا ما نصه:

«وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم» اهـ.

وفي تاريخ الغازي: قال العلاّمة علي القاري في منسكه: ولا يعرف أيٌّ معرفة معينة بمكة قبر صحابي ولا صحابية إلا أنه رأى بعض الصالحين في المنام قبر خديجة الكبرى رضي الله عنها بقرب قبر فضيل بن عياض رحمه الله تعالى فبنى قبة هناك ولا ينبغي تعيينه إلى تعيين قبرها على الأمر المجهول كما قال المرجاني والقبر المنسوب لابن عمر غير صحيح أي لا يعرف موضع قبره به أيضاً مع الاتفاق على موته بمكة وكذلك قبر عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما لا يصح كونه في موضعه المعروف عند قبور السادة الصوفية ولعله كان موضع صلبه. انتهى من الغازي.

نقول: إن الإمام الأزرقي ذكر في تاريخه أن عبدالله بن عمر المذكور مدفون في مقبرة الخرمانية وهي التي عند شعب أذاخر كما سبق الكلام عليها.

وفي كتاب «الجامع اللطيف» لابن ظهيرة قال الفاسي رحمه الله تعالى: ولا أعلم في مكة ولا فيها قرب منها قبور أحد ممّن صحب رسول الله ﷺ سوى هذا القبر (أي قبر أم المؤمنين ميمونة زوجة النبي عليه الصلاة والسلام الذي بخارج بمكة) لأن الخلف يأثره عن السلف وموضع قبرها هو الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ حين تزوجها. اهـ. انتهى من الكتاب المذكور.

وجاء في شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» في صحيفة ١٥٨ في الجزء الثاني: وفي كتاب «المدخل» لابن الحاج وليس ثمّ موضع نبي مقطوع به بعد موضع نبينا محمد ﷺ إلا موضع الخليل عليه الصلاة والسلام أي أنه مدفون بيقين في المغارة التي بحبرون والتي تسمى بمدينة الخليل، والذي أدار على قبره الخليل البناء هو نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، وإلى ما ذكر أشار ابن حجر الهيثمي في قصيدته اللامية في مدح خير البرية حيث يقول:

ولم تعلم مقابرهم بأرض يقيننا غير ما سكن الرسول
وفي حبرون أيضاً ثم غار به رسل كرام والخليل

ففي داخل هذا البناء قبر الخليل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام وكذلك قبر سارة. انتهى منه. وقد تقدم الكلام على موضع قبر الخليل عليه الصلاة والسلام عند ترجمته.

هذا ما وقفنا على بعض نصوص العلماء وهي كما تراها معقولة لا سبيل إلى إنكارها مع الاعتراف بأن بعض الصحابة والتابعين ومن بعدهم من كبار العلماء

والصالحين ومن يشار إليهم بالبنان مدفونون بمقبرة مكة لكن لا نقدر أن نحكم على تعيين قبورهم على الوجه الصحيح. ولا يترتب شيء على معرفتنا لقبورهم أو عدم معرفتنا ودعاؤنا واستغفارنا يصل إليهم أينما كنا وكانوا في مشارق الأرض ومغاربها إن شاء الله تعالى.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولإخواننا في الله وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات والمنقطعين والمنقطعات من أمة محمد ﷺ الذين لا ذاكر لهم ولا زائر لهم بفضلك ورحمتك يا عزيز يا غفور آمين.

فضل الموت بالأراضي المقدسة

مما لا شك فيه أن بعض البلدان أجمل من بعض وأن الإنسان يتمتع ويرتاح في أحسنها وأجملها ولا بد أن يكون مثل ذلك أيضاً المقابر في بعض البلدان تكون أشرف وأفضل من بعضها كمكة والمدينة وبيت المقدس.

إن البقاع إذا نظرت رأيتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

أخرج الأزرقي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي e أنه قال: «نِعْم المقبرة هذه مقبرة أهل مكة».

وعن حاطب بن بلتعة عن النبي ﷺ قال: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين» أخرجه الدارقطني وغيره. وعن ابن عمر: «إن من قبر بمكة مسلماً بعث آمناً يوم القيامة». وعن محمد بن قيس ابن مخرمة عن النبي ﷺ قال: «من مات بمكة بعثه الله في الآمنين يوم القيامة». وعن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وكان يوم القيامة من الآمنين» أخرجه ابن جماعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول من تنشق الأرض عنه فأكون أول من يبعث فأخرج أنا وأبو بكر وعمر إلى أهل البقيع فيبعثون ثم يبعث أهل مكة فأحشر بين أهل الحرمين». وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإن مات بالمدينة شفعت له يوم القيامة» وروى الطبراني حديث: «أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف» وأخرجه الترمذي بالواو بدل ثم.

نقول: لقد رغب كثير من الأنبيــاء والعلمـاء والصـالحين في المـوت بـالأراضي المقدسة ولقد كان النبي فيما تقدم إذا آمن به نفر من قومه يترك قومـه ببلـده ويـأتي إلى مكة بمن آمن به يعبدا لله تعالى حتى يأتيه اليقين ولذلك دفن حول الكعبة كثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد روى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن أبي سابط أنه قال: بين الركن والمقام وزمزم قـبر تسعة وتسعين نبياً وأن قـبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة. اهـ. وا لله تعالى أعلـم بذلك.

فإن قيل : لماذا لا يذهبون إلى المدينة أيضاً للتعبد وهي ثاني الحرمين ؟

نقول : إن المدينة المنورة لم تكن معروفـة قبـل «نبينـا محمـد» ﷺ ومـا اشـتهر فضلها إلا بعد أن هاجر إليها رسول ا لله ﷺ ودفن بها، أما مكة فهي معروفة من قديم الأزمان لوجود بيت ا لله فيها.

وعلى سبيل الاسـتدلال: نذكـر مـا ورد في طلـب المـوت بـالأراضي المقدسـة فنقول وبا لله التوفيق وعليه التكلان:

جاء في كتاب الأذكـار للإمـام النـووي رحمـه ا لله تعـالى مـا يـأتي: روينـا في صحيح البخاري عن أم المؤمنين حفصة بنت عمـر رضـي ا لله عنهمـا قـالت: قـال عمر رضي ا لله عنه: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلـد رسـولك ﷺ. فقلت: أنّى يكون هذا؟ قال: يأتيني ا لله به إذا شاء. انتهى.

نقول: وقد استجاب ا لله تعالى دعاء عمر رضي ا لله عنه فرزقه الشهادة حيث قتل وهو في صلاة الصبح وجعل موته في بلد رسول ا لله ﷺ أي في المدينـة حيـث دفن بجوار صاحبيه، وهل يوجد جوار أفضل من هذا الجوار؟ نقـول: وليـس ببعيـد على كرم ا لله تعالى أن يبعث من قُبرَ بمكة آمناً يوم القيامة لأنه تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ فإذا كان الداخل إلى الحرم يكون آمناً من كل ما يخافه وهو حي يرزق.

وهذه الميزة خاصة بالحرمين الشريفين بل حتى بيت المقدس ولهذا طلـب كليـم ا لله موسى عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل حين الموت أن يدنيه من الأرض المقدسة ولو برمية حجر، فقد جاء في صحيح البخاري في كتـاب الجمعـة في بـاب الجنائز في باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها عن أبي هريـرة رضـي ا لله عنه قال: أرسل ملك الموت إلى موسـى عليهمـا الصـلاة والسـلام، فلمـا جـاء

صكه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، قال: أي ربّ ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال: قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر. انتهى.

نقول: إذا كان نبي الله وكليمه موسى عليه السلام يطلب الموت بقرب الأرض المقدسة زيادة في التقرب إلى رحمة الله تعالى في الأماكن المقدسة فنحن أولى أن نطلب ذلك في الموت في الأراضي المقدسة ونحن المذنبون الخاطئون رجاء عفو الله تعالى وغفرانه، وأيضاً إذا كانت الأرض المقدسة لها هذه الميزة فمن باب أولى أن تكون هذه الميزة للحرمين الشريفين مكة والمدينة حفظهما الله تعالى من كل سوء وأدام رخاءهما وأمنهما وعمرانهما.

اللهم أمتني في أحب البقاع إليك وأنت عني راض وفي أبرك الأوقات وعلى طهارة تامة ونظافة حسنة بدون تعب ولا مشقة لا عليّ ولا على أهلي وأولادي يا أرحم الراحمين يا من لطفه في الورى يسري في كل وقت وحين آمين آمين آمين، وصلى الله وسلم على أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعض عادات أهل مكة والأجناس التي فيها

من عجائب صنع الله تعالى الذي هو جدير بالعظة والاعتبار أنه لما كانت مكة بلده الأمين والكعبة قبلة لعموم المسلمين والعباد عباده وخلقه جعل سكان بلده «مكة» خليطاً من جميع الأجناس ومن كافة الأنواع تهوي إليها الناس من عموم أطراف المعمورة وهذا طبعاً بعد انتشار الإسلام وتيسير طرق الانتقال وسبل المعيشة، لذلك صارت لأهل مكة عوائد مشكّلة مأخوذة عن عوائد جميع الأجناس المختلفة التي تفد إليها فتقيم بها، وقد لفتت تلك العوائد أنظار المؤرخين. ونحن نذكر هنا ما سجله بعضهم في كتابه فقد قال ابن بطوطة رحمه الله تعالى في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة عن عادات أهل مكة وفضائلهم نذكر هنا كما ذكرنا ما جاء برحلة ابن جبير، قال ابن بطوطة: ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها

بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتمّ الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى أن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً، وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ وتذهب المرأة منهنّ فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً، ولأهل مكة عوائد حسنة وغيرها سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

ثم قال ابن بطوطة بعد صحيفة واحدة: وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت. ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحّت أبدانهم وقلّت فيهم الأمراض والعاهات. انتهى من رحلة ابن بطوطة.

وقال البتنوني الذي حج سنة (١٣٢٧) في كتابه «الرحلة الحجازية» ما نصه:

ويقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الإسلامي من جميع أطراف المسكونة فترى بها الأزياء المتباينة والسحن المختلفة حتى ليجدر بها أن تسمّى بالمعرض الإسلامي. ولقد رأيت فيها رجلاً يابانياً من كبار قواد اليابان قد أسلم وقدم إليها لتأدية فريضة الحج.

وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم، والأفغان والسليمانية (أهالي قندهار) في الجهة الشمالية الشرقية، والهنود والجاوة في الجهة الشمالية الغربية، واليمن والتركستان والداغستان في المسفلة والعجم في شعب علي، وما سوى ذلك في وسط المدينة. وأهالي مكة يبلغ عددهم على وجه التقريب نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون ألفاً من الأهالي والباقون من الأغراب كما تراه في الجدول الآتي:

(٥٠) ألف أهالي، (٢٥) ألف أعراب وغالبهم حجازيون ويمنيون وحضارم -من سكان حضرموت- (٢٠) ألف بخاريون، (١٢) ألف هنود، (١٥) ألف جاوه، (١٠) آلاف سليمانية وأفغان، (٥) آلاف شوام، (٥) آلاف مغاربة، (٨) آلاف أجناس مختلفة، المجموع: (١٥٠) ألف.

وأغلب هؤلاء الأغراب يشتغلون بالأمور المالية وخصوصاً التجارية لذلك نبّه أمرهم وأصبحت مالية البلاد في أيديهم.

ثم قال البتنوني بعد أن ذكر البيوتات القديمة ما نصه: ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطاً في خلقهم فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي وعظمة التركي واستكانة الجاوي وكبرياء الفارسي ولين المصري وصلابة الشركسي وسكون الصيني وحدّة المغربي وبساطة الهندي ومكر اليمني وحركة السوري وكسل الزنجي ولون الحبشي، بل تراهم جمعوا بين رفه الحضارة وقشف البداوة: فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضعته بين يديك إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلّبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلّفه في حضرتك.

وقد وصل هذا الخلط في أزيائهم التي تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلامية: عمامة هندية، وقفطان مصري، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص في حزام الأشراف مفضضاً أو مذهباً بشكل جميل جداً، وكثيراً ما يكون مرصّعاً بالأحجار الكريمة. ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحرير وعلى رجل سراويله شيء يشبه الركامة وهو حافي الرجل -مثلاً- غير أنك تلاحظ ذلك في طبقة الأشراف التي ترفّعت عن هذا الخليط فلم يدخل في مادتهم غريب ولم يتغلّب عليهم خلق جديد

بل خلقهم هو بعينه العربي البحت الذي ورثوه عن أجدادهم وألفوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد. وعلى العموم فأخلاق أهل مكة غاية في الكمال وخصوصاً في الطبقة العالية منهم رضي الله عنهم، ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقة فيهم.

ثم بعد أن ذكر البتنوني بعض الألفاظ العامية التي في لهجات أهل مكة قال وغالب أهلها يتكلمون بالتركية، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية. أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة فلا نكاد نفهمها إذا سمعناهم يتكلمون بها ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف في لفظها باختلاف القبائل.

ثم قال: ومن عوائد أشراف مكة أن كبراءهم يرسلون أولادهم وهم في نعومة أظفارهم إلى البادية وخصوصاً إلى قبيلة عدوان التي توجد في شرق الطائف وهي قريبة من سعد التي أرضع فيها رسول الله ﷺ فينشأون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من أشعارهم وأخذوا من عوائدهم وطباعهم. وأحسن ما تراه فيهم الفروسية والحرية في القول والفعل وهذه العادة قديمة جداً في القوم، ومما يذكر عن الرشيد أنه رأى ولده المعتصم وهو صبي يتأفف من الذهاب إلى الكتّاب فمنعه منه وأرسل به إلى البادية فما زال بها حتى عاد منها عارفاً بلغتها عالماً بأخبارها حافظاً لكثير من أشعارها، وقد ولّي الخلافة وهو على أميّته. ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم في دار الإمارة كل يوم من الساعة الخامسة نهاراً إلى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل الهامة وهنالك يستعد إلى التوجه إلى الحرم في ركبة بسيطة فيصلي العصر وكثيراً ما يجلس بالحرم حتى يصلي المغرب ثم يعود إلى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من بنيه وخاصته وضيوفه. ومن عاداته أنه يجلس صباح يوم الجمعة في دار الإمارة للمقابلات فيفد عليه الوالي وكبار الموظفين ثم أعيان مكة ووجوهها وبعد السلام عليه ينهبون إلى السلام على الوالي.

ومن عاداته : أنه يصلي الجمعة في الحرم حتى إذا كان في الطائف ينزل منها في موكبه فيصلّيها فيه وبعد العصر يعود إلى مصيفه.

قال: ومن عادات أهل مكة التأنّق في المأكل والمشرب واللباس وتكثر في لباسهم الألوان الزاهية الباهية وخصوصاً الأحمر والأخضر والأزرق والوردي.

وترى في مساكنهم كثيراً من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصاً البسط العجمية النادرة المثال.

ومن عاداتهم: تقديم الشاي في أي وقت تحية للقادم عليهم وإقامة المآدب في حفلة يسمونها قيلة -لعلها آتية من القيلولة- ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها. وليس لأطعمتهم نظام مخصوص فمنها الهندي والعربي والشامي والمصري والتركي. ويقعد المدعوون في هذه الولائم على سماط يمدّ على الأرض وتخدم عليهم الألوان لوناً بعد آخر، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغاني وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم ينصرفون. وغالباً تكون هذه الحفلات في ضواحي مكة كالزاهر والشهداء وهنالك يبكرون إليها ويقضون يومهم في سرورٍ وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجري أو لعب الكرة أو النرد أو الشطرنج مثلاً.

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أميرها: ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف إلى وليمة يقيمونها له كل سنة في أحد منتزهاتهم خارج مكة، فإذا قبل منهم ذلك عيّن يوم الوليمة وفيه يذهب مع خاصته الذين يدعوهم للتوجه معه في موكب فخيم تجري أمامه خيّالة الأعراب والبيشة والناس يهتفون له بقولهم دائماً -يعيش- حتى إذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد. وفي وقت الغداء تمدّ الموائد على النظام الإفرنكي والتركي والعربي ويجلس الشريف ويدعو خاصته للأكل معه وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفروسية: تارة بالخناجر وأخرى بالسيوف إلى آخر النهار. وبعد فترة من الليل يعود الشريف في موكبه إلى مكة.

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين في اليوم: واحدة في نحو الساعة التاسعة صباحاً -على حساب الساعة الإفرنجية فتوافق التاسعة الإفرنجية عندنا بمكة الساعة الثانية والنصف بالعربي تقريباً- والأخرى بعد صلاة العصر. وهم يميلون إلى الأبهة والفخفخة كثيراً ويقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة خصوصاً في شهر رمضان. وقد كانوا يفطرون في الحرم بعد صلاة المغرب فيمدّون الموائد هنا وهناك ولا سيّما في زمن الحر ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة -وخيراً فعل- لأن فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والقطط وغيرها. ومن عوائد كثير منهم أنهم يشرطون وجنات صبيانهم ثلاث شرط في كل جهة ونساؤهم يدخن بالنرجيلة والزار يفشو فيهن كثيراً

وبعضهن يخرجن إلى الأسواق بملاءة واسعة سوداء في الغالب وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فيما يقابل العينين وفي أرجلهن أخفاف ضخمة لونها أصفر غالباً وأفراحهم ومآتمهم غاية في البساطة. ومن عوائدهم في زواجهم أنهم يدعون الأهل والمحبين نساءً ورجالاً فتأتي الرجال ويجلسون في الأماكن المعدة لهم خارج البيت ووقت العشاء يمد لهم سماط مستطيل يجلسون عليه جميعاً مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون. أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء فتحني المرأة يداً من يديها ثم تدخل إلى المكان، وبعد السلام تجلس على هذا الحال مع باقي النسوة ولا يزلن يتجاذبن أطراف الحديث إلى منتصف الليل وهناك يزففن العروس إلى بعلها ثم يعدن إلى بيوتهن بعد أن يضعن في عنقها عقوداً كثيرة من زهر الفل أو ثمر التفاح وهو في قدر البندق.

والنقود التي تستعمل في مكة هي النقود التركية والمصرية فضية أو ذهبية والروبية والقروش الهندية والريال الشينكو وأبو طيرة والريال البرم -الجاوي- وهو على أشكال مختلفة والجنيه الإنجليزي والفرنساوي والروسي. وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك بل تراهم يستعملونها على الدوام في مصلحتهم فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوي وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات!! ولعل أرباب الأمر والنهي يجتهدون في إزالته قريباً. والريال أبو طيرة هو أكثر النقود استعمالاً عند الأعراب وقيمته عندهم كالريال الشينكو أو المصري.

وأسواق مكة كثيرة: منها سوق الشامية في شمال الحرم وهي أشبه شيء بالأسواق التركية ولها سقف من الخشب على مثال الخان الخليلي بمصر لولا أن شوارعها أضيق وهذه السوق تضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال بها. وفيها يبيعون السبح والأقمشة الهندية وغيرها وفيها كثير من الفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذي يبيعه على الخصوص حجاج اليمن في شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً.

ثم السوق الصغير وهو تجاه باب إبراهيم وأغلب ما فيه للغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة كوادتي فاطمة شمالاً ووادي الليمون شرقاً ووادي العبيدية -العابدية- والحسينية جنوباً. وكثير من هذه الخضر يأتي مع الفاكهة من جهة الطائف وجبال كرا وفي هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المقلية التي يؤتى بها من جدة وهي في الغالب مضرة جداً

بالصحة لتعفنها من الحرارة وطول زمن النقل. وفي شرق المسجد سوق الليل وهي سوق كبيرة مختلطة فيها جميع احتياجات الحاج، وفي كل هذه الأسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع يأتي من ورائها ربح عظيم لأهل البلد، ومدار حركة الأشغال الشاقة في مكة على العبيد فمنهم الحمّالون والحطّابون والحمارون والجمّالون والسقّاؤون والخدّامون. ولقد كان للرقيق بمكة سوق كبيرة أخذ أمرها ينمحي شيئاً فشيئاً حتى كان لا يكون له أثر بالمرة. وكانوا يسمون المكان الذي يبيعونه فيه بالدكة لأنه كان في حوشه دكة يجلسون عليها ما يراد بيعه منه.

انتهى كل ذلك من كتاب «الرحلة الحجازية». وقد نقل عنه هذا الكلام المرحوم إبراهيم باشا رفعت في كتابه «مرآة الحرمين» كما هو صريح عبارته الواردة بصحيفة (٢٠١) من الكتاب المذكور.

ونحن نقول أنه ينبغي لأهل أم القرى وجيران بيت الله الحرام أن يكونوا قدوة صالحة للعالم الإسلامي في القول والعمل فعسى الله أن يوفقنا لذلك توفيقاً تاماً وعسى أن ينظر إلينا بعين الرحمة فنسعد في الدارين.

اللهم يا رحمن يا رحيم يا من لطفه سار في الورى وخيراته عميمة في البلدان والقرى ارحمنا رحمة الأبرار وأنظمنا في سلك عبادك الأخيار وأصلح أحوالنا وأحوال ولاتنا وأنزل علينا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض واجعلنا لرضائك وعفوك وفضلك أهلاً ولا تجعل دعانا رداً ولا عيشنا كداً فنحن جيران بيتك المعظم وأهل بلدك الأمين وقد قلت وقولك الحق: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وقلت: ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت ۞ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ فآمنا يا رب العالمين في بلادنا في الدنيا من الجوع والغلاء والظلم والجور والفسق والعصيان وآمنا في الآخرة من كل فزع وخوف وأدخلنا جنتك واحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

بعض الأمور المستحسنة التي كانت بمكة المشرفة

ذكر الأمير شكيب أرسلان رحمه الله تعالى في حاشيته وتعليقاته على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» في أوائل الجزء الثاني منه أنه كان بمكة وقف مخصوص لمنع الكلاب من دخول مكة وكان بمكة أيضاً وقف آخر تستعار منه أدوات السفر

والمفروشات للولائم والوضائم. اهـ. والولائم: الأطعمة التي تعمل في الأفراح، والوضائم: الأطعمة التي تعمل في الأحزان.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يتعاملون بينهم في الأسواق والبيع والشراء وصرف الرواتب والمعاشات الشهرية بالذهب والفضة، أي بالجنيهات الذهبية والريالات الفضية ولا يعرفون التعامل بالأوراق النقدية البنكنوت إلى أن ظهرت قريباً كما بينا ذلك في الكلام على النقود.

لقد كانوا يتعاملون بالذهب والفضة منذ قديم العصور بل وفي عهد الدولة التركية العثمانية وفي عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ثم في أوائل العهد السعودي أيضاً فكل عهد من هذه العهود كانت فيه نقود من الذهب ويسمى بالجنيه بكسر النون ومدها، ومن الفضة ويسمى بالريال مع وجود أجزائهما من النصف والربع، كما كانوا يتعاملون بالقروش وهي من النيكل وهو معدن أبيض أغلى من النحاس.

ثم لما ظهرت الأوراق النقدية أمهات العشر الريالات والخمس الريالات والريال الواحد في العهد السعودي أي بعد ظهورها بزمن يسير من السنوات صار التعامل عند جميع الناس بهذه الأوراق المالية بل وصارت جميع رواتب الموظفين في الحكومة تصرف بهذه الأوراق المالية.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يضعون نقودهم الذهبية والفضية والنيكل والنحاس أي من الجهينات الذهبية والريالات الفضية وأجزاؤها من النصف والربع وكذلك القروش النيكل وأجزاؤها النحاسية النصف والربع كانوا يضعون كل ذلك في كيس ويحملونه معهم أينما ذهبوا، فبعضهم يضع تلك النقود في جيبه إذا كانت قليلة وأكثرهم يضعونها في كيس خاص من القماش خصوصاً أهل الحارات وأهل الأسواق، وكانت هذه عاداتهم وعادات غيرهم أيضاً من قديم العصور إلى أن ظهرت الأوراق النقدية في المملكة العربية السعودية التي عاصمتها «مكة المكرمة» وذلك سنة (١٣٦٨) ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية أو قبلها أو بعدها بسنة فإنه في هذا التاريخ ظهرت في الأسواق الأوراق النقدية ذات العشرة الريالات ثم ظهرت بعد ذلك ذوات الخمسة الريالات وذوات الريال الواحد كما ظهرت الأوراق النقدية ذوات المائة الريال وذوات الخمسين الريال وأعيد طبع ذوات العشرة الريالات بصفة أخرى غير الأولى كما بينا تفصيل ذلك في مبحث آخر.

بظهور هذه الأوراق النقدية اختفت الجنيهات الذهبية والريالات الفضية وأجزاء كل ذلك. أما القروش النيكل وأجزاؤها فما زالت موجودة بالأسواق بدون تبديلها بالأوراق، فمنذ ظهور هذه الأوراق النقدية ترك الناس وضع النقود بكيس القماش وصاروا يضعون في جيوبهم هذه الأوراق النقدية، ويمكن للإنسان أن يحمل آلاف الريالات من هذه الأوراق النقدية. فسبحان مغير الأحوال لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

• ومن عادات أهل مكة وجود الصيارفة في أسواقها في كل وقت خصوصاً في موسم الحج وذلك لصرف العملة الذهبية والفضية وقطع القروش والبنكنوت الورقية. وهذه عادة جارية من قديم الزمن إلى اليوم، فالجميع من حجاج وغيرهم يقدرون أن يصرفوا ما لديهم من النقود النقدية أو الورقية عند الصيارفة في زمن الحج وغيره. والصيارفة بأسواق مكة كثيرون وبهذا تمتاز مكة المشرفة عن سائر البلاد الإسلامية وغيرها فتجد العملة الأجنبية ماشية بها على أحسن وجه كالعملة المصرية والعملة الشامية والعملة العراقية والعملة اليمنية والعملة المغربية والعملة الإيرانية والعملة الهندية والعملة الإنكليزية والعملة الأميركية وغيرها، فمن حمل من الحجاج وغيرهم شيئاً من هذه العملة وأراد صرفها بمكة يذهب إلى أي صيرفي بأسواق مكة فيصرفها له حالاً بدون تأخير ولا يحتاج الأمر إلى أن يذهب إلى أحد البنوك بمكة ليصرفها وهذه المسألة فيها يسر عظيم لجميع الناس.

• ومن عاداتهم أن المؤذنين بالمسجد الحرام كانوا يصعدون إلى المنائر والمآذن في كل ليلة بعد ثلثي الليل، أي قبل الفجر بنحو ساعتين يدعون الله تعالى ويسبحونه ويطلبون منه عز شأنه العفو والغفران والرحمة والرضوان بأعلى أصواتهم ويسمونه «الترحيم والتذكير» فمن دعواتهم وأقوالهم: يا أرحم الراحمين ارحمنا يا أرحم الراحمين ارحمنا يا أرحم الراحمين ارحمنا وعافنا واعف عنا وعلى طاعتك وشكرك أعنّا. يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث فأغثنا يا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله الملك المعبود، لا إله إلا الله الواحد الأحد، لا إله إلا الله الفرد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد. سبحان الملك القدوس، سبحان الملك القدوس، سبحان الملك القدوس، سبحان من له الملك والملكوت، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

هذا ما نحفظه مما كان يقوله أهل مكة في منارات المسجد الحرام وقت السحَر قبيل الفجر بنحو ساعة وهذا يقولون له الترحيم، ثم بعد انتهاء الترحيم بنحو نصف ساعة يؤذنون أذان الفجر.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يبنون بيوتهم ومنازلهم ومساجدهم بحجارات مكة الصماء المأخوذة من الصخور والجبال، وكانوا يكسرونها قطعاً قطعاً كبيرة أو صغيرة بحسب احتياجهم إليه، فمن الحجارة ما يكون من طول متر واحد أو أكثر ومثل هذا يضعونه في أساس البنيان وفي الدرج وواجهة الأبواب الكبيرة، ومنها ما يكون أصغر من المتر الواحد، وقد يكون طولها ربع المتر ويكون العرض مناسباً لطوله، ويبنون منازلهم أيضاً بالطوب الأحمر ويسمونه «الآجور» وهو الآجر في اللغة العربية وهو يتخذ من تراب بعض جهات مكة ثم يوقدون عليه في المصنع بالنار حتى يحمرّ ويستوي بعد أن يعجنونه ويجعلونه في القوالب كانوا يبنون بيوتهم بهذه الحجارات الصماء القوية والآجور الأحمر ويجعلون منازلهم من طبقتين إلى أربع طبقات فقط ويسقفون غرفها وأسطحتها بالأخشاب والقنادل وخشب العرعر، وأكثر ما يجعلون هذا الخشب على سقف الدرجات والسلالم، وخشب العرعر من أقوى الأخشاب، وبعضهم يجعلون بناء الطبقة الأولى من منازلهم بالغمس وهو بناء الحجارة والآجور كالعقود والقباب الصغيرة الواطية بدون أن يكون فيه شيء من الخشب وهذا الغمس، بضم الغين المعجمة وسكون الميم، هو أقوى بناء على الإطلاق، وفي عمارة المسجد الحرام القديم كثير من بناء الغمس، وفيها أيضاً جميع درجات المسجد الداخلة والخارجة كلها من الحجارات الصماء القوية الجبلية وطول بعضها متران وبعضها ثلاثة أمتار وأربعة. لكن مع الأسف قد أزيلت هذه الدرجات الصخرية كلها واستبدلت بالإسمنت وذلك في العمارة السعودية التي حصلت في وقتنا الحاضر، ومع الأسف لا ندري أين ذهبت تلك الدرجات الصخرية وكان الواجب حفظها في مكان خاص كأثر من آثار العمارات القديمة في هذه البلدة المقدسة الطاهرة.

وما كانوا يعرفون البناء بالإسمنت والحديد إلا من بعد سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية ثم صاروا بعد هذه السنة المذكورة يكثرون من البناء بالإسمنت المسلح بالحديد ويجعلون بيوتهم ومنازلهم من خمس طبقات إلى عشر طبقات بل أكثر. فسبحان مغير الأحوال والعادات لا إله إلا هو العزيز الغفار.

• ومن عاداتهم أي من عادات الجهلاء من أهل الحارات حتى شيوخ الحارات أنهم إذا اجتمعوا في مكان في القهاوي أو غيرها في الأعياد وفي مناسبات الأفراح يغنّون مجتمعين من ثلاثة فأكثر أغنية الصَّهْبَهْ، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه وسكون رابعه، وهي أغنية خاصة بتوقيع خاص يصحبها تصفيق باليدين بترتيب مناسب للغناء وينشدون باللغة العامية قصائد خاصة للصَّهْبَهْ يحفظونها. وغناء الصَّهْبَهْ غناء خاص لأهل مكة لا يعرفها غيرهم في البلدان والممالك الأخرى. وكان غناء الصَّهْبَهْ شائعاً بينهم وكثيراً ما يغنون بها ولكن منذ سنوات قلّ اجتماعهم لها في القهاوي وقلّ من يحفظ قصائدها الآن لتطور الزمن وكثرة الغناء في الإذاعات والراديو، وهي إلى الانقراض أقرب. لذلك لم نكترث بنقل قصائدها وإثباتها هنا. فسبحان مغير الأحوال وإليه الأمر كله.

• ومن عادات أهل مكة أنهم كانوا يكثرون إقامة الولائم في منازلهم كل واحد بحسب حاله في كل عام في مناسبات شتى كأول السنة في شهر محرم وفي مولد النبي ﷺ في شهري الربيعين عدة مرات وفي شهر رجب وفي شهر شعبان وفي شهر رمضان ويكثرون فيه الولائم والدعوات إلى الطعام وفي شهر شوال، وتقلّ الولائم في شهري القعدة والحجة لاشتغالهم بالحجاج، وعند حضور أحدهم من السفر وعند حصول ولادة وعند نجاح أولادهم في امتحان المدارس وعند شفاء مريض عزيز وعند انتهاء أولادهم من حفظ القرآن الكريم بالغيب وغير ذلك من المناسبات. وكانوا يخرجون جماعات جماعات إلى أواخر مكة في بعض الأيام كبستان الشريف عون بجرول عندما كان عامراً مزدهراً بالأشجار وكبستان المسفلة لوجود الخضروات فيه إلى اليوم وإلى المصافي بأجياد، ويخرجون أيضاً إلى منى وعرفات والهدا وإلى الشهداء في طريق التنعيم فيمكثون يوماً كاملاً يأكلون ويمرحون رجالاً وأطفالاً فقط بدون النساء، ثم يعودون في المساء إلى بيوتهم ومنازلهم.

وكانت الولائم تقام دائماً في المناسبات كما قلنا في كل حارة وكان الناس من الجيران والأصحاب والفقراء والأغنياء يجتمعون مع بعضهم فتنتعش حالة الفقراء، وكان الطعام الذي يقدم لهم هو الرز واللحم والسلطة -بفتحات- المتخذة من القثاء والخيار والباذنجان الأحمر والبقدونس، أو من القثاء والطحينة فقط وأحياناً تقدم سلطات جاوية كالكجّب، بكسر الكاف والجيم مع تشديدها، وبعد

الطعام كان يقدم للمدعوّين الشاي الأسود والأخضر بدون تقديم القهوة وما كانوا يقدمون الفواكه مطلقاً لقلتها وغلائها والناس أحوالهم بالبركة، كانت هذه الحالة والعادة جارية لديهم من سنة (١٣٤٢هـ) فما قبلها وهي عادة حسنة لمواصلة الناس بعضهم ببعض ولتآلفهم وتزاورهم وتعاونهم ولكون الفقراء يشبعون في تلك الأيام عند إخوانهم وجيرانهم، وهذه الولائم يخالطها ويزينها تلاوة القرآن مع الذكر والتسبيحات والتهليلات والصلاة على رسول الله ﷺ يجتمع الناس في ذلك العصر اجتماعاً بريئاً طاهراً بأدب واحتشام ليس عندهم شيء من المنكرات وآلات اللهو ولم يكن الراديو والميكروفونات قد ظهر في عهدهم. ومن اللطائف: أن بعض البخاريين من سكان مكة المشرفة قد أوقف لله تعالى ما يملكه بمكة وهو بستان البخاري المشهور بمحلة المسفلة لعمل الولائم لكل من أراد ذلك، ولقد جعل فيه من أدوات الطبخ ولوازمه من القدور والتباسي والصواني والصحون والملاعق وغيرها شيئاً كثيراً وذلك من بعد سنة (١٢٠٠) هجرية توالى على هذا البستان بعض النظّار إلى يومنا هذا وبسبب سوء تصرف بعضهم نقص من أدوات الطبخ ولوازمه شيء كثير، والبستان ما زال في محله معروفاً إلى اليوم. ثم من بعد سنة (١٣٦٥) هجرية تغيرت الأحوال شيئاً فشيئاً وكثرت الأموال وآلات الملاهي بمكة المكرمة وكثرت الولائم في وقتنا هذا كثرة عظيمة لكن بدون نفع ولا بركة ولا تقام لوجه الله تعالى كسابق العهد وإنما تقام الولائم والحفلات لأناس مخصوصين من أهل الوجاهة وأرباب الوظائف الكبيرة نفاقاً ورياءً كالوزراء والأمراء والرؤساء والمديرين لا يدعى إليها الفقراء وطلاب العلم، وكل حفلة تبلغ تكاليفها آلاف الريالات ويقدم فيها أنواع الأطعمة الفاخرة والفواكه اللذيذة الخارجية. فسبحان الكبير المتعال مغير الحال والأحوال.

• ومن عاداتهم أنهم يصنعون المطبَّق، بفتح الباء الموحدة وتشديدها، وهو الذي يسمونه بمصر الفطير لكن فارق عظيم بينهما فالمطبَّق يصنعونه بفتح العجين بالسمن حتى يكون رقيقاً كالورقة ثم يفتحون عجينة أخرى أيضاً ويضعونها فوق الأولى ثم يفتح عجينة ثالثة ويضعونها فوق الثانية ثم يكسرون المقدار الذي يريدونه من البيض والكرات في وسطه ثم يجمعون أطراف العجينة على البيض ثم يضعونه فوق الساج ويضعونه على نار هادئة حتى يستوي. ومنهم من يخلط مع البيض سكراً ومنهم من يضع على العجين السكر فقط ومنهم من يضع بدل البيض موزاً مع السكر، ولا بد من رش السمن على العجين فوق الساج فيكون بعد

استوائه فطيراً في غاية اللذة. ولا يتقن صنعة هذا الفطير سوى أهل الحجاز ولهم في فتح العجين حتى يكون رقيقاً كالورقة مهارةً فائقة جداً فإنهم يفتحونه بأيديهم فقط بدون آلة من الخشب أو غيره. ويصنعون أيضاً من هذا العجين الرقيق الذي هو عجين المطبَّق السمبوسك بأن يقطعوا هذا العجين الرقيق شرائح مستطيلة في طول خمسة عشر سنتي وعرض ثمان سنتي ثم يضعون عليه اللحم المفروم بالبصل والبهارات ثم يلفونه على هيئة الحجاب أي بشكل مثلث ثم يقلونه بالسمن أو بالزيت ويكون لذيذاً جداً. وهذا السمبوسك يصنع في جميع الولائم ويصنع في شهر رمضان خاصة للإفطار، وهذا السمبوسك يشبه ما يسمونه في مصر «البوريك».

• ومن عاداتهم أيضاً صناعة اللحم الحنيذ ويسمى عندنا «الندى» بكسر الدال المهملة، وهو أن يأتوا بالخروف المذبوح المسلوخ النظيف فيضعونه بكامله في المنداة وهي زير كبير مدفون في الأرض قد أوقد عليه في جوفه بالحطب حتى صار جمراً فيعلقون الخروف على رأس الزير ثم يغطونه ويكمرونه جيداً حتى يستوي وينضج بعد ساعات معلومة عندهم ثم يخرجونه ويقدمونه للأكل. ومثل ذلك يعملون رؤوس الخرفان والغنم فقط ويبيعونه في السوق وقت الظهر وهو لذيذ أيضاً، ولم نسمع في البلدان الأخرى يعملون مثل هذا.

• ومن عاداتهم أنهم يأكلون صباح كل يوم على الدوام صيفاً شتاءً الفول المدمس. وطريقتهم في طبخ الفول المدمس غير طريقة أهل مصر. والفول المدمس يؤكل كثيراً في البلاد العربية كالحجاز ونجد واليمن ومصر والشام. وفي مصر يؤكل الفول المدمس ليلاً ونهاراً على الدوام وبالأخص في الإفطار في أيام شهر رمضان وفيه يقول الشاعر من الموّال:

قالوا تحب المدمّسْ، قلت بالزيت حارْ
والفول الأخضر تحبّو، قلت بالقنطارْ
وتاكل الطرشي جنبو، والبصل وخيارْ
والعيش الأسمر تحبو قلت يا ستارْ
والعدس الأحمر تحبّو، قلت مين ينساهْ
ونابت الفول تاكل، قلت إي والله
والشاي الأسود بسكر، قلت ذا أنواعْ

والشـاي الأخضـر تحبّـو ، قلـت بالنعنـاعْ

فالفول المدمس أكلة شعبية رئيسية بمصر، والحق يقال أنها أكلـة لذيـذة مغذيـة نافعة يجتمع عليه الفقراء والأغنياء ويأكلون معه الطرشي بأنواعه والسلطات أيضـاً، بفتح أوله وثانيه، وكان من سنة (١٣٤١) هجرية فما فوقها يعتنون بمحـلات بيـع الفول وأدواته اعتناءً تاماً. وكان يباع الفـول بالمسعى في محلات متعـددة. وإليـك صورة محل لبيع الفول بمكة المكرمة.

والفول معروف من العصـور الأولى القديمة وكـان حجـم الحبـوب والفواكـه كبيراً فيها ثم ما زال كل شيء ينقص حتى ابن آدم إلى أن وصلنـا اليـوم إلى هـذه الحالـة. قـال العلاّمـة المقريـزي في شـرحه علـى «الجـامع الصغـير» في آخـر الجـزء الأول : (فائدة) : ذكر المقريزي أن بعض الثقات أخبره: أنه سـار في بـلاد الصعيـد بمصر على حائط العجوز ومعه رفقة فاقتلع أحدهم منها لبنة فـإذا هـي كبـيرة جـداً فسقطت فانفلقت عن حبة فـول في غايـة الكـبر وكسـروها فوجدوهـا سـالمة مـن السوس كأنها كما حصدت فأكل كل منهم قطعة وكأنها ادخرت لهـم مـن زمـن فرعون فإن حائط العجوز بنيت عقب غرقه فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها.

• ومن عاداتهم أنهم يأكلون أيضاً صباح كل يوم صيفاً وشتاءً الهريسة، وهـي عبارة عن طبخ الحنطة المقشورة الممزوجة بلحم التيـس ويطبـخ كثـيراً حتـى تمتـزج الحنطة باللحم ويذوب فيها وتبقى هذه الهريسة فوق النار أكـثر مـن خمـس عشـرة ساعة ، ويدقونها بخشبة غليظة لتمتزج مع بعـض ويضعـون فيهـا قليـلاً مـن الفلفـل الأسود والقرفة ، ويتقن الحضارمة ، أي أهل حضرموت صنعة الهريسـة إتقانـاً تامـاً وهـي أكلـة قويـة نافعـة، وهـذه الهريسـة لا تعمـل إلا عندنـا في الحجـاز أو بـاليمن وحضرموت.

• ومن عاداتهم أنهم يحبون أطايب الطعـام والمـأكولات، فمـن أشـهرها أكلـة الرز البخاري وأكلة المبشور، أما الرز البخـاري فهـو عبـارة عـن الـرز المزّة يطبـخ باللحم مع البهارات من القرفة والقرنفل والهيل وقليل من الفلفل الأسـود مصححـاً وشيء من الكمون المدقوق. ويكون فيه تقلية البصل والثوم والباذنجان الأحمر وهـو مـا يسـمونه بمصـر «القوطـة» يطبـخ كـل ذلـك طبخـاً متقنـاً وبعضهـم يضـع فيـه

سفرجلاً يطبخ بالمرقة والأرز. وهذه الأكلة لذيذة إذا كان الصانع ماهراً وهي أكلة شائعة تعمل غالب الأوقات.

وأما أكلة المبشور: فهي عبارة عن إحضار كمية من اللحم الأحمر الخالص ويجرّد من العظام والعروق والشحوم ثم يدق بالساطور دقاً ناعماً ويخلط به الثوم وشيء من الكمون مع الفلفل الأسود ثم يخلط الجميع خلطاً جيداً ويعجن باليد ثم يوضع في الأسياخ على شكل كرات صغيرة أصغر من الليمون ثم توضع الأسياخ على نار هادئة ويشوى، ثم يطبخ أرز أبيض من غير لحم فيغرف الرز في الصحون ويزيّن وجه الأرز بحبات المبشور ويقدم للأكل حاراً ساخناً مع أنواع السلطات والفواكه. وبعضهم يضع من هذا المبشور في صحن ويضع فوقه جزءًا من اللبن ويقدم كل ذلك مع أنواع السلطة والفواكه... وهذه الأكلة ألذ المأكولات وأصحّها، وهذا المبشور يشبه الكفتة في مصر. ﴿وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها﴾ وغالباً تؤكل هذه الأكلة بعد الظهر.

• ومن عاداتهم أنهم يأكلون النّدِي، بفتح النون وكسر الدال ويأكلون أيضاً الكوزي، بضم الكاف وكسر الزاي فالنّدِي هو خروف يوضع بأكمله بعد سلخه في التنور المحمي بنار الحطب ثم يغطي فم التنور جيداً وبعد عدة ساعات يخرج منه الخروف وقد استوى ونضج نضوجاً تاماً فيوضع فوقه تبسيّ ويقدّم للأكل ساخناً وهو لذيذ جداً ألذ من اللحم المشوي على النار.

وأما الكوزي فهو خروف أيضاً لكنه يوضع بعد سلخه وتنظيفه في قدر كبير بأكمله بعد أن يضعوا في القدر السمن والصلصة والبهارات والملح ويوقدون تحته النار ويقلبونه بين آونة وأخرى على جوانبه إلى أن يستوي وينضج ثم يقدّمونه للأكل ساخناً. ومعنى «الكوزي» : نظن أنه باللغة التركية وقد كان الحجاز كما لا يخفى تحت حكم الأتراك وهم يطلقون على الخروف اسم «القوزي» بضم القاف وكسر الزاي، ومن هنا أطلق الحجازيون على هذه الأكلة اسم الكوزي.

• ومن عاداتهم أيضاً أنهم يأكلون السليق وهو عبارة عن اللحم المسلوق بالماء والملح فقط فإذا استوى اللحم جعلوا فوقه الأرز وبعد أن يطبخ يجعلون عليه السمن، وهذا السليق لا يوضع فيه شيء من البصل والثوم ولا من الأبازير كالقرفة والهيل وهذه الأكلة شائعة عندهم، وبعضهم يجعل السليق بلحم الدجاج فيكون ألذ

من اللحم الضاني، والسليق لا بد أن يكون ماؤه زائداً قليلاً على طبخ الرز العادي ولا يعرف هذا السليق إلا في الحجاز وهي أكلة خفيفة لطيفة.

• ومن عاداتهم أنهم يأكلون المعدوس وهو عبارة عن خلط العدس بالأرز بعد تنقيتهما وغسلهما ثم يعمل تقلية بالبصل والثوم، فإذا بدأ البصل في الاصفرار وضعوا عليه الماء وبعد أن تفور قليلاً يضعون عليه العدس والرز المخلوط المغسول ويجعلون فيه قليلاً من الكمون والأبازير فإذا نضج الطعام أنزلوا القدر من فوق النار ووضعوا فيه السمن بالمقدار المطلوب ولا يطبخون المعدوس باللحم أبداً، وأكلة المعدوس شائعة عندنا وفي الغالب يصنعونه في أيام الشتاء وعند نزول الأمطار.

هذه بعض الأطعمة الشائعة عندنا بمكة مع العلم بأن أهل مكة يعرفون جميع المأكولات والأطعمة التي تعمل في الأقطار الإسلامية لأنهم خليطون بجميع الأجناس من الحجاج الواردين إليهم في كل عام. وبعض هؤلاء لا يرجعون إلى بلادهم بل يقيمون بمكة سنوات طويلة فيصيرون من أهلها لذلك أهل مكة يعرفون جميع اللغات ويحسنون جميع الأطعمة، نسأل الله تعالى أن يكثر عليهم النعم ويبارك في حياتهم ويجعلهم من السعداء آمين.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يخبزون أقراص العيش في الأفران الموجودة في كل حارة فكان كل بيت يعجن أهله الدقيق ويجعلونه أقراصاً يضعونها فوق الألواح الخشبية فإذا اختمرت الأقراص أرسلوها إلى الأفران لخبزها، وكل بيت يخبز كل يوم وبعضها يخبز يوماً بعد يوم وكانت الأفران جميعها توقد وتحمّى بالحطب، وكل بيت يخبز من أقراص العيش ما يكفيه، أما الفقراء من العمال وأهل الأسواق فإنهم يشترون الخبز من السوق وبذلك كانت الحبوب من الحنطة والدخن والذرة تستورد من مصر واليمن بكثرة، وكانت المطاحن كثيرة وتدار بواسطة الحمير ولم تكن بمكة غير ماكينة واحدة فقط بمحلة الفلق وباستعمال الخبز في البيوت وطحن الحبوب في المطاحن والرحى الحجري كان يكثر نخل الدقيق واستخراج النخالة منه أي قشر الحبوب، وكان الناس ممن يبيعون اللبن والحليب يطلبون النخالة ويشترونها من البيوت لأكل الأنعام من البقر والغنم فكان خدمهم يحملون كيساً من الخيش وينادون في الشوارع والحارات بأعلى أصواتهم (نخال . نخال) أي نشتري النخال، فمن جمع شيئاً من نخالة الدقيق ينادونهم ويبيعونها لهم.

هكذا كانت الحال بمكة إلى سنة (١٣٤٣) هجرية، ثم تغيرت الحالة شيئاً فشيئاً حتى لم يبق للنخالة من أثر لعدم طحن الناس الحبوب بالمطاحن ولعدم خبزهم العيش في البيوت بل صار جميع الناس يشترون خبزهم من السوق وصار أصحاب الأفران يستوردون الدقيق من الخارج بآلاف الأكياس، فسبحان مغير الأحوال.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يخبزون الفطير في الأفران وهو عبارة أنهم يعجنون الدقيق ويضعون فيه السمن أو زيت السمسم ثم يرسلونه إلى الفرن لخبزه سريعاً بدون تخميره بضع ساعات وغالباً يضعون هذا الفطير صباحاً للإفطار به ثم بطلت هذه العادة فلا يعملونه اليوم إلا بعض أفراد من النادر.

• ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا يصنعون العريكة ويفطرون بها في الصباح في أيام الشتاء، وهي عبارة أنهم يعجنون دقيق الدخن ويرسلونه إلى الفرن، وبعد خبزه يعجنونه بالسمن مع التمر الليّن، وهذه العريكة لذيذة جداً ومن أكلها لا يجوع سريعاً ثم بطلت هذه العادة.

• ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا يخبزون العيش أبو اللحم وهو عبارة أنهم يعجنون الدقيق ويجعلونه أقراصاً فوق لوح خشبي ثم يأتون باللحم الضاني ويفرمونه ثم يضعونه فوق النار حتى ينضج ثم يخلطونه بالكرات والطحينة ثم يضعون من هذا الخليط بعد تمليحه مقداراً منه فوق كل قرص من أقراص العيش ثم يرسلونه إلى الفرن ويأكلونه في الغالب في الغداء بعد الظهر، وقد قلّ صناعة العيش أبو اللحم في الوقت الحاضر.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا فرم اللحم أن يفرموه بأيديهم وذلك أنه كان يوجد في سوق الجزارين رجال صناعتهم فرم اللحم لا بالمكائن بل بأيديهم فإنهم كانوا يجرّدون اللحم من العظام ثم يضعونه فوق خشبة قوية ويمسك الواحد منهم بالساطور ويدق به اللحم دقاً متواصلاً سريعاً بينما يده اليسرى تقلب اللحم فوق الخشبة بسرعة عظيمة فهو في آن واحد يدق بيده اليمنى بالساطور اللحم وبيده اليسرى يقلب اللحم في سرعة عجيبة ومهارة فائقة لم نجده في البلدان الأخرى، وكان قبل سنة (١٣٤١) هجرية ثم بطل فرم اللحم بهذه الكيفية بعد انتشار مكائن فرم اللحم فصاروا الآن يفرمونه في البيوت بالماكينات.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا فيما مضى من الزمان، أي قبل سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية يكثرون من أكل السمن الجيد العال حتى إن الشخص الواحد إذا اشترى الفول المدمس صباحاً لنفسه فقط يضع فوقه ثمن أقة من السمن البلدي الجيد، وثمن الأقة يساوي خمسين درهماً وكانوا في بيوتهم يطبخون أنواع الأطعمة كل يوم فإذا طبخوا أكثروا في طبخهم من السمن الجيد العال بل لقد كان بعضهم إذا اقتنى حماراً أصيلاً يطعمه التمر في كل أسبوع مرة ويسقيه أقة من السمن الجيد في كل شهر مرة.

لقد كان السمن الجيد العال متوفراً بكثرة في مكة المكرمة يأتي إليها من أطرافها، وكانت محلة المدّعى تمتلئ بقرَب السمن البلدي الجيد وما كانوا يعرفون السمن الصناعي قط.

ثم من بعد السنة المذكورة ارتفعت قيمة السمن وذهب الرخص وجاء الغلاء شيئاً فشيئاً فصار يأتي السمن الصناعي وغيره من خارج بلادنا، إننا نتذكر أن أقة السمن البلدي الجيد كانت قيمتها في سنة (١٣٣٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين هجرية بعشرة قروش أي بنصف ريال، والآن ونحن في سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية بلغ قيمة السمن البلدي خمسة عشر ريالاً، ومن النادر أن يجد الإنسان عندنا سمناً جيداً خالصاً وصار اليوم جميع الناس يستعملون السمن الصناعي. فسبحان الكبير المتعال مغيّر الحال والأحوال.

• ومن عاداتهم أنهم يشربون الشاهي ، أي الشاي بكثرة ليلاً ونهاراً وذلك من قديم الزمن، والاجتماعات إذا لم يشرب فيها الشاهي لا تكون ذات رونق وبهجة وجميع دوائر الحكومة والمدارس يكون فيها الشاهي. ولهم عناية تامة بأدوات الشاهي كالسموار والبراد، بتشديد الراء، والفناجين والتباسي والملاعق وعلب السكر والشاي وبعضهم يعمل لهذه الأدوات دولاباً خاصاً وكرسياً خاصاً مزيناً بالنقوش. وشرب الشاي عادة شائعة في بلاد الحجاز كلها خصوصاً بمكة وجدة والمدينة حتى قال بعض شعرائها وهو الشيخ أحمد بن أمين بيت المال المكي رحمه الله تعالى:

إذا زار من تهواه يوماً مودّة ... وقد أيقنت بالودّ منك نفوسه
فإن رمت أن تحظى بلطف حديثه ... وبادرت بالشاهي يطول جلوسه
وإن تسقه الشربات يا صاح إنه ... يقوم إذا دارت عليه كؤوسه

ويشربون الشاهي الأسود والأخضر وبعضهم يضع فيه النعناع الأخضر أو اليابس، وبعضهم يضع فيه الدوش المسمى بمصر البردقوش، أما قهوة البنّ فهم يشربونها ولكن بقلة يشربون القهوة التركية والمصرية والنجدية لكن العمدة على شرب الشاي في جميع الأماكن والمنتديات حتى في القهاوي.

وأما شراب الكاكولا المثلجة ونحوها فما كان معروفاً في الحجاز إلا من سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية تقريباً. والشاي أمره معروف في جميع البلدان والممالك الإسلامية وغيرها. ولنا رسالة مطبوعة في ذلك اسمها «أدبيات الشاي والقهوة والدخان».

وقال الشيخ عبد الجليل برّادة المدني المتوفى في عام (١٣٢٥هـ) تقريباً في الشاي:

أرى كل ما تحوي مجالس أنسنا جنوداً لدفع الهم سلطانها الشاهي
وليس لها أمر يتم بدونه وهل تم أمر للجنود بلا شاه

وقد خمّس هذين البيتين بعض أفاضل أهل المدينة فقال:

أدر كأس شاهيّ شهيّ واسقنا وفرج به هماً بنا قد تمكنا
فإني لعمري دائماً طول دهرنا أرى كل ما تحوي مجالس أنسنا
جنوداً لدفع الهم سلطانها الشاهي
تراه على كرسيه في صحونه مليكاً عليه تاجه في حصونه
مجالسنا تزهو بلطف فنونه وليس له أمر يتم بدونه
وهل تم أمر للجنود بلا شاهِ

وقال السيد عبدالله بن عقيل:

منك النبات ومني النار أضرمها والماء مني ومنك الشاي واللبنُ
كذا أوانيه يا هذا تحضّرها والغَسل مني إذا ما مسّها الدرنُ
والصبّ منك ومني الشرب أجمعه والشكر مني إذا أوليت يا فطنُ
مني القبول لما يسخو بأخضره لكنّ أسوده عندي هو الحسنُ
ما أحسن الشاي إذا فاحت لويزته كذاك نعناعه والعنبر اللدنُ
باهت به الشاي أقوام له شربوا منه وقد طربوا ما مسهم حزنُ
فيه الفوائد من تهضيم مأكلنا كذاك قلب شجيّ ناله وسنُ

وقال بعض أدباء أهل جدة:

إذا منّ شاه الحسن يوماً بزورة ورمت امتداد المكث قدّم له الشاهي
ولا تسقه الشربات من خوف أنه يقوم فنبقى حائرين بلا شاه

وقال الشيخ محمد غزال من علماء دمنهور البحيرة بمصر:

نصاب الشاي يعقد من ثلاث فعوّل يا أخا العليا عليه
ومنه اشرب ثلاثاً في ثلاثٍ فإن الوتر مندوب إليه

ذكرنا هذه الأبيات الأدبية تنعيشاً للنفس وترويحاً لها، ومن أراد الإطلاع على مثل هذا فعليه بكتابنا «أدبيات الشاي والقهوة والدخان» وهو مطبوع بمصر.

• ومن عاداتهم أيضاً الإعتناء التام بأزيار الشرب الصغيرة والكبيرة، وبالشِّراب، بكسر الشين المعجمة وهي جمع شراب، بالكسر أيضاً وهي القُلّة، بضم القاف فينظفونها ويبخرونها بالمصطلى والقَفَل، بفتحتين وهو نوع من الحطب رائحته لطيفة صالحة لبخور الشِراب فإذا شرب منها الإنسان كان الماء لذيذاً سائغاً أو يضعون في الشراب ماء، ماء الكادي وماء الورد وكانوا يتفننون في صنع الشِراب ويزخرفونها ببعض النقوش وبعضهم يصنع لها كراسي جميلة يضعها فوقها، فلما ظهر الثلج وكثرت الثلاجات الكهربائية قلّ استعمال الشِراب في المنازل والدكاكين وشِراب المدينة المنورة تمتاز بجودة طينها وبياضها لذلك تبرد الماء فيها بسرعة، وما زال الناس يأتون بها من المدينة للهدايا مع تمر المدينة المشهور بلذته وجودته وكذلك يفعلون بماء زمزم كما تقدم فيكون له طعم لذيذ جداً خصوصاً إذا وضع فيه المصطلى أو ماء الكادي. وإليك صورة الشِّراب.

انظر: صورة رقم ٣١٦، للشّراب –بكسر الشين المعجمة– بوضع الماء فيها لتبريده

• ومن عاداتهم أنهم يبخّرون ماء الشرب وماء زمزم أيضاً فيبخّرون الشِراب، بكسر الشين المعجمة وهي ما يسمى بمصر بالقلل ويبخرون دوارق زمزم أيضاً يبخّرونها إما بالمصطلى أو بالقَفَل، بفتح القاف والفاء فتكون رائحة الماء عطرية مقبولة، والقفل بفتحتين نوع من الحطب البري الخاص وهو قليل الوجود.

وبعضهم يضع في الماء ماء الكادي أو ماء الورد وبعضهم يضع فيه ماء الزهر وهذا يأتي من مصر فيكون بذلك طعم الماء لذيذاً سائغاً. ونظن أن وضع الروائح

في ماء الشرب خاص بالبلاد الإسلامية غير معروف لدى الإفرنج. وا لله تعالى أعلم.

• ومن عاداتهم في شهر رمضان المبارك أنهم يفطرون في المسجد الحرام عند أذان المغرب، إنه خير إفطار وأجمل إفطار على وجه الأرض في هذه البقعة المباركة فإن الناس قبيل المغرب يجلسون آلافاً مؤلفة في المسجد الحرام حول الكعبة المشرفة يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم من جهاتها الأربع في انتظار مدفع الإفطار وهم مشغولون بالذكر والتسبيح ناظرين إلى بيت ا لله الحرام والطائفين حوله في إيمان واطمئنان وخشوع وخضوع أمام كل واحد منهم دورق مليء بماء زمزم المعطر المبخّر مع قليل من التمر فإذا ضرب مدفع الإفطار تناولوا التمر وشربوا من ماء زمزم ثم تقام الصلاة فيصلون جماعة متوجهين إلى الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، وبعد الصلاة ينتشرون في الأرض فيذهب كل واحد منهم إلى منزله ليفطر مع أهله وأولاده. هذا المنظر البديع للإفطار في المسجد الحرام عند الكعبة المشرفة هو منظر وحيد فريد لا مثيل له في الدنيا، فالحمد لله الذي جعلنا من أهل بيته الحرام ومن أمة نبيه سيدنا «محمد» عليه الصلاة والسلام.

• ومن عاداتهم في شهر رمضان أنهم كانوا يصلون التراويح في المسجد الحرام جماعات جماعات كل طائفة بإمام خاص وكل طائفة يتفقون في صلاتهم التراويح إما بقراءة جزء واحد كل ليلة وإما بقراءة أكثر من جزء أو أقل منه وبعضهم يكتفي بقراءة السور القصار في التراويح فيقرأ الإمام من سورة التكاثر إلى آخر القرآن، وعدد هذه السور ثلاث عشرة سورة تقرأ في التراويح عشر سور منها وتقرأ الثلاثة السور في ركعات الوتر الثلاث يعني يقرأ في كل ركعة فردية بعد الفاتحة سورة كالركعة الأولى والثالثة والخامسة وهكذا، ويقرأ في كل ركعة زوجية سورة الإخلاص كالركعة الثانية والرابعة والسادسة وهلم جرا وبعض الناس يختم القرآن في التراويح في كل ثلاث ليال مرة وبعضهم يختمه في كل أسبوع مرة.

الحاصل كانوا يصلون التراويح في المسجد الحرام بجماعات كثيرة كل جماعة تتفق على قراءة قسم من القرآن وكان طلبة المدارس يصلّون مع بعضهم فكانت كل مدرسة تصلّي بتلامذتها وأساتذتها ويؤمهم أحد الطلبة ممن يحفظ القرآن الكريم.

وكانت العادة أن يوضع فانوسان مسرجان بالشمع أو الكاز كل فانوس فوق كرسي خاص أحدهما عن يمين الإمام وثانيهما عن يساره وتوضع أمام صفوف المصلّين دوارق الزمزم وكانوا يعتنون بصنع هذه الفوانيس اعتناءً تاماً من التجميل والزخرفة والزجاجات الملونة لعدم وجود الكهرباء في ذلك الوقت وكانت هذه العادة مستمرة إلى آخر أيام حكم الأشراف على الحجاز.

فلما حكم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود الحجاز في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة بطلت هذه العادة فصاروا يصلون التراويح في المسجد الحرام كلهم بإمام واحد.

• ومن عاداتهم في شهر رمضان دوران المسحراتية في كل ليلة من ليالي رمضان فيدور المسحراتي ومعه فانوس وطبلة صغيرة أي «الدف» في الأزقة والحواري بعد مضي نصف الليل ويقف تحت كل منزل ينادي الساكنين به فرداً فرداً الرجال والأطفال الذكور فقط ليقوموا للسحور ويضرب طبلته لدى كل اسم ثلاث ضربات لطاف بتوقيع خاص بعصا صغيرة طولها نحو ثلاثين سنتيمتراً، ومن الغريب أن المسحراتي يحفظ جميع أسماء الذكور في البيوت الواقعة في محلته وحارته وكان يقول في دورانه على البيوت: «أبرك الليالي والأيام عليك يا سيدي فلان» ثم يضرب على طبلته بعصاه الخاصة ويستهل أمام منازل الأعيان بعض الأبيات المناسبة كقوله:

تصبحك السعادة كل يوم ... بأفراح على رغم الحسود

وكقوله:

متى بإكرام الحي عيني تراكمو ... وتسمع من تلك الديار نداكمو
أمر على الأبواب من غير حاجة ... لعلي أراكم أو أرى من يراكمو

ونحو ذلك: كما أنه يقول الحديث الشريف «تسحّروا فإن في السحور بركة» ثم بعد انقضاء شهر رمضان يدور المسحراتي بطبلته على كل بيت ومنزل يهنئهم بالعيد، وسكان المنازل يهدونه شيئاً من النقود أو الحبوب وغيرها. ثم بطلت هذه العادة أيضاً بعد انتهاء حكم الأشراف على الحجاز في السنة المذكورة، والظاهر أن هذه عادة قديمة جداً في بلاد الإسلام حتى يستيقظ الناس من نومهم للسحور فما كانوا يسهرون في الليل كأيامنا هذه حيث لم يكن لديهم من

مغربيات ومسليات وأنوار كاشفة كهربائية تجعل الليل كالنهار وما كان في زمنهم من الروادي والصحف والمجلات والقصص المنتشرة الآن في وقتنا هذا.

وإلى اليوم لا يزال المسحراتية يزاولون أعمالهم في بعض البلدان كمصر وغيرها من البلدان.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا في شهر رمضان يكثرون الذهاب إلى التنعيم لإتيان العمرة ليلاً أو نهاراً وبالليل أكثر. وكانوا يذهبون إلى التنعيم على ظهور الحمير قبل وجود السيارات، وكانت الحمير تقف في قهوة الحمارة التي كانت في باب العمرة في أول محلة الشبيكة، والمسافة بين المسجد الحرام ومسجد السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها بالتنعيم نحو ساعة واحدة تقريباً.

لقد كانوا يكثرون الذهاب إلى التنعيم للعمرة في هذا الشهر الكريم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن يكثرون الذهاب إليها مع الحاضرين بمكة المشرفة من الحجاج من أهل جاوة ومن غيرهم. فبعضهم يذهب للعمرة في ليلة كل الجمعة وبعضهم يذهب في ليلتي الاثنين والجمعة وبعضهم يذهب للعمرة في الشهر المذكور خمس عشرة مرة أي ليلة بعد ليلة وبعضهم يذهب في كل ليلة مرة ولقد رأينا بعض أصحابنا يذهب إليها في كل ليلة ثلاث مرات رحمهم الله تعالى وجزاهم خير الجزاء. ولا يخفى ما في ذلك من التعب لأنهم يحرمون من التنعيم فإذا رجعوا إلى مكة يطوفون بالبيت الحرام ثم يسعون بين الصفا والمروة في كل مرة ثم يحلقون ويتحللون من الإحرام وبذلك يتعب الإنسان كثيراً إذا ذهب للعمرة في ليلة واحدة ولكن قوة الإيمان وحب الطاعات يمسحان بالتعب والمشقة.

كان الذهاب إلى العمرة بالحمير إلى سنة (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية ثم بعد هذه السنة تقريباً بطل ركوب الحمير وكثرت السيارات ولا يزال الناس يكثرون الذهاب إلى العمرة في شهر رمضان إلى اليوم ولكن بالسيارات لا بالحمير.

• ومن عاداتهم أيضاً أن الدوائر الحكومية تفتح أبوابها وتدور فيها الأعمال بالليل في جميع شهر رمضان ابتداءً من بعد صلاة التراويح إلى أول وقت السحور عندما يضرب المدفع للسحور وهذه العادة متّبعة من قديم الزمان، وتفتح في ليالي رمضان جميع الدكاكين والأسواق تكون عامرة لكن المدارس تفتح أبوابها في النهار وبعد الظهر يرجع التلامذة منها إلى منازلهم. ثم إنه في سنة (١٣٨٣) ألف

وثلاثمائة وثلاث وثمانين هجرية صدرت أوامر الحكومة العربية السعودية بإبطال تلك العادة وأن تفتح الدوائر الحكومية أبوابها بالنهار فاتّبع الناس هذه الأوامر وبطلت تلك العادة من أول السنة المذكورة. ثم في سنة (١٣٨٤) أصدرت الحكومة السعودية أمراً بأن تفتح الدوائر الحكومية أبوابها بالليل في شهر رمضان كالعادة السابقة حيث أن الناس قد تعبوا من العمل بالنهار مع الصيام وحسناً فعلت الحكومة رحمةً بالناس وطلباً لراحتهم.

• ومن عاداتهم أيضاً أن أكثر الناس من متوسطي الحال كانوا يجعلون في دهاليز بيوتهم التكارنة والحُجُز كحرّاس للبيوت فهؤلاء يسكنون في دهليز البيوت مع أهلهم وأولادهم بدون أجر وكانت هذه العادة متبعة بمكة منذ قديم الزمان ثم بطلت من سنة (١٣٣٨) ألف وثلاثمائة وثمان وثلاثين هجرية فلم يبق لهذه العادة من أثر فسبحان مغير الحال والأحوال إنه جل جلاله هو مدبر أمور الكائنات، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

• وكان من عاداتهم اتخاذ ساعات الجيب الصغيرة وربطها بسلسلة جميلة من المعدن النظيف يسمونها «الأُسْتيك» بضم أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه وبعضهم يتخذ هذا الأستيك من الحرير أو القيطان ويربط الساعة فيه، وقليل جداً من يتخذ الأستيك من الفضة. ثم اتخذ الناس من بعد سنة (١٣٦٥) هـ ساعات اليد بالتدريج فصاروا يضعونها على معصمهم، وأستيك ساعات اليد تشبه السوار تماماً وهو على أنواع شتى من الجلد والمعادن المختلفة. وقد انتشرت في البلاد ساعات اليد وكثر استعمالها حتى كادت ساعات الجيب أن تفقد ويبطل استعمالها ومن النادر أن تجد رجلاً يحمل معه ساعة الجيب. فسبحان مغير الأحوال.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا جميعاً يلبسون النعال البلدية في أرجلهم، ولهم في صنعها مهارة فائقة وهي قوية وجميلة جداً، ولنعال أهل الحجاز شكل خاص وهيئة معروفة لا يشابهها نعال البلدان الأخرى غير أن نعال أهل المدينة المنورة غير نعال أهل مكة، ويطلقون على النعل المداس وكانت قيمة الجوز الواحد من النعل تبلغ جنيهاً ذهباً إنجليزياً بل أكثر وهذا النوع هو أغلى النعال لكنه مع جماله وحسنه الممتاز يمكث في مدة الاستعمال نحو عام واحد من غير أن يحصل عليه تلف أو تقطيع، وهناك أنواع أخرى أرخص من القيمة المذكورة وهذه النعال كان يلبسها في رجله الكبير والصغير والشريف والوضيع والعالم والجاهل، ولعرب البادية نعال

خاص يستعملونها، وما كان أهل الحجاز يرغبون لبس «الجِزَم» بكسر الجيم وفتح الزاي ويسمونها «الكنادر» بكسر الدال المهملة، ثم صاروا يلبسونها من سنة (١٣٤٥) إلى اليوم. أما النعال التي تأتينا من الخارج التي تسمى بالشباشب وهي أنواع شتى من اللسْتِك المطبوخ ببعض الأجزاء وربما كانت من الكاوتش. فإنها لم تعرف إلا من سنة (١٣٧٢) هجرية. وقد شاع لبس هذه الشباشب الخارجية في جميع البلاد لرخصها وقلة ثمنها وبذلك قلّ لبس النعال الحجازية بل كادت أن تندثر. ولبس النعال معروف من قديم العصور لأن صنعها سهل ميسور، قال تعالى يخاطب نبيه وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام في سورة «طه»: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وكان نبينا محمد ﷺ يلبس النعال السِّبْتِيَّة كما جاء ذلك في الصحيحين والسِّبْتِيَّة، بكسر السين المهملة نسبة إلى السبت وهو القطع أي المدبوغة التي حلق شعرها كما قاله العزيزي في شرحه على «الجامع الصغير». وجميع الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يلبسون النعال، ولقد تكلمنا عن نعل رسول الله ﷺ بالتفصيل في رسالة خاصة.

• ومن عاداتهم أنهم جميعاً يحبون الاجتماع مع أصحابهم وأصدقائهم فترى أن أحدهم يدعو أصدقاءه في كل أسبوع مرة ويعمل لهم طعاماً لطيفاً يجتمعون عنده غالباً يوم الجمعة بعد الصلاة وبعضهم يدعو أصدقاءه في غير يوم الجمعة أيضاً بمناسبة أو بغير مناسبة، الغرض من ذلك اجتماعهم مع بعضهم على الطعام وبعضهم يحبون الاجتماع ليلاً فيسمرون ويتحدثون ثم بعد الطعام ينصرف كل واحد إلى منزله. وهذا يحدث كثيراً ولا يشذّ عنهم إلا الشحيح البخيل.

• ومن عاداتهم لعب الكرة وما كان يلعبها سوى الأطفال في الشوارع والأزقة وكان لعبها بدائياً، لكن بترتيب ونظام اصطلحوا عليه، وكانوا يلعبونها بالأيدي فقط فكان أحدهم يمسك الكرة بيده اليسرى ثم يقذفها في الهواء بارتفاع قليل عن رأسه ثم يضربها بيده اليمنى بقوة فترتفع في الهواء وتمشي إلى الأمام فيتلقفها بعضهم، وينقسم اللعب إلى أشواط ويسمون كل شوط باسم خاص، وفي آخر الشوط يعلم الغالب من المغلوب، ويمكن لعب الكرة من شخصين أو من فرقتين. بقيت هذه اللعبة إلى سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية تقريباً ثم تطور لعبها بتطور التعليم عندنا بعد السنة المذكورة حتى أصبح اليوم يلعبها التلامذة الكبار والرجال ولهم نوادي لذلك في بعض البلدان ويتدربون على

كبار أساتذة لعب الكرة العالمية ويعملون بينهم مباريات يجتمع عليها من أهل البلاد وبعض رجال الحكومة في ذلك اليوم ويحضر في هذه المباريات آلاف الناس والفائز من الفِرَق يأخذ جائزة تذكارية كالمعتاد عند جميع الأمم، وتوجد نوادي رياضية في جميع أنحاء المملكة السعودية نذكر منها فقط ما يكون بمكة المشرفة وبالمدينة المنورة وبجدة وبالطائف فقط للعلم به في الجملة:

ففي مكة المكرمة: فريق الوحدة، وفريق العلمين، وفريق الشباب، وفريق الشرق الوطني، وفريق التعاون.

وفي مدينة جدة: فريق الإتحاد، وفريق الهلال، والفريق الأهلي، وفريق السلام، وفريق التسامي، وفريق رضوى.

وفي المدينة المنورة: فريق أُحُد، وفريق العقيق.

وفي مدينة الطائف: فريق التضامن، وفريق ثقيف.

ويكون اللعب في حالات المباريات: في ملعب إسلام بمكة وفي ملعب الصبان بجدة وفي ملعب التربية بالطائف.

ولعب الكرة معروف من قديم الزمان، وفيه يقول الشاعر العربي:

كرة طرحت بصوالجة فتلقّفها رجلٌ رجلُ

والصوالجة، بكسر اللام جمع صولجان وهو المحجن بوزن مقود وهو كل عود معطوف الرأس. وصنع الكرة في بدء الأمر كان من الخِرَق والقطن يجمعونها ثم يلفونها بخيوط كثيرة حتى تكون دائرة متساوية الأطراف والجهات وبعضهم كانوا يزخرفونها بالحرير الملون من أحمر وأخضر وأصفر وأزرق وغيرها ويعملون عليها نقوشاً جميلة وذلك من فوق الخيط الملفوف عليها، وكان هذا الحال قبل سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية، ثم بعد ذلك تطور صنعها تدريجياً إلى أن أصبح الآن تصنع من الجلود والكاوتش صنعاً جميلاً متقناً.

لبس العمامة والعقال في الحجاز

يختلف لباس الرأس لدى جميع الأمم والشعوب لأن كل أمة تتزيا بزي خاص بما يتفق مع طبيعة جو بلادهم، فلباس الرأس في مصر اليوم الطربوش وكان هو لباس الأتراك سابقاً ولباس أهل العراق وأهل الشام، ولباس المغرب الطربوش المغربي

ولباس الإفرنج البرنيطة. وفي عصرنا هذا يمشي غالب شباب الإفرنج وبعض شبان المسلمين المتعلمين في أوروبا عراة الرأس تماماً لكن بعد عنايتهم التامة بشعر الرأس وتمشيطه ودهنه وتعطيره حتى يكون في قالب بديع جميل ويسمى هذا لديهم بـ «التواليت» . ونرى أن أصحاب التواليت لهم نوع عذر في جعل رؤوسهم عارية لأن وضع عمامة أو طربوش أو نحوهما على رأس من يستعمل «التواليت» يشوه المنظر ويخرّب نظام الشعر وتسريحته.

أما لباس أهل الحجاز فإنهم كانوا يلبسون على رؤوسهم عمائم خاصة، ولهذه العمائم رجال يتقنون صنعها العجيب ورجال يتقنون لفّ القماش عليها لفاً محكماً لا يعرفه غيرهم، وكان لها سوق رائجة ومقدار ما يلفّ عليها من القماش الشاش الأبيض الخفيف الجيد نحو عشرين ذراعاً وقسم منها يلفّ على رأسه عمامة عادية من القماش الأبيض أو الملون لا يتجاوز الذراعين يلفّها بنفسه على رأسه في كل مرة وهي كالعمامة التي على رأس مؤلف هذا الكتاب كما هي ظاهرة في صورته ويلبسون فوق الثياب الجبة -بضم الجيم المعجمة- كان هذا لباس أهل الحجاز إلى أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى، ثم صدرت إرادته السنية على جميع موظفي الحكومة بلبس المشلح وهو العباءة، ولبس العقال المسمى بالشطافة على الرأس، والشُطّافة بضم الشين وتشديد الطاء وهي القماش الذي تحت العقال وتسمى بـ «الغترة» بضم الغين والتاء المعجمتين، وصدور الإرادة كان في سنة (١٣٥٠) خمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة أو قبلها بسنة، فمن هذا التاريخ شاع في جميع المملكة العربية السعودية استعمال الزي المذكور وبطل استعمال العمائم في الحجاز فلا يوجد له اليوم إلا أثر لا يذكر.

ورد في الحديث: «العمائم تيجان العرب والاحتباء حيطانها وجلوس المؤمن في المسجد رباطه» رواه الديلمي في مسند الفردوس وإسناده ضعيف كما قاله العزيزي، وروى الديلمي أيضاً: «العمائم تيجان العرب فإذا وضعوا العمائم وضعوا عزهم» وإسناده ضعيف أيضاً وورد أيضاً: «العمامة على القلنسوة فصل ما بيننا وبين المشركين يغطي يوم القيامة بكل كورة يدورها على رأسه نورا» .

قال العزيزي في شرحه على «الجامع الصغير» عند هذين الحديثين: القلنسوة، بفتح القاف وسكون النون وضم السين المهملة وفتح الواو وقد تبدل ياء مثناة من تحت وقد تبدل ألفاً فتفتح السين فيقال: قلنساة، غشاء مبطن يستر به الرأس وقال

بعضهم: هي التي يغطّى بها العمائم وتستر من الشمس والمطر كأنها عقدة رأس البرنس. انتهى.

وقال الحفني في حاشيته على «الجامع الصغير»: القلنسوة أي شيء يستر به الرأس. انتهى.

روى الترمذي والنسائي وغيرهما عن عبدالرحمن بن حرير عن أبيه عن جده قال: لكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء قد أرخى بين كتفيه من الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يسبل عمامته من خلف ظهره إلى الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لما بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى خيبر عمّمه بعمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه من الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ وأصبح عثمان رضي الله عنه وقد اعتمّ بعمامة بيضاء فأدناه رسول الله ﷺ فنقضها ثم عمّمه بعمامة سوداء قد أرخى بين كتفيه من الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: عليكم بالعمائم فإنها سيماء الملائكة وتيجان العرب وأرخوها من خلف ظهوركم إلى الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت عمامة رسول الله ﷺ في سفره بيضاء طولها سبعة أذرع في عرض ذراع وأن العذبة من غير العمامة، وفي الحضر كانت عمامته ﷺ سوداء من صوف طولها سبع وعرضها ذراع والعذبة من العمامة.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وعليه عمامة قد أرخى كراريتها من خلف ظهره من الجهة اليسرى مقدار أربع أصابع.

جاء في تاريخ الخميس عند قتال الملائكة يوم غزوة بدر الكبرى ما ملخصه: قال ابن عباس: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم ويوم حنين عمائم حمراء. وعن ابن هشام عن علي في سيماء الملائكة يوم

بدر مثل ما قال ابن عباس إلا جبريل فإن في حديث علي أنه كانت عليه عمامة صفراء. وفي أنوار التنزيل: وكانت سيماء الملائكة يوم بدر أنهم على صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر وبيض، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: تسوّموا فإن الملائكة قد تسوّمت بالصوف الأبيض في قلانسهم ومغافرهم. كذا في معالم التنزيل. انتهى من تاريخ الخميس باختصار.

ومما يناسب هذا المبحث ما ذكره ابن بطوطة في أول رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة وهو كما يأتي: فإنه عندما وصل إلى الإسكندرية ذكر بعض علمائها فقال: فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتمّ بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أرَ في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب، ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم. انتهى من رحلة ابن بطوطة.

نقول: إن العمامة هي شعار العلماء والطلبة من قديم العصور إلى يومنا هذا وتختلف أنواعها وأشكالها بحسب عادات أجناس الأمم والبلدان. فالعمامة لا زالت مستعملة في الحجاز وفي مصر وفي اليمن وفي الشام وفي العراق وفي إيران وفي أفغانستان وفي باكستان وفي الهند وفي السند بل في جميع البلدان الإسلامية تستعمل العمامة كما تستعمل فيها غير العمامة من لباس الرأس من الكوفية والطربوش والطواقي القماشية والخيزرانية واللبدة وما يشبه البرنيطة وغير ذلك من كل ما تخترعه الأمم بما يوافق مزاجها من لباس الرأس، وبعضهم لا يلبس شيئاً في رأسه مطلقاً لحسن منظر شعره الممشّط المعطّر والمسرّح بشكل جميل جذّاب الذي يسمى « بالتواليت » مما لا يتفق حسن منظره مع عمل التواليت المعروف في زماننا. نسأل الله أن يجمل بواطننا بنور الإيمان والعلم والمعرفة وأن يجمل ظواهرنا بأنواع النعم من الرزق الحلال بفضله الواسع وإحسانه العميم آمين.

• ومن عادات أهل مكة في عيد الفطر أنهم يتزاورون في أيام الأعياد كما هي العادة لدى جميع الأمم غير أن أهل مكة يمتازون عنهم بشيء واحد وهو أن هذه الزيارات أيام العيد تكون بغاية الترتيب والنظام وذلك كما يأتي:

اليوم الأول من عيد الفطر لزيارة حاكم مكة وأميرها ولتزاور الأهل والأقرباء خاصة وقد يفطرون صباحاً عند بعضهم ويتغدون ظهراً عند بعضهم.

اليوم الثاني تكون المعايدات والزيارات في محلة النقا والقرارة وسوق الليل وشعب علي وشعب عامر.

واليوم الثالث تكون المعايدات والزيارات في محلة الشامية وأجياد والقشاشية والسليمانية والمعابدة.

واليوم الرابع تكون المعايدات والزيارات في محلة الشبيكة والمسفلة وحارة الباب وجرول.

ويعبرون عن هذا اليوم الرابع «بدفن العيد» فلذلك يخرج بعضهم إلى خارج مكة أي إلى حواليها للفسحة وتسمى ليلة ثاني يوم العيد بالليلة اليتيمة. وبهذا اليوم الرابع تنتهي المعايدات الرسمية بين الناس وقد تكون الزيارات أيضاً في اليوم الخامس كملحق بأيام العيد الأربعة وذلك لمن فاتته المعايدة والاجتماع مع بعض أصدقائه لعذر من الإعذار. وقد كانت العادة أنهم يطلقون المدافع بمكة عند ثبوت ليلة عيد الفطر ويضربون من المدافع إحدى وعشرين طلقة في كل وقت من أوقات الصلوات المفروضة من حين ثبوت هلال شوال إلى عصر اليوم الثالث من أيام العيد، ولإطلاق المدافع في جميع المناسبات «في وقت السلم والحرب وفي الأعياد وتحية البواخر عند رسوها في الموانئ وإقلاعها عنها» إصطلاح خاص يعرفه المختصون. والحقيقة أن تنظيم المعايدة وترتيب الزيارات من أفضل العادات القومية وأجملها لضمان اجتماع المرء مع أصدقائه وإخوانه، ولم تختلف هذه العادة في مكة إلا من بعد سنة (١٣٦٢) اثنتين وستين وثلاثمائة وألف هجرية تقريباً وسببه ازدياد السكان المهاجرين من مختلف الأقطار وامتداد العمران فيها إلى مسافات بعيدة في جميع جهاتها.

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمتنا وشملنا وأن يوفقنا لخدمة بعضنا البعض بصدق وإخلاص آمين.

وكان للعيد فرحة كبيرة بمكة كان المسجد الحرام يمتلئ بالناس وكل واحد منهم يلبس أحسن ما عنده من الثياب الجديدة وبالأخص الأطفال الذين يتزينون بألوان الثياب المزركشة وكل منهم يشتري ما يحلو له من أنواع اللعب وأشكال المسليات والأسواق والدكاكين مقفولة ما عدا مباسط اللعب ومباسط الحلويات

والمشبك الذي يعمل خاصة للعيد، والمشبك «بضم أوله وفتح ثانيه وثالثه مع تشديد الموحدة» هو عجين سائل من الدقيق يوضع منه قليلاً قليلاً في ظرف خاص ثم يقلى بالزيت على شكل دوائر صغيرة فإذا احمرّت في الزيت أخرجت وطرحت «في الشيرة» بكسر الشين وفتح الراء وهي السكر المعقود في النار ثم يرفع ويوضع في التباسي الواسعة ويباع بالأقة.

وفرحة العيد بمكة تظهر بأجلى معانيها في الأربعة الأيام الأولى من شهر شوال لصغر مكة ولعدم كثرة وجود الأجانب من المسلمين من كافة البلدان ليختلطوا بأهلها فكان أهلها محتفظين بعاداتهم القديمة من كل الوجوه. أما اليوم لما كثر سكان مكة كثرة عظيمة واتسعت رقعتها لكثرة من أقام بها من جميع الأقطار الإسلامية واستوطنها فإن عادات أهلها كادت أن تندثر لاختلاطهم بالأجانب المقيمين بينهم لأن كل جنس منهم يحتفظ بعادات بلاده، فالاختلاط والامتزاج يوجب تقليد بعضهم لبعض في كافة نواحي الحياة.

أما عيد الأضحى وهو العيد الكبير فليس له مظهر عندنا بمكة بسبب أن جميع الناس موجودون في منى بعد نزولهم من عرفات وكلهم هنالك يقيمون شعار الحج ومشغولون بأعماله بل مشغولون بخدمة الحجاج من قبل طلوعهم إلى عرفات إلى أن يسافروا ويرجعوا إلى بلادهم. وكفى عندنا بالحج والحجاج وذبح الأضاحي وتفرقة لحومها مظهراً بعيد الأضحى المبارك وفرحة بالعيد الأكبر، فيا له من مظهر ويا له من فرحة لا يشاركنا في مظهره ومنظره قطر من الأقطار الإسلامية، وهذه الحالة دائمة فينا بفضل الله تعالى في كل عام إلى يوم القيامة. فالحمد لله رب العالمين.

• ومن عاداتهم في الأعياد والمناسبات العظيمة أن يعملوا «مزماراً»، «بكسر الميم الأولى» في كل محلة وحارة صباحاً ومساءً، والمزمار عبارة عن إيقاد النار بالحطب في أرض الحارة فإذا ما اشتعلت دار أهل الحارة من العوام حول النار بوقع خاص[1] وعلى حركات منتظمة لا تشبه الرقص يلعبون بالعصي يمسك الواحد منهم العصا بيده فيديرها بين أصابعه مع المرح والسرور، وربما ضرب بها أحدهم من يقابله حول النار فيتلقفها الثاني بعصاته من غير أن يحصل من ذلك ضرر إلا إذا

(١) هذه من عادات الجاهلية وهي من عادات الأحباش أيضاً التي يجب الابتعاد عنها لأنها لا تتفق والمبادئ الشرعية ويجب على المسلم الابتعاد عنها لما لها من المحاذير.

أخطأ الضارب بالعصا و لم يتمكن الثاني من الاتقاء ولا بد لكل لاعب في المزمار أن يحمل معه عصا غليظة بطول القامة يعتنون بتشذيبها ونظافتها ويسمونها «الشون» بضم الشين ويصحب المزمار عادة طبل يضربون عليه ضرباً منتظماً خاصاً، وعند إقامة المزمار لا يستعملون شيئاً من آلات الزمر مطلقاً، وليس المقصود من إيقاد النار التدفئة من البرد فإنهم يوقدونها ولو في الصيف وإنما هي عادة قديمة درجوا عليها من سالف الأزمان والمقصود من عمل الطبل والمزمار التسلية وإدخال السرور عليهم وجلب النشاط.

ولقد جاء ذكر المزمار في تاريخ الإمام الأزرقي في الجزء الأول عند ذكر الفيل حين ساقته الحبشة في قصة هدم العباس بن الربيع أمير اليمن من قبل أبي جعفر المنصور كنيسة القليس، بناها أبرهة بصنعاء للنجاشي ملك الحبشة وذلك قبل ولادة رسول ا الله ﷺ، فروى الأزرقي في تاريخه ما ملخصه: أنهم ذكروا للعباس بن الربيع ما في القليس من الذهب والفضة وعظم ذلك عنده وقيل له إنك تصيب فيه مالاً كثيراً وكنزاً فتاقت نفسه إلى هدمه وأخذ ما فيه فبعث إلى ابن وهب بن منبه فاستشاره في هدمه وقال: إن غير واحد من أهل اليمن قد أشاروا على أن لا أهدمه وعظم علي أمر كعيب وذكر أن أهل الجاهلية كانوا يتبركون به وأنه كان يكلمهم ويخبرهم بأشياء مما يحبون ويكرهون.

قال ابن وهب: كل ما بلغك باطل وإنما كعيب صنم من أصنام الجاهلية فتنوا به فمر بالدهل -وهو الطبل- وبمزمار فليكونا قريباً ثم أعل الهدامين ثم مرهم بالهدم فإن الدهل والمزمار أنشطهم وأطيب لأنفسهم وأنت مصيب من نقضه مالاً عظيماً مع أنك تثاب من الفسقة الذين حرقوا غمدان وتكون قد محوت عن قومك اسم بناء الحبش وقطعت ذكرهم.

وكان بصنعاء يهودي عالم قال: فجاء قبل ذلك إلى العباس بن الربيع يتقرب إليه فقال له: إن ملكاً يهدم القليس يلي اليمن أربعين سنة، قال: فلما اجتمع له قول اليهودي ومشورة ابن وهب بن منبه أجمع على هدمه، قال أبو الوليد: فحدثني الثقة، قال: شهدت العباس وهو يهدمه فأصاب منه مالاً عظيماً...إلخ القصة. انتهى ما جاء في الأزرقي.

نقول: علم مما جاء في تاريخ الأزرقي أن الطبل والمزمار عادة قديمة جاهلية غير أن المزمار في عرف ذلك العصر الغابر الآلة التي يزمر فيها بالنفخ في القصب ونحوه،

وأما المزمار في عرف زماننا فهو نفس اجتماعهم حول النار بالطبل واللعب بالعصي بكيفية خاصة.

ولم يزل المزمار موجوداً بالحجاز إلى أن تولى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز وذلك سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة فبطل إقامة المزمار من الحارات والمحلات كما بطل كثير من الخرافات التي لا تتفق مع الشرع الشريف الحنيف.

• ومن عاداتهم عمل الهوشات -بضم الهاء- جمع هوشة وهي عبارة عن حدوث خصام بين حارتين «محلتين» متجاورتين بسبب تعدي إحداهما على حدود الأخرى فتقام بينهما «الهوشة» حتى تتغلب إحداهما على الأخرى وذلك بأن يترامو في أرض الشارع بالحجارة حتى تتقهقر إحدى الحارتين إلى الوراء ويظهر عليها الانهزام، وفي النادر جداً أن يقع في الهوشة استخدام السلاح كالسكين والمسدس، وتكون الهوشة عادة من العوام باشتراك بعض الصبيان والغلمان.

والهوشة يمكن أن نقول عنها إنها ناشئة عن نخوة وشهامة فلا يقبل أهل حارة أن يدخل أهل حارة أخرى إلا بالاستئذان من كبار رجالها، على كل حال هي عادة غير مستحسنة لحصول الضرر والأذى بسببها ولقد بطلت هذه العادة بعد حكم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى الحجاز وذلك سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية.

• ومن عاداتهم أنهم يقيمون جميع الصلوات بالمسجد الحرام من الصلوات المكتوبة في الخمسة الأوقات ومن صلاة العيدين وصلاتي الخسوف والكسوف والصلاة على الجنازات وصلاة الجمعة وصلاة الاستسقاء. فما أروع كل هذه الصلوات تقام في هذا المسجد العظيم أمام بيت الله الحرام وما أوقع منظر هذه الجموع الغفيرة من المؤمنين في قلوبهم وهم يجتمعون لعبادة الله تبارك وتعالى ملتفون دائرون من الجهات الأربع حول الكعبة المعظمة بإيمان وإخلاص، إنه منظر فريد لا ثاني له على وجه الأرض. فالحمد لله ميز بلده الحرام على جميع بقاع الدنيا وفضل أهل بيته الكرام على جميع أجناس الأنام فالحمد لله على ذلك والحمد لله أن جعلنا منهم بفضله ورحمته.

إن المسجد الحرام كما يمتاز بوجود الكعبة المعظمة بوسطه يمتاز أيضاً باستمرار الطواف والتسبيح خصوصاً في مواسم الحج، فالطواف والعبادة لا ينقطعان فيه آناء الليل وأطراف النهار فهو لذلك لا يقفل أبوابه لا ليلاً ولا نهاراً. فهو بذلك يمتاز عن جميع مساجد الدنيا بأجمعها حتى عن المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة.

نسأل الله تعالى التوفيق للعبادة وأنواع الخيرات بفضله ورحمته آمين.

ذكرنا هنا ما يمتاز به المسجد الحرام بمكة المكرمة باستمرار الأذكار والأدعية عند الطواف حول الكعبة المعظمة، أما ما يمتاز به المسجد النبوي بالمدينة المنورة فبغاية الأدب والاحترام خصوصاً حول قبر رسول الله ﷺ وذلك تأدباً معه ﷺ فحرمته حياً أو ميتاً على حدّ سواء. قال الله تعالى في أول سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى عند هاتين الآيتين الكريمتين ما نصه: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ وقد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً، ثم قال ابن كثير: وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبر رسول الله ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً...إلخ كلامه. اهـ منه.

فانظر رحمنا الله تبارك وتعالى إلى هذا الأدب الرفيع العالي من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وبعض الناس في زماننا لا يعرفون آداب زيارة رسول الله ﷺ نسأل الله تعالى السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن آمين.

- ومن عاداتهم أنه كان إذا ولد لأحدهم مولود ذكراً كان أو أنثى ذهبت والدته بعد انقضاء أربعين يوماً من ولادته مع بعض النسوة بهذا المولود بعد وضعه في فراش صغير جميل نظيف إلى المسجد الحرام من بعد صلاة العصر فتدعو أحد أغوات المسجد الحرام ليذهب بمولودها فيضعه على عتبة باب الكعبة المعظمة نحو

عشر دقائق وذلك تبركاً وتيمناً بهذا الوضع الشريف اللطيف ثم بعد ذلك يرجعه إلى أمه وقد قرت عينها وانشرح صدرها بلبثه عند باب بيت الله الحرام.

كانت هذه عادتهم مع كل مولود يولد بمكة المشرفة حتى ولو كان من الغرباء من قديم العصور والأزمان إلى أول العهد السعودي أي إلى سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ثم من بعد هذه السنة المذكورة بطلت هذه العادة و لم يبق لها أثر. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

• ومن عاداتهم أيضاً أنهم كانوا ولا يزالون يصلّون على أمواتهم عند الكعبة المعظمة بالمسجد الحرام فهنيئاً لهم بهذه المتعة التي لا يشاركهم فيها المسلمون في البلدان الأخرى والله تعالى غفور رحيم كريم حليم يدخل من يشاء في رحمته في أي بقعة كانوا.

• ومن عاداتهم أن غالبهم إذا زاروا مريضاً لا بد أن يحملوا معهم شيئاً من الفاكهة كهدية للمريض، وغالباً تكون هديتهم من فاكهتين نحو أقتين من العنب وأقتين من التفاح أو برتقال ورمان أو تين ومشمش وأحياناً تكون كمية الفاكهة أكثر من أقتين وأحياناً أقل، كل واحد يقدم بحسب قدرته، غالب الزوار يقدّم هذه الفاكهة للمريض سواء كان في بيته أو في المستشفى وسواء أكلها أو لم يأكلها.

ولا شك أن هذه عادة جميلة طيبة فيها رضاء الله تعالى وفيها جبر خاطر المريض الذي هو في أمسّ الحاجة إلى مواساة إخوانه وأقاربه، وقد ورد في الحديث ما معناه: تهادوا تحابّوا فإن الهدية تذهب وغر الصدر، أي تذهب غيظه وكراهيته، فالهدية بإخلاص وإن قلّت تذهب غيظ الصدر وتمسح العداوة مسحاً. إن الهدية للمريض تنعش نفسه وتدخل الفرح في قلبه لا لاحتياجه إليها فربما أن الطبيب منعه من أكل الفاكهة وإنما هو يقدّر للمهدي هديته، فإن كانت بينهما خصومة محيت وإن كانت بينهما محبة ازدادت.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يحملون بأيديهم المسابح فإن الإنسان إذا بلغ نحو الأربعين حمل في يده سبحة حتى النساء كنّ يحملن في أيديهنّ المسبحة.

هكذا كانت عادة أهل مكة يحملون المسابح في أيديهم منذ قرون عديدة إلى سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية، فمنذ هذه السنة بطلت عندهم عادة حمل المسابح إلى اليوم.

هذا ولقد كانت للمسابح أسواق رائجة في مكة المكرمة وكانت لها دكاكين خاصة معروفة وكان الإقبال عليها في مواسم الحج عظيماً جداً، وللمسابح أنواع كثيرة منها الرخيص ومنها الغالي، فمن أنواعها: اليُسْر والمرجان والكهرمان والصندل والعود والعظم وغير ذلك. فسبحان مغير الأحوال.

• ومن عاداتهم أن نساءهم إذا خرجنَ لزيارة منازل الأقارب والجيران فعند وصولهنّ إلى البيت يصعدنَ قليلاً من الدرجات والسلالم ثم يصفقنَ بأيديهنّ لإشعار أهل البيت بحضورهنّ فلا ينادونهنّ بالأسماء ولا يدخلنَ الدار بدون تصفيق وإشعار. وإذا أرادت امرأة في بيتها أن تنادي أحد أولادها وهو بعيد عنها في طبقة أو غرفة أخرى صفقت بيديها أيضاً فيسمعها فيجيبها. الحاصل التصفيق عندنا خاص بالنساء حتى في الصلاة كما هو معروف في كتب الفقه، وهذه عادة طيبة حسنة جرى عليها أهل البلاد من قديم الزمان إلى يومنا هذا.

• ومن عاداتهم أنهم ما كانوا يسمرون بعد صلاة العشاء أكثر من ساعتين فقط، أي أن أكثر أهل مكة كانوا ينامون من الساعة الثالثة أو الرابعة ليلاً ويقومون صباحاً قبل شروق الشمس بساعتين تقريباً ويكونون قد شبعوا من النوم وارتاحت أجسامهم من عناء النهار كانت هذه عادتهم من قديم الزمن إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية تقريباً ثم تغيرت هذه العادة بالتدريج حتى صاروا يسمرون إلى ما بعد منتصف الليل بل بعضهم لا ينام قبل الساعة السابعة ليلاً ولا يقومون صباحاً إلا بعد شروق الشمس بنحو ساعتين أو أكثر وصارت تفوتهم صلاة الصبح فلا يصلونها إلا قضاء، هذه عادة غالب الناس في وقتنا الحاضر في سنة (١٣٨٤هـ) وما ذلك إلا بسبب وجود الكهرباء الذي يجعل الليل كالنهار وبسبب وجود أسباب اللهو واللعب من ورق اللعب «الكوتشينة» والراديو والأسطوانات الغنائية وبسبب كثرة وجود الأغراب والأجانب المعاشرين لأهل البلدة، وهؤلاء قد ألفوا السهر طول الليل وتمضية الساعات في دور الملاهي والسينما والقهاوي والبارات، والله تعالى أعلم ماذا يكون في المستقبل نسأل الله تعالى الحفظ من الآفات والآثام.

وبهذه المناسبة نقول: إن السهر إلى ساعة متأخرة من الليل حرام إذا أدى ذلك إلى ضياع صلاة الصبح، حرام إذا لم يكن هناك عذر شرعي يبرر السهر كالقلق واضطراب النفس من الهمّ والحزن والمرض أو السهر على مريض للعناية براحته أو

السهر على خائف لمحافظته مما يخاف ويحذر أو السهر في معسكر المسلمين لمحافظتهم من مباغتة الأعداء ونحو ذلك من كل ما فيه مصلحة عامة أو خاصة، ولقد ورد النهي عن السّمر والسهر في غير الطاعات، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا سمر إلا لمصلّ أو مسافر» رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود بإسناد صحيح، والسمر بفتح أوله وثانيه هو من المسامرة وهو الحديث بالليل، فالسمر والسهر إذا أدى إلى ضياع الفريضة حرم ذلك وإلا يكره لما فيه من إضاعة الوقت في القيل والقال واللهو والعبث، وفي الأمثال العامة من سهر الليل نام النهار، والسهر علاوة على ما جاء من النهي عنه فإنه يضر بصحة الإنسان فنوم ساعتين من الليل أفضل وأصح من نوم خمس ساعات في النهار، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

• ومن عاداتهم أن مشايخ الحارات يعني العُمَد كانوا إذا حصل خصام أو مضاربة أو تعدى بعضهم على بعض يحكمون بينهم قبل أن يتصلوا بالمحاكم أو الشرطة، وقد يحكم العمدة على المتعدي بغرامة مالية مع تقديم خروف أو خروفين أو أكثر مع ما يتبع ذلك من الرز والسمن للمظلوم فيعملون بذلك دعوة خاصة للطرفين وأقاربهما وأصدقائهما مع وجود شيخ الحارة ونقيبها فيقع الصلح بينهم ويزول كل خلاف من غير لجوء إلى المحاكم أو البوليس، وفي المثل عندنا في هذا الموضوع قولهم «الذي يعمله الحاكم يعمله الرجال». وربما كان شيخ الحارة يحبس المعتدي بحسب جرمه ثم يطلقه، كان هذا فيما مضى من الزمان من عهد الأتراك. وكان الناس يحترمون مشايخ الحارات لتدخلهم في المخاصمات وفضّهم للمنازعات بين الناس بالإحسان. واليوم لم تبق لهم من السلطة إلا التدخل بالحسنى بين المتخاصمين، فمن لم يقبل حكمهم فعليه بمراجعة دوائر الشرطة وفي هذا من تطويل المحاكمة ما لا يخفى.

• ومن عاداتهم أن الرجل منهم كان يلبس كوتاً، بضم الكاف وهو الذي يسمى بمصر جاكتّه، ويكون الكوت عادة من نوع قماش الثوب إن كان صوفاً أو قطناً أو حريراً ثم يلبس إن أراد الخروج من البيت فوق الكوت الجبّة وكانت هذه العادة جارية من قديم الزمان إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية تقريباً، ثم لما كثر الأجانب من المسلمين بمكة بطلت هذه العادة تدريجياً فصاروا الآن لا يلبسون غير الثياب ومن فوقها المشلح، بسكون الشين المعجمة وهو العباءة

وبطل استعمال الكوت إلا عند القليل منهم. ونظن أنهم أخذوا لبس الكوت من أهل جاوه ومن أهل الهند وا لله تعالى أعلم.

وكان لبس الكوت لأهل العلم والموظفين، أما العوام من أهل السوق فيلبسون الثوب فقط ويتحزّمون في وسطه من غير جبة ولا مشلح.

• ومن عاداتهم إقامة حفلات الزواج وإحياء ليالي الدخلة بالغناء ويبالغون في ذلك ويتباهون به ويصرفون في هذا مبالغ طائلة ويدعون فيها جميع أقربائهم وأصدقائهم وجيرانهم، وليس في إقامة الحفلات من بأس لو كانت خالية من الإسراف في البذل والمصروفات وخالية من المبالغة في إحياء الليل كله في الغناء وهذا ما لا تقرّه شريعتنا الغراء. إن هذه المبالغ لو جمعت في صالح العروسين لكان أفضل وأولى. والعادة الجارية أن تأتي العروسة في دار زوجها ليلة الدخلة بعد منتصف الليل أو بعد طلوع الفجر وفي هذا إرهاق عظيم على العروسة والعريس وعلى أهلهما وأقاربهما.

فحبذا لو غيروا هذه العادة وأحضروا العروسة إلى دار زوجها بعد صلاة العشاء بساعة واحدة ثم تنقضي بعد ذلك ساعتان أيضاً في الاستقبال والفرح ثم يأخذ العروسان راحتهما ويأويان إلى فراشهما في منتصف الليل تقريباً وكذلك يفعل الحاضرون فيذهب كل واحد إلى بيته يأوي إلى فراشه ويستريح، فتكون إقامة الحفلات بهذه الكيفية في هناء وراحة للجميع بدون تعب ولا إرهاق. وا لله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

• ومن عاداتهم أنه إذا تزوج أحدهم أو زوّج ابنه أو زوّج ابنته فإن جميع أصدقائه وأقاربه وجيرانه يبادرون بمساعدته بمجرد وصول بطاقة دعوة الزفاف إليهم. فمنهم من يرسل إليه كيساً من الرز أو كيساً من الدقيق أو كيساً من السكر أو صفيحة من السمن أو خروفاً أو خروفين، ومنهم من يرسل أكثر من ذلك بحسب حالته ومنهم من يبعث إليه بنقود مع وقوف بعض أصدقائه للخدمة والمباشرة واستقبال المدعوّين ليلاً أو نهاراً. والذي يرسله الناس لأهل الزواج من المساعدات يسمى عندنا رفداً وهي تسمية صحيحة، قال في المصباح المنير رفده رفداً من باب ضرب أعطاه أو أعانه، والرفد بالكسر اسم منه وأرفده بالألف مثله وترافدوا تعاونوا. اهـ. إنه وا لله لعادة طيبة وهي على حد قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. وهذه العادة على عظيم أجرها وعظيم نفعها وعونها فإن

تلك المساعدات يعتبرها الناس كدَيْن يجب على من تقبّلها ردّها على أصحابها عند اللزوم إذا جاء وقتها في إقامة حفلات الزواج لدى أصحابها. ومهما يكن الأمر فإن هذه العادة من العادات الحسنة والمساعدة على البّر والتعاون على فعل الخير ففيها الأجر والثواب كما فيها برّ الأصحاب وحسن الوفاء بعهدهم وصداقتهم والمرء كثير بأصحابه عزيز بإخوانه، وقديماً قال الشاعر العربي:

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه لا يذهب العرف بين ا لله والناس

هذا وبمناسبة ذكرنا عاداتنا في الزوجات نقول ما يأتي:

ومن العادة الجارية أيضاً في الزواجات أنهم يرسلون المعاشر وهي عبارة عن صحن من الرز مع توابعه من السمبوسك والطرمبة والزلطة، يضعون كل ذلك في طبلية مستديرة كالصينية، ويغطونها بغطاء من القماش على هيئة القبّة يرسلون هذه المعشرة، بكسر الميم لكل من قدم إليهم رفداً. يرسلونها إلى بيوتهم سواءً كانت قريبة أو بعيدة، فنحن نرى لو بطلت عادة إرسال المعاشر إلى أصحاب الرفود لكان أحسن وأولى لما في إرسال المعاشر من التكلف والتعب الزائد، ولا بأس أن ترسل المعاشر إلى البيوت القريبة من الجيران.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا من قديم الزمن يحبون اقتناء الزروع المختلفة الألوان والروائح العطرية كالورود والزهور والرياحين يزرعون ذلك في الأواني الطينية كالفخّار والأزيار الصغار والمراكن الخاصة بذلك يزينون بها مجالسهم لسهولة نقلها من مكان إلى مكان، وقليل منهم من يزرع تلك الزهور والرياحين في فسحة من داره إن كانت لديه أرض وحوش يزرعون تلك الزهور والرياحين في الأواني لقلة المياه.

أما في وقتنا الحاضر بعد امتداد البيوت والعمارات إلى مسافات كبيرة من المسجد الحرام وبعد انتشار بناء العمارات والمساكن على الطراز العصري بالإسمنت المسلح وبعد وصول مياه بعض العيون إلى مكة المشرفة فتجد في كل بيت من هذه البيوت الجديدة زروعاً خاصة بتجميل المناظر وقد تكون هذه الزروع في أرض المنزل من الداخل من جهة واحدة فقط وقد تكون محيطة بأطراف المنزل وتزرع في أرض المنزل لا في الأواني كحديقة صغيرة جميلة.

فسبحان الكبير المتعال مغير الحال والأحوال لا إله إلا هو العزيز الغفار.

وبمناسبة الكلام على الرياحين والزهور نقول: إننا رأينا بعض البخاريين في مدينة جدة جعل في أرض له مكاناً خاصاً لزرع الزهور ووجدنا عنده أربعين نوعاً من نبات الريحان فقط. فسبحان الخلاّق العظيم القادر على كل شيء.

• ومن عاداتهم أنهم يألفون ويؤلفون ويختلطون بالأغراب من جميع أجناس المسلمين الذين يفدون إلى مكة المشرفة في موسم الحج من كل عام. إن الغريب لا يجد نفسه غريباً بينهم، إن كل جنس من الحجاج يرى جنسه من أهل مكة ويخاطبهم بلغته فهو يختلط بهم ويندمج معهم كأنه جالس في بلده، فالحاج المصري والحاج الشامي والحاج اليمني والحاج العراقي والحاج الجاوي والحاج الهندي والحاج الباكستاني والحاج الأندونيسي والحاج الصيني حتى الحاج العجمي كل هؤلاء الأجناس وغيرهم يجدون في أهل مكة المكرمة مثل أجناسهم ويجدون منهم الحب والإكرام والتآلف العجيب، وجميع أهل مكة يشتغلون في موسم الحج من كل عام بأمور الحجاج فالمطوفون ومن في معيتهم قائمون بخدمة الحجاج والنظر في راحتهم وأهل الدور والمساكن يؤجرون منازلهم وبيوتهم للحجاج مدة إقامتهم بمكة وشركات النقل والسيارات تحت خدمتهم وأهل البيع والشراء يزيّنون دكاكينهم بأنواع البضائع والحاجيات اللازمة للحجاج، والعمّال والحمّال كل واحد منهم مستعد لخدمة الحجاج.

والحاصل لا توجد بلدة من بلاد العالم في أقطار الأرض مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة في استقبال الوافدين لبيت الله الحرام ولزيارة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام في كل عام من الأعوام منذ بدء الإسلام إلى قيام الساعة. فسبحان مدبر أمور الخلائق أجمعين من أهل السموات والأرضين لا إله إلا هو الخلاّق العظيم.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا في الموالد والحفلات الخاصة كعقد النكاح ويوم الختان وختم أولادهم للقرآن العظيم، أنهم كانوا يعطون الحاضرين في الحفلة الحلاوة الحمّصية أو حلاوة اللدّو، بفتح اللام المشددة وضم الدال المشددة أيضاً، وهما من صناعة مكة يصنعها الهنود فيها وكانوا أيضاً يعطرون الحاضرين بماء الورد المصنوع بمكة أو بالطائف، وما كانوا يعرفون من الحلويات سوى الحلاوة الحمّصية وحلاوة اللدّو وهي تصنع من دقيق الحمّص الممزوج بالسمن والسكر وحلاوة الهريسة وهي تصنع من اللوز المطحون والسمن والسكر وحلاوة طبطاب الجنة وهي تصنع من السكر وقليل من الدقيق وقليل من القرفة أو الزنجبيل وتصب في

صينية حتى تجمد ويوضع عليها قليل من البوية الحمراء لتغيير لونها كما أنهم يعملون أيام الأعياد والمناسبات حلاوة المشبّك، بضم الميم وفتح الشين المعجمة مع تشديد الباء الموحدة وفتحها وهي تصنع من الدقيق الأبيض حتى تكون في قوام العسل ثم يوضع زيت في مقلى كبير ثم بعد تحميته جيداً يصب فيه من العجين المذكور بعد وضع كمية منه في ماعون به خرق واحد بقدر أنملة البنصر ثم يصب من هذا الماعون من خرقة فوق الزيت الحامي على شكل حلقات مدورة متداخلة بعضها في بعض فإذا نضجت الحلقات واحمرت في الزيت يخرجونها ثم بعد تصفية الزيت منها يرمونها في السكر المعقود ويسمونه الشيرة، بكسر الشين وهي في قوام العسل ثم بعد برهة يخرجونها من الشيرة وتوضع في صينية كبيرة لبيعها بالأقة. ويصنعون أيضاً الحلاوة اللبنيّة وهي من اللبن الحليب الخالص مع السكر المذاب فيه ثم يضعونه فوق النار حتى يذهب ماء الحليب ويعقد حتى يكون كالعجين ثم يعرض للبيع. ويصنعون أيضاً الحلاوة السِّمْسمية وهي من السكر والسمسم فقط كما هو معروف. ويصنعون أيضاً الكنافة والقطايف ويتقنون صنعها وغير ذلك من الحلويات وأنواع المهلبيات.

كانت هذه الحلويات هي الشائعة عند أهل مكة من قديم الزمن حتى سنة (١٣٥٥) هجرية تقريباً وكانوا أيضاً يصنعون دجاج البَرّ، بفتح الباء الموحدة وهو مثل المشبك المذكور إلا أن خيوطه المتداخلة في بعضها رفيعة وأنه بعد قليها في الزيت لا يوضع في شيرة السكر لأن عجينته مملحة وفيها من الفلفل الأسود المدقوق، ويأكلون الحمّص المملح وحبوب البطيخ المسمى عندنا بالفصفص، بكسر الفاءين وفصفص الدبا أيضاً وهذان يسميان بمصر باللبّ الأسمر واللبّ الأبيض وكذلك يأكلون اللوز البجلي وهو كثير بالطائف وبعضهم بعد أن يخرجوه من القشر يقلونه بالسمن ثم يضعون عليه الملح ويأكلونه كما أنهم يأكلون لوز التكارنة بعد تمليحه وتحميصه وهذا يسمى بمصر الفول السوداني.

هكذا كانت عادة أهل مكة بالنسبة للحلويات إلى السنة المذكورة ثم من بعد هذه السنة المذكورة خصوصاً من بعد عام (١٣٦٥) هجرية إلى الآن غزت الحلويات الإفرنجية المتنوعة التي في العلب والصفائح جميع الأسواق بمكة بل وبالمملكة كلها فترك الناس الحلويات البلدية واتجهوا نحو الحلويات الإفرنجية.

وهكذا تغيرت الأحوال في جميع نواحي الحياة المعيشية، فسبحان من له الأمر كله لا إله إلا هو الواحد القهار.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يلبسون السراويلات الطويلة التي تصل إلى الكعبين، هكذا كانت الحالة عند الرجال والنساء على السواء، فالرجال يتخذون السراويلات من قماش البفته البيضاء والنساء يتخذنها من القماش المصري المقلم الملون وهو قماش قطني متين غير خفيف وهو من أنواع القماش القطني الذي يتخذ منه المصريون «القفطان» بضم القاف وسكون الميم، وكان الرجال والنساء يتخذون تكّة السراويلات من القماش الخفيف المسمى بالشاش ويزينون طرفيها بشغل خفيف من الحرير خصوصاً النساء وما كانوا قط يعرفون السراويلات التي تأتي من الخارج جاهزة مخيطة أو منسوجة كالفانيلات.

ثم من بعد هذا التطور أو المدنية المزيفة الذي عم وجه الأرض صار بعض الرجال وبعض النساء يلبسون السراويلات القصار التي أقصر من الركبة بل أقصر من ذلك أيضاً تقليداً للأجانب الموجودين عندنا بكثرة من الرجال والنساء وذلك منذ سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية تقريباً، أما قبل ذلك فكانت الحالة لديهم كما ذكرناه.

والحق يقال أن لبس السراويلات الطويلة بما يستر الركبة ولا يبرز الفخذ من الرجال والنساء واجب لقوله ﷺ: «رحم الله المتسرولات من النساء» رواه الدارقطني وغيره، ولقوله أيضاً: «لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حيّ ولا ميت» رواه أبو داود وغيره. ونحن هنا لا نريد الإطالة في هذه المسألة فالشرع الشريف لا غبار عليه، قال في مختار الصحاح: السراويل معروف يذكر ويؤنث والجمع السراويلات وسروله ألبسه السراويل فتسرول، وحمامة مسرولة في رجليها ريش. انتهى منه باختصار.

• ومن عاداتهم أن بعض أشراف مكة الكبار كانوا إذا جلسوا للأكل مع بعضهم للغداء أو العشاء بدون دعوة لغيرهم وضعوا تبسي الأكل خالياً في وسطهم فوق كرسي وهم جلوس على الأرض ثم يحضر الخادم للرجال أو الخادمة للنساء أصناف الأكل صنفاً صنفاً فمثلاً يضع فوق التبسي صحن الباميا فيأكل كل واحد منها لقمتين أو ثلاثة ثم يأتي بصحن الملوخية فيأكل منهم لقمتين أو ثلاثة ثم يرفع هذا الصحن ويأتي بغيره وهكذا الحال إلى أن ينتهي الأكل. وهذه الكيفية من

الأكل كانوا يسمونها باللغة التركية «قالْدِرْ قُويْ» أي «إرفع وضع» وباللغة العامية «شيلْ وحطّ» وهذه الكيفية في الأكل بطلت حتى من الأتراك منذ مدة طويلة أي منذ سنة (١٣٣٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين هجرية فلم يبق لها ذكر اليوم في جميع الممالك وصار جميع الناس يمدون سفرة الأكل ويضعون عليها جميع الأطعمة فيأكلون ما شاؤوا وهذا أهنأ وأبرك.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يذهبون في أول شهر رجب من كل عام إلى المدينة المنورة للزيارة ويستعدون لذلك قبل الموعد بمدة كافية وكانوا يذهبون بصورة فيها كثير من المرح والفرح والسرور والنشوة فكان في كل حارة من حارات مكة يجتمع من أراد السفر إلى المدينة المنورة للتشاور فيما يفعلونه وبماذا يستعدون من أدوات السفر وكانوا في هذه الرحلة الرجبية يسافرون على النياق والدلائل وعلى الحمير الجيدة الأصيلة حيث لم تكن السيارات موجودة، وكانوا يطلقون على جمعيتهم التي تسافر إلى المدينة «الركب» بفتح الراء وسكون الكاف فيقال سافر الركب ورجع الركب.

وقبيل موعد سفرهم بأيام يقوم في كل محلة وحارة من يغنّي القصائد المهيّجة والمشوّقة للزيارة ومن ينشد المدائح النبوية لاستنهاض همم الناس لزيارة رسول الله ﷺ فلا يأتي اليوم الموعود للسفر إلا وقد اجتمع طائفة من الناس في كل حارة للسفر ومع كل حارة راية خاصة وحادٍ خاص يحدو فيهم فيخرجون من مكة على الحمير المحملة بالأرزاق والفرش قبل السفر بيوم واحد إلى جهة الشهداء ومعهم المنشدون ينشدوهم القصائد والمدائح بصوت رخيم مشجٍ مثير للشوق فإذا تكامل جمعهم في محلة الشهداء وهي على طريق عمرة التنعيم تحركوا بكامل جمعهم للسفر إلى المدينة، وطول الطريق يسمعون النشيد والقصائد بما يخفف عنهم مشقة الطريق ووعثاء السفر فتكون الحمير في المقدمة وتكون الركايب والنياق في المؤخرة فيقطعون ما بين مكة والمدينة في ثمانية أيام أو تسعة ويذهبون من الطريق السلطاني عن طريقِ وادي فاطمة فعسفان. والمسافة بين مكة والمدينة بالجمال العادية اثنى عشر يوماً، فالنياق والحمير يكون مشيها أسرع من الجمال التي تمشي على هون. ومن عادة الركب سواء سافروا على الحمير أو على الجمال أن يمشوا قبيل المغرب بساعة إلى أن يصلو إلى محطة من محطات الطريق فينزلون فيها ويأكلون ويشربون

ويستريحون وينامون قليلاً ثم يقيلون فيها إلى قبل المغرب بنحو ساعة ثم يستأنفون سفرهم فلا يمشون بالنهار مطلقاً لشدة حرارة الشمس.

فإذا وصل الركب إلى قرب المدينة المنورة ينشدهم المنشد القصائد والمدائح بصوت عذب ينسيهم المشقة والتعب، فإذا حطوا رحالهم في المدينة فذلك اليوم هو يوم عيدهم الأكبر ويستقبلهم أهل المدينة بالفرح والسرور فيمكثون بها بضعة أيام ثم يعودون إلى مكة المشرفة على حسب ترتيبهم ونظامهم عند خروجهم منها فيرجعون وقد أشرقت وجوههم بالأنوارالمحمدية فيستقبلهم الأهل والأقارب والأصحاب بالفرح والترحاب.

كانت هذه عادة أهل مكة من قديم الزمان إلى سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية أي إلى سنة حكم الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الحجاز، فمن هذا العام بطلت هذه العادة عندهم و لم تقم لها قائمة إلى اليوم لأنها عادة لم تكن شرعية أو معروفة عند الخلفاء الراشدين ومن بعدهم.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يخرجون لزيارة أم المؤمنين ميمونة رضي الله تعالى عنها وقبرها واقع قبل وادي فاطمة على يسار الذاهب من مكة إلى الوادي، وأم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها هي بنت الحارث الهلالية تزوجها رسول الله ﷺ بمكة وهو حلال عندما ذهب إليها من المدينة في عمرة القضاء في أواخر السنة السابعة للهجرة في شهر ذي القعدة، والله تعالى أعلم. تزوج رسول الله ﷺ ميمونة رضي الله تعالى عنها بمكة في السنة المذكورة لكنه لم يدخل بها بمكة فلما خرج منها ووصل إلى مكان يقال له سرف ، بفتح السين المهملة وكسر الراء دخل بها وفي هذا المكان قبرها رضي الله تعالى عنها بينه وبين مكة أربعة عشر كيلو أو خمسة عشر كيلو ، ثم أخذها ﷺ معه إلى المدينة ، قيل : ماتت سنة ثلاث وستين من الهجرة وقيل : سنة إحدى وخمسين والله تعالى أعلم . وقد انتقلت قبل وفاتها إلى مكة فاعتلّت بها وقالت: أخرجوني من مكة لأن رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بها فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى المحل الذي بنى بها رسول الله ﷺ حينما تزوجها، وكان في هذا المحل شجرة وسقاية وقبرها إلى اليوم معروف مشهور وكانت ميمونة رضي الله تعالى عنها آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وآخر من توفيت من أزواجه رضي الله تعالى عنهن أجمعين، ومن عجيب أمرها

أنه كان الدخول بها ووفاتها ودفنها في مكان واحد وهو سرف رضي الله تعالى عنها.

فأهل مكة كانوا يخرجون لزيارة أم المؤمنين ميمونة رضي الله تعالى عنها. وبعد انتهاء زيارتها يعودون إلى محلة الشهداء لزيارة عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما حيث قبره في الشهداء حيث بينه وبين مكة نحو أربعة كيلومتراً. فكانت هذه عادتهم من قديم الزمان إلى سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية حيث حكم الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الحجاز في السنة المذكورة فبطلت هذه العادة إلى اليوم.

• ومن عاداتهم التانّق والتجمّل وإظهار الجمال والكمال في المأكل والملبس والمسكن، إنهم يحبون شدة النظافة حتى في حالة سفرهم ولقد كان لهم عظيم الذوق في عمل الشاي وتقديمه للضيوف وكذلك تقديمهم لكاسات الشربات، ولهم في اقتناء أدوات الشاهي عظيم الذوق من شراء السماوارات المعدنية المسكوفية والبراريد الصينية الفاخرة والفناجين الأصلية التي لا توجد اليوم فيها إلا قليلاً ونادراً. ولبعض شعراء أهل الحجاز قصائد ظريفة في الشاهي ذكرناها في رسالتنا المطبوعة «أدبيات الشاي والقهوة» نعم إنهم يحبون التأنق والنظافة وتجميل الأشياء.

• ومن عاداتهم أنه كان رجالهم وأولادهم في الزمن الماضي يحلقون رؤوسهم بالموسى ولا تزال هذه العادة جارية بينهم إلى اليوم لكن عند بعض كبارهم فقط دون أولادهم، أي القليل منهم يحلقون رؤوسهم بالموسى اليوم وغالب الناس وأكثرهم يحلقون بالماكينة، أما أولادهم فهم يربون شعورهم ويستعملون التواليت في قصها وإصلاحها كما هو الحال في الخارج. وكان الحلاّقون في الماضي قليلين وكلهم من أهل مكة أو من الهنود المقيمين بها، أما اليوم فقد كثر الحلاّقون بمكة من مختلف الأجناس: من مصر ومن سوريا ومن الأردن ومن فلسطين ومن اليمن ومن التكارنة.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يستعملون في موازينهم الأقة وأجزاءها، وهي بضم الهمزة وتشديد القاف المفتوحة ومقدارها أربعمائة درهم والأقة كانت تستعمل في جميع الممالك الإسلامية منذ عهد طويل من أيام الدولة التركية العثمانية، فلما ذهبت عنهم الخلافة الإسلامية من سنة (١٣٣٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين

هجرية أبدلوا الأقة بالكيلو وهو أصغر وأقل من الأقة تبعاً وتقليداً للبلاد الأوروبية ولكن بقي الحجاز على استعمال الأقة وأجزاءها من النصف والربع والثمن والوقية.

فلما كان أول محرم سنة (١٣٨٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثمانين هجرية أمرت الحكومة السعودية بإبطال الأقة وأجزائها واستعمال الكيلو وأجزائها فاستعمل أهل مكة المكرمة في موازينهم الكيلو من أول العام المذكور وكذلك فعلت بقية البلاد السعودية.

كما صدر الأمر من الحكومة السعودية باستعمال المتر المعتبر في جميع دول العالم والسعودية بدلاً بالهنداسة في ذرع الأقمشة ومشتقاتها.

• ومن عاداتهم أن النساء عندنا كنّ يلبسن الشراشف والملايات الطويلة التي تستر من الرأس إلى الأقدام وكانت هذه الشراشف والملايات كلها من قماش واحد خاص وبشكل واحد وبلون واحد وهو الأسود يتخلله خطوط رمادية عريضة عرضها خمس سنتيمترات. وكنّ يلبسنَ البراقع البيضاء كل برقع متر واحد وعرضه أربعون سنتيمتراً يستر الوجه والصدر تماماً وتلتفّ الملاية والشرشف فوق البرقع، وفي أعلى كل برقع خرقان صغيران بقدر العينين فقط للنظر منهما.

وكنّ يلبسنَ في أرجلهنّ أخفافاً صفراً على هيئة الجورب كل خفّ يستر القدم إلى نصف الساق ثم يلبسنَ بعد الأخفاف الشباشب الصفر أيضاً وهي جمع شبشب ويسمى بالبابوج وهذا البابوج لا كعب له مطلقاً، إنه يشبه الشبشب والمداس من حيث عدم وجود الكعب فيهما، والخفّ والبابوج من الجلد الأصفر فقط ليس لهما لون غيره وجلدة البابوج من الأمام يستر وجه ثلث القدم تماماً ليس فيه زخرفة ولا أخراق، أي يشبه وجهه وجه الجزمة المعروفة التي قطع منها جانبيه.

وهذه الشراشف والملايات والبراقع والأخفاف الصفر كلها كانت تأتي من الأستانة من تركيا، كانت قيمة الخفين والبابوج بجنيه واحد من الذهب لا ينقص منه شيء فكانت هذه العادة عند النساء من قديم الزمن إلى سنة (١٣٥٠) ثم بطلت هذه العادة تدريجياً حتى لم يبق لها أثر اليوم مطلقاً وصارت النساء عندنا يقلدن في لبسهن نساء الأغراب المقيمين عندنا من المصريين والشوام والفلسطينيين وغيرهم وسرت فيهم عادات هذا العصر العجيب.

• ومن عاداتهم أن جميع طلبة العلم سواء كانوا في المدارس أو كانوا يطلبون العلم في المسجد الحرام وكذلك جميع العلماء والمدرسين على اختلاف طبقاتهم كلهم كانوا يضعون كتبهم وأوراقهم ودفاترهم في محافظ من الجلد وما كانوا يعرفون هذه الشنطات التي يستعملونها اليوم، لقد كان كل واحد منهم يضع كتبه وأوراقه ودفاتره في المحفظة ويلفّ عليها سجادته ويذهب إلى محل دراسته بغاية من الكمال والأدب، والمحفظة عبارة عن الجلد السميك الملون باللون البني أو الأحمر فقط طولها ثمانون سنتيمتراً وعرضها خمسون سنتيمتراً يطوى هذا الجلد مرة واحدة فيكون بمثابة غلاف الكتب والدفاتر ثم يعمل لكل جانب من جانبي المحفظة رباط على هيئة أزرار من الجلد لئلا يقع منهما شيء من الكتب ثم ينقش وجهي المحفظة نقشاً بسيطاً جميلاً على هيئة النجوم الصغيرة، وكان يصنع هذه المحافظ أهل مكة ومحل صنعها باب السلام الكبير أحد أبواب المسجد الحرام، والحق يقال: كان حمل هذه المحافظ العلمية تكسب حاملها الهيبة والوقار والأدب والكمال.

هكذا كانت عادة العلماء والطلاب بمكة يحملون كتبهم وأوراقهم في هذه المحافظ من قديم الأزمان إلى سنة (١٣٥٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وخمسين هجرية، ثم من بعد العام المذكور وردت الشنطات الخاصة لوضع الكتب المدرسية وكثر أنواعها المختلفة الجميلة اللطيفة فألف الناس استعمالها في الحرمين الشريفين وغيرهما، وهكذا تتبدل العادات والأحوال بتقدم المدنية والعمران إلى أن يأتي وعد الله.

• ومن عاداتهم أنهم كانوا يضعون ثيابهم في صناديق السّيسَمْ، بكسر السين المهملة الأولى وفتح السين الثانية وهي صناديق سوداء مستطيلة في طول متر واحد ومنها ما هو أكبر يتخذ من خشب السّيسَمْ القوي المتين لا يأكله الدود ولا العثّ، إنه من أغلى الأخشاب الثمينة. كانت هذه الصناديق تأتينا من الهند إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية، ثم انصرف الناس عن هذه الصناديق الممتازة واتخذوا دواليب الموبيليات التي أتت من الخارج بعد السنة المذكورة، وما زال العرب في البادية والقرى يشترون الصناديق البلدية المتخذة من الأخشاب العادية والمزخرفة بالصفائح الملونة والمرايات الصغيرة ليضعوا فيها ثيابهم وحوائجهم، ونظن أن هذه العادة قديمة حتى في الخارج فإن أهل الأرياف والقرى

البعيدين من المدن ما زالوا يستعملون هذه الصناديق البلدية المزخرفة. وهذه سنّة التطور في الكون.

• ومن عاداتهم أنهم يستأجرون الدكاكين والدور والمنازل سنوياً ويستأجرون كامل الدار لا نصفها ولا ربعها ولا يعرفون السكنى في الشقق «بضم أوله وفتح ثانيه» جمع شقة وهي جانب من الدار يحتوي على بعض الغرف في وضع مستقل بذاته أي أن الشقة عبارة عن مسكن شرعي منعزل في المعنى عن بقية الدار. فإذا قفل الإنسان مدخل الشقة وهو الباب الأول أصبح منعزلاً عن بقية سكان الدار.

هذه العادة كانت متبعة قديماً إلى سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية، ثم من بعد هذه السنة المذكورة كثرت العمارات الحديثة بمكة المشرفة وأصبحت الدور والمنازل طبقات عديدة حتى أن بعضها أصبح أكثر من عشر طبقات وصارت كل طبقة تحتوي على عدة شقق وكل هذه الشقق والعمارات مزوّدة بالكهرباء ومواسير المياه وبآلات التدفئة والتهوية والتبريد من المراوح الكهربائية والكونديشات. وهذه الشقق بعضها تؤجر سنوياً وبعضها تؤجر بالشهر وبعض أهل مكة إلى اليوم لا يرغبون في السكنى في الشقق بل يرغبون في استئجار الدار كاملة سنوياً. ومن استأجر داراً كاملة سنوياً لا يرغب أن يسكن أحد معه فيها بل يؤجرها في موسم الحج للحجاج. وكان من عاداتهم أن يدفعوا الإيجارات السنوية في العاشر من شهر محرم في كل عام ولكن من بعد سنة (١٣٥٠) هجرية تغيرت هذه العادة فصاروا يدفعونها في أول يوم من شهر محرم من كل عام.

• ومن عاداتهم أن الناس إذا حضروا للعزاء ما كانوا يجلسون على الكراسي ويشربون القهوة ثم يقومون لعزاء أهل الميت كما هو حاصل اليوم بل كانوا إذا حضروا للعزاء ودخلوا البيت جلسوا في المجلس ثم يأخذ كل واحد منهم جزءًا من القرآن من صندوق الربعة الذي فيه الأجزاء ليقرأ فيه فإذا أكمل قراءة الجزء وضعه في الصندوق وقام للعزاء وخرج وقد دعا للميت بما أحب من العفو والمغفرة والرحمة.

وعند حمل الجنازة إلى مقرها الأخير فإن الواجب علينا أن نعتبر ونتعظ فهذا أخونا سبقنا إلى الدار الآخرة ونحن على إثره «ذاهبون ولاحقون به»، اللهم اغفر لنا وارحمنا وتجاوز عنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين يا حيّ يا قيوم يا الله.

وإن العزاء بقراءة القرآن من الربعة ما زال جارياً إلى اليوم في بلاد اليمن وحضرموت، والربعة بفتح الراء نسبة إلى صندوق مربع يوضع أجزاء القرآن لكريم فيه ثلاثون جزءًا، ولهذا الأمر جلّدوا كل جزء من القرآن العظيم وحده فجلّوا منه جزءًا جزءًا حتى يتكامل ثلاثين جزءًا فيضعونه في صندوق صغير مربع.

• ومن عاداتهم أن جميعهم يشتغلون في مواسم الحج وأيامه من كل عام بخدمة الحجاج، فالعلماء يرشدون الحجاج إلى مسائل الحج والعمرة ويعلمونهم أحكامها على المذاهب الأربعة والمطوفون وخدمهم يقومون بخدمة الحجاج وتوفير أسباب الراحة لهم وأرباب البضائع يعرضون بضائعهم على الحجاج في دكاكينهم وأسواقهم بل في مواسم الحج تجد في الدكاكين والأسواق أجود البضائع وأحسن أصنافها، والذين يبيعون البضائع المناسبة للحجاج في الأسواق والشوارع المتسعة والميادين يفرشون على الأرض ويعرضون ما لديهم على الحجاج خصوصاً في أسواق عرفات ومنى ومزدلفة.

إن جميع الناس عندنا يشتغلون في مواسم الحج في كل عام بخدمة الحجاج وراحتهم فالمطوفون وخدمهم لهم أعمال خاصة والمرشدون لهم أعمال خاصة فتجد جميع الناس في أيام الحج في حركة دائبة وعمل غير منقطع ليلاً ونهاراً حتى حكومتنا تبذل أقصى جهدها في اتخاذ أسباب الراحة للحجاج وتأمين مصالحهم ونشر الجنود في جميع مواضع الحجاج حتى لا يتعدى أحد عليهم بسرقة أو خصام، ومراكز الشرطة مفتوحة ليل نهار. إن مواسم الحج وخدمة الحجاج أمر واسع لا يكفي وصفه في هذه الأسطر القليلة، إن مواسم الحج في كل عام وسهر الناس والوقوف على راحة الحجاج ليس بالأمر الهيّن ومواسم الحج ليست كمواسم السياحات في الأقطار إن السواح في الأقطار لا يحتاجون إلا على كثرة الفنادق والأوتيلات والمرشدون إلى أماكن الزيارة والآثار ومن نسي شيئاً من ذلك فلا حرج عليه بخلاف مواسم الحج وأعماله وأشغال الحجاج ومصالحه الدينية والدنيوية مع العلم بأن عدد السواح بضعة آلاف سائح أما عدد الحجاج في الحرمين الشريفين في كل عام فآلاف مؤلفة ولا نبالغ إن قلنا أن عدد الواقفين بعرفات يبلغ نصف مليون من المسلمين الذين هم على دين واحد وهو دين الإسلام الحنيف وقد يزيدون أحياناً على هذا العدد. ولولا لطف الله تعالى ورحمته وخيراته وإحسانه لما كفاهم الخبز والماء ففضل الله تعالى ورحمته واسع عظيم

يشمل أهل الحرمين والحجاج وكافة عباده في جميع أقطار الأرض. إن حالة الحج والحجاج ليعجز القلم عن وصفه ولا يمكن أن يعرفها إلا من شاهدها بعيني رأسه (وما راء كمن سمعا) فسبحان الكبير المتعال الذي يدبر شؤون خلقه في السموات والأرضٍ لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

• ومن عاداتهم أنهم ما كانوا يعرفون الدروس الخصوصية في البيوت قط، فالتعليم كله يكون في المدارس، فالأساتذة ما كانوا يذهبون إلى بيوت تلاميذهم قط لا بالأجرة ولا مجاناً. غاية الأمر أن الأستاذ إذا رأى من تلاميذه قصوراً في بعض الدروس خصص لجميعهم وقتاً في نفس المدرسة إما قبل موعد الدراسة في الصباح أو بعد العصر وأحياناً في النادر يعلمهم ما يحتاجون بعد المغرب في المسجد الحرام مجاناً لله تعالى من غير أن يتقاضى على ذلك أجراً فقد كان رائدهم الإخلاص في جميع أمورهم، ولذلك كان التعليم في السابق فيه بركة وكان الخير في الأساتذة والطلبة معاً.

وما عرفت البلاد الدروس الخصوصية إلا من بعد سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية وما زالت الدروس الخصوصية تكثر تدريجياً حتى انتشرت اليوم في جميع البلاد فيأتي وليّ الطالب بأستاذ لولده يعلّمه في البيت إما بعد العصر أو بعد المغرب بأجر معيّن.

• ومن عاداتهم أنهم ما كانوا يتركون أولادهم يخرجون إلى الأسواق والشوارع بعد المغرب بل حتى الكبار من الرجال والنساء ما كانوا يخرجون من بيوتهم بعد المغرب إلا إلى المسجد الحرام أو لأمر ضروري وذلك اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ حيث يقول: «إذا كان جنح الليل فكفّوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ فإذا ذهب ساعة من الليل فخلّوهم وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً وأوكوا قِرَبكم واذكروا اسم الله وخمّروا آنيتكم واذكروا اسم الله ولو أن تعرضوا عليه شيئاً وأطفئوا مصابيحكم».

إن الأولاد بمكة المشرفة ما تعوّدوا في الأزمان السابقة على الخروج من بيوتهم ليلاً، غاية الأمر أنهم يعودون إلى بيوتهم مع آبائهم بعد صلاة العشاء في المسجد الحرام، وأصحاب الدكاكين كانوا يقفلون دكاكينهم في المغرب أو بعد صلاة العشاء على الأكثر، ولا توجد في الأسواق ليلاً إلا دكاكين بيع الخبز والأطعمة خصوصاً وأن الشوارع والأسواق كانت مظلمة ليس فيها سوى ضوء القمر

والنجوم في العصور الأولى، ثم وضعت فيها الفوانيس التي بداخلها اللمبات التي تنار بالكاز ثم استبدلت هذه الفوانيس بالأتاريك ثم صارت اليوم تنار جميع الشوارع والأسواق والأزقة والبيوت بالأنوار الكهربائية حتى صار الليل كالنهار .

• ومن عاداتهم أن الإعلانات المهمة الحكومية الصادرة للجمهور كانت تذاع وتنشر بمكة المكرمة بواسطة النداء فيمشي المنادي في الشوارع والأسواق وقد يكون راكباً على الحمار فينادي بأعلى صوته في الناس ويبلغهم ما صدر من الأوامر الرسمية، وأحياناً تكون بيده ورقة مكتوبة فيقرأها عليهم. وكذلك كانت الحال في جدة وكان ينادي المنادي بها حتى على سفر البواخر فيها ومرورها على بعض البلدان، ويسمون الباخرة بالبابور فكان المنادي في جدة يقول بأعلى صوته في الأسواق والمجمعات: بابور يسافر إلى أسمرة ومصوع وعدن والحديدة والهند... إلى آخر الإعلان، وكان هذا الحال متبعاً إلى سنة (١٣٤٥) هجرية.

ثم لما كثرت الجرائد في البلاد وانتشر وجود الراديو بها بطلت تلك العادة القديمة حيث أن الأوامر الرسمية والمسائل المهمة تنشر في الجرائد والمجلات وتذاع بواسطة الإذاعة فيعلم جميع الناس في كل مكان. فكل حالة لا بد لها من زوال.

الألعاب التي كانت شائعة لدى الأطفال بمكة

الألعاب التي كانت شائعة عندنا بمكة لدى الأطفال من قبل سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية، أي من قبل العهد السعودي هي كما يأتي:

١) لعبة الطيارات، وكانوا يعملونها من الورق وعود البُمْب الجاوي. ولهم في صنعتها مهارة فائقة فإنها إذ اختلف عملها و لم يكن ميزان خيطها مضبوطاً لم ترتفع في الهواء وكانوا يربطونها بخيط قوي طويل جداً لترتفع إلى أبعد حد في الهواء وبعضهم يدق القزاز ناعماً ثم يخلطه بالغراء ويمسحون بهذا الخليط خيط الطائرة وبعد أن ييبس وينشف على الخيط يلفونه في علبة فارغة كعلبة الأنناس ثم يربطون الطائرة بهذا الخيط ويطلقونها في الهواء حتى إذا وقعت طائرة أخرى في الهواء أطلقوا لها هذا الخيط المقزّز لتحزّ خيط الطائرات الأخرى، فكانوا يلعبون بهذه الطائرات في بعض فصول السنة.

٢) لعبة البَرَجُونْ، بفتح أوله وثانيه وضم الجيم ويسمونها بمصر ألْبِلْ بكسر اللام، والبرجون عبارة عن كرة صغيرة أصغر من الليمونة تامة التدوير ويصنعون

هذا من الخارج من الزجاج الملون الجميل وهي إلى اليوم موجودة في جميع البلدان ولكن الأطفال عندنا كانوا يصنعون البرجون من الحجارة الجبلية الصمّاء يصنعونه بأيديهم وبعضهم يصنعونه من الحجارة الصفراء التي تسمى «بالقاحوط» وعند اللعب كانوا يحفرون ثلاث حفر صغار كل حفرة بقدر التفاحة وما بين الحفرة والأخرى نحو ثلاثة أمتار ثم يلعبون به بالكيفية التي يعرفونها.

٣) ومن عاداتهم أن أطفالهم وأولادهم كانوا يلعبون الكبوش بضم الكاف والباء الموحدة، وليس المراد به هو الحيوان المعروف وإنما الكبش في متعارف الأولاد عندنا هو عظمة صغيرة بمقدار اثنين سنتي وهو يكون في عرقوب كل حيوان كالأغنام بمثابة المفصل فعند ذبحها يأخذون من أرجلها الكبوش ثم تنظيفها مما لصق بها من اللحم أو الدهن ثم يحكّون سطحيها على الحجر حتى يكون الكبش ناعماً ظريفاً وبعضهم يصبغونها بالألوان لجمال منظرها ثم يجتمعون على اللعب بها في أرض ترابية وذلك بأن يجعلوا كل كبش بجانب كبش حتى يكون عدد الكبوش نحو عشرين أو ثلاثين أو أقل وكلها في صف واحد مستقيم ثم يحيطون هذا الصف من الكبوش بدائرة على التراب ويكون اللاعبون اثنين أو ثلاثة أو أكثر فيلعبون بالترتيب واحد بعد واحد وذلك بأن يبتعدوا عن الدائرة بنحو ثلاثة أمتار أو أربعة ويكون كل واحد منهم ممسكاً في يده بكبش آخر ثقيل نظيف فيضرب به من البعد تلك الكبوش فإذا أصابها وخرج كبش منها عن الدائرة أخذها وما يزال يضربها وكلما خرج منها كبش عن الدائرة أخذها فإذا ضربها و لم يصب شيئاً منها أو أصابها و لم يخرج كبش منها عن الدائرة تنحّى عن اللعب وأتى لاعب آخر يلعب مثله حتى تنتهي بهذه الكيفية جميع الكبوش فلا يبقى شيء منها في الدائرة فعندئذٍ يستأنفون اللعب من جديد وبعضهم يضع رصاصاً في الكبش الذي في يده يلعب به حتى يكون ثقيلاً فيخرج معه الكبوش التي في داخل الدائرة سريعاً. وهذا اللعب بالكبوش قد بطل الآن فلا ذكر له وذلك من سنة (١٣٤٥) ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين هجرية تقريباً.

٤) لعبة المِدْوَانْ، بكسر أوله وسكون ثانيه وهي نوعان: «النوع الأول» وهو مخروطي الشكل يضعون في رأسه المحدد مسماراً ثم يلفون على قعره الغليظ خيطاً متيناً إلى نحو ثلثيه ثم يرمونه على الأرض ويجرون الخيط عند رميه

بكيفية خاصة بحيث يدور المدوان على نفسه دوراناً قوياً منظماً على رأس المسمار المذكور. «والنوع الثاني» هو المدوان المتخذ من نَوَى تمر الدوم وهي تكون في حجم الليمون وباطن هذا النّوى أبيض كباطن النارجين إلا أنه قوي جداً. كانوا يثقبون هذا النوى من طرفيه الأعلى والأسفل فيدخلون في هذا الثقب عوداً قوياً حتى يخرج رأسه من الثقب الآخر فيدور المدوان على هذا الرأس ثم يثقبون من عرضه ثقبين متقابلين ثم يلفون خيطاً على العود الثابت فيه ثم يرمونه في الأرض ويجرون الخيط بكيفية خاصة فيدور المدوان على رأس العمود الثابت فيه ويخرج منه صوت مدة دورانه لتخلل الهواء في باطنه من الثقبين الموجودين في جانبيه.

٥) لعبة السُّقيطة، بضم السين المهملة وتشديد القاف وكسرها وبعضهم يبدل السين بالزاي، وهي لعبة مكوّنة من خمسة أحجار صغار كأحجار حصى الجمار فترمى أمام اللاعب ثم يلقطها واحدة فواحدة بكيفية خاصة حتى يلقط جميع الحصى.

٦) لعبة الطُّرَّة، بضم الطاء وتشديد الراء المهملة وهي عبارة أن يضع أحد عمامته من رأسه ثم يمسكها من وسطها ثم يلف طرفيها ببعضها ويربطها ثم يقعد بضعة أشخاص من ثلاثة فأكثر ثم يأتون بريال ونصف ريال وكان سابقاً يكتب على أحد وجهيه اسم السلطان بخط الطُّرَّة وعلى الوجه الآخر ضرب في القسطنطينية سنة كذا أو يأتون بكبش من الكبوش السالف الذكر فيرمون الريال أو الكبش أمامهم فإذا ظهرت الطُّرَّة ضربوا الذي عليه الدور بضع ضربات بالطُّرَّة التي عملوها من عمامتهم، ولهذه اللعبة كيفية مخصوصة نسيناها اليوم.

٧) لعبة الكَبَتْ، بفتح أوله وثانيه وهي لعبة يشترك فيها بضعة أشخاص وينقسمون إلى طائفتين ويكونان متقابلين بينهما نحو عشرة أمتار ويخطون في وسط الفضاء بينهم خطاً في التراب إشارة إلى أن هذا الخط هو الحدّ الفاصل بينهما. فيخرج واحد من إحدى الطائفتين إلى الطائفة الأخرى ويمد يده إليهم باحتراس فإذا لمس أحدهم وهرب و لم يمسكوه فتعتبر طائفته هي الغالبة وإن أمسكوه فتعتبر طائفته هي المغلوبة.

٨) لعبة الكورة وهي لعبة خاصة غير لعبتها الشائعة اليوم فإنهم كانوا يلعبونها بأيديهم عدة أدوار وكانوا يسمون كل دور باسم خاص، وهذه اللعبة تتكون

أيضاً من عدة أشخاص وينقسمون إلى طائفتين أيضاً ولهم في لعبتها كيفية خاصة. وانظر إلى كتاب الفاكهي حيث ذكر هذه اللعبة وأنها من العصور الأولى في الإسلام.

٩) لعبة المزمار، بضم الميم وسكون الزاي وهي لعبة خاصة برجال أهل الحارة وهذه اللعبة يتخذونها في أيام الأعياد والأفراح الخاصة والعامة. وكان أهل كل حارة يقيمون لعبة المزمار في حارتهم في مكان فسيح، ولا بد في اللعبة من إيقاد النار وضرب الطبول ورقص الرجال حول النار بكيفية خاصة ليس فيه رقص خليع ولا ميوعة ولا بد كل واحد من رجال الحارة أن يمسك بيده عصاً غليظة يرقص بها ويمشي بها ويسمونها «بالشون» بضم الشين، ولا بد أن يتحزّم كل واحد منهم بحزام من الأحاريم في وسطه، وقد تقدم قريباً ذكر المزمار[٢].

١٠) الهوشة، بضم الهاء الممدودة وفتح الشين المعجمة وهي ليست لعبة وإنما هي تشبه المحاربة بين طائفتين فإذا أراد أهل حارة التحرش بأهل حارة أخرى ومعاكستهم ومعاندتهم ذهبوا إلى حارتهم ورموهم بالحجارة فيخرج إليهم أهل تلك الحارة ويهجمون عليهم برميهم بالحجارة وأهل كلتا الحارتين بأيديهم العصا الغليظة التي يسمونها «الشوم» فيترامون بالحجارة حتى تغلب إحدى الطائفتين، وقد تقدم ذكر الهوشات قريباً.
وهذه ليست لعبة وإنما ألحقناها بها ذكراً لعادة أهل مكة. وقد بطلت هذه العادة المستهجنة القبيحة و لله الحمد كما بطلت جميع الألعاب المذكورة. وقد ظهرت منذ سنوات في مكة وغيرها لعبة الكورة بكيفية مخترعة وقد انتهى الناس بها وبألعاب أخرى من ركوب البسكليتات التي كانت تسمى سابقاً بحمار الشيطان كما التهوا بسماع الأغاني الخليعة من الإذاعات وبأمور أخرى لا داعي لذكرها وبيانها والله الهادي إلى سواء السبيل.

١١) المصتكى والكِجلْ. كان الأطفال في الزمن السابق يتسلّون كثيراً بهذه اللعبة اللطيفة النظيفة، فالمصتكى معروف لدى جميع الناس تستعمل بخوراً وتستعمل مضغاً كاللبان، وأما الكِجلْ بكسر أوله وثانيه فهي مادة بنية اللون تشبه جلدة اللستك أو مسّاحة قلم الرصاص ولا ندري هل هي مادة تطبخ

(٢) وهذه اللعبة من اللعب الممنوعة شرعاً لأنها لعبة تدور حول النار وهي من ألعاب الجاهلية والأحباش فلاحظ ذلك وتجنبها أيها المسلم.

بالأدوية أم هي مادة تستخرج من بعض الحيوانات وهـذه المادة يأتي الطفل فيأخذ من المصتكى مقداراً بحسب رغبته فيمضغه ثم يأخذ مقداراً صغيراً جدا كحبة العدس من الكِحِلْ فيمضغه مع المصتكى مضغاً جيداً حتى يختلط بها ثم يأخذ هذه اللبانة بيد فيمدها ويسطحها ويجعلها بقدر الريال الفضة ثم يطويها قليلاً ويضع طرف لسانه بينها ثم ينزل أسنانه عليها من فوق ومن أسفل فتكون اللبانة بين أسنانه وبين لسانه ثم ينفخ في اللبانة قليلاً قليلا ويمطها بيده فتنتفخ هذه اللبانة بقدر البطيخة الصغيرة ثم تنخرق فتنفقع ثم يمضغها ثانياً ثم ينفخها مرة أخرى. وهكذا يتسلى بنفخها ومضغها حتى تطيب نفسه.

هذه اللعبة كانت تسلية عامة للأطفال يعرفها المعمّرون ثم بطلت هذه اللعبة من قبل سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين من الهجرة لعدم ورود هذه المادة إلى الحجاز، ومن تلك السنة لم نجد أحداً يستعملها أبداً. وأما المصتكى فهي موجودة في جميع البلدان.

وهنا وقف بنا جواد القلم فلم يَجْرِ خطوة ثانية عما كتبه من عادات أهل مكة رعاهم الله تعالى باللطف والإكرام والله تعالى أعلم بما كان من عاداتهم في سالف الأعوام وما سيكون منها في مستقبل الأيام، نسأل الله تعالى أن يكثر عليهم الخيرات والبركات وأن يوفقهم للأعمال الصالحات وأن يسترهم في الدارين ويحفظهم من الآفات ويديم عليهم الأمن والأمان والطمأنينة والرخاء بفضله ورحمته إنه سميع مجيب الدعوات وإنه بعباده لطيف خبير.

عادات الجاهلية

• ومن عادات أهل الجاهلية وأد البنات: قال الله تعالى في سورة التكوير: ﴿إذا الشمس كوّرت ۞ وإذا النجوم انكدرت ۞ وإذا الجبال سيّرت ۞ وإذا العشار عطلت ۞ وإذا الوحوش حشرت ۞ وإذا البحار سجّرت ۞ وإذا النفوس زوّجت ۞ وإذا الموؤودة سئلت ۞ بأي ذنب قتلت﴾.

فوأد البنات كان من عادة بعض بطون العرب في الجاهلية، فكانت العرب تئد البنات مخافة لحوق العار بهم من أجلهن، ومعنى الوأد دفن البنت حية. فكان الرجل منهم إذا أراد قتل ابنته تركها حتى إذا كانت سداسية يقول لأمها: طيبيها

وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض...

فوأد البنات جناية عظيمة فلما جاء الإسلام حرّم ذلك كما حرّم قتل الأولاد خشية الإملاق. فتركت هذه العادة السيئة الوحشية و لله الحمد.

• ومن عادات أهل الجاهلية: أن المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً «وهو البيت الصغير» ولبست شر ثيابها و لم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به «أي تمسح به جلدها» ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعدما شاءت من طيب أو غيره. هكذا قالت زينب بنت أبي سلمة.

وإلى هذه العادة يصرح رسول الله ﷺ كما في الصحيحين حين استأذنوه في كحل امرأة توفي زوجها فخافوا على عينها بقوله:

«لا تكتحل، قد كانت إحداكن تمكث في شر أحلاسها أو شر بيتها فإذا كان حول فمرّ كلب رمت ببعرة فلا حتى تمضي أربعة أشهر وعشر».

فكانت المرأة ترمي البعرة إلى الكلب بعد مرور حول على وفاة زوجها إشارة إلى انتهاء عدتها لوفاة زوجها، وأما في الشريعة المحمدية فالعدة أربعة أشهر وعشر ليال.

• ومن عادات الجاهلية ما ذكره البخاري في صحيحه في كتاب التفسير في سورة البقرة: عن أبي إسحاق عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره. فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾. انتهى.

نذكر هنا قليلاً من بعض أحوال العرب وعاداتهم وما يمتازون به ويتلخص فيما يأتي:

١) كان العرب يتاجرون وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون في بعضها في مواسم الحج يحضرون إليها من كل الأطراف، حتى كان النعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة، وهي بلدة غرب الفرات يرسل تجارته كل عام إلى سوق عكاظ

لتباع له. وكانت لقريش رحلتان تجاريتان رحلة الشتاء إلى جهة اليمن ورحلة الصيف إلى جهة الشام وكانوا يتعاملون بنقود الفرس والروم.

٢) كان العرب على بساطة عيشهم يكرمون الضيف إكراماً زائداً بدون تكلف ما أقام لديهم وقد تستقبل المرأة الضيف وتقدم له ما لديها من أطيب الطعام وزوجها غائب، فإكرام الضيف عادة طبيعية فيهم ويندر فيهم الرجل البخيل ولبعض الكرماء الممتازين منهم نوادر وحكايات تستحق أن تكتب بماء الذهب.

٣) كان العرب يمتازون عن الأجناس الأخرى بمكارم الأخلاق والصفات النبيلة والغيرة العجيبة والشهامة والبسالة. وكانوا يعرفون حرمة مكة والبيت الحرام ومكة المشرفة كما كانوا يحترمون الأشهر الحرم ومن ذلك كانوا ينصرون المظلوم بمكة ويأخذون حقه من الظالم.

وواقعة حلف الفضول شهيرة في التاريخ وذلك أنه عندما رجعت قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان أحد رؤساء قريش ، تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته، ولقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه قبل بعثته لأن هذا الحلف مما يقرّه الإسلام ويدعو إليه. وهذا هو التعاون على البر وفي هذا الحلف يقول النبي ﷺ بعد أن بعثه الله إلى الناس كافة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» .

فانظر رحمك الله هذا قريش يجتمعون في الجاهلية فيتعاقدون أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غير أهلها من سائر الناس إلا نصروه وقاموا معه حتى ترد إليه مظلمته، ونحن الآن ندّعي الإسلام ونتلوا كتاب الله ونحفظ أحاديث رسول الله ثم نرى الرجل يحيق به الظلم والمهانة ويغمط حقه جهاراً نهاراً فلا يقوم أحد منا لنصرته ولا للأخذ بيده فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٤) وكانت للعرب نخوة وشهامة ومروءة واعتزاز ولسان صدق ووفاء بالوعد وسماحة وإغضاء ولا يرضى أحد منهم بالظلم والضيم، فإن كان قوياً أخذ حقه بنفسه وإن كان ضعيفاً رحل من مكانه إلى جهة أخرى فأرض الله واسعة فضاها، وفي هذا المعنى يقول بعض أهل الجاهلية وهو الشَّنْفَرى في أول قصيدته التي تسمى « بلامية العرب » .

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

فقد حمّت الحاجات والليل مقمر ... وشدّت لطيات المطايا وأرحُلُ

وفي الأرض منآى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلى متحولُ...إلخ

والعربي يعتز بحماية جاره ومن ينتمي إليه وفي هذا يقول السموأل الذي كان في عصر الجاهلية:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

٥) وكانت العرب تحرم زواج البنت والأخت والعمة والخالة وكانوا يحبون أولادهم ويعاملونهم بكثير من الشفقة والحنان، قيل لأعرابي أي أولادك أحب إليك؟ فقال: صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يصح وغائبهم حتى يقدم. وقال بعضهم في إشفاقه على ولده:

لا تعجبني يامى من سوادي ... ومن قميص هم بانقداد

كلفني تعسف البلاد ... وقلة النوم على الوساد

مخافة الفقر على أولاد

وقال أبو تمام بن أوس الطائي:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

٦) وكان بعض العرب عنده عدة زوجات وكان الطلاق بيد الرجل وإذا كانت المرأة تمتاز بشرف قومها اشترطت حين الزواج أن يكون الطلاق بيدها.

وكانت المرأة عند العربي محترمة مكرمة ويلقبها بخير الألقاب، وانظر إلى قول بعضهم وهو يخاطب زوجته:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ... ضمي إليك رحال القوم والقربا

ويخطئ من يقول: أن العرب كانوا يعاملون نساءهم بالإهانة والغلظة وينظرون إليهن نظرة حقارة واستخفاف فإن من يقرأ التاريخ يعرف مكانة النساء عند العرب ويعرف ما كان لهن من الخدمات الإنسانية والشهامة القومية وهي إذا شاءت أشعلت الحرب بين الأحياء بكلمة تخرج من فيها وإذا أرادت السلام وإطفاء الفتنة تكفي الإشارة بطرف بنانها.

٧) كانت العادة عند العرب أن لا يزوجوا بناتهم إلا بعد أن يستشيروهن ويرضخوا لإرادتهن لأن ذلك أجبر لقلوبهم وأحرى بدوام العشرة مع أزواجهن فإن إجبارهن على الزواج بدون رغبتهن مما ينفرهن عن الزوج فيكرهن حتى أهله وأهلها. وليس ذلك من الحكمة في شيء.

وما أحلى الحكاية الآتية التي ننقلها من كتاب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للخضري رحمه الله تعالى وهي:

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان في أبان الحرب بين عبس وذبيان: أتراني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم، أوس بن حارثة بن لأم الطائي. قال الحارث لغلامه: هيء لي مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة حتى أتيا أوساً فوجداه في داره، فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه فقال: جئتك خاطباً، فقال أوس: لست هناك. فانصرف و لم يكلّمه.

ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت: من رجل وقف عليك فلم تطل و لم تكلّمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف، قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تزوّج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك فالحق وقل له: إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندي كل ما أحببت. فإنه سيفعل.

ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه: ادعي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال: يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه. فقالت: لا تفعل لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ما فيه. قال: قومي بارك الله فيك. ثم دعى الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خرقاء وليس بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ما تعلم. ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت: أنت وذاك. فأخبرها بإباء أختها فقالت: لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير.

فزوجها الحارث وهيئت إليه في بيت أبيها، فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت له: أعند أبي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت: أكما يفعل بالأمة الجلبية أو السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها، فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها؟ أخرج إلى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك، فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات، وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين. انتهى من محاضرات الخضري.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكاية الطريفة نظر تدقيق وإمعان فإنه يستنتج منها أمور كثيرة سواء من ناحية الزوج أو الزوجة أو أبيها أو أمها، ونحن هنا لا نريد ذكر ذلك حتى لا يطول بنا المقام. والله الهادي إلى سواء الطريق.

تغير الأحوال المعنوية في الحجاز

لقد كانت الأحوال المعنوية في الحرمين الشريفين طيبة جداً وعلى غاية من الاستقامة وحسن السيرة، ولنضرب لذلك الأمثال الآتية:

أولاً: لقد كان الناس على ديانة واستقامة تامتين وكان يعرف ذلك من سيماء وجوههم وحسن سمتهم وجميل هيأتهم وكانوا يكثرون من الصلوات المفروضات والمسنونات ومثل ذلك أداء الزكاة وصيام رمضان، وكان لهم في قيام لياليها بصلاة التراويح بالمسجد الحرام نظام خاص وحالة جميلة مشرفة.

وثانياً: لقد كانت أنفسهم زكية طيبة مشبعة بحب الخير وأفعال البر والحسنات وكان كل واحد منهم في الغالب يمسك في يده مسبحة يسبح الله تعالى بها ويهلله ويستغفره، وكانوا على الدوام يكثرون من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وكانوا يحفظون كثيراً من القصائد والأشعار النافعة والتي ترغب في أعمال البر والخير وتنهى عن الشر والفساد.

وثالثاً: كانوا أهل شهامة ومروءة وكرم وشجاعة فكانوا يسارعون في مساعدة بعضهم بشتى الوسائل ويسألون عن من غاب من أصحابهم وأصدقائهم ويعودون مرضاهم وينفسون عن مكروبهم.

ورابعاً: وكانوا يقيمون الموائد والولائم ممن كان ميسور الحال فيقيمون في الشهر الواحد في كل حارة وفي كل محلة أكثر من عشرين وليمة يدعون فيها أصحابهم وجيرانهم وأقاربهم والفقراء من الناس، يقدّمون لهم الطعام المألوف لديهم وهو الرز المطبوخ باللحم مع بعض ما يتبعه من الصحون المشهّية ويختمون طعامهم بالشاهي الأحمر والشاهي الأخضر وبعضهم يضع في الشاي الأخضر شيئاً من النعناع لتكون رائحته عطرية، وبمثل هذه الدعوات والولائم ينتفع الفقراء والمساكين ويجدون في معيشتهم بعض المعونات.

خامساً: لقد كان يحصل في كلٍ من الحرمين الشريفين مساعدات مالية وصدقات عامة منها ما يكون سنوياً ومنها ما يكون شهرياً، فكان لبعضهم مرتبات شهرية تأتيهم من جهات الهند وأطراف البلدان الإسلامية تصرف إليهم بواسطة وكلائهم من التجار وغيرهم، وأحياناً تصرف إليهم بعض الغلال من الحبوب كالأرز والعلس والحنطة ونحوها.

وسادساً: لقد كان في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة بعض التكايا كالتكية المصرية فيهما فكانت التكية المصرية بمكة والتكية المصرية بالمدينة تصرف لبعض أهل الحرمين رواتب شهرية وسنوية تأتيهم من الأوقاف المصرية فتصرف لبعضهم خمسة جنيهات مصرية ولبعضهم عشرة جنيهات مصرية وقد يكون لبعضهم أكثر ولبعضهم أقل وكانت كل تكية منهما في مكة والمدينة تفرق صباح كل يوم من بعد صلاة الفجر إلى بعد الشروق شوربة الرز المطبوخة باللحم وفي كل خميس يطبخون الأرز باللحم فقط ويفرقون أيضاً مع هذا لكل واحد عدداً من الأرغفة فبعضهم يأخذ رغيفين وبعضهم أربعة وبعضهم عشرة ببطاقات خاصة ونظام دقيق كل واحد بحسب فقره وعدد عياله. ومن الحسنات الممدوحة في التكية المصرية في موسم الحج أن كثيراً من أغنياء الحجاج وأعيانهم يدفعون صدقاتهم وذبائحهم من الفدية وغيرها إلى التكية المصرية لتفرقها على الفقراء والمحتاجين لمعرفتها.

وسابعاً: لقد كانت لهم عادات حسنة وأخلاق كريمة، الصغير منهم يوقر الكبير والكبير منهم يرحم الصغير والمخطئ المذنب يردونه ويردعونه والعالم والصالح منهم يحترمون ويعظمون، عادتهم ودينهم الإصلاح والمبادرة إلى فعل الخيرات.

وثامناً: ومما كانوا يمتازون به حقاً المبادرة إلى طلب العلم، فالمسجد الحرام يشهد لهم بحلقات الدروس في جميع الأوقات من ليل أو نهار والمدارس ممتلئة بأبنائهم يشتغلون بالعلوم الدينية أولاً ثم بالعلوم الحديثة خصوصاً بتجويد القرآن الكريم وحفظه وتلاوته، وكان التعليم في جميع أنواع العلوم قوياً متيناً خالصاً مخلصاً لا ضعف فيه ولا تهاون وكم برع من أبناء هذه البلاد المقدسة في العلوم والفنون من غير ابتعاث إلى الخارج وكم وجدنا من المحسنين والأغنياء والفضلاء من يساعدون طلاب العلم ويقدّمون لهم المعونات الفعالة. ويشهد لكل ذلك من بقي من أهل جيلنا القديم.

وتاسعاً: إن أهل هذه البلدة الطاهرة كانوا جميعاً كأنهم أسرة واحدة فإذا رأى أحدهم ابن جاره أو ابن صاحبه وقد فعل خطأً أو مشى في السوق بغير أدب خاصمه وغضب عليه كما يغضب على ابنه من صلبه والولد يخجل من نفسه ويغض نظره طاعة وحياءً.

وعاشراً: كانت المعاملات بينهم في غاية من الأمانة والوفاء وإن لم يكن بينهم شهود ولا سندات وكان بعضهم من أهل الدكاكين يدفع بعض الزبائن إلى جيرانه في الصباح الباكر ليشتري منهم ويقول لهم أنني قد بعت واستفتحت أما جاري فلان فإنه لم يستفتح فاذهبوا إليه لتستفتحوا لبعضكم خيراً إلى غير ذلك من الأمور المستحسنة الشريفة وهذا بالنسبة للغالب أما النادر الشاذ منهم فلا عبرة به.

هكذا كانت أحوال أهل الحرمين والمدن القريبة منهم إلى سنة (١٣٥٥) ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية تقريباً ثم اختلف أحوالهم ورجعوا القهقرا من بعد هذه السنة المذكورة تدريجياً شيئاً فشيئاً وتطوروا تطوراً عظيماً وصاروا يقلدون الأجانب بسرعة فائقة وتحرروا من العادات القومية الطيبة وتهاونوا بأمور الدين والسبب في ذلك والله تعالى أعلم إقبال الدنيا عليهم إقبالاً عظيماً فكثرت أسفارهم إلى الخارج وكثر اختلاطهم بالأجانب وهاجر إليهم كثير من مختلف الأجناس وأقاموا بينهم وعاشروهم، نعم هناك بعضهم محافظون على ديانتهم وأخلاقهم وعاداتهم الشريفة ولكنهم قليلون.

فإذا تغيرت عاداتنا وأحوالنا ونحن أهل الحرمين الشريفين فإن البلاد الإسلامية الأخرى قد تغيرت أحوالهم وعاداتهم تغيراً عظيماً شنيعاً بل لقد تغيرت الدنيا كلها في هذا الزمن العجيب. وهذا مصداق قوله ﷺ: «ما من عام إلا ينقص الخير فيه

ويزيد الشر» رواه الطبراني، ولا شك أن كل ذلك من علامات اقتراب الساعة، نسأل الله تعالى السلامة والعافية من الفتن ما ظهر منها وما بطن كما نسأله أن يعاملنا بفضله ورحمته وإحسانه ومنته إنه حليم كريم رب العرش العظيم.

جو مكة وهوائها

لا نبالغ إن قلنا أن جو مكة حار في أغلب أيام السنة وأن هواءها يتقلب ويتغير في كل ساعة، إن الفصول الأربعة من الصيف والشتاء والخريف والربيع، لا تظهر في وقتها سريعاً، كما تظهر في جميع البلدان، بل إن الغالب في مكة المشرفة أن جوها حار في أغلب أيام السنة، وفي فصل الصيف تشتد فيها الحرارة، وفي أيام خاصة يكثر فيها السموم، والسموم حار لافح وأيامه أشد الأيام حرارة، وأفضل وسيلة لتخفيف حرارة السموم ألا يتعرض الإنسان للهواء بل عليه أن يقفل الشبابيك والأبواب، ومن عجيب الأمر أن الماء ليبرد في السموم في الأزيار والقلل والقرب والزمزميات التي من القماش أشد البرودة. فحرارة مكة قديمة منذ خلقها الله تعالى، فلقد روى الإمام الأزرقي، رحمه الله تعالى ورضي عنه، في تاريخه عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال: شكا إسماعيل عليه الصلاة والسلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى الله تعالى أني أفتح لك باباً من الجنة في الحِجْر يجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة وفي ذلك الموضع توفي. قال خالد: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحِجْر الغربي فيه قبره. انتهى منه.

إن الهواء بمكة حار لا يقاس عليه، وهو مع ذلك صحي إلى أقصى حد، فالأمراض بها في وقت الصيف تقل، كأن الحرارة تقتل المكروبات، ومن عجيب الأمر أن أهل جدة، وهم على ساحل البحر الأحمر، ينفرون من حر مكة ومن سمومها أشد النفور، لأن جو جدة وهواءها في الصيف رطب مُنَدًّى، كما أن أهل مكة ينفرون من رطوبة جدة ونداها الذي يكثر في فصل الصيف فيها.

إن الهواء بمكة ليس له نظام ولا ترتيب إنه ليتغير في اليوم أكثر من خمس عشرة مرة، يظهر ذلك للمتأمل المترقب. وفي كل مرة يكون الهواء غير سابقه، وهذا في الحقيقة من عظيم رحمة الله تعالى بأهل بلده الأمين، فأحياناً يتغير الهواء في الصيف من الحرارة إلى نوع من البرودة، تستروح النفس بذلك، بل إن الهواء يكون بارداً لطيفاً في بعض ليالي الصيف، بحيث يتغطى الناس عند النوم، وقد يكون الهواء في

أيام الشتاء حاراً لطيفاً بحيث يخلع الناس ثيابهم الثقيلة. هذا هو جو مكة وهذا هواؤها، وفيه كثير من الألطاف الربانية.

إن كثيراً من الناس يظنون أنه لا يوجد بلد حار كحرارة مكة، وهذا ظن في غير محله، فإنه يوجد كثير من البلدان أشد حرارة من مكة، شرفها الله تعالى، كبعض البلدان من الصعيد بمصر، وكبعض البلدان في العراق، بل في نفس بغداد يوجد من الحرارة ما لا يطاق. ولقد أخبرنا بعض المسافرين أنه يوجد في الصين بعض الأماكن لا تطاق حرارتها، حتى أن أهلها ليسكنون في أيام الصيف في المغارات والكهوف وإنهم يقطرون من العرق من شدة الحرارة، فنحن إذا قسنا حرارة مكة المشرفة بحرارة بعض البلدان الأخرى نجد أن حرارتها معتدلة صحية، ولولا أن الله تبارك وتعالى جعل بلده الأمين وادياً غير ذي زرع، يكتنفها الجبال من جميع الجهات، وجعل أرضها جبلية صخرية لا يتخللها الأنهار والمياه، لكانت مكة المكرمة أجمل البلدان منظراً وأحسنها زروعاً وثماراً وهواءً، ومع ذلك والله إنها لأجمل البلدان منظراً مع وجود صخورها وجبالها وأكثر البلدان خيراً ونعماً، مع أنها في واد غير ذي زرع، وأنها أيضاً لأبرك البلدان وأشرف البلدان بوجود بيت الله الحرام. إن أهلها أينما ذهبوا وأينما أقاموا ليحنون إليها حنين الوالدة إلى ولدها، وإن كل مؤمن ليعترف بهذا الكلام ويؤمن به. نسأل الله تعالى أن يزيد بلده الأمين أمناً وأماناً وخيراً ورخاءً وأن يوفق أهلها لصالح الأعمال، إنه بعباده لطيف خبير.

فجو مكة، حرسها الله تعالى، وزادها أمناً وأماناً وخيراً ورخاءً، جاف كثير الحرارة، وقد تزداد درجتها في بعض أيام الصيف حتى يكون الإنسان يتصبب عرقاً، وأشدها على الإنسان أيام السموم في الصيف، لكن من فوائد السموم أنه يبرد الماء في الأزيار والشراب «القلل» والقرب، حتى في أيام السموم المياه باردة كالثلج ليلاً ونهاراً.

والهواء الحار مفيد، فإنه ينضج بعض الثمار كالرطب، ومن يمعن النظر في حرارة جو مكة يجدها نافعة للإنسان من الناحية الصحية، فالأمراض تقل في وقت الصيف، فكأن الحرارة تقتل كثيراً من ميكروبات الأمراض، وقد يختلف هواء مكة في اليوم الواحد مراراً عديدة.

ومن عجائب صنع الله سبحانه وتعالى أنه أحياناً يعتدل جو مكة في الصيف فيميل إلى البرودة حتى يضطر الإنسان إلى استعمال الغطاء في الليل، وأنه أحياناً يعتدل جوها في الشتاء بما يقرب إلى الحرارة المتحملة فلا يشكو الإنسان من البرد. وهذا لا شك من رحمة الله تعالى بنا حتى نجد متنفساً وراحة في الصيف والشتاء، فلا نسأم منهما، وليس كذلك في بقية بلدان العالم.

ففي جميع البلدان الصيف صيف والشتاء شتاء، بل إن الفصول الأربعة تظهر فيها بوضوح في أوقاتها المعلومة بدون أي اختلاف، بخلافها في مكة، ولقد سَأَلَنَا بعض فضلاء المصريين، حينما كنا بمصر في إحدى المرات عن البرد بمكة في الشتاء فقلنا له: «البرد بمكة هو أن لا يشعر الإنسان بالحر» ففي البلدان الأخرى يستعدون للشتاء بكثير من الثياب الصوف والفرش الغليظة والتدفئة بالحطب والفحم أو بالوسائل الكهربائية، وأما في مكة فالإستعداد للشتاء لا يكاد يذكر بالنسبة للبلدان الأخرى. ومن عجيب ما لاحظناه على الأجنبي، الذي يأتي من بلاده بقصد المجاورة والإقامة بها، هو أنه إذا مرت عليه سنة أو سنتان فإن جسمه ودمه يتلطف وينطبع بشكل غير الشكل الذي حضر عليه من بلاده، والظاهر أن ذلك من تأثير هواء مكة ومائها عليه، فسبحان الذي جعل لأهل كل بلدة شكلاً خاصاً وميزة يعرفون بها.

هذا وإن حرارة الجو بمكة وإن كانت هكذا من أصل الخلقة، فهي تزداد بازدحام السكان وازدحام البيوت بعضها فوق بعض، وعدم بناياتها على ما يطابق القواعد الصحية، من كثرة الشوارع والحارات الواسعة والفتحات الكثيرة، وابتعاد المنازل والبيوت بعضها عن بعض، بما يجعل الهواء يتخللها، ولكن إن شاء الله تعالى ستكون مكة عروسة ممالك الإسلام بسبب هذه التوسعة العظيمة التي وقعت في عصرنا الحاضر، بهمة حكومتنا السنية وفقها الله تعالى.

ومن حكم الله الدقيقة: عدم نزول الثلج بمكة من السماء في وقت الشتاء، كما هو الشأن في البلدان البارحة ولقد تفكرنا في هذا الأمر فخرجنا منه بثلاث نتائج:

الأولى: أن أجسام أهل مكة ضعيفة رقيقة لا تحتمل نزول الثلج الذي يستلزم منه شدة البرد.

الثانية : لو نزل الثلج في الشتاء، كبعض البلدان، لغطى الكعبة المعظمة والمسجد الحرام، فيتعذر الطواف حولِ الكعبة كما تتعذر الصلاة في المسجد الحرام، وكما يتعذر السعي للمحرم أيضاً.

الثالثة : لو صادف وقت الحج في أيام نزول الثلج، لتعطلت مشاعر الحج وتعذر على الناس أداؤه. نعم أحياناً ينزل البردُ مع المطر، ولا تكبر حباته عن الفول وقد تصغر، ومن النادر جداً نزوله كباراً وما كان في مكة من حرارة أو برودة يكون فيما حولها. وأما مدينة جدة فهي كمكة، وقد يكون الهواء فيها ألطف من مكة بسبب البحر الأحمر، وفي هوائها رطوبة بسبب البحر أيضاً. وأما الطائف فهواؤها بارد جداً في الشتاء، وفي هوائها يبس وجفاف، وهو مصيف أهل مكة من قديم الزمان. وقد يثور بمكة في كل عام مرة أو مرتين في الصيف، هواء شديد مزعج يحملِ معه كثيراً من الأتربة والغبار، فيغبر الجو بحيث لا يرى الإنسان ما بعد عنه قليلاً، وغالباً يعقب هذا الهواء مطر يصلح الأرض ويلطف الجو فتنتعش النفوس من ذلك ومن الحكم الدقيقة أنه مهما ثار الغبار بمكة والمدينة فلا يضر الناس ذلك بخلاف غيرهما من البلدان فالناس يحترسون منه كثير الاحتراس. هذا وأما الأمطار بمكة المشرفة فنادرة الوقوع، وإن نزلت الأمطار بمكة فإنها تكون خفيفة جداً كالرشاش، وقد تمر سنتان أو ثلاثة بدون أن تنزل الأمطار فيها بوجه يذكر، وقد تنزل الأمطار بغزارة بعد بضع سنين، وإذا مضت سنوات كثيرة نحو عشرين سنة فأكثر قد ينزل فيها مطر كثير غزير ويجري فيها سيل كبير لا ينساه الناس.

هذا هو واقع الحال في جو مكة المشرفة وهوائها، وكثير من الناس يشكون من حرها ويظنون أنها لا توجد بلدة تمثلها في الحرارة، لكن بلغنا عن الفضلاء الثقات أن بعض الجهات النائية بمصر أشد حرارة من مكة كأسوان وجهات الصعيد، وكذلك أن بغداد وبعض الجهات بالعراق أشد حرارة أيضاً من مكة.

وذكرِ ابن بطوطة بصحيفة (٥) من رحلته أن حر مدينة سيوستان بالسند شديد جداً. قال: فكان أصحابي يقعدون عريانين، يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى وهكذا أبداً. انتهى كلامه. والله أعلم بما هنالك من

البلدان التي حرها أشد من مكة أضعافاً مضاعفة ، فإذا علمنا ذلك هانت علينا حرارة مكة .

ورد في الخبر أن النبي ﷺ قال: « من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائة عام » .

وجاء في تاريخ الأزرقي: أن المبارك بن حسان الأنماطي ، قال: رأيت عمر بن عبدالعزيز في الحجر فسمعته يقول: شكا إسماعيل ، عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى الله تعالى إليه أني أفتح لك باباً من الجنة في الحِجْر يجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة . وفي ذلك الموضع توفي . قال خالد: فيرون أن ذلك لموضع ما بين الميزاب إلى باب الحِجْر الغربي فيه قبره . انتهى . والروح بفتح الراء ، لنسيم وهو الريح الطيبة .

اللهم أمتنا على دين الإسلام في بلدك الأمين ، وآمنا فيه من كل فزع وخوف وجوع وظلم ومرض في الدنيا والآخرة وألحقنا بالصالحين بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

هذا وقبل أن نختم كلامنا نتقدم بثلاثة اقتراحات نافعة في تلطيف جو مكة حرسها الله تعالى:

فالأول : عدم السماح في بناء بيوت جديدة فوق الجبال ، من بعد الآن ، وأن كل بيت قديم انهدم في الجبل لا يؤذن بإصلاحه ، بل تدفع الحكومة لصاحبه تعويضاً ليبني له منزلاً على أرض مستو ، وعلى النظام الصحي . وبذلك تنمحي آثار البيوت من الجبال بعد أقل من قرن .

والثاني : طمر ما بين الجبال المحيطة بالمسجد الحرام ، بالتراب والبطحاء والحجارات الزائدة ، وزرعها بأنواع الأشجار والنباتات ، التي من شأنها تلطيف الجو والهواء ، ويمكن سقيها بصورة فنية من مياه الأمطار والسيول والآبار . وإذا أحيطت بالجبال بجدران فنية وتزرع بينها على صورة مدرجات فإنها ستكون أفضل منتزه وأحسن مجمع لأهل البلاد .

والثالث : فرش جميع الشوارع والأزقة والحارات بالإسفلت والبلاط ، فإن ذلك مما لا يجعل للتراب والغبار عندما يثور الهواء أثراً مطلقاً ، فتسلم مخازن الطعام

في الدكاكين، وأثاث الفرش والثياب في البيوت ودواليب الكتب من الأتربة التي تتلف كل ذلك وتشوه مناظرها.

هذه الاقتراحات قد يرى بعض الناس صعوبة في تنفيذها، ولكن هي أهون شيء بعد أن رأينا في هذه التوسعة التي حصلت بمكة من تكسير الصخور وإزالة الجبال والبيوت. اللهم كما أصلحت دنيانا فأصلح آخرتنا، وكما فتحت علينا كنوز الأرض وأريتنا بريق المال افتح لنا مغاليق قلوبنا واملأها إيماناً وحكمة، واشرح صدورنا واملأها نوراً وعلماً، واطلق أعضاءنا لعبادتك ووفقنا لصالح الأعمال بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين يا الله.

هذا ما كتبنا نحن عن جو مكة بلد الله الأمين. وإليك ما كتبه غيرنا عنه كصاحب «مرآة الحرمين» وصاحب «الرحلة الحجازية»، للإحاطة بكلام كل منهما أيضاً، فإن في كل كتاب فائدة، ولدى كل مؤلف كلاماً نافعاً.

قال إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى، في كتابه «مرآة الحرمين» عن جو مكة، ما نصه: جو مكة جاف وحار وتختلف درجة الحرارة في بعض الشهور عن بعض، ففي يناير تكون ١٨°، وفي فبراير ٢٠°، وفي مارس ٢٣°، وفي إبريل ٢٤°، وفي مايو ٢٧°، وفي يونيو ٢٩° وكذلك في يوليو، وفي أغسطس ٣٠° وفي سبتمبر ٢٨°، وفي أكتوبر ٢٥°، وفي نوفمبر ٢٤°، وفي ديسمبر ٢٠°، هذا هو الجو الإعتيادي وقد تصل الحرارة إلى ٣٩°. (الدائرة التي فوق الأرقام إشارة إلى لفظ درجة). والأمطار بها قليلة، وقد تنحدر إليها سيول عظيمة تحول مكة إلى بحيرات، وتأتي من الأمطار التي تنزل بالجبال المطيفة بالطائف، وقد وصفنا لك السيل الذي كان في سنة (١٣٢٥) هجرية، والرياح في مكة مختلفة المهاب، فتارة تهب من الشمال وأخرى من الغرب، وثالثة من الجنوب ورابعة من الشرق، ومنشأ ذلك أن الجبال تطيف بمكة، والهواء يعمل فيما بينها شبه دوامات الماء، فتأتي الرياح من جميع الجهات، وألطف الأهوية عندهم ما جاء من جهة البحر الأحمر، ثم من جهة الشام أما ما يهب من الشرق أو الجنوب فحار. انتهى كلامه.

وقال البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» عن جو مكة ما نصه: وجو مكة كثير الحرارة قليل الأمطار، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي تنزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف. وقد كان عمر ابن الخطاب رضي

الله عنه ، عمل في شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن هذه المدينة ، وانصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة إلى خزان كبير في الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن ، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية . ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

وأهواء مكة تختلف في هبوبها جملة مرات في الساعة الواحدة . ولهذا يقول المكيون: «إن الله خلق سبعين هواء جعل منها في مكة تسعاً وستين وفي العالم كله هواء واحد» : ذلك لأن الهواء يدور في جو المدينة بين جبالها المحدقة بها كما تدور الدوامة على سطح الماء ، فبينما تراه يدخل إلى المساكن من النوافذ الغربية إذا به انقطع عنها ودخل من الشرقية أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ، ولذا تجد مساكنهم كثيرة النوافذ ، وغالبها إلى الجهات الأربع حتى لا تحرم من الهواء من أي جهة كانت . والهواء البحري عندهم ، وهو الغربي أحسنها وألطفها لأنه يأتي من جهة البحر ، ثم هواء الشام ويسمونه الشمأل والشمال ، أما الجنوب والشرقي فهما حاران . ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر ، ويندر فيها التدرن الرئوي ، وفي زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية ، وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمي والدوسنتاريا ، خصوصاً بين الأطفال ، ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه غير الناضجة ، وفي زمن الحر تكثر فيه الحميات لا سيما عند فساد مياه الشرب ، ويكثر فيهم مرض الجدري ، ويموت بسببه سنوياً أكثر من اثنين في الألف . ومما يجدر بنا ذكره أن الكوليرا لم تظهر في مكة إلا سنة ستة وأربعين ومائتين وألف هجرية أي في نحو سنة (١٨٢٥) ميلادية ، وفدت إليها مع حجاج الهند ، ولا تزال تفد إليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتني بشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوه في جزيرة قمران، قبل دخولهم إلى جدة بزمن ، لأمكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الوبيل . والأوبئة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاً ذريعاً كانت في سنة ١٨٩٠م ، وسنة ١٨٩٢م ، وسنة ١٨٩٣م ، وسنة ١٨٩٥م ، وفي سنة ١٩٠٢م . انتهى من الرحلة الحجازية ، وقبل أن نكمل هذا الفصل نقول: إن الحجاج كثيراً ما يشكون من حر مكة في موسم الحج ، فلو اهتموا بتنظيف ملابسهم وأجسادهم ، بكثرة الاستحمام والاغتسال ، لهانت عليهم مشقة الحر ، ولوجدوا في أنفسهم خفة

ونشاطاً، ولكن غالبهم استولى عليهم البخل والشح، فلا يحبون بذل الدراهم لشراء الماء ولتوفير راحتهم في مساكنهم.

حدوث الفصول الأربعة من دوران الأرض

واعلم أن الأرض كروية الشكل، ولها حركتان:

الأولى: تدور حول نفسها أمام الشمس يومياً، أي تدور مرة واحدة في كل أربع وعشرين ساعة تقريباً، ولذلك تختلف مواعيد شروق الشمس ومواعيد غروبها باختلاف مواقع الأقطار والبلدان على سطح الأرض.

والثانية: تدور الأرض مرة واحدة في كل عام، وهذه الدورة تسمى بالدورة السنوية للأرض، وينتج عن هذه الدورة حدوث الفصول الأربعة التي هي:

الصيف، والشتاء، والخريف، والربيع.

فالصيف: ترتفع فيه درجة الحرارة، ويطول النهار ويقصر الليل.

والشتاء: تنخفض فيه درجة الحرارة، ويطول الليل ويقصر النهار.

والخريف: تعتدل فيه درجة الحرارة عن الصيف.

والربيع: تعتدل فيه درجة الحرارة مرة أخرى بحيث تكون ألطف من حرارة الخريف.

فسبحان مكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل، والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

سبب زيادة حرارة الجو

ومما يناسب ما تقدم، نذكر ما جاء في مجلة الهلال، التي تصدر بمصر، في العدد الذي هو بتاريخ ١٣ ذي القعدة سنة (١٣٧٧) هجرية، وأول يونيو سنة (١٩٥٨) ميلادية، عن سبب ارتفاع الحرارة، وإليك ما جاء فيها:

يقول جيروم نامياس، رئيس مصلحة الأرصاد الجوية بالولايات المتحدة: إنه رغم شدة القر والصقيع خلال بعض أيام شهر فبراير فليس هناك من الدلائل ما يثبت أن فصول الشتاء تزداد برودة.

والواقع أن هناك دلائل على أن متوسط درجة الحرارة قد ازداد أكثر قليلاً من درجتين ، منذ ابتداء القرن العشرين « للميلاد » فما هو السبب في ازدياد حرارة العالم ، وخاصة في نصف الكرة الشمالي .

إن السبب في الواقع غير معروف ، غير أن هناك ثلاث نظريات لكل منها ما يدعمها من البراهين.

١) النظرية الأولى تقول أن تدفق ثاني أوكسيد الكربون إلى الجو من المصانع يمكن أن يكون سبباً في زيادة درجة الحرارة ، فمنذ عام ١٩٠٠ قد احترق أكثر من مائة بليون طن من الفحم والبترول ومعنى هذا أن الإنسان هو الذي أحدث هذا التغيير في الجو .

٢) والنظرية الثانية تقول أن ازدياد درجة الحرارة يرجع إلى التغيرات الحادثة في الإشعاع الشمسي ، لردح طويل من الزمن . وقال بعضهم : إن هناك دورة بقع شمسية ظلت مدة ٨٠ عاماً كانت الشمس خلالها ترسل شواظاً من أشعتها ومن نشاطها المتدفق الذي يعلو إلى القمة ثم يهبط ثم يعلو مرة أخرى إلى الذروة .

٣) والنظرية الثالثة تقول أن الغبار والرماد اللذين أرسلا إلى طبقات عليا في الجو من جراء تفجر البراكين قد بقيا في الطبقات الجوية العليا ليدورا حول العالم ويقوما كغطاء يحجب الإشعاع الشمسي ، وهذا الحجب يحدث أثراً معكوساً لأنه يزيد من ارتفاع درجة الحرارة . انتهى من مجلة الهلال المذكورة .

فانظر أيها القارئ الكريم إلى دقة هذه المعلومات المعقولة ، حول ازدياد الحرارة في العالم ، ولكن في حقيقة الأمر أن الحر والبرد والتوسط بينهما راجع إلى أمر الله عز شأنه ، وهو الذي خلق الكون ودبر الأمور كما شاء بنظام دقيق لا يختلف على كر السنين ومر الدهور ، ولو أن احتراق الفحم والبترول والغبار والرماد من جراء تفجر البراكين ، لكنا نرى آثار ذلك من الذرات المتراكمة في طبقات الهواء من الأعوام العديدة نازلاً علينا من الجو شيئاً فشيئاً ، ولكان المعقول أن تكون البلاد الحجازية أخف حرارة وأكثر برداً من بلاد روسيا وإنجلترا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا ، لعدم وجود البراكين عندنا ، وقلة المصانع والبواخر والقطارات لدينا ، التي تسبب الدخان والغبار ، لكثرة احتراق الفحم الحجري والبترول، على أن هذه الدنيا واسعة عظيمة وأن ربعها أرض يابسة وليست كلها آهلة بالسكان ، وثلاثة أرباعها ماء غير قابل للسكن ، ثم ما الذي يملأ هذا الفضاء اللانهائي من

الدخان أو الغبار أو غيرهما وكما لا يعلم جنود ربك إلا هو ، لا يعلم بحقيقة هذا الكون وسر تدبيره إلا الخلاق العظيم الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، وأن التفكير في قدرة الخالق جل وعلا وعظيم تدبير حكمته ، يؤدي إلى زيادة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، نسأله التوفيق وزيادة اليقين والقوة في البصر والبصيرة .

الحاصل : أن هواء مكة المكرمة يميل إلى الحرارة غالب السنة ، أما وقت الشتاء فيكون البرد فيه غير شديد يمكن تحمله بدون أدنى ضرر ، ومن النادر أن يكون البرد شديداً في مكة وإن صار شديداً فلا يدوم أكثر من أيام قلائل فقط ، فأجسام أهل مكة المشرفة لا تتحمل البرد مطلقاً ، أما في الطائف فالبرد فيه شديد جداً ويكون كذلك مدة الشتاء وكذلك الحال في المدينة المنورة . أما البرد في الرياض ونجد فبرد عظيم شديد شديد بحيث لا يقدر على تحمله الحجازيون لأن المياه عندهم تتجمد في المواعين والقرب بل أحياناً يموت بعضهم وتموت الأغنام من شدة البرد فلا يوجد أبداً أعدل من هواء مكة وأطيب من صيفها وشتائها فالحمد لله رب العالمين حيث ميز بلده الأمين بكثير من الأمور .

تراجم مختلفة

ترجمة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها

جاء في الجزء الخامس من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمة أم المؤمنين ، أم سلمة ، ما يأتي:

وأما أم المؤمنين أم سلمة ، رضي الله تعالى عنها ، فهي هند بنت أبي أمية ، الملقب بزاد الركب ، ابن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية ، زوج رسول الله ﷺ .

وكانت قبل النبي ﷺ عند أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، فولدت له سلمة وعمر ودرة وزينب ، وتوفي فخلف عليها بعده رسول الله ﷺ ، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقيل: إنها أول ظعينة هاجرت إلى المدينة ، وقصة هجرتها ذكرها ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمتها .

وكانت صفة تزوج رسول الله ﷺ بها أنه لما انقضت عدتها ، بعث إليها أبو بكر يخطبها عليه فلم تزوجه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يخطبها

عليه ، فقالت: أخبر رسول الله أني امرأة غَيْرَى ، وأني امرأة مصبية ، وليس أحد من أوليائي شاهد ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال: ارجع إليها فقل لها: أما قولك إني امرأة غَيْرَى ، فسأدعو الله فيذهب غيرتك ، وأما قولك إني امرأة مصبية فستكفين صبيانك ، وأما قولك ليس أحد من أوليائي شاهد ، فليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك . فقالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ، فزوجه -مختصراً-.

ومن مناقبها ما روي عنها أنها قالت: في بيتي نزلت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين ، فقال: هؤلاء أهل بيتي ، قالت: فقلت يا رسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال: بلى إن شاء الله .

ولها ثلاثمائة وثمانية وسبعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر منها ، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بمثلها ، وروى عنها نافع وابن المسيب وأبو عثمان النهدي وخلق ، وممن روى عنها ابناها عمر وزينب وأخوها عامر وابن أخيها مصعب وغيرهم .

وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب ، وإشارتها على النبي ﷺ يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها .

قال الواقدي: ماتت في شوال سنة تسع وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة ، وقال ابن حبان: ماتت في آخر سنة إحدى وستين ، بعدما جاءها نعي الحسين بن علي ، وقال ابن أبي خيثمة: توفيت في خلافة يزيد بن معاوية ، قال الحافظ ابن حجر: وكانت خلافته في أواخر سنة ستين ، وقال أبو نعيم: ماتت سنة اثنتين وستين ، وهي من آخر أمهات المؤمنين موتاً ، قال الحافظ ابن حجر: بل هي آخرهن موتاً ، وثبت مثل ذلك عن الحافظ الذهبي أيضاً ، فقد جزم بأنها آخر أمهات المؤمنين وفاة ، وبالله تعالى التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

انتهى من الكتاب المذكور .

ترجمة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه

جاء في الجزء السادس من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمة عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، عند حديث «لا نورث ما تركنا صدقة» ما يأتي:

فأما عثمان، فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، أمير المؤمنين أبو عبدالله وأبو عمر إمام العابدين. أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أسلمت وأمها البيضاء بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح، وكان ربعة، حسن الوجه، رقيق البشرة، عظيم اللحية بعيد ما بين المنكبين، وقد أسلم قديماً على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: كان أبو بكر مؤلفاً لقومه، فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به، فأسلم على يده فيما بلغني: الزبير، وطلحة، وعثمان، وزوّجه النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ابنته رقية، رضي الله تعالى عنها، وماتت عنده أيام بدر، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم، فلذلك كان يلقب: ذا النورين.

وجاء من أوجه متواترة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشره بالجنة وعدّه من أهلها، وشهد له بالشهادة، وروى خيثمة في فضائل الصحابة من طريق الضحاك، عن النزال بن سبرة، قلنا لعلي: حدثنا عن عثمان قال: ذلك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، وروى الترمذي من طريق الحارث بن عبدالرحمن عن طلحة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان. وجاء من طرق كثيرة شهيرة صحيحة عن عثمان لما أن حضروه انتشد الصحابة في أشياء، منها تجهيزه جيش العسرة، ومنها مبايعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة، لما أرسله إلى مكة، ومنها شراءه بئر رومة وغير ذلك، وهو أول من هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية، وتخلف عن بدر لتمريضها، فكتب له النبي ﷺ بسهمه وأجره، وتخلف عن بيعة الرضوان لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان بعثه إلى مكة، فأشيع أنهم قتلوه، فكان ذلك سبب البيعة، فضرب إحدى يديه على الأخرى، وقال: هذه عن عثمان، وقال ابن مسعود: لما بويع بايعنا خيرنا ولم يسأل، وقال علي: كان عثمان أوصلنا

للرحم، وكذا قالت عائشة، لما بلغها قتله: قتلوه وإنه لأوصلهم للرحم، وأتقاهم للرب. وقال ابن المبارك في الزهد: أنبأنا الزبير بن عبدالله أن جدته أخبرته وكانت خادماً لعثمان وقالت: كان عثمان لا يوقظ نائماً من أهله إلا أن يجده يقظان، فيدعوه فيناوله وضوءه، وكان يصوم الدهر. وله من الحديث مائة وستة وأربعون حديثا، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة منها، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بخمسة. وقد روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر، وروى عنه أولاده عمرو وأبان وسعيد، وابن عمه مروان بن الحكم بن أبي العاص، الذي هو سبب إثارة الفتنة عليه وعلى غيره، ومن الصحابة ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وزيد بن ثابت وعمران بن الحصين وأبو هريرة وغيره، ومن التابعين الأحنف، وعبدالرحمن بن أبي ضمرة، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وسعيد بن المسيب، وأبو وائل، وأبو عبدالرحمن السلمي، ومحمد ابن الحنفية وآخرون.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نقول على عهد النبي ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، وقال ابن سيرين: كان يُحْيي الليل كله بركعة، وقال عبدالله بن سلام: لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق إلى يوم القيامة.

ثم ذكر الشارح رحمه الله تعالى سبب قتل عثمان رضي الله عنه، ثم قال بعد ورقة واحدة، ما يأتي:

ومن مناقب عثمان الظاهرة رضي الله تعالى عنه، ما أخرجه مسلم في صحيحه أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، قال محمد: ولا أقول ذلك في يوم واحد فدخل فتحدث. فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة. وقد روى البخاري في قصة قتل عمر، أنه عهد إلى ستة وأمرهم أن يختاروا رجلاً، فجعلوا الاختيار إلى عبدالرحمن بن عوف فاختار عثمان، فبايعوه، ويقال كان ذلك يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين.

وقال ابنٍ إسحاق: قتل على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً من خلافته ، فيكون ذلك في ثاني وعشرين ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقال غيره: قتل لسبع عشرة ، وقيل: لثمان عشرة . رواه أحمد عن إسحاق بن الطباع عن أبي معشر ، وقال الزبير بن بكار: بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقتل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة بعد العصر ، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء ، في مكان كان عثمان اشتراه فوسع به البقيع ، فهو اليوم في طرف البقيع ، وبعده بعض مقابر أهل البقيع ، وقد قتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وأشهر على الصحيح المشهور ، وقيل دون ذلك ، وزعم أبو محمد بن حزم أنه لم يبلغ الثمانين ، رضي ا لله تعالى عنه وأرضاه . انتهى من كتاب زاد المسلم من الجزء السادس .

ترجمة وفضل عثمان بن عفان رضي الله عنه

ولقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة في فضل عثمان بن عفان ، رضي ا لله عنه ، في الصحيحين وغيرهما نقتصر على بعضها على سبيل التبرك لا على سبيل الحصر والتعداد .

جاء في صحيح البخاري ، في باب فضائل أصحاب النبي ﷺ في باب مناقب ابن عفان رضي ا لله عنه: عن أبي موسى رضي ا لله عنه أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجل يستأذن ، فقال: ائذن له وبشره بالجنة ، فإذا أبو بكر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فقال: ائذن له وبشره بالجنة ، فإذا عمر ، ثم جاء آخر يستأذن ، فسكت هُنيهة ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه ، فإذا عثمان ابن عفان ، قال حماد: وحدثنا عاصم الأحول وعلي بن الحكم ، سمعا أبا عثمان يحدث عن أبي موسى بنحوه ، وزاد فيه عاصم أن النبي ﷺ كان قاعداً في مكان فيه ماء قد انكشف عن ركبتيه أو ركبته فلما دخل عثمان غطاها .

وجاء فيه أيضاً: حدثنا أبو عُوانة ، حدثنا عثمان هو ابن موهب ، قال: جاء رجل من أهل مصر ، حج البيت ، فرأى قوماً جلوساً ، فقال: من هؤلاء القوم ؟ قال: هؤلاء قريش ، قال: فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا: عبدا لله بن عمر ، قال: يا ابن عمر: إني سائلك عن شيء فحدثني ، هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أُحُدٍ ؟ قال:

نعم ، فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر و لم يشهد؟ قال: نعم ، قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال: نعم ، قال: الله أكبر ، قال ابن عمر: تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أَحَدٌ أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة . فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده ، فقال: هذه لعثمان ، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك .

وجاء فيه أيضاً: عن قتادة أن أنساً رضي الله عنه حدثهم ، قال: صعد النبي ﷺ أُحُداً ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف ، وقال: اسكن أُحُد أظنه ضربه برجله ، فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان . قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه . انتهى من البخاري .

ونكتفي بهذا القدر ففضل أصحاب النبي ﷺ معروف ، وما من مسلم إلا وهو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه وأولاده ، كيف وهم قد فازوا بمشاهدة رسول الله ﷺ وسعدوا بخدمته وخدمة هذا الدين السمح الحنيف .

اللهم صل على عبدك ونبيك «محمد» وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ، وأزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليماً كثيراً .

ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

جاء في الجزء الخامس من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمة علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، عند حديث «يا سعد إرم فداك أبي وأمي» ما يأتي:

وأما راوي الحديث فهو علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، ومناقبه رضي الله تعالى عنه جمة لا يسعها إلا مجلد ضخم ، وقد ألفت في مناقبه جزءاً تحريت فيه ما صح منها ، وخرّجت فيه جميع ما اشتمل عليه من الأحاديث ، وسميته «كفاية الطالب لمناقب علي بن أبي طالب» وقد طبع و لله الحمد وفيه كفاية .

ولنتبرك بذكر نبذة من مناقبه هنا، فأقول: إن علياً كرم الله وجهه هو أقرب العشرة المبشرين بالجنة لرسول الله ﷺ، لأن أبا طالب الذي هو والده، عم رسول الله ﷺ فهو ابن عبد المطلب، الجد الأول لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ويكنى علي أبا الحسن، وهو زوج فاطمة الزهراء، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام، قال الحافظ في تقريب التهذيب المرجح أنه أول من أسلم، والتحقيق أنه هو أول من أسلم من الصبيان جمعاً بين الأقوال، وقد حررت ذلك في كفاية الطالب، ويكنى أيضاً أبا تراب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، وأول هاشمية ولدت خليفة.

له من الأحاديث خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على عشرين منها، وانفرد البخاري بتسعة، ومسلم بخمسة عشر، شهد بدراً والمشاهد كلها، روى عنه أولاده: الحسن والحسين ومحمد وفاطمة وعمر وابن عباس والأحنف، وقال له النبي ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، قال أبو جعفر: وكان شديد الأدمة ربعة إلى القصر، وقد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وهو شاب ليقضي بينهم، فقال: يا رسول الله إني لا أدري ما القضاء، فضرب رسول الله ﷺ صدره بيده وقال: اللهم اهد قلبه وسدد لسانه، قال علي: فوالله ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين.

ومن درر حكمه كرم الله وجهه ما في كتاب ابن أبي يعقوب: أن الحارث بن حوط قال لعلي: تراني أظن أن طلحة والزبير وعائشة خرجوا على باطل، فقال له علي: يا حارث أنت ملبوس عليك، إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن اعرف الباطل تعرف من أتاه. اهـ.

وقد استشهد رضي الله عنه آخر ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت أو خلت من رمضان سنة أربعين، وهو حينئذ أفضل الأحياء من بني آدم على وجه الأرض، بإجماع أهل السنة، وله ثلاث وستون سنة على الأرجح، مثل عمر رسول الله ﷺ حين وفاته على الراجح، وبالله تعالى التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق. انتهى من كتاب زاد المسلم من الجزء الخامس.

وجاء أيضاً في الجزء السادس من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عند حديث: «لا

تكذبوا علي ، فإنه من كذب علي فليلج النار» ما يأتي ، نذكره تكملة لترجمته كرم الله تعالى وجهه :

وأما راوي الحديث فهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وقد تقدمت ترجمته في حرف الياء ، ولا بأس بالتبرك بنبذة منها أيضاً هنا فأقول ، متبركاً بتكرار بعض ترجمة زوج البتول .

علي كرم الله وجهه ، هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب ، يجتمع مع النبي ﷺ في جده الأول ابن هاشم بن عبد مناف إلى آخر النسب الشريف ، وكفاه بذلك شرفاً واسم أبيه عبد مناف على المشهور ، واسم أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، وأول هاشمية ولدت خليفة ، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة ، وتوفيت بها في حياة رسول الله ﷺ ، وصلى عليها رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، ونزل في قبرها واتكأ فيه ودعا لها ، فلذلك سلمت من ضمة القبر كما بسطناه في غير هذا المحل .

وكنية علي أبا الحسن ، وكناه رسول الله ﷺ أبا تراب ، وأكرمه بالمؤاخاة ، وقال له: أنت أخي في الدنيا والآخرة ، وهو أبو السبطين ، وأول خليفة من بني هاشم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العلماء الربانيين ، وأشجع الشجعان المشهورين ، وأزهد الزهاد المعروفين وأحد السابقين إلى الإسلام ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ، إذ قد استخلفه على المدينة المنورة حين غزا إليها ، وأصابته يوم أحد ست عشرة ضربة ، وقد أعطاه عليه الصلاة والسلام الراية يوم خيبر ، وأخبر أن الله ورسوله يحبانه ، وأن الفتح يكون على يديه ، وأحواله في الشجاعة مشهورة ، ومناقبه جمة مأثورة ، وقد أفردتها في جزء نافع سميته «كفاية الطالب لمناقب علي بن أبي طالب» وتقدم ذكري له لما تعرضت لترجمته في حرف الياء ، وذكرت هناك أن له من الأحاديث خمسمائة حديث وست وثمانين حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على عشرين منها ، وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر ، وعلمه وتوفيقه في القضاء أمران مشهوران ، وفي الحديث: « أقضاكم علي » .

وقد روى عنه أولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وفاطمة الزهراء وعمر وابن عباس والأحنف وغيرهم، وولي الخلافة خمس سنين، وقيل إلا شهراً، بويع بعد عثمان رضي ا لله تعالى عنه، لكونه أفضل الصحابة حينئذ إجماعاً.

وقد ضربه عبدالرحمن بن ملجم المرادي الحميري بسيف مسموم أوصله إلى دماغه، «عامله ا لله على ذلك بما يستحقه»، وكان ذلك في ليلة الجمعة بالكوفة فمات بها ليلة الأحد تاسع عشر من رمضان سنة أربعين، عن ثلاث وستين سنة على الأرجح.

وكان آدم اللون أصلع ربعة، أبيض الرأس واللحية، وربما خضب لحيته رضي ا لله تعالى عنه، وكانت له لحية كثة طويلة، حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر، ضحوك السن، وقبره بالكوفة، لكن أخفي خوفاً عليه من الخوارج «أخزاهم ا لله تعالى» وليس في الصحابة من اسمه علي بن أبي طالب غيره، وفي الرواية غير الصحابة علي بن أبي طالب ثمانية، وبا لله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق. انتهى من كتاب زاد المسلم من الجزء السادس.

ترجمة وفضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ولقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة في فضل علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه، في الصحيحين وغيرهما، نقتصر على بعضها على سبيل التبرك لا على سبيل الحصر والتعداد.

جاء في صحيح البخاري في باب فضائل أصحاب ﷺ، في باب مناقب علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه: عن عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه: أن رجلاً جاء إلى سهل بن سعد فقال: هذا فلان لأمير المدينة يدعو علياً عند المنبر، قال: فيقول ماذا؟ قال: يقول له أبو تراب. فضحك قال: وا لله ما سماه إلا النبي ﷺ وما كان له اسم أحب إليه منه، فاستطعمت الحديث سهلاً، وقلت: يا أبا عباس كيف؟ قال: دخل عَلِيّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد؟ فقال النبي ﷺ: أين ابن عَمِّكِ؟ قالت: في المسجد. فخرج إليه، فوجد رداءه قد سقط عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول: اجلس يا أبا تراب مرتين.

وجاء فيه أيضاً عن الحكم سمعت ابن أبي ليلى قال: حدثنا علي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحا ، فأتى النبي ﷺ سبي فانطَلَقَتْ فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها. فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة ، فجاء النبي ﷺ إلينا ، وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم ، فقال : على مكانكما ، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري ، وقال: ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني ، إذا أخذتما مضاجعكما تكبرا أربعاً وثلاثين ، وتسبحا ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدا ثلاثة وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم . وجاء فيه أيضاً عن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال: قال النبي ﷺ لعليّ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟

وجاء فيه أيضاً عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه . قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله قال: فأرسلوا إليه فأتوني به ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

وجاء فيه أيضاً عن سلمة قال: كان علي قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر ، وكان به رمد ، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج علي فلحق بالنبي ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها ، قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، أو قال يحب الله ورسوله ، يفتح الله عليه فإذا نحن بعلي وما نرجوه ، فقالوا: هذا علي فأعطاه رسول الله ﷺ ففتح الله عليه . انتهى من البخاري .

ونكتفي بهذا القدر ففضل أصحاب النبي ﷺ معروف ، وما من مسلم إلا وهو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه وأولاده ، كيف وهم قد فازوا بمشاهدة رسول الله ﷺ وسعدوا بخدمته وخدمة هذا الدين السمح الحنيف .

اللهم صل على عبدك ونبيك «محمد» وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، وأزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليماً كثيراً.

ترجمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

جاء في الجزء الرابع من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند حديث: «من وضع هذا "يعني وَضوءاً" فأُخبِرَ، فقال: اللهم فقهه في الدين. يعني الواضع ابن عباس» ما نصه:

أما فضائل ابن عباس رضي ا لله عنهما، المعنيّ في حديث المتن بقوله عليه الصلاة والسلام: اللهم فقهه في الدين، فهي كثيرة مذكورة في ترجمته في الكتب الجامعة لتراجم الصحابة كأسد الغابة لابن الأثير، والاستيعاب للحافظ ابن عبد البر، والإصابة للحافظ ابن حجر. ولنقتصر على ما نقله الأبي عن القرطبي منها فأقول: قال الأبي ناقلاً عن القرطبي: هو عبدا لله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، يكنى أبا العباس، ولد في الشعب وبنو هاشم محصورون فيه قبل خروجهم منه بيسير، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، واختلف في سنّه قبل موت النبي ﷺ فقيل عشر سنين وقيل خمس عشرة، رواه عنه ابن جبير وقيل كان ابن ثلاث عشرة، وعن ابن عباس أنه كان في حجة الوداع قد ناهز الاحتلام، ومات بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن الزبير، لأنه أخرجه من مكة. وتوفي وهو ابن سبعين سنة رضي ا لله عنه ورحمه، وقيل ابن إحدى وسبعين، وقيل ابن أربع وسبعين سنة، وصلى عليه محمد بن الحنفية، وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطاً. ويروى عن مجاهد أنه قال: رأيت جبريل عند النبي ﷺ مرتين، ودعا لي رسول ا لله ﷺ بالحكمة مرتين. وقال ابن مسعود فيه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. وكان ابن عمر يقول: ابن عباس فتى الكهول، له لسان سئول، وقلب عقول، وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، وإذا تكلم قلت: أفصح الناس، وإذا تحدث قلت: أعلم الناس، وكان يسمى الحبر لغزارة علمه، والبحر لاتساع حفظه ونفوذ فهمه. وكان عمر يقربه ويدنيه لجودة فهمه وحسن تأنيه. وجملة ما روى عن رسول ا لله ﷺ ألف حديث وستمائة وستون في الصحيحين، منها مائتان وأربعة وثلاثون، قال الأبي: وقبلت دعوات رسول ا لله ﷺ فيه، وظهرت بركاتها عليه، فاشتهرت علومه

وفضائله ، فارتحل طلاب العلم إليه ، وازدحموا عليه ورجعوا عند اختلافهم لقوله ، وعولوا على نظره ورأيه ، قال يزيد بن الأصم: خرج معاوية حاجاً مع ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم ، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر، وقال عبيد الله بن عبدالله: ما رأيت أعلم بالسنة ولا أجل رأياً ولا أثقب نظراً من ابن عباس ، ولقد كان عمر يعده للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين ، وكان قد عمي في آخر عمره ، فأنشد في ذلك:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي خلل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وروي أن طائراً أبيض خرج من قبره فتأولوه: أن علمه خرج إلى الناس ، ويقال: بل دخل قبره طائر أبيض ، فقيل: إنه بصره في التأويل . قال أبو الزبير: مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر أبيض فدخل في نعشه حين حمل ما رؤي خارجاً منه . وفضائله أكثر من أن تحصى .اهـ .

وهذا الحديث كما أخرجه الشيخان في صحيحيهما أخرجه النسائي في المناقب من سننه وأخرجه غيره وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ترجمة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

جاء في شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمته ما نصه: وأما ترجمة عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فترجمته شهيرة وهو أحد المكثرين من حديث رسول الله ﷺ ، وقد ثبت عنه أنه كان له يوم بدر ثلاث عشرة سنة ، وبدر كانت في السنة الثانية ، وقد أسلم مع أبيه وهاجر ، وعرض على النبي ﷺ ببدر فاستصغره ثم بأحد فكذلك ، ثم في الخندق فأجازه وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة كما ثبت في الصحيح .

وأخرج البغوي في ترجمته من طريق علي بن زيد عن أنس وسعيد بن المسيب قالا: شهد ابن عمر بدراً ويؤيد هذه الرواية كونه روى حديث المتن جازماً به كالحاضر له المشاهد ، فهو متصل من روايته فيما يظهر لا مرسل صحابي فقط . والمعروف أنه شهد الخندق وبيعة الرضوان وما بعد ذلك . له ألف وستمائة حديث

وثلاثون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على مائة وسبعين منها وانفرد البخاري بأحد وثمانين ومسلم بأحد وثلاثين.

روى عنه بنوه سالم وحمزة وعبيدا لله وابن المسيب ومولاه نافع وخلق كثير ، كان إماماً متيناً واسع العلم ، كثير الاتباع للسنة وافر النسك كبير القدر ، متين الديانة عظيم الحرمة ذكر للخلافة يوم التحكيم ، وخوطب في ذلك فقال: على أن لا يجري فيها دم . وقد تقدمت ترجمته بإطناب واسع في أواخر الجزء الرابع من كتابنا هذا عند حديث: نعم الرجل عبدا لله لو كان يصلي في الليل . مات رضي ا لله عنه سنة أربع وسبعين كما قاله أبو نعيم وبه جزم الحافظ في فتح الباري فقال: مات في أوائل سنة أربع وسبعين ، وزعم الحافظ ابن عبد البر أنه مات سنة ثلاث وسبعين بلا خلاف . وقد علمت مما ذكرناه هنا وفي محل ترجمته السابق أنه خلاف الواقع فضلاً عن أن يكون لا خلاف فيه ، لكن الجمع بينه وبين قول الحافظ ابن حجر مات في أوائل سنة أربع وسبعين ممكن ، بحمل كلام ابن عبد البر على آخر سنة ثلاث وسبعين ، بحيث لم يبلغ السنة الرابعة وحمل كلام الحافظ ابن حجر على أنه بلغها وا لله أعلم بالواقع .

جاء في الجزء الرابع من شرح « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » عند الكلام على حديث « نعم الرجل عبدا لله لو كان يصلي من الليل » ما يأتي:

وسبب هذا الحديث كما في الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي ا لله عنه قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على النبي ﷺ ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي ﷺ ، وكنت غلاماً أعزب وكنت أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطي البئر ، وإذا لها قرنان كقرني البئر ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول: أعوذ با لله من النار ، أعوذ با لله من النار ، فلقيهما ملك آخر فقال لي: لن ترع . فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على النبي ﷺ فقال: نعم الرجل عبدا لله لو كان يصلي من الليل . قال سالم: فكان عبدا لله لا ينام من الليل إلا قليلاً . وقوله لن ترع كذا بالجزم بلن في لفظ البخاري ، قال ابن التين: هي لغة قليلة ، يعني الجزم بلن ، قال القزاز: ولا أحفظ له شاهداً ، قال الحافظ ابن حجر : وروى الأكثر بلفظ: لن تراع ، وهي الوجه . اهـ . وقول

القزاز: لا أحفظ له شاهداً، تعقب بقول الشاعر في مدح سيدنا الحسن السبط، رضي الله عنه:

لن يخب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الحلقة

قال القرطبي: إنما فسر الشارع من رؤيا عبدالله بما هو ممدوح، لأنه عرض على النار، ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك، وذلك لصلاحه غير أنه لم يكن يقوم من الليل، فحصل لعبدالله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما تتقي به النار والدنو منها، أعاذنا الله تعالى منها، فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك. وأشار المهلب إلى أن السر في ذلك كون عبدالله بن عمر كان ينام في المسجد، ومن حق المسجد أن يتعبد فيه، فنبه على ذلك بالتخويف بالنار. وحديث المتن من مسند عبدالله بن عمر لا من مسند حفصة رضي الله عنها، فالذي هو من مسند حفصة هو ما أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة في مناقب عبدالله بن عمر بعد حديث المتن، وهو قوله ﷺ: إن عبدالله رجل صالح، وأعظم بها من شهادة منه ﷺ فهي من أعظم مناقبه، رضي الله عنه، ولنذكر بعض مناقبه تبركاً بها وإن كان لا يسعها إلا تأليف مستقل فأقول: هو أحد العبادلة، وفقهاء الصحابة، وأحد المكثرين منهم من حديث رسول الله ﷺ المجموعين في قول صاحب طلعة الأنوار:

والمكثرون بحرهم وأنس عائشة وجابر المقدس

صاحب دوس وكذا ابن عمرا رب قنى بالمكثرين الضررا

-وأمه زينب- ويقال رائطة بنت مظعون أخت عثمان وقدامة ابني مظعون. للجميع صحبة، وكان مولده في السنة الثانية أو الثالثة من المبعث، لأنه ثبت أنه كان يوم بدر ابن ثلاث عشرة سنة، وكانت بدر بعد البعثة بخمس عشرة سنة، كذا في فتح الباري، وقال في الإصابة: ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين، وكذا قال الواقدي حيث قال: مات سنة أربع وثمانين، وقال ابن منده: كان ابن إحدى عشرة ونصف ونقل الهيثم بن عدي عن مالك أنه مات وله سبع وثمانون سنة. فعلى هذا كان له في الهجرة ثلاث عشرة، وقد ثبت عنه أنه كان له يوم بدر ثلاث عشرة، وبدر كانت في السنة الثانية، وأسلم مع أبيه وهاجر وعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببدر فاستصغره، ثم بأحد فكذلك، ثم في الخندق فأجازه، وهو

يومئذ ابن خمس عشرة سنة كما ثبت في الصحيح، وأخرج البغوي في ترجمته من طريق علي بن زيد عن أنس وسعيد بن المسيب قالا: شهد ابن عمر بدراً، ومن طريق مطرف عن ابن إسحاق عن البراء: عرضت أنا وابن عمر يوم بدر فرددنا، وحفظ وقت إسلام أبيه كما أخرج البخاري من طريق عبدالله، وقال البغوي: أسلم مع أبيه لم يكن بلغ يومئذ. وأخرج من طريق أبي إسحاق: رأيت ابن عمر في السعي بين الصفا والمروة، فإذا رجل ضخم آدم وهو من المكثرين عن النبي ﷺ، وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي ذر ومعاذ وعائشة وغيرهم.

وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. وبنوه: سالم وعبدالله وحمزة وبلال وزيد، وابن أخيه حفص بن عامر. ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب، وأسلم مولى عمر وعلقمة بن أبي وقاص وأبي عبدالرحمن النهدي، ومسروق وجبير بن نفير وعبدالرحمن بن أبي ليلى في آخرين. وممن بعدهم مواليهم عبدالله بن دينار ونافع وزيد وخالد بن أسلم ومن غيرهم مصعب بن سعد وموسى بن طلحة وعروة بن الزبير وبشر بن سعيد وعطاء وطارق ومجاهد وابن سيرين والحسن وصفوان بن محرز وآخرون. اهـ.

ومن مناقبه ما قاله فيه عبدالله بن مسعود: أن أملكَ شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبدالله بن عمر، وأخرج أبو الطاهر والذهلي في فوائده عن ابن مسعود أيضاً: لقد رأيتنا ونحن متوافرون فما بيننا شاب هو أملك لنفسه من عبدالله بن عمر. وعن جابر: ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبدالله بن عمر، وفي تاريخ أبي العباس السراج بسند حسن عن السدي: رأيت نفراً من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلا ابن عمر، وفي الشعب للبيهقي عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل. ومن وجه آخر عن أبي سلمة: كان عمر في زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير، وفي معجم البغوي بسند حسن عن سعيد بن المسيب: لو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر. ومن وجه صحيح: كان ابن عمر حين مات خير من بقي. وأخرج السراج في تاريخه وأبو نعيم من طريقه بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: مرّ أصحاب نجدة الحروري بإبل لابن عمر فاستاقوها، فجاء الراعي فقال: يا أبا عبدالرحمن احتسب الإبل وأخبره الخبر قال: فكيف تركوك؟ قال: انفلت منهم، لأنك

أحب إلي منهم فاستحلفه فحلف ، فقال: إني أحتسبك معها فأعتقه ، فقيل له بعد ذلك: هل لك في ناقتك الفلانية تباع في السوق ؟ فأراد أن يذهب إليها ، قد كنت احتسبت الإبل فلأي معنى أطلب الناقة ؟

ومن طريق عبدالله بن أبي عثمان قال: أعتق عبدالله بن عمر جارية له يقال لها رمثة كان يحبها وقال: سمعت الله تعالى يقول : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري عن سالم قال: ما لعن ابن عمر خادماً قط إلا واحداً فأعتقه . وعن نافع أن ابن عمر اشتكى فاشترى له عنقوداً بدرهم ، فأتاه مسكين فقال: أعطوه إياه . فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم ، ثم جاء به إليه فجاءه السائل فقال: أعطوه إياه . فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم ، ثم أراد أن يرجع فمنع ولو علم ابن عمر بذلك لما ذاقه .

وفي الزهد للبيهقي بسند صحيح عن عمر بن محمد بن زيد بن عبدالله بن عمر سمعت أبي يقول: ما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ إلا بكى ، ولا مر على ربعهم إلا غمض عينيه . وأخرج ابن المبارك في الزهد عن عقبة بن مسلم أن ابن عمر سئل عن شيء فقال: لا أدري ، ثم قال: تريدون أن تجعلوا ظهورنا جسوراً في جهنم تقولون أفتانا بهذا ابن عمر ؟ وقال الزبير بن بكار: كان ابن عمر يحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله . وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه ، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته فيه ، وكان لا يترك الحج ، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وفي تاريخ أبي العباس بسند جيد عن نافع كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ يبكي حتى يغلبه البكاء . وعند ابن سعد بسند صحيح قيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله ؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما . وعند الطبراني وهو في الحلية بسند جيد عن نافع أن ابن عمر كان يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا . فيقول: لا ، فيعاود فإذا قال نعم قعد يستغفر الله حتى يصبح .

ومن طريق أخرى عن نافع قال: كانت لابن عمر جارية معجبة فاشتد عجبه بها فأعتقها وزوّجها مولى له ، فأتت منه بولد فكان ابن عمر يأخذ الصبي فيقبله ثم يقول: واهاً لريح فلانة . وعند البيهقي من طريق زيد بن أسلم: مر ابن عمر براع

فقال: هل من جزرة ؟ قال: ليس ههنا ربها . قال: تقول له: إن الذئب أكلها . قال: فاتق ا لله . فاشترى ابن عمر الراعي والغنم وأعتقه ووهبها له . قال البخاري في التاريخ: حدثني الأويسي حدثني مالك أن ابن عمر بلغ سبعاً وثمانين سنة . وقال غير مالك: عاش أربعاً وثمانين ، والأول أثبت ، وقال ضمرة بن ربيعة في تاريخه: مات سنة اثنتين أو ثلاث وسبعين وجزم مرة بثلاث وكذا أبو نعيم ويحيى بن بكير والجمهور ، وزاد بعضهم في ذي الحجة ، وقال الفلاس مرة سنة أربع وبه جزم خليفة وسعيد بن جبير وابن زبر . اهـ ملخصاً من الإصابة . (قال مقيده وفقه ا لله تعالى) : وجزم الحافظ في فتح الباري بأنه مات أوائل سنة أربع وسبعين ، وكانت وفاته رضي ا لله عنه بسبب من دسه عليه الحجاج بن يوسف الأمير الفاسق ، فمس رجله بحربة مسمومة فمرض بها إلى أن مات . روى ابن وهب عن مالك قال: بلغ عبدا لله بن عمر ستاً وثمانين سنة ، وأفتى في الإسلام ستين سنة ، ونشر نافع عنه علماً جماً . وقال ابن عبد البر في الاستيعاب بإسناده: أن مروان بن الحكم دخل في نفر على عبدا لله بن عمر بعدما قتل عثمان رضي ا لله عنه فعرضوا عليه أن يبايعوا له ، قال: وكيف لي بالناس ؟ قال: تقاتلهم ونقاتلهم معك ، فقال: وا لله لو اجتمع عليّ أهل الأرض إلا أهل فدك ما قاتلتهم . قال: فخرجوا من عنده ومروان يقول: والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا .

قال أبو عمر رضي ا لله عنه : مات عبدا لله بن عمر بمكة سنة ثلاث وسبعين لا يختلفون في ذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر أو نحوها ، وقيل لستة أشهر ، وقوله لا يختلفون في ذلك هو من قبيل إجماعاته التي حذروا من اعتقاد صحتها ، لكن قالوا: إن أقلها قول الجمهور كما هو الواقع هنا ، وكان أوصى أن يدفن في الحل فلم يقدر على ذلك من أجل الحجاج ، ودفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين . وكان الحجاج قد أمر رجلاً فسم زج رمح وزحمه في الطريق ، ووضع الزج في ظهر قدمه . ومن أسباب ذلك أنه كان يتقدم في المواقف بعرفة وغيرها إلى المواضع التي كان النبي ﷺ وقف بها ، فكان ذلك يعز على الحجاج ففعل ما فعله به ، عامله ا لله بما يستحق . ولما مرض دخل عليه الحجاج يعوده فقال له: من فعل بك يا أبا عبدالرحمن ؟ فقال: وما تصنع به ؟ قال: قتلني ا لله إن لم أقتله . قال: ما أراك فاعلاً ، أنت الذي أمرت الذي نخسني بالحربة . فقال: لا تقل يا أبا عبدالرحمن . وخرج عنه . اهـ ملخصاً من الاستيعاب للحافظ ابن عبد البر . انتهى كل ذلك من شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» .

ترجمة أبي هريرة رضي الله عنه

جاء في شرح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عن ترجمته ما نصه: أما راوي الحديث أبو هريرة فهو في قول الأكثر عبدالرحمن بن صخر الدوسي ، وهو حافظ الصحابة . وقد اختلف في اسمه واسم أبيه على نحو عشرين قولاً أو أزيد ذكرها الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ثم قال: واختلف في أيها أرجح ، فذهب الأكثرون إلى الأول يعني عبدالرحمن بن صخر، وذهب جمع من النسابين إلى عمرو بن عامر ، وهو أحفظ المكثرين من الحديث ، له خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثمائة وخمسة وعشرين منها ، وانفرد البخاري بتسعة وسبعين ومسلم بثلاثة وتسعين .

روى عنه إبراهيم بن حنبل وأنس وبسر بن سعيد وسالم وابن المسيب وتمام ثمانمائة نفس ثقاة، قال ابن سعد: كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة . مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة . وقد تقدم بسط ترجمته في هذا الشرح في أواخر الجزء الرابع عند حديث: من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي إلخ ، فليرجع لها من شاء الوقوف على فضله وسر إكثاره من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ، وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

انتهى من الجزء الخامس من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

وجاء في الجزء الرابع من كتاب زاد المسلم المذكور عن ترجمة أبي هريرة رضي الله عنه عند حديث: « من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه فلن ينسى شيئاً سمعه مني . قال أبو هريرة: فبسطت بردة كانت عليّ فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه » ... ما نصه:

واعلم أن حفظ أبي هريرة رضي الله عنه للسنة وتميزه به عن الصحابة المكثرين ، أحرى غير المكثرين أمر مشهور معلوم عند علماء الشريعة ، ولا غرابة فيه إلا عند الجهلة بهذا الشأن ، لأن أبا هريرة نال ذلك الحفظ الذي يتميز به عن سائر الصحابة بدعاء النبي ﷺ الذي دل عليه حديث المتن عندنا . وفي ذكر سببه عن أبي هريرة ما يزيل كل استغراب يقع للناس من كثرة حفظه ، وقد تميز كثير من أكابر الصحابة بأمور معلومة كان سببها دعاء النبي ﷺ لهم بها كدعائه لسعد

بن أبي وقاص بقوله: اللهم سدد رميته وأجب دعوته، فكان لا يرمي شيئاً إلا أصابه ولا يدعو بشيء أو على أحد إلا أجاب الله دعاءه، وأمره في ذلك مشهور وكابن عباس حيث دعا له بقوله: اللهم فقهه في الدين وفي رواية، وعلمه التأويل فكان نابغة في الفقه وتأويل كتاب الله العزيز حتى نال من ذلك المنزلة المشهورة ورجع إليه أكابر الصحابة رضوان الله عليهم في المعضلات وأراد نافع بن الأزرق تعجيزه فعجز عن ذلك فكان يسأله عن غريب القرآن، وإذا أجابه على البديهة يقول: وهل تعرف العرب ذلك؟ فيقول له ابن عباس: نعم، أما سمعت قول فلان كذا وكذا كسؤاله له عن قول الله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ فقال ابن عباس: العزون حلق الرفاق، فقال نافع بن الأزرق: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال ابن عباس: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

وهكذا كان يسأله عن دقائق غريب القرآن فيجيبه ابن عباس على البديهة، فيقول له نافع بن الأزرق: وهل تعرف العرب ذلك؟ فيقول ابن عباس: نعم أما سمعت قول فلان كذا وينشده بيت شعر للعرب، فينتقل لسؤاله عن مسألة أخرى من هذا النوع فيجيبه بنحو ما سبق وهكذا، حتى أيس من تعجيزه، وقد سرد الجلال السيوطي في النوع السادس والثلاثين في معرفة غريب القرآن من كتابه الإتقان أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس وأجوبته له نثراً وشعراً بطولها، فليراجعها من شاء العجب من معرفة ابن عباس لغريب القرآن وضبطه لشعر العرب. وكان عمر يقدم ابن عباس على معاصريه ويستشيره ويستحسن فهمه.

وكدعائه لأنس بن مالك بكثرة العلم والمال والولد وطول العمر فأجاب الله دعاءه في ذلك كله، فكثر ماله حتى فاض على جيرانه، وكثر أبناؤه حتى دفن منهم ما ينيف على المائة، وكثر علمه حتى عد من المكثرين، وطال عمره كما هو معلوم.

ومن ذلك دعاؤه لعليّ كرم الله وجهه في سيفه فكان لا يبارز أحداً إلا سبقه للضرب وقتله، حتى بلغ في ذلك وصفاً صار سبباً لإفراط الرافضة فيه، وضلالهم الخارج عن حد التعظيم الشرعي، وكدعائه له بمعرفة القضاء، فكان أقضى الصحابة كما بسطته في رسالتي في مناقبه المسماة «كفاية الطالب لمناقب عليّ بن أبي طالب» وربما شكى له ﷺ بعض الصحابة من شيء فدعا له أو علمه دعاء أو

ركعات يصليها ، ويدعو بمراده فيحصل مراده كائناً ما كان كشكوى علي رضي الله عنه له من تفلت القرآن منه ، فعلمه ركعات ودعاء لحفظه ففعل ذلك ، فسهل الله عليه حفظ القرآن بعد خمس ليال أو سبع ، فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسي تفلتن وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني ، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت ، فأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفاً فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: مؤمن ورب الكعبة أبا الحسن . رواه الترمذي في سننه وبوّب له بقول: باب في دعاء الحفظ ، وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدعوات عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ومن ذلك تعليمه الأعمى حديث التوسل به ﷺ الصحيح فدعا به فأزال الله عنه العمى ، كما أخرجه الحفاظ وقد استوعبت ذكر من أخرجه في منظومتي المسماة بما نصه:

سميتها بحجج التوسل ونصرة الحق بنصر الرسل

إلى غير ذلك ممن دعا له النبي ﷺ بأمر فناله ببركة دعائه ﷺ ، وكل ذلك راجع لمعجزات النبي ﷺ ، فلا يستغرب حفظ أبي هريرة ويستعظمه إلا من لم يعرف سببه لجهله بأحاديث السنة وسير الصحابة وتراجمهم أو من كان ملحداً في معجزات رسول الله ﷺ غير معترف بما خص الله به الصحابة عليهم الصلاة والسلام الذين زكاهم الله في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ إلى آخر ما أثنى به تعالى عليهم .

فحفظ أبي هريرة لا غرابة فيه عند الصحابة ولا عند سلف الأمة المطلعين على سببه ، كما اطلعوا على سبب ما اختص به كل صحابي دعا له النبي ﷺ بشيء ، فسبب حفظ أبي هريرة بينه هو رضي الله تعالى عنه قبل ذكر هذا الحديث بقوله كما في الصحيحين واللفظ للبخاري: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله ﷺ ، والله الموعد إني كنت امرءًا مسكيناً ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، فشهدت من رسول الله ﷺ ذات يوم وقال: من

يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي إلخ. حديث المتن بلفظه، ولما تبرز على غيره من الصحابة استعظم الصحابة ذلك أولاً، واختبروه مراراً فما وجدوه روى حديثاً إلا وجدوا له ما يصدقه من شهادة صحابي آخر أو وفاق ظاهر آية، فاعترفوا له بالحفظ وفهموا ظهور معجزة رسول الله ﷺ فيه، حيث قال: من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه، وفي رواية يجمعه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني، ثم رجع له بعد النزاع من خالفه منهم لوجود من يشهد له من الصحابة على ما رواه، فمن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه بإسناده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه كان قاعداً عند عبدالله بن عمر إذ طلع خباب صاحب المقصورة فقال: يا عبدالله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من أجر كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أحد، فأرسل ابن عمر خباباً إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت. وأخذ ابن عمر قبضة من حصباء المسجد يقلبها في يده حتى رجع إليه الرسول فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة. فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض ثم قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة. اهـ فحسبك برجوع ابن عمر له مع كثرة حفظه وشدة احتياطه، فلما شهدت له عائشة رضي الله عنها رجع له واعترف بتفوقه عليه في الحفظ وقال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة، وقد ورد أنه كان بعد ذلك لا يترك العمل بمقتضى حديث أبي هريرة هذا. فبهذا كله يعلم ضرورة أنه لا وجه للتعجب من كثرة رواية أبي هريرة مع قلة مدة صحبته، لأنه أسلم حين قسم غنائم خيبر، وكثير من الصحابة كان أقدم منه صحبة، لأن حفظه كان بسبب دعاء النبي ﷺ له به كما تقدم، وذلك يرجع لمعجزة رسول الله ﷺ كما مر، وحينئذ فلا غرابة فيه ولا استبعاد عند المؤمنين، وقولي في المتن واللفظ له أي للبخاري: وأما مسلم فلفظه: من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئاً سمعه مني، فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه، ثم ضممته إلي فما نسيت شيئاً سمعته منه.

ولنتبرك بذكر شيء من ترجمة أبي هريرة الذي ورد هذا الحديث في فضله وبيان حفظه للسنة فأقول: قال الأبي: قال القرطبي: اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً بلغ إلى ثمانية عشر قولاً وأشبه ما فيها أن يقال: كان له في الجاهلية

اسمان: عبد شمس وعبد عمرو، وفي الإسلام عبدا لله وعبدالرحمن بن صخر، وقد اشتهر بكنيته حتى كأنه ليس له اسم غيرها.

وكني بأبي هريرة لأنه وجد هرة في صغره فحملها في كمه فكني بها وغلب ذلك عليه. وقيل: إن الذي كناه بذلك حين رآه يحملها النبي ﷺ عام خيبر وشهدها «أي شهد وقت غنائمها وقسم له رسول ا لله ﷺ فيها» ثم لازم النبي ﷺ وواظبه رغبة في العلم، راضياً بشبع بطنه، فكانت يده مع رسول ا لله ﷺ، ويدور معه حيث دار، ويحضر ما لم يحضره غيره. ثم اتفق أن حصلت له بركة النبي ﷺ في الذي أعطاه، وضمه إلى صدره فكان يحفظ كل ما سمعه ولا ينساه. فلا جرم حفظ له في الحديث ما لم يحفظ لغيره من الصحابة وذلك خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً في الصحيحين منها ستمائة وتسعة أحاديث، قال البخاري: روى عنه أكثر من ثلاثمائة رجل من صحابي وتابعي، قال أبو عمر: استعمله عمر على البحرين ثم عزله ثم أراد رده على العمل، فأبى، ولم يزل يسكن المدينة وبها توفي سنة سبع وخمسين، وقيل سنة ثمان وقيل سنة تسع وقيل توفي بالعقيق، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان أميراً على المدينة ومروان معزول. وكان من علماء الصحابة وفضلائهم ناشراً للعلم، شديد التواضع والعبادة عارفاً بنعم ا لله تعالى، شاكراً مجتهداً في العبادة. كان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا. وكان يقول: نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لسيرة بنت غزوان بطعام بطني، فكنت أخدم إذا نزلوا، وأحدو إذا ركبوا، فزوجنيها ا لله فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً. اهـ.

ومن مناقبه وعلو همته أنه كان يدعو أمه للإسلام فتمتنع، فأتى رسول ا لله ﷺ وهو يبكي، فقال: يا رسول ا لله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع ا لله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول ا لله ﷺ: اللهم اهد أم أبي هريرة فخرجت مستبشراً بدعوة النبي ﷺ إلى آخر الحديث الذي رواه مسلم وفيه أنها أسلمت. ثم سأل رسول ا لله ﷺ أن يدعو ا لله له أن يحببه هو وأمه إلى عباده المؤمنين ويحببهم إليهما. قال: فقال رسول ا لله ﷺ: اللهم حبب عبيدك هذا يعني أبا هريرة وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني، فمن هذا الحديث

يعلم أن من كان مؤمناً حقاً لا بد أن يحب أبا هريرة رضي ا لله عنه لاستجابة دعاء النبي ﷺ بمحبة المؤمنين له وعليه فمن أبغضه وكره حديثه أو زعم أنه يتقول على رسول ا لله ﷺ فهو غير مؤمن حقاً فليصحح توبته من ذلك كله لعل ا لله تعالى يرزقه قبول التوبة ومحبة هذا الصحابي الجليل . وهذا الحديث كما أخرجه الشيخان ، أخرجه النسائي في العلم من سننه ، وأخرجه ابن ماجة في السنة من سننه ، وبا لله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ترجمة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

جاء في شرح « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم »عن ترجمته ما نصه: وراوي الحديث هو أبو ذر الغفاري رضي ا لله عنه ، أحد النجباء من الصحابة ، وفي اسمه أقوال أشهرها وأصحها أن اسمه جندب بن جنادة ، وقيل برير ، بموحدة مكبراً ومصغراً وكان من السابقين إلى الإسلام . وقصة إسلامه في الصحيحين على صفتين بينهما اختلاف ظاهر ، كما قاله الحافظ ابن حجر وهو واضح لمن تأمل فيهما ، وقد ذكرت في أوائل الجزء الثالث من هذا الشرح لفظ البخاري في أول إسلامه وقصته عند حديث ما أحب أن أجد لي ذهباً إلخ . وفي صحيح مسلم من طريق عبدا لله بن الصامت عن أبي ذر في قصة إسلامه وفي أوله صليت قبل أن يبعث النبي ﷺ حيث وجهني ا لله وكنا نزلاً مع أمنا على خال لنا ، فأتاه رجل فقال له: إن أنيساً يخلفك في أهلك. فبلغ أخي ، فقال: ا لله لا أساكنك فارتحلنا ، فانطلق أخي فأتى مكة ثم قال لي: أتيت مكة فرأيت رجلاً يسميه الناس الصابئ ، هو أشبه الناس بك إلخ ما ذكره . فراجعه إن شئت . ومناقبه رضي ا لله عنه كثيرة جداً ومع تقدم إسلامه قد تأخرت هجرته فلم يشهد بدراً ، قال أبو إسحاق السبيعي عن هانئ بن هانئ عن علي: أبو ذر وعاء مليء علماً ثم أوكئ عليه . أخرجه أبو داود بسند جيد ، وأخرج أبو داود أيضاً وأحمد عن عبدا لله بن عمر: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر . وحسنه الترمذي ، ومع كونه لم يشهد بدراً ألحقه عمر بهم ، وكان يوازي ابن مسعود في العلم . وفي السيرة النبوية لابن إسحاق عن ابن مسعود قال: كان لا يزال يتخلف الرجل في تبوك فيقولون: يارسول ا لله تخلف فلان فيقول: دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه ا لله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد

أراحكم الله ، فتلوم أبو ذر على بعيره فأبطأ عليه ، فأخذ متاعه على ظهره ثم خرج ماشياً فنظر ناظر من المسلمين فقال: إن هذا الرجل يمشي على الطريق . فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر . فلما تأملت القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر . فقال: يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده ، له رضي الله عنه مائتا حديث وأحد وثمانون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على اثني عشر منها ، وانفرد البخاري بحديثين منها ومسلم بتسعة عشر . روى عنه ابن عباس وأنس والأحنف بن قيس وأبو عثمان النهدي وخلق . قال الحافظ في الإصابة: وكانت وفاته بالربذة سنة إحدى وثلاثين وقيل في التي بعدها وعليه الأكثر . وجزم في تقريب التهذيب بما قال في الإصابة أن عليه الأكثر وهو الذي عزاه صاحب الخلاصة لابن المدائني . وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويقال أنه صلى عليه عبدالله بن مسعود في قصة رويت بسند لا بأس به . وقال المدائني: إنه صلى عليه ابن مسعود بالربذة ، ثم قدم المدينة فمات بعده بقليل . وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ترجمة أنس بن مالك رضي الله عنه

جاء في شرح « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم »عن ترجمته ما نصه: وأما أنس رضي الله عنه فهو ابن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر ابن غنم بن عدي بن النجار الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله ﷺ ، خدمه عشر سنين ، وهو أحد المكثرين من حديثه المجموعين في قول صاحب طلعة الأنوار:

والمكثرون بحرهم وأنس عائشة وجابر المقدس

صاحب دوس وكذا ابن عمرا رب قنى بالمكثرين الضررا

وقد صح عنه أنه قال: قدم النبي ﷺ وأنا ابن عشر سنين ، وأن أمه أم سليم أتت به النبي ﷺ لما قدم فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك فقبله ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كناه أبا حمزة ببقلة كان يجتنيها ، ومازحه النبي ﷺ فقال له: يا ذا الأذنين . وقال محمد بن عبدالله الأنصاري: خرج أنس مع رسول الله ﷺ إلى بدر وهو غلام يخدمه ، أخبرني أبي عن مولى لأنس أنه قال لأنس: أشهدت بدراً؟ قال: وأين أغيب عن بدر لا أم لك؟ قال ابن حجر في الإصابة: وإنما لم

يذكروه في البدريين لأنه لم يكن في سن من يقاتل. وأخرج الترمذي أنه خدم رسول الله ﷺ عشر سنين ودعا له، وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين وكان فيه ريحان ويجيء منه ريح المسك. وكانت إقامته بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ثم شهد الفتوح، ثم قطن البصرة ومات بها. قال علي بن المديني: كان آخر الصحابة موتاً بالبصرة. قال ابن عبد البر: وما أعلم أحداً مات بعده ممن رأى رسول الله ﷺ إلا أبا الطفيل. قلت: وأبو الطفيل هو عامر بن واثلة وهو آخر الصحابة موتاً بلا نزاع كما جزم به صاحب نظم عمود النسب بقوله:

أبو الطفيل عامر بن واثلة آخر من مات من الأصحاب له

قال ابن عبد البر: ويقال إن أنس بن مالك قدم من صلبه من ولده وولد ولده نحواً من مائة قبل موته، وذلك لأن رسول الله ﷺ دعا له فقال: اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له فقال أنس رضي الله عنه: فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً ويقال: إنه ولد لأنس بن مالك ثمانون ولداً، منهم ثمانية وسبعون ذكراً وابنتان: واحدة تسمى حفصة، والثانية تكنى أم عمر.

وروى البخاري بإسناده عن موسى بن أنس: أن أنساً غزى مع النبي ﷺ ثمان غزوات. وروى ابن السكن من طريق صفوان بن هبيرة عن أبيه قال: قال ثابت البناني: قال لي أنس بن مالك: هذه شعرة من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -فضعها تحت لساني- قال: فوضعتها تحت لسانه فدفن وهي تحت لسانه. وقال معمر عن أبيه: سمعت أنس بن مالك يقول: لم يبق أحد صلى القبلتين غيري. وذكر ابن سعد أنه شهد بدراً. له رضي الله عنه ألف ومائتا حديث وستة وثمانون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على مائة وثمانية وستين منها، وانفرد البخاري بثلاثة وثمانين ومسلم بأحد وسبعين، روى أنس أيضاً عن طائفة من الصحابة، وروى عنه بنوه موسى والنضر وأبو بكر والحسن البصري وثابت البناني وسليمان التيمي وخلق لا يحصون، قال العجلي: كان به وضح. وروى الطبراني بإسناده عن أنس قال: قالت أم سليم: يا رسول الله ادع الله لأنس فقال: للهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه. قال أنس: لقد دفنت من صلبي سوى ولد لدي مائة وخمسة وعشرين وإن أرضي لتثمر في السنة مرتين. واختلف في وقت فاته فقيل: سنة إحدى وتسعين هذا قول الواقدي، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، قيل: سنة ثلاث وتسعين قاله خليفة بن خياط وغيره.

قال خليفة: ومات وهو ابن مائة سنة وثـلاث سنين ، وقيـل: كـانت سنّه إذ مات مائة سنة وعشر سنين ، وقيل ابن مائة سنة وسبع سنين ، وقيل أنه مات وهـو ابن بضع وتسعين سنة . قال الحافظ ابن عبد البر: وأصح ما حدثنا به عبـدا لله بـن محمد قال: حدثنا أحمد بن سلمان ، حدثنا عبدا لله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبي ، حدثنا معتمر عن حميد: أن أنس بن مالك عمّر مائة سنة إلا سنة . قال ابن عبد البر قال الحسن ابن عثمان: مات أنس بن مالك في قصره بـالطف على فرسـخين مـن البصرة سنة إحـدى وتسـعين ودفـن هنـاك رحمـه ا لله ورضـي عنـه ، وبـا لله تعـالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق .

عمر بن عبد العزيز في أول توليته

جاء في كتاب «مُثُل عليا من قضاء الإسلام» للأستاذ محمود الباجي ما نصه:

جلس شيوخ بني أمية وكبراء الدولة الإسلامية في انتظار خروج الخليفـة عمـر بن عبدالعزيز وقد عقدت المهابة ألسنتهم وغمرهم وقار خاشع وأقبل عبدالعزيز ولد الخليفة ، فهمس بعض الحاضرين يسأله عن أبيه فقال: « إن أبي منذ أن عقـدت لـه البيعة وهو في خلوة مع نفسه يصلي ويبكي . وسرح كل من في بيته مـن الجـواري والخدم . وقد دخلت عليه أمي فاطمة الليلة البارحة فوجدته يبكي فقـالت تسـأله وهو في مصلاه ودموعه تسيل على لحيته: أتبكي لأمر حـدث؟ قـال: « يـا فاطمـة إني تقلدت من أمر أمة محمد أسودها وأحمرها فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريـض الضائع ، والعادي المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريـب الأسـير ، والشـيخ الكبـير ، وذي العيـال الكثـير والمـال القليـل ، وأشـابههم في أقطـار الأرض وأطـراف البـلاد فعلمت أن ربي سائلني عنهم يوم القيامة فخشيت أن لا تثبت لي حجة فبكيت » .

ولقد خرج بالليل فوجد على الحرس خالداً ، وهـو الشـديد القـوي فقـال: يـا خالد ضع هذا السيف عنك ، وقال: « اللهم إني قد وضعت لك خالداً فـلا ترفعـه أبداً » ثم نظر في وجوه الحراس فدعا عمرو بن مهاجر الأنصاري وقـال: يـا عمـرو وا لله لتعلمن أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ، ولكن سمعتـك تكـثر تـلاوة القرآن ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد فرأيتك تحسن الصلاة وأنـت رجل من الأنصار ، خذ هذا السيف فقد وليتك حرسي » .

دخل الخليفة مجلسه الأول في ثيابه الاعتيادية وبعد أن أطرق وحمد الله واستغفره وأثنى عليه قال لأهله من بني أمية: يا قومي كانت لكم أعطية وأرزاق ولن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد.

ولما رأى تأثر بني أمية مما قرره في شأن أرزاقهم قال: « إن رسول الله ﷺ كانت له (فدك) ينفق منها ويعول منها على صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم. وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها فأبى، فكانت كذلك حياة أبي بكر وعمر، ثم أقطعها مروان، ثم صارت لعمر بن عبدالعزيز وإن غلاتها لتبلغ أربعة آلاف دينار، وقد رأيت أمراً منعه رسول الله فاطمة ليس لي بحق وإني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله ﷺ ».

والتفت أحد الحاضرين إلى الخليفة يسأله: أو هذا أول حكم حكمته على نفسك وعلى أهل بيتك يا أمير المؤمنين ؟...

فقال عمر: ولهذا الحكم بقية !

ثم دخل على فاطمة زوجته بنت عبد الملك بن مروان وكانت تملك من الجواهر والأعلاق والذهب التي أهداها إليها أبوها عبد الملك بن مروان فقال: يا فاطمة اختاري... إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد.

قالت: « لا، بل أختارك عليه وعلى أضعافه »، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين. ورجع عمر إلى مجلسه ولم يزل شيوخ بني أمية في انتظاره. ودعا صاحب بيت المال وسأله: « كم كانت نفقة من سبقني من الخلفاء في اليوم؟

فقال: عشرة آلاف درهم، فتمعر وجه عمر وسأل أصحابه: وكم ترون يحل لي من النفقة؟ فقالوا: إن شاء أمير المؤمنين نصف هذا العدد، فضحك عمر وقال: لقد حكمت بأن لا تتجاوز نفقة بيتي درهمين في اليوم. ثم دعا الحراس وكانوا ثلاثمائة حارس، وثلاثمائة شرطي، وكانت لهم أعطية وأرزاق تجل عن الحصر فقال: يا هؤلاء إن لي عنكم بالقدر حاجزاً وبالأجل حارساً من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله».

وهكذا لم ينفض المجلس الأول إلا وقد أجرى عمر على نفسه وآل بيته حركة تطهير متسعة النطاق ، وفّر بها لبيت مال المسلمين ما كان يجري لقصر الخلافة وأقارب الخليفة وحراسه وشرطته من أرزاق وعطايا . وشاع أمر هذه الحركة المباركة وهذه الأحكام العادلة التي أصدرها عمر بن عبدالعزيز في الناس ، فغير ولاة الأقاليم سلوكهم وأقبلوا على التقشف والإعراض عن التبذير ، وتوفير الأموال للفتح والصالح العام .

وناهيك بما رواه عمر بن أسيد من أن عمر بن عبدالعزيز لم يمت حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله . وقد أغنى عمر الناس .

وهذه الشهادة الخطيرة من هذا الرجل العظيم تدل على نمو الثروة العامة والثروة الخاصة بفضل ما اتخذه الخليفة من التدابير وما منعه من وسائل التبديد والتبذير . فقد زادت مدخرات المواطنين على حاجاتهم وظلوا يعرضون الأموال العريضة على بيت المال وعلى مصارف الجمهور ما لا تتسع هذه وتلك لقبولها .

وبينما يعرض المواطنون ثرواتهم العريضة على الدولة كان الخليفة صاحب الأمر والنهي كما يرويه عون ابن المعمر يدخل على امرأته فيقول: يا فاطمة «عندك درهمٍ أشتري به عنباً ؟ فتقول: لا، وأنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنباً؟ قال: هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً في جهنم».

ويدخل غلامه أبو أمية فتقدم له مولاته غداءه عدساً ويقول لها: كل يوم عدس يا أماه...؛ فتقول: يا بني هذا طعام مولاك أمير المؤمنين .

ويجتمع بنو مروان إلى باب الخليفة ويقولون لابنه عبد الملك: قل لأبيك أن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا مواضعنا ، وإن أباك قد حرمنا ما في يديه ، فدخل على أبيه فأخبره فقال لهم: إن أبي يقول لكم: « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

أفلا يحق للتاريخ الإنساني أن يسجل للعدل الإسلامي والطهارة في الحكم والتجرد في السلوك هذه السير اللامعة والأمثلة الرفيعة ؟

ثم أفلا يحق للمسلمين أن يفاخروا الأمم والشعوب بعمر بن عبدالعزيز وأمثال عمر بن عبدالعزيز في الاستقامة والإنصاف وحسن الإدارة ؟...

لقد ورث عمر بن عبدالعزيز امبراطورية لا تغيب عن ممالكها الشمس ، ولقد تهيأ له من البذخ والرفاهية وأبهة الملك ما أبدع عبد الملك بن مروان وأبناؤه: الوليد وهشام وسليمان في إعداده وتنميقه ، ولكنه عزف عن كل ذلك ورجع بالأمة إلى البساطة الأولى شأنها على عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي مع الاحتفاظ بصولة الدولة ، وقوة الجيش ، وطهارة الإدارة الحكيمة ، ونقاوة النفوس ، ونبذ أسباب الخلاف . وكان يعطي المثل من نفسه ، فيأمر بإطفاء المصابيح التي تسرج من ميزان الدولة بعد أن يفرغ من تصريف شؤون الناس ، ويوقد مصباح بيته الخافت الأضواء هرباً من أن يسرف في استعمال ما هو مرصود للمصالح العامة لحساب منفعته الخاصة .

والحق أن سلوك عمر بن عبدالعزيز يجب أن يتخذ دستوراً أممياً في التصرف الإداري ، والعدل في أموال الرعية ، وحمل رؤساء الجيوش والمصالح العامة على نبذ البطر والتبذير . انتهى من الكتاب المذكور .

بعض شمائل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

جاء في الجزء الثالث من كتاب « المطالعة الوافية » شيء من ترجمة وحياة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي ا لله تعالى عنه الذي يلحقه بعض الأئمة بالخلفاء الراشدين ما يأتي:

عهد سليمان بن عبد الملك بالخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز الرجل الصالح كما نعته في عهده ووصيته فاستفتح ولايته برد المظالم وقال: « لا أبدأ بأولى من نفسي » فنظر إلى ما في يديه من أرض أومتاع فخرج منها ، وباع أموال سليمان ورباعه وكسوته وجميع ما كان يملكه .

ودخل على زوجه فاطمة بنت عبد الملك فأخذ منها الثوب النفيس الذي كان قد عمله لها أبوها منسوجاً بالذهب ، منظوماً بالدر والياقوت وقال لها: « إن اخترتني فإني آخذ الثوب فأجعله في بيت مال المسلمين وإن اخترت الثوب فلست لك بصاحب » فقالت: « أعوذ با لله يا أمير المؤمنين من فراقك ، بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي ، لا حاجة لي بالثوب فخذه إلى بيت المال » . ودخل عليه ابن له وعليه قميص قد تقطع فقال: « رقع قميصك يا بني ، فوا لله ما كنت قط بأحوج إليه منك اليوم » .

بهذه النزاهة والصيانة والورع والزهد استفتح عمر بن عبدالعزيز ولايته أمر المسلمين سنة تسع وتسعين هجرية .

ولد بحلوان مصر سنة إحدى، وستين للهجرة ، وما إن وليّ الخلافة حتى أدرك أعباءها فقال: «يا ليت بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين» وقال: «إني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة صغيرها وكبيرها ، أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاني المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وهم في أقطار الأرض وأطراف البلاد وعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن رسول الله حجيجي فيهم ، فخفت ألا يثبت لي عند الله عذر ، ولا تقوم لي مع رسوله حجة ، فرحمت والله نفسي رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي ، وكلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً » وقال: « إنه ليس من أمة محمد في مشرق ولا مغرب أحد إلا له قبلي حق يحق عليّ أداؤه غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني» .

استهل رحمه الله خلافته بدستوره : «من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم» .

كان عمر محباً للعدل ، لا يرى أفضل منه ، كتب إلى عامله يقول: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان ضره فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فرده إلى الله» وقال: « الأكباد الجائعة أولى بالصدقات من البيت الحرام» . وكتب إليه أحد ولاته: « أما بعد ، أصلح الله أمير المؤمنين ، فإن قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من الله عز وجل مالاً عظيماً لست أقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن أمسسهم بشيء من العذاب فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يأذن لي في ذلك أفعل » . فكتب إليه عمر: « أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر كأني لك جُنة من عذاب الله وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله وأيم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليّ من ألقى الله بدمائهم والسلام » .

وأتى أعرابي إلى عمر فقال: «رجل من البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، وا لله سائلك عن مقامي هذا بين يديك» فقال عمر: «ما سمعت أبلغ من قائل ولا أوعظ لمقولٍ له من كلامك هذا» وقضى حاجته .

وكتب عمر إلى عامله على العراق «إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك ، واعلم أن ما لك عند ا لله أكبر مما لك عند الناس» .

كان عمر واسع الصدر حليماً ، يقيل العثرة ، ويتغاضى عن الهفوة ، أسمعه رجل بعض ما يكره ، فقال عمر: «لا عليك إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً ، انصرف إذا شئت» .

وكان لعمر غلام يقال له درهم فسأله: «ما يقول الناس يا درهم؟» قال: «الناس كلهم بخير إلا أنا وأنت» قال: «وكيف ذلك ؟ قال: إني عهدتك قبل الخلافة عطراً ، كباساً ، فاره المركب ، طيب الطعام ، فلما وليت رجوت أن أستريح فزاد عملي شدة وصرت أنت في بلاء» قال: «فأنت حر فاذهب عني ودعني وما أنا فيه حتى يجعل ا لله لي منه مخرجاً» . وخرج عمر ليلة ومعه حرسي فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به فرفع رأسه إليه وقال: «أمجنون أنت» ؟ قال: «لا» فهمّ به الحرسي فقال له عمر: «إنما سألني أمجنون أنت ، فقلت لا» .

كان عمر متفقهاً في الدين ، يحب الوعظ ويتقبله ، قال مجاهد: «أتينا عمر نعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه» ، وقال ميمون بن مهران: كانت العلماء عند عمر تلاميذ ، وهو معلم العلماء» .

وعن أنس بن مالك ، خادم رسول ا لله قال: «ما صليت وراء إمام بعد رسول ا لله أشبه صلاة بصلاة الرسول من هذا الفتى حين كان على المدينة ، كان يتم الركوع والسجود ، ويخفف القيام والقراءة» .

وقال عمر: «إن ا لله فرض فرائض وسن سنناً من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغتاب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل ذلك فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا» .

كان عمر حكيماً في قوله وفعله ، سأله رجل: « متى أتكلم ؟ فقال: إذا اشتهيت أن تصمت ، قال: فمتى أصمت ؟ قال: إذا اشتهيت أن تتكلم » .

وقال: « إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاورة أهل العلم والرأي » .

وقال: « إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده » .

وقال: « إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه ، فلعله قد فقئت عيناه جميعاً» .

وقال: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة ، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو ، خير من أن يتعدى العقوبة » .

وقال: « اعمل لدنياك على قدر مقامك فيها ، واعمل لآخرتك على قدر مقامك فيها » .

وقال: « إذا استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتغيك أحد بمظلمة فافعل » .

وقال لجلسائه: « أخبروني من أحمق الناس ؟ » قالوا: « رجل باع آخرته بدنياه » فقال عمر: «ألا أنبئكم بأحمق منه؟ » قالوا: « بلى » ، قال: « رجل باع آخرته بدنيا غيره » .

وقال عن الخليفة: « إنه الأم فرشت وأنامت » . وقال: « اتق الله فإن التقوى هي التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، وإن العاملين بها قليل » .

كان عمر رحمه الله زاهداً ، ورعاً ، متوكلاً ، يستشعر خشية الله ، ويخاف عذابه . دخل مسلمة بن عبد الملك عليه في المرضة التي مات فيها فقال له: « يا أمير المؤمنين إنك أقفرت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة ولا بد لهم من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك في أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله » فقال عمر: « أجلسوني » ، فأجلسوه فقال: « الحمد لله ، أبالفقر تخوفني يا مسلمة ، أما ما ذكرت من أني أقفرت أفواه ولدي من هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما

سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. وإنما بنو عمر أحد رجلين، رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه... » قال مسلمة: « فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر ».

كان رحمه الله فيه رقة وأدب، قال رجاء بن حيوة لعبدالعزيز بن عمر: «ما رأيت أكرم أدباً وأكرم عشرة من أبيك. سمرت عنده ليلة فبينا نحن كذلك إذ عشى المصباح ونام الغلام، فقلت: يا أمير المؤمنين قد عشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لي أصلحته» فقال: « ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه »، ثم حط رداءه عن منكبيه وصب الزيت في المصباح وأشخص الفتيلة، ثم رجع وأخذ رداءه وقال: « وما ضرني قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ».

ودخل رجل عليه يعوده في مرضه فسأله عن علته فلما أخبره قال: «من هذه العلة مات فلان وفلان »، فقال له عمر: « يا أخي إذا عدت المرضى فلا تنع إليهم الموتى، وإذا خرجت من عندنا فلا تعد إلينا ». وكان عمر إذا بدا له أن ينفرد بنفسه وأراد أن يقيم الناس الذين عنده، قال: « نعم إذا شئتم، رحمكم الله ».

كان عمر صابراً، لم يجد الجزع إلى قلبه سبيلاً: لما احتضر ابنه عبد الملك قال له : « كيف تجدك يا بني؟» قال « أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني» فقال عمر: «والله يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك» فقال عبد الملك: « وأنا والله لأن يكون ما يُحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب». ولما وقف على قبره قال: «رحمك الله يا بني فلقد كنت ساراً مولوداً، باراً ناشئاً ».

كان عمر يعتصم بالكتاب والسنة: قال: « سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها، فمن اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً »، وقال: « إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لست

بقاض وإنما أنا منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم، ألا وإني أثقلكم حملاً وإن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم».

كان عمر يرجع إلى الحق ويذعن له: دخل عليه ابنه عبد الملك وهو ينام نومة الضحى فقال: «يا أبت، أتنام وأصحاب الحوائج ببابك؟» قال: «يا بني إن نفسي مطيتي، فإن أضنيتها قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الحاجة». وذهب عمر يتبوأ مقيلاً فأتاه ابنه فقال: «يا أمير المؤمنين، ماذا تريد أن تصنع»؟ قال: «أي بني أقيلُ» قال: «تقيل ولا ترد المظالم؟» قال: «فإذا صليت الظهر رددت المظالم» قال: «يا أمير المؤمنين، من لك أن تعيش إلى الظهر؟» قال: «إدن مني يا بني» فدنا منه فالتزمه وقبله بين عينيه وقال: «الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني» وخرج ولم يقل، وجلس لرد المظالم.

كان عمر متواضعاً يقول لجليسه: «إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي، ثم هزني ثم قل لي: ماذا تصنع؟» ولما استخلف قال: «انظروا رجلين من أفضل من تجدون» فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة أمر فألقى لهما وسادة قبالته، فقال لهما: «إنه مجلس شر وفتنة، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إليّ فإذا رأيتما مني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني الله عز وجل». وأطرى رجل عمر في وجهه فقال عمر: «لو عرفت من نفسي ما أعرف عنها ما نظرت في وجهي».

كان عمر متعبداً ويخاف الله ويخشى عذابه، قالت فاطمة زوج عمر: «قد يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر، وما رأيت أحداً قط كان أشد فرقاً وخوفاً منه» وقال أحد الصالحين: «ما رأيت أحداً، كان الخوف على وجهه أبين منه على وجه عمر، وما رأيت أخوف من الحسن وعمر، كأن النار لم تخلق إلا لهما».

وكتب الحسن إلى عمر: «يا أمير المؤمنين لو أن لك عُمرَ نوح وملك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ما كان لك بد أن تقتحم العقبة ومن وراء العقبة الجنة والنار، من أخطأته هذه دخل هذه». فلما أتاه الكتاب أخذه فوضعه على عينيه ثم بكى وقال: «من لي بعُمُرِ نوح ويقين إبراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان ولو نلت ذلك لم يكن بد من أن أشرب بكأس الأولين».

وسئل عمر يوماً ما يبكيك؟ فقال: «تلومني أن أبكي، ولو أن سخلة هلكت على شاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة».

كان عمر يناجي ربه ويدعوه فيقول: «اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني، فإن رحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين». وكان رحمه ا الله يقول: «اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لي ما بينهما».

وكان يدعو: «اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته، ولا تأخير شيء عجلته».

خطب الناس فقال: «أحمد ا الله وأثني عليه» ثم قال: «أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يحكم ا الله بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة ا الله التي وسعت كل شيء وحرم جنة عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم وباع قليلاً بكثير وفانياً بباق، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى ا الله قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدم، وايم ا الله إني لأقول لكم هذه القالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر ا الله لي ولكم وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي حتى يستوي عيشنا وعيشكم...». ثم بكى فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل. وكانت هذه آخر خطبة له في السنة الأولى الهجرية بعد المائة.

وتضاربت الأقوال في موت عمر: فقيل إن بني أمية عاجلوه، لأنه لا يعهد بعهده إلا لمن يصلح الأمر، وقيل إن مولاه دس له سماً في طعام أو شراب لقاء ألف دينار فمرض وأخبر أنه مسموم، ثم استدعى مولاه وقال له «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: «ألف دينار» فقال: «هاتها»، فأحضرها ووضعها عمر في بيت المال وقال لمولاه: «اذهب فلا يراك أحد».

قال سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز، رضي ا الله عنهم».

كان عمر رحمه الله غضيض الطرف، جواداً بماله، بخيلاً بدينه، ما كان مزاحاً، ولا عياباً، ولا بهاتاً، ولا مغتاباً، كان العالم الورع، الزاهد الخاشع، الدين اللين، السهل القريب، الذي ملأ الأرض عدلاً، وكانت الآخرة عنده في كفة والدنيا في كفة يأخذ من هذه لتلك ويزرع في دنياه ما يجنيه في أخراه، رضي الله عنه وأرضاه. انتهى من كتاب المطالعة الوافية.

ترجمة عطاء ابن أبي رباح

كثيراً ما يأتي اسم «عطاء» في تاريخ الأزرقي وفي غيره، وكثيراً ما ينقلون عنه مسائل شتى مهمة. فلا بد للقارئ أن يعرف عنه شيئاً، ولقد بحثنا عن ترجمته حتى اهتدينا لكتابة ما يأتي:

جاء في كتاب «خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال» عنه ما نصه:

(ع) عطاء بن أبي رباح القرشي مولاهم أبو محمد الجندي اليماني نزيل مكة وأحد الفقهاء والأئمة، عن عثمان وعتاب بن أسيد مرسلاً، وعن أسامة بن زيد وعائشة وأبي هريرة وأم سلمة وعروة بن الزبير وطائفة، وعنه أيوب وحبيب بن أبي ثابت وجعفر بن محمد وجرير بن حازم وخلق.

قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث، انتهت إليه الفتوى بمكة، وقال أبو حنيفة: ما لقيت أفضل من عطاء، وقال ابن عباس وقد سئل عن شيء: يا أهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء ؟ وقيل: إنه حج أكثر من سبعين حجة، قال حماد بن سلمة حججت سنة مات عطاء سنة أربع عشرة ومائة. انتهى من الكتاب المذكور.

قال ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» عند ترجمة عطاء بن أبي رباح ما خلاصته: كان عطاء من أجلاء الفقهاء وتابعي مكة وزهادها، سمع جابر بن عبدالله الأنصاري وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وخلقاً كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه عمرو بن دينار، والزهري وقتادة ومالك ابن دينار والأعمش والأوزاعي وخلق كثير، رحمهم الله تعالى وإليه وإلى مجاهد انتهت فتوى مكة في زمانهما.

قال قتادة: أعلم الناس بالمناسك عطاء، وقال إبراهيم بن عمرو بن كيسان: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح. توفي سنة خمس عشرة ومائة، وقيل أربع عشرة ومائة وعمره ثمان وثمانون سنة رضي ا الله عنه، قال ابن أبي ليلى: حج عطاء سبعين حجة وعاش مائة سنة، وا الله تعالى أعلم. انتهى ملخصاً من الكتاب المذكور.

ترجمة جبير بن مُطعِم رضي الله تعالى عنه

جاء في الجزء السادس من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم عن ترجمة جبير بن مطعم رضي ا الله تعالى عنه عند حديث «لا يدخل الجنة قاطع رحم» ما يأتي:

وأما راوي الحديث فهو جُبير بن مُطعِم رضي ا الله تعالى عنه ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، وأمه أم حبيب بنت سعيد، وقيل أم جميل بنت سعيد بن عبدا الله بن أبي قيس من بني عامر ابن لؤي. كان من أكابر قريش وعلماء النسب، قال ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة: كان جبير بن مطعم من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة وكان يقول إنما أخذت النسب عن أبي بكر الصديق رضي ا الله تعالى عنه، وكان أبو بكر من أنسب العرب.

قدم جبير بن مطعم على رسول ا الله ﷺ في فداء أسارى بدر فسمعه يقرأ سورة الطور قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي. روى ذلك البخاري في صحيحه وقال له النبي ﷺ: لو كان أبوك حياً وكلمني فيهم لوهبتهم له، وروى عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ لأكلمه في أسارى بدر فوافقته وهو يصلي بأصحابه المغرب أو العشاء فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته من المسجد «إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» قال: فكأنما صدع قلبي، وبعض أصحاب الزهري يقول عنه في هذا الخبر: فسمعته يقرأ ﴿أَمْ خلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُون﴾ فكاد قلبي يطير، فلما فرغ من صلاته كلمته في أسارى بدر فقال: لو كان الشيخ أبوك حياً فأتانا فيهم شفعناه، وقال بعضهم فيه: لو أن أباك كان حياً أو لو أن المطعم بن عدي كان حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له، قال: وكانت له عند رسول ا الله ﷺ يد، أي للمطعم بن عدي

والد جبير ، وإنما كان هذا القول من رسول ا لله عليه الصلاة والسلام في المطعم بن عدي لأنه الذي كان أجار رسول ا لله ﷺ حين قدم من الطائف من دعاء ثقيف ، وكان أحد الذين قاموا في شأن الصحيفة التى كتبتها قريش على بني هاشم .

وقد أسلم جبير بن مطعم بين الحديبية والفتح وقيل في الفتح ، وقال البغوي: أسلم قبل فتح مكة ومات في خلافة معاوية ، وكان حليماً وقوراً عارفاً بالنسب ، وقد ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ أعطاه مائة من الإبل ، وكان من حلماء قريش وساداتهم وكان يكنى أبا محمد وقيل أبا عدي وذكره بعضهم في المؤلفة قلوبهم وفيمن حسن إسلامه منهم . ويقال إنه أول من لبس طيلساناً بالمدينة وله ستون حديثا اتفق البخاري ومسلم على ستة منها ، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بآخر ، وروى عنه من الصحابة سليمان بن صرد وعبدالرحمن بن أزهر ، وروى عنه ابناه محمد ونافع وابن المسيب وطائفة ، وقد روى عنه ابن المسيب أنه أتى النبي صلى ا لله عليه وآله وسلم هو وعثمان فسألاه أن يقسم لهم كما قسم لبني هاشم والمطلب ، وقالا: إن قرابتنا واحدة أي أن هاشماً والمطلب ونوفلاً جد جبير وعبد شمس جد عثمان أخوة فأبى وقال إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد اهـ . وقد مات جبير بن مطعم رضي ا لله عنه بالمدينة سنة سبع وخمسين ، وقيل سنة ثمان أو تسع وخمسين في خلافة معاوية ، وكانت وفاة والده المطعم بن عدي في صفر سنة اثنتين من الهجرة قبل بدر بنحو سبعة أشهر كما قال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب ، وبا لله تعالى التوفيق . وهو الهادي إلى سواء الطريق .

انتهى من كتاب زاد المسلم من الجزء السادس .

ترجمة عبد الله ابن عامر بن كريز

ذكر المؤرخون: أن عبدا لله بن عامر بن كريز جمع عام حجه العيون وصرفها في عين واحدة ، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفات ، وأجرى إليها ماء العين ، وأنشأ حوائط أي بساتين ، وكان لعبدا لله بن عامر بساتين بجهة عرنة بقرب مسجد إبراهيم المسمى بمسجد عرنة .

وبأجياد بمكة شعب ينسب لعبدا لله بن عامر بن كريز ، وبهذا الشعب وضع تبع خيله حين قدم مكة ، وكانت مطابخه في شعب عبدا لله بن عامر كما أنه وضع سلاحه بقعيقعان ، وليس معنى هذا أن ابن عامر كان قبل تبّع بل بالعكس .

قصة ثروة عبد الله بن جدعان

جاء في «تاريخ الخميس» عن قصته ما يأتي:

وأما سبب ثروة عبدا لله بن جدعان فإنه كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب اليدين ، وكان مع ذلك شريراً فاتكاً لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة حائراً مائراً يتمنى الموت أن ينزل به فرأى شقاً في جبلٍ فظن أن فيه حية فتعرض للشق يرجو أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئاً فدخل فيه ، فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان يتقدان كالسراج فحمل عليه الثعبان فتقدم فأفرج إليه فانساب إليه مستديراً بدارة عند بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان فأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف ينظر ويتفكر في أمره ، فوقع في نفسه أنه مصنوع فأمسكه بيده فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان . فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت ، فإذا جثث طوال على سرير لم ير مثلهم طولاً ولا عظماً ، وعند رؤوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم ، فإذا هم رجال من ملوك حمير وآخرهم موتاً الحارث بن مضاض صاحب العذبة الطويلة ، فإذا عليهم ثياب من وشي لا يمس منها شيء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان مكتوب في اللوح عظات .

قال ابن هشام: كان اللوح من رخام وكان فيه أنا نفيلة بن عبد المدان بن حشرم بن عبد يا ليل بن جرهم بن قحطان بن نبي ا لله هود ، عشت خمسمائة عام وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها في طلب الثروة والمجد والملك ، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت وذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد ، فأخذ منه ما أخذ ثم علم الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل إلى أبيه بالمال الذي خرج به منه يسترضيه ويستعطفه . ووصل عشيرته كلهم فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف ، وكانت جفنة يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها صبي فغرق ومات .

ومن غريب الحديث لابن قتيبة أن رسول الله ﷺ قال: كنت أستظل بجفنة عبدالله بن جدعان صكة عمي ، يعني في الهاجرة ، وسميت الهاجرة صكة عمي لخبر ذكره أبو خسفة ، وهو أن عميا رجل من عدوان وقيل من إياد وكان فقيه العرب في الجاهلية فقدم في قوم معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في وسط الظهيرة: من أتى مكة غداً في مثل هذا الوقت كانت له أجر عمرتين ، فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد ، وعمي تصغير أعمى على الترخيم وحذف الزائدة ، فسميت الظهيرة صكة عمي وعبدالله بن جدعان تيمي ، يكنى أبا زهير وهو ابن عم عائشة أم المؤمنين ، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إنه كان يطعم الطعام ، ويقري الضيف ، ويفعل المعروف ، هل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ قال ﷺ: إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، كذا قاله السهيلي في الروض الأنف .

وفي كتاب ري العاطش وأنس الواحش ، لأحمد بن عمار ، أن ابن جدعان ممن حرّم الخمر في الجاهلية بعد أن كان بها مغري ، وذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه ، فأخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه في العطاء فكان يدعو الرجل فيدنو فإذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له: قم فانشد لطمتك واطلب ديتها ، فإذا فعل ذلك أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان كذا في حياة الحيوان . انتهى من تاريخ الخميس .

ترجمة شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي

هو شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله بن مايأبى الشنقيطي الجكني مؤلف كتاب « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » ، وإننا نكتب ترجمته هنا بمناسبة ما نقلنا عنه بعض الأبحاث في كتابنا هذا فنقول وبالله العون والتوفيق:

ولد شيخنا المذكور رحمه الله تعالى سنة (١٢٩٥) خمس وتسعين ومائتين وألف من الهجرة في بلاد شنقيط فحفظ القرآن الكريم وتعلم رسمه وتجويده ، وأتقن علم القراءات خصوصاً قراءة نافع ، ثم أقبل على فقه مذهب مالك وغيره

من الفنون والعلوم حتى صار متبحراً في كل علم وفن، واشتهر أخيراً بفن التفسير والحديث .

ولقد هاجر شيخنا من بلاده مع أخيه العلامة المتبحر الشيخ محمد الخضر، الذي كان مفتياً بالمدينة المنورة، يلاحظ سبل العربات لعدم التشويش عندما دخلتها الحكومة الفرنسية، فوصلوا مراكش وفاس فاشتغل هناك بقراءة علم المنطق، ودرس علم الحديث والأصول مع الإقبال على التأليف ما بين منظوم ومنثور.

ثم حصل بينه وبين سلطان المغرب في ذلك الوقت السلطان عبد الحفيظ معرفة وصحبة فطلب منه السلطان الإقامة معه ببلدة طنجة، رغبة في أخذ العلم عنه فأقام بها مدة، ثم هاجر منها إلى المدينة المنورة فتوطنها، ثم إن السلطان المذكور قدم إلى الحجاز للحج سنة (١٣٣١) هجرية فرافقه شيخنا في حجه وزيارته، ثم سافر معه إلى القدس والخليل، ثم رجع السلطان وبقي شيخنا بعد ذلك في المدينة المنورة عدة سنين، ثم حضر إلى مكة المشرفة وأقام بها سنين عديدة يدرس بالمسجد الحرام .

ثم إنه في عام (١٣٤٤) أربع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف، انتقل من مكة المكرمة إلى مصر القاهرة، فتعرف عليه الناس وصاروا يقصدونه من جميع الطبقات العلماء وغير العلماء، ثم انتخب مدرساً بالأزهر الشريف، بكلية أصول الدين وبمسجد سيدنا الحسين، فكان مدرساً بهما إلى أن توفي بمصر في اليوم الثامن من شهر صفر سنة (١٣٦٣) ثلاث وستين وثلاثمائة وألف، رحمه الله رحمة واسعة.

ولقد كان شيخنا المذكور معتكفاً في تأليف الكتب النافعة فمن مؤلفاته ما يأتي :

١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم . وقد شرحه شرحاً وافياً مع تخريجه لجميع الأحاديث الواردة فيه، وعدد أحاديث هذا الكتاب (١٣٦٨) حديثاً، متصلة الإسناد اتفق عليها البخاري ومسلم في صحيحيهما، فيكون هذا الكتاب هو أصح كتاب في الحديث يوجد اليوم .
وسنتكلم عن هذا الكتاب أيضاً في آخر كلامنا هنا قبل الشروع في تأليفه .
٢) دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك، وهو منظوم .
٣) هداية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث .

٤) الجواب المقنع المحرر في أخبار عيسى والمهدي المنتظر .
٥) الخلاصة النافعة العلية المؤيدة بحديث الرحمة المسلسل بالأولية .
٦) إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام .
٧) شرح منظومة الشيخ عبدالعزيز الزمزمي المكي في علوم التفسير .
٨) إبراز الدر المصون على الجوهر المكنون .
٩) السبك البديع المحكم في شرح نظم السلم .
١٠) أنوار النفحات في شرح نظم الورقات .
١١) شرح منظومة خاله محمد بن أحمد ، في علم السيرة .

إلى غير ذلك من المؤلفات النافعة .

وكان أول معرفتي بشيخنا المذكور رحمه الله تعالى بعد قدومه من مكة إلى مصر القاهرة بعام واحد أي في سنة (١٣٤٥هـ) حصلت المعرفة بيننا ، ثم قرأت عليه بعض العلوم ، ثم اشتدت الألفة بيننا إلى درجة أنه اتخذني كولده ، فكنت معه في بيته غالب الأوقات ، ولم يكن له أولاد سوى بنت واحدة فقط في تلك الأيام لا تتجاوز السادسة من عمرها .

وهنا أسوق قصة تأليفه كتابه العظيم «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» فإنه قبل أن يبدأ في تأليفه طلبني في بيته فقال لي: يا محمد طاهر إنني نويت أن أؤلف كتاباً في الحديث بشرط أن يتفق عليه البخاري ومسلم ، فيكون أصح كتاب في الحديث ، وأحب أن تساعدني في إخراج هذا الكتاب بالكتابة والمراجعة ، فباركت له نيته ووضعت نفسي تحت أمره وخدمته حتى أتم رحمه الله تعالى «متن كتابه المذكور» أي أتممنا جمع الأحاديث التي اتفق عليهما الشيخان .

ثم قال لي: إنني أحب أن أضع عليه شرحاً موجزاً مختصراً ، وأنت الذي تكتب لي هذا الشرح ، فوافقته على ذلك ، واشتغلت معه بالكتابة والمراجعة ، وكنت آخذ ما أكتبه له بعد المراجعة والتصحيح إلى المطبعة لطبعه أولاً فأولاً كلما أتممنا شيئاً سلمناه للمطبعة ، وهي «مطبعة دار إحياء الكتب العربية» لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر القاهرة إلى أن تم الجزء الأول والجزء الثاني وشيئاً من الجزء الثالث . ثم إنني نويت الرجوع إلى مكة المشرفة ، فقد طالت غيبتي عنها ، فقد مضى عليّ وأنا بمصر ثماني سنوات متتالية ، فلما عزمت عزماً أكيداً على السفر صعب على شيخنا المذكور فراقي ، فسافرت سنة (١٣٤٨) ، وبعد سفري

توسع في شرحه لكتابه المذكور حتى جعله في ستة أجزاء وقد كان تمام تأليفه وتمام طبعه في أواخر شهر جمادى الأولى سنة (١٣٥٩) تسع وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة. وبعد إتمامه أرسل إليّ وأنا بمكة جميع الأجزاء تامة كاملة هدية منه.

فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه على الإسلام والمسلمين خير الجزاء آمين.

ولقد كان رحمه الله تعالى على فقره سخياً كريماً، يقصده الناس خصوصاً من أهل شنقيط، فكان بيته مفتوحاً على الدوام، وكان يسعى في قضاء حوائج الغرباء، وكان يحب الصالحين وأهل العلم، وكان مستقيماً جداً لا يترك التهجد ليلاً، يمثل العلماء العاملين، وكان له الباع الطويل في الشعر، فكم من الأبحاث العلمية والفصول نظمها في قصائد فريدة بل له مؤلفات بالنظم.

هذا ومن لطائف ما وقع بيننا وكنت موضع سره يأتمنني في جميع أموره: أنه وقع في نفسه يوماً أن يتزوج مصرية على زوجته الشنقيطية التي أتت معه إلى مصر، وله منها بنت فقط، فأخبرني بما في نفسه فلم أستحسن ذلك منه، وكنت معه إذ ذاك في بيته، ثم إنني بعد يومين سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية لأقيم بها مدة طويلة، ويريد الله أن أكتب له خطاباً بالبريد، وكررت له أنني لا أشير عليه بالزواج على زوجته التي معه، وأثنيت عليها كثيراً، وبالأمر المقدر وقع هذا الخطاب في يد زوجته فاطلعت عليه «وكانت قارئة كاتبة» فقامت بينهما مشاجرة ومخاصمة على ذلك، وإذا الشيخ رحمه الله يكتب لي جواباً مملوءًا بالعتاب والغضب ويقول: أنت السبب في كل ما وقع بيني وبين زوجتي.

وبينما أنا أهم برد الجواب والاعتذار منه وأخذ رضائه، إذا بجواب آخر منه يأتيني وقد وضع في داخله نقوداً هدية منه إليّ إرضاءً لي ويقول: إن زوجتي عرفت بأني كتبت إليك في حالة الغضب، فأمرتني أن أتحفك بهدية ونطلب منك أن تبادر بالحضور إلينا في القاهرة في أسرع وقت لتقيم عندنا ثلاثة أيام، ثم ترجع إلى الإسكندرية. فسررت من ذلك جداً وذهبت لزيارته وضحكنا مما وقع. كانت هذه الحكاية في سفري من الحجاز إلى مصر للمرة الثانية، أي في سنة (١٣٥٤) هجرية. ثم رجعت في السنة التي بعدها إلى مكة شرفها الله تعالى، وبلغني أن زوجة الشيخ توفيت إلى رحمة الله تعالى وتركت له بنتاً واحدة فقط، وأن الشيخ قد تزوج بعدها بمصرية، وبلغني أنه رزق منها بولد فقط، ثم توفي الشيخ بعد أن زوج ابنته في التاريخ الذي ذكرناه آنفاً، رحمهما الله تعالى وعفا عنا وعنهما.

ذكرنا هذه الحكاية عن شيخنا المذكور بياناً لفضله ، وللذكرى والترحم عليه «والذكريات صدى السنين الحاكي » فإن ألذ أيام حياتنا ما قضيناه بمصر حول الأزهر الشريف مع الطلبة الأبرار والعلماء الأخيار . فتلك أيام الخير والبركة وأيام السعد والهناء وكان الرخص ضارباً أطنابه حول جميع البلدان .

نسأل الله الكريم الحليم أن يجعل ما بقي من حياتنا في هناء وسعادة وتوفيق للخير والعبادة مقروناً بالصحة والعافية إنه سميع مجيب وبعباده لطيف خبير .

ترجمة صاحب كتاب تاريخ الخميس

مؤلف كتاب « تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس » هو العالم العلامة الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري الكردي . لم نبحث عن ترجمته حتى نكتب عنه كثيراً ، وإنما نكتب هذه الأسطر استنباطاً من كتابه المذكور .

يؤخذ من كتابه أنه كان عالماً علامة ومؤرخاً بحاثة ، إذا كتب عن مسألة استوفى الكلام عنها أو ذكر مبحثاً تاريخياً أشبعه تحقيقاً من جميع الوجوه ، لذلك كان كتابه المذكور «تاريخ الخميس» من الكتب المهمة المعتمدة أتى فيه بشيء كثير من الفوائد والفرائد . وقد ذكر أحوال العالم من بدء التكوين وأتى من سيرة النبي ﷺ بما يشفي الغليل . استخلص تاريخه من شتى كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب كما صرح بذلك في المقدمة مع بيان أسماء الكتب القيمة التي نقل عنها وتبلغ نحو مائة وعشرين كتاباً . وقد طبع كتابه المذكور مرتين ، وهو يقع في جزءين كبيرين ، وتاريخه اليوم نادر الوجود .

لم نقف على تاريخ ولادته ووفاته ، ولكنه كان موجوداً في سنة تسعمائة وإحدى وثلاثين من الهجرة ، حيث إنه قام بنفسه بذرع أركان الكعبة وعرض الملتزم والشاذروان وحِجْر إسماعيل ، وذلك في السنة المذكورة كما هو صريح كلامه . ومن هنا نستدل أنه جاء إلى مكة لكن لا ندري هل جاء إليها حاجاً أو مقيماً ، ثم رأينا في تاريخه المذكور بصحيفة ١٢٦ من الجزء الثاني أنه أتى إلى مكة للإقامة والمجاورة بها حباً فيها لما خصها الله تعالى من الفضائل .

وقد مدح تاريخه بعضهم في أربعة عشر بيتاً ، منها قوله:

في طبع حسن أسفرت أضواؤه عن حسن طبع للخميس الأوحد

سعة اطلاع مؤلف حبر لنا ... بث الحوادث بالحديث المسند

فكأن مرآة الزمان أمامه ... رسمت أشعة ذهنه المتوقد

فأتى بتاريخ العصور مرتباً ... لقديمها بالسبق والمتجدد...إلخ

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن جزاءه آمين .

ترجمة العلامة تقي الدين الفاسي المكي صاحب شفاء الغرام

هو العلامة المؤرخ الشهير أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي ، ولد بمكة ليلة الجمعة عشرين من ربيع الأول سنة (٧٧٥) خمس وسبعين وسبعمائة . نشأ بمكة وقرأ على علمائها وعني بالحديث ، وقد أجازه كثير من العلماء الأعلام ، كالعلاّمة قاضي مكة جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة القرشي ،

والعلاّمة جده لأمه قاضي مكة وخطيبها محمد بن أحمد النويري الشافعي ،

والعلاّمة ابن جده لأمه أي خاله قاضي الحرمين محب الدين النويري ،

والعلاّمة أبو المعالي عبدالله بن عمر الصوفي ،

والعلاّمة قاضي اليمن مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط،

والعلاّمة المفتي كمال الدين محمد الدميري المصري ،

والعلاّمة إبراهيم بن محمد الدمشقي الصوفي المعروف بالبرهان ،

والإمام المؤرخ الشهير ابن خلدون صاحب المقدمة . وغيرهم رحمهم الله تعالى جميعاً .

وقد كان الفاسي قاضي قضاة المالكية بمكة المشرفة ، وكان يدرس الفقه والحديث والتفسير وغيرها . وللفاسي جملة مؤلفات ، منها:

١- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وقد طبع لأول مرة سنة (١٣٧٦) هجرية .

٢- تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام ، ويسمى أيضاً « تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام » وهو مختصر كتابه شفاء الغرام .

٣- التاريخ الكبير المسمى بـ « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ».

٤- هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام ، وهو مختصر كتابه تحفة الكرام .
٥- الزهور المقتطفة في تاريخ مكة المشرفة ، وهو مختصر كتابه هادي ذوي الأفهام.
٦- عجالة القِرى للراغب في تاريخ أم القرى .
٧- الجواهر السنية في السيرة النبوية .

توفي الفاسي ليلة الأربعاء ثالث وعشرين من شوال سنة (٨٣٢) اثنتين وثلاثين وثمانمائة بمكة المكرمة رحمه الله تعالى .

ترجمة العلامة قطب الدين الحنفي

هو الإمام العلاّمة قطب الدين بن علاء الدين النهروالي المكي الحنفي ، والنهروالي « باللام » نسبة لنهروالة بلدة في توابع كجرات الهند ، أما نهروان « بالنون » فهو كورة واسعة بين بغداد وواسط والنسبة إليها نهرواني .

كان صاحب الترجمة رحمه الله تعالى عالماً فاضلاً يدرّس بالمسجد الحرام الفقه والتفسير وسائر العلوم ، وكان بليغاً فصيحاً ، لذلك كان يكتب الإنشاء لأشراف مكة ، وكان له منزلة عند الأتراك فلا يحج أحد من كبرائهم إلا وهو يطوف به ولا يرتضون بغيره ، وكانوا يعطونه العطاء الواسع ، وكان رحمه الله تعالى سخياً كريماً كثير التنزهات في البساتين ، وكثيراً ما كان يخرج إلى الطائف « مصيف مكة » ، وكان يستصحب معه جماعة من العلماء والأدباء ويقوم بكفايتهم .

وللإمام القطبي تاريخه الشهير المسمى « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » في تاريخ مكة المشرفة ، وكتابه المسمى « البرق اليماني في الفتح العثماني » وقد توفي المذكور في سنة (٩٨٨) ثمان وثمانين وتسعمائة ، وقيل توفي في السادس والعشرين من ربيع الثاني سنة (٩٩٠) تسعين وتسعمائة . غفر الله لنا وله .

انتهى من المقدمة التي كتبها في تاريخه المذكور عند طبعه العلاّمة الجليل صديقنا العزيز السيد محمد أمين كتبي المكي أطال الله حياته وأدام عليه رضاءه وتوفيقه .

وقال الغازي في ترجمة القطبي صاحب تاريخ مكة المسمى « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » ما يأتي:

هو العلاّمة الفاضل مفتي مكة الشيخ قطب الدين الحنفي المكي النهروالي، نسبة إلى نهرواله من أعمال الهند، كان من الأعيان المذكورين والفضلاء المشهورين، مجللاً محترماً، له تواليف في عدة فنون، منها: تأليفه الجامع في علم الحديث جمع الكتب الستة بأحسن جمع وأشمل ترتيب وتهذيب، ومنها: طبقات الحنفية في أربع مجلدات، ومنها: تاريخ مكة المسمى بـ «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام». وكان يعرف الألسنة الكثيرة ويتكلم بها، وينظم نظماً بليغاً وينشئ إنشاء حسناً، ومن شعره هذه القصيدة، كما في وفيات الأكابر:

بسيف الحجى عند اهتزاز النوائب ... تقلدت فاستغنيت عن كل قاضب
وجردت من رأسي الشديد عزائما ... أفل بها حد السيوف القواضب
ولي همة أسمو بصارم عزمها ... إذا السيف أعيى في صدور الكتائب
وما فاتني فضل أردت اقتناءه ... عليّ وما عزت صعاب المطالب
وكم خطب العلياء غيري ولم ينل ... ونلت لأني كنت أكرم خاطب
ولو شئت أدنت لي رقاب كثيرة ... ولكن رأيت الدهر أغدر صاحب
فما الدهر إلا مقبل إثر ساعة ... ولا العمر مع طول المدى غير ناهب
وما الناس إلا حاسد ومعاند ... وما الدهر إلا راجع في المواهب
وما شاد بنيان العلى متهور ... ولا ساد من لم يفتكر في العواقب
أخالط أخوان الزمان بعقلهم ... لأنظر ما يبدي به من عجائب
وأظهر أني مثلهم تستميلني ... عذاب الثنايا سود شعر الذوائب
وإن أليم الهجر مما يسوءني ... وإن لذيذ الوصل أسنى مآربي
وما علموا أن الهوى دون رتبتي ... وأن مقامي فوقه بمراتب
ألا في سبيل المجد قوم عهدتهم ... يرون اكتساب الفضل أزرى المكاسب
وما عندهم فضل سوى كثرة الغنى ... ولا المجد إلا أخذ بعض المناصب
فضائلهم محشوة في ثيابهم ... وأورادهم إتقان هز المناكب

ومن نظمه أيضاً ما يأتي:

إلى متى يا عين هذا الرقاد ... ما آن أن تكتحلي بالسهاد
تنبهي من رقدة وانظري ... ما فات من خير على ذي الرقاد

يـــا أيهـــا الغـــافل في نومـــه	قـم لـترى لطـف الكريـم الجـواد
مـــولاك يدعـــوك إلى بابـــه	وأنــت في النــوم شـبيه الجـواد
ويبســط الكفــين هــل تــائب	مـن ذنبـه وهـل لـه مـن مـراد
وأنــت مــن جنــب إلى جــانب	تــدور في الفــرش للــين المهــاد
يدعـــوك مـــولاك إلى قربـــه	وأنــت تختــار الجفــا والبعــاد
مــا هكــذا التســويف في غفلــة	ليـس علـى العمـر العزيـز اعتمـاد
لقـد مضـى ليـل الصبـا مسـرعاً	وسـر صبـح الشـيب فـود الفـؤاد
أفـــق فـــإن ا لله ســـبحانه	رحمتـه عمـت جميـع العبـاد

توفي المذكور كما في تاريخ الجنابي، عن نحو ثمانين سنة في أوائل سنة تسعين وتسعمائة، ودفن بالمعلا. انتهى من تاريخ الغازي.

فانظر رحمنا ا لله تعالى وإياك إلى بلاغة الشيخ قطب الدين في نظمه وإلى غزارة معانيه، وانظر إلى همته العليا ونزاهته التامة وعقله الناضج وفكره الثاقب، وإن المتأمل في هاتين القصيدتين يعلم تمام العلم أن القطب رحمه ا لله تعالى كان من العلماء العاملين لا تستهويه الدنيا ولا تغره زخارفها.

اللهم رحمتك نرجو وعذابك نخاف، وظننا بك حسن وأملنا فيك عظيم فانشر علينا سحائب رحمتك ورضائك وبرك، وابسط لنا بساط أنسك ونعمائك وخيراتك، وأغرقنا في بحار فضلك وإحسانك وعفوك وعافيتك، وارزقنا من فضلك العميم رزقاً حلالاً واسعاً عظيماً مقروناً بالتوفيق التام وعدم الطغيان، واسترنا بسترك الذي لا ينكشف في الدنيا والآخرة آمين. وصلى ا لله وسلم على محمد أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ترجمة أيوب صبري باشا صاحب كتاب مرآة الحرمين الذي باللغة التركية

وقد ألف كتاباً عن تاريخ الحرمين الشريفين «مكة المكرمة والمدينة المنورة»، وهو يقع في مجلدين ضخمين باللغة التركية نعتقد أنه جمع فأوعى خصوصاً من العمارات التي حصلت من قبل سلاطين الأتراك العثمانيين كما نعتقد أن إبراهيم

رفعت باشا المصري صاحب كتاب «مرآة الحرمين» الآتي ذكره نقل عن المذكور كثيراً لأنه كان يعرف اللغة التركية، وأنه ما سمى كتابه المذكور «مرآة الحرمين» إلا تقليداً له وخيراً ما فعل، فرحم الله تعالى الجميع ورحمنا معهم آمين.

هو اللواء البحري العثماني التركي أيوب صبري باشا رحمه الله تعالى لا ندري متى بدأ في تأليف كتابه المذكور «مرآة مكة ومرآة المدينة» ويسمى أيضاً «مرآة الحرمين»، ولكن ذكر مؤلفه في آخر جزء الكتاب بصحيفة ١٣٤٣ ما يأتي:

فرغت من ترتيب هذا الكتاب بعون الله الملك الوهاب في اليوم المبارك الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وتسعين ومائتين بعد الألف من أعوام صاحب أكمل الوصف، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا وسيد العالمين محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والظاهر والله تعالى أعلم أن مؤلف الكتاب المذكور بعد أن فرغ من تأليفه في السنة المذكورة وهي سنة (١٢٩٩) شرع حالاً في مباشرة طبعه بدليل أن الجزء الرابع من الكتاب ابتدئ في طبعه سنة (١٣٠١). وتم طبع هذا الجزء في السنة التي بعدها.

والكتاب المذكور يقع في بضعة أجزاء كبار، وكان طبعه بالأستانة ولم نقف على ترجمة المؤلف ولا عن سنة وفاته وهل له مؤلفات أخرى أم لا. والحق يقال أنه كتاب فريد في بابه، وحيد من نوعه، وهو مؤلف باللغة التركية، ومطبوع بنفس هذه اللغة بأحرف عربية لا بالحروف اللاتينية، وإنه لكتاب مشحون بالفوائد والمعلومات التاريخية الوثيقة، وحبذا لو ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ثم يطبع وينشر، لأنه كتاب خاص بتاريخ الحرمين فقط.

ونعتقد أن المرحوم إبراهيم رفعت باشا أخذ اسم هذا الكتاب ووضعه على كتابه «مرآة الحرمين» الذي ألفه باللغة العربية، لأنه أحياناً ينقل في كتابه عن هذا الكتاب، ولأنه ألّف وطُبع قبل كتابه، ولو أن المؤرخين في عصرنا كانوا يعرفون القراءة والكتابة باللغة التركية لنقلوا من هذا الكتاب أبحاثاً كثيرة ومواضيع شتى نافعة.

هذا وعندما انتهى أيوب صبري باشا من كتابه المذكور «مرآة الحرمين» بادر كثير من العلماء والأدباء الأتراك في تقريظه والثناء عليه باللغة التركية، ما عدا تقريظ واحد فهو باللغة العربية نظماً بقلم الأديب الكبير «نجيب نادر أفندي» أحببنا نقله هنا وهو هذا:

طالما طالعت أطايب المطولات، وتفرست في أفخر المفصلات: قصد الوصول لأصدق التفاصيل متوقياً الوقوع بسقطات الأقاويل: حتى حان الحين وحلت الحان، ورق يراع مرآة الحرمين الرنان، وهتف هاتف التهليل بسل سبيل السلسبيل وخل الدخيل وواصل الأصيل، فافترست فرصة التفرس واسترقت ساعة التجسس فإذا بذوات الذوايل ومنهومات النهي وناعمات الأنامل يحتجبن المحاسن حياء ويتوارين من أنوار المرآة الوراء، فراعتني يراعتها وبهرتني براعتها وقلت إن هذه:

تمثال أجيال مضت وسراة ... حلت محل الحال بعد فوات
صور من الأيام جَسّمها النهى ... فبدت من الآثار في مشكاة
فكأنها تمثال دهر قائم ... كي ينشر الماضي ويحي الآتي
قامت معانيها لدينا صورة ... لتذكر الأحياء بالأموات
فأدر لحاظك في حدائق طرسه ... وتغنّ من ذكراك بالنغمات
وانظر إلى كرة العوالم جمعت ... في أسطر تجلى على اللحظات
وأجل بصيرتك الدقيقة بينما ... أمضى القضا في المحو والإثبات
واسمع أحاديث الزمان وأهله ... فلرب ذكر ضم بعد شتات
نبأ عظيم عن سبأ حكم أتى ... يغنيك عن بلقيس بالآيات
ومحافل وجحافل ضاقت بها الـ ... أقطار واجتمعت إلى ميقات
ومواكب وكتائب غص الفضا ... منها وها هي عرضة الخطرات
وقرون دهر طالما طالت بها ... أيامها وقصرن عن غايات
جمعت فحلت في كتاب قيم ... كحلول روح الراح في الوجنات
قامت صحائفه حدائق عبرة ... ماست غصون سطورها بسمات
نطقت عن الدنيا بفضل سكوتها ... فأقامت المعنى مقام الذات
لله أي يراعة وبراعة ... جمعت به الأقمار في هالات

ينبوع فضل فجّرته حكمة ... فجرى بأكرم حالة وسمات
وبدا كبرهان جلي ساطع ... عن عصر من هوأس كل حياة
ذاك الذي آماله وشعاره ... نشر المعارف في دجى وغداة
سلطان حق مالك البرين والـ ... ـبحرين محي العدل بعد ممات
حامي حمى الحرمين ظل الله بل ... غازي الألدا رابح...
(عبدالحميد) ابن المجيد ابن الأولى ... راياتهم تنجي من...
سطعت أشعة عصره وتلألأت ... وسطت على شمس الضحى...
لو قام قيصر مع بني كسرى نعم ... سجدوا لما يوتيه قبل...
خضعت له الأفلاك بل لعبيده ... جاءت مناهى...
قم صاح واستطلع صباحاً رائقاً ... واعجب من المرقاة في المرآة
مرآة نور الله زينتها التقى ... تحكي حمى الفردوس في نغمات
أهدى بها الأيام (أيوب) فما ... تنفك تشكر منه فيض هبات
شهم جلى بكر العلوم ولم يزل ... بعوان كل ملائح وصفات
مليء الملا بعبير طيب ثنائه ... ملئت أفاصي البحر والواحات
يثني اليراع على معالي فكره ... والسيف يحمده على العزمات
والعلم يشهد أنه بحر له ... بر يجل عوائد وصلات
أفنى الليالي ليس يثني عزمه ... عن نيل عين الخلد في الظلمات
أحيى لنا الأعيان في آثاره ... ولتلك أكبر حكمة وثبات
سبحان من أولاه ما هو أهله ... ويزيده في رفعة الدرجات
فلقد أقر عيون كل ذوي الحجا ... ما بين ماض في الزمان وآت
وغدا له الحر (النجيب) مؤرخاً ... «قد حصل الحرمين في مرآت»

انتهى التقريظ والشطر الأخير في الأبيات، هو تاريخ انتهاء طبع الجزء الرابع من الكتاب المذكور وهو يوافق سنة (١٣٠٢) هجرية.

ترجمة مؤلف كتاب مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا

نلخص هنا من ترجمته المذكورة في كتابه: «مرآة الحرمين» ما يتعرف به القارئ الكريم، وهو هذا:

هو إبراهيم بن الشريف سويفي التاجر بن عبد الجواد، ولد بمدينة أسيوط بمصر يوم ١٨ جمادى الأولى سنة (١٢٧٣) هجرية، وتوفي والده في السنة المذكورة وأمه حامل به ولما أدرك سن التمييز أدخلته أمه مكتباً ليتعلم القراءة والكتابة فحفظ القرآن الكريم، ولما ظهرت نجابته أدخله بعض الوجهاء مدرسة أسيوط الأميرية الابتدائية فمكث بها ثلاث سنوات كان فيها مثال الجد والنشاط، ثم دخل المدرسة التجهيزية بالقاهرة سنة (١٢٩٠)، ولم يكد يتم بها نصف عام حتى اختبرته نظارة الحربية مع بعض المتقدمين ليكون من طلبة المدرسة الحربية، فمكث بها ثلاث سنوات منح في آخرها رتبة الملازم الثاني، ثم أحيل الضابط إبراهيم رفعت مع كثير من الضباط إلى الاستيداع، ففي هذه المدة كان المذكور يتردد على الجامع الأزهر ماشياً على قدميه ليتلقى العلوم الدينية، ثم ألحق بعد مدة الاستيداع بفصيلة الفرسان في سوهاج، ثم نقل إلى القاهرة، ثم نقل منها إلى سواكن، ثم نقل إلى القاهرة، ثم انتقل إلى بعض الجهات مراراً وتعين في كثير من الوظائف، وفي ١٢ رجب سنة (١٣١٨) ترقّى إلى رتبة (القائمقام). وفي ٤ رمضان من السنة المذكورة عين رئيساً لحرس المحمل، ثم في ١٥ شوال سنة (١٣١٩) منح رتبة (الميرالاي) ثم عين أميراً للحج في الثلاث السنوات الآتية (١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥) هجرية، ثم بعد إحالته للمعاش عين في بعض الوظائف الهامة. وبالجملة فالمذكور كان عصامياً عالماً فاضلاً شجاعاً كريم الأخلاق. وقد طبع في حياته كتابه المذكور لأول مرة سنة (١٣٤٤) هجرية بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ولم نعلم متى توفي المذكور ولكن نعتقد أنه بلغ الثمانين رحمه الله تعالى رحمة الأبرار وجزاه خيراً جزيلاً بتأليفه هذا الكتاب القيم آمين.

انظر: صورة رقم ٣.١٧، إبراهيم رفعت باشا بلحيته الجميلة ولباسه الرسمي

ترجمة الأستاذ محمد لبيب البتنوني

الأستاذ محمد لبيب بك البتنوني المصري هو أستاذ عالم فاضل ومنشئ كاتب بليغ، يحمل لقب «البكوية» لم نطلع على شيء من ترجمته في مؤلفاته ولم يكتب عنه أحد لأنه من أهل عصرنا، ولا ندري متى ولد ومتى توفي، لكن نظن والله تعالى أعلم بالغيب أنه توفي من بعد سنة (١٣٥٠) خمسين وثلاثمائة وألف هجرية.

ولا ندري في أي ديوان كان يشتغل بالقاهرة، ونظن أنه كان في الديوان العالي لخديوي مصر «عباس باشا حلمي الثاني» بدليل أنه أصدر إرادته السنية بتعيين الأستاذ محمد لبيب في السفر بمعيته إلى الأقطار الحجازية للحج كما هو مذكور في كتابه «الرحلة الحجازية».

فسافر من مصر الأستاذ لبيب المذكور في معية عباس حلمي الثاني خديوي مصر في يوم ٢٩ ذي القعدة سنة (١٣٢٧) هجرية الموافق ١٢ ديسمبر سنة (١٩٠٩) ميلادية.

وبعد أداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة رجعوا إلى مصر، وعندئذ قام الأستاذ محمد لبيب بك البتنوني بتأليف كتابه القيم «الرحلة الحجازية» وقد طبعه مرتين. وكانت الطبعة الثانية سنة (١٣٢٩) هجرية بمطبعة الجمالية الكائنة بحارة الروم بمصر.

وتأليفه لهذا الكتاب كان قبل تأليف كتاب «مرآة الحرمين» لإبراهيم باشا رفعت بدليل أن هذا أحياناً ينقل من كتاب البتنوني، وكان كلاهما صديقين ومن البلاد المصرية وكتاب كل منهما يعد من أهم المراجع التاريخية للحرمين الشريفين.

وللأستاذ البتنوني مؤلف آخر مطبوع اسمه «رحلة الأندلسي» وهو كتاب قيم في تاريخ الأندلس وكانت رحلته إلى أسبانيا في سنة (١٩٢٦) ميلادية ولا نعلم هل له مؤلفات أخرى أم لا، ونعتقد أنه لا يسلم من ذلك لما له من النشاط الأدبي.

وبالجملة فالأستاذ البتنوني أستاذ عالم فاضل وأديب بليغ ومؤرخ محقق رحمه الله تعالى وجزاه عن خدماته العلمية خير الجزاء.

ترجمة ابن جبير صاحب الرحلة الشهيرة

جاء في مقدمة رحلته المطبوعة لأول مرة بمصر ترجمة ابن جبير المذكور نقلاً من كتاب «الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة» ومن تاريخ مصر الكبير المقفى للشيخ تقي الدين أحمد المقريزي ، ومن كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد المقري . وقد جاءت ترجمته وذكر بعض قصائده وأقواله الحكيمة في ٢٥ صحيفة في مقدمة رحلته منقولة عن هذه الكتب الثلاثة . ونحن نلخص هنا من تلك الصحائف نبذة صغيرة عن سيرته العطرة رحمه الله تعالى فنقول:

هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني الأندلسي ، كان عالماً أديباً بارعاً شاعراً مجيداً سُنّياً فاضلاً صالحاً زاهداً ، نزيه الهمة ، كريم الأخلاق . رحل من الأندلس إلى المشرق ثلاث مرات ، وحج في كل واحدة منها ، خرج من غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة ، ثم عاد إلى وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام (٥٨١) . وصنف رحلته المشهورة وهو كتاب أنيس ممتع ، ولما شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، قوي عزمه على الرحلة الثانية فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة (٥٨٥) ، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة (٥٨٧) . وسكن غرناطة ثم مالقة ثم سبتة ثم فاس ، ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي ، وكان كلفه بها عظيماً ، فوصل مكة وجاور بها طويلاً ، ثم ببيت المقدس ثم تحول إلى مصر ثم الإسكندرية ، فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه ودفن بها في التاسع والعشرين من شعبان سنة (٦١٤) أربع عشرة وستمائة رحمه الله تعالى . وكان مولده ببلنسية سنة (٥٣٩) وقيل بشاطبة سنة (٥٤٠) هجرية .

وقد دخل ابن جبير المذكور الحرمين الشريفين والشام والعراق ومصر والجزيرة وبيت المقدس وغيرها ، كان من علماء الأندلس بالفقه والحديث والقراءات ، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض والكتابة ، وقد جرت بينه وبين

طائفة من أدباء عصره مخاطبات ومكاتبات ظهرت فيها براعته وإجادته، فنظمه لطيف فائق، ونثره بديع رائق، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار.

(ومن تصانيفه) : نظمه الذي سماه: «وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» في مراثي زوجته أم المجد، وكتاب: «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان»، وكتاب : «رحلته» الشهيرة، وله غير ذلك.

وإليك بعض قطع من نظمه (فمنها) حينما وصل مكة المشرفة سنة (٥٧٩) يخاطب نفسه:

بَلغت المُنى وحللت الحرم ... فعاد شبابك بعد الهرم

فأهلاً بمكة أهلاً بها ... وشكراً لمن شكره يلتزم

وهي طويلة ومنها:

قد أحدث الناس أموراً فلا ... تعمل بها إنني امرؤ ناصح

فما جماع الخير إلا الذي ... كان عليه السلف الصالح

ومنها قصيدة جاء في آخرها:

وشاهدت في الأسفار كل عجيبة ... فلم أر من قد نال جداً بجده

فكن ذا اقتصاد في أمورك كلها ... فأحسن أحوال الفتى حسن قصده

وما يحرم الإنسان رزقاً لعجزه ... كما لا ينال الرزق يوماً بكده

حظوظ الفتى من شقوة وسعادة ... جرت بقضاء لا سبيل لرده

ومنها:

لي صديق خسرت فيه ودادي ... حين صارت سلامتي منه ربحا

حسن القول سيء الفعل كالجزّا ... رسَمَّى وأتبع القول ذبحا

ومنها:

يا وحشة الإسلام من فرقة ... شاغلة أنفسها بالسفه

قد نبذت دين الهدى خلفها ... وادعت الحكمة والفلسفه

ومنها مشيراً إلى المساجد الثلاث المسجدين الحرامين وبيت المقدس، وقد قاله في أول رحلته:

طال شوقي إلى بقاء ثلاث ... لا تشد الرحال إلا إليها

إن للنفس في سماء الأماني ... طائر لا يحوم إلا عليها

قص منه الجناح فهو مهيض ... كل يوم يرجو الوقوع لديها

ومنها:

إذا بلغ امرؤ أرض الحجاز ... فقد نال أفضل ما أمَّ له

وإن زار قبر نبي الهُدى ... فقد أكمل الله ما أمَّله

ومنها:

هنيئاً لمن حج بيت الهُدى ... وحطّ عن النفس أوزارها

وإن السعادة مضمونة ... لمن حج طيبة أو زارها

وقال لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفاً:

بدت لي أعلام بيت الهُدى ... بمكة والنور بادٍ عليه

فأحرمت شوقاً له بالهوى ... وأهديت قلبي هدياً إليه

وقال في تفضيل المشرق:

لا يستوي شرق البلاد وغربها ... الشرق حاز الفضل باستحقاق

أنظر لعين الشمس عند طلوعها ... زهواً بعجب بهجة الأشواق

وانظر لها عند الغروب كهيئةٍ ... صفراء تعقب ظلمة الآفاق

وكفى بيوم طلوعها من غربها ... أن تأذن الدنيا بعزم فراق

وههنا نقف عن الاسترسال في ترجمة ابن جبير وقصائده، وهذه النبذة كفاية للتعريف بفضله وعلمه وأدبه فرحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله بفضله ورحمته آمين. وولادة ابن جبير كانت سابقة لولادة ابن بطوطة وبينهما مائة وثلاث وستون سنة.

ترجمة ابن بطوطة صاحب الرحلة الشهيرة

جاء في أول رحلته ما ملخصه: هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة، ولد رحمه الله تعالى بطنجة يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة ثلاث وسبعمائة، وكان خروجه من طنجة للحج والزيارة والسياحة في اليوم الثاني من شهر رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة وعمره يومئذ اثنتان وعشرون سنة، ووالده بقيد الحياة.

كان ابن بطوطة عالماً فاضلاً كثير السياحة، طوى الأمصار وطاف بكثير من الأقطار من بلاد العرب والعجم، وأورد في رحلته بكثير من الحكايات والأخبار، وقيد فيها عادات بعض الأقوام وأسماء بعض الرجال والبلدان بعد شرح ما يشكل منها وضبطها بوضع الحركات ليكون النطق بها صحيحاً، وقد سمى رحلته الشهيرة: « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد فرغ من تقييدها وتبييضها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة من الهجرة النبوية. انتهى من نفس رحلته المطبوعة.

وولادة ابن بطوطة كانت بعد ولادة ابن جبير وبينهما مائة وثلاث وستون سنة.

ولقد كتبت عنه « مجلة الطالب » التي تصدر بالقاهرة في العدد ٦٥ من السنة الثالثة، يتلخص فيما يأتي: رحلات ابن بطوطة ثلاثة، فزار خلالها مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب « أي لوبيا » ومصر وعيذاب وهي « ميناء على البحر الأحمر » وبلاد الصعيد والفسطاط وفلسطين ولبنان وسوريا والحجاز ومكة والمدينة واليمن والعراق وإيران والأناضول والخليج الفارسي وعمان والبحرين والأحساء والهند والسند وخوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وبلاد السودان وغير ذلك، وقد ولاه السلطان الهندي محمد شاه القضاء في دهلي على المذهب المالكي وأرسله مع وفده إلى ملك الصين.

وقالت المجلة المذكورة: وهو أول رحالة كتب عن مجاهل أفريقيا الوسطى، وقد ترجمت رحلاته إلى جميع اللغات وأفردت لها الجامعات مكاناً علياً للدراسة والبحث. انتهى من المجلة.

فانظر رحمك الله تعالى كيف يعتني الإفرنج بدراسة المؤلفات الإسلامية التي لا تتعلق بهم ولا ببلادهم، وكانت نتيجة أبحاثهم الاستيلاء على بعض الأمم والشعوب عن طريق دراسة عاداتهم وعقلياتهم.

نسأل الله أن ينور بصائر المسلمين وعقولهم لينظروا إلى ما فيه صلاحهم ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا.

ترجمة الوزير عثمان باشا نوري

تولى الوزير عثمان باشا نوري ولاية الحجاز في عشرين من شهر شعبان سنة (١٢٩٩) تسع وتسعين ومائتين وألف من الهجرة بعد سلفه أحمد عزت باشا الأرذنجاني من قبل الدولة التركية العثمانية وذلك في أواخر إمارة الشريف عبد المطلب بن غالب وأوائل إمارة الشريف عون الرفيق، وكان قبل توليته قومندانا للعساكر العثمانية بالطائف، وكلمة « باشا » كلمة تركية وهي من الألقاب الحكومية تعطيها الحكومات للرجال الممتازين من الأعيان، وهي أكبر لقب حكومي، وبعدها كلمة « بك » وهي لقب دون « الباشا » ولكنها لا تقرأ بالكاف بل تكتب بها وتقرأ بالهاء هكذا « بيه » بكسر الباء وسكون الهاء، وكانت الحكومة التركية والحكومة المصرية تمنح هذين اللقبين للرجال العظماء البارزين، ثم أبطلتهما الحكومتان المذكورتان في زماننا. أبطلتهما الحكومة التركية أولاً ثم بعدها بسنوات مصر.

فالوزير عثمان باشا نوري كان عاقلاً فاضلاً، وكان رجل الأعمال والإصلاح مقداماً عل كل خير مما ينفع العباد والبلاد كما يظهر ذلك من أعماله الآتية:

فقد بنى بمكة المشرفة دار المطبعة الأميرية « أي مطبعة الحكومة » التي بأول أجياد وجلب لها المكائن والأدوات اللازمة حتى كانت تطبع فيها باللغتين العربية والتركية.

وبنى بها أيضاً دار الحميدية «أي دار الحكومة» نسبة للسلطان عبد الحميد الثاني لتكون مقراً للحكم لولاة الحجاز الذين يعينون من قبل الدولة، تلك الدار العظيمة الفخمة التي لم يكن مثلها بمكة في ذلك الزمن، وبنى بها أيضاً داراً للتلغراف بباب الوداع بلصق المسجد الحرام.

وبنى بها أيضاً قشلة أجياد « أي مقر وزارة المالية الآن» وقد جعلها مقراً لجنود المدافع، وهي على يسار الذاهب إلى أجياد، وعمّر بها أيضاً ما خرب من قلعة جبل هندي وقد أحضر للمسجد الحرام ساعتين كبيرتين طول كل واحدة منهما نحو مترين ووضعهما مع ساعات المسجد.

وبنى مستشفى بمنى وبازاناً للماء بمسجد الخيف بها، وهو الـذي أجرى الماء في مواسير من الرغامة إلى جدة وهو المسمى بعين الوزيرية نسبة إلى الوزير عثمان باشا المذكور ، وهو الذي أصلح طريق الصعود إلى غار جبل ثور بمكة .

واستمرت هذه العين تسقي أهل جدة إلى سنوات كثيرة . وقد عمل الوزير عثمان باشا المذكور كثيراً من الأعمال الجليلة غير ما ذكر على أنه لم يمكث في وظيفته إلا نحو خمس سنوات ، فجزاه الله خير الجزاء ورحمه رحمة واسعة .

وهكذا ينبغي أن يكون الوزراء والأمراء ونوّاب الملوك والسلاطين يشمرون عن ساعد الجد فيعملون لخدمة البلاد والعباد بإخلاص وأمانة ، فهم المسؤولون أمام الله وأمام ولاة الأمور ، نسأل الله التوفيق لكل ما فيه الخير والصالح العام آمين .

انظر: صورة رقم ٣١٨ ، المشير عثمان باشا نوري

هذا وقد ذكر المرحوم إبراهيم رفعت باشا صاحب مرآة الحرمين أن الوزير العادل عثمان نوري باشا المذكور هو أول من أنشأ بستاناً بمكة جهة جرول وأباحه لأهلها يتنزهون فيه ويستظلون بوارف ظله ، وأنفق عليه آلاف الجنيهات فما كان من الشريف عون إلا أن سعى به لدى الخليفة فعزله وأمر بإزالة بستانه . ثم قال في هامش كتابه المذكور ما يأتي: وُلّي عثمان نوري باشا أمر الحجاز لأول مرة سنة (١٢٩٩) ، وهو رجل ذكي شهم ، سياسي تحيّل في القبض على الشريف عبد المطلب الذي همّ بالخروج على الدولة فعزلته من إمارة مكة وولّت مكانه الشريف عون الرفيق ، وقد وشى هذا بعثمان نوري باشا لما أن غلّ يده من المكوس والمظالم التي كان يتقاضاها من العربان والحجاج فعزل بالوشاية بعد خمس سنوات ، وعين والياً على اليمن ثم أعيد إلى ولاية الحجاز وقد أصلح مجرى عين زبيدة وعمل فيها صنابير «حنفيات أو بازانات» وهو الذي أنشأ ديوان الحميدية ودار البريد والثكنات العسكرية بمكة وجدة وأنشأ سور ينبع ، وقد أنشأ الحديقة المذكورة في ولايته الثانية ولم يكن موضعها مقبرة ، وإنما كان فضاءً واسعاً ، ولما امتلأت نفس عون منه خرج إلى المدينة في جمع من علماء مكة وأشرافها وضم إليه علماء المدينة وأشرافها وكتبوا إلى السلطان يطعنون في الوالي ، وأنه يكره الأشراف ويسبهم ويهينهم ويحتقرهم ، وأنه حوّل مقبرة المسلمين إلى متنزه . فما كان من السلطان إلا أن عزل العادل المصلح ، وكان خليقاً بأمير المؤمنين أن يتبين في قول

الشريف كما أمر الله تعالى في كتابه ، وأن لا يحكم على متهم إلا بعد استجوابه واستماع قوله . انتهى منه .

نبذة عن تاريخ جدة

تبعد جدة عن مكة المكرمة بنحو خمسة وسبعين كيلومتراً ، وقد جاء في كتاب المملكة العربية السعودية المطبوع سنة (١٩٥٥) ميلادية تأليف مستر توتشل الذي كان بها حوالي سنة (١٣٥٥) هجرية ، أن عدد سكان جدة يبلغ (١١٢٠٠٠) نسمة نقول: أما اليوم وقد تغيرت الأحوال وكثر الأجانب بالمملكة فإن عدد سكان جدة قد يزيد عن هذا العدد.

والذي نراه والله تعالى أعلم أن جدة لم تكن معروفة ولا مسكونة في زمن الجاهلية، وإنما هي ممر للمسافرين من البدو الرحالة من أهل الجمال ، وقد يأتي إليها الصيادون للحوت والسمك بزوارقهم الصغيرة كجزء من ساحل البحر ، فلم تكن معروفة في زمن رسول الله ﷺ ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام وأصحابه إذا هاجروا إلى المدينة وأتوا منها إلى مكة كانوا يمرون بالقرب من الحديبية المسمى اليوم بالشميسي ، ومنها إلى عسفان ، ومنها إلى الجحفة فالمدينة ، وكانوا يذهبون إلى عسفان من جهة التنعيم .

ولما هاجر الصحابة السابقون الأولون للإسلام رضي الله تعالى عنهم إلى الحبشة ساروا من مكة إلى الشعيبة ، ومنها ركبوا البحر في سفن شراعية حتى وصلوا إلى الحبشة ، وعندما رجعوا منها إلى مكة كان طريقهم هو الطريق الأول . ومما لا شك فيه أنه كان في ذلك العهد ملاحون يعرفون السفر في البحر بمراكبهم .

فلما كان في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه اكتشف بعضهم طريق جدة إذ هو طريق مستقيم إلى جهة الغرب ، ورأوا أنها أقرب إلى مكة من الشعيبة فسكن بعضهم فيها تدريجياً ، وبمرور الزمن كثر الناس فيها وساروا على ساحلها شمالاً نحو رابغ فالمدينة المنورة ، كما ساروا بالمراكب في بحرها نحو السودان والحبشة وما جاورهما . وهذه سنة الله تعالى في الكون يظهر بعض الأشياء فجأة ويختفي بعضها فجأة . والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

الكلام على مدينة جدة

لما كانت جدة أهم ميناء الحجاز من قديم الزمان إلى الآن ، فإنها تعد باب الحرمين الشريفين لورود غالب الحجاج وأكثر الأرزاق عن طريقها من جهة البحر الأحمر وهو المسمى قديماً بـ« بحر القلزم » . لذلك كان من الواجب علينا أن نذكر شيئاً من تاريخ جدة مع العلم بأنه لم نر لجدة مؤلفات عن تاريخها غير أننا وقفنا على بعض أسماء الكتب وهي كالآتي: الجواهر المعدة في فضائل جدة ، تأليف أحمد الحضراوي ، وكتاب السلاح والعدة في تاريخ جدة للخطيب ، وكتاب تاريخ جدة للأستاذ عبد القدوس الأنصاري ، وهو مطبوع سنة (١٣٨٣هـ) ولكن لم نطلع على شيء من الكتب المذكورة لأننا ما ظننا أنه يأتي يوم نكتب عن جدة شيئاً .

فنقول: إن جدة ما عرفت إلا في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، فقد كانت في بادئ أمرها قرية صغيرة يسكنها قضاعة قبل الإسلام ، وكان الميناء المعروف في ذلك الوقت « الشعيبة » فاشتكى الناس إلى عثمان رضي الله تعالى عنه ما يلاقونه من التعب في هذا الميناء ، لكثرة ما فيها من الشعاب التي تعيق سير السفن ، وطلبوا منه أن يجعل « جدة » ثغراً لمكة بدلاً من الشعيبة . فأمر رضي الله عنه بجعل جدة ميناء لمكة كما سيأتي تفصيله ، فمن ذلك اليوم عرفت جدة واشتهرت لدى الناس .

ومما يذكر أن عثمان رضي الله عنه عند قدومه إلى جدة أنه نزل إلى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المئزر عليهم .

والشعيبة بضم الشين وكسر العين واقعة في جنوب جدة ، وتبعد عنها بمقدار مرحلتين ، وهي قريبة من الرأس الأسود ومعروفة إلى اليوم كما ذكره الشيخ رشدي ملحس رحمه الله تعالى في تعليقه على تاريخ الأزرقي .

ويقال إن بالشعيبة بقايا أساطين الرخام التي جلبها أمير المؤمنين محمد المهدي رحمه الله تعالى من مصر والشام لعمارة المسجد الحرام ، وقد دفنها الريح بالرمل والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

فجدة اليوم أصبحت أهم ميناء في المملكة العربية السعودية ، وقد صار عدد سكانها وعدد منازلها أضعاف أضعاف ما كان عليه في الزمن السابق كما سيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى .

قال ابن جريج : سمعت عطاء يقول: إنما جدة خزانة مكة ، وإن ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج به منها ، اهـ .

نقول : وهذا كلام صحيح لا ريب فيه ، فما سمعنا أن بعض التجار والمزارعين في وقتنا هذا أيضاً ينوي بشيء من بضاعته أو ثمار زرعه باسم مكة فلا يبيعه في غيرها ولو أعطي ضعف الثمن .

ما قاله الرحالة ابن جبير عن جدة

قال ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة يصف مدينة جدة حينما وصل إليها في اليوم الرابع من ربيع الثاني من السنة المذكورة ما يأتي :

وجدة هذه قرية على ساحل البحر أكثر بيوتها أخصاص « هي جمع خُص بالضم ، البيت من القصب » ، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر ، وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم ، وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر صلى الله عليها وسلم عند توجهها إلى مكة فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك . وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينتسب أيضاً إليه رضي الله عنه ، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد رضي الله عنه ، وأكثر سكان هذه البلدة مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون رضي الله عن سلفهم الكريم ، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً . ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن من إكراء جمال إن كان له أو مبيع لبن أو ماء إلى غير ذلك من تمر يتلقطونه أو حطب يحتطبونه ، وربما تناولوا ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحانه المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا ،

جعلنا الله مما يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . وبخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها .

ويذكر أنها كانت من مدن الفرس ، وبها جباب منقورة في الحجر الصلد تتصل بعضها ببعض تفوت الإحصاء كثرة ، هي داخل البلد وخارجه حتى أنهم يزعمون أن التي خارج البلد ثلثمائة وستون جبا ومثل ذلك داخل البلد . وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء وعجائب الموضوعات كثيرة فسبحان المحيط علماً بها . انتهى من رحلة ابن جبير .

انظر: صورة رقم ٣١٩ ، باب مكة في جده من الخارج

وقال الغازي في الجزء الرابع من تاريخه عن جدة ما يأتي:

الباب السابع في ذكر نبذة من أخبار جدة وفيه ثلاثة فصول: «الفصل الأول» في وصف جدة ما ورد في فضلها: قال الشيخ عبد القادر بن أحمد بن محمد بن فرج الشافعي الخطيب بجدة في كتابه: «السلاح والعدة في تاريخ جدة» نقل العلامة المحدث جار الله بن فهد عن الحافظ عز الدين بن الأثير في النهاية: الجُدّ بالضم ساحل البحر ، والجدّة أيضاً وبه سميت المدينة التي عند مكة جدة . انتهى .

وذكر العلاّمة الشيخ أحمد الحضراوي في كتاب «الجواهر المعدة في فضائل جدة» قال الميرغني رحمه الله تعالى في عدة الإنابة : جدة بضم الجيم المعجمة وتشديد الدال وسكون الهاء وقيل بالكسر ، وهي أسكلة مكة بينهما مرحلتان ، ويقال لها جديدة أيضاً بكسر الدال المهملة وفتح ما قبلها بعدها ياء ساكنة ودال مهملة مفتوح وهاء ساكنة . انتهى .

قال الشيخ محمد لبيب البتنوني في رحلته ، قال البكري في معجمه: جدة بضم أوله ساحل مكة . يسمى بذلك لأنها حاضرة البحر ، والجدة من البحر والنهر ما يلي البر ، وأصل الجدة الطريق الممتد ، وأهل البلاد ويسمونها الآن جدة بكسر الجيم ويسميها المصريون جدة بفتحها ، وهي واقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر على (٣٩) درجة وعشر دقائق من الطول الشرقي وعلى (٢١) درجة و (٣٨) دقيقة من العرض الشمالي . وقد كانت قرية صغيرة في بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاعة قبل الإسلام ، فلما كانت سنة ست وعشرين للهجرة في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه اشتكى الناس له الشدة التي يعانونها في ميناء الشعيبة بضم الشين المعجمة ، لكثرة ما فيها من الشعاب التي كانت تعوق سير

السفن بها وقالوا له: إن في شمالها خيراً منها ، فذهب عثمان إليه في جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الأولى ، فأمر بجعله ثغراً لمكة سموه جدة ، والشعيبة الآن قرية صغيرة على مسافة ٢٠ كيلومتراً من جنوب جدة . ساحل جدة كله شعاب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء . انتهى .

وفي الجامع اللطيف: ولعل من جعل جدة ساحلاً لمكة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي سنة ست وعشرين من الهجرة ، وكانت الشعيبة ساحل مكة قبل ذلك ، وقال ابن جبير في رحلته: جدة قرية على ساحل البحر وبها آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة ، وبخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها . ويذكر أنها كانت مدينة من مدن الفرس وبها جباب منقورة في الحجر الصلد تتصل بعضها ببعض ، تفوت الإحصاء كثرة هي داخل البلد وخارجه ، حتى أنهم يزعمون أن التي خارج البلد ثلثمائة وستون جباً ومثل ذلك داخل البلد وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء . انتهى .

وفي كتاب السلاح والعدة قال الشيخ جار الله ابن فهد رحمه الله ، إن بجدة أثر رسوم قديمة تدل على قدم اختطاطها ، وأنها كانت مدينة كبيرة ، وأنها كانت في زمن الفرس ، وهم الذين بنوا سورها الأول ، وأنهم لما بنوه وأتقنوا بناه جعلوا عرض الحائط عشرة أشبار وجعلوا فيه أربعة أبواب : أحدها : باب الدومة في جهة الشام ، (٢) وباب المربعة في جهة اليمن ، وكان عليه حجر أخضر فيه طلسم إذا سرق من البلاد شيء وجد اسم السارق مكتوباً في الحجر ، (٣) وباب مكة في جهة القبلة ، (٤) وباب الفرضة مما يلي البحر . وحفروا حوالي البلد خندقاً عظيماً في الوسع والعمق ، وكان يدور ماء البحر حول البلد وهي يومئذ جزيرة في وسط لجة البحر فلما حصّن الفرس البلد غاية التحصين وخافوا من ضيقة الماء عملوا ثمانية وثمانين صهريجاً داخل البلد ومثلها خارجاً وقيل: ثلاثمائة داخلها وثلاثمائة خارجها ، ثم إن الفرس خرجوا منها واندرست وبقيت خاوية على عروشها .

وكان سبب خروجهم فيما ذكره القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي قاضي جدة حينئذ في تاريخه بجدة ، أن والي مكة الشريف داود بن هاشم وقيل شكر بن هاشم الحسين وكان يجيء إليه خراج جدة في كل عام من قضبان الحديد والنحاس ، ففي بعض السنين غلط الخزندار وبعث الخراج حملاً من قضبان الذهب فسكت الشريف إلى العام القابل وبعثوا إليه حملاً من الحديد على حكم العادة فلم

يقبله الشريف ورده وقال: ما آخذ منكم إلا ذهباً مثل العام، فتفقدوا خزائنهم فوجدوا خزندارهم غلط وبعثوا إليه ذهباً وتعبوا لذلك، فجمع كبيرهم أعيان دولته وأكابرهم وأشار عليهم بالخروج منها لكونهم يعجزون عن ذلك في كل سنة ويعجزون عن محاربته وجعل لهم مثلاً وهو، أنه أحضر لهم ثلاثة طيور أحدها صحيح سليم، والثاني منتوف الجناح، والثالث مذبوح وقال لهم: إن خرجتم الآن فأنتم مثل هذا الطير الحي السليم، لا يقدر عليكم وأرسله في الجو، وإن قعدتم إلى العام القابل تكونون مثل هذا المنتوف الجناح إن طردته أمسكته، وإن قعدتم إلى العام الثالث فأنتم مثل هذا المذبوح وألقاه بين أيديهم، فاستصوبوا رأيه وأخذوا منها ما عز عليهم ويمكنهم حمله وسافروا في سفنهم بحراً وتفرقوا في البلدان يمناً وشاماً وسواكن ودنكك، فلما خلت من سكانها استوطنها الأعراب من كل مكان من جميع الجهات. انتهى.

انظر: صورة رقم ٣٢٠، باب مكة من الخارج وسوق البدو

انظر: صورة رقم ٣٢١، الباب الشمالي المخصص لعبور السيارات بجدة

وفي الرحلة اليمانية: بندر جدة الواقعة على البحر الأحمر هي أسكلة عظيمة، وبها جمرك وثكنات للعساكر ومحجر صحي، وهي أعظم أسكلة في ولاية الحجاز وهي مدينة عظيمة شاهقة المباني آهلة بالسكان يبلغ عدد سكانها خمسين ألفاً، وبها أعاظم تجار الولاية ومخازنهم بها. وميناء جدة من أعظم الموانئ الموجودة على البحر الأحمر، ويمتاز بحر جدة بوجود شجر اليسر بقاعه واللؤلؤ، ويوجد به أعظم أصناف السمك وأعظم الآثار، وبجدة أيضاً سفراء الدول. والمسافة ما بين جدة ومكة ثمانون كيلومتراً. وبجدة قبر أم البشر السيدة حواء رضي الله عنها. انتهى.

انتهى من تاريخ الغازي.

ثم ذكر الغازي رحمه الله تعالى مساجد جدة وأسواقها وأحوشتها، لكن نحن ما رأينا نقلها حتى لا يطول بنا الكلام ثم ختم كلامه بقوله: وجملة أحوشتها تنوف على مائة حوش مشتملة على قصور وبيوت مرونقة، والكشاك على البحر من أنفَسها كشك حوش الشرايبي.

وأما الخانات فمنها: الخان الكبير الشهير بقصبة الهنود، وهو تجار الأقمشة، ومنها خان الدلالين قريب من سوق البنط، وخان العطارين وغير ذلك. وأما

الحوانيت ونحوها فتنوف عن أربعة آلاف دكان ، وأما القهاوي فهو نحو المائة . انتهى ما في الجواهر المعدة . انتهى من الغازي .

وقد ظهر في وقتنا الحاضر كتاب عن مدينة جدة « تاريخ جدة » للأستاذ عبدالقدوس الأنصاري . وقد طبع سنة (١٣٨٤هـ) أو في التي قبلها .

الطائرات العربية السعودية بجدة

قال الغازي في تاريخه: وفي ٢١ ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف ، وصلت إلى جدة الطيارات العربية الأربعة التي هي قسم من قوة الطيران لحكومة جلالة الملك قادمة من جزيرة دارين عن طريق البصرة . وقد كان في استقبالها جماهير كبيرة من موظفي الحكومة والأهلين على اختلاف طبقاتهم في جانب المطار المعد لنزولها في خارج السور بجدة .

انظر: صورة رقم ٣٢٢ ، لطائرات الحجاج بجدة
انظر: صورة رقم ٣٢٣ ، الحجاج عند وصولهم جدة بالطائرات
انظر: صورة رقم ٣٢٤ ، سفر الحجاج من جدة إلى مكة بالسيارات

وصول الطائرات العربية إلى الطائف

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه: وفي الساعة التاسعة من مساء يوم الخميس ٣ جمادى الأولى سنة (١٣٤٩) تسع وأربعين وثلاثمائة وألف . غادرت جدة ثلاث طيارات من قوة الطيران العربية قاصدة الطائف عن طريق جدة ، بحرة ، وادي فاطمة ، وادي الليمون ، الطائف . وبعد مضي ساعة ونصف ، أي في الساعة العاشرة والنصف وصلت الطيارات المذكورة إلى الطائف . وقد كان أعد لها مكان نزولها خلف الثكنة العسكرية ، فبكّر الأهلون لاستقبالها من المكان المذكور وأحاطت بأطرافه الأربعة ثلة من القوات العسكرية للمحافظة على النظام ، وأعد سرادق فخم لجلوس المستقبلين . ولما ظهرت الطيارات في الأفق شرّف صاحب الجلالة الملك المعظم والأمراء الكرام إلى المطار حيث استقبله الأهلون استقبالاً فخماً ، وأدت الجند التحية لجلالته ، وبعد أن نزلت الطيارات إلى الأرض تشرّف ضباطها بمقابلة جلالة الملك في السرادق الخاص ، ثم شرّف جلالته إلى مكان الطيارات حيث تفقدها واطلع على ترتيباتها ، وفي اليوم التالي ركب كل من

أنجال جلالته الأمير سعود والأمير فيصل والأمير محمد والأمير خالد طائرة حلقت بهم في أفق الطائف مدة طويلة من الزمن. وفي يوم الأحد عادت الطيارات المذكورة إلى مطارها في جدة. انتهى من الغازي.

أول قنصل إنجليزي بجدة

جاء في الجزء الرابع من تاريخ الغازي نقلاً عن خلاصته أو نقلاً عن الجواهر المعدة ما يأتي: وفيه أيضاً وفي سنة (١٢٥٢) اثنتين وخمسين ومائتين وألف من الهجرة، كان أول وصول قنصل الإنكليز بجدة وتوطنه بها، ونصب بها بنديرة لهم أي بيرقاً، وهي أول بنديرة نصبت بجدة، ولم يعهد توطنهم بها قبل ذلك ولله الأمر من قبل ومن بعد. اهـ. انتهى من الغازي.

ويقول صديقنا الكريم الأستاذ أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة» عن التمثيل الأجنبي ما يأتي: وفي أواخر هذا العهد عرفت البلاد التمثيل السياحي الأجنبي، فقد وصل أول قنصل إنكليزي إلى جدة في عام (١٢١٦) لمباشرة أعمال القنصلية فيها، فاتخذ داراً خاصة بذلك رفع فوقها راية البريطانيين لأول مرة في تاريخ التمثيل السياسي الأجنبي. ولم يكتمل القرن حتى تعدد التمثيل في جدة وأصبح للفرنسيين والروسيين قناصل في جدة. انتهى منه.

ذكر سبب قتل القنصل الإنجليزي بجدة سنة ١٢٧٤هـ

جاء في الجزء الأول من تاريخ الغازي عند ذكر فتنة جدة في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ما نصه:

وملخص هذه الفتنة إجمالاً أن صالح جوهر أحد التجار بجدة كان له مركب منشور فيه بنديرة الإنكليز، والبنديرة هي البيرق فأراد أن يغيرها ويجعل فيها بنديرات الدولة العلية فسمع بذلك قنصل الإنكليز فمنعه من ذلك فلم يمتنع، وأخذ رخصة من نامق باشا فأذن له بوضع بنديرة الدولة العلية، وكتب له منشوراً بذلك فوضعها ونشرها وأزال بنديرة الإنكليز فطلع قنصل الإنكليز البحر ودخل المركب المذكور وأنزل بنديرة الدولة التي نشرت ونشر بنديرة الإنكليز. وشاع أنه لما أنزل بنديرة الدولة وطئها برجله وتكلم بكلام غير لائق، فغضب بذلك المسلمون الذين في جدة فهاجوا هيجة عظيمة، وقصدوا دار القنصل وقتلوه، وثار من ذلك فتنة

عظيمة قتلوا فيها غيره من القناصل الموجودين ومن كان بجدة من النصارى ونهبـوا أموالهم وأرادوا أن يقتلوا فرج يسر أحد التجار المشهورين بجدة، لكونه كان محامياً عن قنصل الإنكليز ومعدوداً من رعيتهم فاختفى، فأراد عوام الناس أن ينهبـوا داره فمنعهم من ذلك عبدا لله نصيف وكيل مولانا الشريف محمد بن عون بجدة. وكان نامق باشا بمكة والشريف علي باشا القائم مقام الإمارة كان قد توجه إلى المدينة المنورة لمقابلة الحج، فلما جاء خبر هذه الفتنة لنامق باشا اهتم لذلك، ثم توجه إلى جدة وسكّن الفتنة، وقبض على بعض الناس الذين نسب لهم القتل والنهب ووضعهم في السجن وأرسل إلى الدولة العلية يخبرهم بما وقع في هذه الفتنة، وطلع إلى مكة لأداء الحج، فلما كان الثالث من أيام التشريق والناس بمنى جاء الخبر من جدة بأنه جاءهم مركب حربي للإنكليز وصار يرمي بالمدافع المحشوة بالقلل على جدة، فخرج كثير من الناس من جدة هاربين بنسائهم وأولادهم وأموالهم ركباناً ومشاة، فانزعج الناس من ذلك انزعاجاً شديداً. فلما فرغ الناس من أداء مناسك الحج ونزلوا من منى عقد نامق باشا في مكة مجلساً في ديوان الحكومة أحضر فيه كثيراً من العلماء والتجار وأعيان الناس، وأحضر كثيراً من تجار جدة الذين قدموا مكة لأداء الحج وكانوا حضروا وقوع الفتنة حين وقعت بجدة، وأخبرهم بمجيء المركب الحربي الذي جاء من الإنكليز وبضربه القلل على جدة، وبخروج كثير من الناس منها. وقال لهم: القصد المشاورة معكم فيما يحصل به تسكين هذا الأمر، فقال كثير من الحاضرين: إن الإسلام والحمد لله قوي وأهله كثيرون، وذكروا له عدد قبائل الحجاز مثل هذيل وثقيف وحرب وغامد وزهران وعسير وأنكم لو تعطون الناس رخصة ينفرون نفيراً عاماً فيجتمع من ذلك الألوف بل اللكوك فيدفعون تعدي الإنكليز ولا يرضون أن يقع عليهم هذا الذل.

فقال لهم نامق باشا: هذا العدد الذي ذكرتموه لقبائل العرب صحيح، بل يوجد مثله أضعافاً مضاعفة، لكن إذا اجتمعت هذه القبائل غاية ما يقدرون عليه أنهم يصلون إلى مكة وجدة، وبعد ذلك يدفعون هذا المركب عن جدة فيحصل من الإنكليز وغيرهم من النصارى تسلط على بقية مدائن الإسلام، لأنه ليس عندهم مراكب يعبرون فيها ولا ذخائر ولا جبخانات ولا مدافع ولا شيء مما يحتاجون إليه، وأيضاً مرادنا دفع هذا الضرر الآن، ولا يجتمع هؤلاء القبائل إلا بعد مدة طويلة، فلا بد من التدبير الآن في دفع هذا الضرر بالسرعة.

فقال بعض التجار الحاضرين: يأذن أفندينا في تغريق هذا المركب الذي جاء يرمي بالمدافع المشحونة بالقلل على جدة فإن كثيراً من أهل البحر الموجودين تحت أيدينا لهم معرفة وصناعة بتغريق المراكب يأتونها من تحت الماء، ويغرقونها ببرامات يجعلونها في المراكب ؟

فقال لهم: ليس هذا صواباً فإنكم إذا أغرقتم مركباً يأتيكم بعده عشرة مراكب، فإذا أغرقتم العشرة يأتيكم مائة وهكذا فيتسلسل الأمر ولا يزول الضرر وأيضاً ربما يتركون جدة ويتوجهون إلى إضرار بقية مدائن الإسلام، وإنما الأحسن في تدبير هذا الأمر أن نتداركه باللطف وحسن السياسة بأن نتوجه إلى جدة أنا وكثير من أعيانكم ونجتمع بقبطان هذا المركب ونعقد معه أمراً يندفع به الضرر فاستحسنوا رأيه، فتوجهوا إلى جدة وأخذوا معه رئيس العلماء الشيخ جمال ومعه من العلماء الشيخ صديق كمال، والشيخ إبراهيم الفته، والشيخ محمد جاد الله، وشيخ السادة السيد محمد بن إسحاق بن عقيل، وتجار جدة الذين كانوا جاءوا للحج، فلما وصلوا إلى جدة صار اجتماعهم بالقبطان المذكور وعقدوا مجلساً صار القرار فيه على أنه يصير تحقيق هذه القضية ويحصل الإنتقام ممن وقع التعدي في هذه الفتنة ويكون ذلك بعد رفع الأمر إلى الدولة العلية وانتظار الجواب منها بما يأمرون به. ورضي الجميع بذلك وكتبوا به مضبطة وختموها بأختامهم، فلما كان أواخر شهر محرم من سنة خمس وسبعين وصل إلى جدة مأمورون من طرف الدولة ومعهم أناس من كبار الإنكليز والفرنسيين، وكان نامق باشا بجدة فعقدوا مجلساً معه واتفقوا على أنهم يحضرون المتهمين في إحداث هذه الفتنة ويقررونهم ويستنطقونهم كل واحد وحده حتى يقفوا على حقيقة الأمر ويعرفوا الذين قتلوا والذين هجموا. فلما تم قرارهم على ذلك صاروا يعقدون مجالس لا يحضر فيها نامق باشا، وإنما يحضر هؤلاء المرخصون الذين جاءوا مرسلين من الدولة ومن الإنكليز والفرنسيين، وصاروا يقبضون على كل من صارت عليه تهمة ويحبسونه في موضع لوحده ثم يحضرون كل واحد منهم وحده ويسألونه ويستنطقونه بغاية التلطف والتعظيم والتبجيل ويحتالون عليهم بكل حيلة ويكتبون كل ما يقول. فكان ملخص تلك الاستنطاقات أن أهل جدة الذين هاجوا في الفتنة وحصل منهم القتل والنهب قالوا: إنما كان ذلك منا بأمر من التجار وقاضي جدة الشيخ عبدالقادر شيخ والأعيان وسموا أناساً منهم، وقال الحضارم: أمرنا بذلك شيخ السادة السيد عبدالله باهارون، وكبير الحضارم الشيخ سعيد العامودي. وقال

شيخ السادة، وسعيد العامودي، وقاضي جدة وبقية التجار والأعيان: إنما كان ذلك منا بأمر من إبراهيم آغا القائم مقام نامق باشا. هذا ملخص استنطاقاتهم فإنها تتضمن الاعتراف بما وقع والاعتراف بأنهم تسببوا لذلك إلا أنهم أسندوا ذلك لسعيد العامودي وعبدالله المحتسب والقائم مقام نامق باشا. وكان نامق باشا وهو بجدة يرسل إليهم سراً ويقول لهم: الحذر أن تقروا بشيء من ذلك فإنه يصير عليكم ضرر كثير، فلم يمتثلوا ذلك بل أقروا بذلك وسببه أن المرخصين الذين حضروا من الدولة والإنكليز والفرنسيس كانوا يتلطفون بهم ويعظمونهم ويحتالون عليهم بكل حيلة ويقولون لهم: أخبرونا بالواقع ولا يحصل لكم ضرر، ويسألون كل واحد وحده فإذا نطق بشيء مخالف للواقع يقولون له: إن فلاناً وفلاناً أخبرا بما هو كذا وكذا، وذلك يخالف ما تقول ولا يزالون به حتى يطابق كلامه كلام غيره.

فلما انتهت الأسانيد كلها إلى إبراهيم آغا القائم مقام نامق باشا أحضروه وسألوه فأنكر جميع ما نسبوه له وكذبهم ولم يقر بشيء، فاحتالوا عليه بكل حيلة فلم يقر بشيء، فحبسوه في موضع وحده ثم حكموا عليه بالنفي مؤبداً، ثم بحثوا أيضاً عن الأشخاص الذين حصل منهم القتل والنهب فعرفوهم وحبسوهم، ثم تشاور هؤلاء المرخصون المرسلون من الدولة العلية ومن الإنكليز والفرنسيس فيما بينهم، واتفقوا على أنه يقتل عبدالله المحتسب وسعيد العامودي ونحو اثني عشر نفساً من عوام الناس الذين وقع منهم القتل، وأنه ينفى من جدة شيخ السادة وقاضي جدة وبعض التجار بعضهم مؤبداً وبعضهم إلى مدة مؤقتة ويحبس كثير من الذين وقع منهم النهب بعد أن أحضروا كثيراً مما أخذوه، وأن ما بقي من الأموال المنهوبة يأخذون قيمته من الدولة العلية. فلما تم قرار مجلسهم على ذلك كتبوا به مضبطة وختموها بأختامهم وأعطوها لنامق باشا وطلبوا منه تنفيذ ذلك على ما جاؤوه به من الأمر بالدولة فإنهم جاؤوه بأوامر فيها الأمر له بتنفيذ ما يتفقون عليه فنفذه فأخرجوا عبدالله المحتسب وسعيد العامودي من الحبس فقتلوهما في سوق جدة على رؤوس الأشهاد وقتلوا الإثني عشر الذين من عوام الناس خارج جدة.

وكان ذلك اليوم يوماً مهولاً في جدة اشتد فيه الكرب على جميع المسلمين، ثم نفوا من حكموا عليه بالنفي، فمنهم من قضى السنين التي وقتوها له ورجعوا إلى جدة، ومنهم من مات ولم يرجع إليها. فمن الذين رجعوا: الشيخ عبدالقادر

شيخ قاضي جدة، والشيخ عمر بادرب، والشيخ سعيد باغلف، ومن الذين لم يرجعوا وتوفوا وهم منفيون: السيد عبدا لله باهارون، والشيخ عبدالغفار والشيخ يوسف باناجه رحمه ا لله تعالى، وقبضوا من الدولة العلية قيمة بقية الأموال المنهوبة وكان شيئاً كثيراً. هذا ملخص تلك الفتنة باختصار، ولا حول ولا قوة إلا با لله، فإن هذه القضية كانت من أعظم المصائب على الإسلام. انتهى ما ذكره العلاّمة السيد أحمد دحلان في خلاصة الكلام.

وفي سنة (١٣١١) ألف وثلاثمائة وإحدى عشرة ساق الإنكليز مراكبهم مرة أخرى إلى جدة عندما قتل الأعراب وكيل القنصل الإنكليزي وجرحوا وكيلي القنصل الفرنساوي والروسي. وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد وكلهم مسلمون من الأهالي الذين لم يحسنوا سيرتهم مع إخوانهم من مواطنيهم، ارتكاناً على الحماية الأجنبية، فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب. ذكره في الرحلة الحجازية.

وفي سنة ألف ومائتين وست عشرة جدد أمير مكة سيدنا الشريف غالب ما تهدم من سور جدة وأتقنه إتقاناً زائداً ومكّن أبراجه، وبنى من جهة البحر كشكاً له مشرفاً على المرسى وغيرها. انتهى ما ذكره في الجواهر المعدة. انتهى من الغازي.

قتال الشريف أبي نُمَي الإفرنج حين قصدوا جدة

جاء في الجزء الرابع من تاريخ الغازي ما نصه: قال العلاّمة السنجاري رحمه ا لله تعالى في «منائح الكرم» نقلاً من «الإتحاف» للسمرقندي المدني أنه في أواخر سنة (٩٤٨) تسعمائة وثمان وأربعين هجرية، دخلت طائفة عظيمة من الإفرنج وخربت غالب البنادر، فلما قصدوا جدة المعمورة نزلوا المرسى المعروف بأبي الدوائر في خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح، فقاتلهم الشريف أبو نُمَيّ بنفسه وترك الحج، وشخص ابنه معه ونزل إلى جدة في جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء في نواحي مكة من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة، فبلغ أهل الجهاد مبلغاً عظيماً ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عدداً وعدداً وعيشاً رغداً وخدام مولانا المشار إليه يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام بأغلى ثمن حتى فرغت

الحبوب وكادت تعدم فدخروها للخيل ، وأقبلوا على نحر الإبل ، فكان مولانا الشريف يأمر بأن ينحر لكل مائة نفس بدنة ناقة أو بعير ، واستمر ذلك مدة فقال له بعض الناس: إن هذا الفعل يستأصل ما عندك من الإبل . فأجابه بأني نويت أن أنحر ما أملكه ويملكه أولادي وأحفادي فإذا نفدت الإبل نحرت الخيل ، ثم كل حيوان يجوز أكله . فلما قرب زمن الحج برز أمره إلى ابنه الشريف أحمد بن أبي نُمَيّ أن يقابل الأمراء ويلبس الخلع الواردة ويحج بالناس على عادة أجدادي . فلما وصل أمراء الحج توجهوا للقاء مولانا الشريف أبي نُمَيّ بجدة لإلباسه الخلع فلاقاهم وهو شاكي السلاح لابساً درعه في هيئة المقاتل . ولما أن قرب الأمراء أمر بطلق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلثمائة مدفع ، فألبسوه الخلع الواردة صحبتهم وانصرفوا راجعين . ولما رأى الكفار صبره وحصاره انقلبوا خاسئين ، ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان خان ذلك زاد في إكرام المشار إليه وسمح له بنصف معلوم جدة إلى غير ذلك من الإنعامات التي لا تحصى اهـ . انتهى من الغازي .

انظر: صورة رقم ٣٢٥ ، مركز الشرطة بين جدة ومكة
انظر: صورة رقم ٣٢٦ ، مركز الشرطة بين جدة ومكة

بناء سور جدة

جاء في الجزء الرابع من تاريخ الغازي ما نصه:

قال الشيخ عبدالقادر الخطيب في السلاح والعدة: وسبب عمارة السور الموجود بواقيه الآن ، أنه لما حصل بمكة وجدة المحروسة خلف ونهب وسفك وفتك من بعض عربانها البغاة وبدوانها الطغاة وهم بنو إبراهيم من أهل ينبع وزبيد ومن تبعهم من أهل الفساد والزيغ والعناد خرجوا من الطاعة وخالفوا من أوامره ونواهيه ونهبوا مكة وجدة ومعهم طائفة من عصاة الشراكسة يسموا العادلية . ولم يكن حينئذ على جدة سور ، وأخرجوا الخواجه محمد يوسف القاري من بيته وحملوه على فرسه ووصلوا به إلى زبيد طائفة مالك ابن رومي ، ولم يفكوه إلا بجعل من المال . وبلغ ذلك السلطان الغوري ، فبعث الأمير غيث المرجى في طائفة من العسكر نحو ألف فارس غير الرماة والمشاة وذلك في سنة (٩٠٨) لقتال العربان المذكورين وهم يومئذ بينبعهم متحصنون بها وأميرهم السيد هزاع بن محمد بن بركات . ولما بلغ المذكورين وصول الأمير غيث المرجى بعسكره ، خرجوا من ينبع

هاربين وانقلبوا على أعقابهم نـاكصين ثـم كـاتبوا الأمـير غيـث بـالعهود والمواثيـق وأنهم يرجعون عن الفساد ويسـمعوا ويطيعـوا مـن غـير مخالفـة ولا عنـاد ، فتوجـه العسكر إلى مكة المشرفة وقضوا مناسكهم وكتبوا للسلطان الغوري صورة العهـود والمواثيـق وأقـاموا بمكـة إلى أن جـاءهم الجـواب بـأنهم يحلفونهـم بالإيمـان المغلظـة فحلفوهم ، وكان ذلك في بطن وادي على أنهـم يستمروا على الطاعـة . وتوجـه العسكر إلى الديار المصرية ، ثم إن البغاة المذكورين نكثوا العهـد والمواثيـق ولم يفـوا بالعهود ولم يستمروا إلا على الطغيان ونهبوا مكة المشـرفة وجـدة ، وأظهـروا فيهـا الفساد . وكان بمكة حينئذ شرذمة من عسكر الغـوري فسـاروا إليهـم وقتلوهـم في ينبع قتلاً فظيعاً وهتكوهم هتكاً بليغاً ، وغنموا منهم الغنائم وأدخلـوا حينئـذ السيد بركات وأخوه السيد قايتبائي إلى مكـة لحراستها وحمايتهـا ، ووجـدوا طائفـة مـن البغاة المذكورين جـاءوا إلى جـدة مكسـورين وأرادوا نهبهـا وبهـا حينئـذ الخواجة محمد يوسف القاري ، فاستعد لقتالهم بمن في جدة من التجار وغيرهم . وحين بلـغ البغـاة وصـول السـيدين الشـريفين المشـار إليهمـا آنفـاً خرجـوا هـاربين وانقلبـوا خاسرين . وبلغ السلطان الغوري ذلك فجهز الأمير حسين ومن معه مـن العسـكر والأمير علي السلاتي ومعه عسكر والجميع من أغربة ، وجاءوا إلى ينبع وفرقوا شمل العدو وقتلوا من بغا منهم ، وحرقوا البلاد بالنـار ووصلـوا إلى جـدة وشـرع الأمـير حسين في عمارة السور فتمت عمارتها في تسعة من الشهور بأبراجه ، ودار النيابـة ومصلى العيد ، وذلك في سنة تسعمائة وإحدى عشر . وكان طول أسـاس السـور المذكور في الأرض اثنا عشر ذراعـاً وطـول المحيـط بـالبلد مـن جهـة القبلـة واليمـن والشـام ثلاثـة آلاف ذراع مـن غـير الأبـراج ، هكـذا مذكـور في كتـاب السـلاح والعدة . وفي كتاب تبسم الزهور في ثغر جدة المعمور للشيخ نجم الدين بن علي بن يعقوب المدني ثم المكي ثلاثة آلاف ذراع ومائة وسبعة عشر ذراعـاً بـذراع العمـل من غير الأبراج . انتهى . وهي ستة أبـراج دور كـل بـرج منهـا ستة عشـر ذراعـاً بجدرانه ، وعرض جدار السور أربعة أذرع . وأما الأبراج فطول الشـامي واليمـاني من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعاً والبرجان القبليـان الملاصقـان لبـاب البلـد المسمى أحدهما باب الفتوح وهو الأيمن ، والآخر باب النصـر وهـو الأيسـر . وفي كتاب تبسم الزهور: وأما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر اثنـا عشر ذراعاً بالعمل ، وطولهما أيضاً كذلك . انتهى . وجميع ما ذكرناه من الأذرعـة فبذراع العمل ، وهو ذراع ونصف بذراع الحداد ، وجملة ما أصـرف علـى السـور

المذكور وتوابعه من الأبراج ودار النيابة المعروفة بفرضة السلطان وجامعها الموجود بها الآن ومصلى العيد وحفر الخندق حول البلد مائة ألف دينار غوري . وكان صرف الدينار حينئذ ثلاثين محلقاً كبيراً في المعاملة . انتهى.

وفي الإعلام: من آثار الأشرف الغوري بناء سور جدة فإنها كانت غير مسورة ، وكانت العربان في أيام الفتنة تهجم على جدة تنهبها ، وأسرت عربان زبيد في أيام الفتن الخواجه محمد القاري ، وكان من أعيان التجار من أهل الاعتبار فهجموا إلى بيته وأنزلوه من السطح وأركبوه معهم على ظهر فرس ارتدفه واحد من أهل زبيد وأخذوه إلى أماكنهم وهو قرب عقبة السويق من درب المدينة الشريفة عندهم إلى أن اشترى نفسه بثلاثين ألف درهم فردوه إلى مكة بعد أن استوفوا هذا القدر منه ، ونهبت جدة مراراً في الفتن التي وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة المرحوم الشريف محمد بن بركات بين أولاده . وجرت أحوال يطول شرحها فأرسل السلطان الغوري أحد أمراء المقدمين وهو الأمير حسين الكردي ، وجهز معه عسكراً من الترك والمغاربة واللون نحو خمسين ضرّاباً لدفع ضرر الغرتفال في بحر الهند ، وكان مبادي ظهورهم وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك في جدة وجعلها له إقطاعاً ، فلما وصل الأمير حسين الكردي إلى جدة بنى عليها سوراً في سنة سبع عشرة وتسعمائة وهو الباقي إلى الآن . انتهى من الغازي .

ثم قال الغازي: وفي سنة ألف ومائتين وست عشرة جدد أمير مكة سيدنا الشريف غالب ما تهدم من سور جدة وأتقنه إتقاناً زائداً ومكّن أبراجه ، وبنى من جهة البحر كشكاً له مشرفاً على المرسى وغيرها . انتهى ذكره في الجواهر المعدة . انتهى من الغازي .

هدم سور جدة

لقد هدم سور جدة في أوقات متفرقة ، وكان الهدم العمومي في عام (١٣٦٧هـ) ، حيث تم هدم السور من جميع جهاته الأربع ولم يبق منه شيء ، وكانت للسور ثلاثة أبواب: باب شرقي ويسمى «باب مكة» وباب شمالي ويسمى «باب جديد» وباب جنوبي ويسمى «بباب شريف» وكان لكل باب منها برجان عن يمين الباب وعن شماله ، وللأبراج نوافذ كبار لوضع المدافع وثقوب صغار لرمي الرصاص من البنادق ، وفي أعلى البروج متارس لوقوف الجنود عند

الحاجة . وكان هناك خندق خارج السور يحيط به من جميع الجهات ، ورأس الخندق متصل بالبحر الأحمر من الجهة الشمالية لذلك يمكنهم ملؤه بالماء في بضع ساعات ، وبذلك يصعب للعدو الاستيلاء على جدة . ومما يجب ذكره أنه لما صار السفر في عهدنا الحاضر من جدة إلى مكة بل إلى جميع جهات المملكة بالسيارات بدلاً عن الجمال ، فقد عملت الحكومة السعودية طريقاً خاصاً لها معبّد بالإسفلت وذلك سنة (١٣٥٧) ألف وثلاثمائة وسبع وخمسين من الهجرة ، وقد حدث هذا لأول مرة في التاريخ .

عدد منازل جدة وسكانها قديماً وماؤها وتجارتها وقبر أمنا حواء

قال الغازي: وفي الرحلة الحجازية «ومؤلفها البتنوني الذي حج في عام (١٣٢٧هـ) ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين من الهجرة» وتحتوي جدة على نحو (٣٥٠٠) منزلاً مبنية بالحجر الجبلي الذي يأتون به من الجبال القريبة أو الحجر المائي الذي يقطعونه من شعاب البحر ، وهو خفيف جداً إلا أن خطره جسيم ، وضرره عظيم ، لأنه قابل للإلتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الفصفورية التي توجد فيه بكثرة . ولمحمد علي باشا في هذه المدينة مبان كثيرة منها: دار الولاية ودار البلدية وثكنات العساكر وغيرها . وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التي تملأ من ماء المطر أو العيون الموجودة خارج المدينة . وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها مالحة غير صالحة للشرب ، وفيها مواسير كان وضعها عثمان باشا نوري سنة (١٣٠٢) وسير الماء فيها من عين الرغامة التي تبعد عن المدينة شرقاً بنحو عشرة كيلو مترات ، وهي الآن منهدمة . وقد اهتمت بلدية المدينة بإصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها إلا بمعونة الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لأن لهم مصلحة في بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة ، وفي هذه المدينة كنداسة لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للناس .

وجدة مركز تجاري كبير ، ويمكنك أن تقول أنها الثغر العمومي للحجاز ، فمنها صادراته وإليها وارداته ، وتجارتها تكاد تنحصر في أصداف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والأقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاجيد وجميع ما يهم الحاج . وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية

وهو يبلغون خمسين ألفاً على أضبط تقدير، منهم عشرة آلاف من الأجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين، أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلاً، وأغلبهم من الأروام. ويوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الأعراب لا يدع أحداً يدخل فيه من غير ذويه.

أما مدافن المسلمين فإنها في الجهة الشرقية على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقي الذي يسمونه باب مكة. وعليها سور يفتح بابه للغرب، فإذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع متر وفي عرض نحو ثلاثة أمتار، وهو ما يسمونه قبر أمنا حواء، وهو أشبه شيء بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر. وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها، وفي كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم، وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار في وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس فيه يفتح بابها إلى الغرب، وفيها شباكان يشرفان على جهتي القبر، وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة يقولون: هذا مكان السرة الشريفة فيه حجر من الصوان يبلغ طوله نحو متر محفور من وسطه.

ولما قصد الشريف عون الرفيق هدم قبتها فيما هدم من القباب بمكة قام في وجهه قناصل الدولة وحالوا بينه وبينها بدعوى أنها ليست أم المسلمين وحدهم اهـ. أقول قد هدمت هذه القبة في سنة (١٣٤٤). انتهى من الغازي.

انظر: الصور أرقام ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩ لمركز الشرطة بين مكة وجدة.

يقول المرحوم أمير اللواء البحري أيوب صبري باشا في الجزء الثالث من كتابه «مرآة الحرمين» الذي ألفه باللغة التركية سنة (١٢٨٠هـ) ألف ومائتين وثمانين هجرية تقريباً. وطبع بالقسطنطينية سنة (١٣٠٦) هجرية أنه كان لسور جدة ستة أبواب: (١) باب مكة، ويقع شرق جدة، (٢) وباب المدينة، ويقع في شمال جدة، (٣) وباب الشريف، ويقع في جهة اليمن، (٤) وباب الشهداء، ويقع

جهة البحر، (٥) وباب المغاربة، ويقع جهة البحر أيضاً، (٦) وباب البحر، ويقع جهة الغرب. ولسور جدة برجان أحدهما «برج ليلى» وثانيهما «برج مجنون ليلى».

ثم ذكر أيوب صبري باشا رحمه الله تعالى في كتابه المذكور بعض مرافق جدة، كما يأتي:

عدد	المرفق
١	قشلة للجنود.
١	محل للحبس.
٥	جوامع.
٣٠	مسجد.
١	دائرة حكومية.
١	دائرة للجمرك.
٧	مدافن.
٢	برج.
٣٠٠	صهريج للماء.
١	حمّام.
٩٠٠	دكّان.
٤٠	قهوة.
٤٧	فرن.
١	فابريقة للدقيق «أي طحن الحبوب بآلة الماكينة».
٤٧	طاحونة حجر للحبوب تديرها الحيوانات.
١٠	دكاكين طباخة.
١	دكان لبيع البويات.
٢	لوكاندة «فندق».
٣٠	خان «أي محلات عامة للمبيت».

عدد	المرفق
١	محل لبيع الحوت «السمك».
١	مستشفى.
١	أجزاخانة «صيدلية».
١	فابريقة للصدف.
١	مدرسة رشدية.
١٠	كتاتيب للصبيان.
١	دائرة كرنتينة.
١	دائرة للتلغراف «للبرقيات».
١	مجزرة «سلخانة».
٢	محل للنورة.
١	محل لبيع الغاز.
٤	أحواض.
٩	حنفيات للماء عمومية «أي بزابيز ماء».
١	قلعة.
١	دائرة بلدية.
٦	قَرَهْ أو لخانه «لم نفهم معناها».
١	سفائن؛ صودبوسي «أي مستودع الماء للسفن».

انتهى مترجماً من كتاب « مرآة الحرمين » الذي باللغة التركية لأيوب صبري باشا. أما الآن فقد أصبحت جدة مدينة عظيمة ، وبها من المرافق والدكاكين ما لا يعد ولا يحصى ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء .

عمران جدة بعد سنة ١٣٣٤ هجرية

جاء في تاريخ الغازي ، نقلاً عن جريدة القبلة ، التي كانت تصدر بمكة ، ما يأتي: من ابتداء النهضة « أي نهضة الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمه الله تعالى ، وهي كانت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة إلى شهر صفر سنة ١٣٣٧ هـ » ، أصلحت في جدة ثكنتها العسكرية ، وعمرت باب النافعة ، وأنشئت دائرة رئيس هيئة المراقبة ، ودائرة البريد والبرق ، ودائرة رئيس المرفأ ، وعمّر تحت الدائرتين الأخيرتين باب الصبة ، ومخفر الشرطة ، وعمّر في دائرة الجمرك ثلاث مخازن كبيرة عند الميناء تستوعب مائة ألف كيس . وأنشئ مخزن الذخائر الحربية ، وأصلحت المخازن القديمة ، وأحدث تعديل في شارع الاسكله ، وعمّر باب مكة بمداخله الثلاثة ، وأحدث باب المغاربة من جديد وأصلحت الأسوار وزينت كل الدوائر الرسمية بالأمرة العربية الجديدة. وآخر ما أقامته الحكومة من معالم العمران في جدة افتتاحها الشارع الجديد الذي سمي الشارع القابلي ، وهو يبتدئ من باب الصبة وينتهي بمسجد المعمار وينفذ منه إلى باب مكة إلا أن هذا الشارع يبتدئ بدائرة الجمرك والبحر وينتهي بباب مكة ، وسيفتح من هذا الشارع منفذ إلى سوق الحراج فيتصل الشارعان بشكل متعارض . وقد أنشئت فوق دكاكين الشارع الجديد غرف جميلة تكون مكاتب لأصحاب تلك الدكاكين . انتهى ذكره في جريدة القبلة . انتهى من الغازي .

ازدياد العمران والسكان بجدة

كانت جميع منازل جدة، قبل هدم سورها سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين من الهجرة في داخل سورها إلا بضعة بيوت تعد على الأصابع كانت خارجة عن سورها . وكانت بيوتها من حجارة صخور جدة المائية ، وهي حجارة بها ثقوب كثيرة صغيرة من فعل ماء البحر والرطوبة يقال عنها أنها إذا لم تستتر هذه الحجارة بعد بناء البيوت بها بالنورة فإن ثقوبها تزداد اتساعاً فتتلف سريعاً .

ولما كانت طبيعة جدة رطبة ندية انطبعت بيوتها ومنازلها بشكل خاص فإن لون خشب منازلها من الأبواب والشبابيك وغيرها يضرب إلى لون الرماد .

ولما أنعم الله عز وجل على أهل البلاد بالمال والغنى ، وكثر الماء بجدة بفضل عناية جلالة مليكنا الراحل الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى انتعش أهل البلاد واهتموا بناحية العمران والتجارة اهتماماً زائداً ، فبلغت جدة أضعاف أضعاف ما كانت عليه من عدد سكانها وازدياد مبانيها وعماراتها . تلك العمارات التي بنيت على الطراز العصري الحديث بالإسمنت المسلح بالحديد وبالطوب العربي والافرنجي حتى صارت تضاهي البلاد الخارجية .

ولقد امتد العمران بجدة في زماننا هذا من جميع جهاتها ، ما عدا الجهة البحرية طبعاً ، فمن جهة المدينة امتد نحو أربعة عشر كيلومتراً ، ومن جهة مكة نحو عشرة كيلو مترات ، ومن جهة اليمن أي الجنوب نحو خمسة كيلو مترات .

أما سكانها الآن فلا تتجاوز ربع مليون نسمة على وجه التقريب بعد أن كانت إلى سنة (١٣٦٠) لا تتجاوز العشرين الألف . والأسباب الداعية إلى ازدياد السكان بجدة كثرة توفر المياه بها والأمن الشامل وازدهار العمران بها ، وفتح باب الهجرة إليها بسبب حرب فلسطين وغيرها وكثرة الأعمال بها .

انظر: صورة رقم ٣٣٠ ، أحد الشوارع القديمة بجدة قبل سنة ١٣٦٥هـ

انظر: صورة رقم ٣٣١ ، بعض المنازل بجدة

انظر: صورة رقم ٣٣٢ ، بعض المنازل بجدة

انظر: صورة رقم ٣٣٣ ، شارع الملك عبدالعزيز رحمه الله بجدة

ضواحي جدة قديماً وحديثاً

نقصد بالضواحي الأحياء المحيطة بجدة ، وهذه النواحي كانت مفصولة عن جدة إلى سنة (١٣٥٥) خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، فلما كثر سكان جدة وامتد عمرانها إلى جميع جهاتها اتصلت هذه الضواحي والنواحي بالمنازل الحديثة المتصلة هذه بالمنازل القديمة فأصبح الجميع بلدة واحدة .

فإذا تكلمنا عن الضواحي القديمة فيكون باعتبار ما قبل السنة المذكورة وهي سبعة ضواحي كما يأتي:

١) النزلة اليمانية: وتبعد عن مدينة جدة بمسافة ساعة بالقدم تقريباً .

٢) بني مالك أو النزلة الشمالية: وتبعد عن المدينة مسافة ساعتين بالقدم تقريباً .

٣) الرويس بالتصغير بقسميه التحتاني والفوقاني: وهي بجهة الشمال قريب من الساحل . وتبعد عن جدة بنحو ساعتين بالقدم تقريباً .

٤) الكندرة: بفتح الكاف وسكون النون ، وتبعد عن المدينة بمسافة ساعة سير بالقدم .

٥) البغدادية: وتبعد عن المدينة مسافة ساعة بالقدم .

٦) الشرفية: بفتح الشين والراء ، وهي بين الكندرة والبغدادية .

٧) السبيل: كان يسمى رأس القائم وكان بناؤه حوالي سنة (١٣٠٥) خمس وثلاثمائة وألف ، ويسمى السبيل أيضاً « القبة » .

انظر: صورة رقم ٣٣٤ ، لمسجد في طريق جدة

وأما الضواحي الحديثة التي أنشئت بعد السنة المذكورة فهي أربعة ضواحي كما سيأتي:

١) العمّارية: وهي قريبة من جدة .

٢) الهنداوية: وتبعد عن جدة بنحو أربعين دقيقة .

٣) النزلة الجنوبية أو الثعالبة: وتبعد عن جدة مسافة ساعتين بالقدم .

٤) مدينة الحجاج: وتبعد عن جدة بنحو ساعة بالقدم تقريباً وقد تأسست في عام (١٣٦٩هـ) وتم بناؤها في عام (١٣٧٣هـ) .

وكل هذه الضواحي القديمة والحديثة في وقتنا الحاضر تعتبر من نفس مدينة جدة ، وكلها آهلة بالسكان والعمران ، وبها مباني فخمة وعمارات بالإسمنت المسلح مزودة بالكهرباء وأنابيب المياه .

أنواع المياه التي كانت بجدة

كانت جدة تعاني أزمة كبيرة في الماء ، وكان بها ثلاثة أنواع من المياه: «أولها» تسمى « ماء الكنداسة » والكنداسة عبارة عن ماكينة خاصة لتكرير ماء البحر المالح فيعود عذباً صافياً كما سيأتي الكلام عنها ، وهذا الماء يشربه الأغنياء والأعيان وسفراء الدول الخارجية فيستعملونه فقط للشرب والطبخ والشاي والقهوة ، «وثانيها» ماء الآبار والصهاريج والحُفَر التي تتجمع فيها مياه الأمطار . وهذا الماء يستعمل أيضاً في الشرب والطبخ والشاي والقهوة ونحوها ، وأحياناً إذا كثرت الأمطار يحمّلون الجمال بالماء من الآبار التي في بعض نواحي جدة كبئر

بريمان وبئر عسيلة ونيسان ويأتون بها إلى جدة فيبيعونها ، وماء هذه الآبار عذبة .
«وثالثها» ماء الرديخ وهي الماء المستخرج بواسطة الدلاء من الآبار المحفورة في وسط البلدة القديمة ، وهي مالحة غير صالحة لنحو الشرب ، وإنما تستعمل في الاستنجاء وغسيل بيوت الخلاء ورش الأرض ونحو ذلك ، وكلما حفرت بئر قريب من البحر كلما زادت ملوحتها .

الكنداسة

الكنداسة: آلة ميكانيكية تركب بجانب البحر فتكرر الماء وتقطرها كالبخار ، فالماء الحلو المقطر يذهب إلى مواضع خاصة لاستعمال الناس ، والماء المالح المنفصل من الآلة يجري إلى البحر ثانياً .

جلبت الحكومة التركية كنداسة صغيرة لبلدة جدة في عام (١٣٢٧هـ) ، وكان موقعها في موقع بناية خفر السواحل الحالي ، واستمرت تلك الكنداسة في العمل إلى عام (١٣٣٣هـ) ، ثم استحضرت الحكومة التركية كنداسة كبيرة التي كان موقعها في محل الكنداسة الحالي خلف بيت البغدادي من الجهة الغربية . وفي تلك السنة احتفلت الحكومة التركية احتفالاً بهيجاً بمجيء الكنداسة الكبيرة ومجيء مكائن الثلج في ذلك الوقت وكان الناس في تعب شديد بسبب المياه .

تشكيل هيئة من أهالي جدة للبحث عن منابع الماء سنة (١٣٢٧)

قال الغازي: في أول الجزء الثالث من تاريخه عند الكلام على تولية الشريف الحسين بن علي أميراً على مكة من قبل الدولة العثمانية « أي ملك الحجاز الأسبق فيما بعد » ما يأتي:

فعند وصول الشريف حسين بن علي من الأستانة إلى جدة وذلك في ٩ ذي القعدة سنة (١٣٢٦) ست وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية ، استقبل دولته من أهالي جدة ومن أهالي مكة الذين حضروا لاستقباله ، فاستقبلهم باللطف والبشاشة ، ثم ارتجل خطبة بليغة موجزة .

وبعد أن ذكر الغازي نص خطبته في تاريخه قال ما يأتي:

وقد تشكلت هيئة من خيرة الأهالي بجدة بقصد البحث والتنقيب عن منابع المياه التي تكون بقرب جدة رفعاً للضرورة الشديدة المستمرة بها من جراء فقدان الماء الصالح للشرب، وقد كانت هذه الهيئة تبذل كل مجهودها في تشكيل شركة وطنية يناط بها جلب ما يظهر من الماء الصالح للشرب إلى جدة وأنها استحضرت مهندساً لهذه الغاية.

ولما وصل سمع الأمير الكريم وهو بجدة هذه الهيئة الرشيدة سر كثيراً بها وبأعمالها المهمة الوطنية، وفي الوقت ذاته تبرع بالقسط الذي يخص دولته من رسم التخريجية وهو قرشان «على كل جمل» بأمل تسهيل أمر هذه الهيئة والوصول إلى الغرض المطلوب بما أمكن من السرعة.

ومجموع ما يتحصل من هذا المقدار في السنة يبلغ نحو ثلاثة آلاف من الجنيهات، فتبرع أميرنا الجليل بمثل هذا المبلغ المهم لمثل هذه الغاية الشريفة، هو من الأريحيات العربية العالمية التي تعهدها الأمة ويعهدها تاريخها في بيت النبوة الكريم. انتهى من الغازي.

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه: وفي سنة (١٣٣٩) تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، أمرت الحكومة الهاشمية بمباشرة العمل لجلب المياه إلى جدة، واستحسنت بحث آبار الوزيرية للاستفادة بالمجرى الذي تأسس لمياهها منذ العهد المعلوم فباشروا العمل فيها بجد واجتهاد، وبعدما مضى شهرين تفجرت ينابيع الماء بها وجرى إيصاله إلى جدة بواسطة محرك بخاري، وهو ماء في غاية الحلاوة والعذوبة، وقد أبرق متولي رئاسة ذلك العمل رئيس المحاجر العمومية إلى جلالة الملك هذا نصها: توجهت اليوم صباحاً إلى الوزيرية وأتممت العمل ومشت المياه بكل سهولة بمنّه وتوفيقه ورضاء جلالة مولانا المعظم فإذا امتلأ بالماء غداً البازان الكائن بداخل البلدة سيجري فتحه للعموم، وذلك حرصاً على صفاء الماء خشية مما يحدث عند جريانه في المجرى المذكور لانقطاعه عن الماء تلك المدة الطويلة، ولذا أسرعنا بالعرض لأعتابكم الملوكية، أطال الله بقاءكم. انتهى. جاء الخبر بعد ذلك أنه تأخر امتلاء البازان المذكور عن الموعد المقرر بسبب أن القسم المعمول بالبرابخ من مجرى الماء المذكور تفزّر عند مرور الماء به، وأن التعمير جار فيه بهمة ونشاط.

وفي تاسع محرم الحرام سنة (١٣٤٠) تم إصلاح مجرى ماء الوزيرية ووصلت مياهها إلى جدة وافتتح بازانها المخصوص بالبلدة للاستقاء منه ، ثم حصل خراب من جراء السيل الذي مر بها ، فبادرت الحكومة بإصلاح ما اعتراها من آثار السيل ، وتم إصلاحها وجرى ماؤها وامتلأ بازان جدة منها . وفي عشرين شعبان من السنة المذكورة استقى الجمهور منه حتى بقي به ما زاد عن حاجتهم ، وظل الماء يجري بكثرة ويصب في البازان المذكور . انتهى من الغازي .

وصول عين الوزيرية إلى جدة

جاء في الجزء الرابع من تاريخ الغازي ما نصه: وقال العلاّمة الطبري في إتحاف فضلاء الزمن في ذكر حوادث سنة (١١٣٥) ألف ومائة وخمس وثلاثين هجرية ، بلغنا أن علي باشا اقتضى رأيه على أن يدخل العين إلى جدة ، وسرح معلمين ليحفروا عن العين ، وأرسل إلى الشيخ سالم البصري يطلبه برابخ بثمنها ليمشي بها العين ، فأرسل إليهم فوق مائتين بربخ من الكبار ، وهذه العين في السبيل بقرب جدة ، وكان أدخلها إلى جدة في حدود سنة تسعين وألف معمار يقال له أحمد كردو ، عمّر حماماً بجدة وداراً وحوشاً كبيراً وصل إليه العين المذكورة جرّها ببرابخ حتى دخلها ، لأنها كانت ضعيفة جداً . وكان يحصل عندها صياح وخصام فَسَدَّها سليمان باشا . ولما جاء هذا الباشا استقرى هذا العين فوجد أصلها فوق السبيل فسرح لها كما ذكرنا عمالاً . انتهى .

والسبيل المذكور هنا: هو مكان قريب من جدة بينهما نحو ساعتين أو أقل سيراً بالقدم ، ويطلق عليه القبة ، كما يطلق عليه رأس القائم .

قال الغازي بعدما تقدم: وفي كتاب دليل الحج لصادق باشا أن عثمان نوري باشا في سنة (١٣٠٢) اثنتين وثلاثمائة وألف ، وضع مجاري تحت الأرض لإيصال عين الرغامة إلى جدة ، فأوصلت الماء إلى حوض كبير كمخزن لخارج البلد ومنه توزعت بواسطة مواسير متفرقة إلى داخل البلد لسبعة حيضان بحنفيات كافية لشرب أهالي البلد وزيادة حتى استغني عن شرب ماء الصهاريج رغماً عن تشكي أصحاب الصهاريج للآستانة بتعطيلها لمنفعتهم . واعتني بتنظيف الشوارع وصارت الصحة للغاية ، وسميت هذه العين بالحميدية لظهورها في عصر مولانا السلطان عبد الحميد خان ، اهـ . انتهى من الغازي .

نقول: إن هذه العين التي جلبها الوزير عثمان نوري باشا إلى جدة، والتي سموها في وقتها «عين الحميدية» هي التي اشتهرت فيما بعد إلى اليوم «بعين الوزيرية»، نسبة لجالبها الوزير عثمان المذكور، واستمرت هذه العين جارية في جدة إلى آخر سنة (١٣١٨هـ)، ثم حصل فيها خراب، ثم قامت بلدية جدة بإصلاحها وإيصال العين إلى البلدة سنة (١٣٢٧هـ) بمساعدة أمير مكة الشريف الحسين رحمه الله تعالى عند أول توليته الإمارة حتى وصل الماء من جهة الرغامة إلى السبيل قرب جدة، ثم وصل منه إليها إلى بازان العيدروس وإلى بقية البازانات التي أصلحت، ومع ذلك كانت هذه العين لا تكفي جدة، فكانوا يعتمدون على الآبار والصهاريج حتى جاءت العين العزيزية فاستغني عن كل ذلك كما سيأتي بيانه.

وقد تولى الشيخ محمد صالح جمجوم رحمه الله تعالى رئاسة عين الوزيرية وبقي فيها إلى أن توفي، ثم تولى بعده الشيخ عبدالله الصغيِّر، بتشديد الياء وبقي فيها إلى أن توفي، رحمه الله تعالى.

وصول العين العزيزية إلى جدة

لما رأى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى وغفر لنا وله ما يعانيه أهل جدة من ناحية الماء أمر بجلب الماء من العيون القريبة من جدة فوصلت الماء إلى جدة في شهر ذي الحجة سنة (١٣٦٧) سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية.

ولقد عمل احتفال كبير بجدة لوصول عين العزيزية إليها وذلك في أوائل محرم الحرام عام (١٣٦٨هـ). وقد عملت مجاري وبازانات جديدة لعين العزيزية وهجرت العين الوزيرية السابقة مع بازاناتها، كما هجرت الصهاريج القديمة والحُفر الراكدة التي كانت موبوءة بالقذارة والأوساخ، فنسبت هذه العين إلى جالبها الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى، فقيل لها (عين العزيزية).

وعين العزيزية تأتي من بعض العيون بوادي فاطمة، كأبي شعيب والجموم والمهنية والخلاص وبعض الآبار المحفورة بوادي فاطمة. ورئيس هذه العين في الوقت الحاضر هو الشيخ عثمان باشا.

وبوصول هذه العين -عين العزيزية- إلى البلدة ازدهرت جدة وكثر سكانها وامتد عمرانها إلى جميع الأطراف وصارت منازلها التي بنيت حديثاً خارج السور محاطة بالأشجار وزروع الزينة والرياحين. فسبحان المتصرف في الكون.

ولا شك أن جلب المياه للناس من الصدقات الجارية، فجزى الله جالبها الملك عبدالعزيز آل سعود خير الجزاء وأسكنه فسيح جنته وتجاوز عن سيئاتنا وسيئاته بفضله ومنّه ورحمته آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم آمين.

انظر: صورة رقم ٣٣٥، البيوت بين جدة ومكة

انظر: صورة رقم ٣٣٦، مسجد عكّاش بجدة ويظهر فيها بعض البيوت والمباني

انظر: صورة رقم ٣٣٧، مرفأ جدة قديماً

ميناء جدة قديماً وحديثاً

كانت البواخر والمراكب الكبيرة تقف من شاطئ جدة على بعد ثلاثة أميال تقريباً، لأن ميناءها غير عميقة وبها شعاب ونواتئ تستحيل دخول البواخر فيها، أما السنابيك والهواري واللنشات والزوارق البخارية فتمشي وتجري إلى أن ترسي على البر بدون خوف ولا حرج لخفتها.

انظر: صورة رقم ٣٣٨، مرفأ جدة حديثاً

انظر: صورة رقم ٣٣٩، لبواخر الحجاج قرب وصولها جدة

انظر: صورة رقم ٣٤٠، لنزول الحجاج من الباخرة في جدة

انظر: صورة رقم ٣٤١، للحجاج الأندونوسيين وهم ينزلون من الباخرة في جدة

انظر: صورة رقم ٣٤٢، لبعض الحجاج على سطح إحدى البواخر

بناء جمرك جدة في الزمن القديم

جاء في الجزء الثاني من تاريخ الغازي نقلاً عن الخلاصة ما يأتي: وفي سنة (٨٠٦) ست وثمانمائة، استخدم الشريف حسن بن عجلان بجدة جابر الحراشي وفوض إليه الأمر في جميع ما يصل إليها من جهة الشام واليمن، فنهض بخدمته نهوضاً لم ينهض لمثله أحد من خدامه فيما مضى، وعمّر الحراشي الموضع الذي يقال له «الفرضة بجدة» ليحاكي بها فرضة عدن، وقرر لبني حسن الرسوم التي

يتناولونها الآن وجعلها لهم في ثلاث حالات، وأبطل رسومهم السابقة، وكانت تؤخذ من التجار سبيلاً فأراح الناس من مطالبتهم. انتهى.

قال في مختار الصحاح: وفرضة البحر محط السفن. اهـ.

ولقد حصلت بعد نهضة الشريف الحسين رحمه الله تعالى التي كانت سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية بعض عمارات في جدة منها عمارة بعض النواحي في الجمرك.

ثم في عهد الحكومة السعودية حدث عمارات عظيمة جداً في الجمرك بل إنه لما أنشئ الميناء الجديد على البحر أنشئ جمرك كبير جديد يناسب التطور الجديد الذي حدث في المملكة السعودية. أدام الله علينا نعمه وتوفيقه.

انظر: صورة رقم ٣٤٣، بعض الأشجار في طريق جدة

أهل جدة وعاداتهم

لقد مكثنا بجدة نحو خمس عشرة سنة فعرفنا أهلها الفضلاء، وعرفنا عاداتهم الحسنة، فلئن تكلمنا عنهم هنا فإنما نتكلم عن خبرة ودراية، وإن قررنا عنهم شيئاً فإنما نقرر الحقيقة الواقعية فنقول وبالله التوفيق:

إن أهل جدة يغلب عليهم الطيب والوداعة وحسن النية وسلامة الضمير، وهم أهل شهامة ونخوة، يحبون الخير، ويكرمون الغريب، ويواسون المكروب، ويتعاونون على أعمال البر والإحسان، الغالب عليهم الاشتغال بالتجارة والتكسب بالمال، وبعضهم يشتغل بصيد الحوت والسمك من البحر الأحمر ولن تجد منهم متسولاً أو شحاذاً في الأسواق وإن وجد فهو من الغرباء.

وتجارهم يخرجون زكاة أموالهم عند وجوبها عليهم سراً وجهراً، وذلك بعد النصف من شهر رمضان في كل عام، ويعطون النعمة حقها، لا تجد فيهم بخيلاً يقتر على نفسه أو على عائلته وأولاده، وكلهم يراعون حقوق الجار، والصغير منهم يوقر الكبير، والأولاد قد لا يجلسون في مجالس أبيهم.

ومن عاداتهم الحسنة المبادرة للأعمال الخيرية ومواساة المحتاجين والمنكوبين فإذا حدث أمر ما بادروا بالاكتتاب لجمع الإعانات، ويقوم بعضهم بالقيام لهذه الخدمة فيدور عليهم لجمع الدراهم.

ومن أحسن عاداتهم اجتماعهم للتزاور فبعض الأصدقاء ممن تتفق مشاربهم ينظمون زياراتهم لبعض بالدورية ، بمعنى كل جماعة تجتمع لدى أحدهم في ليلة مخصوصة ، فهم يدورون على بعضهم دوران أيام الأسابيع ، ففي كل يوم يجتمعون عند شخص منهم للسمر والحديث .

ومن عاداتهم المحمودة: أن غالب أغنيائهم إذا كانت عائلة أحدهم كبيرة ، فإن الرجال يأكلون على مائدة خاصة ، والنساء يأكلن على مائدة خاصة ، وقد يكون مع الرجال بعض الضيوف ومع النساء مثل ذلك ، وهذه خصلة يغبطون عليها .

ومن عاداتهم الممدوحة: أنه إذا حصلت مخاصمات واختلافات بين بعضهم فإنهم يحلون مشاكلهم فيما بينهم ، وقلّما يتصلون بالمحاكم ، وإن في أهل جدة بعض أشخاص ممن يتصفون بالأوصاف التي ذكرناها وفيهم من الفضل والذكاء والوجاهة والوقار والعلم والصلاح والدين والدنيا معاً يقصدون في المهمات لا نحب ذكرهم خوفاً من أن ننسى بعضهم سهواً فنسيء إليهم ، لكن لا بد لنا من ذكر ثلاثة رجال فضلاء ممن نتصل بهم بصداقة قوية ونعرفهم حق المعرفة للاستشهاد والعظة والاعتبار :

فالرجل الأول هو الشيخ : محمد صالح جمجوم رحمه الله تعالى ، المتوفى سنة (١٣٦٣هـ) ثلاث وستين وثلاثمائة وألف ، وهو الشقيق الثاني للشيخ عبد الرؤوف جمجوم المتوفى سنة (١٣٣٨) هجرية ، فالشيخ محمد صالح جمجوم هو فريد عصره ووحيد زمانه ، وكان عميد بيت الجمجوم بعد أخيه ، وكان أكبرهم سناً ومقاماً ، وكان معه من إخوانه الأشقاء ثلاثة: (١) الشيخ عبد الرؤوف ، وهذا توفي سنة (١٣٣٨) ، (٢) الشيخ محمد ، وقد توفي سنة (١٣٥٢) أو في السنة التي بعدها ، (٣) الشيخ حسن ، وهذا توفي سنة (١٣٦٦) تقريباً ، (٤) الشيخ صلاح ، وقد توفي سنة (١٣٦٥هـ) ، (٥) والشيخ عبد المجيد ، (٦) والشيخ مرشد ، وهذان توفيا بعد الشيخ عبد الرؤوف جمجوم المذكور .

ولكل من هؤلاء عدة أولاد ذكوراً وإناثاً ، بل الشيخ صلاح له من الأولاد اثنا عشر ولداً وكلهم فضلاء محترمون أهل دين واستقامة ، وأكبر أولاده هو الشيخ محمد نور جمجوم ، وغالب هؤلاء يشتغل بالتجارة .

لذلك كان آل الجمجوم بجدة من العائلات الكبيرة يزيد عددهم على ثمانين شخصاً ، وكان الشيخ محمد صالح جمجوم رحمه الله تعالى يتولى شؤون الجميع ،

وإن أبناء إخوانه كلهم من صغير وكبير لا يراجعون آباءهم في شيء مطلقاً، وإنما يرجعون إلى عمهم الأكبر محمد صالح المذكور، وليس لهذا سوى بنت واحدة لم يخلف ولداً ذكراً.

وكان من عادة الشيخ محمد صالح أنه يتولى صرف النفقات على جميع العائلة من المأكل والمشرب والملبس والثياب وغير ذلك. وكان الرجال والأولاد يأكلون وحدهم على مائدة خاصة تمد لهم بعد الظهر في أسفل الدار، والنساء لهم مائدة خاصة، أما أكلهم في إفطار الصباح أو بعد المغرب في العَشاء فكل عائلة منهم يأكلون وحدهم مع أطفالهم، وكان يذبح لهم يومياً شاة واحدة أو شاتان.

وكان هذا هو دأبهم ونظامهم ومعيشتهم لم يختلف يوماً واحداً مع عميد العائلة الشيخ محمد صالح جمجوم، إلى أن توفي رحمه الله تعالى، وبعد وفاته اختلف الأمر واستقلت كل عائلة بنفسها، ونعتقد أن هذه الحالة في هذه العائلة لم يكن لها مثيل بجدة بل لا مثيل لها في المملكة كلها.

ولقد كان الشيخ محمد صالح جمجوم علاوة على اشتغاله بالتجارة الواسعة، كان يشغل عدة وظائف حكومية فخرية أي بدون راتب شهري، فكان مديراً على الأوقاف، ورئيساً على عين الوزيرية، ووكيلاً عاماً على مدرستي الفلاح بجدة ومكة، وكان يقصد لفض المشكلات والمنازعات، فكان رحمه الله تعالى يقوم بأداء هذه المهمات بنفسه، ومع كثرة أشغاله لا تراه إلا ضاحك السن بشوش الوجه يقابل الناس باللطف والاحترام كل واحد بحسب درجته، لذلك كان محبوباً من جميع الناس، وكانت له مكانة مرموقة من الحكومة وكان جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود يحبه كثيراً، رحمهما الله تعالى رحمة الأبرار.

وكان الشيخ محمد صالح جمجوم قبل كثرة انتشار السيارات بالبلاد يمشي في شوارع جدة وأسواقها على رجليه لقضاء المصالح فيسلم عليه الفضلاء ويستوقفه ضعفاء الناس وفقراؤهم، وأساتذة مدرسة الفلاح وأولياء الطلبة، وإذا غضب أحدهم فانقطع عن المدرسة كان يذهب إليه بنفسه يسترضيه، وربما استوقفته امرأة من الأرامل تفضي إليه بحاجتها، فيقف مع كل منهم بغاية الرضا بدون أن يتبرم أو يضيق منهم.

وكان رحمه الله تعالى للغرباء خير ملجأ فيقصدون بيته للضيافة ولتسهيل أمور سفرهم فيقوم بتسفيرهم تحت ضمانته وكفالته في الشرطة، وكان يحب أهل الدين

وأهل العلم ويكرّمهم ، وكان الرجل في نفسه صالحاً مستقيماً كريم النفس مرحاً لطيفاً أنيساً متواضعاً عظيم الأمل في الله سبحانه وتعالى حسن الظن به .

والحاصل مهما أطنبنا في مدحه لا نفي بحقه ، ويكفي أنه نادرة الزمان فإنا لم نجد مثله في جميع البلاد ، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنته وجزاه خير الجزاء بفضله وإحسانه فإنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

انظر : صورة رقم ٣٤٤ ، الشيخ محمد صالح جمجوم ت ١٣٦٣هـ ،
انظر : صورة رقم ٣٤٥ ، الشيخ صلاح جمجوم ت ١٣٦٥هـ ،

أما الرجل الثاني فهو الشيخ : محمد صالح بن علي باعشن التاجر الشهير بجدة حفظه الله تعالى ، هذا الرجل كبير آل باعشن ومفخرتهم بجدة ، يبلغ من العمر تسعين سنة وعلى قدر ما هو ضعيف في جسمه فهو قوي الذاكرة كبير العقل عظيم الفضل ، لقد ذهب بصره في الثلاثين من عمره تقريباً لكن الله عز وجل قد عوضه بتنوير بصيرته وغزارة عقله. وله مكانة عالية لدى أهل البلدة فيزورونه ويستشيرونه في كثير من المسائل ، وأنه يفض المشكلات والمنازعات التي تقع بين بعضهم وأنهم يحبونه ويسمعون كلامه لأنه خير مجرب وناصح ، ولأنه يمتاز بالوقار والتأني في عواقب الأمور ، كما يمتاز وهو في كبر سنه بأدب بالغ وحشمة عظيمة وشعور رقيق ، يعطي كل جليس ما يستحقه من الإكرام على حسب مقامه ، ويصبر على جليسه المكروه الثقيل فلا يكسر بخاطره حتى ينصرف ، وأنه على ما فيه من ضعف وكبر يحب مجالسة الناس ولا يسأم من مخالطتهم على اختلاف طبقاتهم ، ويقابل الضيف بكل بشاشة وتودد ، ويحب أن يتغدى الناس معه مهما كثروا ولو على غير ميعاد ، ومن عادته أن ينتظر ولديه كل يوم في وقت الغداء فإذا حضرا من محل تجارتهم نزلت المائدة إلى الطبقة الأولى من الدار فيأكلون مع من حضر من الضيوف سوياً وهذا دأبهم يومياً ، وفي الدار محل خاص للزوار والضيوف وهو الطبقة الأولى من الدار مستقلة بجميع منافعها حتى درجتها وسلالمها فلا يتطرقها النساء مطلقاً حتى يأخذ الضيف كامل راحته وحريته .

وفي مدخل الدار فسحة كبيرة اتخذت مجلساً للسمر في ليالي الصيف كما اتخذت مصلي أيضاً ، لأن الشيخ محمد صالح باعشن رحمه الله تعالى لا يخرج عن داره لكبر سنه فاتخذ هذا المكان مصلى له يصلي فيه الفروض مع من حضر عنده ، وفي شهر رمضان يتخذ له إماماً راتباً يصلي بهم التراويح بعد صلاة العشاء ويحضر

في هذا المصلى كثير من أصدقائهم وجيرانهم فيتكون منهم في مصلى بيته في التراويح في كل ليلة من شهر رمضان نحو ثلاثة صفوف .

ومما يجب ذكره: أن الشيخ محمد صالح باعشن مع ذهاب بصره له ذوق دقيق في جمع بعض الآثار والأنتيكات ، بل إنه رحمه الله تعالى إذا أنشأ عمارة «وكثيراً ما هو يشتغل بالعمارات» هو الذي يضع للبنائين تصميم بنائها ويرشدهم إلى الشكل الذي يريده ويعجبه ، كما أنه يرشد النجارين في كيفية وضع الأبواب والشبابيك ، بل حتى الألوان والزخرفة والأماكن التي تحتاج إلى كتابتها هو الذي ينبههم عليها فإنه قد ذهب بصره بعد أن بلغ من العمر نحو ثلاثين سنة .

كما أنه وهو في سن التسعين هو الذي يتولى الإنفاق على أهل منزله والجميع يأتمرون بأمره لا يخالفون له أمراً ، وأمره موافق للمصلحة ورأيه صائب للغاية . توفي رحمه الله تعالى في العشرين من جمادى الثانية سنة (١٣٨١هـ) .

ومما يجب ذكره أيضاً: أن الشيخ محمد صالح باعشن له أربعة أولاد فقط ، اثنتان من الإناث واثنان من الذكور وهما: الشيخ أحمد وهو الأكبر والشيخ عبد القادر وهو أصغر من أخيه ببضع سنوات ، وهما اللذان يشتغلان بالتجارة باسم والدهما ، وهما يأخذان رأي والدهما في كل شيء ويطيعانه طاعة عمياء ، والحب العميق متبادل بينهما وبين والدهما و لله الحمد ، فكلا الطرفين يحب الآخر حباً جماً إلى أقصى حد ، لذلك فقد بارك الله في حياتهم ومعيشتهم وتجارتهم فإنهم من التجار المعدودين من قديم الزمن .

ومما يلفت النظر أن الأخوين الفاضلين المذكورين الشيخ أحمد والشيخ عبد القادر لم ينطبعا بطابع هذا العصر الحديث و لم يتغيرا قط عن العادات التي درجوا عليها وألفوها من الصغر، فهما يخرجان من البيت صباحاً ويذهبان إلى محل تجارتهما ثم يحضران إلى البيت بعد الظهر ثم يخرجان أيضاً إلى محل التجارة بعد العصر ثم يأتيان إلى البيت في وقت العشاء كل عند عائلته وأولاده لا يحبون السمر مع الناس ، ولا الاختلاط المؤدي إلى القيل والقال وضياع الوقت ، وبهذا استراحت أنفسهم وكملت راحتهم . وهم يؤدون فرائض الله على الوجه الأكمل . فنعمت هذه الحالة ونعم الوالد والأولاد ، وقد توفي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في ١٩ من شهر محرّم سنة (١٣٨٥) هجرية ، وختم الله لنا ولهم

بالإيمان الكامل والعمل الصالح ، وثبتنا وإياهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة آمين يا رب العالمين . وإليك صورة الشيخ محمد صالح .

انظر : صورة رقم ٣٤٦ ،الشيخ محمد صالح باعشن - أحد وجهاء جدة وتجارها

وأما الرجل الثالث فهو الشيخ : إبراهيم سلامة الربان ، بضم الراء ، وهو لقب على من يقود السفن والبواخر في البحر ، هذا الرجل هو أشهر ربان بجدة ، ولا نبالغ إن قلنا أنه الوحيد الذي لا يوجد مثله بجدة . يعتمد عليه أصحاب البواخر وقادتها من الإفرنج اعتماداً كلياً لما يعتقدون فيه من تمام المعرفة وإتقان الصنعة ، يتلقى البواخر في البحر فيدخلها إلى ميناء جدة ثم يخرجها منها بعد انتهاء عملها ، ولقد أمضى عمره كله في البحر ولم يحدث له أي حادثة .

انظر : صورة رقم ٣٤٧ ، الشيخ إبراهيم سلامة الربان

كان الشيخ إبراهيم سلامة أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب وقد تعلم الصنعة من أبيه وجده ، لا يعرف المكر ولا الخداع ولا الجبن ولا البخل ، لا يهاب أحداً ولا يداهن أحداً ، سليم النية حسن الطوية لا يداخل الناس مطلقاً ولا يجلس في القهاوي أبداً ، يذهب من بيته إلى البحر ويأتي منه إلى البيت ، كان نظامياً في عمله مرتباً لأشغاله ، نظيفاً جداً في مأكله ومشربه وملبسه وفي بيته ، وكان كريماً مبسوط اليد واسع النفقات على أهله وأولاده ، وكان شهماً نبيلاً يحب أهل العلم والصلاح ، ومع أنه كان أمياً فهو شديد الديانة عظيم المروءة والغيرة لا يعرف الفسق ولا الفجور ولا السباب ، وكان قوي الجسم والعضلات جهوري الصوت ، وكان صريح الرأي يجهر بما في ضميره قانعاً بما آتاه الله من الرزق الحلال من كسب يده وعمله لا يعرف الحسد ولا الكذب ويقول الحق ولو على نفسه ، وكان يكره التكلف في القول والفعل بل ولا يعرفه .

كان رحمه الله تعالى مع كونه أمياً قوي الإيمان بالله كبير الأمل في فضله ورحمته حسن الظن به ، لم نر مثله في قوة إيمانه وحسن الظن بربه ، وكان إذا اطمأن إلى أحد من فضلاء العلماء أكثر من سؤاله في أمور دينه ، وكان يحفظ كثيراً من الآيات القرآنية يتحصن بها إذا خرج من بيته إلى عمله .

كان محافظاً لعادات البلاد القديمة ويربي أولاده أحسن تربية ، كان له ثلاثة من البنات وولد واحد فقط واسمه الشيخ « محمد » ، وقد زوّجه وزوّج بناته ، وكان يواسي جميع بناته وأزواجهن في جميع المناسبات في الأعياد وغير الأعياد .

وكان يسكن معه في منزله ولده الشيخ « محمد » المذكور ، ومع أن ولده متزوج وله أطفال فإنه لا يقدر أن يجلس مع والده في غرفة واحدة ، فإن كان لديه ضيف فإن ولده يجلس في مكان آخر قريباً من غرفة والده للخدمة .

وقد علّم ولده الشيخ « محمد » الصنعة فكان يخرج مع أبيه إلى البحر لتلقي البواخر والسفن . وإليك صورة الشيخ إبراهيم سلامة قبيل وفاته .

انظر: صورة رقم ٣٤٨ ، محمد إبراهيم سلامه ومعه قائد الباخرة

مات الشيخ إبراهيم سلامة سنة (١٣٦٩) من الهجرة عن سبعين سنة ، فإنه خرج يوم وفاته من بيته إلى البحر مع ولده المذكور صحيحاً معافى لا يشكو من شيء ، وبعد طلوعه إلى الباخرة أتاه الأمر المحتوم وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ .

فأنزلوه من الباخرة وأوصلوه إلى البيت ودفنوه بجدة . رحمه الله رحمة واسعة وألحقنا به على الإيمان الكامل بمنه وفضله .

فاستلم ولده الشيخ « محمد » المذكور عمل والده وقد صار من أشهر ربّابين البواخر بجدة ويعتمد عليه أكثر الشركات ، وهو مع ما له من معرفة بطرف من القراءة والكتابة فإن عاداته كعادات والده سليم النية محباً للخير كريم النفس شهماً نبيلاً حسن الأخلاق ديناً مستقيماً لا يعرف للمال حساباً في وجوه الخير . حفظه الله تعالى وأبقاه وأدام عليه نعمه آمين .

ولا يفوتنا أن نذكر أشهر بيت في جدة وهو بيت « آل زينل » وهو بيت عريق في الفضل ، كبير في الشهرة واسع في التجارة والغنى لهم من مكارم الأخلاق والآداب الرفيعة والأمانة البليغة والفضل والحسب ما يعجز القلم عن حصرها .

ويكفي أن الحاج محمد علي زينل ذلك المحسن الكبير أن قام بتأسيس مدارس الفلاح بجدة أولاً ثم بمكة ثم بالهند ثم بالبحرين . هذه المدارس التي أدت من الخدمات العلمية لأبناء مكة وجدة وغيرهم ما لا يخفى على أحد في وقت كان الجهل بالقراءة والكتابة ضارباً أطنابه على البلاد .

كما يكفي أن الحاج عبدا لله علي رضا زينل ذلك الرجل العظيم الوقور المهيب الطلعة كان قائمقام مدينة جدة في عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، وفي عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود بعد توليه الحجاز رحمهم ا لله تعالى جميعاً ، وقد بقي الحاج عبدا لله في مركزه إلى أن توفي سنة ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية .

انظر: صورة رقم ٣٤٩ ، الحاج عبد الله زينل قائمقام جدة وأميرها ت١٣٥١هـ ،

وفاة الحاج محمد علي زينل "مؤسس مدارس الفلاح"

لقد تكلمنا بإسهاب في هذا الكتاب عن مدارس الفلاح ومؤسسها الحاج محمد علي زينل، وعما قام به من الأعمال الجليلة في سبيل نشر العلم بمكة المكرمة وبجدة في زمن كان الجهل وعدم تفتح الوعي مستوليان على الناس ، فالمتعلمون منهم قليلون ثم بسبب مدارس هذا الرجل النبيل والمدارس الأخرى كالمدرسة الصولتية الهندية والمدرسة الرشدية التركية ، انتشر التعليم في بلاد الحجاز انتشاراً ملموساً محسوساً .

والآن نذكر بكل أسف وحزن أن الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح المذكور قد انتقل إلى رحمته تعالى في أول شهر شعبان سنة (١٣٨٩) ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين هجرية ، تغمده ا لله تعالى برحمته وأدخله فسيح جنته وجزاه عن أعماله الخيرية من البر والإحسان خير الجزاء وأكثر ا لله تعالى من أمثاله في المسلمين آمين .

ومن أشهر رجالات جدة الوجيه المفضال الشيخ محمد نصيف ، فإنه حفظه ا لله تعالى من رجال العلم والأدب ، وله مكتبة قيمة في منزله بها مئات الكتب المهمة ، ولا يسمع بطبع كتاب إلا طلبه واشتراه ، فمكتبته من أشهر المكاتب بالحجاز وهي مرتبة ونظيفة للغاية موضوعة في دواليب بديعة جميلة وأنه بنفسه يعتني بحفظها وتنظيفها .

ويلقبه الناس « بالأفندي نصيف » لأن بيت نصيف بيت كبير بجدة ، والشيخ محمد نصيف أباً عن جد من أعيان جدة ، وهو في نحو الستين من عمره محتفظ بنشاطه ومرحه ضاحك السن بشوش الوجه كريم مضياف ، ويقصده كثير من

الواردين إلى جدة في أيام الحج وغيرها من العلماء والفضلاء فيتلقاهم بما عهـد عنه من مكارم الأخلاق وحسن الاستقبال ولا يضيق بالزائرين مطلقاً بل يفرح بهم .

أكثر الله من أمثاله وبارك لنا في حياته آمين .

الشيخ حسين أبو زيد

ومن فضلاء أهل جدة ووجهائهم الشيخ حسين أبو زيد رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، لقد كان رجلاً شهماً كريماً نبيلاً ، كان هو الوكيل العام لجميع المطوفين بمكة ، وكانوا يثقون فيه للغاية ويقصدونه في أمورهم ، وكان دائماً بشوش الوجه مضيافاً وبيته الكبير مفتوح للخاص والعام ، ومائدته ممدودة ، وإنني لن أنسى حسن مقابلته لي عند رجوعي من مصر لأول مرة في حياتي ، فلقد تلقاني بالبشاشة والترحيب ، وأرسل برقية إلى والدي بمكة يخبره فيها بوصولي من مصر وذلك في سنة (١٣٤٧هـ) ، إنه رحمه الله تعالى كان يعطي النعمة حقها ، وكان يعرف منازل الناس ويقوم بإكرام كل واحد منهم بحسب منزلته ومكانته . وإليك صورته الكريمة فإنها تنبئ عن فضله وكريم محتده .

انظر : صورة رقم ٣٥٠ . الشيخ حسين أبو زيد

توفي الشيخ حسين أبو زيد رحمه الله تعالى في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة (١٣٧٠هـ) وكان له ولد واحد وهو الشيخ صالح لكنه توفي سريعاً بعد والده بعام واحد رحمه الله تعالى وذلك في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة (١٣٧١هـ)، وقد خلف الشيخ صالح كثيراً من الأولاد وكلهم فضلاء نجباء محتفظين بكرامة بيتهم ، حفظهم الله تعالى وجعلهم من سعداء الدارين آمين .

هذا ما وفقنا الله تعالى للكتابة عن جدة وأهلها على وجه الاختصار ، وإن شاء الله تعالى إن وجدنا فرصة وضعنا تأليفاً خاصاً عن جدة وعن العائلات الكريمة التي بها وعن عاداتهم الممدوحة وأخلاقهم الحميدة . وهنا نرجو منهم أن يعذرونا عن عدم التفصيل فإن المقام يقتضي الإيجاز ، وكان الله في عون الجميع وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

"قبر أمنا حواء" بجدة

اشتهر لدى الناس أن قبر أمنا حواء بجدة في الجبّانة المعروفة، وكانت عليه قبة مشيدة من قديم الزمان، واشتهار قبرها لا يستند إلى دليل شرعي قاطع، ولا إلى تاريخ صحيح ثابت ونحن نعتقد أن هذا كذب اختلقه المرتزقة منذ قرون مضت فرسخ ذلك في أذهان العامة. وسنتكلم عليه بما يشفي الغليل إن شاء الله تعالى.

قال البتنوني: في كتابه «الرحلة الحجازية» عن قبر أمنا حواء ما نصه:

أما مدافن المسلمين فإنها في جهة جدة الشرقية على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقي الذي يسمونه «باب مكة» وعليها سور يفتح بابه للغرب، ترى في مدخله زمن الحج كثيراً من الشحاذين صغاراً وكباراً من الأعراب والأغراب، فإذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع متر وفي عرض نحو ثلاثة أمتار، وهو ما يسمونه: قبر أمنا حواء، وهو أشبه شيء بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر، وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها، وفي كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم. وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار وفي وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين، وعند نهايتي القبر ترى أناساً متطوعين لإرشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها إلى الغرب، وفيها شباكان يشرفان على جهتي القبر، وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة فتحه لنا خادم المقصورة قائلاً: «هذا مكان الصرة الشريفة» فنظرت فوجدت فيه حجراً من الصوان يبلغ طوله نحو متر محفوراً من وسطه.

ثم قال البتنوني بعد صحيفة واحدة: ولا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ومحا أثر الشرك من هذه البلاد ودالت به دولة الوثنية وهدمت هياكلها التي كان من ضمنها بالطبع هذا الهيكل بقي أثره في نفوس القوم براً بحق الأمومة وأقاموا له قبة -لا ندري متى كان تشييدها- لتكون

مزاراً للناس ، كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة في رحلته المشهورة في القرن السابع للهجرة ، ولم يذكر شيئاً عن القبر ، ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير في رحلته التي عملها سنة (٥٨٧) للهجرة قال رحمه الله : « وبها -بجدة- موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلاً لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم » . انتهى من الرحلة الحجازية .

ورأينا في قبر أمنا حواء بجدة والله تعالى أعلم بالغيب: أن وجود هذا القبر وبناء القبة عليه حادث لا محالة وأنه كذب مفتعل احتال على عمله بعض الدجالين المرتزقة لجمع الصدقات من الجهلة الذين تجوز عليهم الخرافات ، وبمرور الزمن الطويل على ذلك ولعدم إجراء تحقيق عليه صار عامة الناس يعتقدون أن في هذا القبر دفنت أمنا حواء .

ونستدل على هذا بأنه لما اشتكى الناس إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الشدة التي يعانونها في ميناء الشعيبة ، لما فيها من الشعاب وطلبوا منه نقل هذا الميناء إلى جدة ، ذهب رضي الله عنه في جمع من الصحابة لمعاينة مكان جدة فوجده أحسن من الشعيبة فأمر بجعله ثغراً لمكة وسموه « جدة » حيث لم تكن معروفة بهذا الإسم من قبل ، ولم ينقل عنه ولا عن أحد من الصحابة عن معرفتهم لقبر حواء بجدة وعثورهم عليه ، فلو كان قبرها الطويل العريض معروفاً لديهم لنقله التاريخ عنهم .

نعم ذكر بعضهم أن إبليس هبط بأيلة وهبطت حواء بجدة وهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود ، وهو بأعلى الهند نحو الصين جبل عال يراه البحريون من مسافة أيام ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام مغموسة في الحجر . وهذا الكلام الله أعلم بصحته .

وهل كانت جدة معروفة في تلك الأيام ، كلا فجدة لم تسكن إلا في زمن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، فهو الذي جعلها ميناء بدلاً عن الشعيبة كما هو معروف .

ثم إن ما بين هبوط آدم وحواء عليهما السلام وبين زماننا هذا لا ندري كم مضى من السنين . وإن ما يقوله بعضهم بأن عمر الأرض مائة مليون سنة وألف مليون سنة أو أكثر أو أقل مردود غير مقبول لا يقبله عاقل ولا يصدقه باحث محقق إذ لا يستند إلى دليل قوي من كتاب أو سنة ، فما هو إلا رجم بالغيب وتخمينات وهمية وتخيلات ظلالية نشأت من انعكافهم على دراسة الآثار القديمة وقياسات بعض الأشياء على بعض ، قال بعض علماء الشناقطة:

وكل ما ورد مما حدّا ... لهذه الدنيا يرد ردا

إذ لم يرد حدّ عن المعصوم ... في خبر بسند قويم

فلا يعلم كل ذلك إلا الخلاّق العظيم الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، فهو جل جلاله يعلم وحده مبدأ الكائنات ويعلم منتهاها ، فعليه من الذي أخبرنا بأن قبر حواء في ذلك الموضع بجدة وعلى أي دليل يستند ، ثم أليس الطوفان الذي عم الدنيا مسح عن الأرض كل أثر وغيّر كثيراً من الأمور عن مواقعها وأمكنتها ، فلم يبق على وجه الأرض من يتنفس إلا من كان في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، فلا يمكن أن نصدق مثل هذه الأمور إلا إذا ورد شيء عن الصادق المعصوم ﷺ .

هذا وقد تقدم الكلام عن مقدار طول آدم عليه الصلاة والسلام في أوائل الكتاب عند الكلام على بناء آدم عليه السلام للكعبة المشرفة فراجعه فإنه مبحث نفيس .

نبذة عن تاريخ المدينة المنورة

هنا نحب أن نتشرف بذكر نبذة صغيرة عن المدينة المنورة ، للجمع بين الحرمين الشريفين ، ولا نقدر أن نتوسع بذكر تاريخها تفصيلاً ، فهذا يحتاج إلى وقت طويل ، فإن كان لنا عمر وأمدنا الله تعالى بتوفيقاته فلا بد أن نضع تاريخاً عظيماً لمدينة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

فليعذرنا القارئ الكريم على هذه النبذة القصيرة ، فإننا لم نذكرها إلا تبركاً بآثار رسولنا الأعظم نبينا « محمد » ﷺ فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ترتفع المدينة المنورة عن سطح البحر بنحو (٦١٩) متراً، وهي واقعة على طول (٣٩) درجة و(٥٥) دقيقة شرقاً وعلى عرض (٢٤) درجة و(١٥) دقيقة من شمال خط الاستواء (أعني على عرض خط دراو التي توجد بين أسنا وأسوان).

انظر: صورة رقم ٣٥١، خريطة الحرم الشريف
انظر: صورة رقم ٣٥٢، خريطة المدينة المنورة

قال العلاّمة ابن خلدون في مقدمته عن المدينة المنورة عند الكلام على المساجد والبيوت العظيمة في العالم ما يأتي:

وأما المدينة وهي المسماة «يثرب» فهي من بناء يثرب بن مهلايل من العمالقة، وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز، ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها، ثم أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرفه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه. فلذلك سموا الأنصار وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها، وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخاطبهم رسول الله ﷺ وأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض ﷺ كان ملحده الشريف بها، وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا خفاء به، ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة، وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي ﷺ قال: المدينة خير من مكة، نقل ذلك عن عبد الوهاب في المعونة إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك، وخالف أبو حنيفة والشافعي وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أواب، فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدريجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

انظر: صورة رقم ٣٥٣، القبة النبوية الشريفة

وقال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في الجزء الرابع بصحيفة ٤٨٥ عنها ما نصه:

المدينة ضبطها معروف، وهو اسم غلب عليها وبه نطق القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وقوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾. واسمها القديم يثرب، وبه نطق القرآن في قوله تعالى: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾.

قال الزجاجي: وهو يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيلٍ بن عوص بن إرم بن سام بن نوح هو الذي بناها، وورد ذكره في الحديث أيضاً. قال الشيخ عماد الدين بن كثير في «تفسيره» وحديث النهي عن تسميتها بذلك ضعيف، وسماها الله تعالى الدار بقوله: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم﴾ وسماها النبي ﷺ طيبة -بفتح الطاء المهملة وسكون الياء وفتح الباء الموحدة بعدها هاء- وطَابَة بإبدال الباء بعد الطاء بألف، قال النووي: وهما من الطيب وهو الرائحة الحسنة، وقيل من الطيب خلاف الرديء، وقيل من الطيب بمعنى الطاهر، وقيل من طيب العيش، وزاد السهيلي في أسمائها الجابرة، بالجيم والباء الموحدة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة، وكانت تدعى في الجاهلية غلبة، لأن اليهود غلبوا عليها العماليق، والأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود. قال صاحب حماة: وهي من الحجاز، وقيل من نجد وموقعها قريب من وسط الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة. قال في كتاب «الأطوال»: وطولها خمس وستون درجة وثلث، وعرضها إحدى وعشرون درجة. وقال في «القانون»: طولها سبع وستون درجة ونصف، وعرضها إحدى وعشرون درجة وثلث. وقال ابن سعيد: طولها خمس وستون درجة وثلث وعرضها خمس وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة. وقال في «رسم المعمور»: طولها خمس وستون درجة وعشرون دقيقة وعرضها خمس وعشرون درجة... إلخ كلامه.

انظر: صورة رقم ٣٥٤، الحرم النبوي الشريف من داخل الصحن والحجرة الشريفة وبستان السيدة فاطمة رضي الله عنها

حدود حرم المدينة المنورة

إن مكة والمدينة صنوان، تبنّى الأولى أبو الأنبياء «إبراهيم الخليل» عليه الصلاة والسلام، فحرّمها ودعا لأهلها، وتبنّى الثانية خاتم الأنبياء نبينا «محمد» ﷺ فحرّمها ودعا لصاعها ومدها. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن إبراهيم

حرّم مكة ، وإني حرّمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهها ولا يصاد صيدها» . اللابتان تثنية لابة ، وهي أرض ذات حجارة سود وهما شرقي المدينة وغربيها فحرّمها ما بينهما عرضاً وما بين جبليها عير وأحد طولاً ، وعضاهها ، بهائين جمع عضاهة أي شجرها ، وهو بكسر العين بوزن كتاب كما في المصباح .

جاء في كتاب «شفاء الغرام» في أواخر الجزء الثاني منه في الباب الخامس ما يأتي: في الصحيحين من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها ، وإني حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة» .

وذكر أبو داود السجستاني في السنن من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرام ما بين عير إلى ثور فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أنشدها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ولا يصلح أن تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره» .

وفي الصحيحين عن علي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيها أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: عير وثور جبلان وأهل المدينة لا يعرفون بها جبلاً يقال له ثور إنما ثور بمكة فترى أن الحديث أصله ما بين عير إلى أحد .

قلت: بل يعرف أهل المدينة جبل ثور وهو جبل صغير وراء أحد ولا ينكرونه .

وفي السنن لأبي داود من حديث عدي بن زيد قال: حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً لا يخبط شجرها ولا يعضد إلا ما يساق به الجمل . وفيها أن سعد بن أبي وقاص أخذ رجلاً تصيد في حرم المدينة الذي حرّم رسول الله ﷺ فسلبه ثيابه ، فجاءوا إليه فكلموه فيه فقال: (إن رسول الله ﷺ حرّم هذا الحرم وقال : من أخذ الصيد فيه فليسلبه ثيابه) فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله ﷺ ولكن إن شئتم دفعت إليكم ثمنه .

وفيها عن جابر بن عبدا لله أنه قال: لا يخبط شجرها ولا يعضد ولكن يهش هشاً رفيقاً .

أخبرنا يحيى بن أبي الفضل الفقيه أخبرنا عبدا لله بن رفاعة أنبأنا علي بن الحسن الشافعي أخبرنا شعيب بن عبدا لله حدثنا أحمد بن الحسن الرازي حدثنا أبو الزنباع حدثنا عمر بن خالد حدثنا بكر بن مضر عن أبي الهاد عن أبي بكر بن محمد عن عبدا لله بن عمر عن رافع بن خديج أنه سمع رسول ا لله ﷺ يقول وذكر مكة فقال: « إن إبراهيم حرّم مكة وإني أحرّم ما بين لابتيها » يريد المدينة .

وفي صحيح البخاري في حديث الهجرة أن النبي ﷺ قال للمسلمين: إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان .

أنبأنا القاسم بن علي قال: أنبأنا محمد بن إبراهيم أنبأنا سهل بن بشير أنبأنا علي بن منير أنبأنا الذهلي أنبأنا موسى بن هارون حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عبدالعزيز بن أبي ثابت حدثني أبو بكر ابن النعماني بن عبدا لله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده عن كعب بن مالك قال: حرّم رسول ا لله ﷺ الشجر بالمدينة بريداً في بريد وأرسلني فأعلمت على الحرم على شرف ذات الجيش وعلى مشرف وعلى أشراف المجتهر وعلى يتم .

قلت: واختلف العلماء في صيد حرم المدينة وشجره فقال مالك والشافعي وأحمد: إنه محرّم . وقال أبو حنيفة: ليس بمحرّم واختلفت الرواية عن أحمد هل يضمن صيدها وشجرها بالجزاء ، فروي عنه أنه لا جزاء فيه وبه قال مالك ، وروي أنه يضمن ، وللشافعي قولان كالروايتين وإذا قلنا بضمانه فجزاؤه سلب القاتل بتملكه الذي يسلبه ومن أدخل إليها صيداً لم يجب عليه رفع يديه عنه ويجوز له ذبحه وأكله ويجوز أن يؤخذ من شجرها ما تدعو الحاجة إليه للرحل والوسائد ومن حشيشها ما يحتاج إليه للعلف بخلاف مكة . انتهى من كتاب شفاء الغرام للفاسي .

انظر: صورة رقم ٣٥٥ ، المسجد النبوي الشريف –عمارة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله

نقول: لقد أتينا في كتابنا « إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة » المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر حكم قطع شجر حرم مكة ونباته وحكم صيده بتفصيل تام . وربما نأتي بحكم كل ذلك في تاريخنا هذا أيضاً .

ولنذكر هنا نبذة صغيرة مما يتعلق بالمدينة وهي: أن حرمة قطع الشجر والحشيش تكون في حرم مكة وحرم المدينة ، أما ضمان ذلك وجزاؤه فهو مختص بحرم مكة فقط عند الأئمة الأربعة ، وكالحرم المدني في ذلك وادي « وج » بالطائف .

فحرم المدينة و« وج » الطائف كمكة في حرمة الصيد والشجر والنبات ونحو التراب دون الضمان ، لأنهما ليسا محلاً للنسك ، فكل ما حرم الله بمكة حرم بالمدينة ووج الطائف غير أنه لا ضمان فيهما .

وأما النقيع « بفتح النون وكسر القاف » وهو موضع يبعد عن المدينة بنحو مرحلة إلى جهة الجنوب ، فإنه ليس بمحرم ، لكنه يحرم إتلاف شجره وحشيشه ، فإن أتلفه أحد فالأصح أن تلزمه القيمة ، ولا يحرم صيده بالاتفاق .

والنقيع المذكور هو الحمى الذي حماه رسول الله ﷺ لِنِعَم الصدقة والجزية ، قالوا : وهو أخصب موضع هناك فيه كثير من الأشجار بحيث يغيب فيه الراكب .

بناء بيوت أزواج النبي ﷺ

جاء في كتاب « الدرة الثمينة في تاريخ المدينة » لابن النجار المطبوع بآخر الجزء الثاني من كتاب « شفاء الغرام » بعنوان ذكر حُجر أزواج النبي ﷺ ما نصه:

لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بنى بيتين لزوجته عائشة وسودة رضي الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة رضي الله عنها مصراع واحد من عرعر أو ساج .

ولما تزوج رسول الله ﷺ نساءه بنى لهن حجراً وهي تسعة أبيات ، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ . قال أهل السير: ضرب النبي ﷺ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشامي ، ولم يضربها في غربيه ، وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة في المسجد ، قال عمر بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها على أبوابها مسوح الشعر وذرعت الستر فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع .

قال مالك بن أنس : وحدثني الثقة عندي أن النـاس كـانوا يدخلـون حجـرات أزواج النبي ﷺ بعد وفاته يصلون فيها يوم الجمعـة ، قـال مـالك : وكـان المسجد يضيق على أهله وحُجـر النبي ﷺ ليسـت مـن المسـجد ولكـن أبوابهـا شـارعة في المسجد ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني إليّ رأسه فأرجله ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان .

أخبرنا صالح بن أبي الحسن الحريمي ، أنبأنا محمد بـن عبـد البـاقي الأنصـاري ، أخبرنا أبو الحسن بن معروف ، أخبرنا الحارث بـن أبـي أسـامة ، حدثنـا محمـد بـن سعد ، أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنا عبـدا لله بـن يزيـد الهـذلي قـال: رأيـت بيـوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبدالعزيز ، كانت بيوتاً باللبن ولها حُجر مـن جريد ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها مـن لـبن فسـألت ابـن ابنهـا فقـال: لما غـزا رسول الله ﷺ دومة ، بنَت أم سلمة بلبن حجرتها فلما قدم نظر إلى اللـبن فقـال: ما هذا البناء؟ فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس ، فقال: يا أم سلمة إن شـر مـا ذهب فيه مال المسلم البنيان ، وقال عطاء الخراسـاني: أدركـت حجـر أزواج النبي ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسـود فحضـرت كتـاب الوليـد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حجر النبي ﷺ في مسجده ، فما رأيت باكياً أكـثر من ذلك اليوم .

وسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لـوددت أنهـم لـو تركوهـا علـى حالها ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى مـا اكتفـى بـه رسـول الله ﷺ في حياته فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والفخر ، وقال عمران بـن أبي أنس: لقد رأيتني في مسجد رسول الله ﷺ وفيه نفر من أصحابه أبو سلمة بـن عبدالرحمن وأبو أمامة بن سهل وخارجة بن زيد يعني لما نقضت حجر أزواجه عليه السلام وهم يبكون حتى اخضلت لحاهم من الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامـة: ليتهـا تركت حتى يقصر الناس من البنيان ويروا ما رضي الله عز وجل لنبيه ﷺ ومفاتيح الدنيا بيده .

ذكر بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها كان خلف بيـت النبي ﷺ عن يسار المصلـي إلى الكعبـة ، وكـان فيـه خوخـة إلى بيـت النبي ﷺ ، كـان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل إلى المخرج اطلع منها يعلم خبرهم ، وكـان يـأتي

بابها كل صباح فيأخذ بعضادتيه ويقول: الصلاة الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

وقال محمد بن قيس: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر أتى فاطمة رضي الله عنها فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفر فصنعت فاطمة مسكتين من وَرِق «فضة» وقرطين وستراً لباب بيتها لقدوم أبيها وزوجها، فلما قدم عليه السلام ودخل إليها وقف أصحابه على الباب فخرج وقد عُرِفَ الغضب في وجهه ففطنت فاطمة إنما فعل ذلك لما رأى المسكتين والقلادتين والستر فنزعت قرطيها وقلادتيها ومسكتيها ونزعت الستر وأنفذت به إلى رسول الله ﷺ وقالت للرسول: قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله، فلما أتاه قال: فعلت فداها أبوها، ثلاث مرات ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، ثم قام فدخل عليها.

وقال محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أخذ رسول الله ﷺ الستر من فاطمة شقه لكل إنسان من أصحابه ذراعين ذراعين.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر قبل رأس فاطمة رضي الله عنها.

انظر: صورة رقم ٣٥٦، رسم وصفي تقريبي لمنزل النبي ﷺ بالمدينة المنورة

أنبأنا أبو القاسم التاجر عن أبي علي الحداد عن أبي نعيم الحافظ عن أبي محمد الخواص قال: أخبرنا أبو يزيد المخزومي حدثنا الزبير بن بكار حدثنا محمد بن الحسن حدثني محمد بن إبراهيم بن عبدالله ابن جعفر بن محمد كان يقول: قبر فاطمة رضي الله عنها في بيتها الذي أدخله عمر بن عبدالعزيز في المسجد، قلت: وبيتها اليوم حوله مقصورة وفيه محراب وهو خلف حجرة النبي عليه السلام.

ثم قال المؤلف المذكور عند ذكر مصلى النبي ﷺ بالليل: روى عيسى بن عبدالله عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يطرح حصيراً كل ليلة إذا انكف الناس ورأيت علياً كرم الله وجهه ثَمّ يصلي صلاة الليل، قال عيسى: وذلك موضع الأسطوان الذي على طريق النبي ﷺ مما يلي الدور.

وروي عن سعيد بن عبدالله بن فضيل قال: مرّ بي محمد بن علي بن الحنفية رضي الله عنه وأنا أصلي إليها، قال لي: أراك تلزم هذه الأسطوانة هل جاءك فيها

أثر ؟ قلت: لا ، قال: فالزمها كانت مصلى رسول الله ﷺ بالليل ، قلت: وهذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة رضي الله عنها وفيها محراب إذا توجه الرجل كان يساره إلى باب عثمان رضي الله عنه . انتهى من الكتاب المذكور .

انظر: صورة رقم ٣٥٧، مسجد قباء بالمدينة المنورة

المزارات بالمسجد النبوي:

سيدنا محمد ﷺ ، سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ، سيدنا عمر رضي الله عنه ، دعاء القبلة المحراب المحمدي ، الروضة المطهرة المنبر الشريف .

مزارات البقيع:

عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أبو سعيد الخدري ، فاطمة بنت أسد أم علي ، حليمة مرضعة المصطفى ﷺ .

شهداء البقيع رضي الله عنهم:

إبراهيم بن المصطفى ﷺ ، نافع شيخ القراء ، مالك إمام المذهب ، عقيل بن أبي طالب ، سفيان بن الحارث ، عبدالله بن جعفر الطيار رضي الله عنهم .

أزواج النبي ﷺ:

سودة ، حفصة ، صفية ، أم حبيبة ، عائشة ، أم سلمة ، جويرية ، زينب بنت جحش ، زينب بنت خزيمة .

بنات المصطفى:

أم كلثوم ، رقية ، زينب . فاطمة الزهراء.

عماته ﷺ:

عاتكة ، صفية ، فاطمة أم البنين .

الروضة النبوية المطهرة وفضلها

جاء في الجزء الثاني من كتاب « وفاء الوفا » للعلاّمة السمهودي رحمه الله تعالى في الفصل السادس في فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة ما يأتي: روينا في الصحيحين حديث عبدالله بن زيد المازني رضي الله عنه: « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ». زاد البخاري من حديث أبي هريرة: « ومنبري على حوضي ».

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه علي بن زيد وقد وثق عن جابر بن عبدالله مرفوعاً «ما بين بيتي إلى منبري روضة من رياض الجنة ، وإن منبري على ترعة من ترع الجنة».

وروى أحمد برجال الصحيح عن سهل بن سعد مرفوعاً «منبري على ترعة من ترع الجنة» وفيه تفسير الترعة بالباب وقيل: الترعة الروضة تكون على المكان المرتفع خاصة وقيل: الدرجة.

ورواه يحيى عن أبي هريرة وغيره بلفظ « على رتْعَةٍ من رتع الجنة » وكذا هو في رواية لرزين وظنه بعضهم تصحيفاً فكتب في هامشه « صوابه ترعة » وليس كذلك ، بل معناه صحيح إذ الرتع الاتساع في الخصب ، والرتعة -بسكون التاء وفتحها- الاتساع في الخصب ، وكل مخصب مرتع.

وفي الحديث: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » وروى البزار عن معاذ بن الحارث نحوه.

وفي الكبير للطبراني من طريق يحيى الحماني وهو ضعيف عن أبي واقد الليثي مرفوعاً: «قوائم منبري رواتب في الجنة» ورواه ابن عساكر وابن النجار ويحيى عن أم سلمة ، وقال المجد: أخرجه عنها النسائي ، وفي رواية لابن عساكر: «وضعت منبري هذا على ترعة من ترع الجنة».

وأسند يحيى عن أبي المعلى الأنصاري ، وكانت له صحبة ، أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: « إن قدمي على ترعة من ترع الجنة ».

وعن أبي سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على منبره: «أنا قائم الساعة على عقر حوضي» وفي رواية له: « إني على الحوض الآن ».

وأسند ابن زبالة عن نافع بن جبير عن أبيه حديث « أحد شقي المنبر على عقر الحوض فمن حلف عنده على يمين فاجرة يقتطع بها حق امرئ مسلم فليتبوأ مقعده من النار » قال: وعقر الحوض من حيث يصب الماء في الحوض .

وفي سنن أبي داود من حديث جابر مرفوعاً « لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تبوأ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » ورواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه .

وروى النسائي برجال ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة مرفوعاً « من حلف عند منبري هذا يميناً كاذبة استحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » .

وفي الأوسط للطبراني وفيه ابن لهيعة عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « منبري على ترعة من ترع الجنة ، وما بين المنبر وبيت عائشة روضة من رياض الجنة » .

وفي الصحيحين حديث ابن عمر « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » .

وروى أحمد برجال الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد حديث « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » .

وروى البزار برجال ثقات عن سعد بن أبي وقاص حديث « ما بين بيتي ومنبري أو قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وفي الأوسط للطبراني وفيه متروك عن أنس بن مالك حديث « ما بين حجرتي ومصلاي روضة من رياض الجنة » وفي رواية لابن زبالة من طريق عائشة بنت سعد عن أبيها « ما بين منبري والمصلى » وفي رواية « ما بين مسجدي إلى المصلى روضة من رياض الجنة » ورواه أبو طاهر بن المخلص في انتقائه ويحيى في أخبار المدينة بلفظ « ما بين بيتي ومصلاي روضة من رياض الجنة » قال جماعة: المراد به مصلى العيد ، وقال آخرون: مصلاه الذي يصلي فيه في المسجد كذا قاله الخطابي .

قلت : ويؤيد الأول أن في النسخة التي رواها طاهر بن يحيى عن أبيه يحيى عقب الحديث المذكور ما لفظه: قال أبي: سمعت غير واحد يقولون: إن سعداً لما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ بنى داره فيما بين المسجد والمصلى وكذا ما سيأتي في مصلى العيد من رواية ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص .

قلت: وهو شاهد لما سيأتي من عموم الروضة لجميع مسجد النبي ﷺ، ولما زيد فيه من جهة المغرب.

وروى عبدا لله بن أحمد في زوائد المسند برجال الصحيح إلا أن فيهم فليحاً. وقد روى له الجماعة وقال الحاكم: اتفاق الشيخين عليه يقوي أمره، وقال الساجي: ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الدارقطني: فليح يختلفون فيه، وقال بعضهم: إنه كثير الخطأ. عن عبدا لله بن زيد المازني قال: قال رسول ا لله ﷺ: «ما بين هذه البيوت -يعني بيوته- إلى منبري روضة من رياض الجنة والمنبر على ترعة من ترع الجنة». انتهى من وفاء الوفا للسمهودي.

انظر: صورة رقم ٣٥٨، الحجرة الشريفة بالمدينة المنورة

ما جاء في شرح زاد المسلم عن الروضة

نحب أن نذكر هنا معنى الأحاديث السابقة نقلاً عن الشرح المذكور:

قال شيخنا العلاّمة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب ا لله الشنقيطي رحمه ا لله تعالى في شرحه على كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند هذين الحديثين: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» وكلاهما في الصحيحين ما ملخصه: «ما بين بيتي ومنبري» أي المكان الذي بين بيتي ومنبري.

والمراد بقوله: بيتي أحد بيوته الذي هو بيت عائشة وهو الذي فيه قبره الشريف فيوافق رواية ابن عساكر «ما بين قبري ومنبري...إلخ» وقيل: المراد بالبيت مسكنه، قال الطبري: والقولان متفقان، لأن قبره ﷺ في بيته.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ما نصه: وقع في حديث سعد بن أبي وقاص عند البزار بسند رجاله ثقاة وعند الطبراني من حديث ابن عمر بلفظ القبر، فعلى هذا المراد بالبيت في قوله بيتي أحد بيوته لا كلها وهو بيت عائشة الذي صار فيه قبره. وقد ورد الحديث بلفظ ما بين المنبر وبيت عائشة روضة من رياض الجنة. أخرجه الطبراني في الأوسط. اهـ بلفظه. واختلف في معنى قوله روضة من رياض الجنة فقيل: إن هذه البقعة منقولة منها كالحجر الأسود أو تنقل بعينها إليها كالجذع الذي حن إليه ﷺ أو معناه أنها توصل المتعبد فيها إلى الجنة، فهو مجاز

باعتبار المآل كقوله: الجنة تحت ظلال السيوف أي الجهاد مآله الجنة أو تشبيه بليغ كزبد بحر ، لأن زوار قبره الشريف من الملائكة والإنس والجن لا يزالون في تلك البقعة مكبين على ذكر الله وعبادته . فهذه البقعة المقدسة روضة من رياض الجنة الآن ، وتعود إليها ويكون للعامل فيها روضة في الجنة .

ومعنى : « ومنبري على حوضي » أنه يوضع بعينه على حوضه يوم القيامة وقدرة الله تعالى صالحة لذلك . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : قال الأكثر : المراد منبره بعينه الذي قال هذه المقالة وهو فوقه ، وقيل : المراد المنبر الذي يوضع له يوم القيامة والأول أظهر . قال : وقد رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي واقد الليثي رفعه « أن قوائم منبري رواتب في الجنة » وقيل : معناه أن قصد منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد صاحبه إلى الحوض ويقتضي شربه منه والله أعلم .

قال الأُبّيّ: كان شيخنا أبو عبدالله « يعني ابن عرفة » يقول: لا يمتنع أن يكون من الجنة حقيقة وهذا أمر جائز أخبر الشرع بوقوعه فلا مانع ، فقيل له المانع أنه ليس على صفات الجنة المذكورة في الأحاديث فقال: يجوز أن تكون كذلك ولا ندركها ، قيل له فقد قال الحكماء لو قال أحد أن بين يدينا بحاراً وجبالاً لا ندركها لكان هوساً من القول فقال لو أخبر الشارع أن بين أيدينا تلك الأشياء لوجب الإيمان به وقد قال ﷺ: أريت الجنة والنار في عرض هذا الحائط وقد قيل إن ذلك حقيقة . اهـ .

ونقل ابن زبالة: أن ذرع ما بين المنبر والبيت الذي فيه القبر الآن ثلاث وخمسون ذراعاً ، وقيل : أربع وخمسون وسدس ، وقيل : خمسون إلا ثلثي ذراع وهو الآن كذلك فكأنه نقص لما أدخل من الحجرة في الجدار . انتهى من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم .

نقول: إن كلام العلامّة ابن عرفة المتقدم من أنه لو أخبر الشارع أن بين أيدينا تلك الأشياء لوجب الإيمان به . قوله هذا حق لا شك فيه فهو يشبه وجوب الإيمان بسؤال القبر وضمته ونعيمه وعذابه وامتداد سعته للرجل الصالح مع أننا لو جعلنا القبر مكشوفاً عند دفن الميت وأقمنا عنده مدة طويلة ننظر إليه لما شاهدنا وما سمعنا أي شيء . فمثل هذا من الإيمان بالغيب .

وأما قوله ﷺ: « ...ومنبري على حوضي » فلا يبعد أن يكون المعنى أن منبره ﷺ مسامت على حوضه بحيث لو نزل المنبر وخرق الأرض والسماء على خط مستقيم لوقع في موضعه المخصص له من الحوض. وهذا نظير قول ابن عباس رضي الله عنهما في البيت المعمور أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ في حال حياته يرى الجنة ويرى موضع روضته ومنبره منها، ولقد كان يحدث عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك. ففي صحيح البخاري في باب علامات النبوة في الإسلام: عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحُد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فرطكم وأنا شهيد عليكم، إني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف بعدي أن تشركوا ولكن أخاف أن تنافسوا فيها. انتهى.

وفيه أيضاً في كتاب الصلاة في باب وقت الظهر عند الزوال عن الزهري قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر أن فيها أموراً عظاماً ثم قال: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا فأكثر الناس في البكاء وأكثر أن يقول سلوني فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال: من أبي ؟ قال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسكت ثم قال: عُرِضَتْ عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرْضِ هذا الحائط فلم أر كالخير والشر. انتهى.

ولا يبعد أيضاً أن تكون نفس قطعة الروضة التي ما بين بيته ﷺ ومنبره في الجنة يوم القيامة، أي تعاد الروضة المطهرة إلى الجنة كما يعاد إليها جذع النخلة الذي كان رسول الله ﷺ يخطب عليه وكما يعاد أيضاً إليها الركن الأسود ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وكل ذلك دليل على كرامة رسول الله ﷺ عند ربه عز وجل، والله تعالى على كل شيء قدير يحيي العظام وهي رميم.

ونقول أيضاً: إننا ذهبنا من مكة إلى المدينة زادهما الله تعالى شرفاً وأمناً ورخاءً في النصف الثاني من شهر محرم الحرام سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة للتحقق من مساحة الروضة المشرفة ومعرفة طولها وعرضها.

فلما وصلنا إلى الأعتاب النبوية الشريفة وصلّينا في هذه الروضة المباركة المطهرة العامرة بالركع السجود قمنا بأخذ مساحة الروضة ، لكن لم تظهر لنا حقيقتها تماماً على صغر رقعتها فإننا عرفنا طولها من جهة البيت النبوي الشريف إلى المنبر المنيف ، أما عرضها فلم نعرفه ولن نتمكن من معرفته مطلقاً ، لأنها تحتاج إلى رؤية بيت النبي ﷺ الذي فيه قبره الشريف الأنور وهي مستحيلة ، لأن قبره عليه الصلاة والسلام وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي ا لله تعالى عنهما محجوبة بالستائر الكثيفة في داخل المقصورة النحاسية يكتنفها الحرمة والهيبة صلى ا لله عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

وهذا الذي ذكرناه من عدم معرفتنا لمقدار عرض الروضة وافقنا عليه جميع العلماء المتقدمين فقد جاء في الكتاب القيم « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » ﷺ للعلاّمة السمهودي ما نصه: ولهذا قال المجد في الباب الأول في فصل الزيارة من كتابه ما لفظه «ثم يأتي الزائر إلى الروضة المقدسة وهي ما بين القبر والمنبر طولاً و لم أر من تعرض له عرضاً» اهـ .

وجاء أيضاً عن بعض العلماء الأقدمين كابن زبالة بيان ذرع طول الروضة المطهرة فقط بدون التعرض لعرضها ، والسبب في عدم ذكرهم لعرضها هو نفس السبب الذي ذكرناه آنفاً .

وهنا نذكر أيضاً ما جاء في كتاب « وفاء الوفا » المذكور عن المراد من الروضة المطهرة ، لأنه كلام نفيس وإليك ما جاء فيه .

انظر: صورة رقم ٣٥٩ ، القبلة النبوية بالروضة الشريفة

خلاصة الأقوال في الروضة المطهرة

جاء في كتاب « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » ﷺ بعد أن ذكر مؤلفه العلاّمة السمهودي عن معنى أن الروضة من رياض الجنة ما نصه:

قلت فتلخص من ذلك ثلاثة آراء:

الأول: أنها المسجد الموجود في زمنه ﷺ .

والثاني: أنها ما سامَتَ المنبر والحجرة فقط « سامَتَ الشيء الشيء قابله ووازاه » فتتسع من جهة الحجرة وتضيق من جهة المنبر لما تقدم في مقداره ، وتكون

منحرفة الأضلاع لتقدم المنبر في جهة القبلة وتأخر الحجرة في جهة الشام، فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاه على قدر المنبر.

والثالث: أنها ما سامَتَ كلاً من طرفي الحدين فتشمل ما سامَتَ المنبر من مقدم المسجد في جهة القبلة وإن لم يسامت الحجرة ويشمل ما سامَتَ الحجرة من جهة الشمال وإن لم يسامت المنبر فتكون مربعة، وهي الأروقة الثلاثة: رواق المصلى الشريف، والرواقان بعده وذلك هو مسقف مقدم المسجد في زمنه ﷺ لأنه قد تحرر لنا في هذه العمارة التي أدركناها أن صف أسطوان الوفود -وهي التي كانت إلى رحبة المسجد كما سيأتي- واقع خلف الحجرة سواء، حتى إن الأسطوانة التي تلي مربعة القبر في صفها الداخلة في الزور بعضها داخل في جدار الحجرة الشامي كما سيأتي بيانه.

انظر: صورة رقم ٣٦٠، محراب النبي ﷺ بالمسجد النبوي

وأما أدلة هذه الأقوال فقد استدل الريمي (للأول) بأشياء غالبها ضعيف مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل المجاز لما في ذلك من المضاعفة ونحوه وأحسنها ما أشار إليه الخطيب ابن حملة وأيده الريمي بأشياء فقال: قوله «بيتي» من قوله «ما بين بيتي» مفرد مضاف فيفيد العموم في سائر بيوته ﷺ، وقد كانت بيوته مطيفة بالمسجد من القبلة والمشرق -وفيه بيت عائشة- والشام كما سيأتي عن ابن النجار وغيره ولم يكن منها في جهة المغرب شيء فعرف الحد من تلك الجهة بالمنبر الشريف فإنه كان في آخر جهة المغرب بينه وبين الجدار يسير، لأن آخره من تلك الجهة الأسطوانة التي تلي المنبر، والمنبر على ترعة من ترع الجنة فقد حدد الروضة بحدود المسجد كلها.

قلت: وهو مفرع على ما ذكره ابن النجار في تحديد المسجد من جهة الغرب وقد مشيت عليه في تواليفي قبل أن أقف على ما قدمته في حد المسجد وقد مشى على ذلك الزين المراغي فقال: ينبغي اعتقاد كون الروضة لا تختص بما هو معروف الآن بل تتسع إلى حد بيوته ﷺ من ناحية الشام وهو آخر المسجد في زمنه ﷺ فيكون كله روضة، وهذا إذا فرعنا على أن المفرد المضاف للعموم، وقد رجحه في كتب الأصول جماعة ثم ذكر ما تقدم.

قلت: وفاتهم الجميع الاستدلال بحديث زوائد مسند أحمد المتقدم بلفظ «ما بين هذه البيوت» يعني بيوته «إلى منبري روضة من رياض الجنة» والعجب أن

المعتنين بأمر الروضة لم يذكروه مع أن فيه غنية عن التمسك بكون المفرد المضاف يفيد العموم فقد ناقش الصفي الكازروني في ذلك بأشياء، منها: أن رواية « ما بين قبري ومنبري » بينت المراد من البيت المضاف. قلت: ليته قال رواية « ما بين المنبر وبيت عائشة » لأنه يلزم عليه أن يكون الروضة بعرض القبر فقط، والتخصيص بذلك بعيد ومن قال: « إن المراد من البيت القبر » ليس مراده والله أعلم، إلا أن رواية القبر لعدم إبهامها تعين البيت ولعله مراد الصفي ولهذا قال الطبري: وإذا كان قبره ﷺ في بيته اتفقت معاني الروايات ولم يكن بينها خلاف انتهى. ولك أن تقول: رواية «قبري» ورواية « حجرة عائشة» من قبيل إفراد فرد من العام وذكره بحكم العام وهو لا يقتضي التخصيص على الأصح بل يقتضي الاهتمام بشأن ذلك الفرد على أن القرطبي قال: الرواية الصحيحة « بيتي» ويروى «قبري» وكأنه بالمعنى، والله أعلم.

ومنها: أن القرافي حمل إطلاق عموم اسم الجنس على ما يقع منه على القليل والكثير كالماء والمال بخلاف ما لا يصدق إلا على الواحد كالعبد والبيت والزوجة فلا يعم، ولهذا لو قال عبدي حر أو امرأتي طالق لا يعم سائر عبيده ونسائه قال: ولم أره منقولاً. قلت: قال التاج السبكي: خالف بعض الأئمة في تعميم اسم الجنس المعرف والمضاف والصحيح خلافه، وفصل قوم بين أن يصدق على القليل والكثير فيعم أو [لا] فلا واختاره ابن دقيق العيد، انتهى.

فقد جعل ما بحثه القرافي وجهاً ثالثاً مفصلاً وذلك يأبى حمل إطلاق المطلقين عليه فما بحثه منقول لكن الصحيح خلافه وما استدل به من عدم عموم عبدي حر وامرأتي طالق جوابه من أوجه ذكرناها في دفع التعرض وأحسنها ما أشار إليه الأسنوي من أن عدم العموم في ذلك لكونه من باب الأيمان والأيمان يسلك فيها مسلك العرف، انتهى. ونقل الأزرقي في نفائسه عن ابن عبد السلام أنه قال: الذي تبين لي طلاق الجميع وعتق الجميع، وفي كتب الحنابلة نص أحمد على أنه لو قال من له زوجتان أو عبيد « زوجتي طالق أو عبدي حر » ولم ينو مُعَيَّناً وقع الطلاق والعتق على الجميع تمسكاً بالقاعدة المذكورة، فقد جرى ابن عبد السلام والحنابلة على مقتضى ذلك، فهذه الطرق من أحسن الأدلة ولكن على شمول الروضة لما بين المنبر والبيوت الشريفة فهو رأي آخر، وقد قدمنا من الحديث ما يصرح به ويؤيده ما أشار إليه الريمي من أن المقتضى لكون ذلك روضة كثرة تردده

ﷺ فيه ، وكان يصلي قبل تحويل القبلة من طرفه الذي يلي الشام ومتهجده كما سيأتي في جهة المشرق إلى الشام أيضاً ومنبره الشريف في نهاية الموضع المحدود من جهة المغرب ومصلاه الشريف بمقدمه وبه الأساطين الآتية ذوات الفضل .

(وأما الرأي الثاني) فدليله التمسك بظاهر لفظ البينية الحقيقية وحمل البيت على حجرة عائشة رضي الله عنها ويضعفه أن مقدم المصلى الشريف يلزم خروجه عن اسم الروضة حينئذٍ لخروجه عن موازاة طرفي المنبر والحجرة مع أن الظاهر أن معظم السبب في كون ذلك روضة تشرفه بجبهته الشريفة على أني لم أر هذا القول لأحد وإنما أخذته من تردد الخطيب ابن حملة المتقدم .

(وأما الرأي الثالث) فهو ظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس ووجهه حمل البيت على ما في الرواية الأخرى من ذكر حجرة عائشة وجعل ما تقدم في أمر خروج مقدم المصلى الشريف دليلاً على أن المراد من البينة ما حاذى واحداً من الطرفين وأن المراد مقدم المسجد المنتهي من جهة مؤخر الحجرة الشريفة لصف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وفي كلام الأقشهري إشارة له وهذا إنما علمناه في العمارة التي سنذكرها ولم يكن معلوماً قبل ذلك ، ولهذا قال المجد في الباب الأول في فصل الزيارة من كتابه ما لفظه: ثم يأتي -يعني الزائر- إلى الروضة المقدسة وهي ما بين القبر والمنبر طولاً ولم أر من تعرض له عرضاً ، والذي عليه غلبة الظنون أنه من المحراب إلى الأسطوانة التي تجاهه ، وأنا لا أوافق على ذلك وقد بينته في موضعه من هذا الكتاب وذكرت أن الظاهر من لفظ الحديث يقتضي أن يكون أكثر من ذلك ، لأن بيت النبي ﷺ بجميع مرافق الدار كان أكثر من هذا المقدار ، انتهى .

ولم يذكر في الموضع الذي أحال عليه شيئاً وقوله : «من المحراب إلى الأسطوانة التي تجاهه» كأنه يريد به الأسطوان المخلّق وما حاذاها فتكون الروضة على ذلك التقدير الرواق الأول منها فقط ، وهو غلط لأن الحجرة الشريفة متأخرة عن ذلك لجهة الشام ، وصَفُّ الأسطوان المذكور محاذ لطرف جدارها القبلي . وقال ابن جماعة: قد تحرر لي طول الروضة ولم يتحرر لي عرضها ، يريد أن طولها من المنبر إلى الحجرة وهو كما قال ابن زبالة ثلاثة وخمسون ذراعاً وشبراً ، وقال في موضع آخر: أربعة وخمسون ذراعاً وسدس .

قلت: وما ذكره أولاً أقرب إلى الصواب كما اختبرناه فإني ذرعت بحبلٍ من صفحة المنبر القبلية إلى طرف صفحة الحجرة القبلية فكان ثلاثة وخمسين ذراعاً.

وذكر ابن جماعة ذراعاً أقل من هذا وكأنه ذرع على الإستقامة ولم يعتبر الذرع من الطرفين المذكورين فقال: وذرعت ما بين الجدار الذي حول الحجرة الشريفة وبين المنبر فكان أربعاً وثلاثين ذراعاً وقيراطاً بذراع العمل. قلت: وذلك نحو اثنين وخمسين ذراعاً بذراع اليد الذي قدمنا تحريره، وأما قول من قال: (إن طول الروضة اليوم ينقص عن خمسين ذراعاً بثلثي ذراع) فلا وجه له إلا أن يكون اعتبر بذراع اليد المفرط الطول والله أعلم.

وأما نهاية الحجرة فلم تكن معلومة لابن جماعة وغيره، وعليها يتوقف بيان العرض ولهذا قال الريمي: لا ندري الحجرة في وسط البناء المحيط بها أم لا ؟ ولا ندري إلى أين ينتهي امتدادها ؟ وغالب الناس يعتقدون أن نهايتها في محاذاة أسطوان علي رضي الله عنه، ولهذا جعلوا الدرابزين الذي بين الأساطين ينتهي إلى صفها واتخذوا الفرش لذلك فقط والصواب ما قدمناه فقد انجلى الأمر ولله الحمد.

انتهى من كتاب « وفاء الوفا » للعلاّمة السمهودي.

وابن زبالة المذكور كما جاء في كتاب « وفاء الوفا » هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك وهو الذي ألف كتابه في تاريخ المدينة في شهر صفر سنة تسع وتسعين ومائة. ولقد كان مغرماً بتتبع آثار النبي ﷺ والتحقق من ذرع قياساتها كما يظهر ذلك من كتاب « وفاء الوفا » فإنه رحمه الله تعالى أخذ ذرع طول الروضة من المنبر إلى الحجرة وأخذ ذرع منبر النبي ﷺ طولاً وعرضاً وارتفاعاً ووصفه وصفاً دقيقاً ونقل الاختلاف في الذي عمل المنبر والاختلاف في موضع دفن الجذع، وأخذ ذرع ما بين المنبر ومصلى النبي ﷺ وذرع ما بين مصلاه إلى أسطوان التوبة، وذرع مسجد النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان في زمنه وذكر وصفه وغير ذلك. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

وحي صلاة الجمعة في المسجد النبوي

وانظر رحمك الله تعالى ما يستلهمه بعض العلماء والفضلاء وقادة الفكر من صلاة الجمعة في المسجدين الحرامين من الأمور الدقيقة المهمة المتصلة بصميم حالة المسلمين اليوم. فهذا هو الدكتور المصري محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى

يقول في أخريات كتابه « في منزل الوحي » وهو جالس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة ينتظر صلاة الجمعة ما نصه:

وذكرت وأنا جالس أنتظر الأذان والصلاة أول جمعة صليتها في المسجد الحرام بمكة ذكرت عشرات الألوف الذين أحاطوا بالكعبة من جهاتها الأربع وما أثارته في نفسي موازنتهم بالمسلمين الأولين الذين جاءوا مع رسول الله في حجة الوداع وما بدا لي من فرق عظيم بين هؤلاء وأولئك في تصور الحياة.

كان المسلمون الأولون يقبلون على صلاة الجماعة يدعوهم إليها « روح » مبعثه الإيمان « ونظام » قوامه الأخوة. وكانت الحياة لذلك عندهم فكرة يستهينون في سبيلها بالموت ويرونه استشهاداً في سبيل الله. وكانوا يدركون إدراكاً عميقاً معنى كلمتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانية مذ وجدت: « الله أكبر ». وكانت صلاتهم لذلك ابتهالاً خالصاً لله جل شأنه وتوجهاً إلى ما ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ويسمو بالنفس على غرور الحياة الدنيا.

أما اليوم فقد غاض الروح من هذا المجتمع وصار الإيمان فيه تقليدياً يكتفي صاحبه بأن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن بها بشيء، ثم يحسب بعد ذلك أنه أرضى الله ورسوله فإذا طمع في مزيد من الرضا خيل إليه أنه بالغ من ذلك مطمعه بألوان من الزلفى لا تتصل بالعمل الصالح في شيء وليس فيها من حب المؤمن إخوانه وإيثاره إياهم على نفسه كثير ولا قليل. بل إن كثرة المصلين اليوم لا يفكر أحدهم في أخيه ولا يحب إلا نفسه. وهو إنما يحضر صلاة الجماعة ابتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير في المؤمن ممن حوله.

وهذه الأثرة التي فتكت بالجماعات الإسلامية هي التي جعلتها تتعلق بالحياة لذاتها ولا تعرف المثل الأعلى فيها وتذعن لذلك خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادة في الحياة. وهذه الأثرة هي التي أبقتها في غيابات الجهل لأن كبراءها وسادتها أمسكتهم الأثرة في دنيا مراتب الحياة فحجبوا عن إخوانه نور العلم وما يدعو إليه العلم من إيمان حق وبذلك أضلوهم السبيل.

ذكرت ما ساورني من هذا التفكير بحرم مكة وأنا بمجلسي من المسجد النبوي أنتظر الأذان والصلاة، وأجلت طرفي في هذه الجموع الجالسة حولي فحز مرآها في نفسي. فهذه الجموع تمثل العالم الإسلامي بمئات ملايينه المنتشرة في أطراف العالم كله، وهي على ضخامة عددها كمية مهملة أو في حكم المهملة. مصر، بلاد

المغرب كلها، بلاد العرب، العراق، مسلمو الهند، مسلمو الملايا، مسلمو الصين، المسلمون في أوربا، أي أثر لهؤلاء جميعاً في عالمنا الحاضر؟!.

أرقام ضخمة لا تعدو أن تكون أرقاماً واليهود لا يزيدون في العالم كله على خمسة عشر مليوناً. مع ذلك يتلفت العالم إذا ذكروا يريد أن يعرف ما يريدون، تهتز لمطالبهم جوانب البرلمان البريطاني وأرجاء عالم المال في أمريكا وتقوم عصبة الأمم لمطالبهم وتقعد.

وكان العالم أشد تلفتاً لما يريده المسلمون في عهدهم الأول حين لم يكونوا يبلغون ثلاثة الملايين عداً.

أما اليوم فمئات الملايين من المسلمين أرقام لا يقام لها وزن ولا يحسب لها حساب. وإذا قيل العالم الإسلامي سخر الناس وقالوا: ما يزالون متعصبين، يحسبون الأديان وحدة تقيم أمة أو أمماً. فإذا قيل: شعب صهيون أو قيل بنو إسرائيل سمعت الأصداء تتجاوب من أنحاء العالم: شعب مضطهد يجب على العالم أن يبحث له عن وطن يلجأ إليه احتماءً من مضطهديه.

أي شيء يحز في كبد المسلم ما يحز هذا الجمع الذي أراه أمامي في المسجد النبوي يمثل المسلمير جميعاً وهم يعانون الذلة والهوان صابرين! وقد كان المسلمون الذين يحضرون الصلاة في هذا المسجد أيام بساطته الأولى حين كان قائماً من اللبن وجذوع النخل يهز ن العالم كله، لفتة منهم تزعزع العروش فإذا تنادوا «الله أكبر» تفزعت الأفلاك والتفت الدهر. انتهى من كتاب «منزل الوحي».

زيارة رسول الله ﷺ

الحقيقة أن حالات العلماء والفضلاء والمثقفين والمفكرين تختلف جداً في زيارة رسول الله ﷺ في كل وقت عن حالات الجهلاء وأهل الغفلة. وما أحلى ما استحضره أحد أعلام المصريين وهو الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى عندما وقف في المواجهة الشريفة نذكره هنا وننقله من كتابه «في منزل الوحي» للذكرى والاعتبار فإنه رحمه الله بعد أن أدى صلاة الجمعة بالمسجد النبوي وبدأ الناس ينصرفون من المسجد قال ما نصه:

وأقمت مكاني حتى إذا خلت أروقة المسجد أو كادت ذهبت أؤدي للحجرة النبوية ولقبر الرسول زيارة الوداع . ووقفت أمام شباك التوبة ورفعت صوتي قائلاً: « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . أشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه وأنه وفى بوعده وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » .

ومكثت هنيهة واقفاً أحدق في هذه الحجرة وأذكر من تحوي قبورها رفاتهم: محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأبا بكر الصديق صفي النبي وخليله ، وعمر الفاروق من أعز الله به الإسلام يوم أسلم ومن نشر لواء الإسلام في الخافقين أيام خلافته .

وأذكر ما حدث بعدهم بين المسلمين من حروب أهلية وما تطورت إليه العقلية الإسلامية بعد ذلك حتى هوت إلى درك الإنحلال فأصبحت مقلدة تنفر من الاجتهاد وتجاربه ، أثرة لا تعرف أخوة المؤمنين وتنزوي لذلك أمام كل قوة .

وإني لأقلب في صحف نفسي وأنا حسير الطرف كسير القلب حياءً وخجلاً إذا انفرجت شفتاي عن هذه النجوى: « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، أشهد أنك رسول الله الواحد الأحد حقاً وصدقاً ، وأنه بعثك للناس كافة بالهدى ودين الحق . هديتهم بأمره ألا يعبدوا إلا إياه مخلصين له الدين حنفاء ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله » .

سمّاك ربك عبده قبل أن يسميك رسوله حتى لا يضل قوم فيحرفوا كلام الله عن مواضعه فيؤلهوك أو يعبدوك كما أُلّه رسل من قبلك وعبدوا ، وبلغتنا من وحي ربك أنك بشر مثلنا يوحى إليك أنما إلهنا إله واحد ليعلم الناس أن الله يصطفي لرسالاته من يشاء من عباده فيظل من اصطفاه عبده وأن فضله على الناس إذ جعل بعضهم فوق بعض درجات .

والله وحده جل شأنه لا شريك له هو الذي تجب على الناس جميعاً عبادته . لذلك خلقهم وإليه مرجعهم وعليه حسابهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

« أشهد أنك رسول الله بعثك بالهدى ودين الحق . علمتنا بأمره ووحيه أن عبادة الله ليست ذلاً وليست خضوعاً ، أفما هي إسلام لله عن إيمان صادق ابتغاء رضاه عن صالح ما نعمل والتماساً لعفوه عما نضل فيه السبيل أو تحدثنا به النفس الأمارة بالسوء .

فمن أسلم لدعوتك مذعناً غير مؤمن لم يدرك ما تدعونا إليه ، ومن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه والذين يخشون ربهم بالغداة والعشي ، فإذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا رأوا آياته زادتهم إيماناً . ينظرون في خلقه يريدون أن يعرفوا من طريق العلم سنته ويسعون في مناكب الأرض ليزدادوا علماً وليزدادوا إيماناً».

«أشهد أنك رسول الله حقاً وصدقاً . علمتنا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأن المؤمنين إخوة حق عليهم أن يتحابوا بنور الله بينهم وأن نور وجهه الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة هادينا إلى البر والرضا، وأن الحياة محبة أساسها الإيثار على النفس وقوامها إنكار الذات وغرضها المثل الأعلى ووسيلتها الأسوة الحسنة، خير رداء فيها الصبر وخير سلاح فيها العلم وخير شفيع فيها الصدق وخير كنز فيها الثقة بالنفس وخير أنيس فيها ذكر الله» .

«أشهد أنك رسول الله القوي الأمين . علمتنا المثل الأعلى لله، وأن الجهاد في سبيل الله سبيلنا إليه وأن الاستهانة بالموت من خلق الجهاد وأن ما في الحياة الدنيا مما دون المثل الأعلى لن يبلغ أن يصد عنه أو يقف دونه وأن الخوالف والقواعد دون الجهاد هم الذين يبتغون بإيمانهم ثمناً قليلاً ، يؤثرون العاجلة وإن هانت ويرضون من أجلها أن يبيعوا آخرتهم بدنياهم . أولئك نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أما الذين جاهدوا في سبيله فقتلوا فليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ».

«أشهد أنك رسول الله أوحى إليك الكتاب بالحق لا ريب فيه هدى للمتقين . فيه آيات بينات يذكر بها الذين آمنوا وتزيدهم إيماناً ، هو يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، فيه شفاء ونور للذين آمنوا يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل الذين ارتابوا بالتي

هي أحسن وينذر الظالمين والمعاندين عذاباً عظيماً . نزله عليك ربك بالحق فبلغت رسالته وكنت فيها الأسوة الحسنة للذين يريدون وجه ربهم مخلصين » .

« وأشهد أن لا إله إلا الله لا نشرك به شيئاً ولا نعبد من دونه أحداً ، وأن محمداً رسول الله بلغ رسالات ربه وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ﷺ » .

« السلام عليك يا رسول الله ! السلام عليك يا أبا بكر ! السلام عليك يا عمر ! ».

أتممت نجواي وبقيت مكاني مأخوذاً يهتز قلبي وتضطرب مشاعري ويضيء بصيرتي نور أحسه في أعماق نفسي فأراني أسمو فوق ما ألفت وأذكر موقفي من حراء ويتمثل أمامي كرة أخرى يوم الوحي الأول في سناه وبهائه ، ثم أذكر موقفي من غار ثور وتتمثل لي هجرة النبي إلى هذه المدينة التي أقف الآن بها أمام قبره . وتمثلت أمامي غزواته وحياته وأصحابه وكأنما تتابع هذه المواقف جميعاً أمام بصيرتي مليئة بالحياة مضيئة بالإيمان وبما يدفع الإيمان إليه من جهاد في سبيله . وانقضت فترة آن للنفس فيها أن تهدأ فانسحبت من موقفي أمام الحجرة في إكبار وإجلال وسرت خافض الرأس حتى بلغت منبر رسول الله في الروضة فصليت ركعتين واستغفرت الله لي وللمؤمنين وانصرفت من المسجد راضياً عن نفسي طامعاً في مغفرة الغفور الرحيم ذنبي هو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب.

ثم عدت إلى الدار وتناولت طعامي وأتممت عدة سفري . انتهى من كتاب « في منزل الوحي » للدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى .

فانظر أيها القارئ الكريم إلى هذه المناجاة اللطيفة المملوءة بالحكمة والموعظة والتي تهدي القارئ إلى حقيقة الإيمان وإلى حقيقة الإسلام وإلى هذا الدين الذي جاء به نبينا « محمد » ﷺ ، فما أحلى استعراض مثل هذا الموقف من علماء المسلمين وقادتهم وذوي الشأن منهم لأن التفكر في مثل هذه الأمور المهمة والمسائل الدقيقة العميقة مما يغير حال المسلمين إلى أحسن الأحوال ومما يؤدي بهم إلى نهضةٍ حقيقيةٍ في الإصلاحات الشاملة والأحوال العامة.

اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ونور سمعنا وبصرنا وقلوبنا وأبصارنا حتى نرى مصالح ديننا ودنيانا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

وصل اللهم على نبينا نبي الرحمة وشفيع الأمة «محمد» أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً. آمين .

انظر : الصور أرقام ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ لبعض الأجزاء من عمارة الملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - للمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، وصورة لأحد أبواب المسجد النبوي الشريف ، وصورة أخرى للمسجد النبوي الشريف والعمل جارٍ في منارته الجديدة أثناء عمارة وتوسعة الملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - للمسجد النبوي الشريف .

فضل المدينة المنورة

لقد وردت في فضل المدينة المنورة أحاديث كثيرة جداً ، وكيف لا تكون كذلك وهي محل هجرة رسول الله ﷺ وموضع مدفنه وموضع نزول القرآن الكريم؟ إن المدينة فيها أنواراً معنوية وأسراراً غير خفية ، كل ذلك ببركة هذا الرسول الأعظم نبينا «محمد» ﷺ فهنيئاً لأهلها الكرام فلقد سعدوا في الدنيا والآخرة بالخيرات والبركات وفقنا الله تعالى فيها بالاستقامة والآداب المرعية فلقد كان الناس يعرفون فضلها في قديم العصور أكثر منا، وهذا الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله تعالى عنه كان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة ، كما جاء ذلك في ترجمته في أول موطأه . نعم والله له الحق في ذلك ولكن مثل هذا الأدب لا يكون إلا من أئمة الدين وأهل التقوى والصلاح من المسلمين . وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه آمين .

يهود المدينة

يقول الأستاذ محمد الخضري في كتابه «نور اليقين عن يهود المدينة المنورة» ما نصه: هذا وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم بيهودها ، وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير . فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند

أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق . وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه . فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة في ولد إسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغياً مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها . ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم فإنه ميال بطبعه للترقي ، والرسول عليه السلام وجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً حتى روضت عقولهم وهذبت نفوسهم .

وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها ليكون التأثير في النفوس أشد . ولكن اليهود أرادوا على يد القدرة على أن تفعل إلا ما يشتهون ، وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون في نفوسهم البعد عن الحق فقال في سورة البقرة : ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ ، ثم ختم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله : ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ . فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان .

وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبدالله بن سلام فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن ، وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه . ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ . ولما استحكمت في قلوبهم

عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

المنافقون

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم وكان يرأس هذه الجماعة عبدالله بن أبي سلول الخزرجي الذي كان مرشحاً لرئاسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً.

والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن، ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما، فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولي عليها بعض الأنصار ولكن لم يعهد أنه ولّى رجلاً ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولّوا عملاً.

فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام يعلمهم أنهم لا يثقون في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

سكنى اليهود في الحجاز

رأينا كتاباً مطبوعاً اسمه «تاريخ اليهود في بلاد العرب» تأليف إسرائيل ولفنسون أبو ذؤيب أستاذ اللغة السامية بدار العلوم وحيث أننا لم نطالعه جيداً فقد اكتفينا بما ذكره الفاسي في تاريخه «شفاء الغرام» عند ذكر سكنى اليهود في الحجاز وهذا نصه:

وإنما كان سكنى اليهود بالحجاز أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أظهره الله على فرعون وأهلكه وجنوده وطئ الشام وأهلك من بها وبعث بعثاً من اليهود إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا من العماليق أحداً بلغ الحلم، فقدموا عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم «نبنما» وكان يقال له الأرقم بن أبي الأرقم وأصابوا ابناً له

شاباً من أحسن الناس فضنوا به عن القتل وقالوا: نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم. وقبض الله موسى قبل قدومهم فلما سمع الناس بقدومهم تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا: لم نستبق منهم أحداً إلا هذا الفتى فإننا لم نر شاباً أحسن منه فاستبقيناه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه . فقالت لهم بنو إسرائيل: إن هذه لمعصية لمخالفتكم نبيكم . لا والله لا يدخلوا علينا بلادنا فحالوا بينهم وبين الشام فقال الجيش: ما بلد إذ منعتم بلدكم خير من البلد الذي خرجتم منه . قال: وكانت الحجاز أكثر بلاد الله شجراً وأظهره ماء . قالوا: وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق -وهم يجدون في التوراة أن نبياً يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرتين- فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد ، فنزل طائفة تيماء وتوطنوا نخلاً ومضى طائفة فلما رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها فأقام بعضهم بها ومضى أكثرهم وأشرفهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرة ونخلا قالوا: هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي إليها فنزلوه ، فنزل النضير بمن معه بطحان فنزلوا منها حيث شاءوا وكان جميعهم بزهرة وهي محل بين الحرة والسافلة مما يلي القف ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول: سيل بطحان والعقيق وسيل قناة ما يلي رغابة ، قال: وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وهدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن التوم بن السبط بن اليسع بن العتين بن عيد بن خيبر بن النجار بن ناحوم بن علرر ابن هارون بن عمران، والنصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء فتبعوا آثارهم فنزلوا بالعلية على واديين يقال لهما مذينيب ومهزور فنزلت بنو النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال ونزل قريظة وهذل على مهزور واتخذوا عليه الأموال . وكانوا أول من احتفر بها الآبار واغترس الأموال وابتنوا الآطام والمنازل ، قالوا: فجميع ما بنى اليهود بالمدينة تسعة وخمسون أطماً .

قال عبدالعزيز بن عمران: وقد نزل المدينة قبل الأوس والخزرج أحياء من العرب منهم أهل التهمة تفرقوا جانب بلقيز إلى المدينة فنزلت بين مسجد الفتح إلى يثرب في الوطا وجعلت الجبل بينهما وبين المدينة فأبرت الآبار والمزارع . انتهى من تاريخ الفاسي .

سبب هجرة اليهود من فلسطين إلى الحجاز

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار رحمه الله تعالى في كتابه « قصص الأنبياء » عن سبب هجرة اليهود إلى الحجاز ما يأتي :

بمناسبة هذه الآية الكريمة عرض لي أن أسائل نفسي سؤالين وهما :

الأول : أن التواريخ قد دلت على أن اليهود قد احتلوا جهات من الحجاز كتيماء ووادي القرى وفدك وخيبر ومدينة يثرب واتخذوا تلك الأمكنة مقاماً وجعلوها دار قرارهم وأثاروها وعمّروها وبنوا فيها المصانع والآطام العظيمة والحصون المنيعة واستقر من قبائلهم هناك: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فما الذي أزعجهم عن فلسطين تلك الأرض التي إذا تكلموا عنها قالوا أنها تفيض لبناً وعسلاً؟

الثاني : ولم كان اتجاههم إلى تلكم الأرض القليلة الريف وأرض الله واسعة أمامهم فهذه مصر متاخمة لأرضهم والشام من شمالهم والعراق مهاجرهم الأول . فلم اتجه هؤلاء الناس إلى تلك الناحية؟

(ج-١) أما السؤال الأول فجوابه فيما اعتقد أن بني إسرائيل إنما أزعجهم من فلسطين التي كانوا يحبونها حباً جماً إغارة « طيطس » الروماني على بلادهم وإيقاعه بهم وتخريبه بيتهم المقدّس وهيكلهم الذي كانوا يفاخرون به كل الأمم ويباهون بضخامة بنيانه وما فيه من آنية الذهب والفضة وذلك سنة (٧١) بعد الميلاد .

(ج-٢) وأما جواب الاستفهام الثاني: فإن بني إسرائيل قد وعدوا بنبي يقوم من بين إخوتهم وهم العرب الإسماعيليون وأنه سيكون ظهوره وإعلان أمره في مدينة يثرب . فلما ضاقت أنفسهم مما أنزله بهم الرومان رجوا أن يأتيهم الفرج ويعود لهم العز بمظاهرة هذا النبي الذي وصف لهم في كتب الأنبياء فجاءوا إلى مكان ظهوره انتظاراً لمقدمه وعلى الطريق بين البلد الذي يظهر منه وبين فلسطين .

جاء في إنجيل « أشعيا » (١٠) غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض أيها المنحدرون في البحر وماؤه والجزائر وسكانها .

١١- لترفع البرية ومدنها صوتها . الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا .

١٢- ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر .

١٣- الرب كالجبار يخرج كرجل حرب ينهض غيرته ، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه . اهـ .

فسالع هذه التي يدعوها أشعيا للابتهاج ليست سوى « جبل سلع » إذ الوادي الذي به المدينة المنورة يكتنفه جبلان: أحدهما شرقي وهو « جبل أحد » وثانيهما غربي وهو « جبل سلع » .

والأغنية الجديدة إنما هي الدين الجديد الذي يعلن توحيد الله وإفراده بالعبادة ويكون حرباً للأصنام التي تعبد من دون الله تعالى كما في قول أشعياء « ص٤٢ » قد ارتدوا إلى الوراء يخزي خزياً المتكلمون على المنحوتات . القائلون للمسبوكات: أنتن آلهتنا .

لم يأتي نبي بعد أشعياء كان حرباً على الأصنام وعبادتها وأعلن ثورته عليها حتى أبادها من بلاده سوى « محمد » ﷺ ، لهذا السبب جاء اليهود إلى « يثرب » بلصق « سلع » التي دعاها أشعياء إلى الابتهاج بشريعة الله الجديدة والنبي القائم بها .

وقد يكون قد هجس لبعض اليهود أن يكون منهم النبي الذي يقوم من سالع وتبتهج به ، فنزلوا في تلك الديار رجاء أن يبعث ذلك النبي منهم وتكون لبقيتهم العزة به . انتهى من الكتاب المذكور .

نزول أحياء من العرب على اليهود

وذكر الفاسي في تاريخه أيضاً بعد ما تقدم عن ذكر نزول أحياء من العرب على اليهود ما نصه:

قالوا: وكان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بني إسرائيل وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب فكانوا معهم وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج وهم بنو أنيف حي من بلى ويقال أنهم من بقية العماليق وبنو مريد حي من بلى وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس

بن عيلان وبنو الجذما حي من اليمن. قالوا: وكانت الآطام عز أهل المدينة ومنعتهم التي يتحصنون فيها من عدوهم، فكان منها ما يعرف اسمه، ومنها ما لا يعرف اسمه، ومنها ما يعرف باسم سيده، ومنها ما لا يدرى لمن كان، ومنها ما ذكر في الشعر ومنها ما لا يذكر. وكان ما بني من الآطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطماً.

نزول الأوس والخزرج بالمدينة

ذكر الفاسي في تاريخه أيضاً بعدما تقدم عن ذكر نزول الأوس والخزرج المدينة ما نصه:

قالوا: فلم تزل اليهود العالية بها الظاهرة عليها حتى كان من سيل العرم ما كان وما قص الله في كتابه أن أهل مأرب وهي أرض سبأ كانوا آمنين في بلادهم تخرج المرأة بمغزلها لا تتزود شيئاً، تبيت في قرية وتقيل في أخرى حتى تأتي الشام فقالوا: « ربنا باعد بين أسفارنا » فسلط الله عليهم العرم، وهو جرذ فنقب عليهم حتى دخل السيل عليهم فأهلكهم وتمزق من سلم منهم في البلاد، وكان السد فرسخاً في فرسخ كان بناه لقمان الأكبر العادي، بناه للدهر على زعمه. وكان يجتمع إليه مياه أهل اليمن من مسيرة شهر فكان تمزيقهم. ويروى أن طريفة بنت ربيعة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد ابن الغوث قالت: أتيت في المنام فقيل لي: رب أسير ذاب شديد الذهاب بعيد الإياب من واد إلى واد وبلاد إلى بلاد كدأب ثمود وعاد ثم مكثت ثم قالت: أتيت الليلة فقيل لي شيخ هرم وجعل لزم ورجل قرم ودهر أزم وشر لزم يا ويح أهل العرم ثم قالت: أتيت الليلة فقيل لي يا طريفة لكل اجتماع فراق فلا رجوع ولا تلاق من أفق إلى آفاق ثم قالت: أتيت الليلة في النوم فقيل لي رب ألب موالب وصامت وخاطب بعد هلاك مآرب، قالت: ثم أتيت في النوم فقيل لي: لكل شيء سبب إلا غبش ذو الذنب الأشعر الأزب، فنقب بين المقر والقرب ليس من كاس الذهب. فخرج عمرو وامرأته طريفة فيدخلان العرم فإذا هما بجرذ يحفر في أصله ويقلب بيديه ورجليه الصخرة ما يقلبها خمسون رجلاً فقال: هذا والله البيان وكتم أمره وما يريد وقال لابن أخيه وداعة بن عمرو: إني سأشتمك في المجلس فالطمني فلطمه، فقال عمرو: والله لا أسكن بلداً لطمت فيه أبداً من يشتري مني أموالي؟

قال: فوثبوا واغتنموا غضبته وتزايدوا في ماله فباعه فلما أراد الظعن قالت طريفة: من كان يريد حمراً وحميراً وبراً وشعيراً وذهباً وحريراً وسديراً فلينزل بطوى ، ومن أراد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلج يثرب ذات النخل ، قال: فلحقت بنو عمرو بن ثعلبة وهم الأوس والخزرج ابنا هوارثة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن عامر يثرب وهي المدينة ، قالوا: وكان ممن بقي بالمدينة من اليهود حين نزلت عليهم الأوس والخزرج بنو قريظة وبنو النضير وبنو محمحم وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو ثعلبة وأهل زهرة وأهل زبالة وأهل يثرب وبنو القصيص وبنو فاعصة وبنو ماسكة وبنو القمعة وبنو زيد اللات وهم رهط عبدالله وبنو عكوة وبنو مرانة ، قالوا: فأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم فسكنت الأوس والخزرج معهم ما شاء الله ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم وبينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمنعون به من سواهم فتعاقدوا وتحالفو واشتركوا وتعاملوا فلم يزالو على ذلك زمناً طويلاً وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظة والنضير حالتهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم. وكانت قريظة والنضير أعدوا وأكثروا فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج .

استيلاء الأوس والخزرج على المدينة

ذكر الفاسي في تاريخه أيضاً بعد ما تقدم عن ذكر قتل اليهود واستيلاء الخزرج على المدينة ما نصه :

قالوا: ولما نجم مالك بن العجلان سوده الحيان عليهما فبعث هو وقومه إلى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم حالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود عليهم . وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم ابن عوف بن الخزرج وكان قبيحاً دميماً شاعراً بليغاً فمضى حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسان الذين ساروا من يثرب إلى الشام يقال له أبو جبيلة من ولد حفنة بن عمرو بن عامر وقيل كان أحد بني حشم بن الخزرج وكان قد أصاب ملكاً بالشام وشرفاً فشكى إليه الرمق حالهم وغلبة اليهود عليهم وما يتخوفون منهم وأنهم يخشون أن

يخرجوهم فأقبل أبو جبيلة في جمع كبير لنصرة الأوس والخزرج وعاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلهم ويصيرهم تحت يد الأوس والخزرج فسار وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة وهي يومئذ يثرب فلقيه الأوس والخزرج وأعلمهم ما جاء به فقالوا: إن علم القوم ما تريد تحصنوا في آطامهم فلم نقدر عليهم ولكن تدعوهم للقائك وتتلطف بهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتتمكن منهم، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه وجعل الرجل منهم يأتي بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم الملك. وقد كان بني لهم حيزاً وجعل فيه قوماً وأمرهم من دخل عليهم منهم أن يقتلوه حتى أتى على وجوههم ورؤسائهم فلما فعل ذلك عزت الأوس والخزرج في المدينة واتخذوا الديار والأموال وانصرف أبو جبيلة راجعاً إلى الشام وتفرقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها وبعضهم جاء إلى عفا من الأرض لا ساكن فيه فنزله، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها واتخذوا الأموال والآطام فكان ما ابتنوا من الآطام مائة وسبعة وعشرين أطماً وأقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع، ثم دخلت بينهم حروب عظام وكانت لهم أيام ومواطن وأشعار فلم تزل الحروب بينهم إلى أن بعث الله نبيه ﷺ وأكرمهم باتباعه. انتهى منه.

إلى هنا نكتفي بهذه النبذة الصغيرة عن المدينة المنورة أدام الله خيرها وبركتها، ولو ذكرنا تاريخها بالتفصيل لاحتجنا إلى مجلدات، وقد ذكرنا في أوائل هذا الكتاب تاريخ هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة زادهما الله تعالى من الخيرات والبركات.

نبذة عن تاريخ المسجد الأقصى

هنا نحب أن نتشرف بذكر نبذة صغيرة عن المسجد الأقصى للجمع بين المساجد الثلاثة: المسجدين الحرمين وهذا المسجد الأقصى، ولا نقدر أن نتوسع بذكر تاريخه حيث لم نذهب إليه وما أقمنا في تلك البلدة المشرفة ولكن اطلعنا على كتابين مطبوعين صدرا عنه في زماننا الحاضر «الأول» اسمه كتاب «تاريخ الحرم القدسي». و «الثاني» اسمه كتاب «تاريخ القدس» وكلاهما تأليف عارف باشا العارف.

فليعذرنا القارئ الكريم على هذه النبذة القصيرة عن المسجد الأقصى فإننا لم نذكرها إلا تبركاً بذكر المساجد الثلاثة الواردة في الحديث الصحيح في كتابنا هذا فنقول وبا لله التوفيق:

بيت المقدس

قال العلاّمة ابن خلدون في مقدمته عن بيت المقدس عند الكلام على المساجد والبيوت العظيمة في العالم ما يأتي :

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة ، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم وذلك أن موسى صلوات ا لله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد ا لله أباهم إسرائيل وأباه إسحاق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره ا لله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفاتها وهياكلها وتماثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وأن يصنع مذبحاً للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد ا لله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة بيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود تحمله الأسياد والكهونية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ما شاء ا لله ثم خربه بختنصّر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الأحجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبي

إسرائيل لعهده بإعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصّر وحدّ لهم في بنائه حدوداً دون بناء سليمان ابن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة ثم لبني حمسان من كهنتهم ثم لصهرهم هيرودوس ولبنيه من بعده .

وبنى هيرودوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم ، خرّب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة وارتحلت إلى المقدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساوسة بأنه رمي بخشبته على الأرض وألقي عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخرجت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام . وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة وأعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت . ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي ﷺ بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ، ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة إلى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشأم وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيديين وبذعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور

الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة ، وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد . ولا يعرض لك الأشكال المعروفة في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن أول بيت وضع فقال: مكة ، قيل: ثم أي؟ قال: بيت المقدس ، قيل: فكم بينهما ؟ قال: أربعون سنة فإن هذه المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان لأن سليمان بانيه وهو ينيف على الألف بكثير . واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عيّن للعبادة ولا يبعد أن يكون عيّن للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة ، وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها ، والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وإن لم يكن هناك بناء كما هو معروف وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

وما أحلى قول بعض الفضلاء حيث يقول:

إذا كنت في القدس الشريف تشوقت إلى مكة نفسي لحج وعمرة

ولو كنت فيها قالت النفس طيبة أعيش بها في ظل روح النبوة

ولو كنت فيها زاد للأهل شوقها فمن لي بأهلي والبلاد الشريفة

انظر: صورة رقم ٣٦٨ ، قبة المسجد الأقصى

المسجد الأقصى

وقال الأستاذ محمد لبيب البتنوني رحمه الله تعالى في كتابه « الرحلة الحجازية » ما نصه:

المسجد الأقصى هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين ، لقوله عليه الصلاة والسلام: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » وهو مسجد الصخرة بيت المقدس . وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبي ﷺ ويقولون لمن زاره فلان قدّس -بصيغة الماضي- وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما في الحج . ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها في أي زمن شاؤوا واختيارهم في موسم شم النسيم إنما هو

للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام . وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالاً عظيماً جداً ، ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التي قبل سبت النور يذهب المتصرف والقاضي والمفتي ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكيين وعسكريين في آلاف من الناس من عرب واهلين وحاجين ويجتمعون حول شجرة الزيتون التي في حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وهذه الشجرة ينسبونها إلى النبي ﷺ ويقولون أنه هو الذي غرسها بمكانها هذا . وهنالك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي وبعضها بعلم داود وبعضها بعلم موسى وبعضها بأعلام الصخرة . ويسير الموكب من الحرم الشريف إلى مشهد موسى عليه السلام وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس في الجهة الشرقية الجنوبية ، وهناك ينتهي الاحتفال الذي يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشر يوماً في الجبل وتقام فيه الأسواق لبيع ما يلزم للأعراب القاطنين بتلك الجهات .

أما الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعدما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهراً حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم إلى الكعبة المكرمة في السنة الثانية للهجرة وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جداً فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء -الموزاييك- والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحار له العقل . وهذه الأعمال من عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر . وقد أصلح الحاكم بأمر الله قبتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الأمطار وتأثير الأجواء ، وارتفاع الأولى منهما وهي السفلي ١١،٥٠ متراً وقطرها عشرون متراً . أما الثانية -العليا- فارتفاعها ثلاثون متراً . ولقد عمّرها صلاح الدين الأيوبي بعد أن عبث الصليبيون بها وحولوها إلى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة ، ثم عمّرها السلطان سليمان القانوني . وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمتين مما يستعصي على عمال زمننا الحاضر إصلاح ما اعتل منها وهي قائمة على قاعدة مثمنة الشكل طول كل ضلع منها ٢٠،٤٠ متراً وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نقوش طبيعية جميلة جداً ومتناسبة مع بعضها تناسباً غريباً حتى ليتخيل للإنسان أنها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا بيد هذه الطبيعة المتواضعة التي لا تريد أن تعلن عن نفسها بأي حال من الأحوال . وأرضية القبة من الداخل مفروشة بالرخام المجزع وحوله أعمال الموزاييك المرمرية من ألوان مختلفة . أما

حوائطها من الخارج فكلها بالقيشاني الغريب في بابه والقديم منه ثمين جداً حتى أن القيشاني الذي رممت به مدة عمارة السلطان سليمان القانوني أقل منه في قيمته، وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض به يد الضياع منهما ولوفقه ذلك حماتها وخادموها لما تجرؤوا على اغتيالها وبيعها من الفرنجة السائحين بثمن بخس لا يسمن ولا يغني من جوع، وفي وسط هذه القبة ترى الصخرة الشريفة: وهي من الجرانيت الأسود وحولها دربزين من الخشب على شكل مربع طوله من الشرق إلى الغرب ١٧،٧٠ متراً وعرضه ١٣،٥٠ متراً ويبلغ ارتفاعه نحو مترين، وفي زواياه جملة محاريب إلى القبلة يسمون واحداً منها بمحراب إبراهيم وآخر بمحراب داود وآخر بمحراب علي رضي الله عنه ولا أدري معنى هذه التسمية الأخيرة لأنه لم يعرف عن علي رضي الله عنه أنه قدم بيت المقدس.

ويبرز من الصخرة لسان إلى جهة القبلة يميل إلى الشرق لهم فيه أقوال كثيرة منها: أنه سلم على النبي ﷺ ليلة الإسراء، وسلم على عمر رضي الله عنه عند قدومه لفتح المقدس، وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ينزل إليها بنحو ١٥ درجة ضيقة وهي لا تزيد عن أربعة أمتار طولاً في ثلاثة أمتار عرضاً والحوائط التي بنيت في محيطها تجعل شكلها مربعاً تقريباً.

وفي سقف هذه المغارة فوهة تنفذ إلى ظهر الصخرة كانت مكان القرابين التي كان يقدمها إبراهيم وخلفاؤه إلى الله تعالى، ومنها أتى تقديس هذه الصخرة. وفي قبالة هذه الفوهة بلاطة من أرضية المغارة تغطي بئراً يسمونها جب الأرواح. وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شيء بالخرافات. ولعل لهذه التسمية أصلاً أخذوه من دماء القرابين التي كانت تنزل إليها وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التي كانوا يقدمونها إلى الصخرة كما كان الشأن في البئر التي كانت في جوف الكعبة. وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدماً كان النصارى في القرون الوسطى ينسبونها إلى عيسى عليه السلام، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا: إنها آثار قدمي رسول الله ﷺ حين سار عليها ليلة الإسراء، ومع ما هي عليه من عدم النظام وأنها على خط مستقيم تقريباً وهو ما لا يمكن السير عليها لفتحة ما بين الرجلين فإنها يكاد يكون شكلها واحداً وهو ما لا ينطبق على شكل القدمين خصوصاً وأنها أصغر بكثير من الأقدام المنسوبة له ﷺ مما ذكرناه في صفحة ١٢٥ من هذا الكتاب. ومن هذا وذاك ترى أنها كلها

موضوعة لا أثر لها من الصحة يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف ما يشير إلى شيء من ذلك بالمرة . وبجوار هذه الأقدام أثر قدم آخر ينسبونه إلى إدريس عليه السلام ، ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدرابزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضاً إلى نبينا صلوات الله عليه ، وفيها أيضاً بعض شعرات من لحيته الشريفة . ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة في الهواء وإنما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتتن الناس بها . وأظن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود وربما كان لهم شبه حق في ذلك لكثرة الفضاء الذي حولها كالصهاريج وغيرها من السراديب والمغاير على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل نقطتها المركزية بالجبل إلا في النقطة الصخرية التي تشاهد في الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم ، وعلى ذلك تكون كأنها ممتدة في الفضاء على مسافة ستين أو سبعين متراً ما بين رأسها وقاعدتها وكأن بناء هذه المصطبة حولها إنما كان دعامة لها من جهة ولسهولة الوصول إلى رأسها الذي كان مكان القرابين من جهة أخرى .

ولقبة الصخرة أربعة أبواب: واحد في شمالها والثاني في جنوبها والثالث في شرقيها والرابع في غربيها ، والأول منها يسمى باب الجنة وفي الأضلاع التي ليست بها أبواب توجد شبابيك كبيرة فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملون غاية في حسن الصناعة وخصوصاً في تنسيق الألوان المختلفة التي بانعكاسها على جدر القبة تعطي أشكالاً بديعة جداً تزيد في رونقها لا سيما إذا كانت الأبواب مقفلة . ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة . وطول هذه المصطبة من الشرق إلى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً وعرضها يزيد عن مائة متر . وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة قباب صغيرة يسمون واحدة منها بقبة المعراج يعني أنها ضربت على المكان الذي عرّج منه النبي ﷺ ، والثانية يسمونها قبة الخضر ، والثالثة قبة الأرواح . إلخ... وغالبها في الجهة الغربية من قبة الصخرة . أما الشرقية ففيها قبة السلسلة وهو شكل مصغر لقبة الصخرة إلا أنها قامت على عمد من المرمر ، ويزعمون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام ويقولون إنه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء إذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذباً انفصلت عنها حلقة فتصعقه لوقته .

وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف ويصعد إليها بثمانية سلالم في كل جهاتها منها ثلاثة في الغرب، وسلّمان في الشمال، وسلّمان في الجنوب وسلّم واحد في جهة الشرق وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلالم لا تقل عن عشرين متراً. ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار، وهي أشبه شيء بمداخل المعابد الرومانية. وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك اليهود حين بنائه للهيكل سنة ١٩ قبل المسيح. ويسمون هذه الأقواس بالموازين يعني التي تزن أعمال الخلق يوم القيامة. كما يزعمون أن الصخرة تكون عرش الله في ذلك اليوم. ومسلموا القدس يشتركون في هذه الأفكار مع اليهود، وإذاً فأصلها يهودي صرف. وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسي وهو على هيئة مستطيل غير منتظم من الشمال إلى الجنوب وطول ضلعه الغربي ٤٩٠ متراً والشرقي ٤٧٤ متراً والشمالي ٣٢١ متراً والجنوبي ٢٨٣ متراً. وفي الجهة الشرقية وبعض القبلية سور به مزاغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً وهو قديم جداً رممه السلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان سليمان القانوني. وهاتان الجهتان تشرفان على وادي سدون -وادي مريم- وبعضهم يسميه وادي جهنم واليهود يسمونه يوسفات، وقد ورد ذكره في التوراة بلفظ يوشافاط. ويزعمون أنه به يحشر الناس يوم القيامة وهنالك يتسع فناؤه وتنفسح أرجاؤه. وهذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذي بنيت عليه مدينة المقدس. أما الجهتان الأخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم أشهرها مدرسة قايتباي في الجهة الغربية، ويسكنها الناس الآن، وأما التي في الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر. وفي حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها وفي كل واحدة محراب إلى القبلة. وفي الجهة الغربية قبلة جميلة جداً أقيمت على سبيل للأشرف قايتباي. أما الجهة القبلية ففيها مسجد كبير فخيم يسمونه بالمسجد الأقصى، وليس هو المراد بما ذكر في القرآن الكريم لأنه كان كنيسة بناها الإمبراطور جوستنيان في منتصف القرن السادس للمسيح وحولت إلى مسجد إسلامي بعد الفتح وإنما كان المراد به المسجد الذي حول الصخرة نفسها كما تقدم. ولما حضر سيدنا عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس صلى في الجانب الشرقي الجنوبي للمسجد الأقصى. وترى مصلاه إلى الآن على بساطة تامة في بنائه بجوار الفخامة التي عليها باقي المسجد. وباب هذا المسجد إلى الشمال فيما يقابل مسجد

الصخرة وطوله من الشمال إلى الجنوب ٨٠ متراً، ومن الشرق إلى الغرب ٥٥ متراً من غير الزيادات التي أضيفت عليه شرقاً وغرباً وجميعه مسقوف ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجميل ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهم إلى جهة القبلة من الشرق عليهما دربزين من الحديد ليمنع الناس من الولوج بينهما بدعوى أن من يمر بينهما يكون سعيداً وإلا كان شقياً (كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص بفسطاط مصر).

وفي هذا المسجد منبر جميل جداً من خشب الأبنوس المطعم بالسن والصدف أهداه إليه نور الدين الشهيد محمود بن زنكي، وإلى جواره من الغرب محراب صغير في أرضيته حجر به أثر قدم ينسبونه إلى عيسى عليه السلام. ويوجد في حوش الحرم وخصوصاً في الجهة الغربية القبلية صهاريج كثيرة وأبواب توصل إلى كهوف تحت الأرض واحد منها بجوار المسجد الأقصى من جهة الشرق وينزل إليه بجملة درجات من الحجر توصل إلى مكان واسع مربع الشكل في وسطه عمودان كبيران من الحجر الصلد يحملان قباباً يستند عليها سقف المكان وفي جوانبه حوائط بها فتحات مسدودة. وأهم هذه الكهوف ما يسمونه باصطبلات سليمان، وتوجد في الزاوية القبلية الشرقية للحرم وينزل إليها بواسطة سلالم صغيرة بجوار السور الشرقي، وترى في وسطها صلفة كبيرة بجانبها دخلة فيها إناء كبير من الرخام ويزعمون أنه مهد مريم أو محراب مريم ويقولون أن زكرياء كان يأتيها بالطعام هناك. وهذه السلالم توصل إلى فناء رحيب يحمل عرشه اثنا عشر صفاً من العمد الكبيرة ويكون بمجموعها ٨٨ عموداً ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار أو أكثر. وكل هذه العمد تحمل أقواساً عليها قباب تدعم أرضية الحرم وحول هذا الفناء حوائط من البناء العتيق، وفي الجهة القبلية منه باب مسدود ينفذ على وادي سدرون، وفي الجهة الشمالية والغربية فتحات مسدودة بعضها صغير وبعضها كبير ربما كانت توصل إلى مثل هذا المكان مما جعل بعضه فيما بعد صهاريج لخزن مياه الأمطار معروفة بأسماء من اتخذها لهذا الغرض. وقد رأيت في زيارتي للقدس سنة ١٩١٠م، أمام بعض هذه الفتحات آثار حفر قديم.

ومن هذا يتضح لك أن أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمد مما يدل على أن هذا كله إنما هو الهيكل الذي بناه سليمان أو خلفاؤه وسماه الصليبيون باصطبلات سليمان. ولا يبعد أن اليهود استعملت جانباً من هذا المكان وقت

الكوارث التي حلت بهم زمن سنحاريب وبختنصر وطيطوس ودفنوا فيه دفائنهم الثمينة التي أكثرت الجرائد أخيراً من ذكر العثور عليها أو على بعضها وخبطت في شأنها ووصفها كثيراً سواء بحق أو بغير حق واهتمت الدولة بها اهتماماً عظيماً .

وللحرم الشريف عشرة أبواب: سبعة منها في الجهة الغربية أهمها: باب السلسلة في الوسط ثم باب المغاربة إلى جنوبه وباب القطانين إلى شماله . وفي الجهة الشمالية باب شرف الأنبياء وهو الذي دخل منه عمر إلى المسجد ثم باب الأسباط يسمونه باب حطة ، ويزعمون أنه هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾ ويوجد في جهة الشرق باب الظاهرية وينزل إليه بسلالم توصل إلى دهليز يحيط به بناء مربع فيه أعمدة من الرخام من جوانبه الغربي والشمالي والجنوبي يقوم عليها سقف المكان . وقد أحيطت هذه الأعمدة بدربزين من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية يضعها العامة تذكاراً لزيارتهم له ويقولون: إن هذا المكان كان محل حكومة سليمان عليه السلام ، وبه إلى الآن عمودان من السماق (نوع جميل جداً من المرمر يندر وجوده الآن) يقولون: إنهما أرسلا إلى سليمان هدية من بلقيس ملكة سبأ ، وبجوار هذا المكان باب له منفذان مغلقان على وادي سدرون القبلي منهما يسمى باب التوبة والشمالي باب الرحمة . وهذا الباب كان يسمى مدة العمارة التي قام بها هيرودوس في الهيكل باب سوزان وهو الذي دخل منه هرقل إلى بيت المقدس سنة ٦٣٩ ميلادية ، ومن ثم سمي بالباب النهبي ، ومفاتيح المسجد الأقصى والصخرة من مدة مديدة في يد عائلة الخالدي الشهيرة ، وكذلك في يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها .

أما المدينة فهي واقعة في درجة ٣١ و٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالي ، ودرجة ٣٢ و٥٤ دقيقة و٤٥ ثانية من خطوط الطول الشرقي ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متراً وهي مبنية على هضبتين عاليتين إحداهما على جبل صهيون والثانية على جبل عكره ، وتنحدر مبانيها نحو الشرق إلى وادي سدرون ونحو الجنوب الغربي إلى وادي هنوم ، وعدد سكانها الآن سبعون ألفاً منهم عشرة آلاف من المسلمين وخمسة وأربعون ألفاً من اليهود وخمسة عشر ألفاً من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الأروام . ولمدينة القدس طريق حديدي ضيق من يافا طوله نحو ٨٠ كيلومتراً وهو لشركة فرنساوية قامت بعمله في منتصف القرن

الماضي . ولقد كانت هذه المدينة في منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة وكانت تسمى يبوس وكان سكانها يسمون اليبوسيين . وفي مبدأ القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بني إسرائيل وكان ملكه في حبرون ، وأتى إليها بتابوت العهد وعمّر فيها كثيراً وسماها أورشليم وبنى في غربها الجنوبي مدينته التي سماها باسمه وقبره موجود فيها على جبل موريا وخلفه ابنه سليمان فزاد في عمارتها وبنى على الصخرة الهيكل المقدس . ولما تقسمت مملكة فلسطين بين أسباط بني إسرائيل وقعت مدينة أورشليم في نصيب يهوذا . وفي مدة بنيه حاصرها سنحاريب ملك بابل سنة ٧١٢ ق م ، ورجع عنها بعد أن هدم جانباً منها ونهب شيئاً من أمتعة هيكلها ثم استولى عليها بختنصر ثلاث دفعات سنة ٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد ، وبعد أن نهبها واستولى على كل ما عثر عليه من ذخائرها أمر بها فهدمت ولم يتركها إلا بعد أن جعل عاليها سافلها . وفي سنة ٥٣٦ ق م ، استولى عليها قيروش ملك العجم وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها سنة ٥١٦ ق م ، وأعاد إليه جميع ذخائره التي نهبها الأشوريون . وما زالت أورشليم عامرة حتى استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة ٦٤ ق م . وفي مدة حكم الرومان ظهر فيها المسيح عليه السلام ، ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة ٧٠م أحرق هيكلها وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها ، وما زالت حتى عمرها الملك أدريان وسماها إيليا ومنع اليهود من أن يطأوا أرضها وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية وبنى فيها كنيسة القيامة سنة ١٣٨م . وما زالت مدينة القدس في يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب في سنة ٦٣٦م ، وكانوا يسمونها بيت المقدس وأتى إليها سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه لفتحها وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود في مزاولة دياناتهم والتصرف في أموالهم ومنحهم كثيراً من فضله في عهده الذي كتبه لهم مما يدل على منتهى التسامح الإسلامي الذي كثيراً ما ينساه أو يتناساه أعداؤه وخصوصاً في هذه الأيام . وفي سنة ٩٦٩م ، تغلب الفاطميون على هذه المدينة ثم استولى عليها السلجوقيون في سنة ١٠٨٦م ثم أخذها الصليبيون في سنة ١٠٩٩م ، وأقاموا فيها مملكة سموها مملكة القدس مكثت في أيديهم كل مدة الحروب الصليبية الأولى . وأحسن ملوكها هو الذي كانت تسميه العرب البردويل وما زالت هذه المملكة في يد الصليبيين حتى غلبهم صلاح الدين الأيوبي في سنة ١١٨٦م . وبقيت في حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الأتراك سنة ١٥١٧م ، وهي باقية بأيديهم إلى الآن . وللسلطان سليمان القانوني

في هذه البلاد آثار كثيرة تذكر له بالشكر ولكن أهلها اختلط عليهم الأمر فينسبون كل إصلاح له إلى سليمان بن داود عليه السلام . ولتتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك: إنه يوجد فيه مزارات كثيرة منها وراء سور المدينة في الجهة الغربية القبلية ، في قمة جبل صهيون مسجد فيه قبر سيدنا داود عليه السلام ، ويقول بعضهم: إن سليمان ولده مدفون معه ، ويقول آخرون : بل هو مدفون في مصطبة الصخرة ، وبعضهم يقول : إنه داخلها تحت البلاطة السوداء . ويوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا شداد بن أوس الأنصاري وإلى ناحية من هناك المغارة التي فيها قبر السيدة مريم ، وفي جبل طور زيتا قبر سيدنا سلمان الفارسي الصحابي والسيدة رابعة العدوية وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام وقبر الشيخ حسن الراعي وقبر العزير عليه السلام ، وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل ويسميها اليهود حبرون وفيها مسجد مرتفع عن الأرض بنحو عشرة أمتار وبها قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام . وهذه القبور كلها في مغارة تحت أرضية المسجد وهي مغارة المكفيلة التي اشتراها إبراهيم ليدفن بها ، ولها مزارات على سطحها في أرض المسجد . وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفاً منهم: ١٥ ألفاً من اليهود والباقي من المسلمين . وفي الطريق بين الخليل وبيت المقدس مدينة بيت لحم وفيها كنيسة فخيمة أقيمت على المكان الذي ولد فيه المسيح ترى في داخلها على الدوام عسكراً من الجند العثماني لحفظ النظام الذي كثيراً ما يعبث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم .

انظر: صورة رقم ٣٦٩ ، لقبة الصخرة وبجانبها قبة السلسلة

انظر: صورة رقم ٣٧٠ ، خارطة للمسجد الأقصى

انظر: صورة رقم ٣٧١ ، الباب الذهبي للمسجد الأقصى

انظر: صورة رقم ٣٧٢ ، لوحة خطية للخطاط التركي الشيهر السيد محمد عبدالعزيز الرفاعي

انظر: صورة رقم ٣٧٣ ، شهادة الخط التي كانت تمنحها مدرسة الفلاح بجدة لطلابها المتفوقين في الخط

الفهارس العامة

فهرس لأعلام الناس والأمكنة وما سواها

فهرس الموضوعات لكامل الكتاب

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

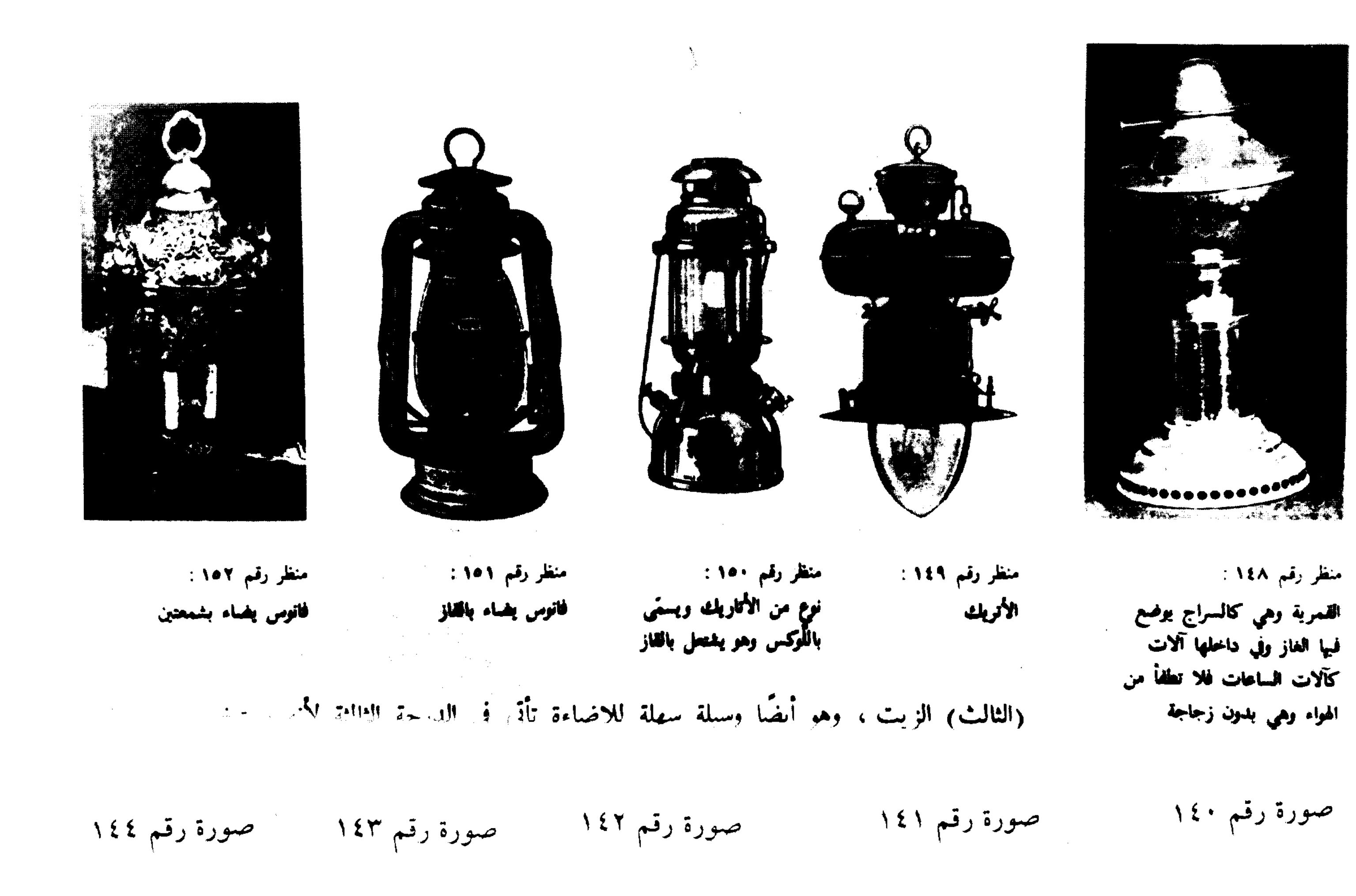
الجزء السادس

المحتويات



مُلحَقُ الصُّوَرِ


www.mngool.com



منظر رقم ١٤٨ :
القمرية وهي كالسراج يوضع فيها الغاز وفي داخلها آلات كآلات الساعات فلا تطفأ من الهواء وهي بدون زجاجة

منظر رقم ١٤٩ :
الأتريك

منظر رقم ١٥٠ :
نوع من الأتاريك ويسمّى باللوكس وهو يشتعل بالقاز

منظر رقم ١٥١ :
فانوس يضاء بالقاز

منظر رقم ١٥٢ :
فانوس يضاء بشمعتين

(الثالث) الزيت ، وهو أيضًا وسيلة سهلة للاضاءة تأتي في الدرجة الثالثة ...

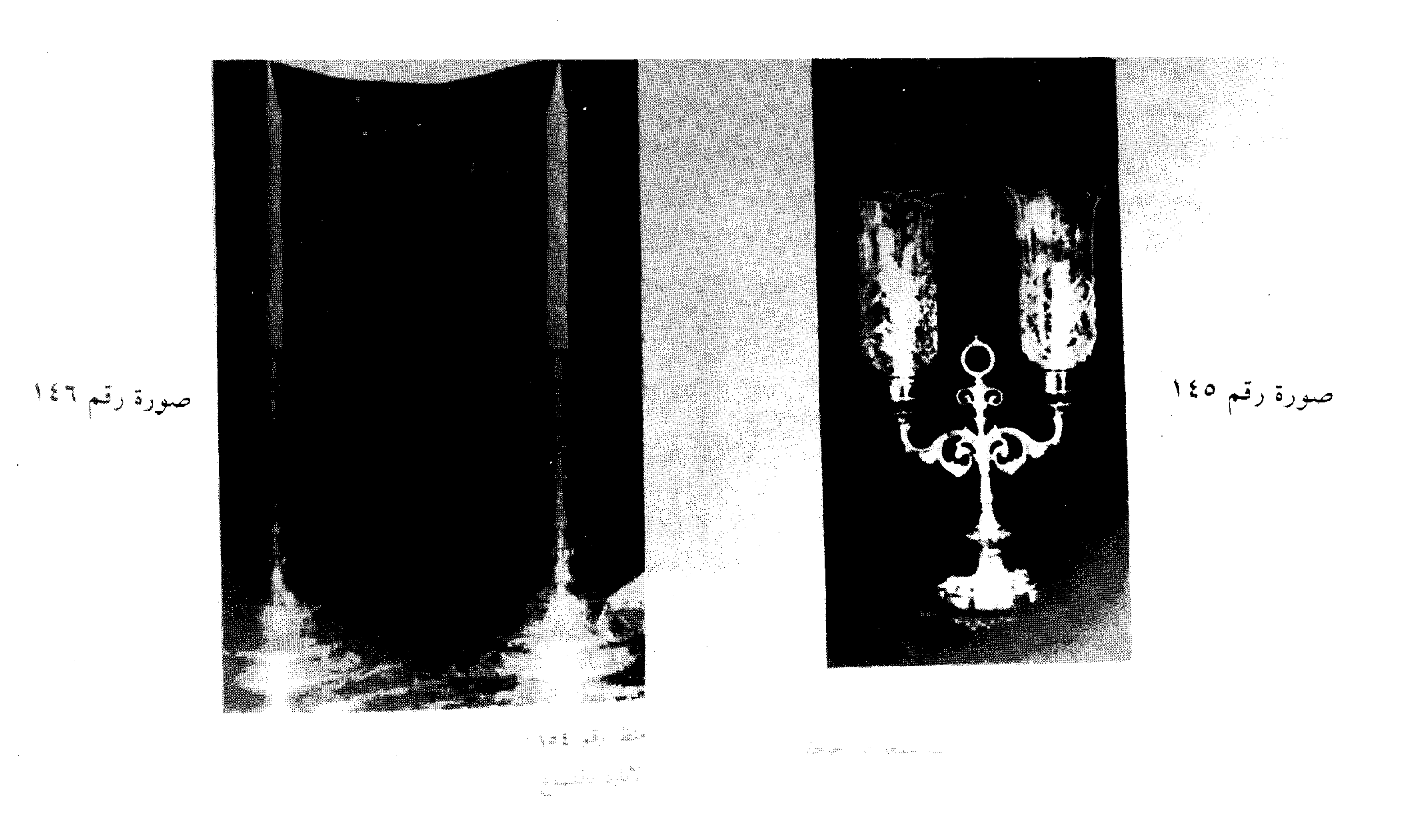
صورة رقم ١٤٠

صورة رقم ١٤١

صورة رقم ١٤٢

صورة رقم ١٤٣

صورة رقم ١٤٤



صورة رقم ١٤٥

صورة رقم ١٤٦



منظر رقم ١٥٥ :

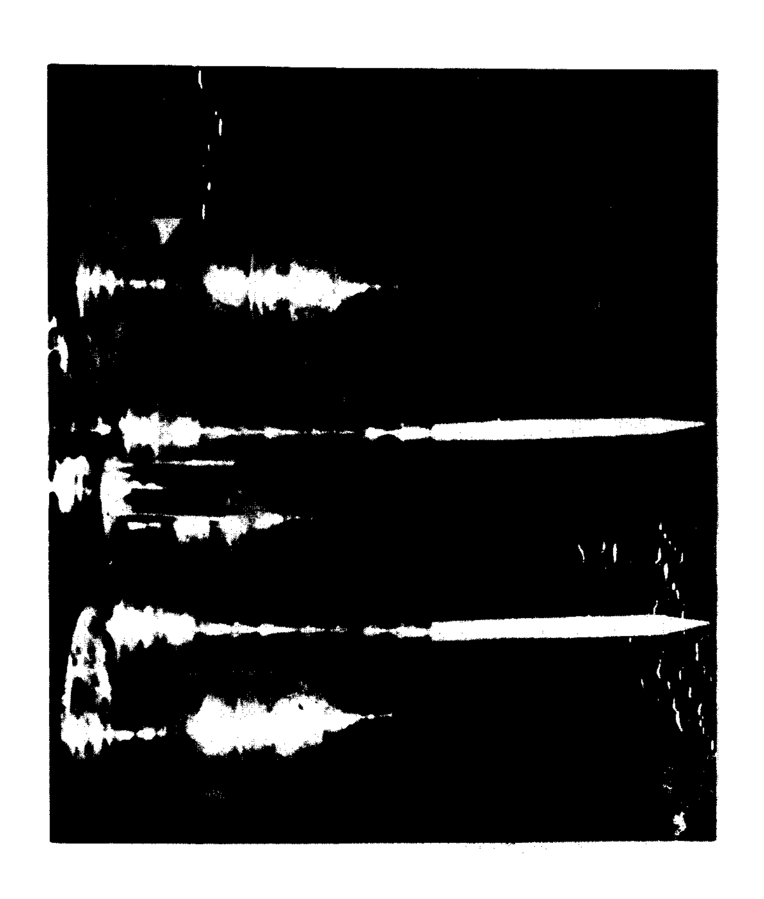
صورة القناديل التي كانت تنير المسجد الحرام في الزمن السابق بالزيت . ثم بطل استعمالها بعد الإضاءة بالكهرباء

صورة رقم ١٤٧



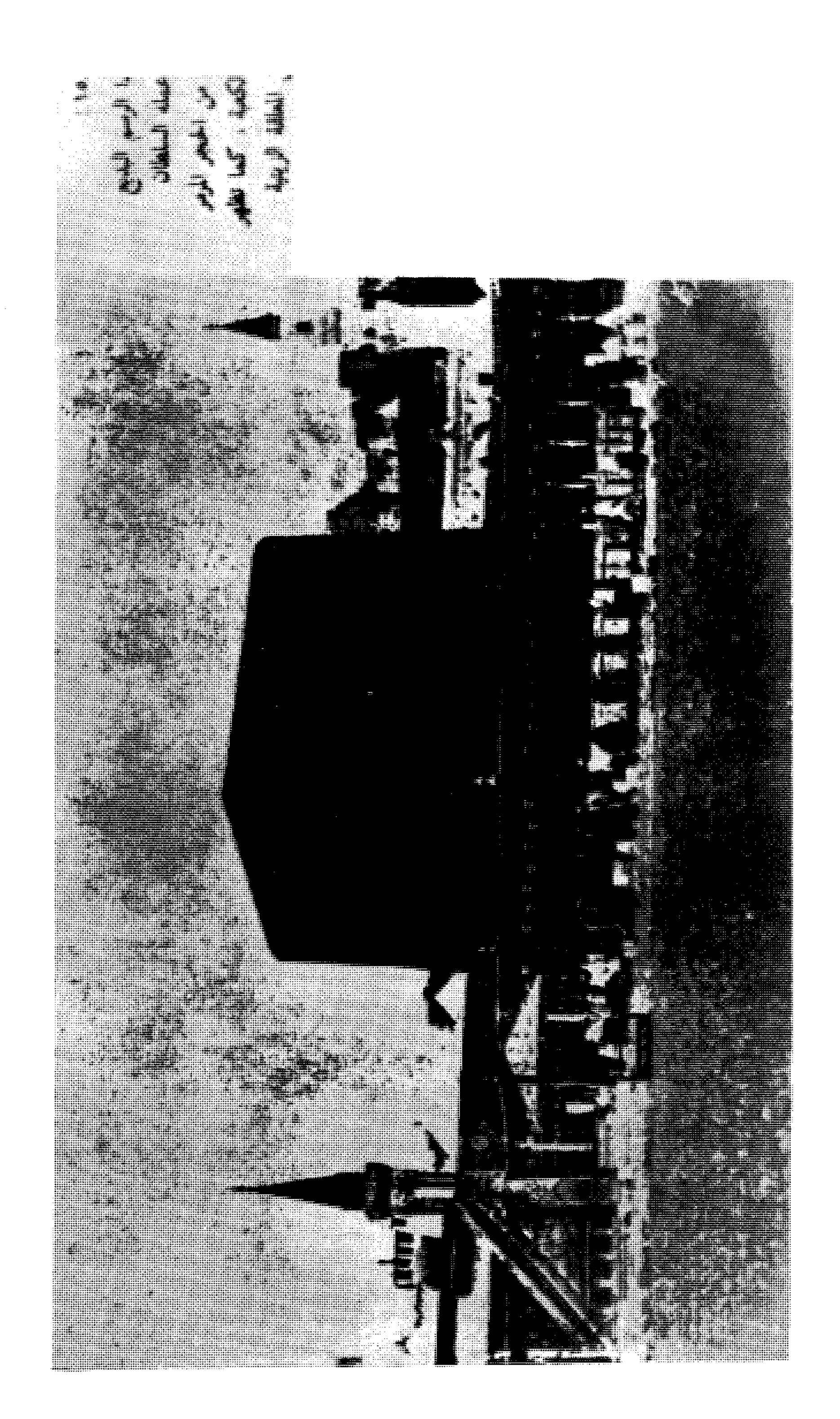
منظر رقم ١٥٦ :
اللألة توضع فيا شمعة ثم
يوضع فوقها زجاجة حتى لا
تطفأ

صورة رقم ١٤٨

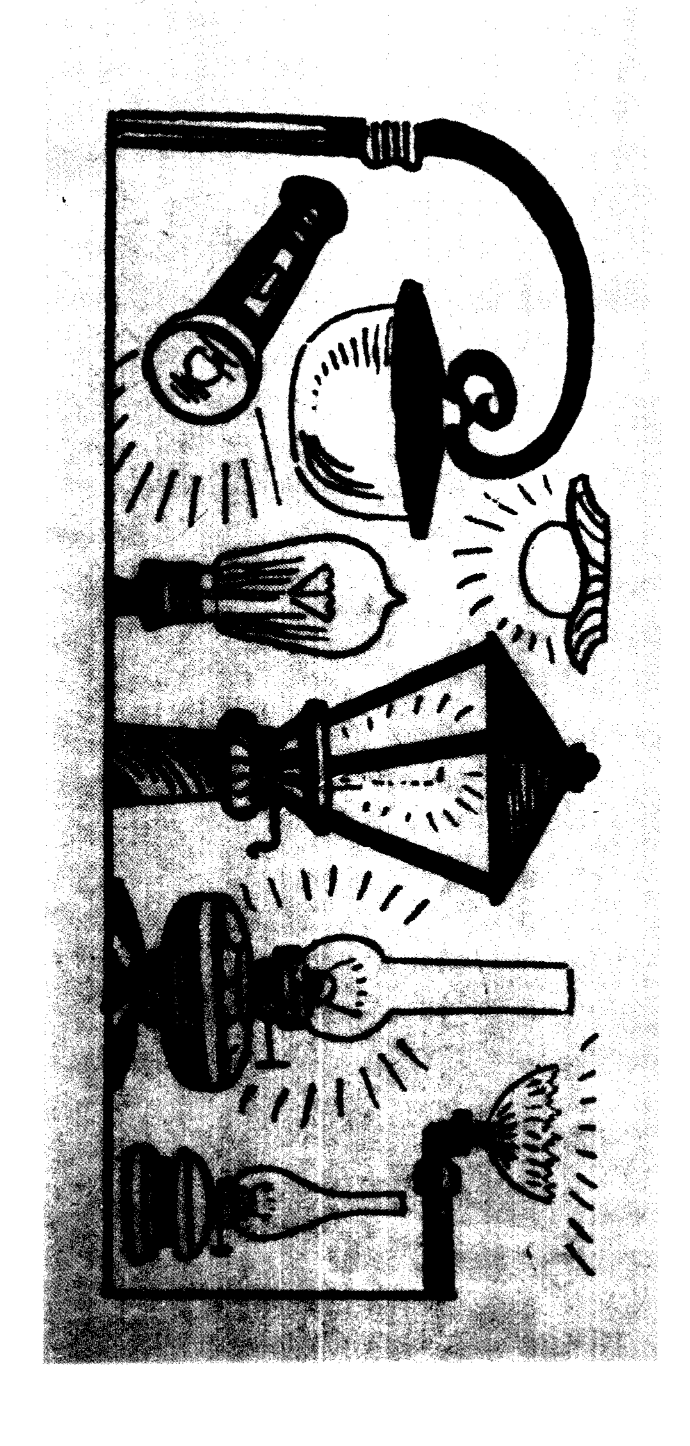


منظر رقم ١٥٧ :
شمعدان ومبخرة

صورة رقم ١٤٩



صورة رقم ١٥٠



صورة رقم ١٥١



منظر رقم ١٦٠

صورة الحريق الذي حدث في

... بمكة المكرمة

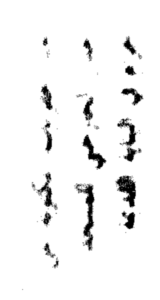
صورة رقم ١٥٢

منظر رقم ١٦١ :

سيارات المطافئ أثناء الحريق

وتبدو داخل المسجد الحرام

صورة رقم ١٥٣



صورة رقم ١٥٤

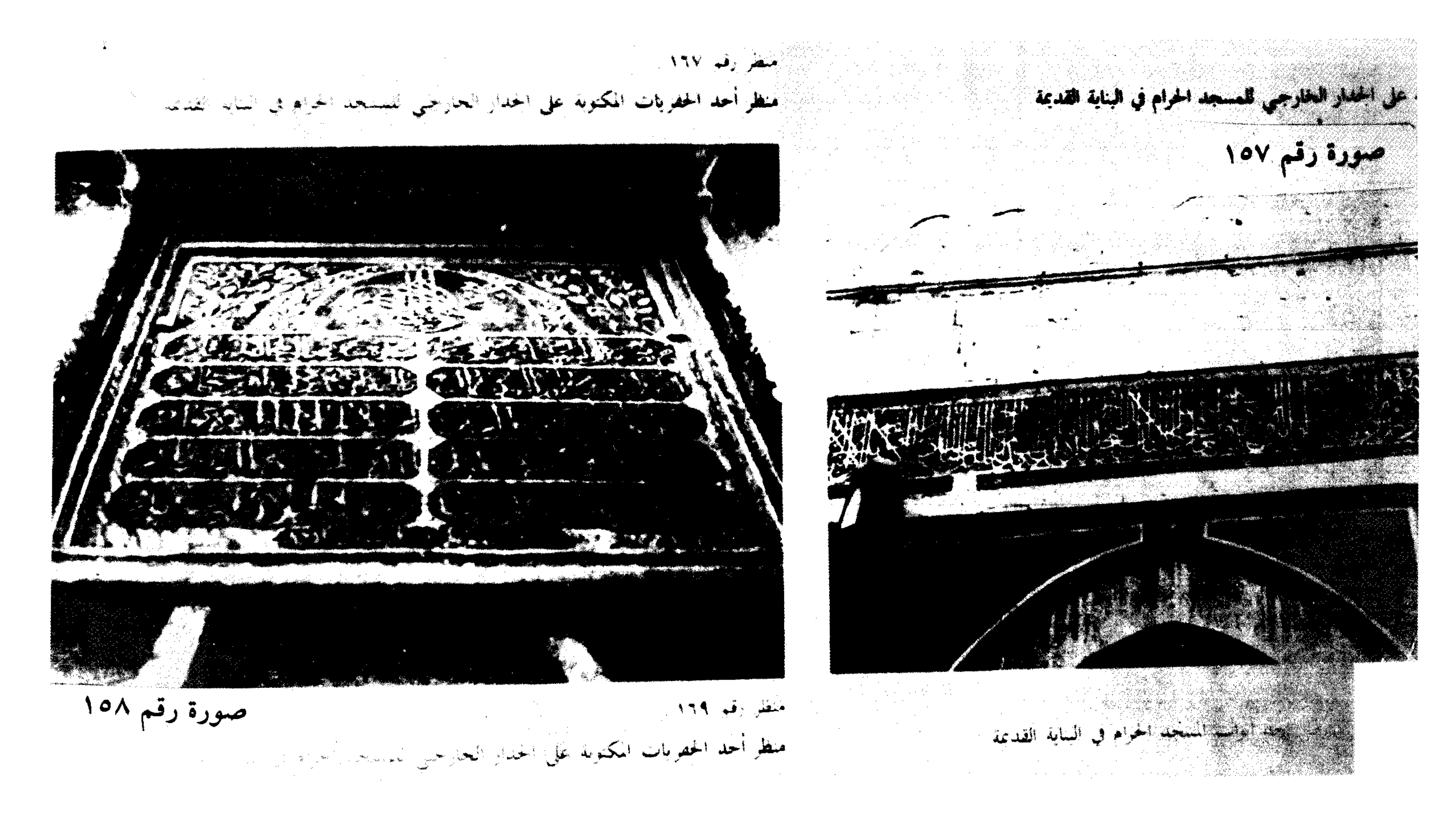


ية على الجدار الخارجي للمسجد الحرام في البناية القديمة

صورة رقم ١٥٥

صورة رقم ١٥٦

... على الجدار الخارجي للمسجد الحرام في البناية القديمة



... على الجدار الخارجي للمسجد الحرام في البناية القديمة

صورة رقم ١٥٧

... أبواب المسجد الحرام في البناية القديمة

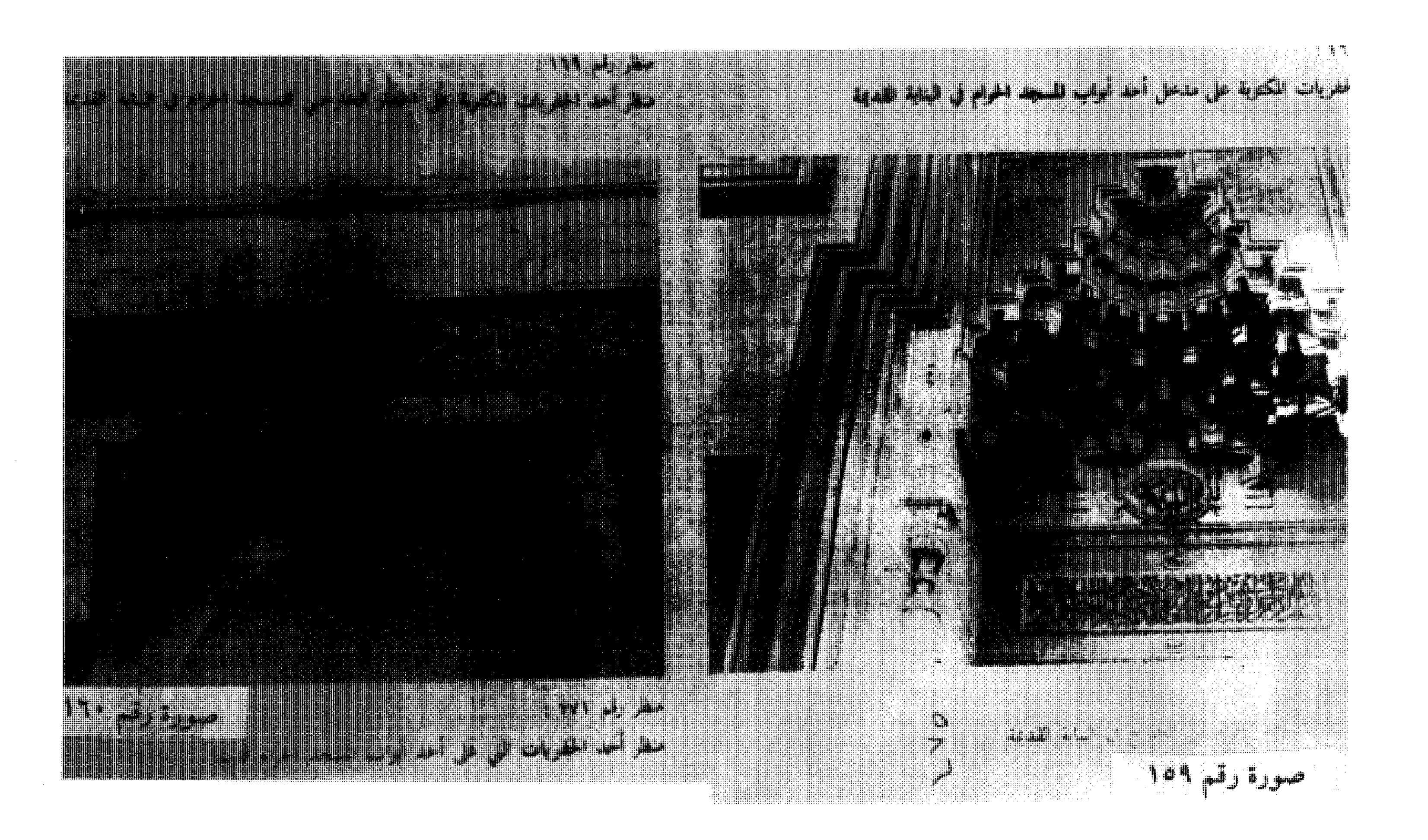
منظر رقم ١٦٧

منظر أحد الحفريات المكتوبة على الجدار الخارجي للمسجد الحرام في البناية القديمة

منظر رقم ١٦٩

منظر أحد الحفريات المكتوبة على الجدار الخارجي للمسجد الحرام ...

صورة رقم ١٥٨



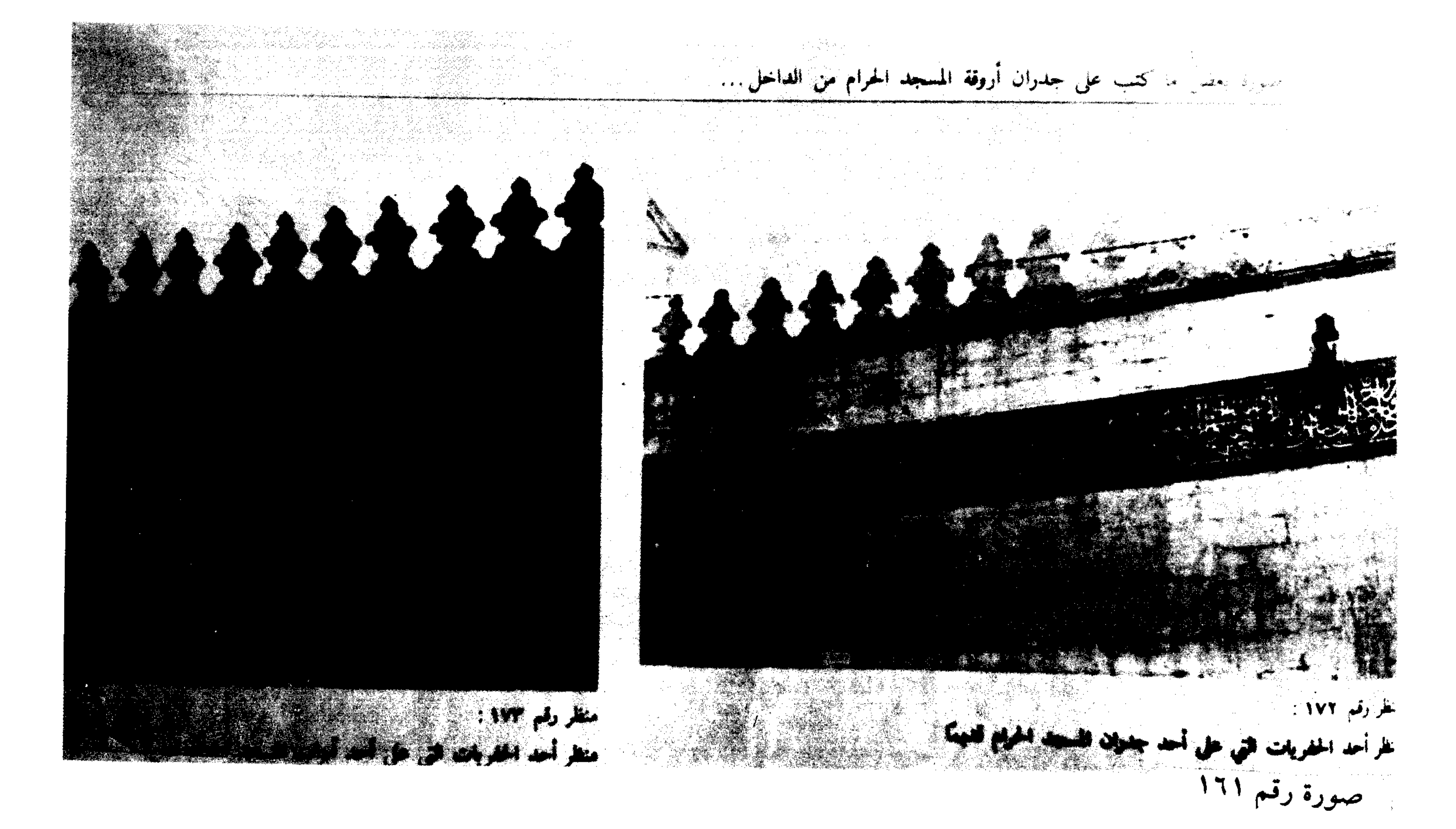
منظر رقم ١٦٩:

صورة رقم ١٦٠

منظر رقم ١٧١:

صورة رقم ١٥٩

... كتب على جدران أروقة المسجد الحرام من الداخل...



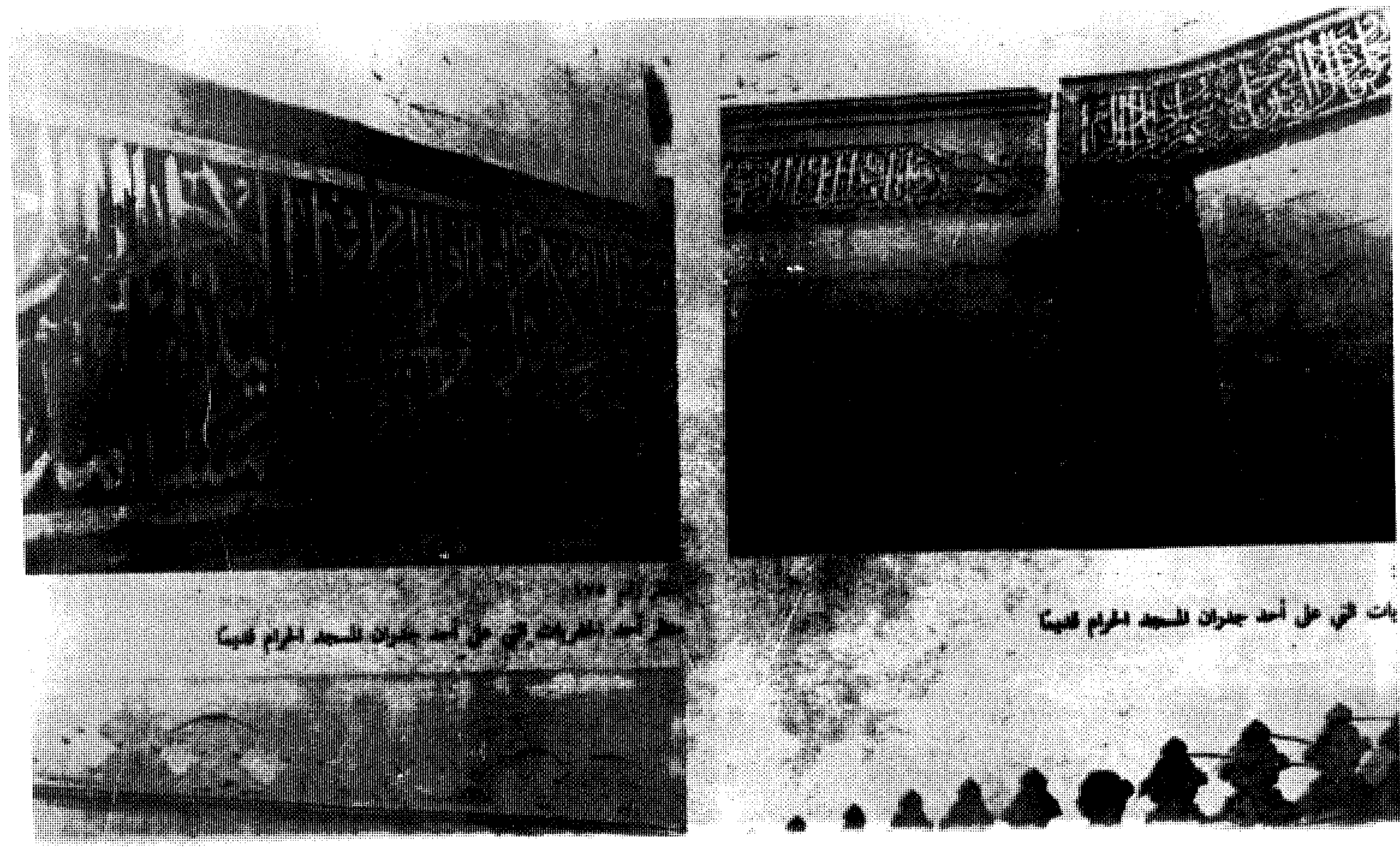
منظر رقم ١٧٢ :

منظر أحد الشرفات التي على أحد جدران المسجد الحرام قديماً

منظر رقم ١٧٣ :

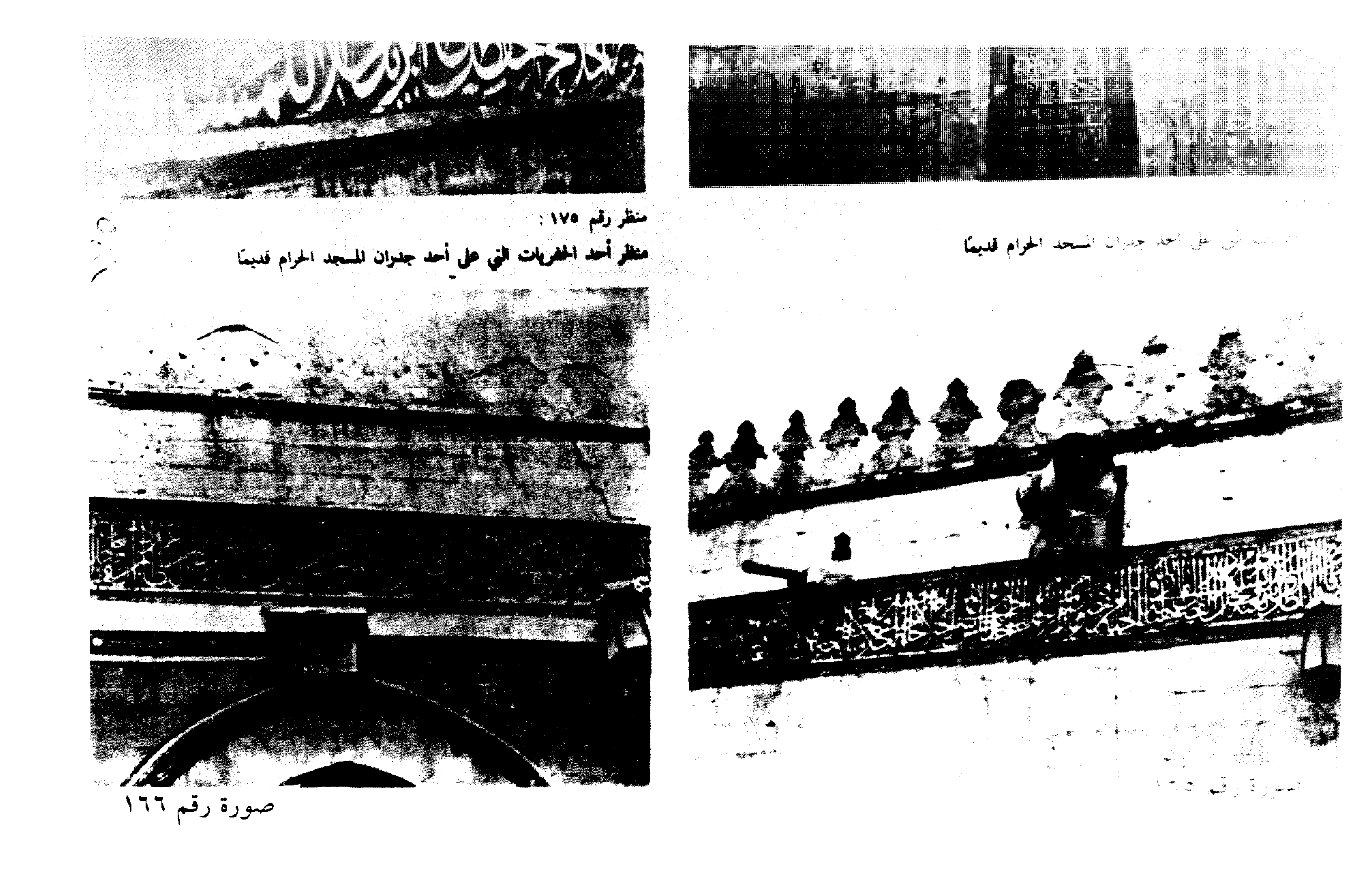
منظر أحد الشرفات التي على أحد

صورة رقم ١٦١



صورة رقم ١٦٣

صورة رقم ١٦٤



منظر رقم ١٧٥ :
منظر أحد الحفريات التي على أحد جدران المسجد الحرام قديمًا

التي على أحد جدران المسجد الحرام قديمًا

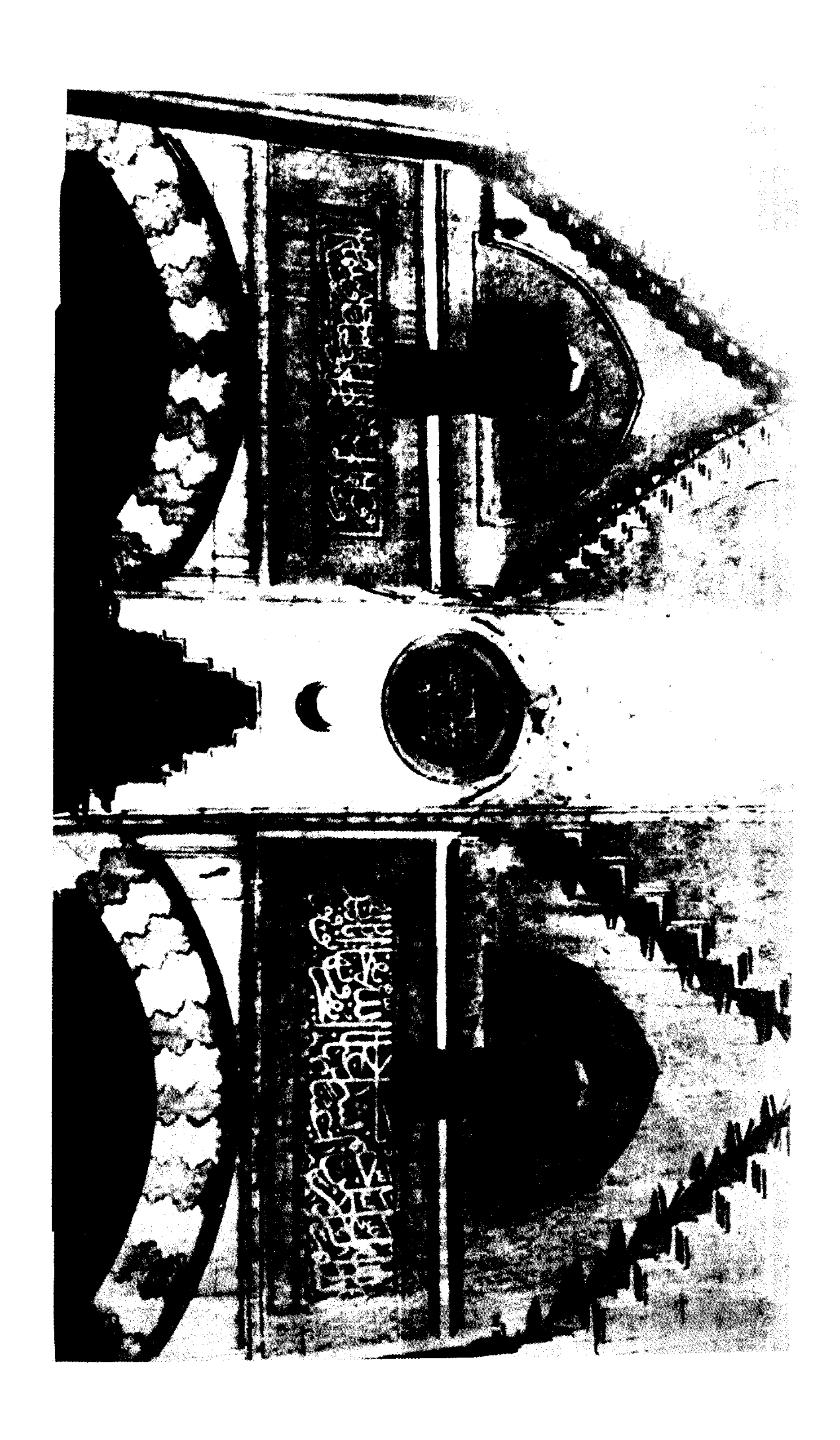
صورة رقم ١٦٦

صورة رقم ١٦٧

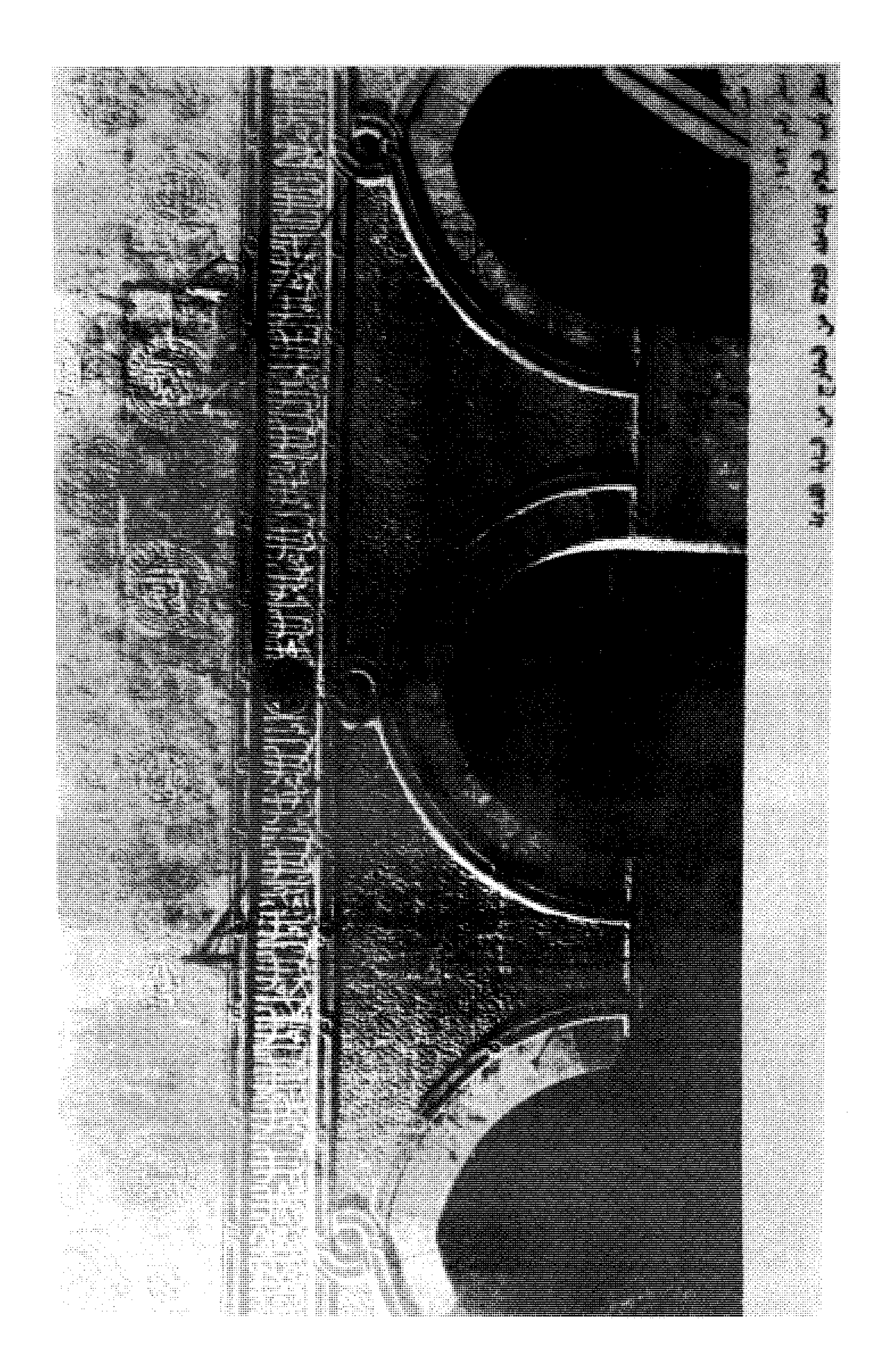
منظر رقم ١٨٠ :

منظر ما كتب على جدار باب علي من الجهة العربية من الصفا قديماً

صورة رقم ١٦٨



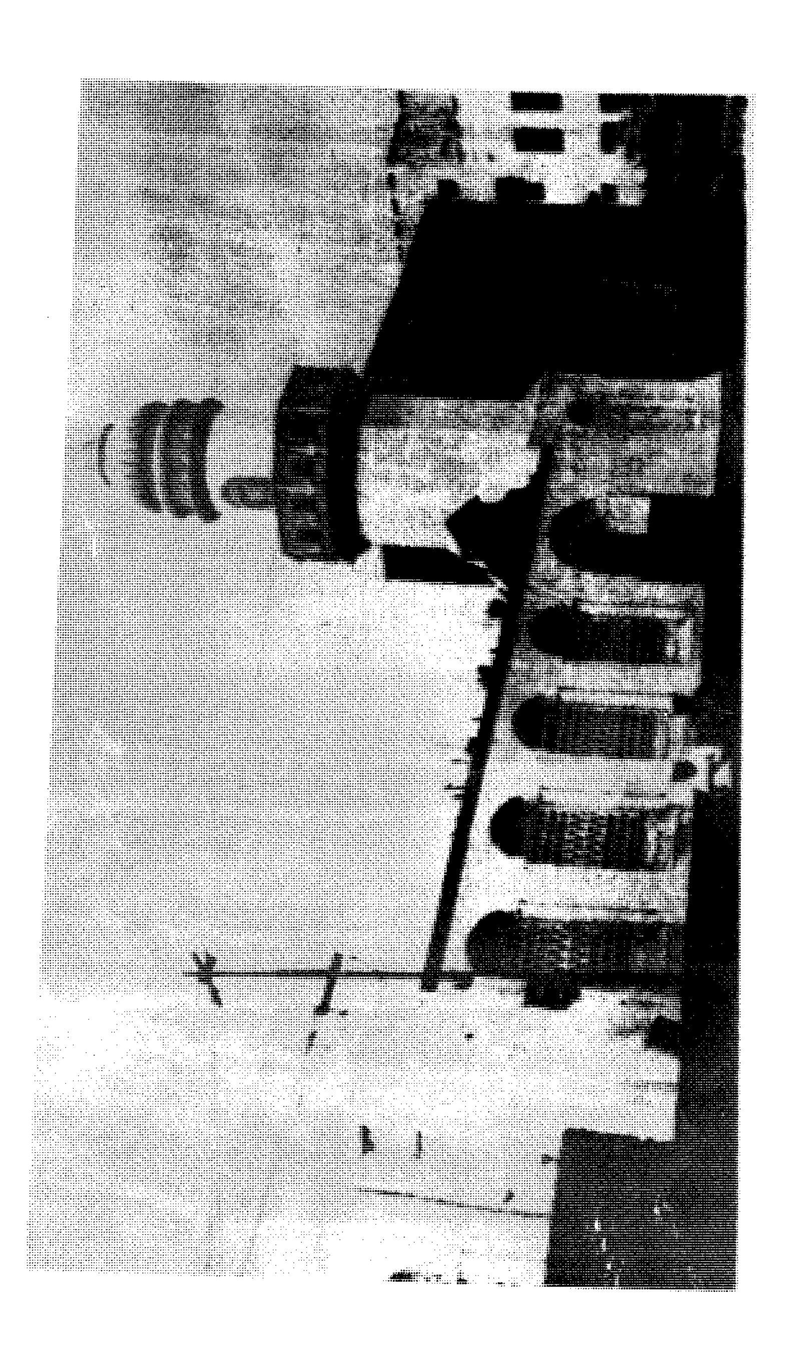
صورة رقم ١٦٩



صورة رقم ١٧٠



صورة رقم ١٧١



صورة رقم ١٧٢



صورة رقم ١٧٣



صورة رقم ١٧٤



منظر رقم ١٨٨ : الشمس والعصا

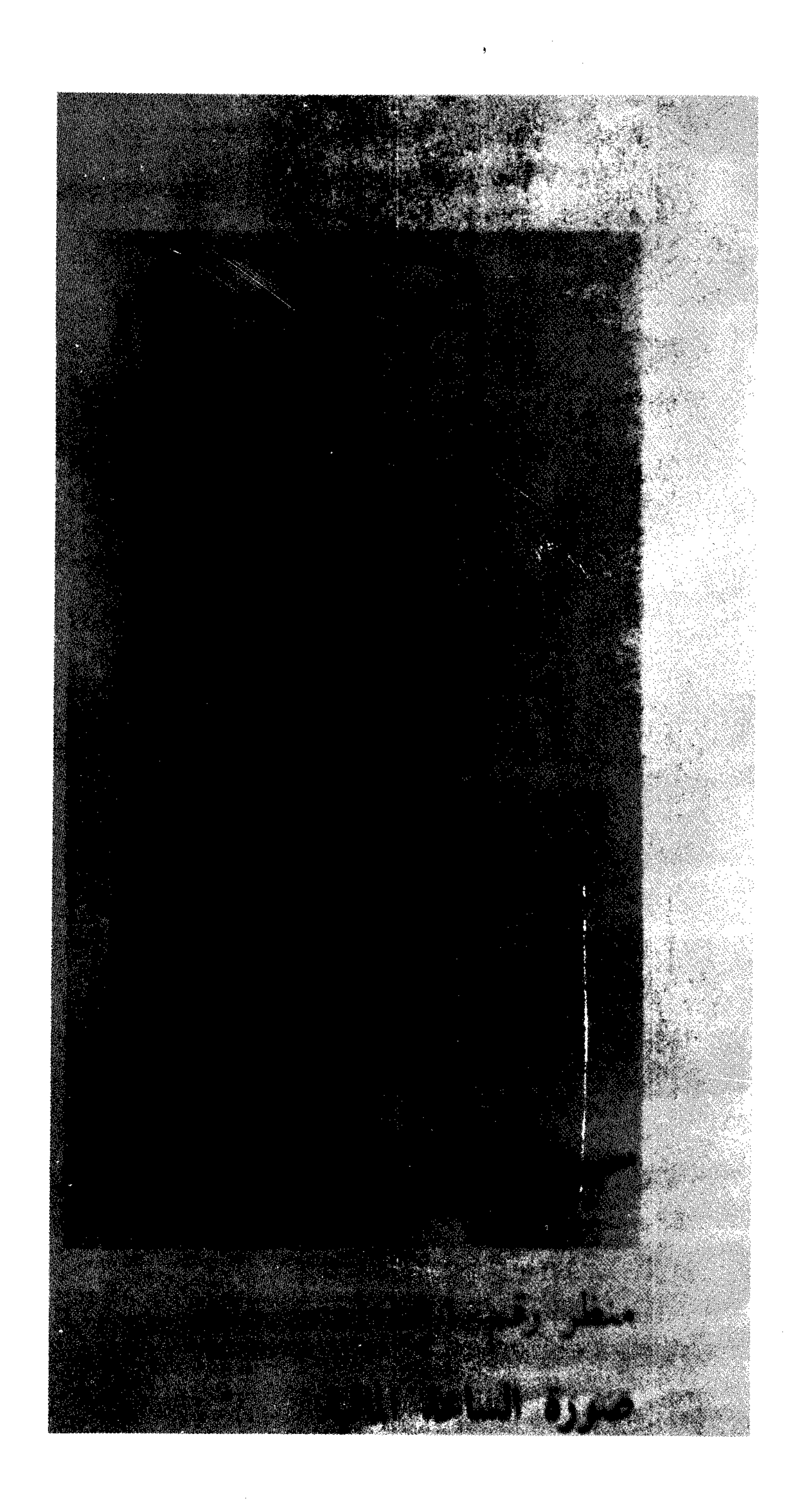
صورة رقم ١٧٥

منظر رقم ١٨٩ : الساعة الرملية

صورة رقم ١٧٦

منظر رقم ١٩٠ : ساعة شمعية

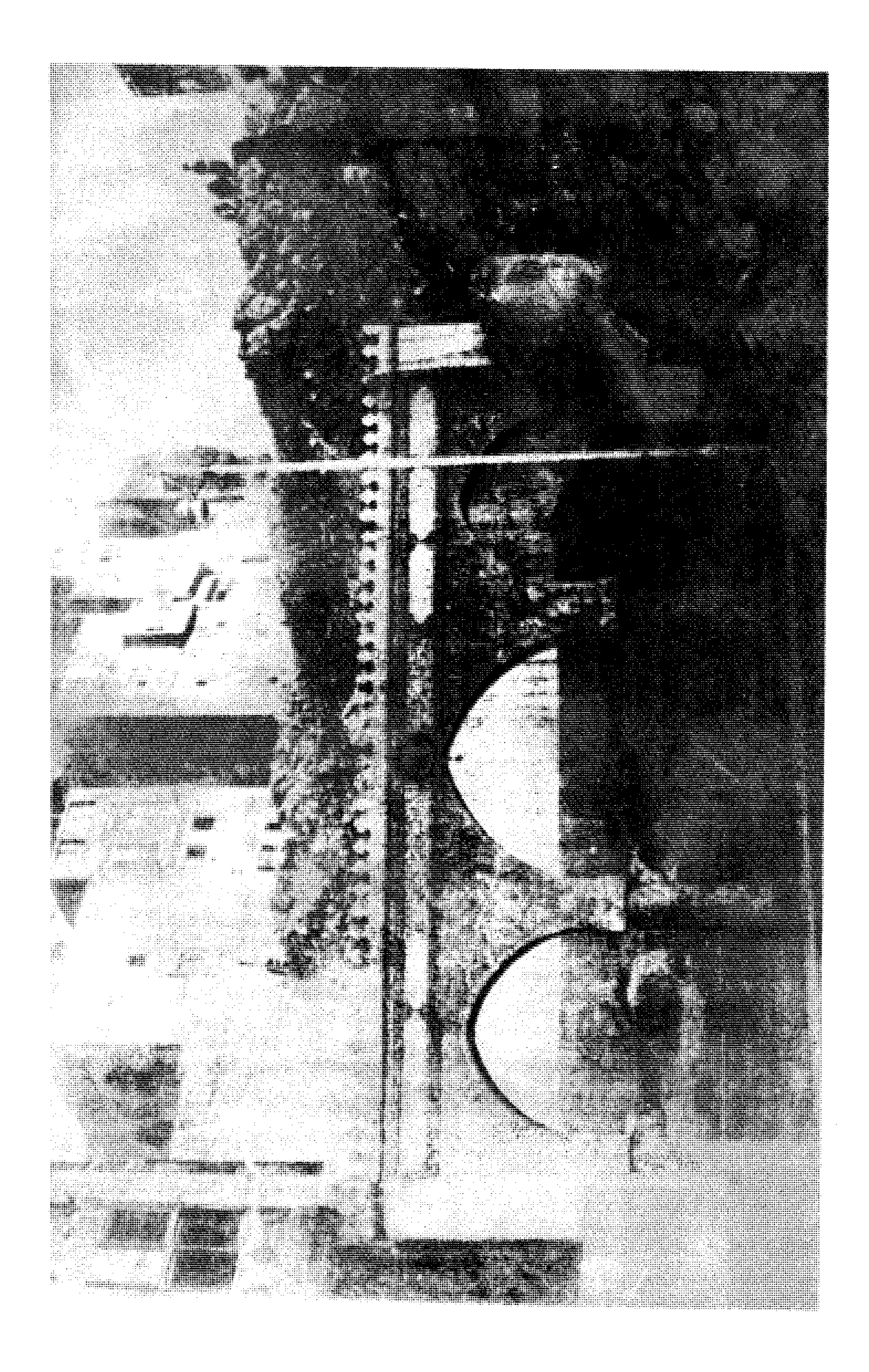
صورة رقم ١٧٧



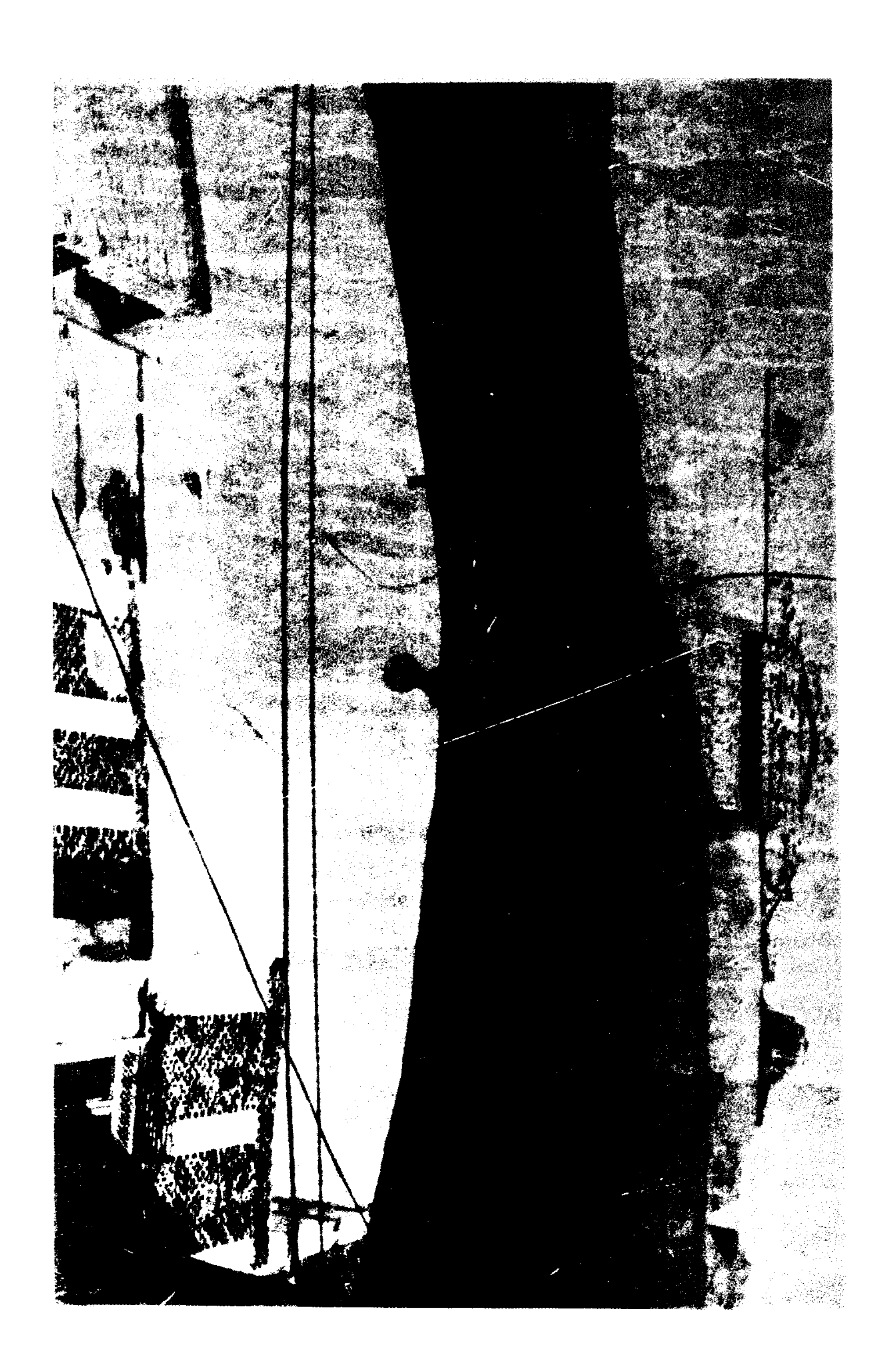
صورة رقم ١٧٨

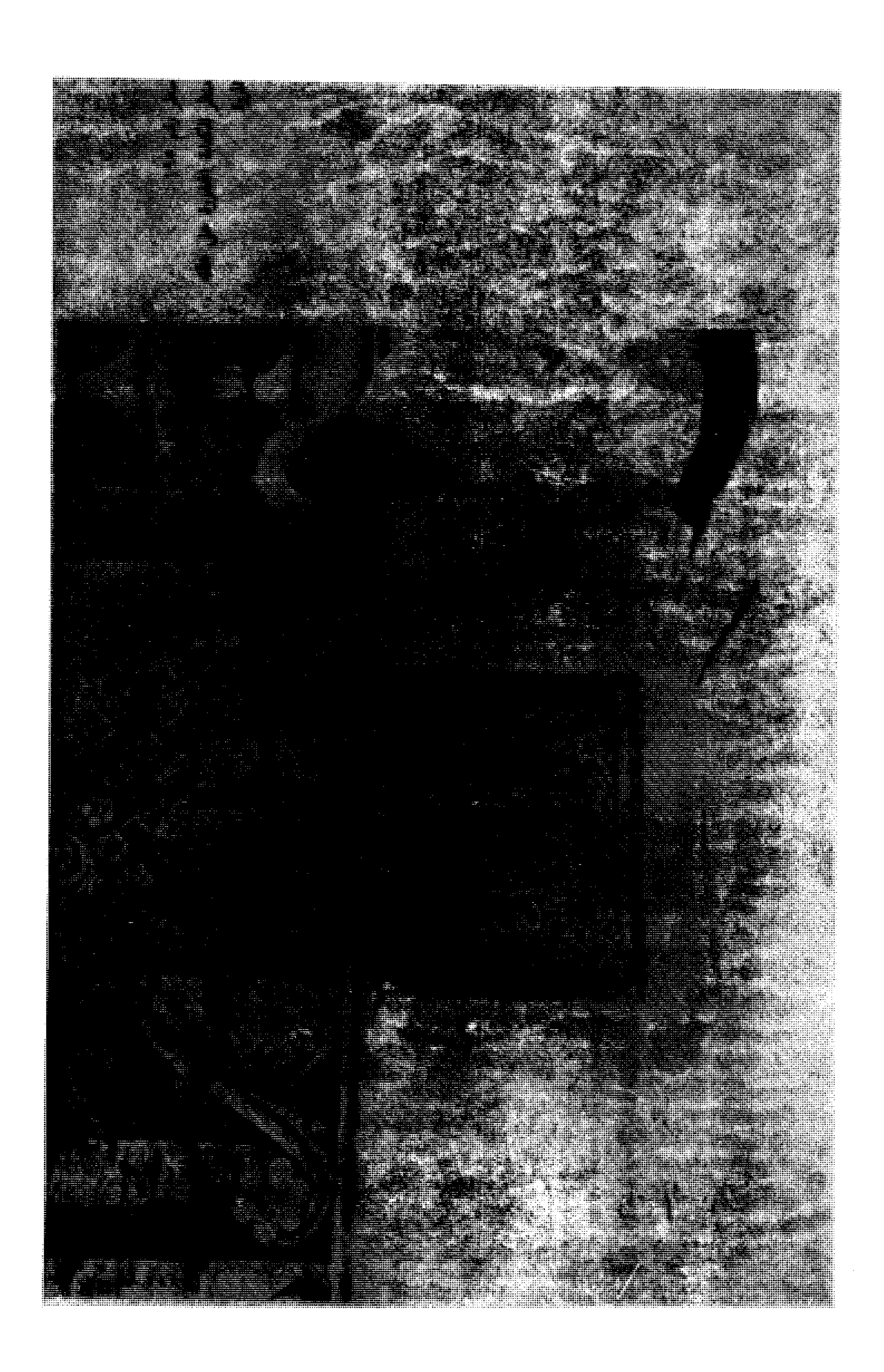


صورة رقم ١٧٩

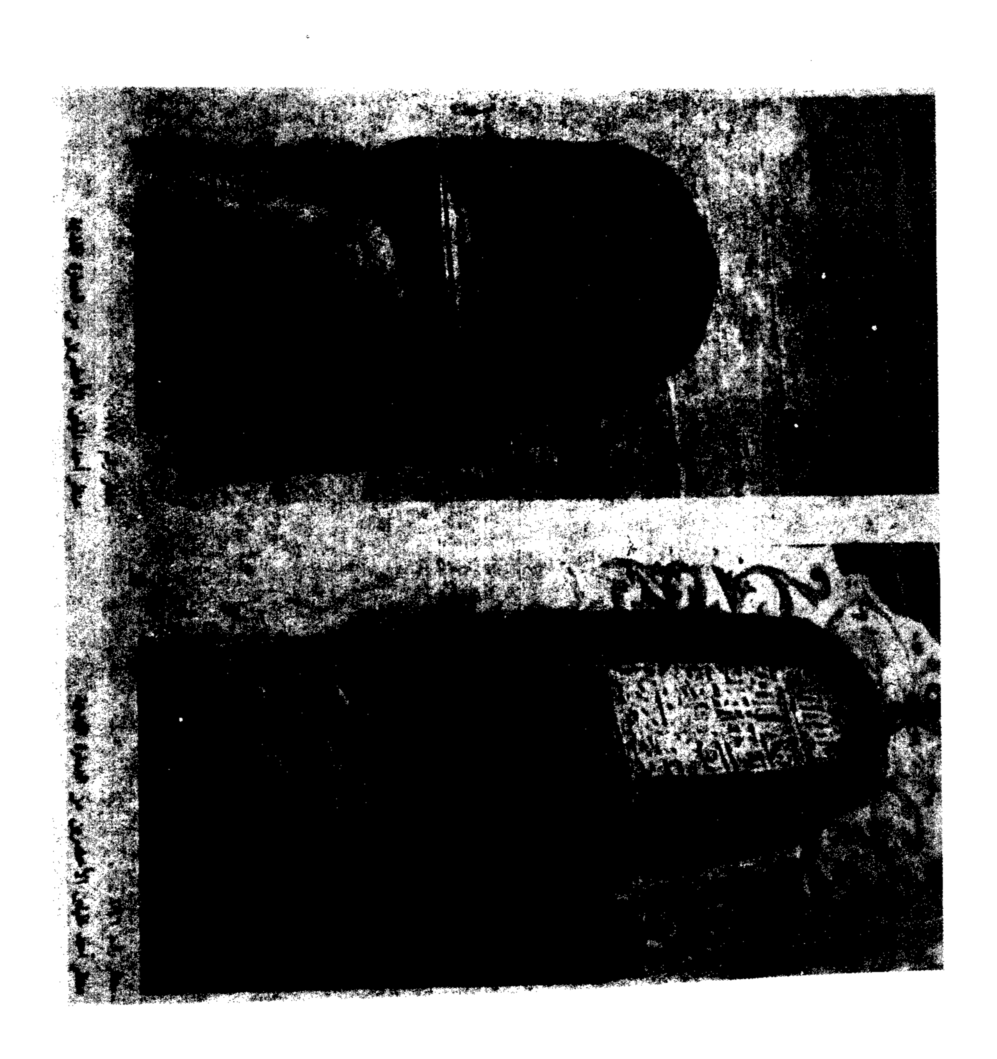


صورة رقم ١٨٠

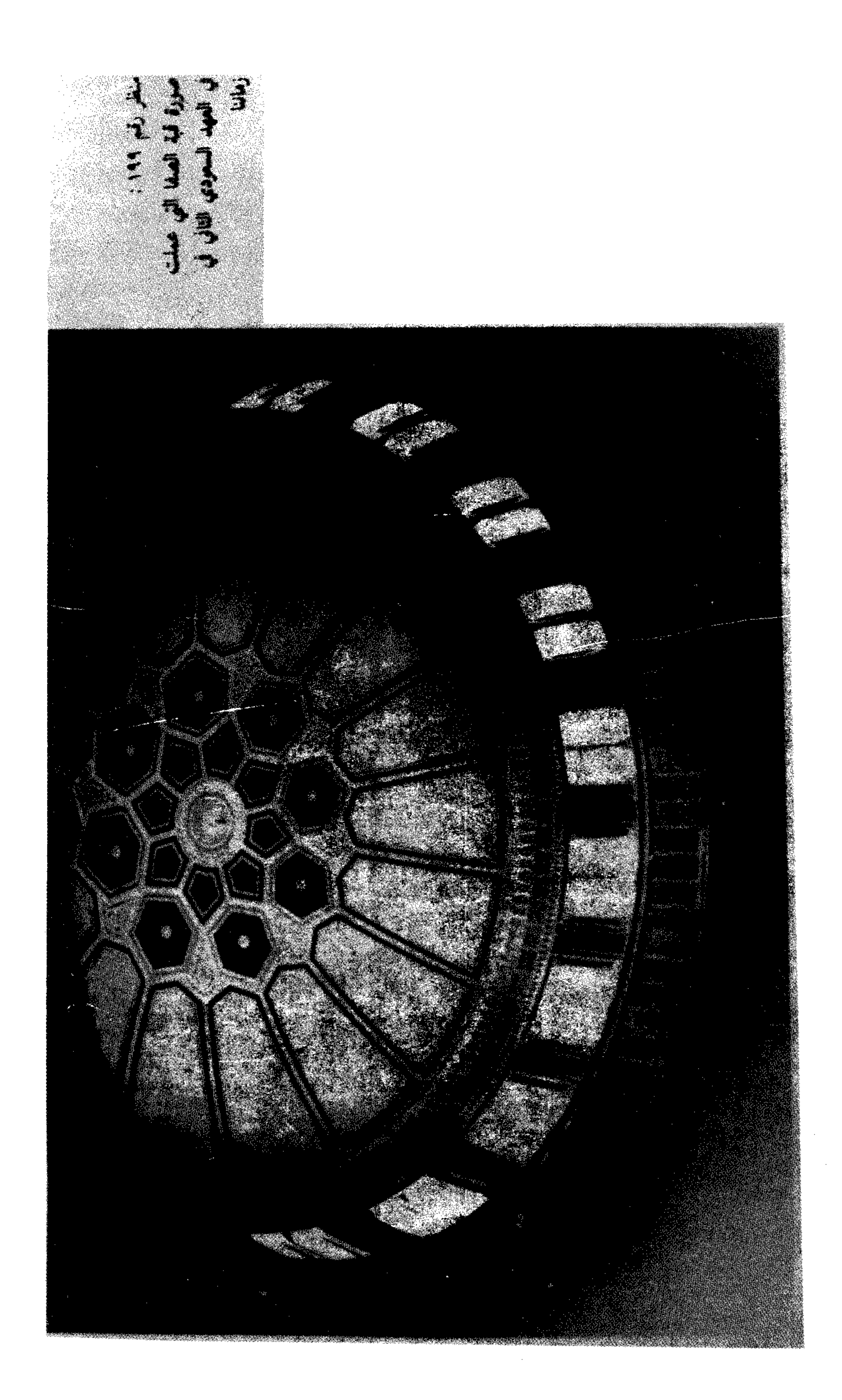




ـرة رقم ١٨٢



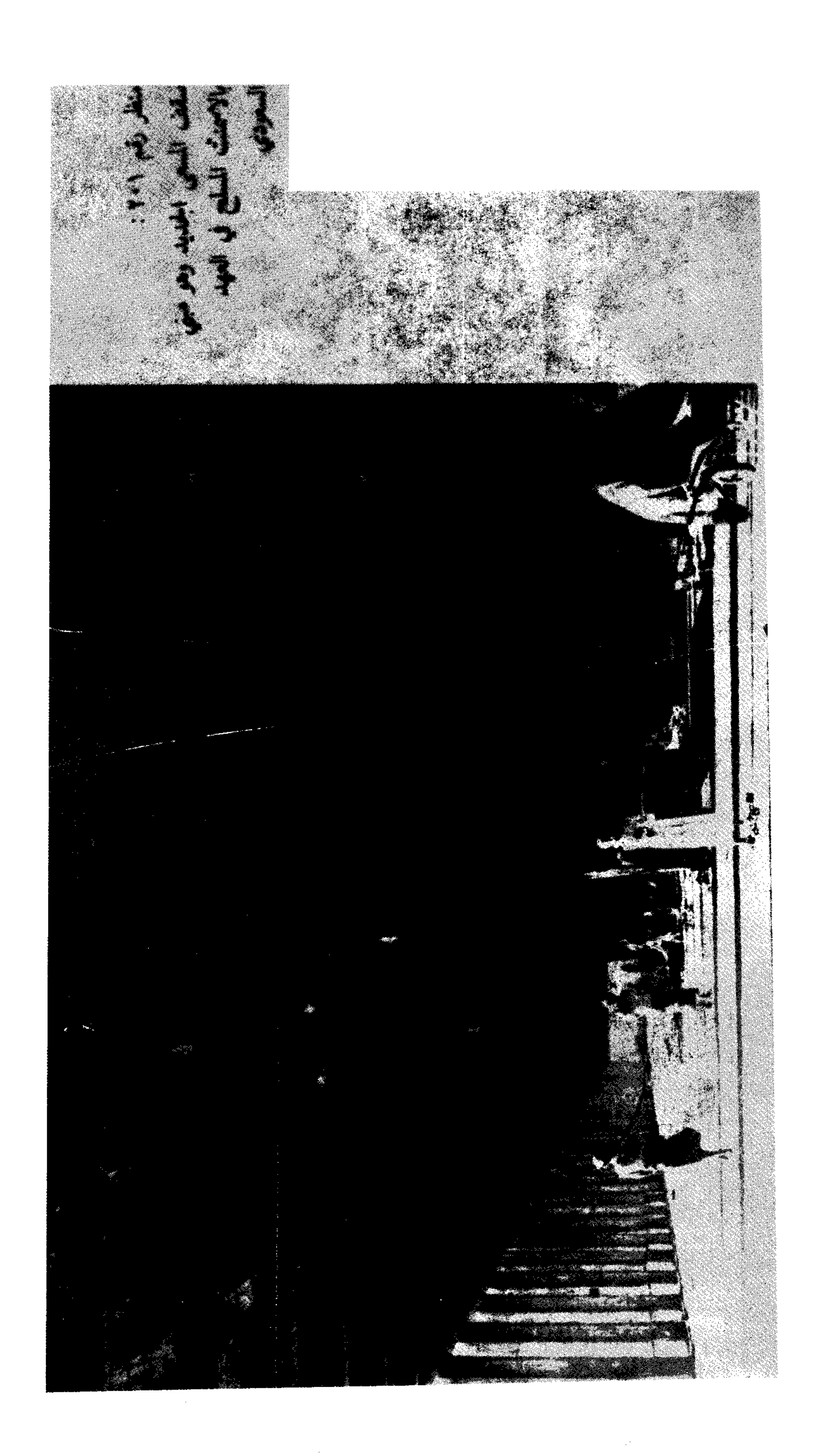
صورة رقم ١٨٤ صورة رقم ١٨٣



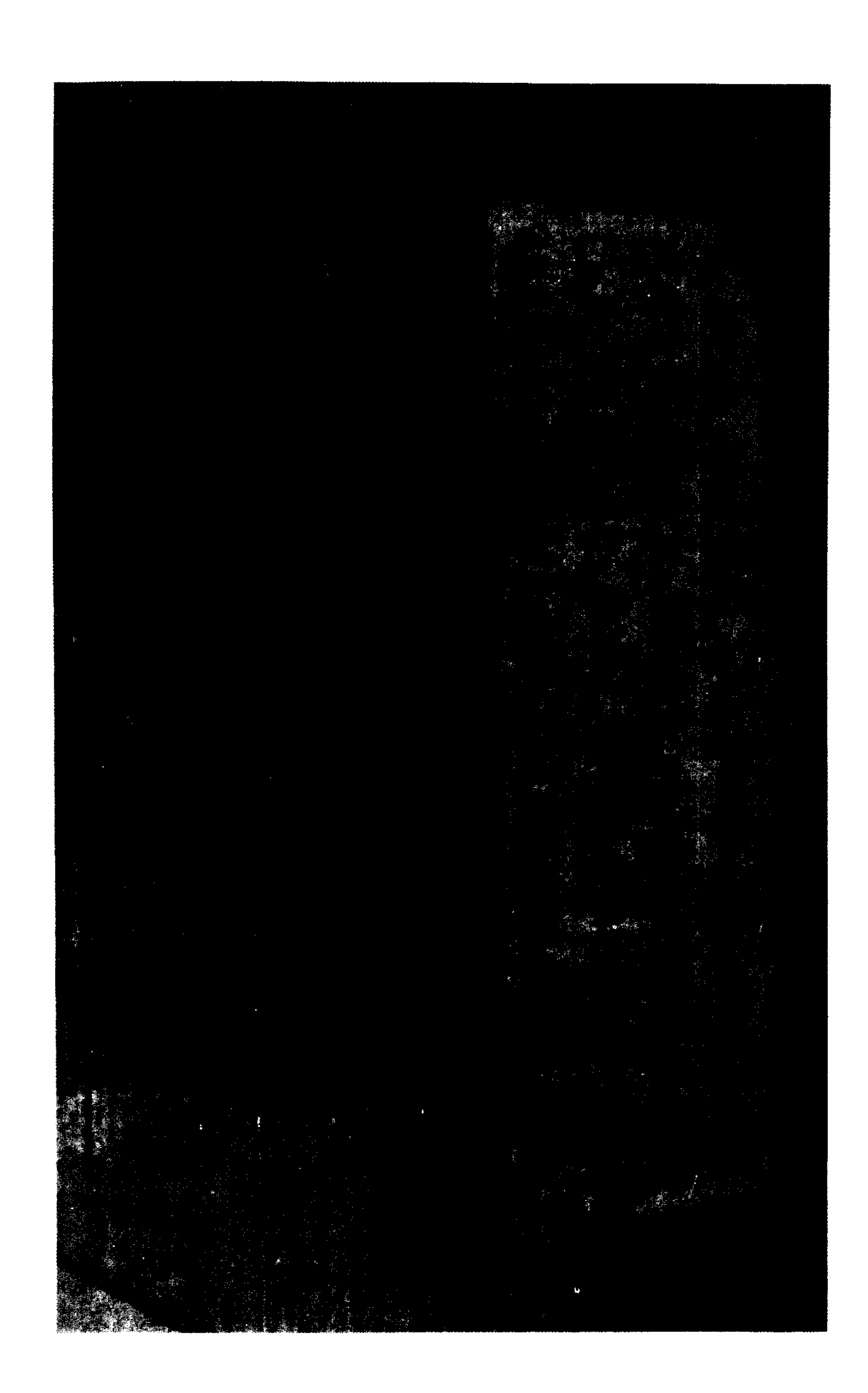
صورة رقم ١٨٥



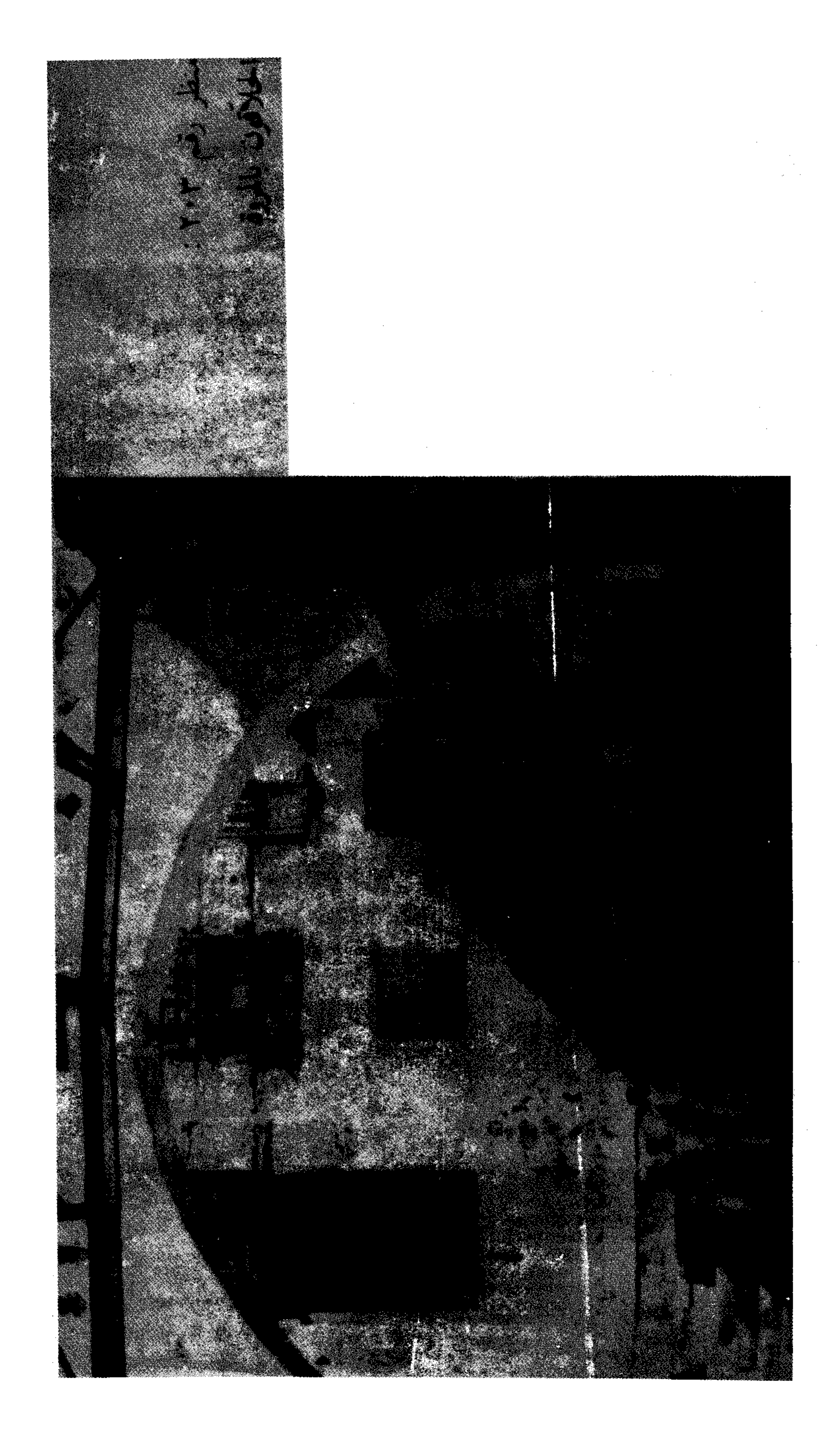
صورة رقم ١٨٦



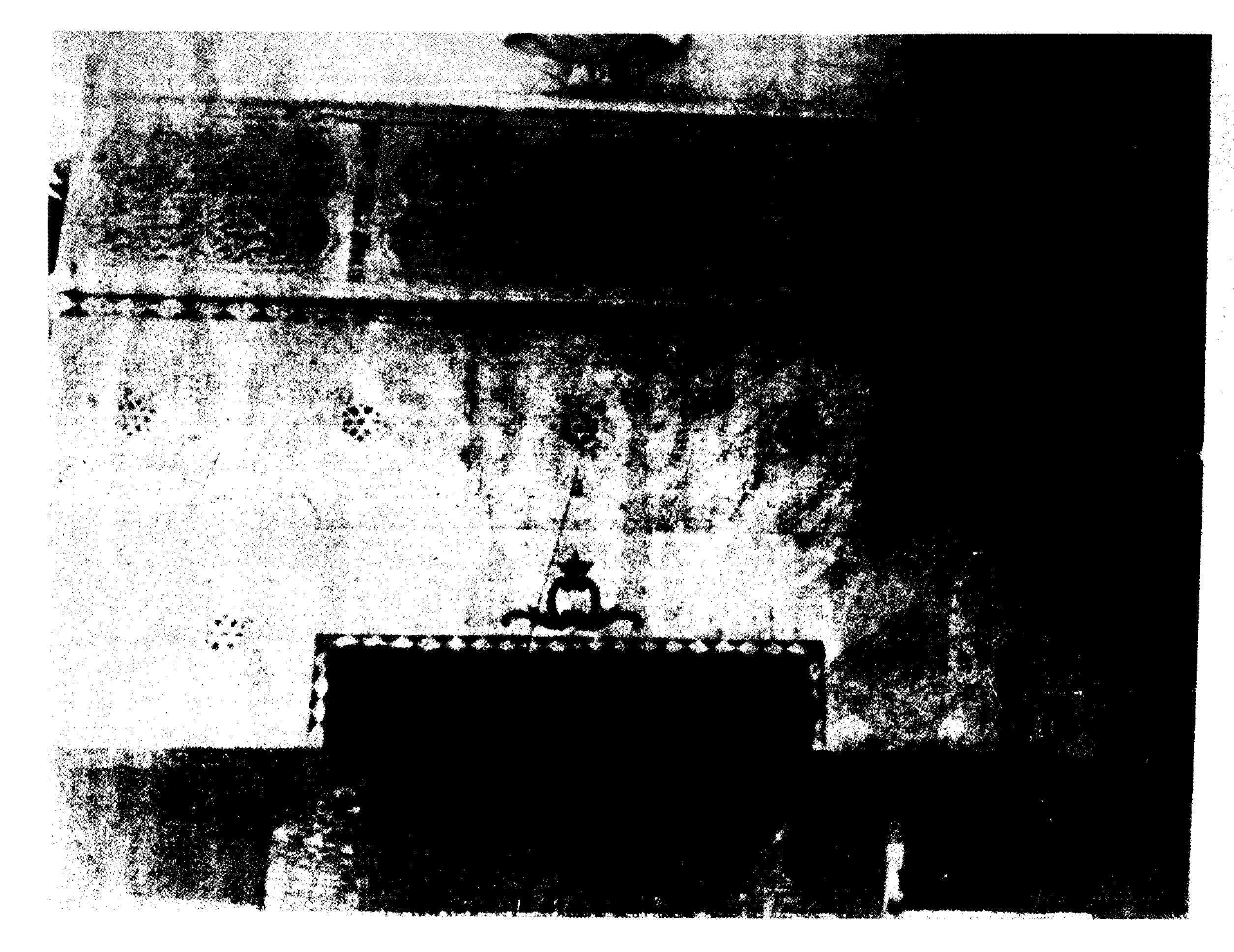
صورة رقم ١٨٧



صورة رقم ١٨٨

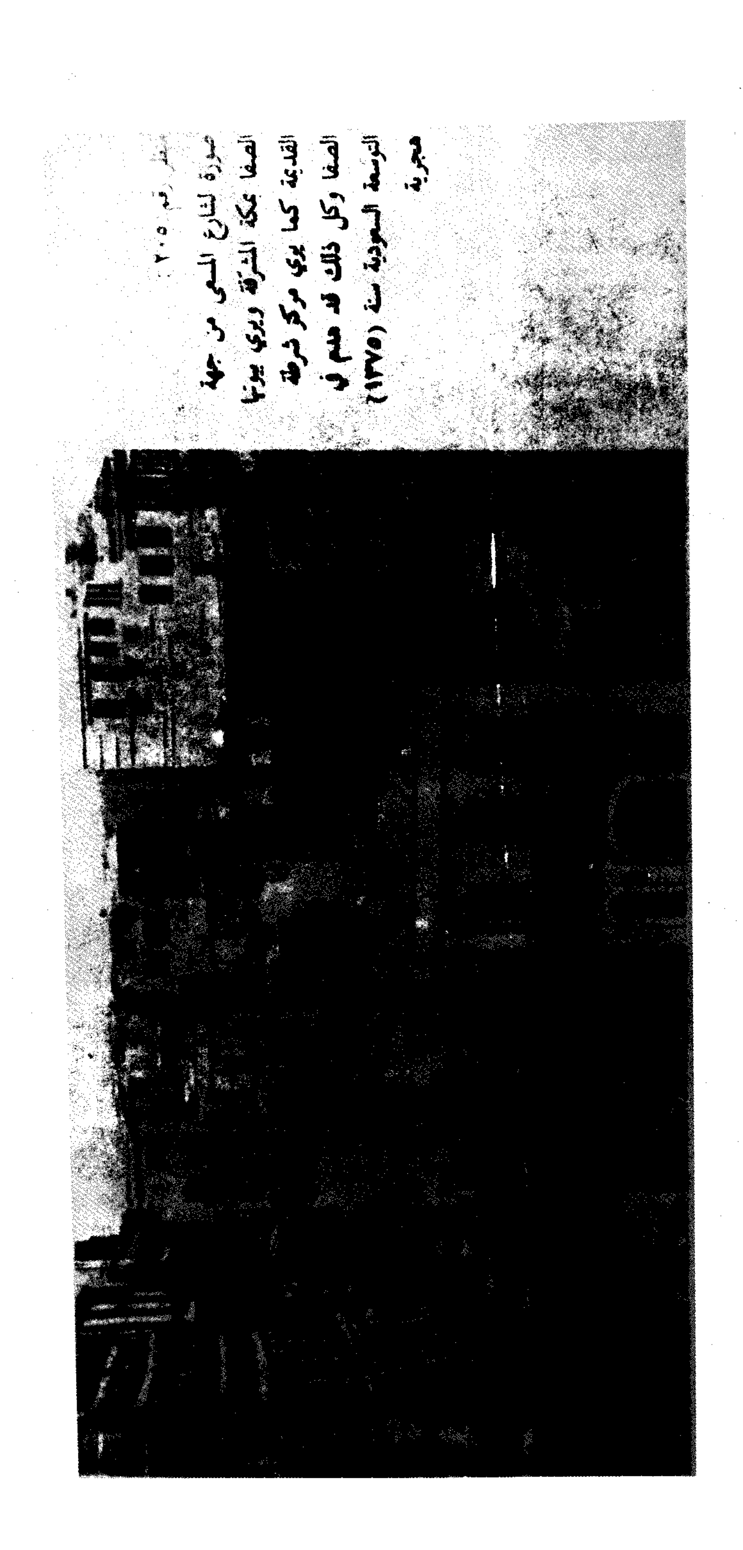


صورة رقم ١٨٩

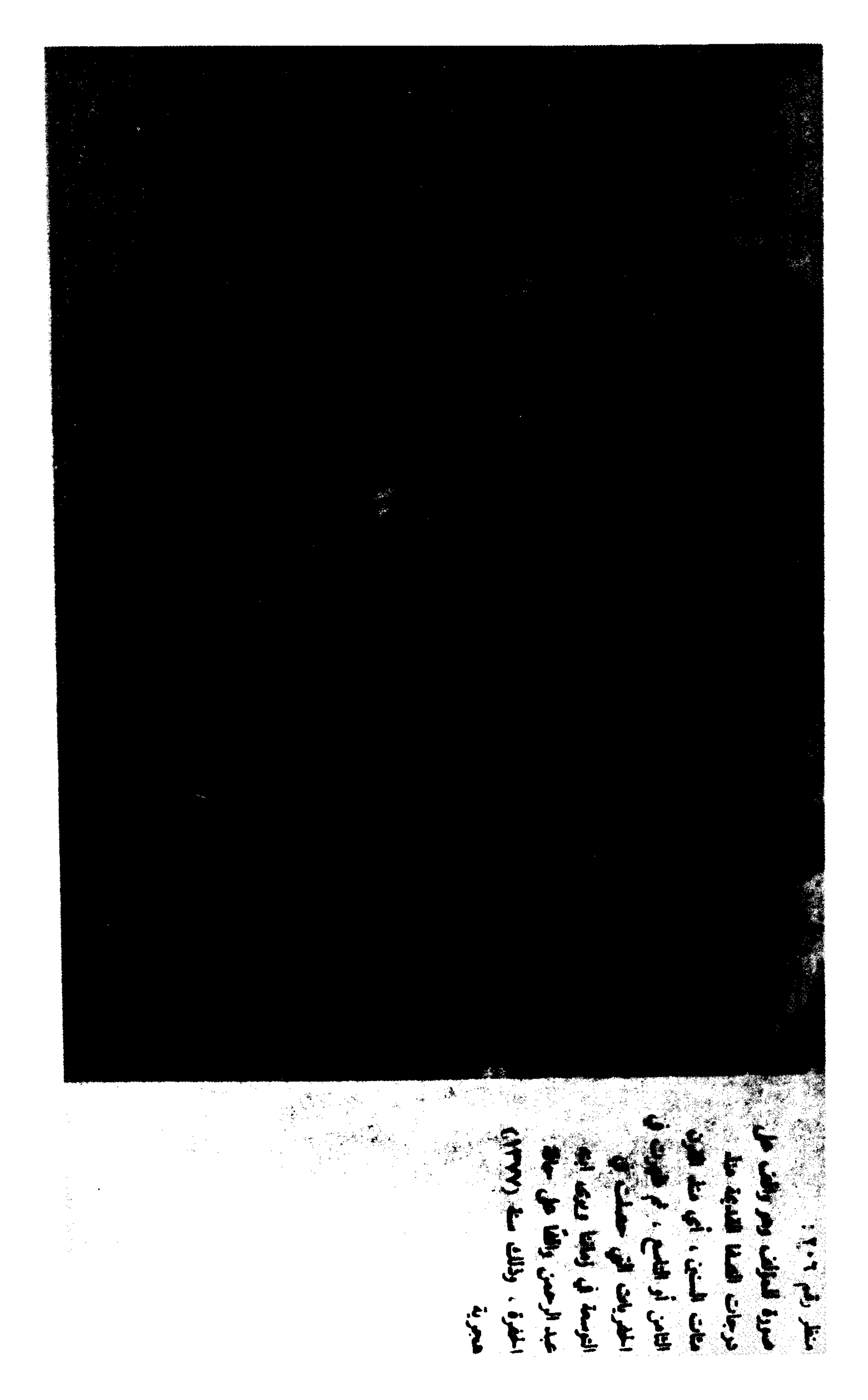


منظر رقم ٢٠٤ :
هذا هو السبيل المصري الذي كان يظهر بناية إدارة عين زبيدة بالمسعى قبل المروة بقليل ، ثم هدمت هذه الإدارة وهذا السبيل وما حولهما من البيوت لتوسعة المسجد الحرام في سنة (١٣٧٥) هجرية ، وكان الناس يشربون الماء من تحت الشباك الحديد الذي يظهر هنا .

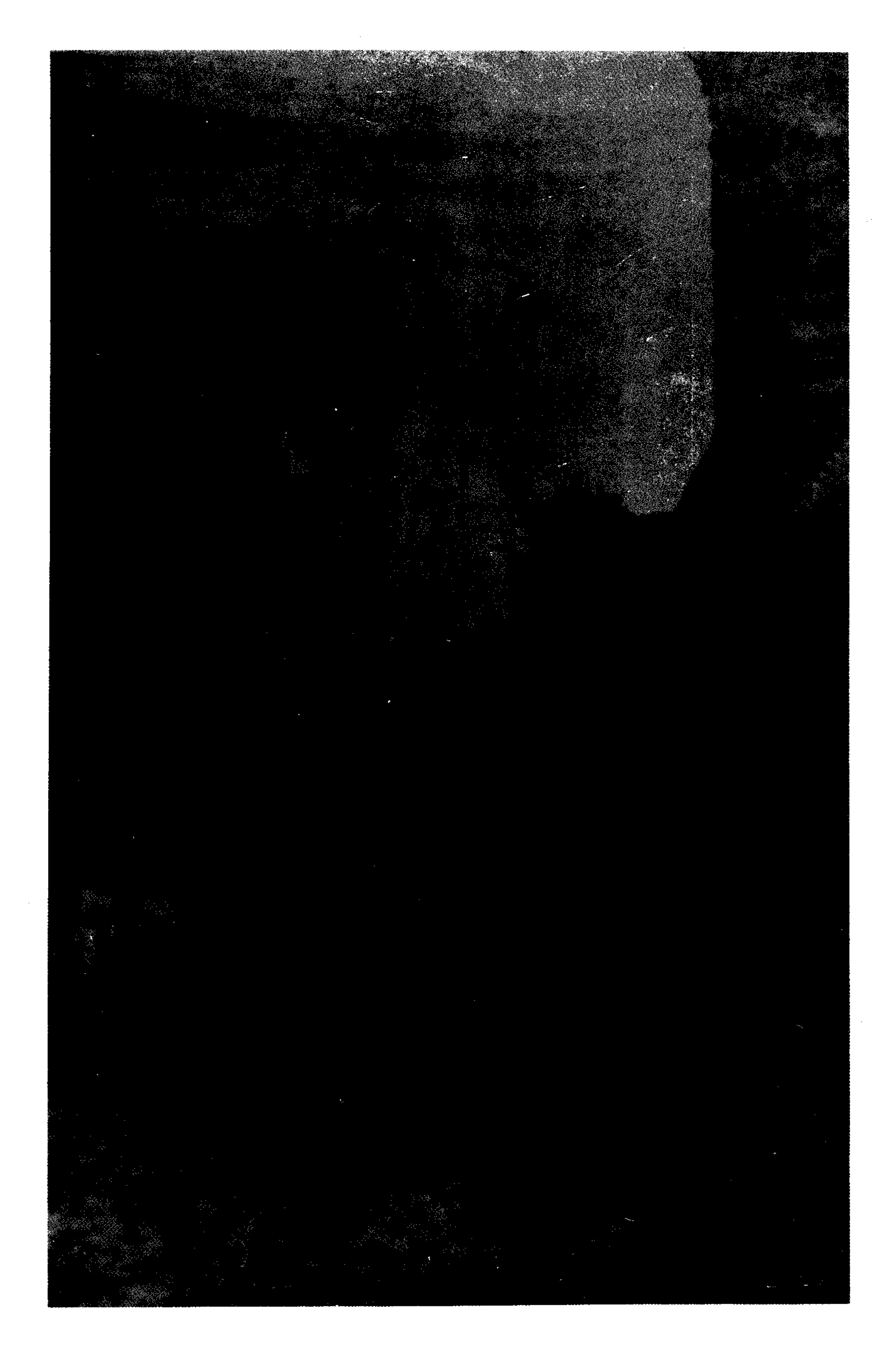
صورة رقم ١٩٠


رقم ٢٠٥
صورة للشارع السعى من جهة
الصفا بمكة المشرفة ويرى بيوتا
القديمة كما يرى مركز شرطة
الصفا وكل ذلك قد هدم في
التوسعة السعودية سنة (١٣٧٥)
هجرية

صورة رقم ١٩١



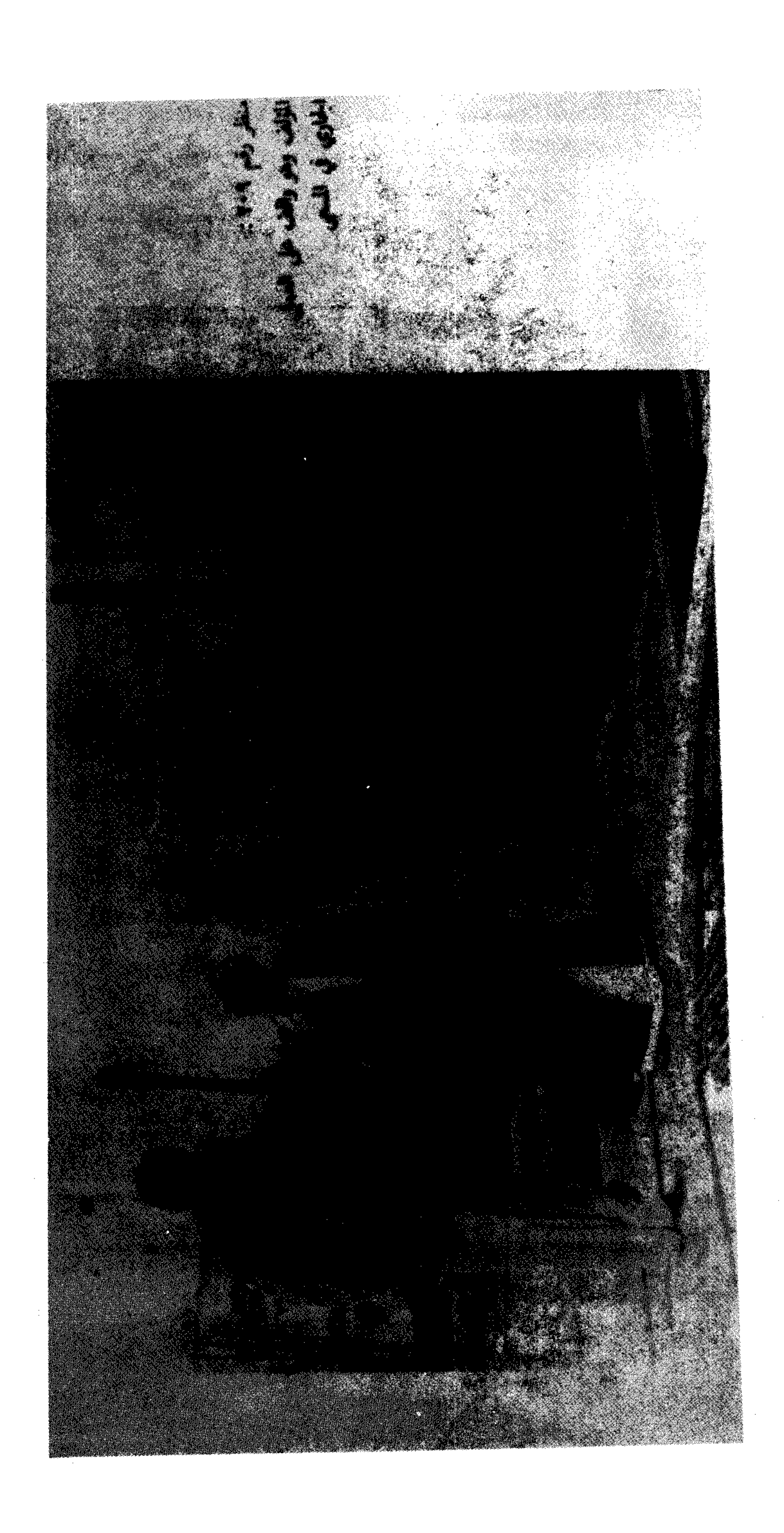
صورة رقم ١٩٢



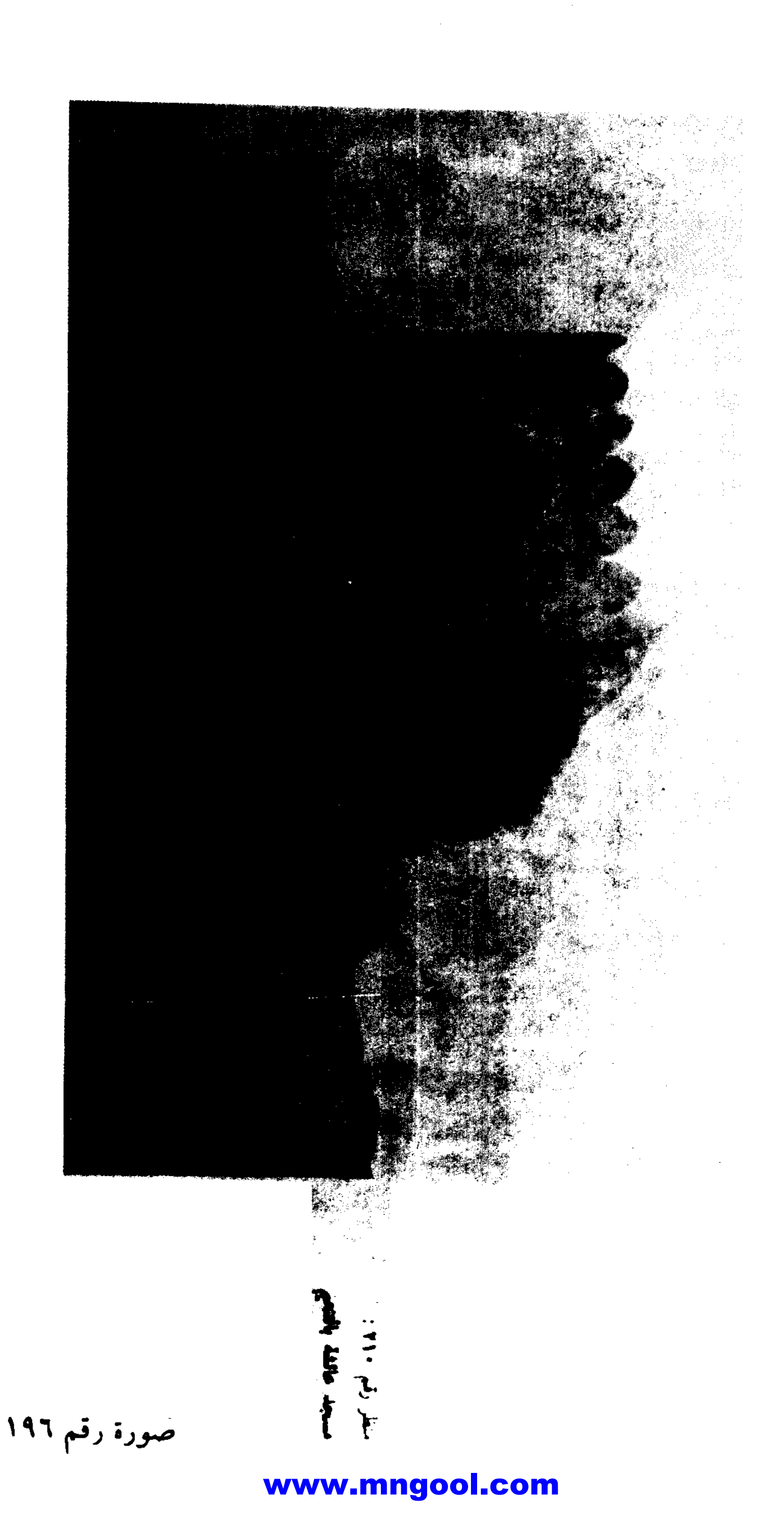
صورة رقم ١٩٣



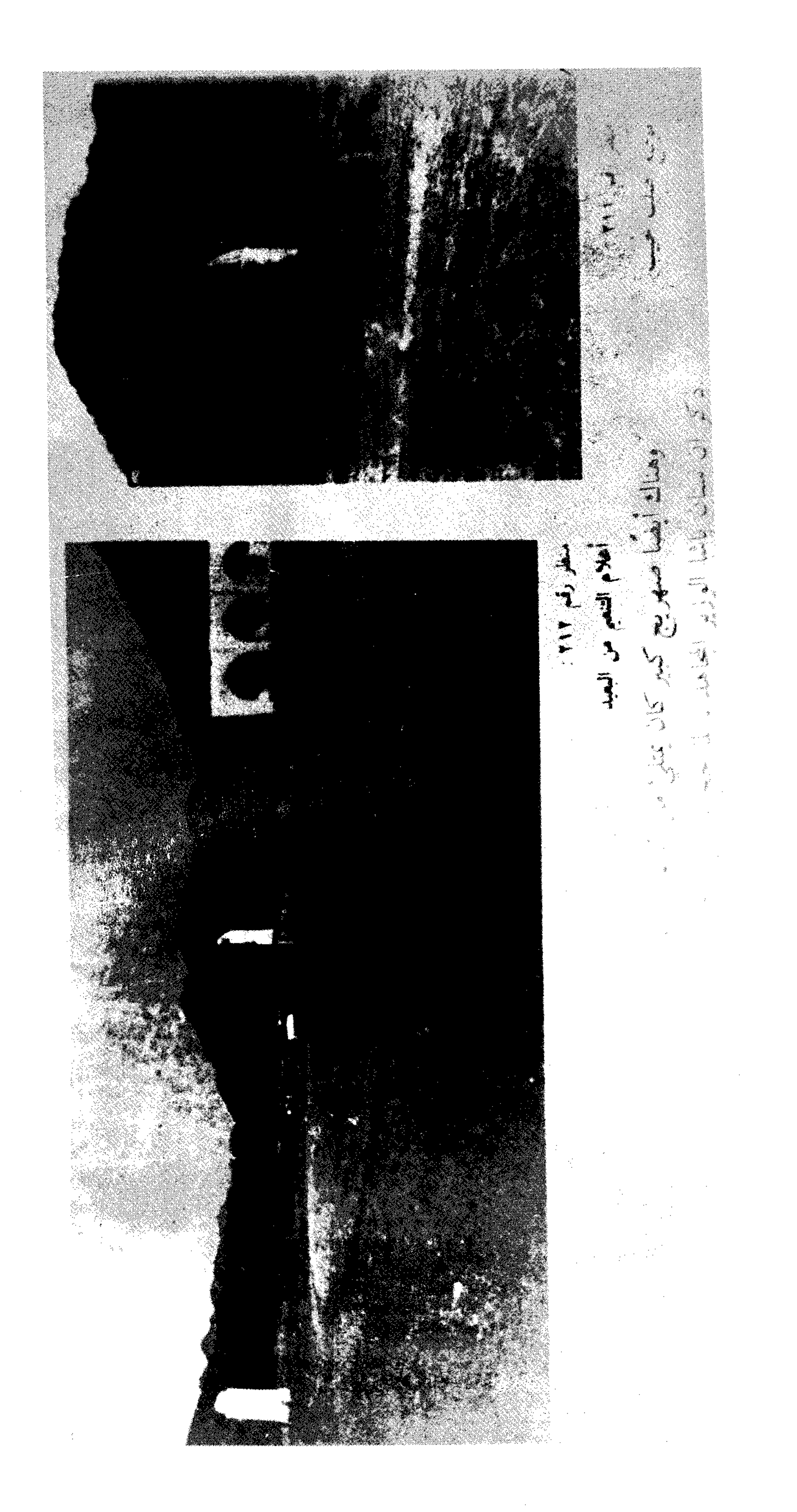
صورة رقم ١٩٤



صورة رقم ١٩٥



صورة رقم ١٩٦



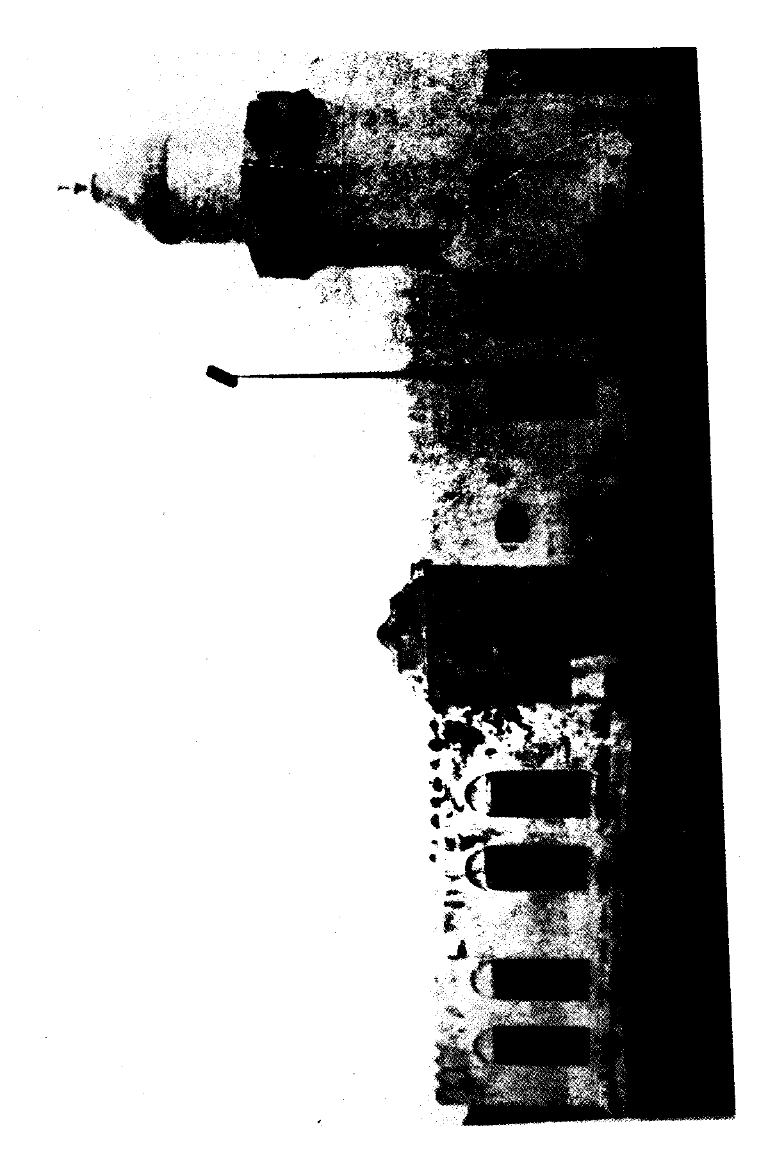
صورة رقم ١٩٨

صورة رقم ١٩٧

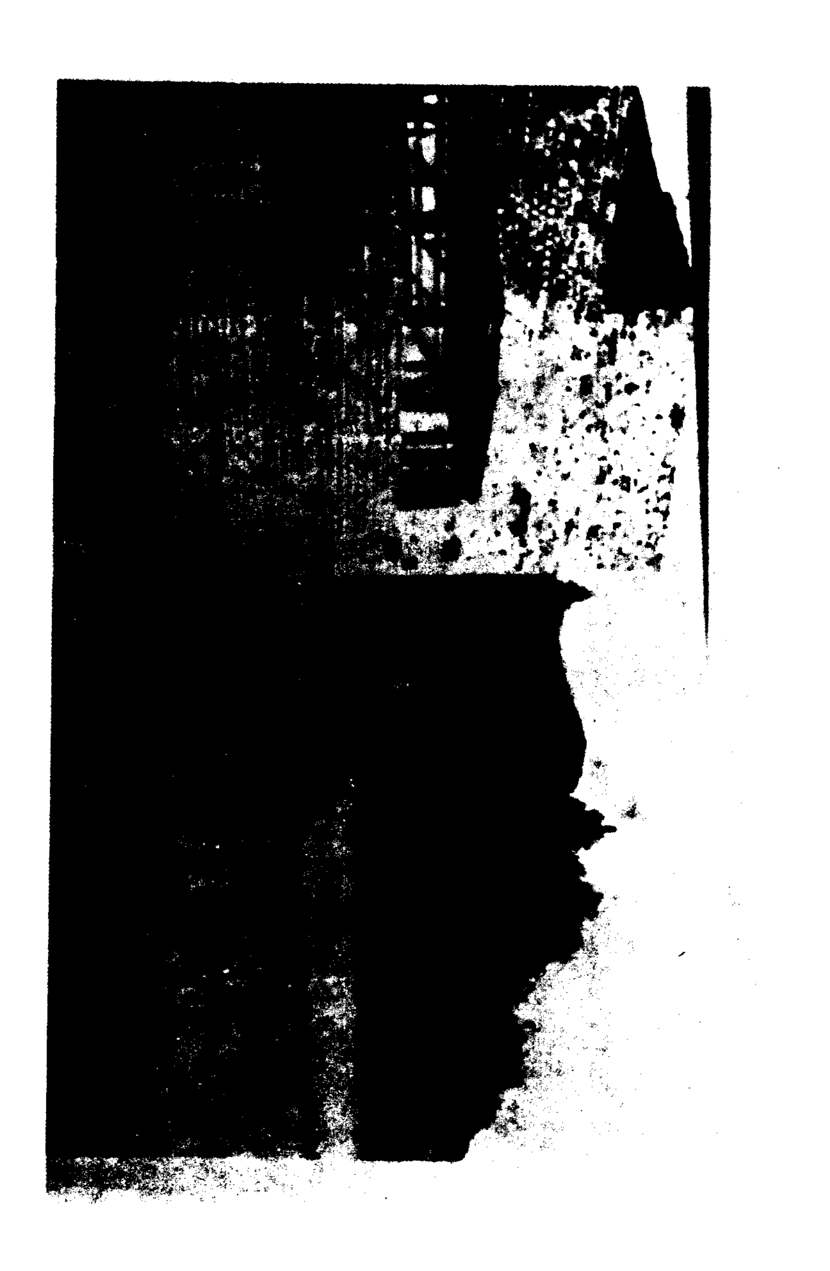


صورة رقم ٢٠٠

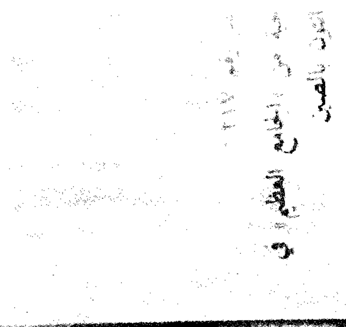
صورة رقم ١٩٩



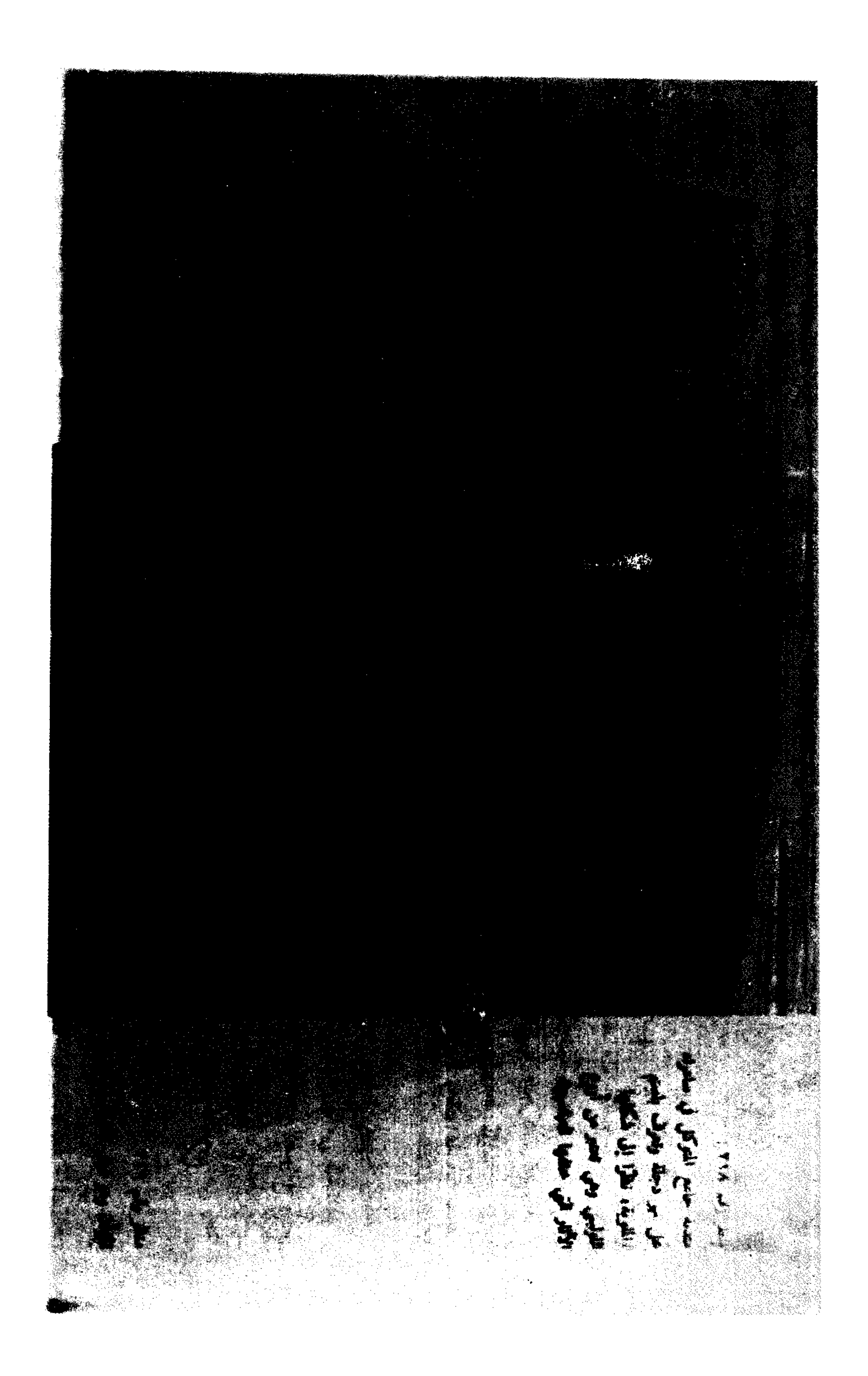
صورة رقم ٢٠١



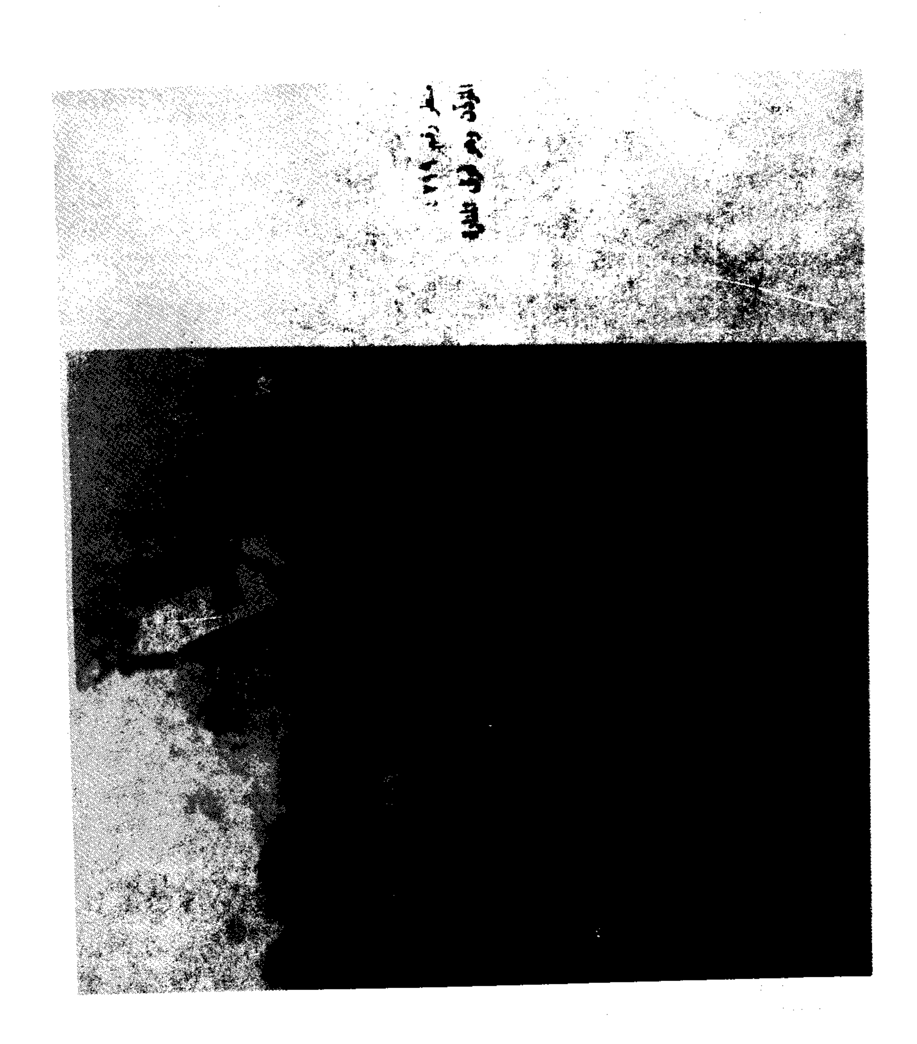
صورة رقم ٢٠٢



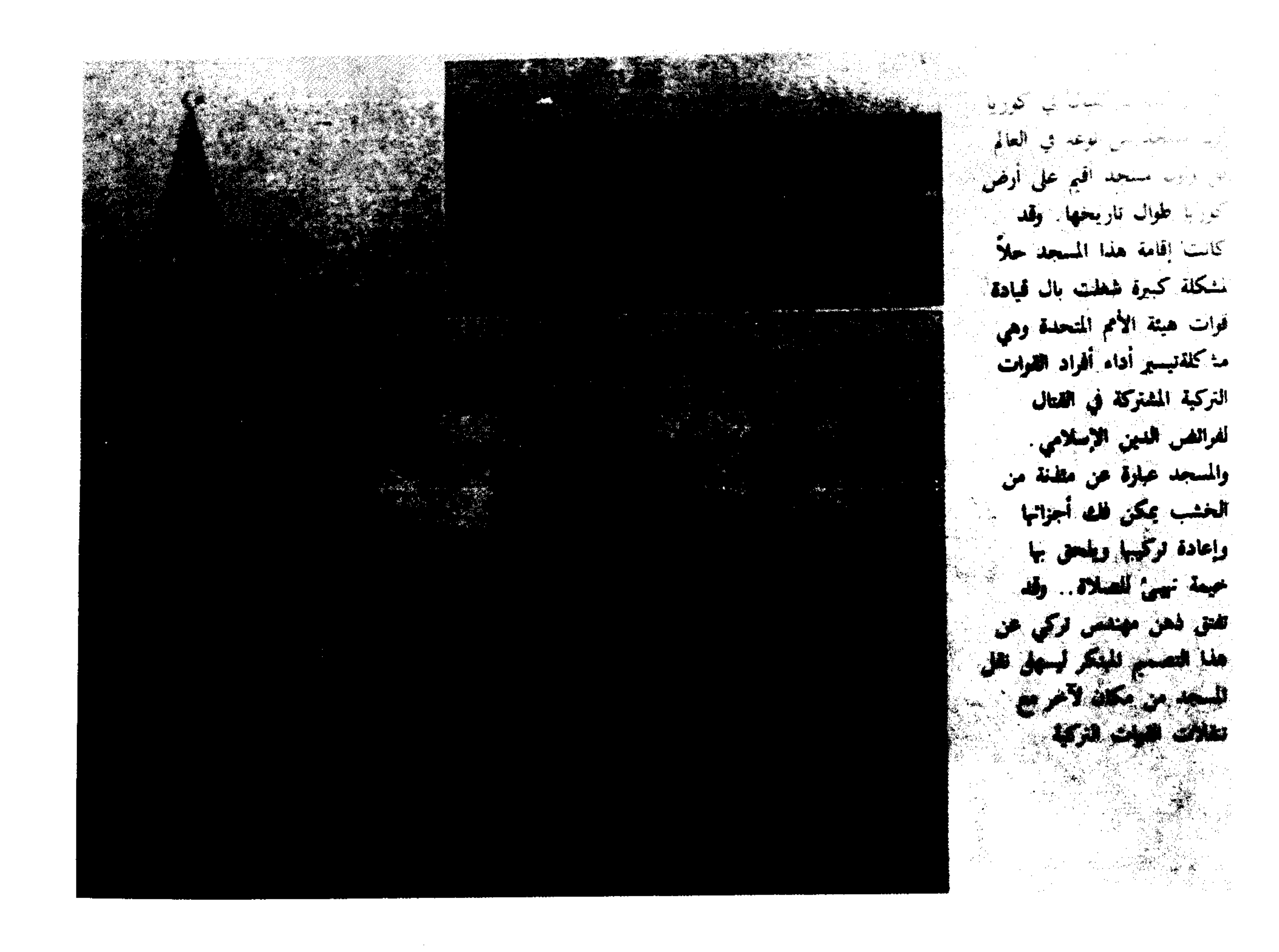
صورة رقم ٢٠٣



صورة رقم ٢٠٤

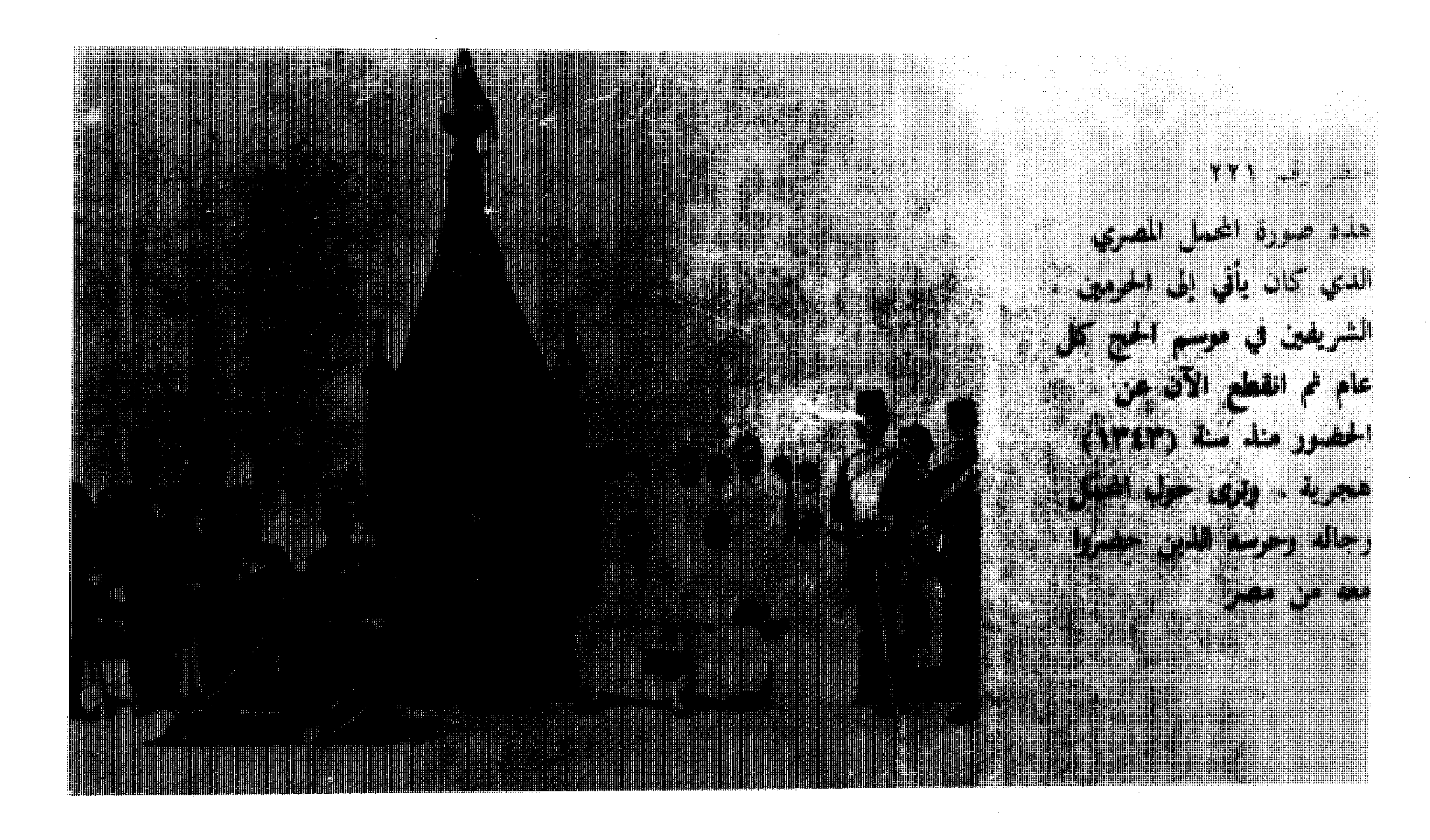


صورة رقم ٢٠٥



... في كوريا
... من نوعه في العالم
... مسجد أقيم على أرض
كوريا طوال تاريخها. وقد
كانت إقامة هذا المسجد حلاً
لمشكلة كبيرة شغلت بال قيادة
قوات هيئة الأمم المتحدة وهي
مشكلة تيسير أداء أفراد القوات
التركية المشتركة في القتال
لفرائض الدين الإسلامي.
والمسجد عبارة عن مظلة من
الخشب يمكن فك أجزائها
وإعادة تركيبها ويلحق بها
خيمة تهيئ للصلاة.. وقد
تفتق ذهن مهندس تركي عن
هذا التصميم المبتكر ليسهل نقل
المسجد من مكان لآخر مع
تنقلات القوات التركية

صورة رقم ٢٠٦


رقم ٢٢١
هذه صورة المحمل المصري
الذي كان يأتي إلى الحرمين
الشريفين في موسم الحج كل
عام ثم انقطع الآن عن
الحضور منذ سنة (١٣٤٣)
هجرية ، ونرى حول المحمل
رجاله وحرسه الذين حضروا
معه من مصر

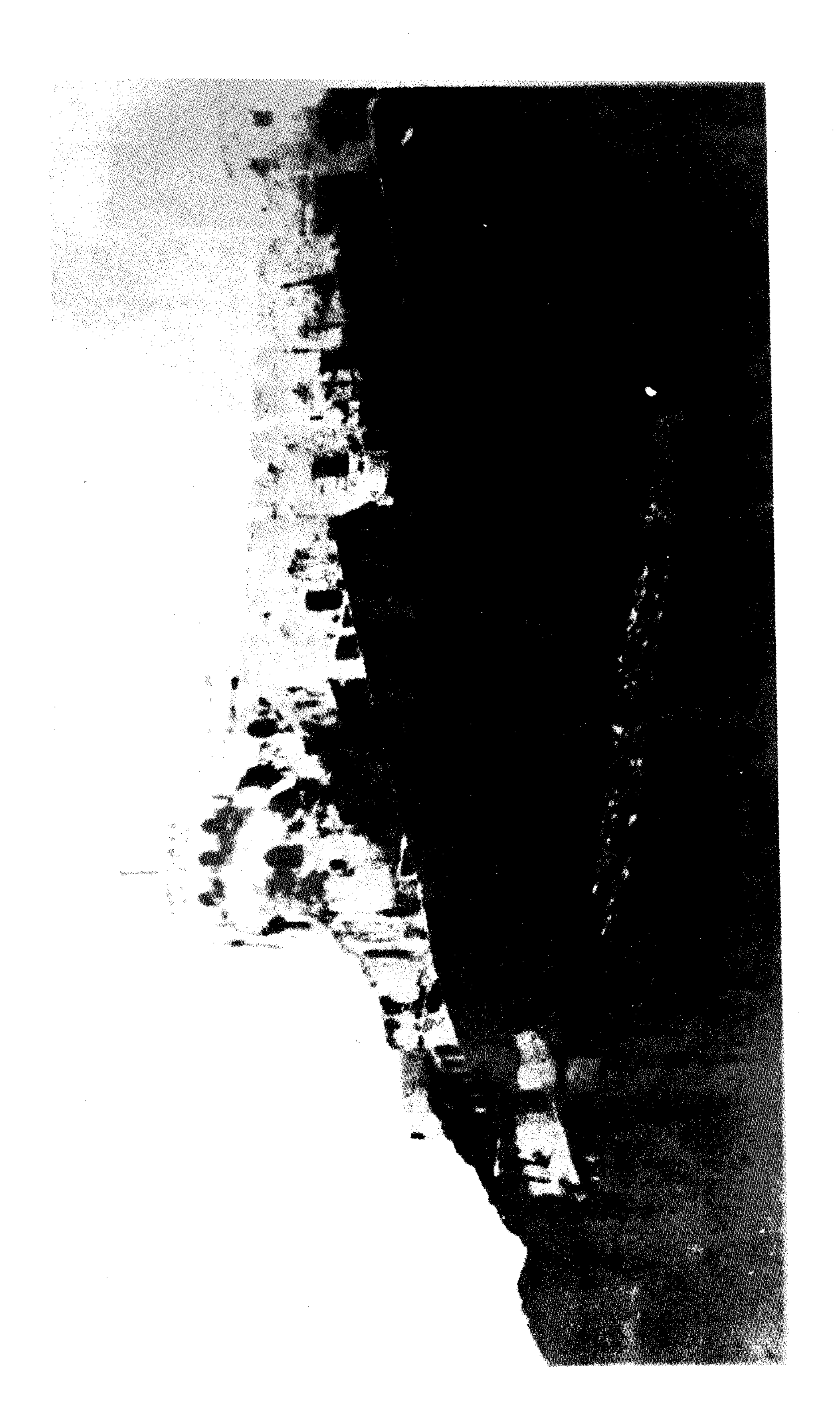
صورة رقم ٢٠٧



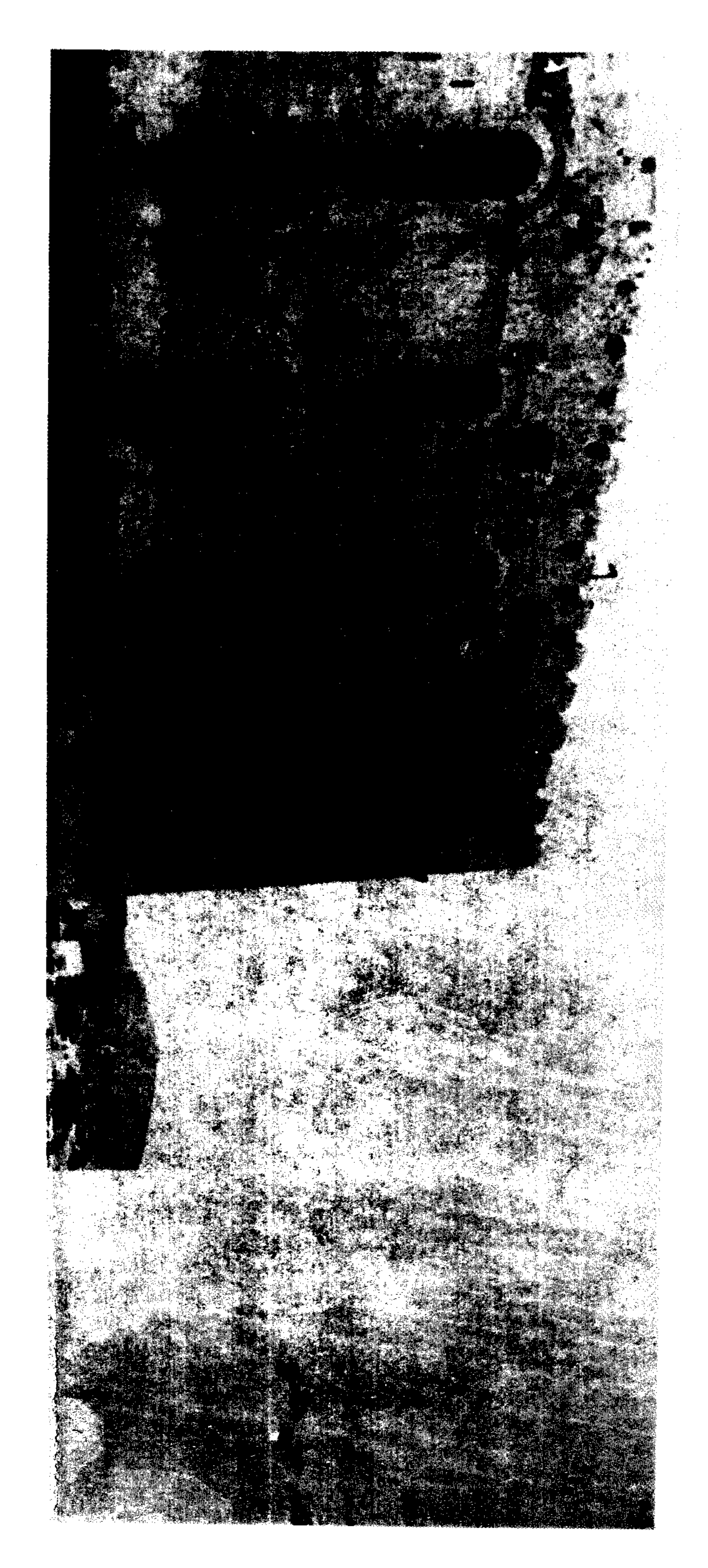
منظر رقم ٢٢٢ :

هذه صورة المحمل المصري والمحمل الشامي اللذين كانا يأتيان إلى الحرمين الشريفين في موسم الحج في كل عام ، ثم انقطعا الآن عن الحضور منذ سنة (١٣٤٣) هجرية . وترى عند كل محمل بعض رجاله من المصريين والشاميين

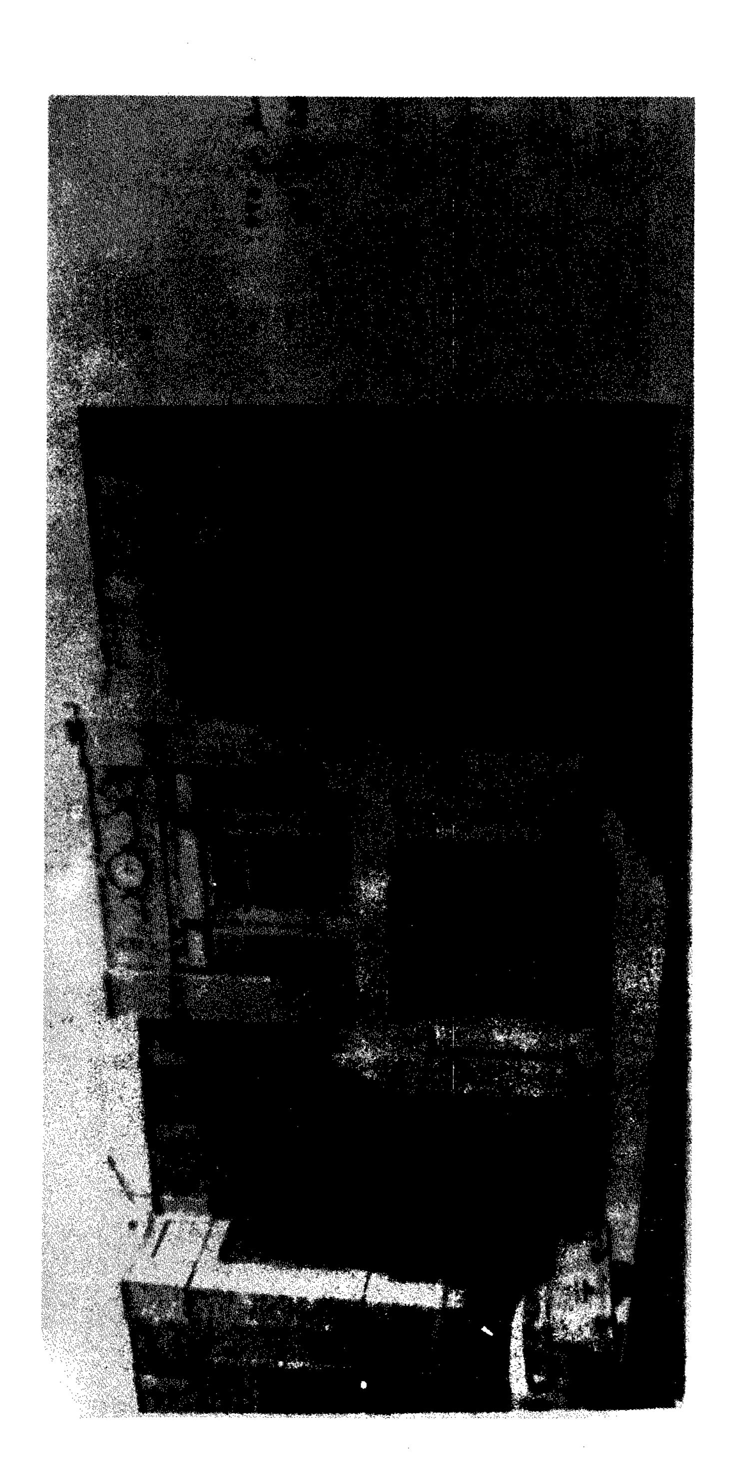
صورة رقم ٢٠٨



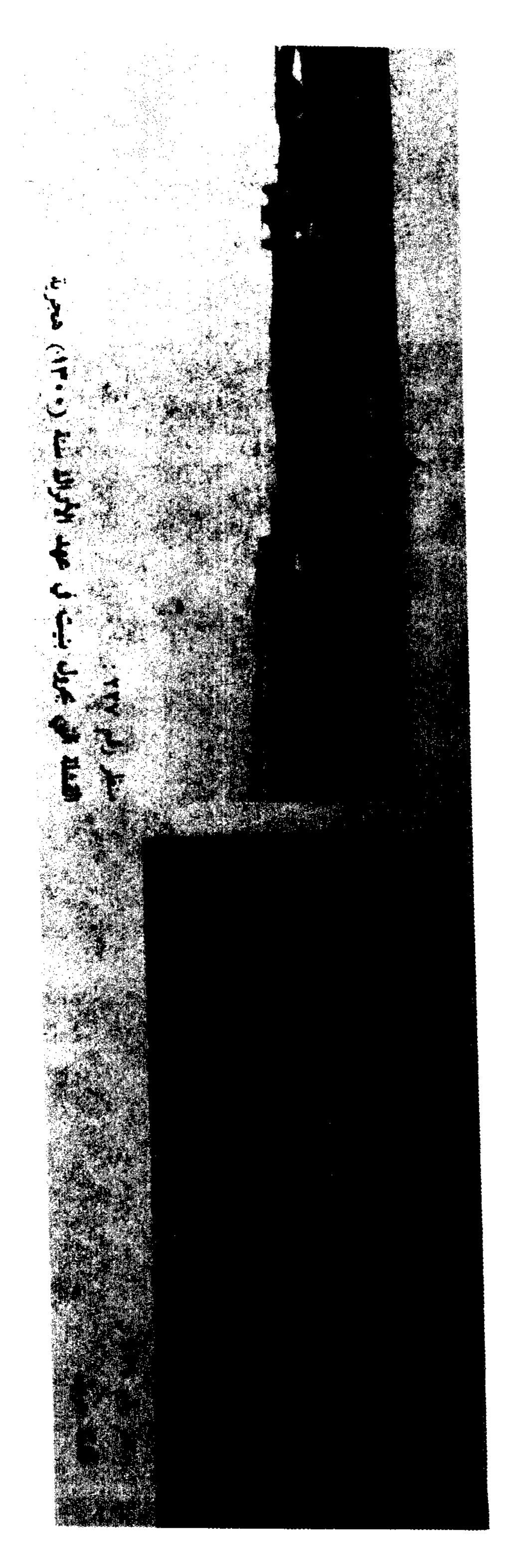
صورة رقم ٢٠٩



صورة رقم ٢١٠



صورة رقم ٢١١

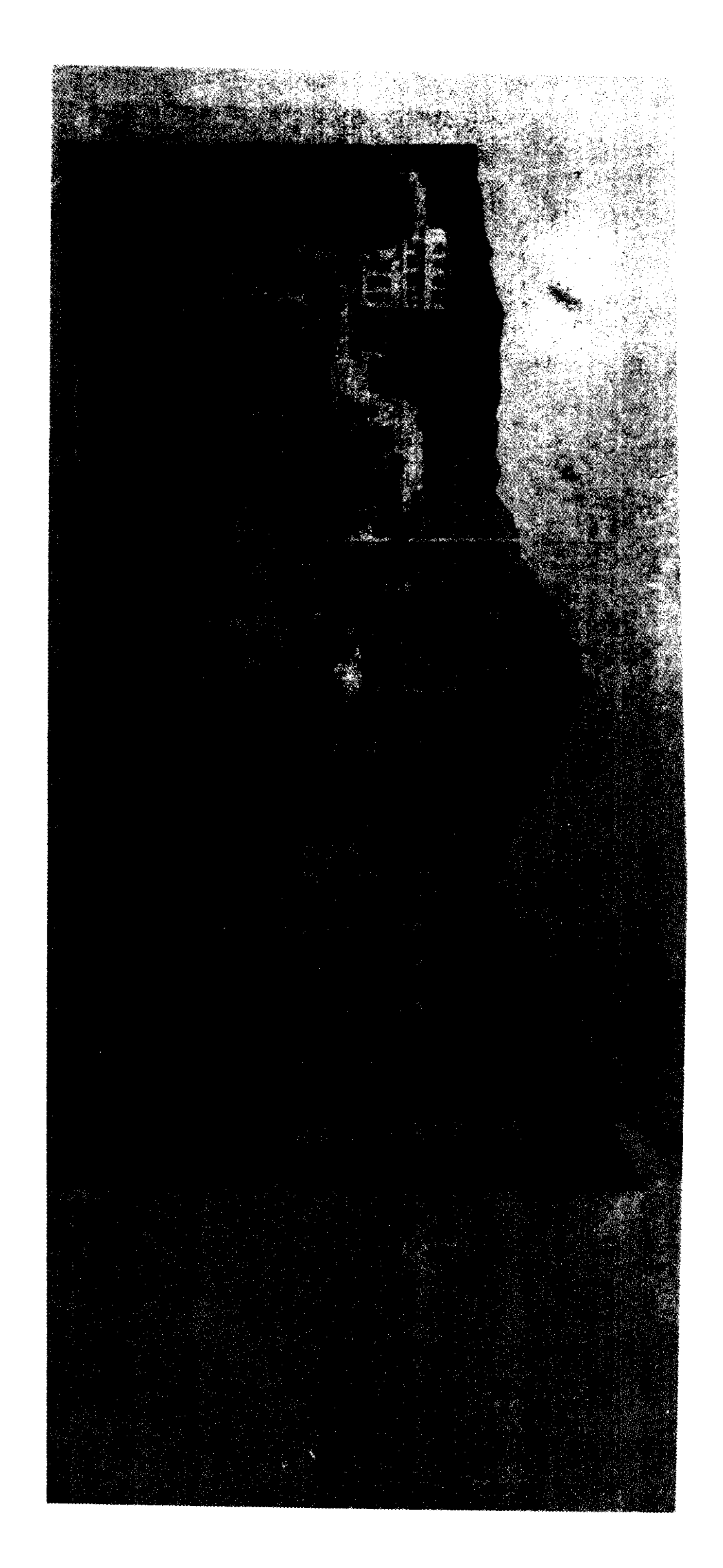


صورة رقم ٢١٣

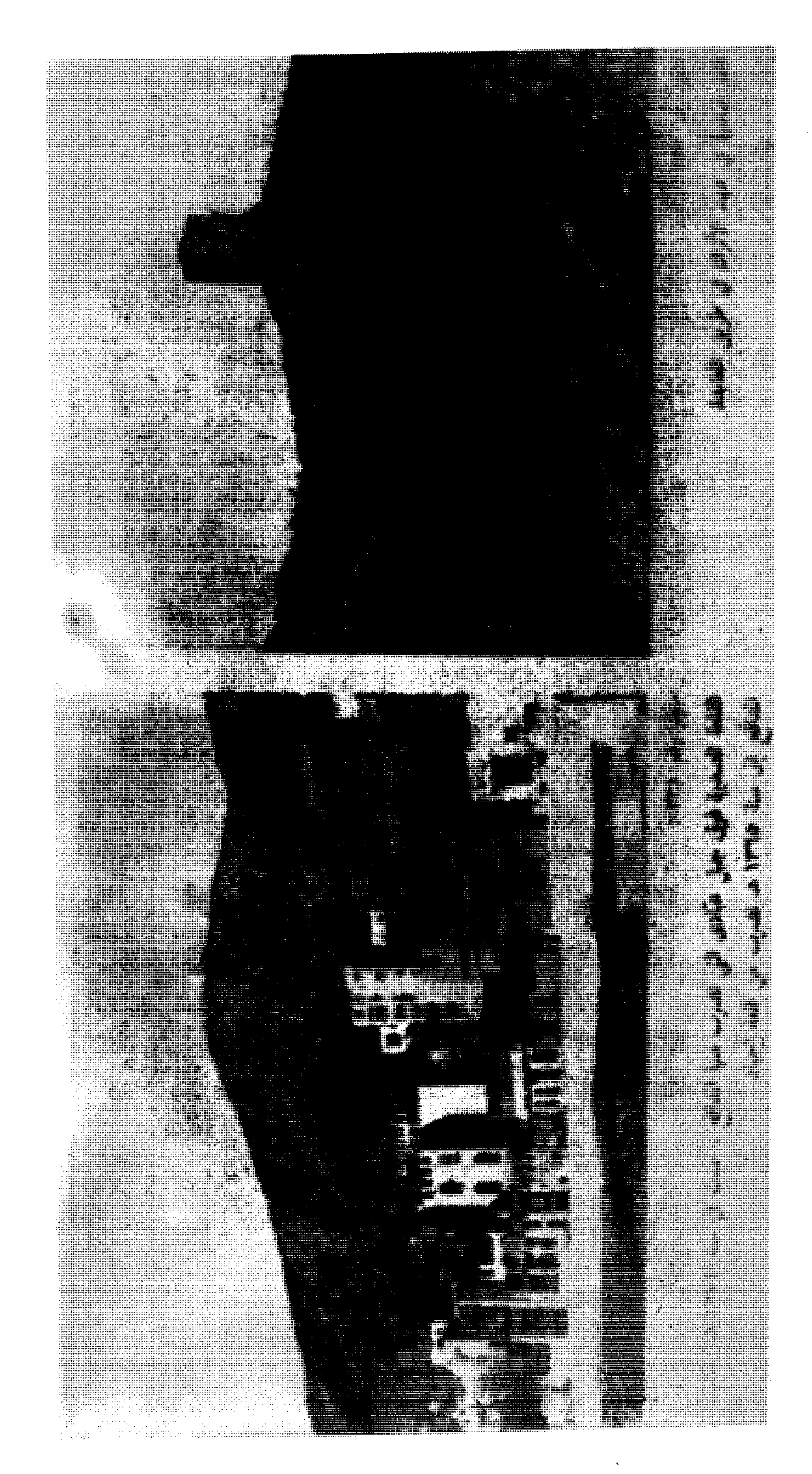
صورة رقم ٢١٢



صورة رقم ٢١٤



صورة رقم ١٥

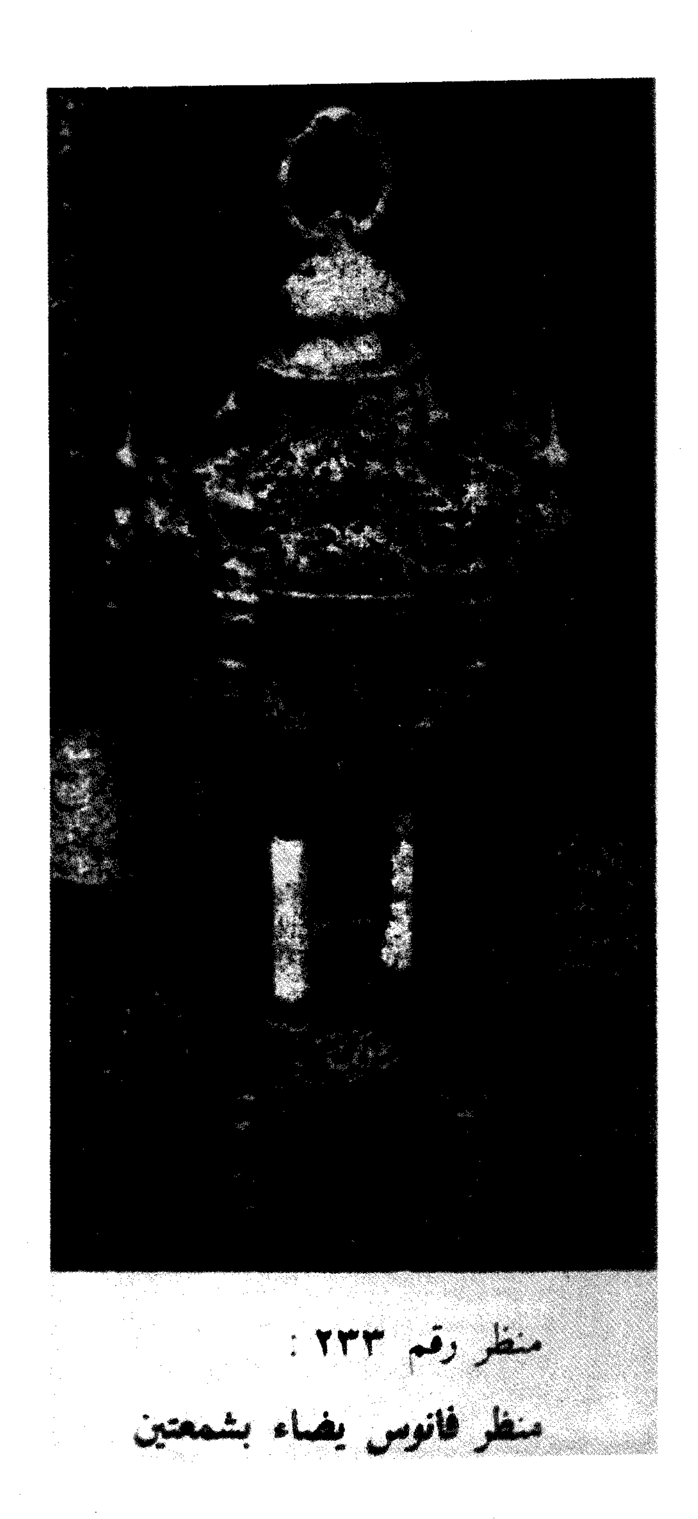


صورة رقم ٢١٦

صورة رقم ٢١٧



صورة رقم ٢١٨



منظر رقم ٢٣٣ :
منظر فانوس يضاء بشمعتين

صورة رقم ٢١٩


منظر رقم ٢٣٤ :
صورة لمسحراتي أحد البلاد العربية

صورة رقم ٢٢٠



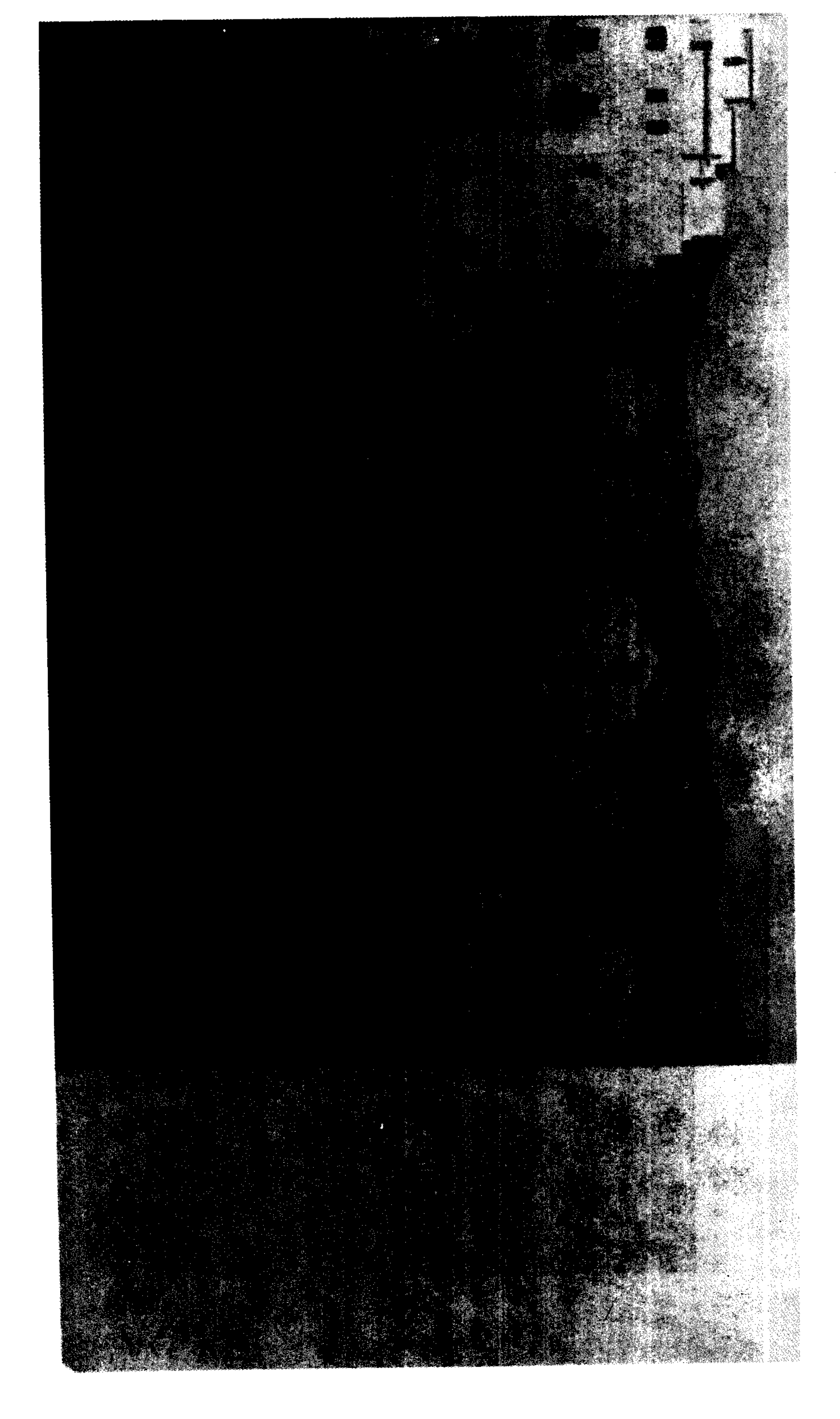
صورة رقم ٢٢١



صورة رقم ٢٢٢



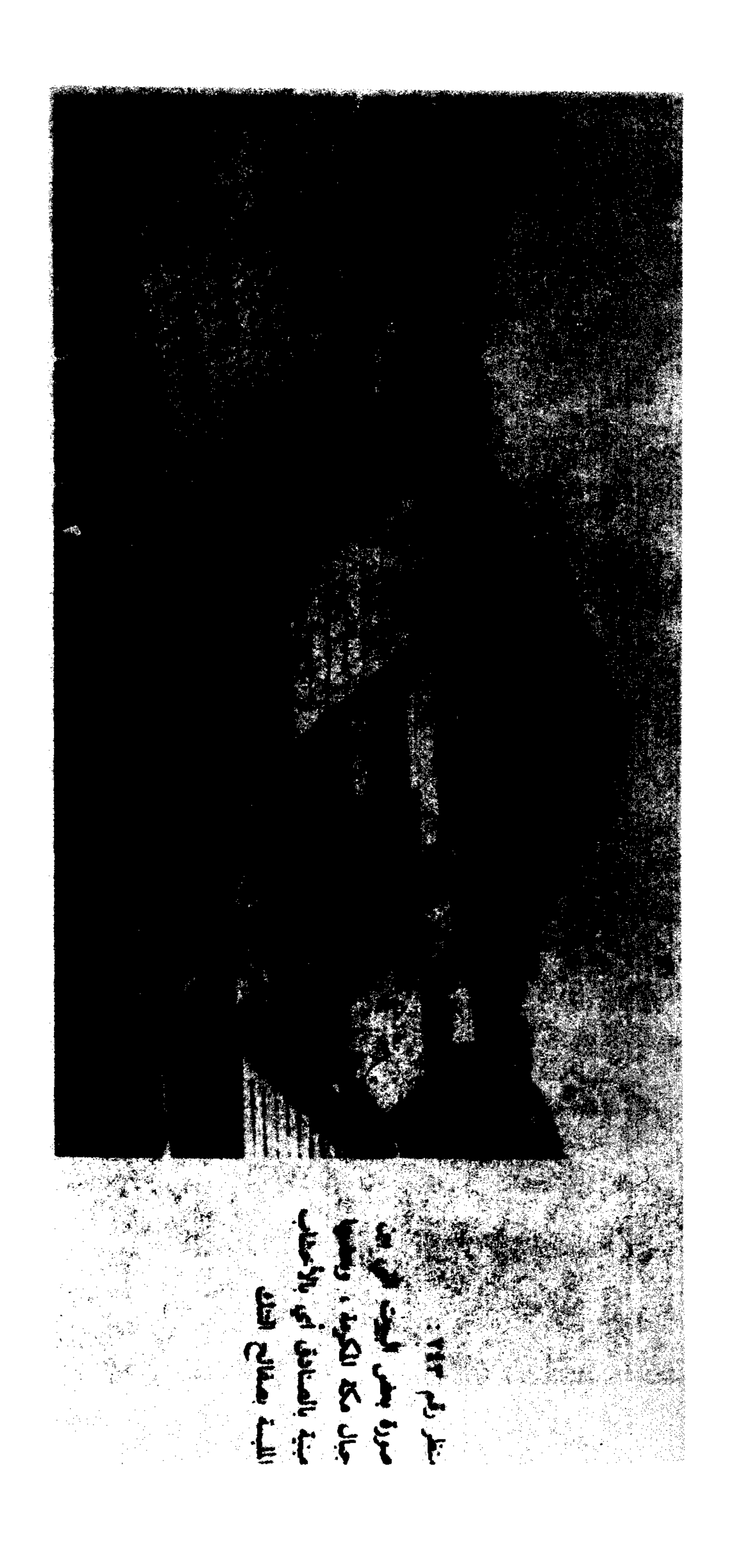
صورة رقم ٢٢٣



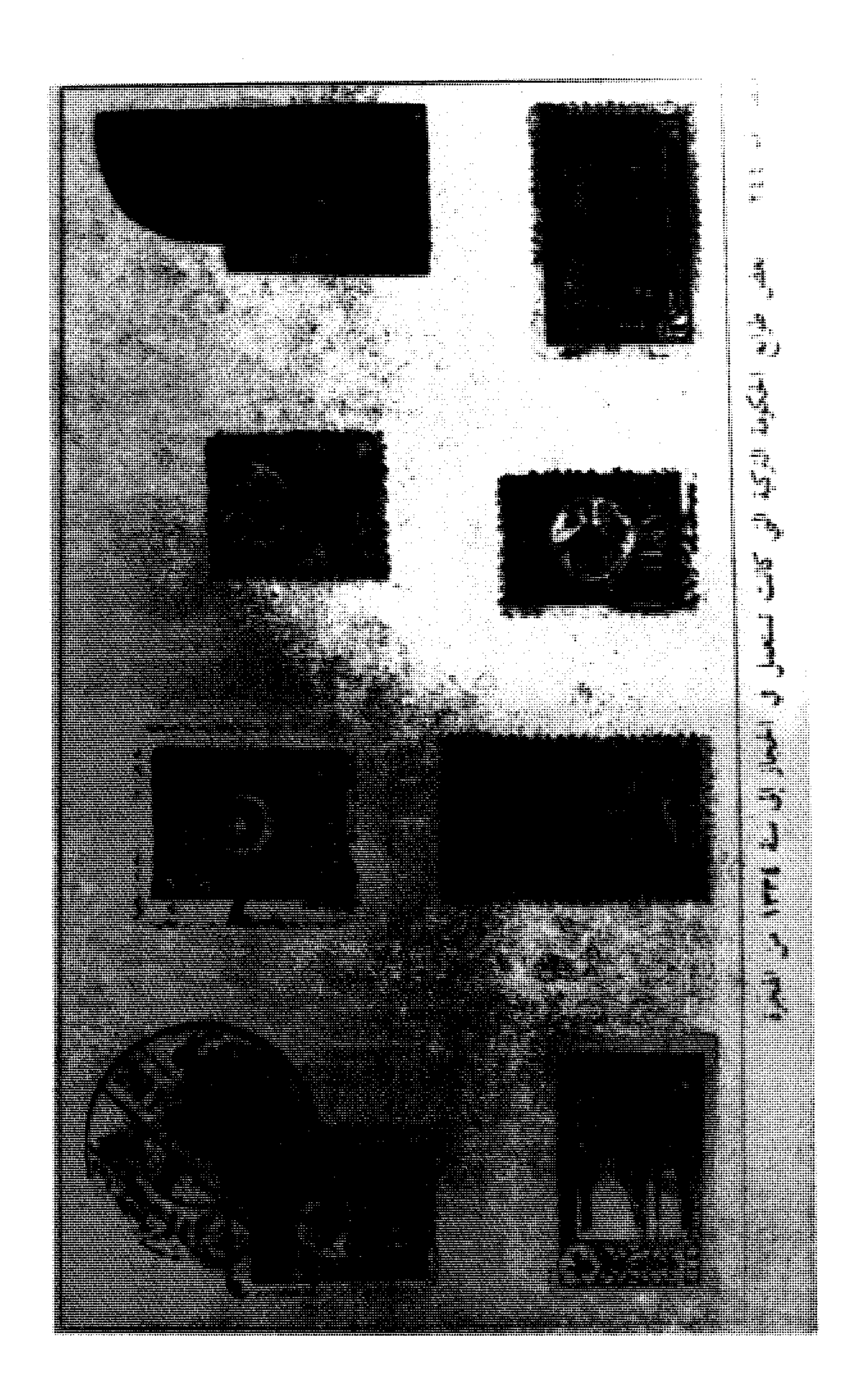
صورة رقم ٢٢٤



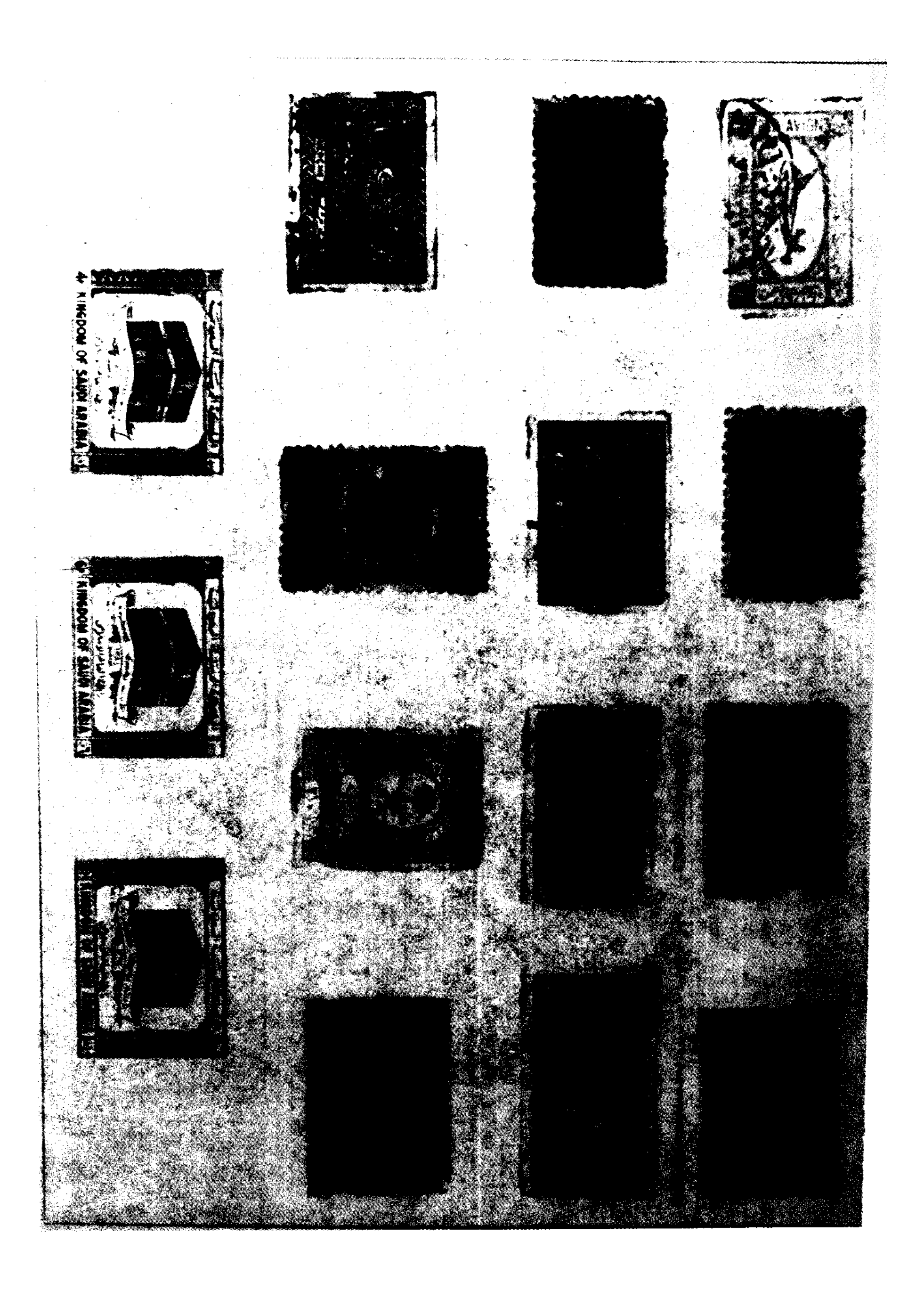
صورة رقم ٢٢٥



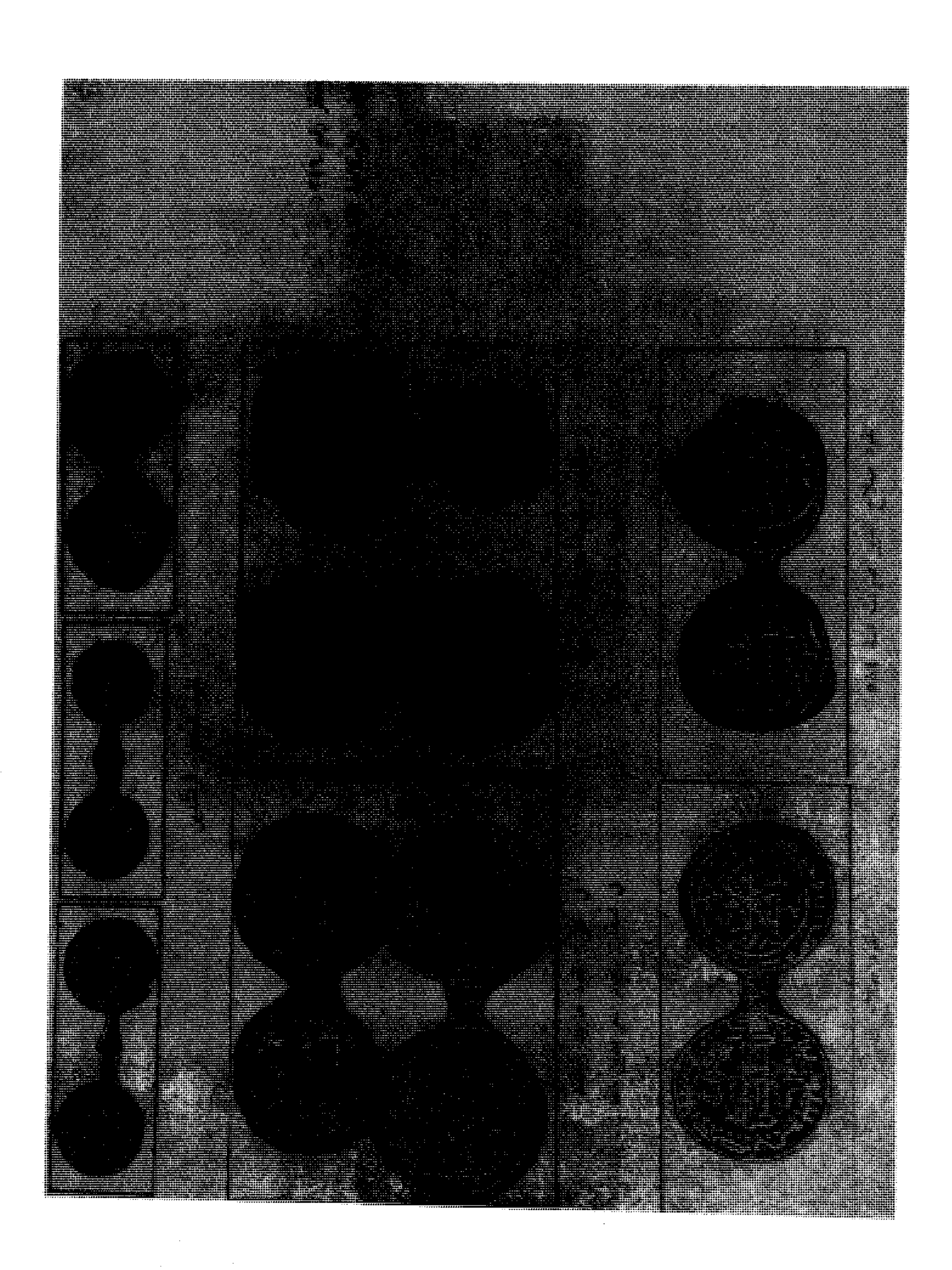
صورة رقم ٢٢٦



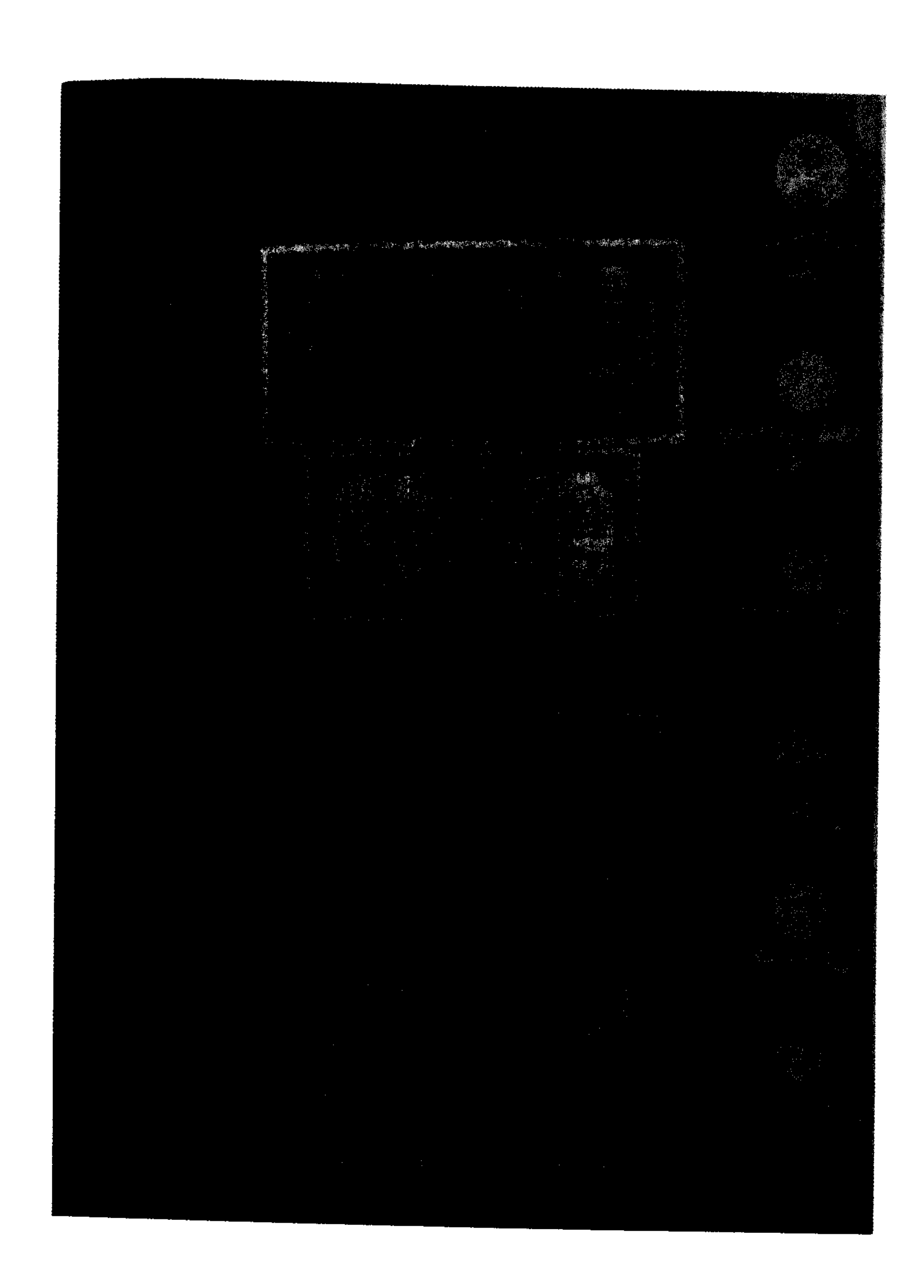
صورة رقم ٢٢٧

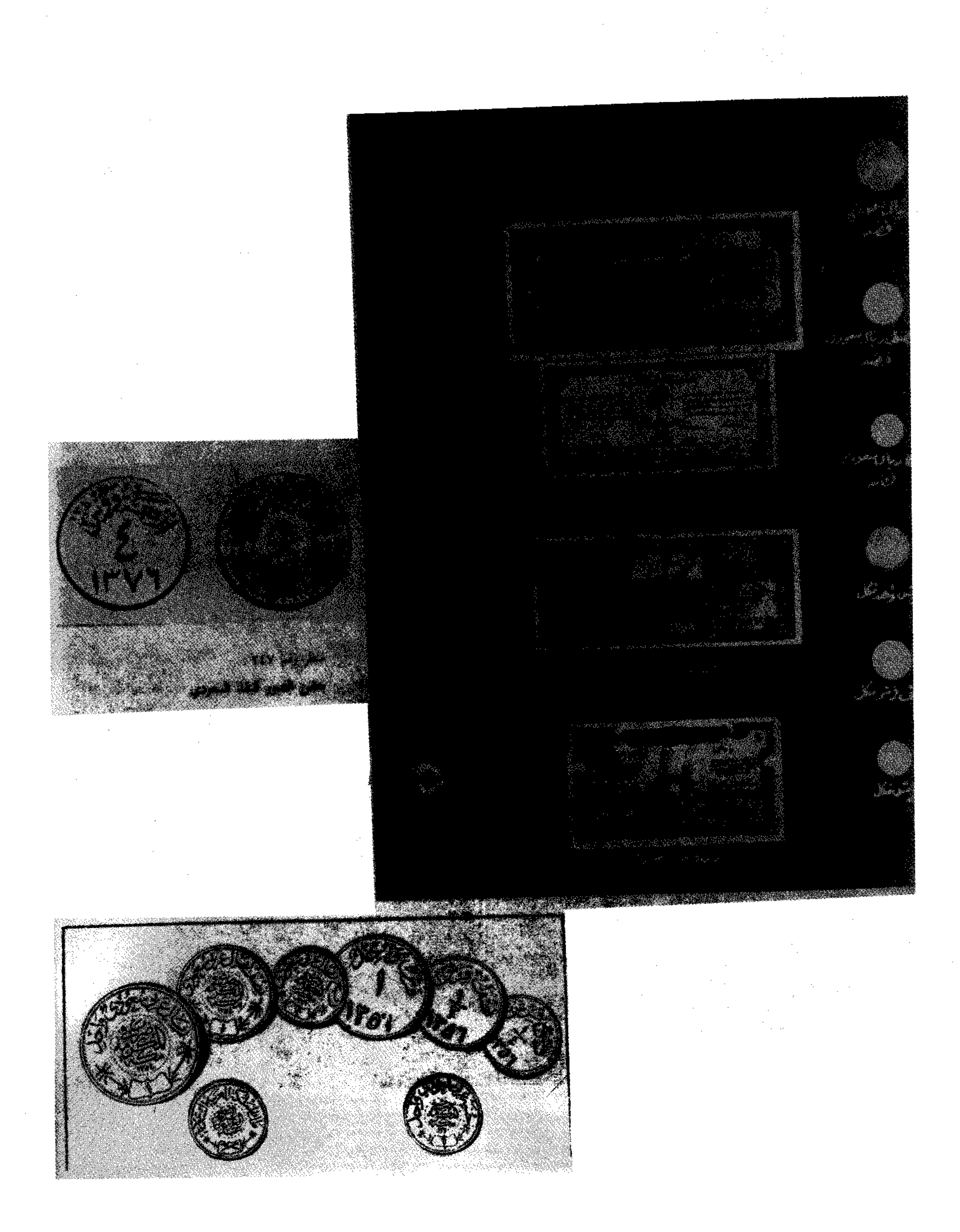


صورة رقم ٢٢٨

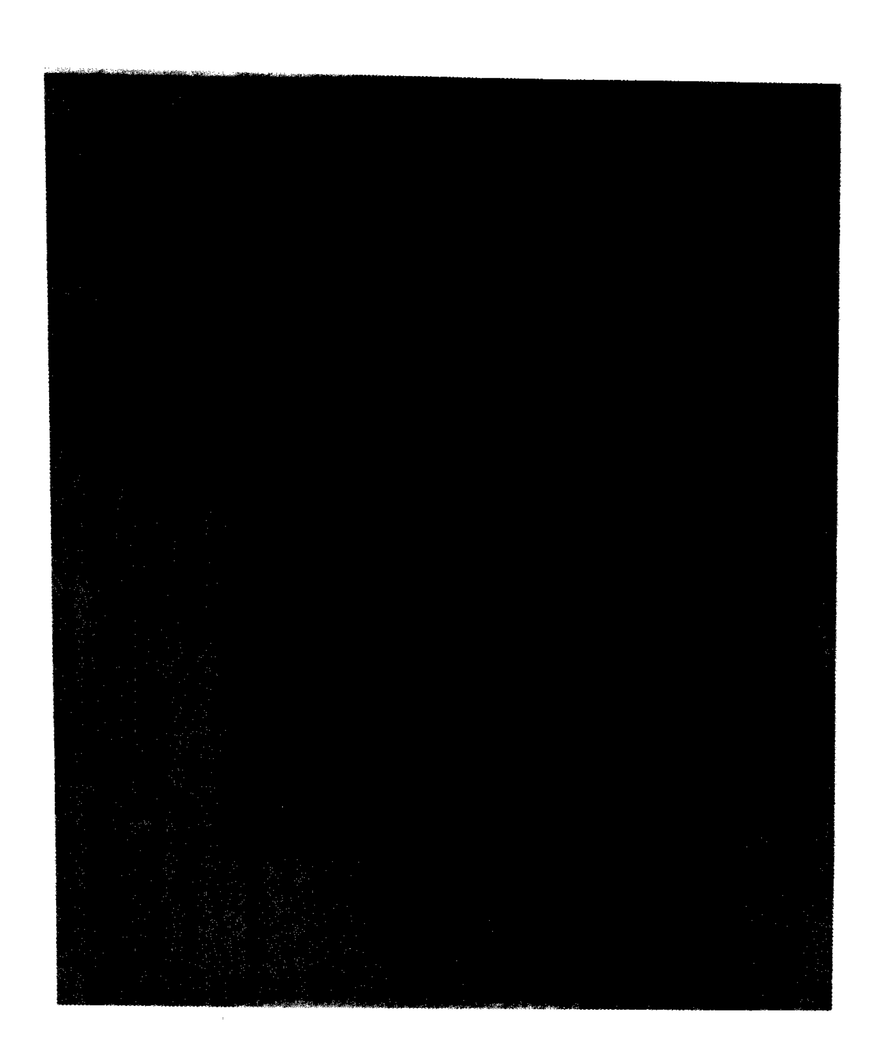


صورة رقم ٢٢٩

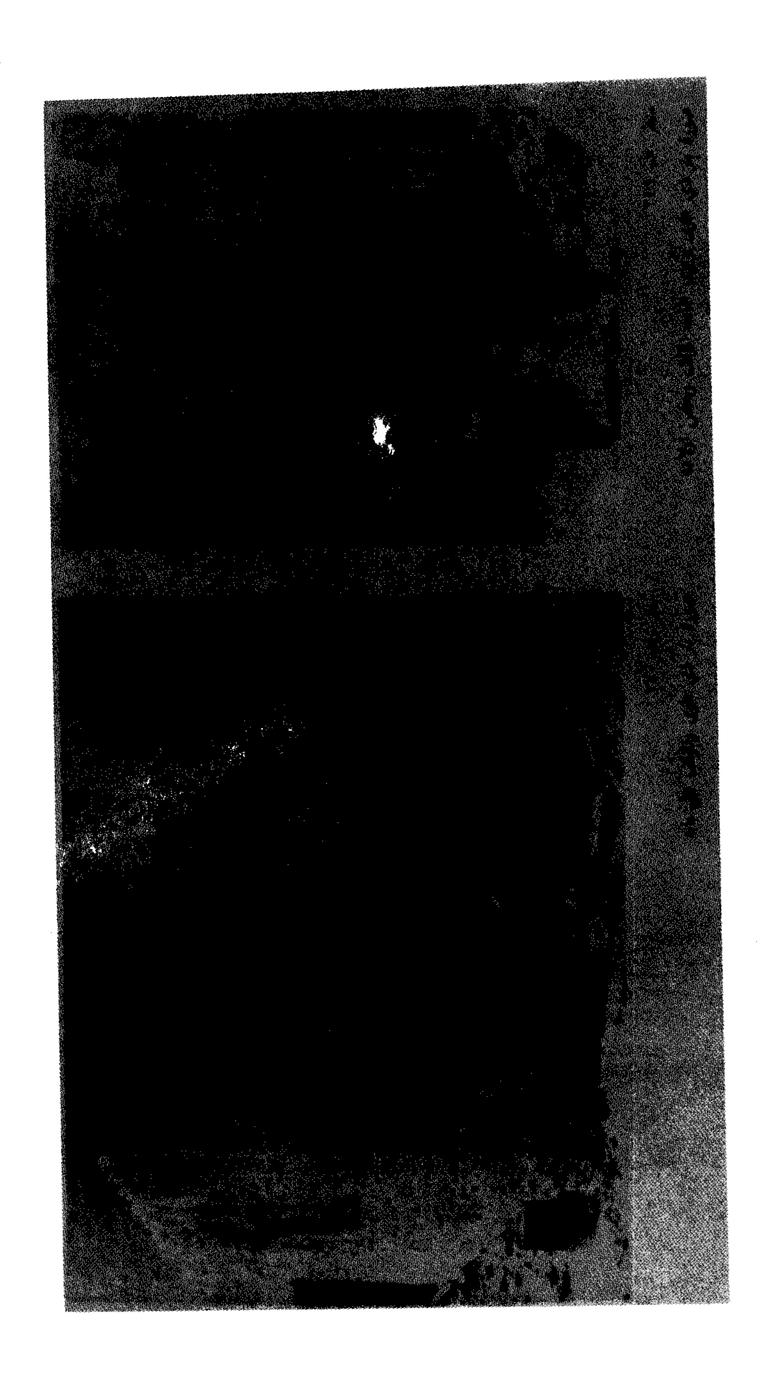




صورة رقم ٢٣٠

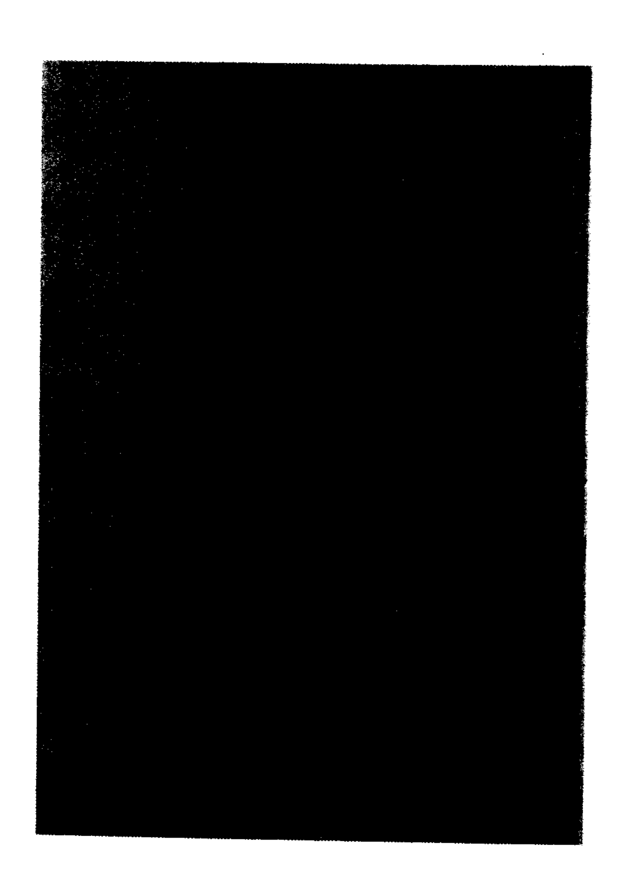


صورة رقم ٢٣١

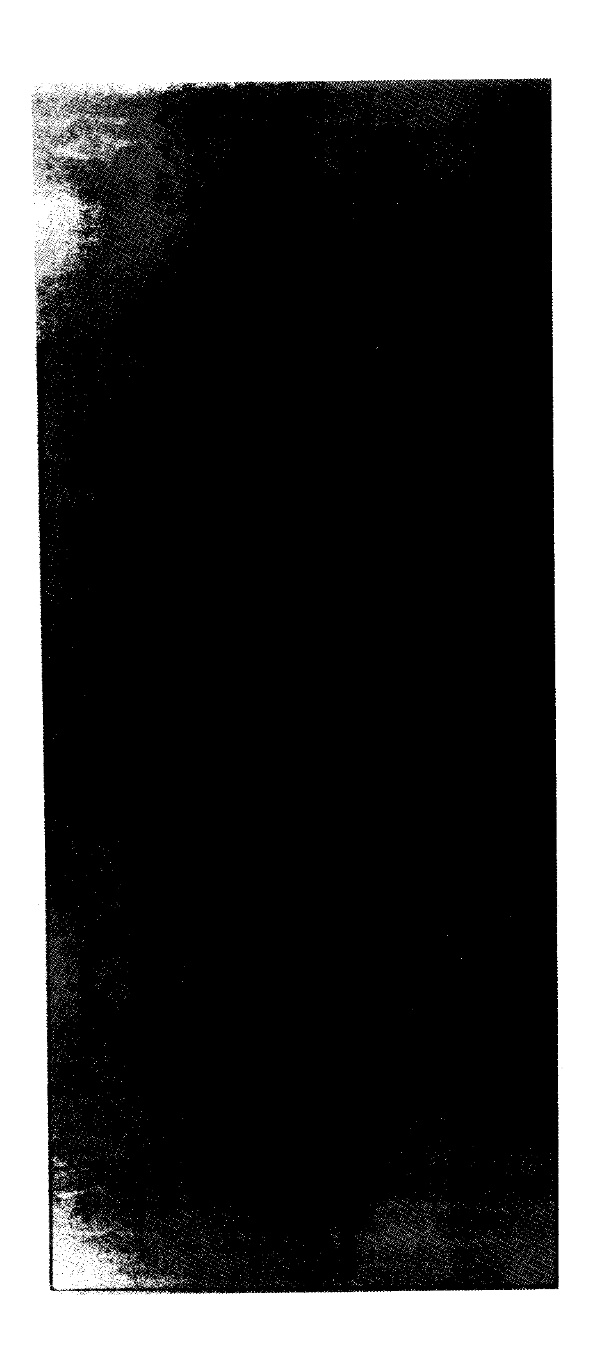


صورة رقم ٢٣٢

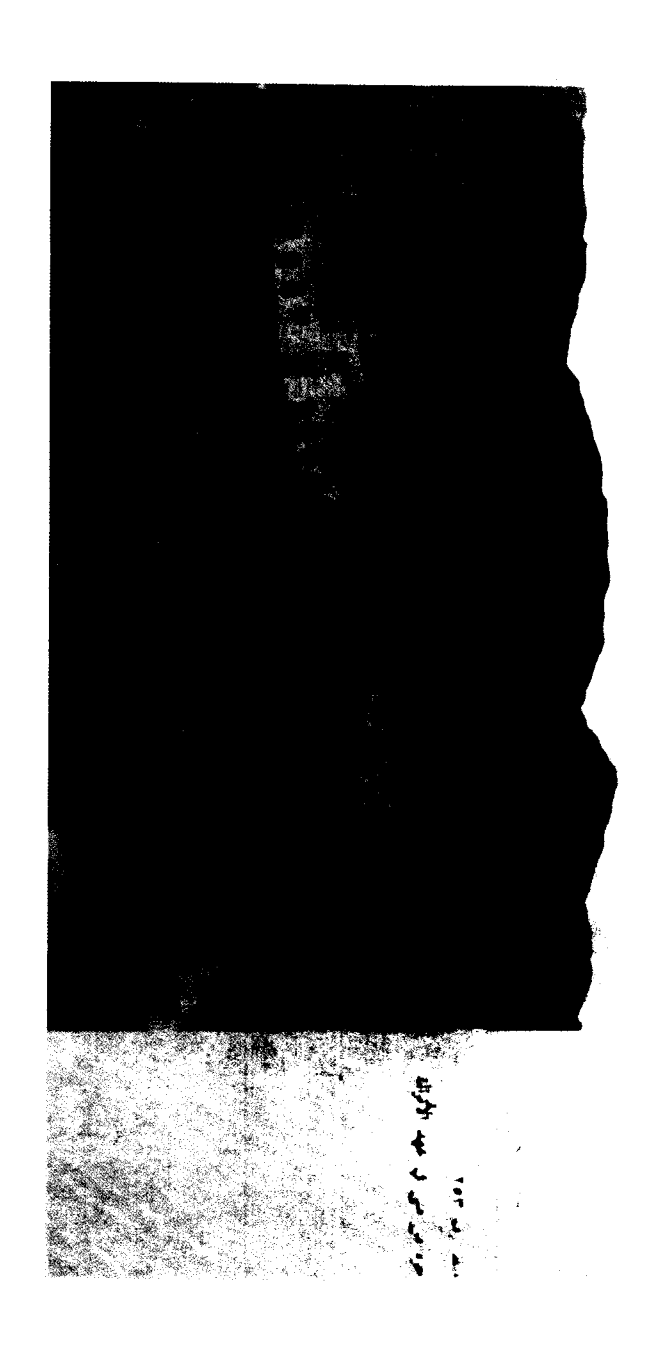
صورة رقم ٢٣٣



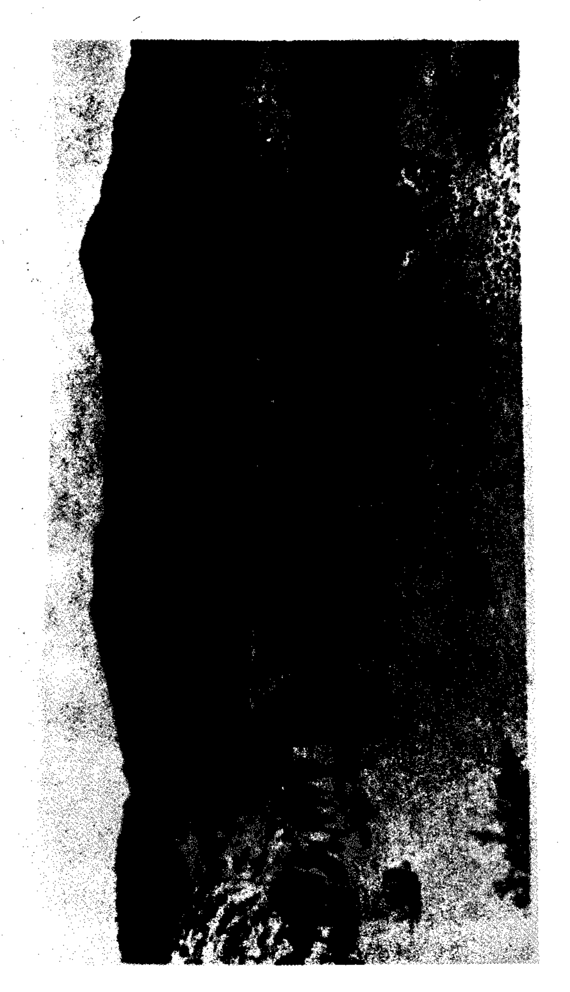
صورة رقم ٢٣٤



صورة رقم ٢٣٥

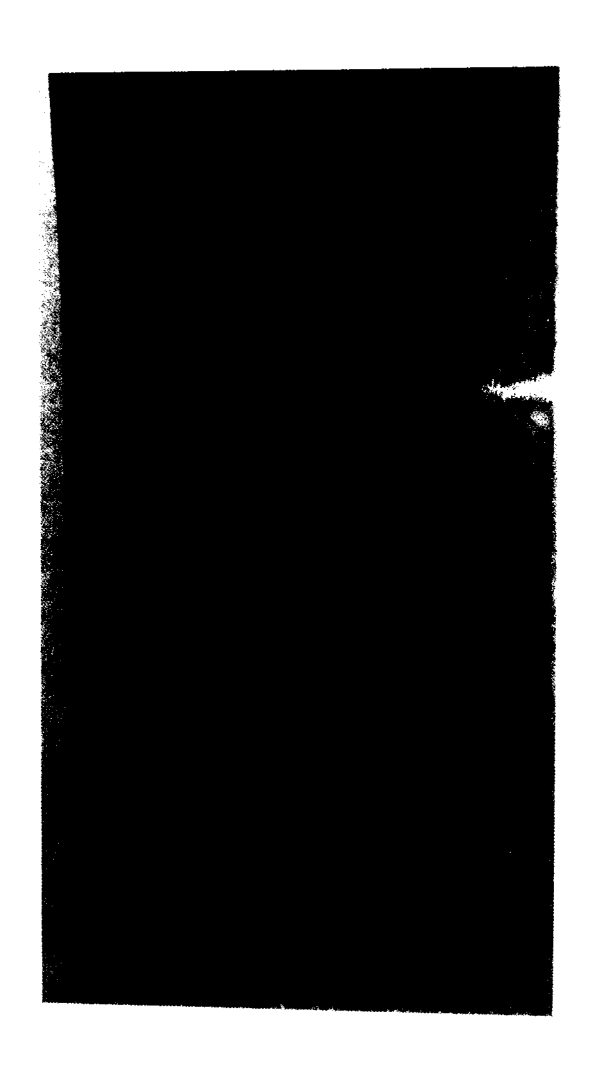


صورة رقم ٢٣٦

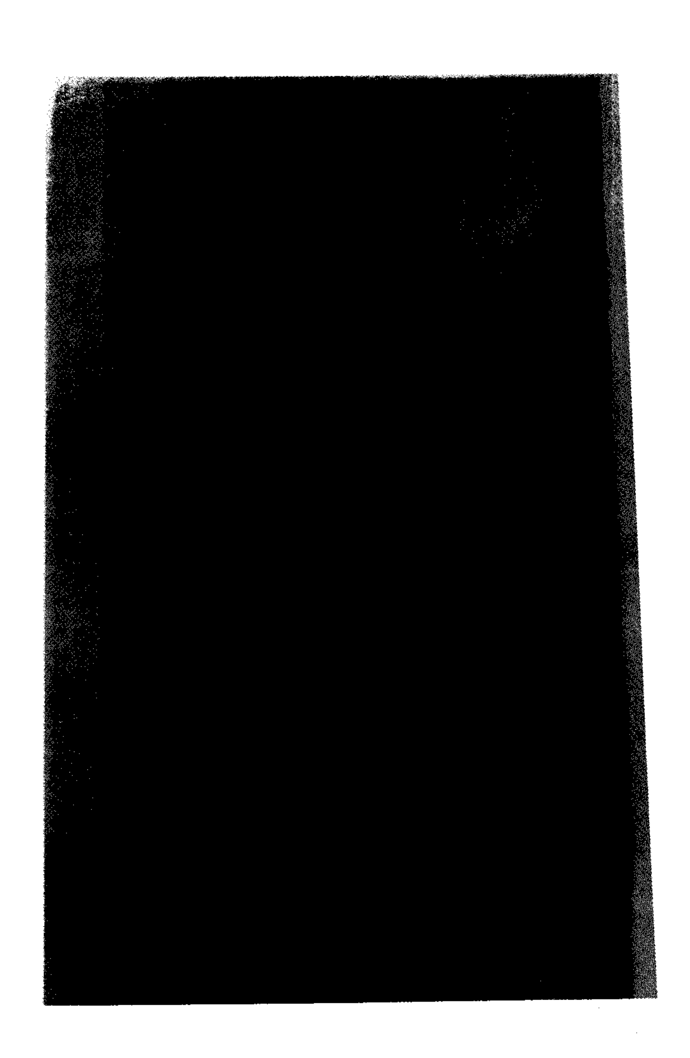


منظر رقم ٢٥٥ :

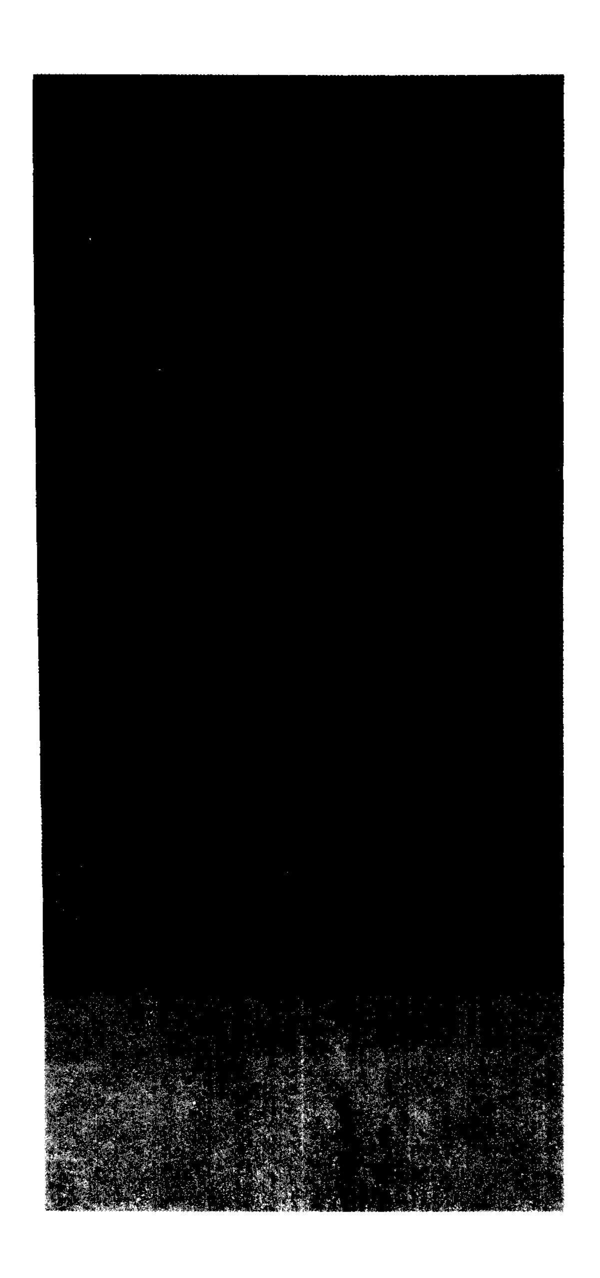
صورة رقم ٢٣٧



صورة رقم ٢٣٨



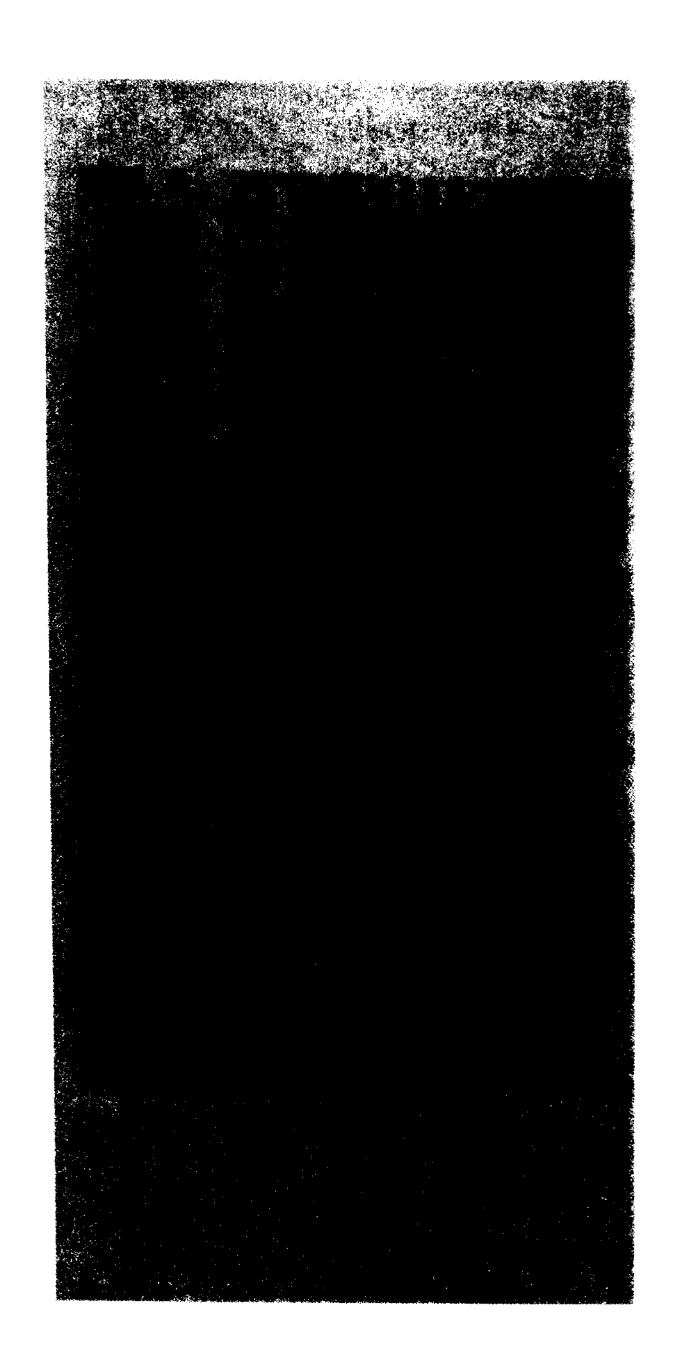
صورة رقم ٢٣٩



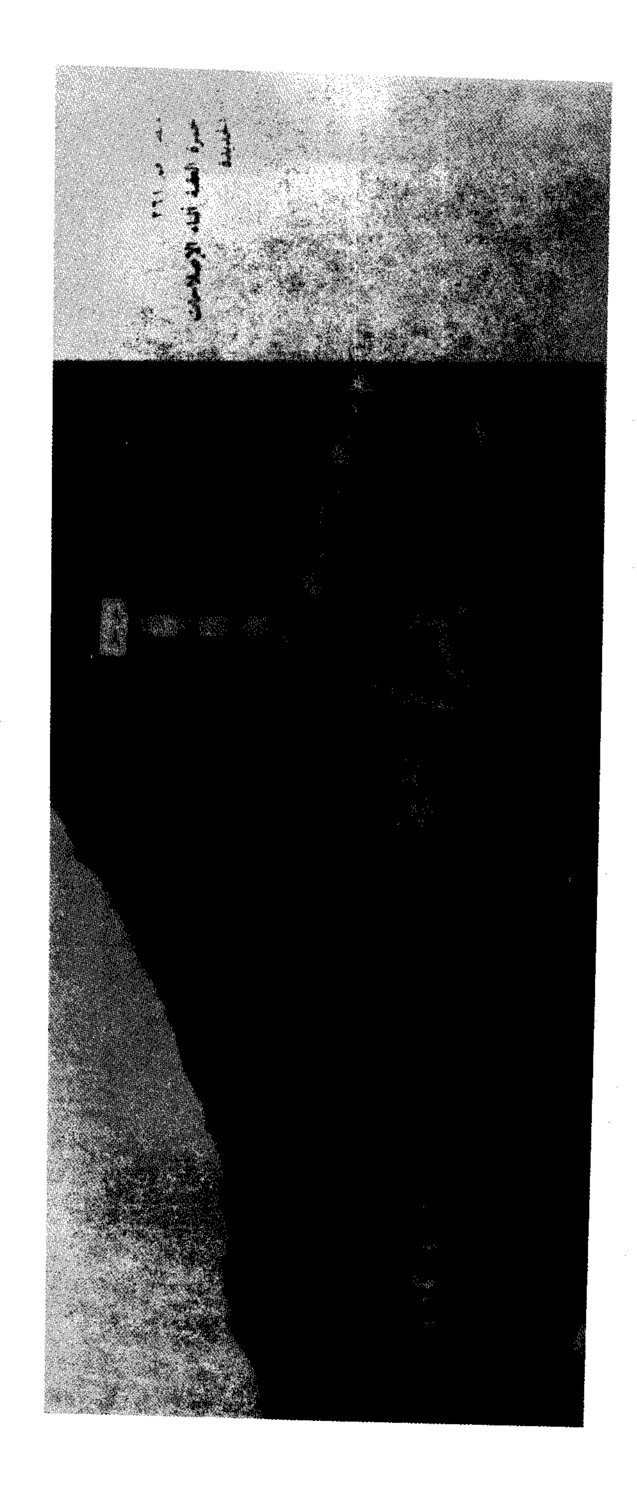
صورة رقم ٢٤٠



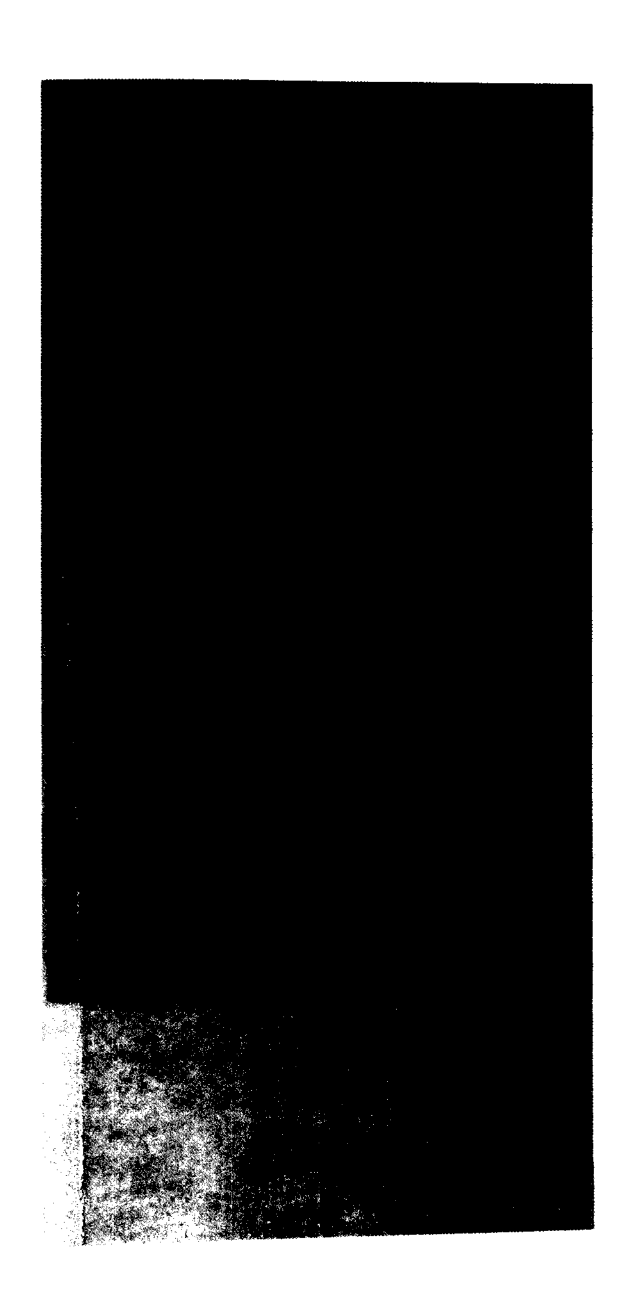
صورة رقم ٢٤١



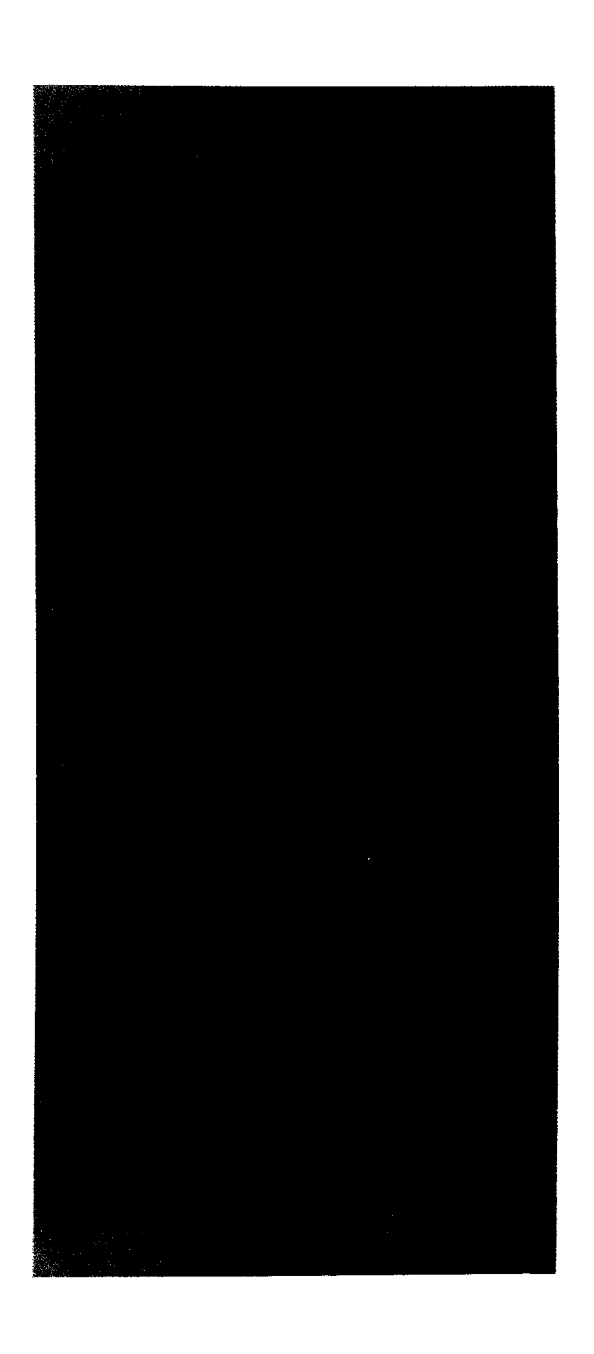
صورة رقم ٢٤٢



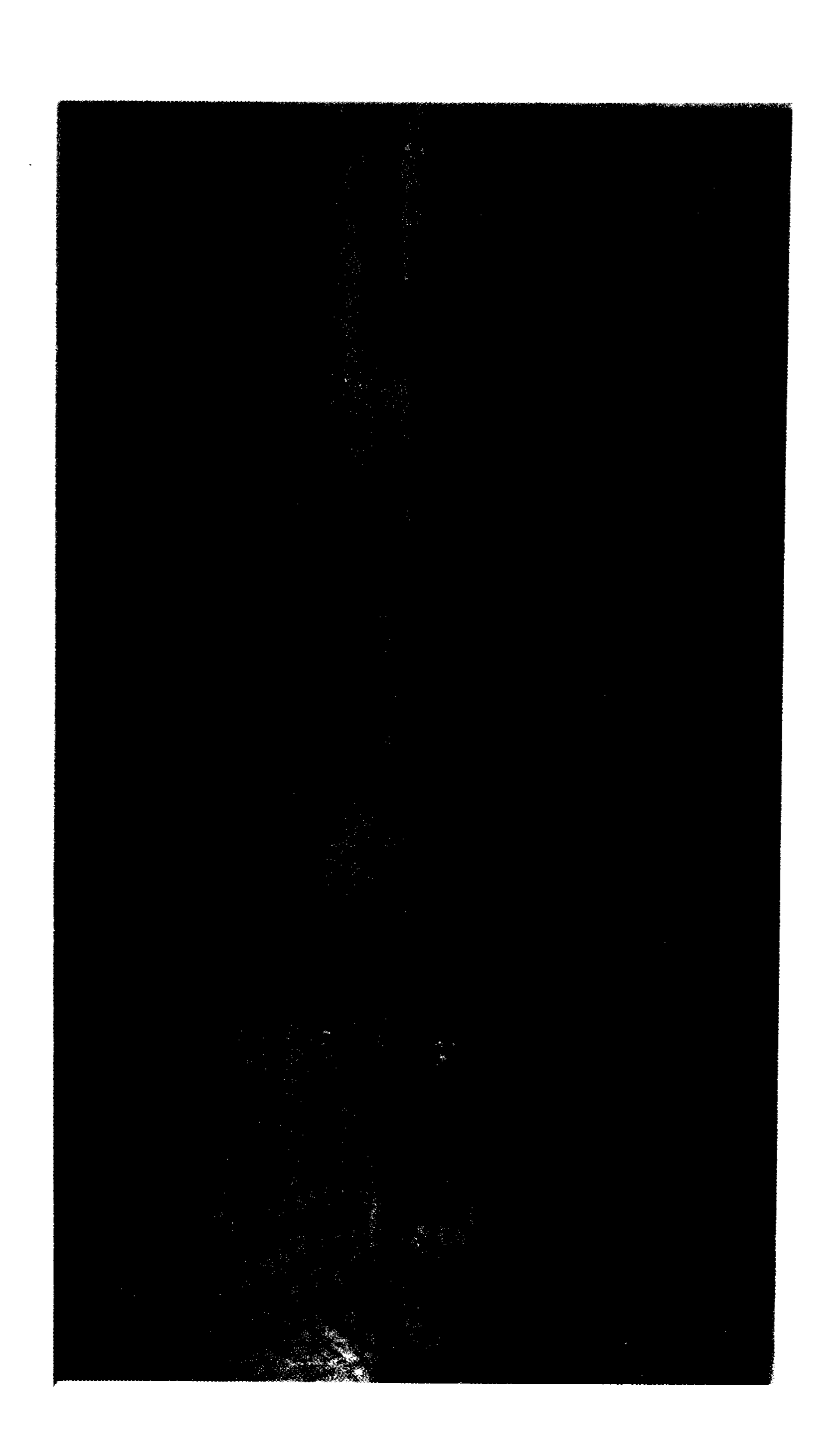
صورة رقم ٢٤٣



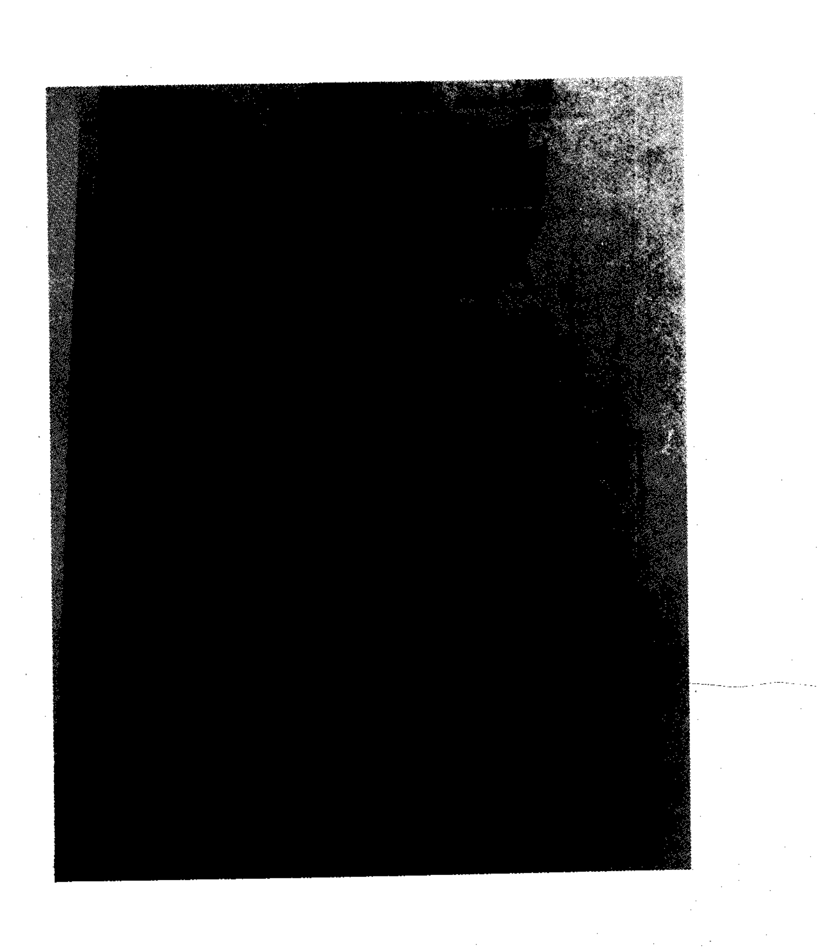
صورة رقم ٢٤٤



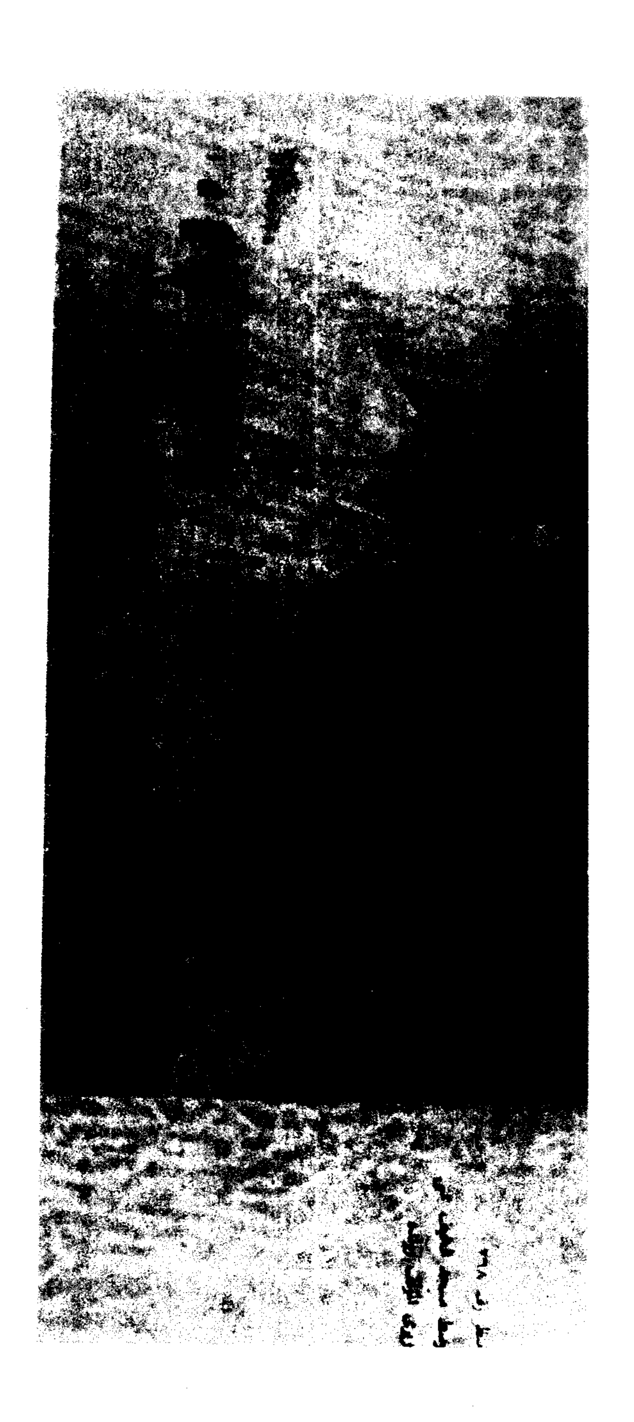
صورة رقم ٢٤٥



صورة رقم ٢٤٦



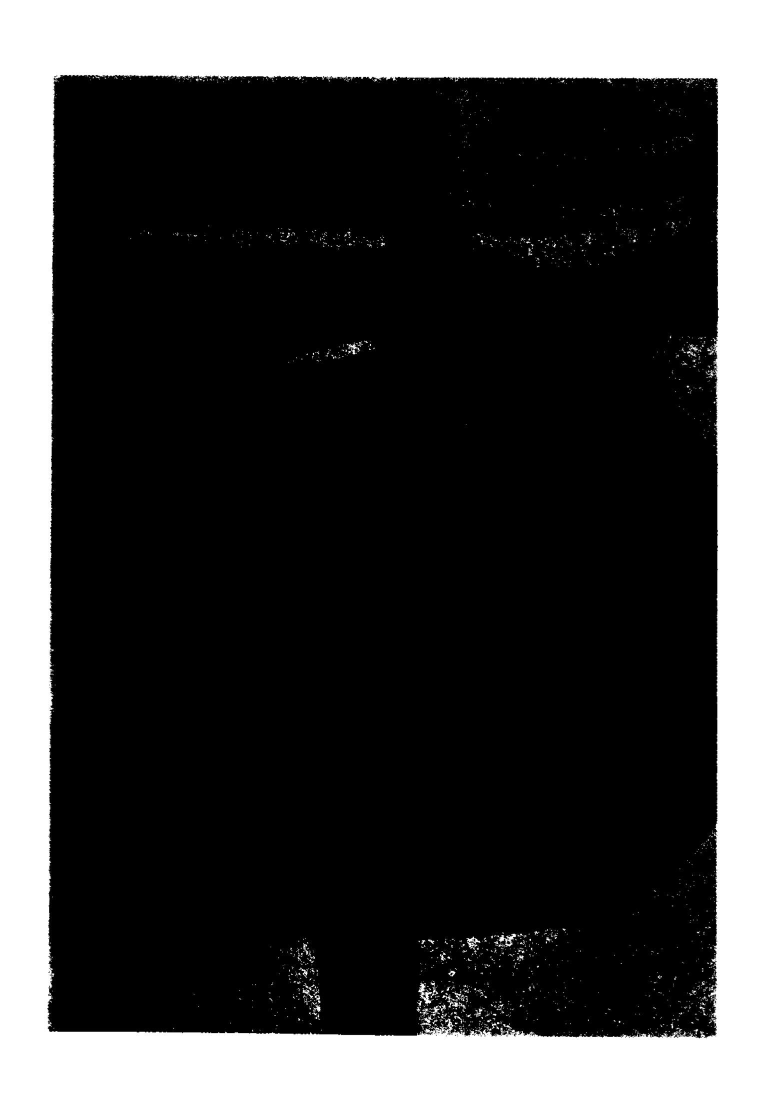
صورة رقم ٢٤٧



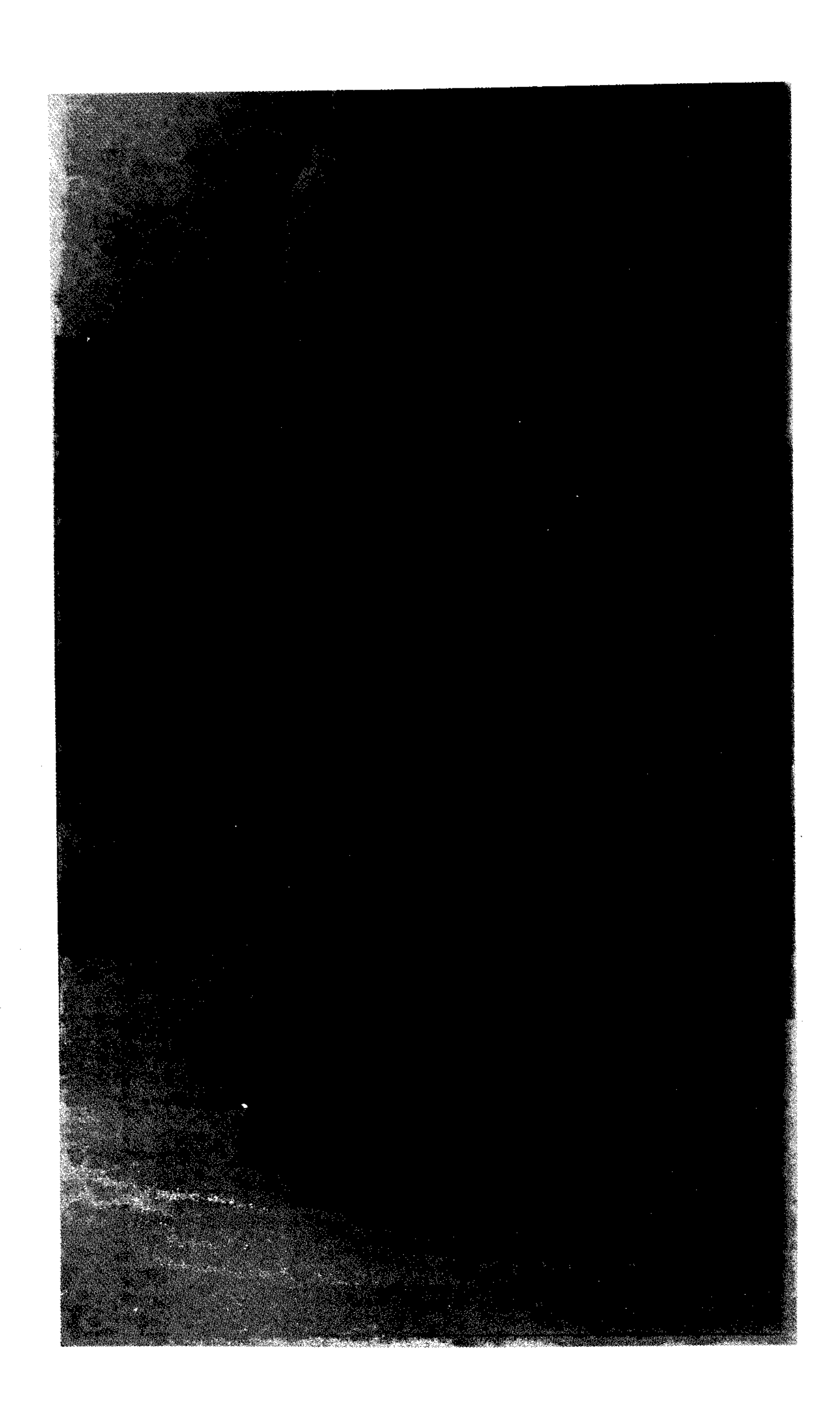
صورة رقم ٢٤٨



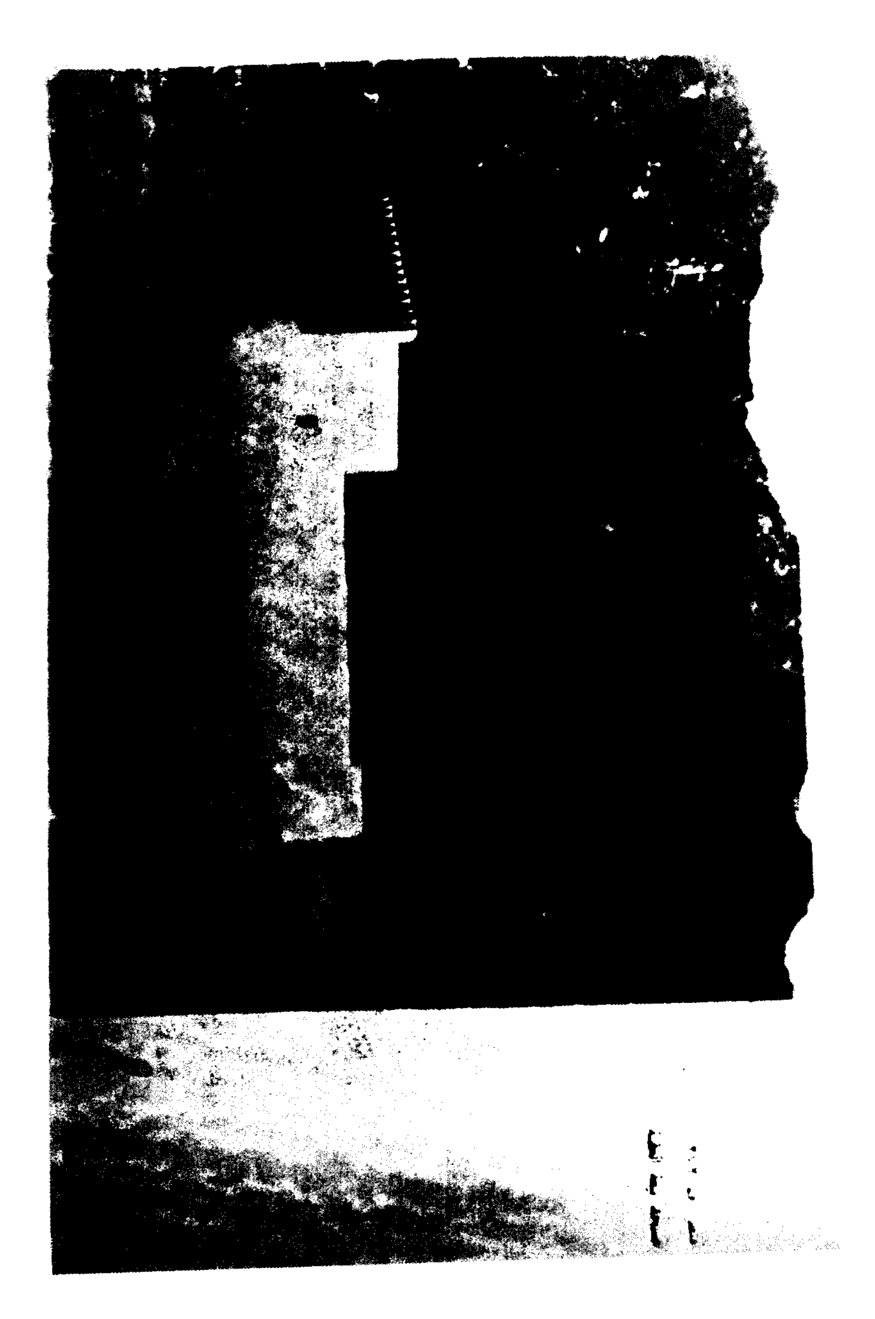
صورة رقم ٢٤٩



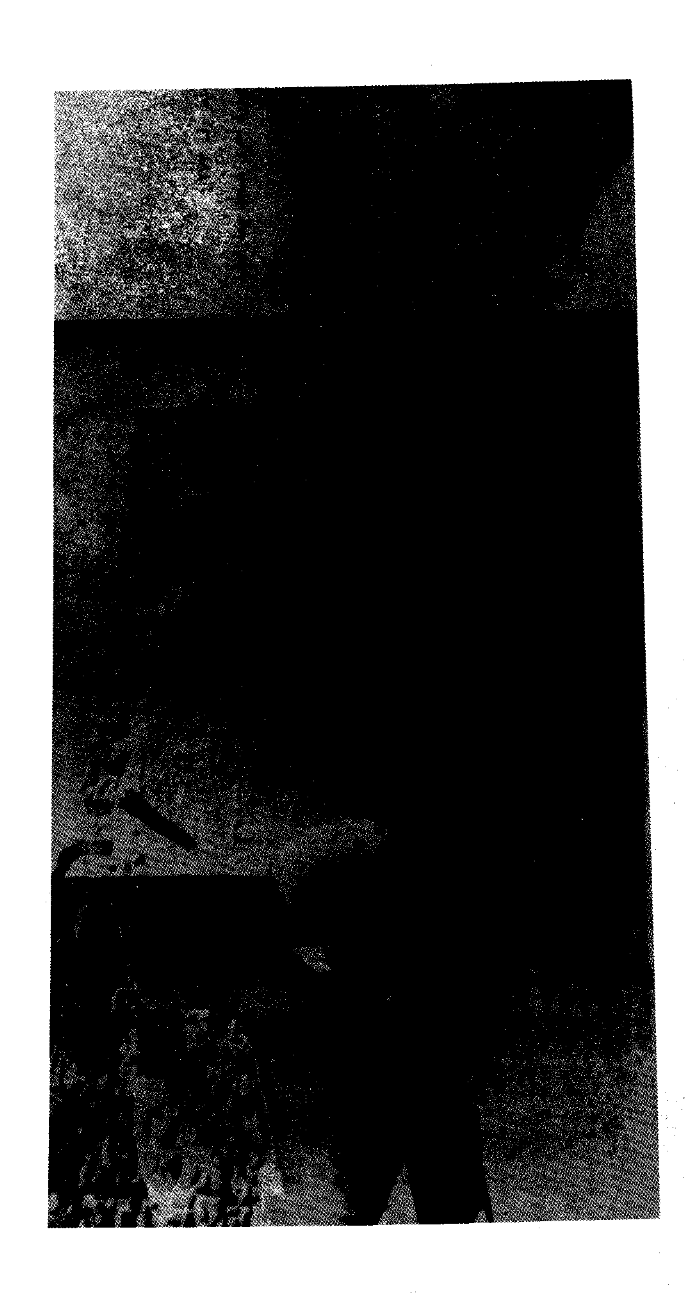
صورة رقم ١



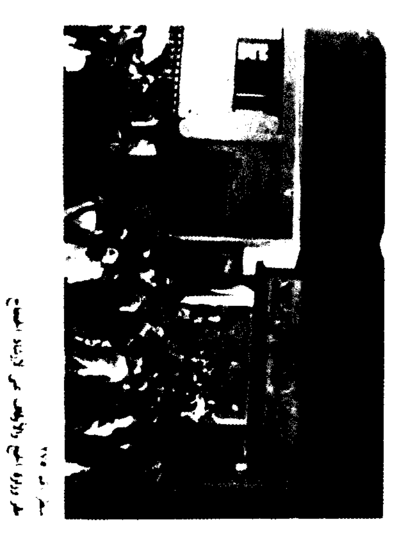
صورة رقم ٢٥١



صورة رقم ٢٥٢



صورة رقم ٢٥٣







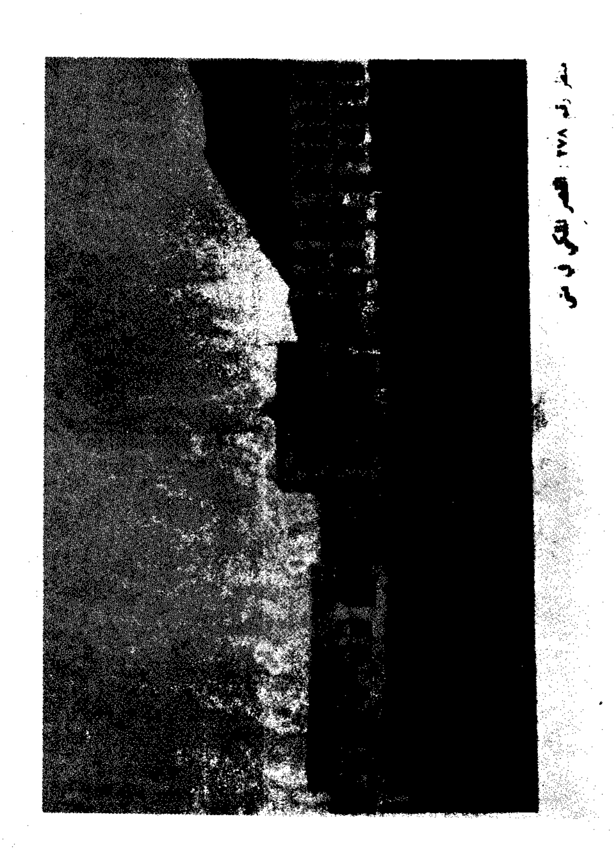


صورة رقم ٢٥٦

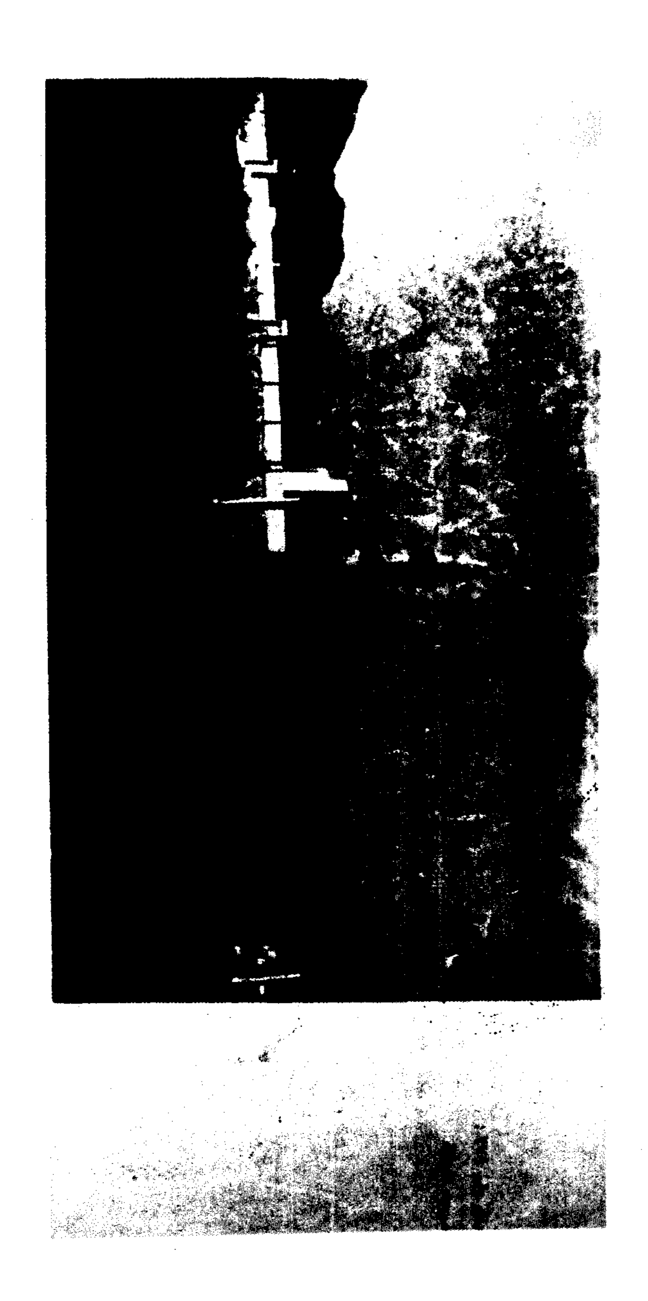
صورة رقم ٢٥٧

صورة رقم ٢٥٤

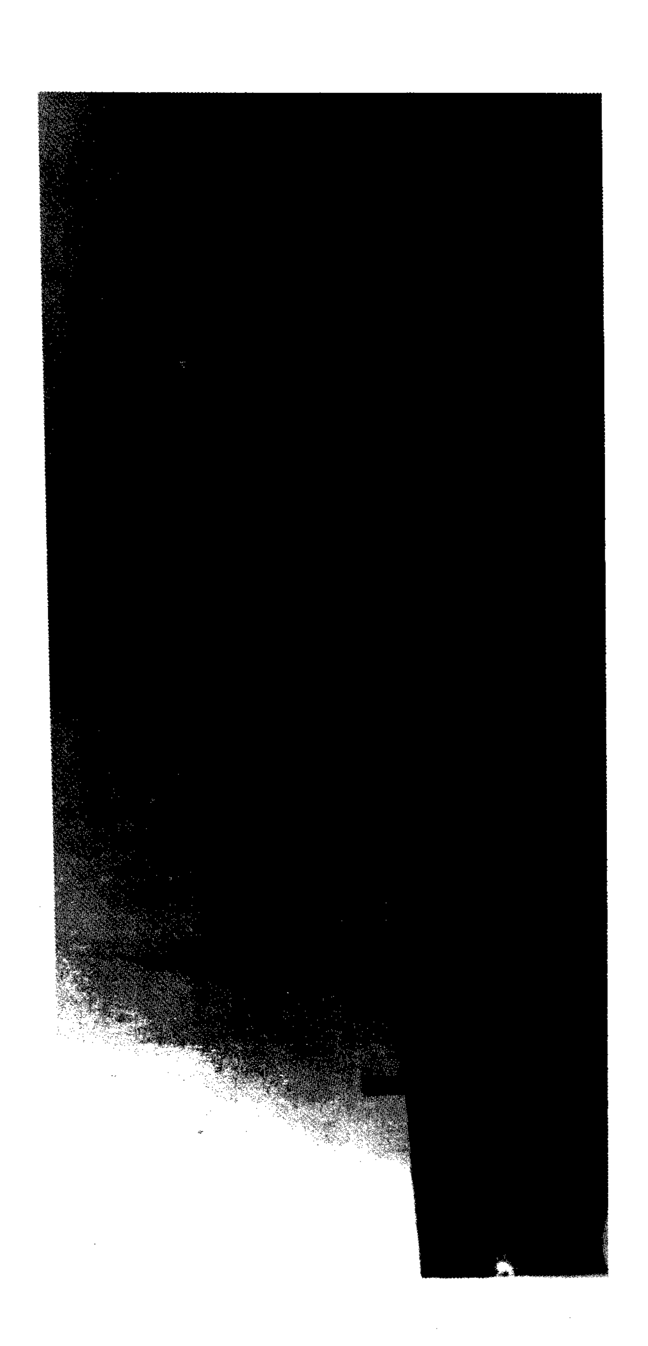
صورة رقم ٢٥٥



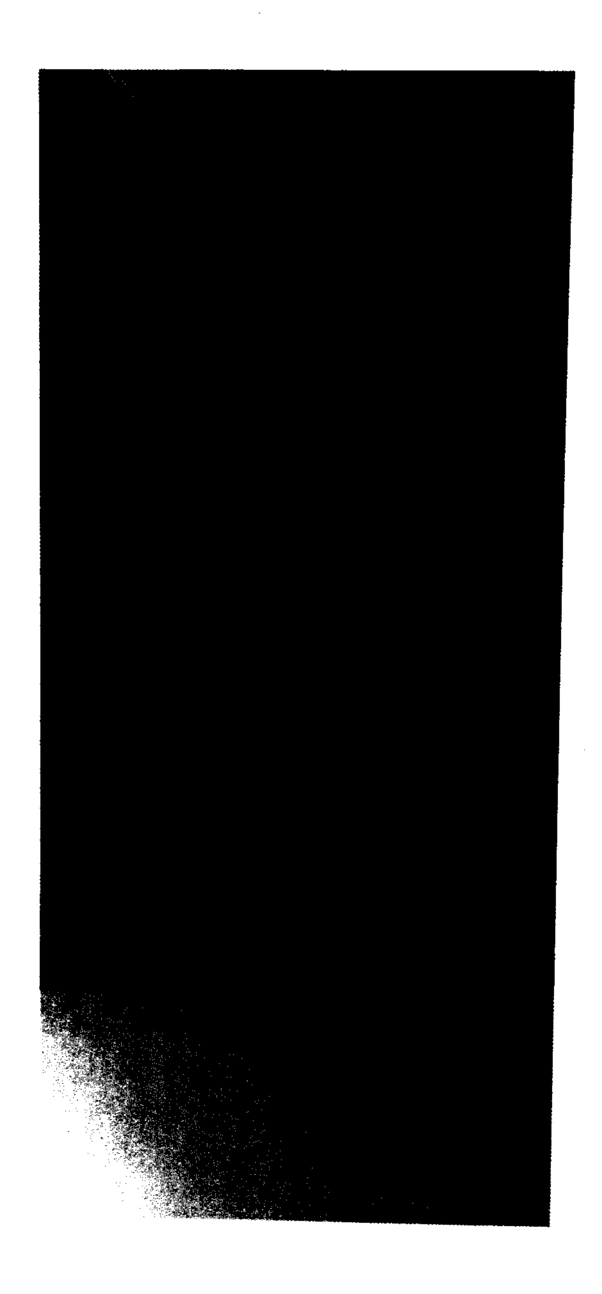
صورة رقم ٢٥٨



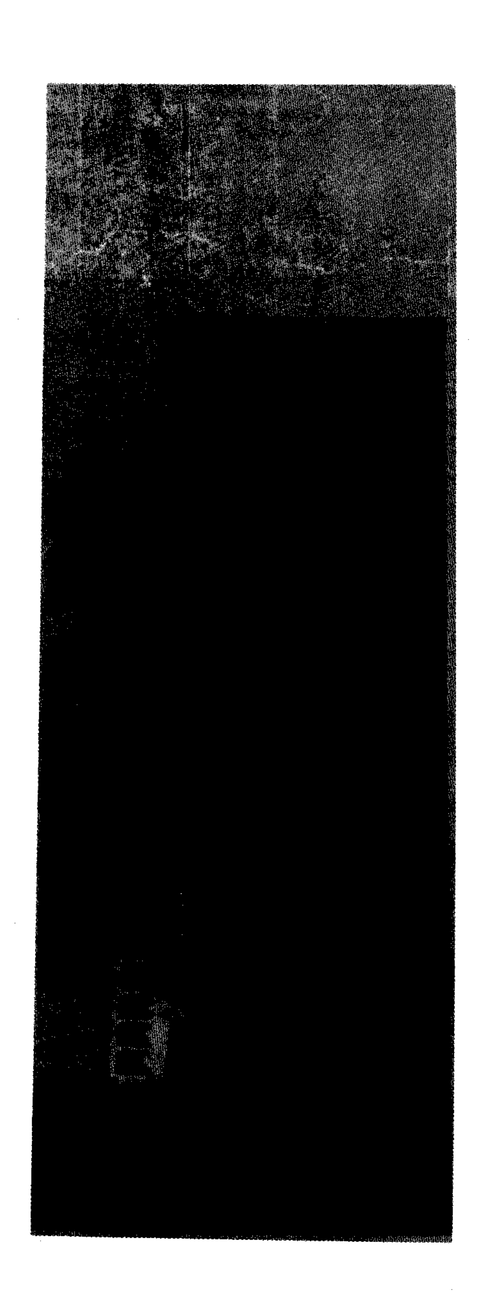
صورة رقم ٢٥٩



صورة رقم ٢٦٠



صورة رقم ٢٦١

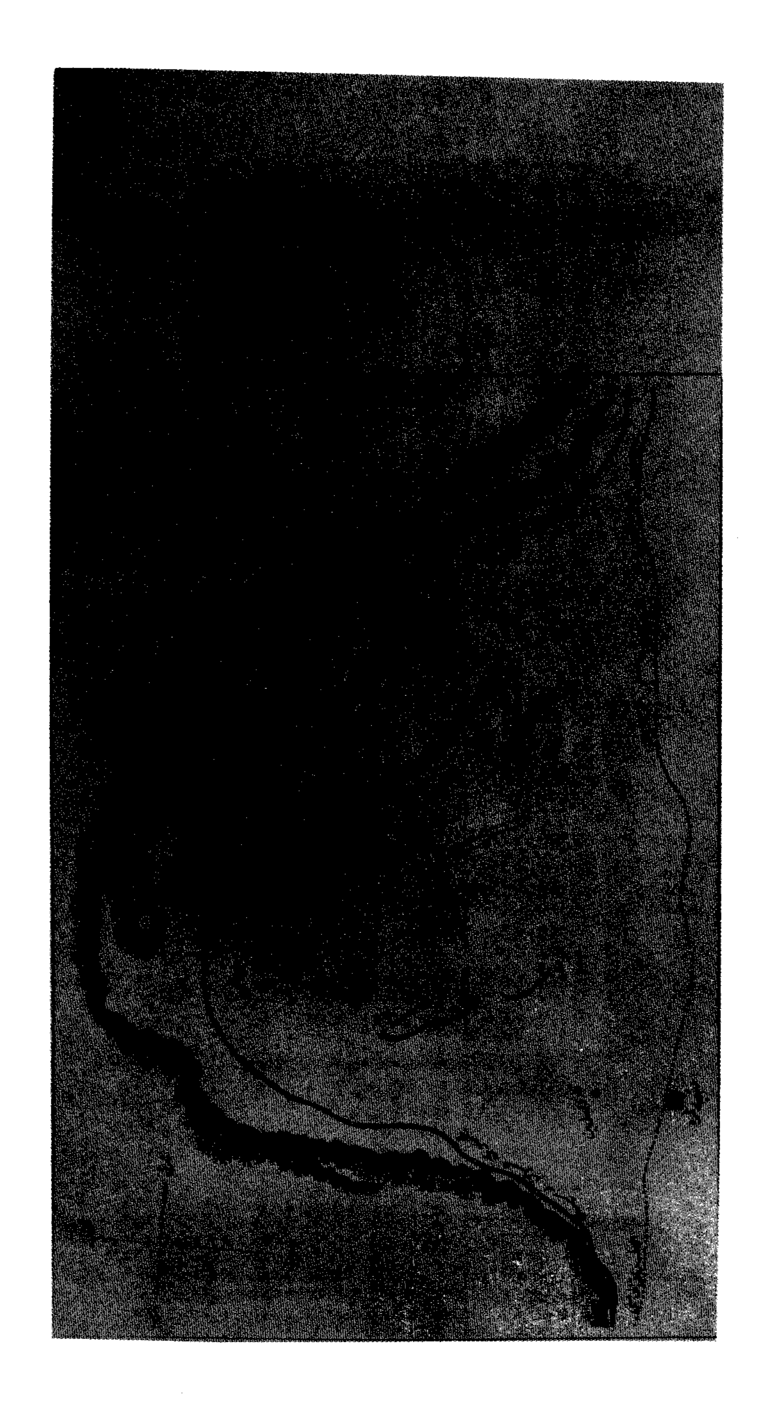


صورة رقم ٢٦٢

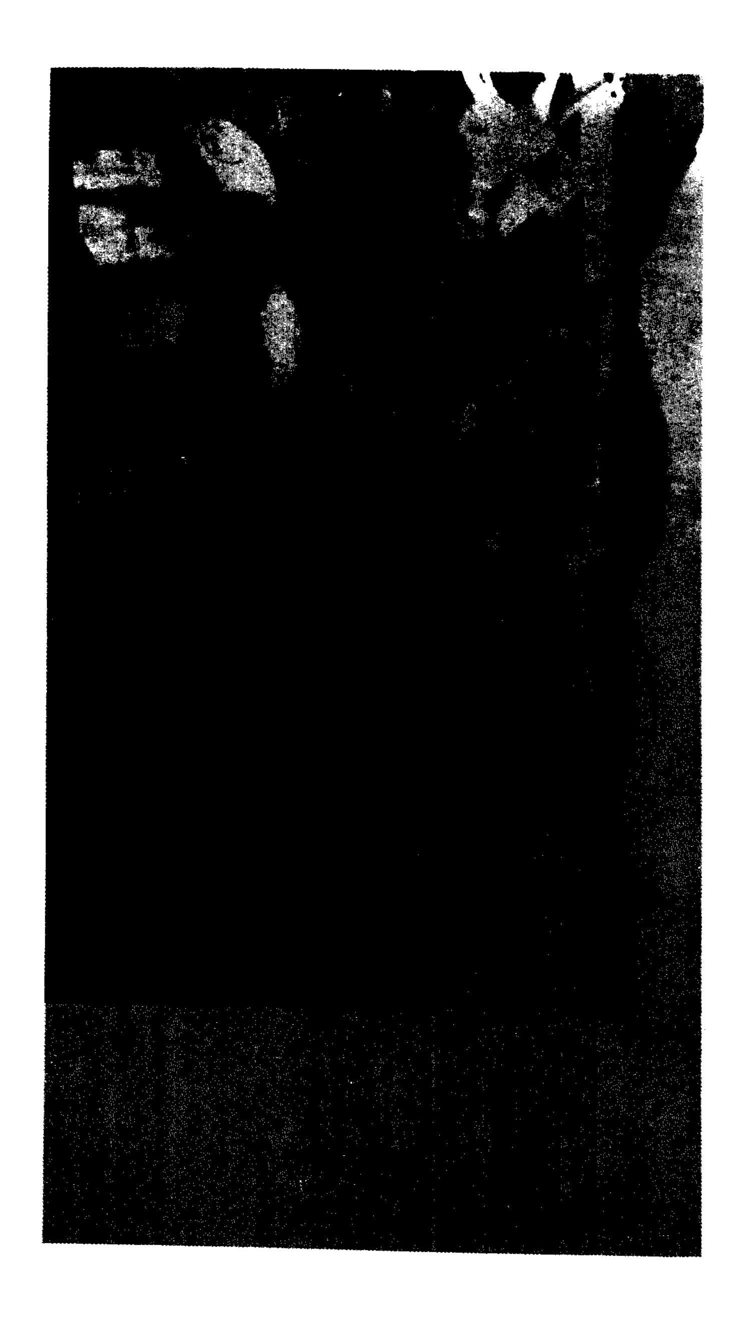


... الحكومة بالمزدلفة ، لراحة الحجاج

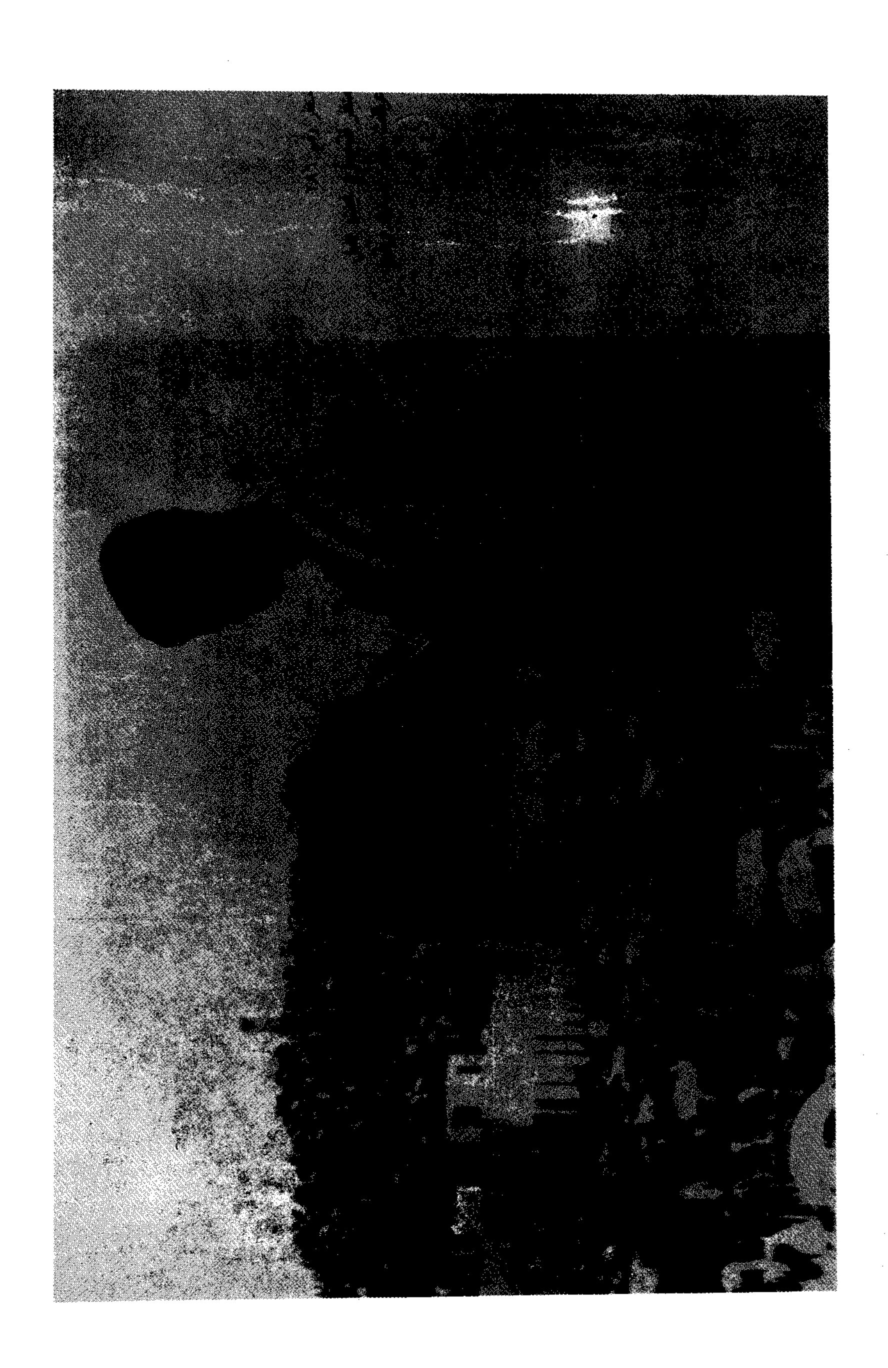
صورة رقم ٢٦٣



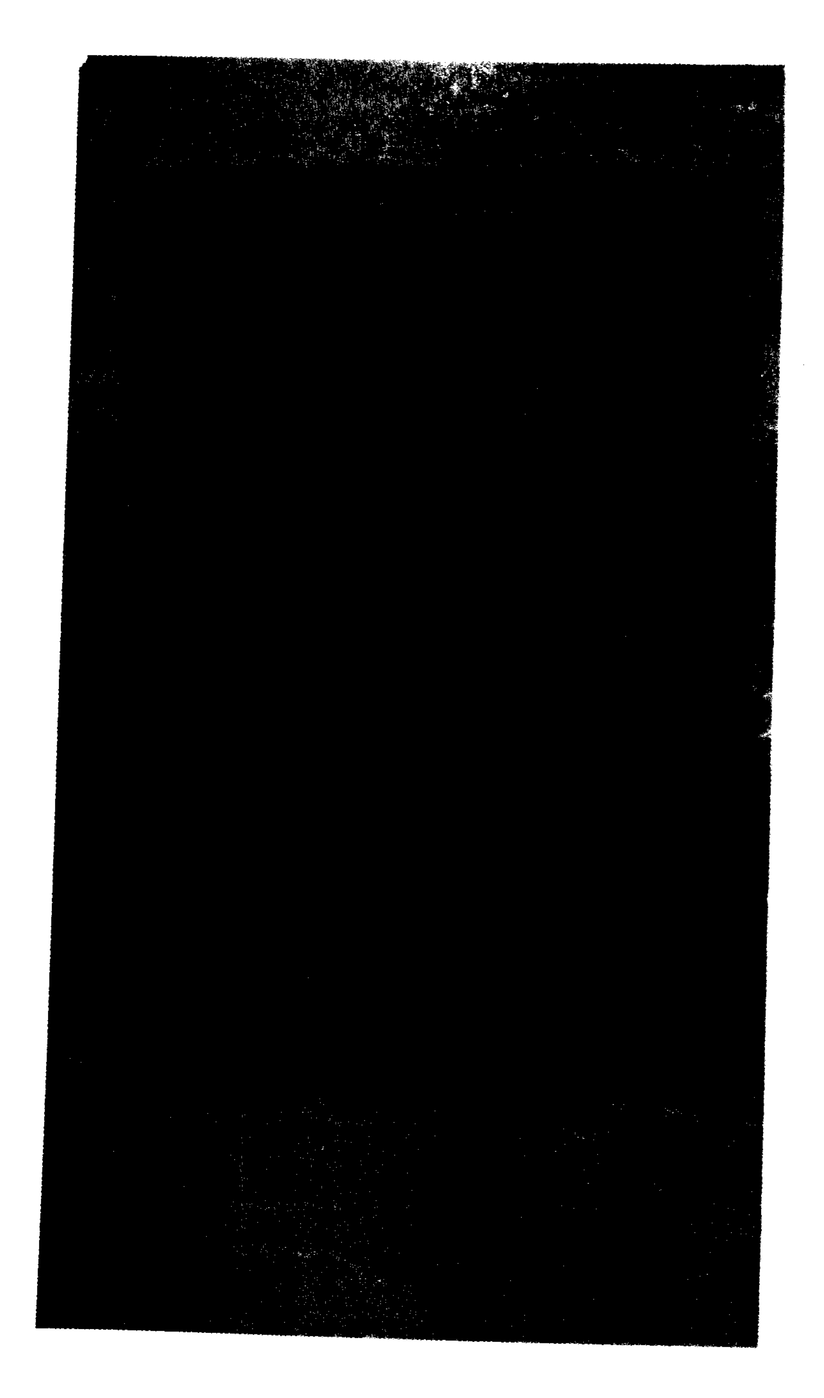
صورة رقم ٢٦٤



صورة رقم ٢٦٥



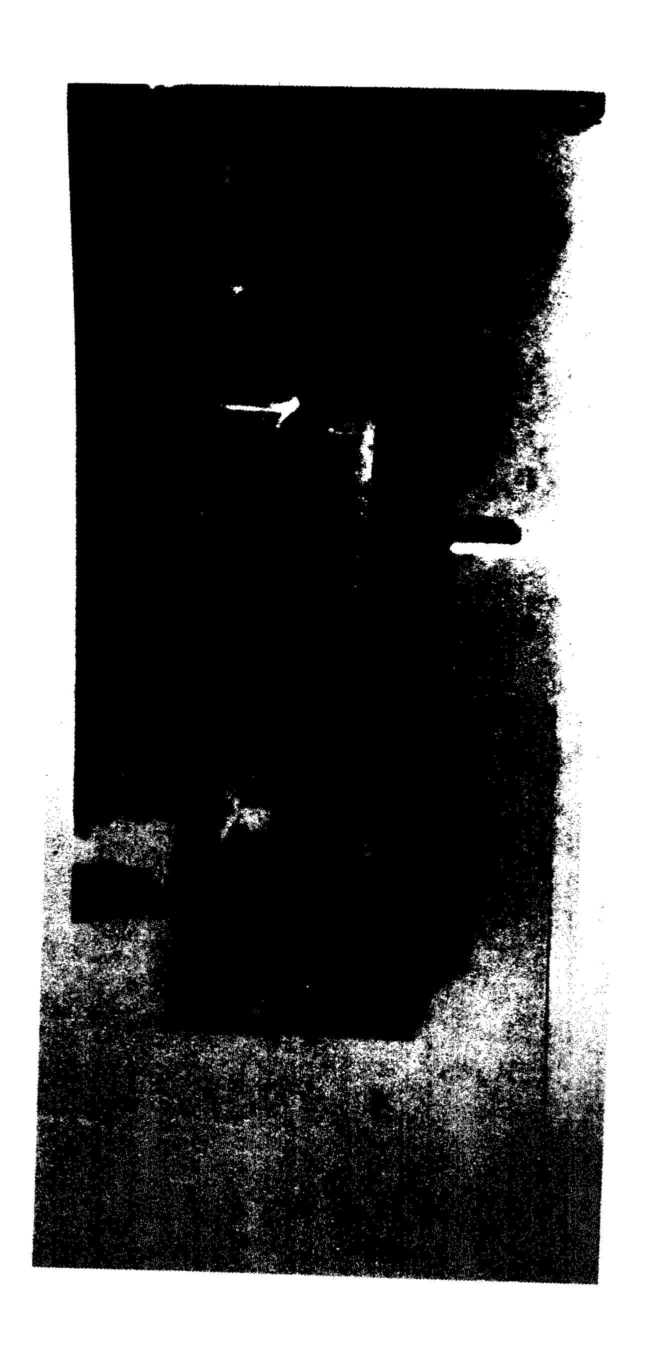
صورة رقم ٢٦٦



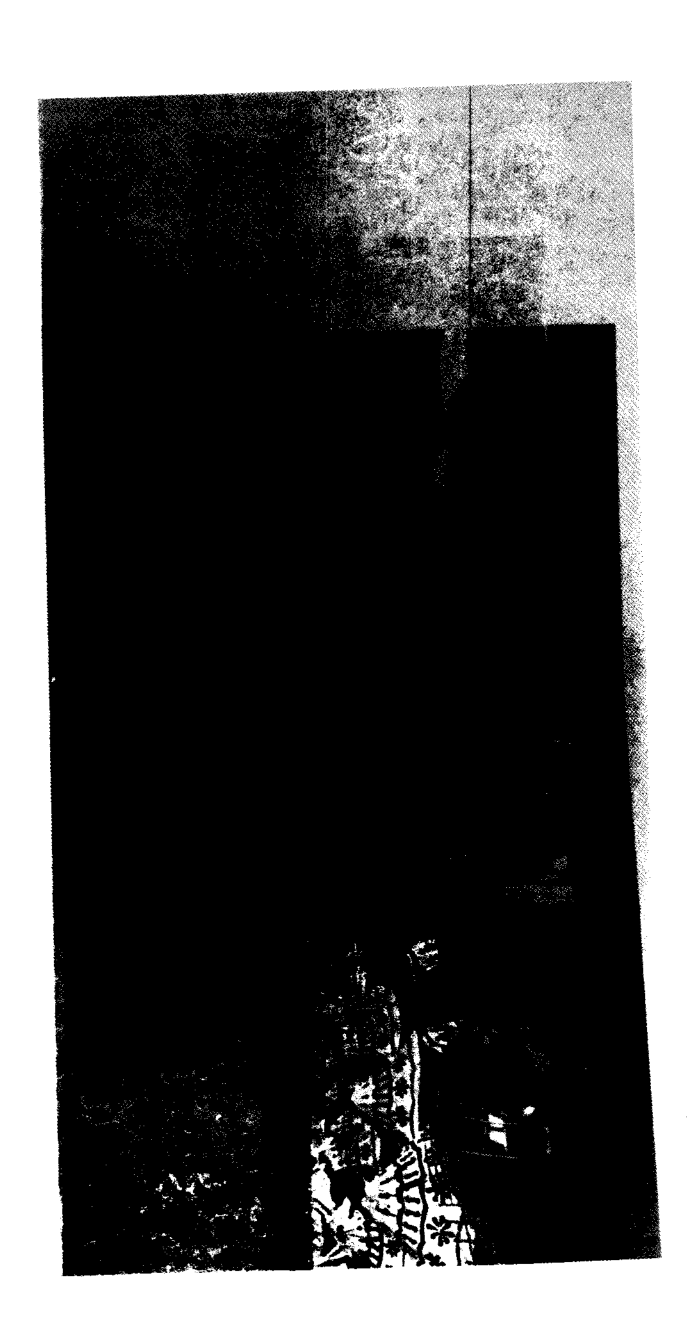
صورة رقم ٢٦٧



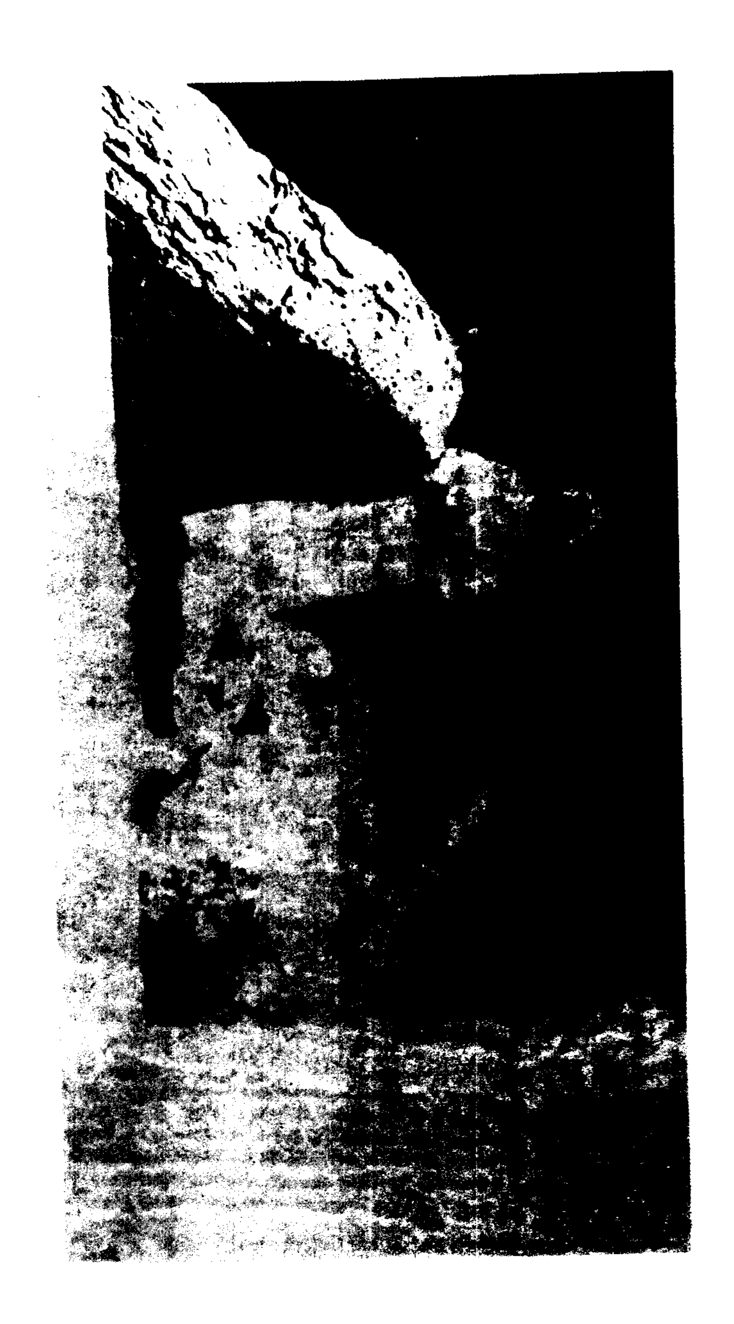
صورة رقم ٢٦٨



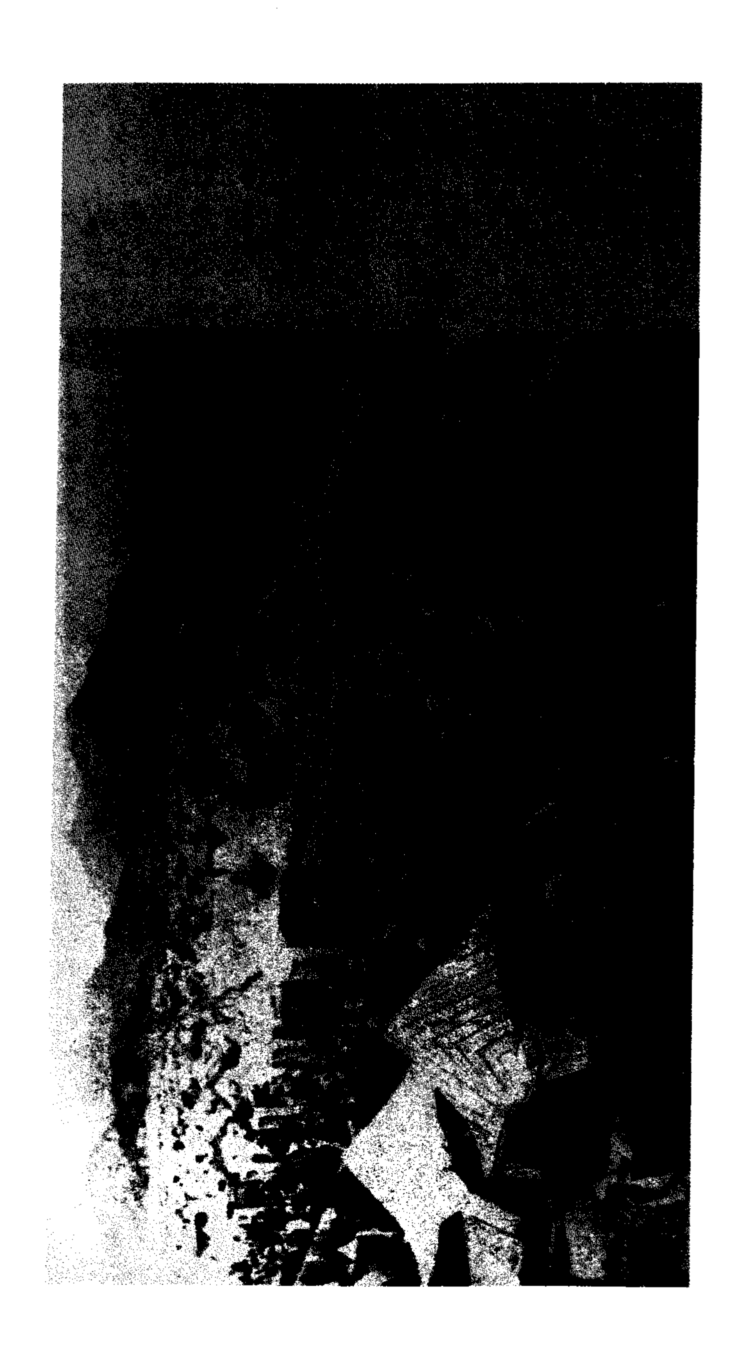
صورة رقم ٢٦٩



صورة رقم ٢٧٠



صورة رقم ٢٧١



صورة رقم ٢٧٢

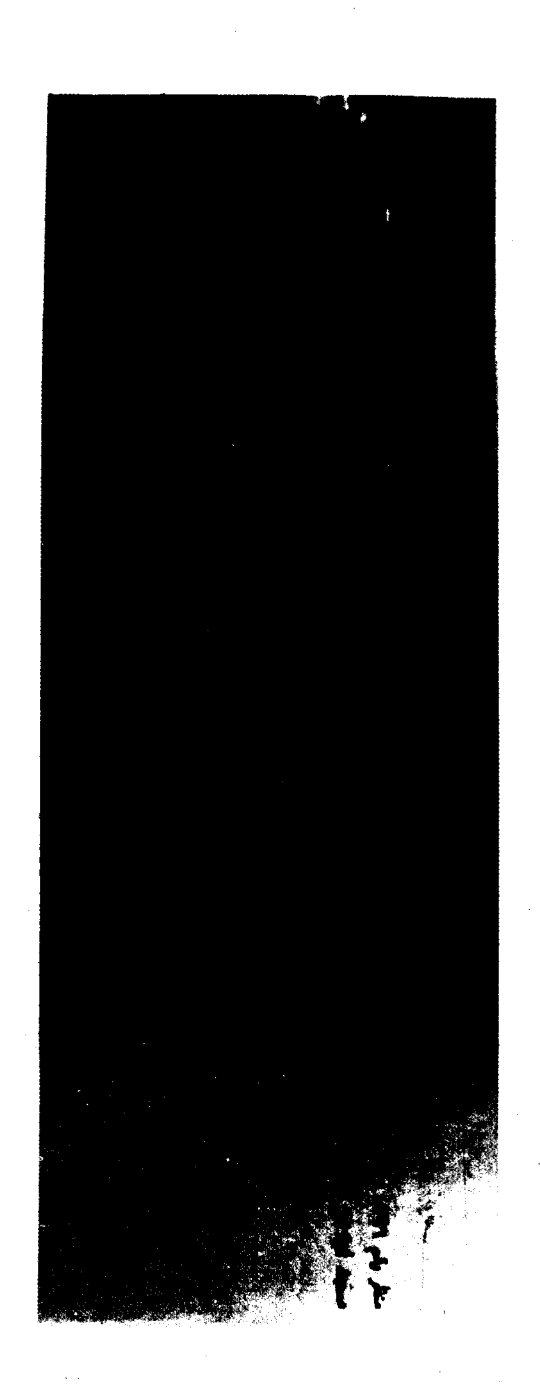


صورة رقم ٢٧٣

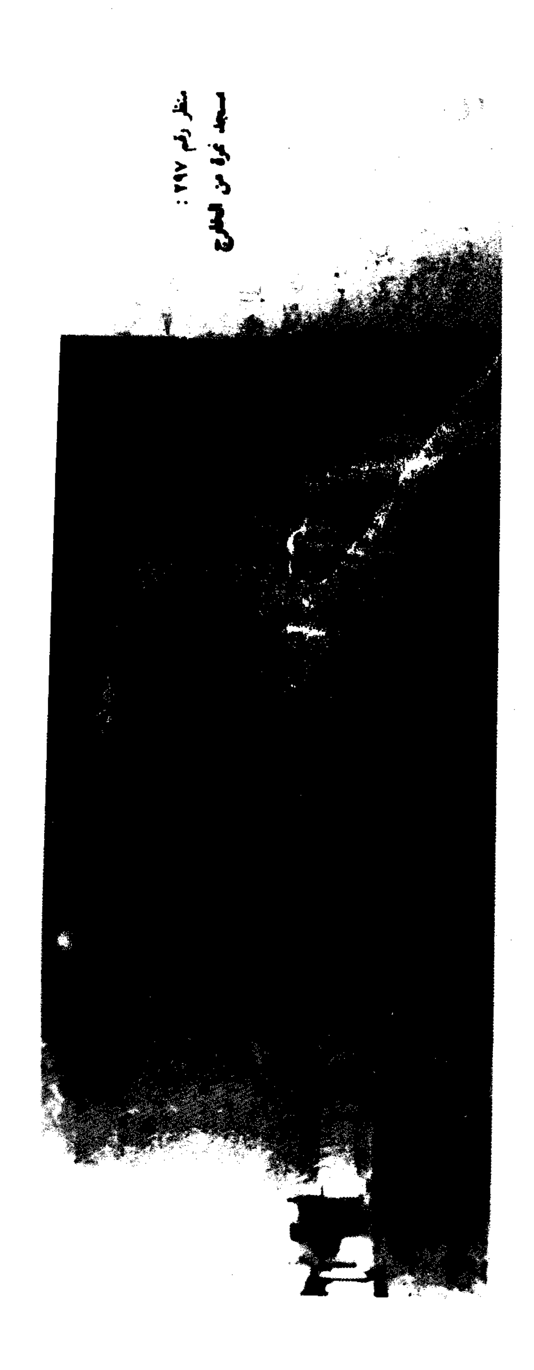
صورة رقم ٢٧٤



صورة رقم ٢٧٥

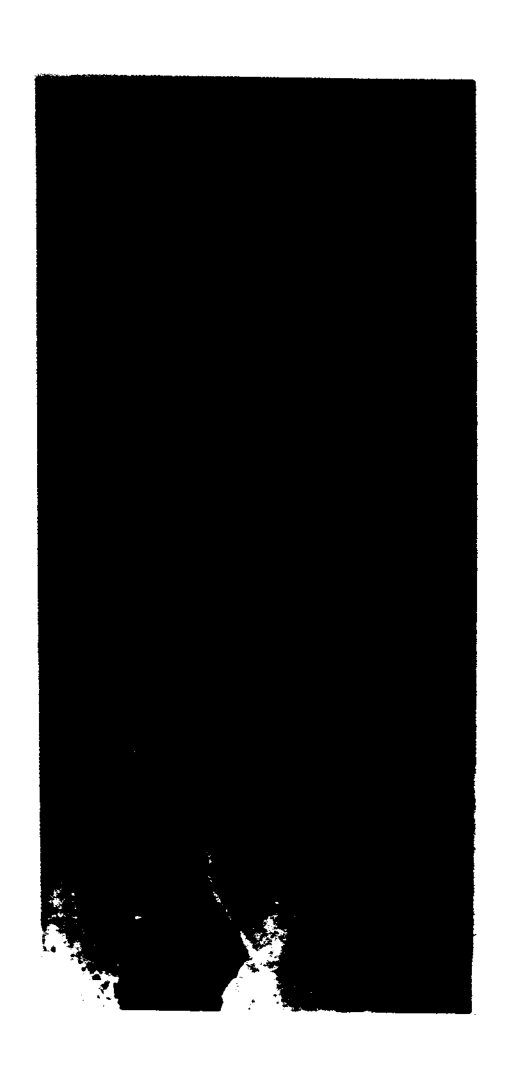


صورة رقم ٢٧٦

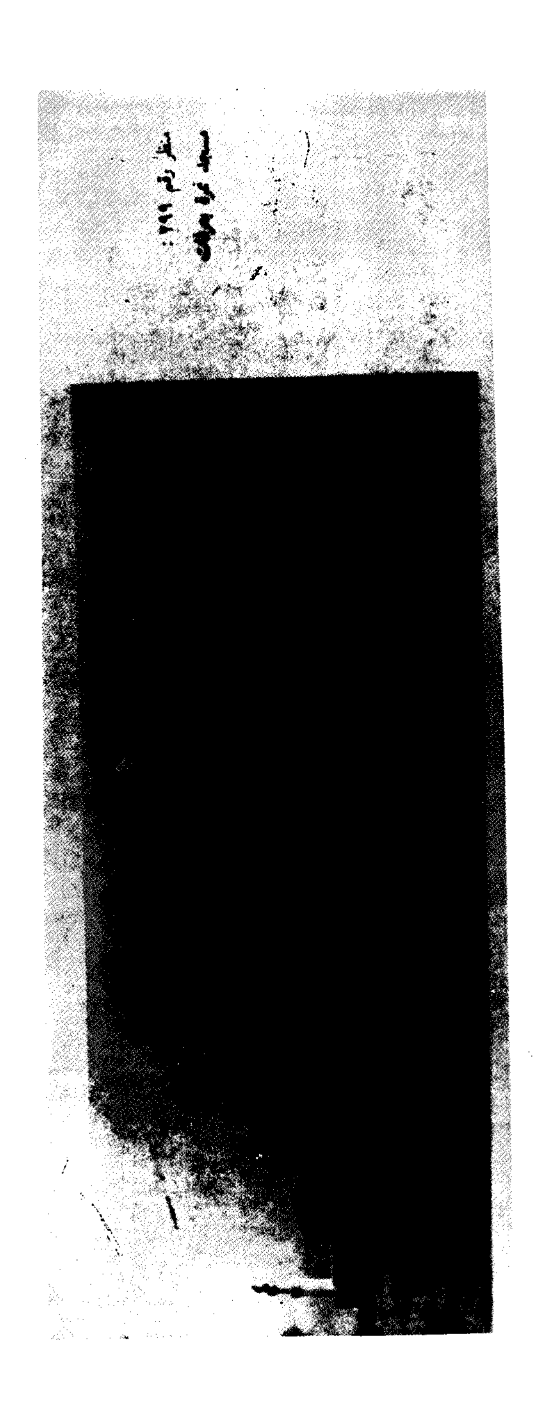


منظر رقم ٢٩٧ :
مسجد غزة من الخارج

صورة رقم ٢٧٧



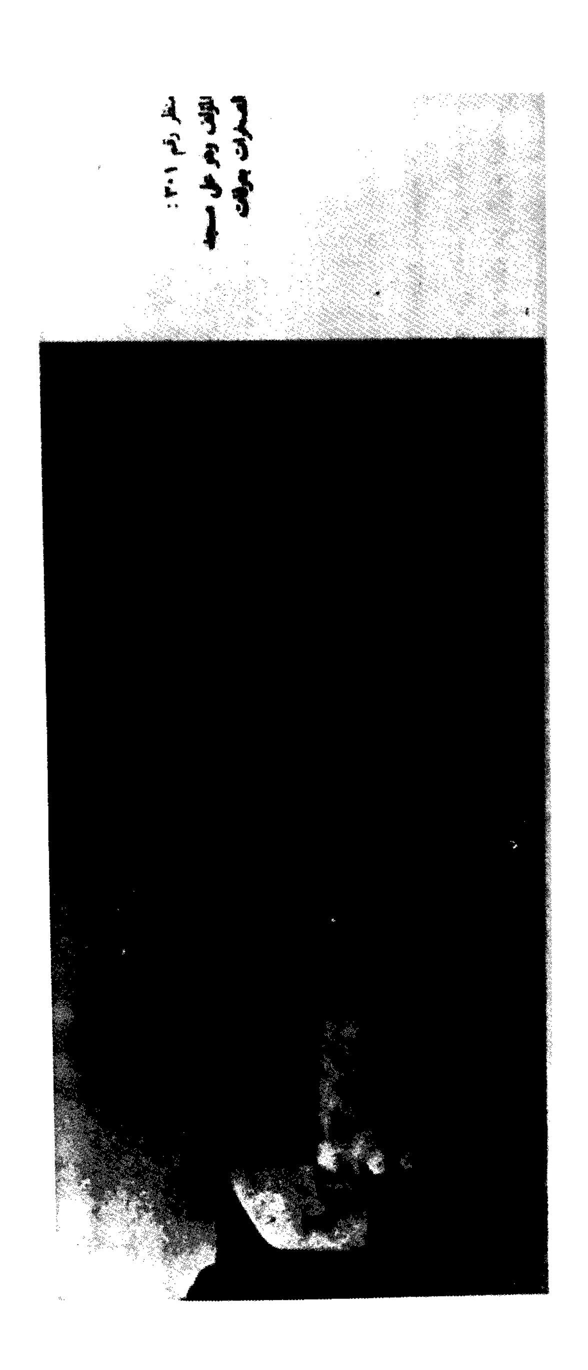
صورة رقم ٢٧٨



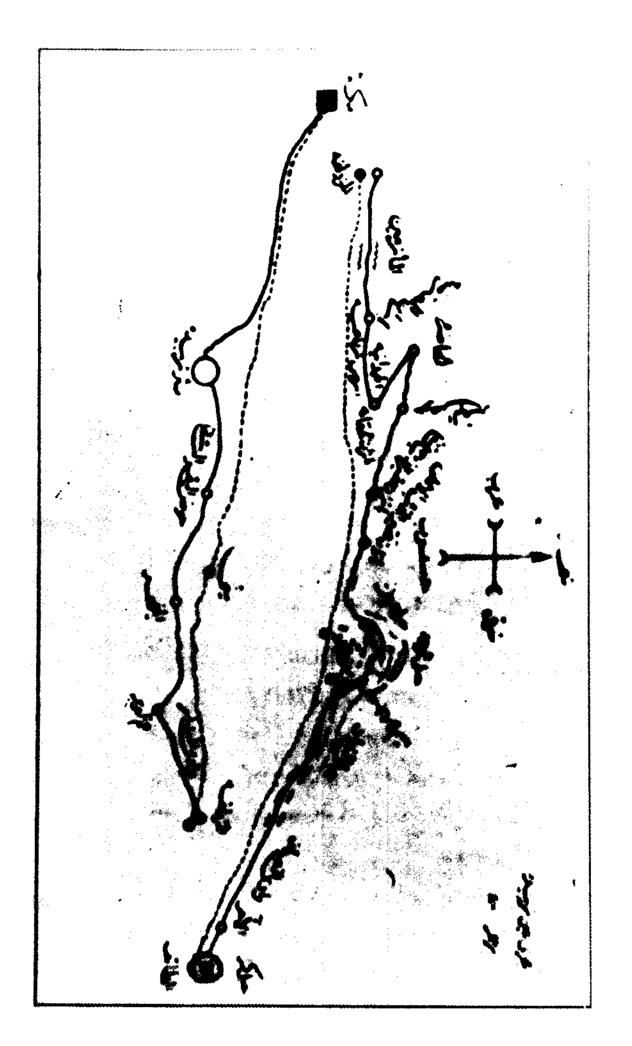
صورة رقم ٢٧٩

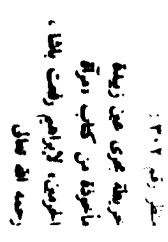


صورة رقم ٢٨٠

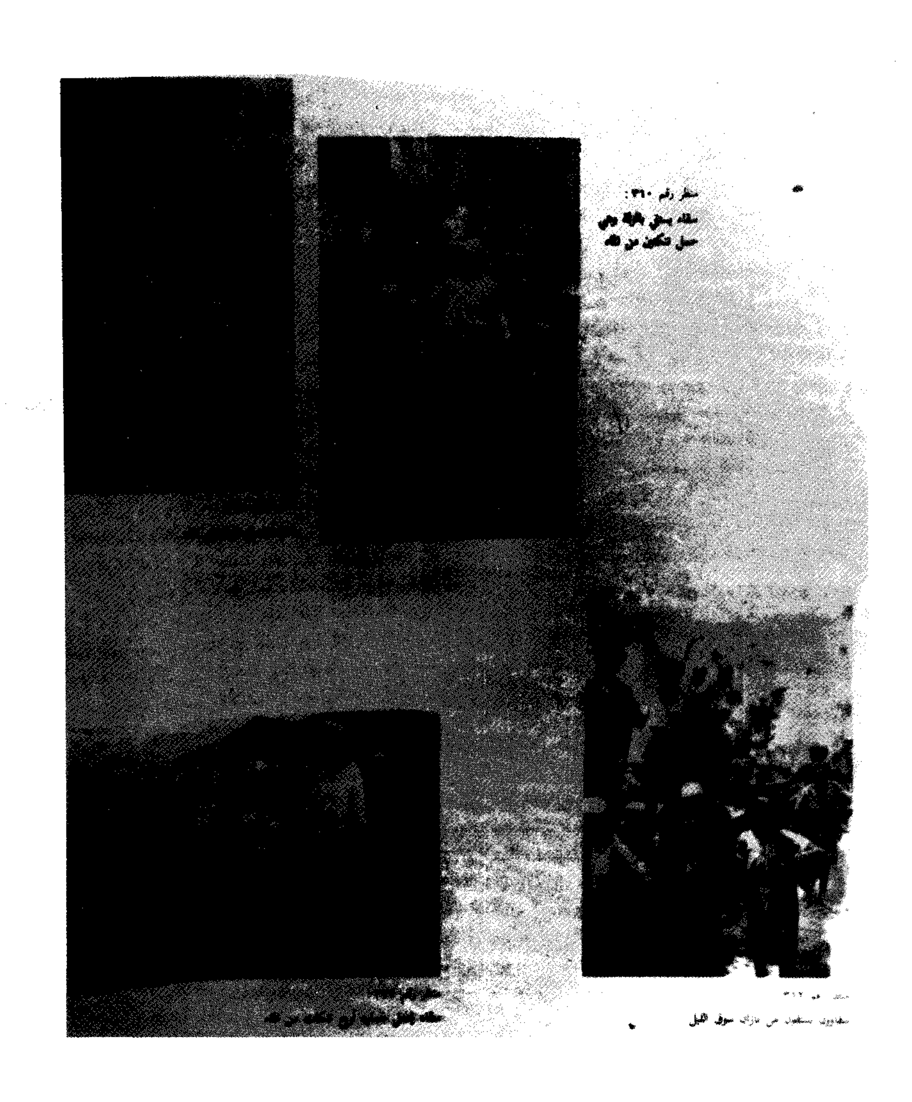


صورة رقم ٢٨١




صورة رقم ٣٠٢
خريطة مجرى عين زبيدة
مأخوذة من كتاب مرآة
الحرمين لإبراهيم رفعت باشا،
رحمه الله تعالى

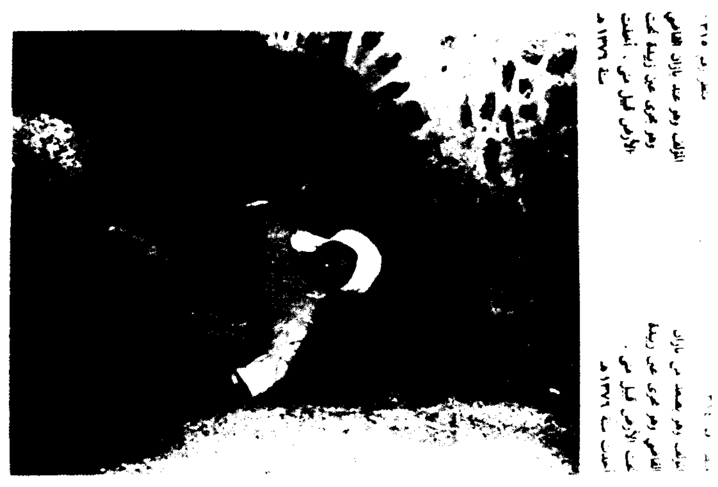
صورة رقم ٢٨٢



صورة رقم ٢٨٣ صورة رقم ٢٨٥

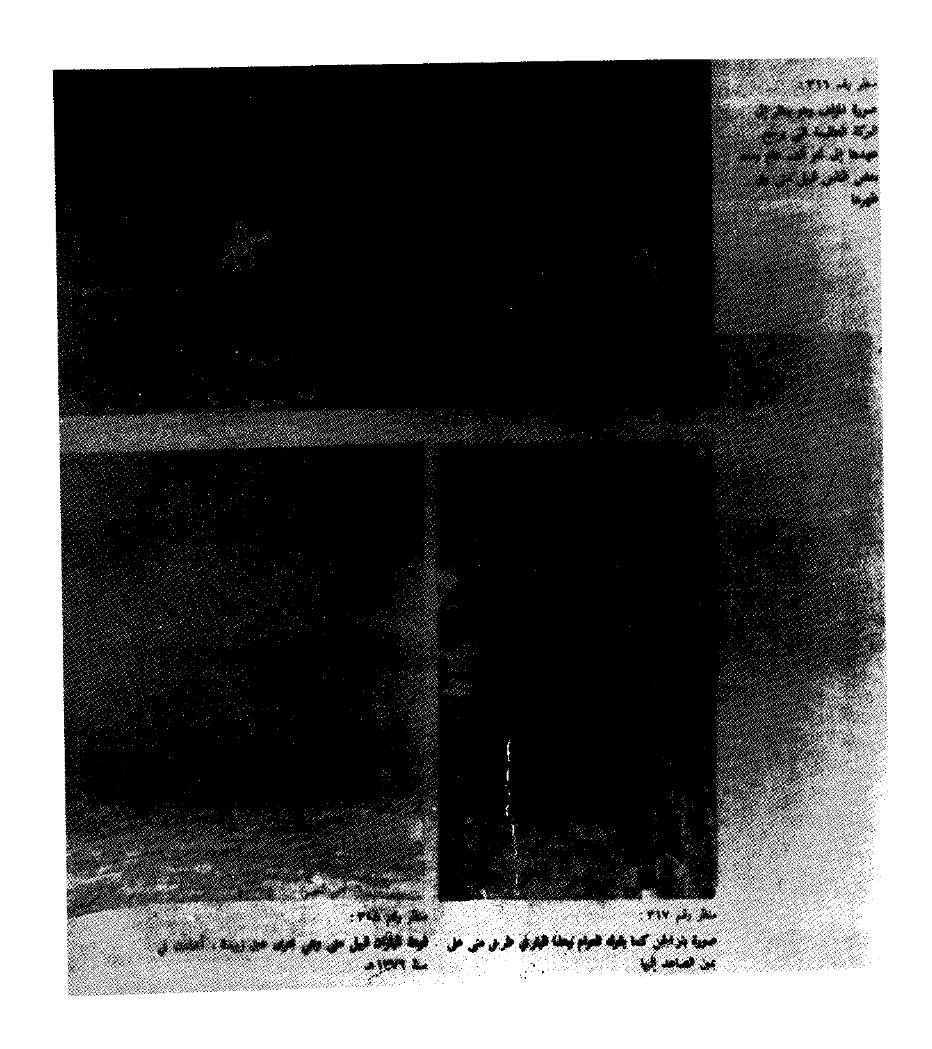
صورة رقم ٢٨٤ صورة رقم ٢٨٦





صورة رقم ٢٨٨

صورة رقم ٢٨٧



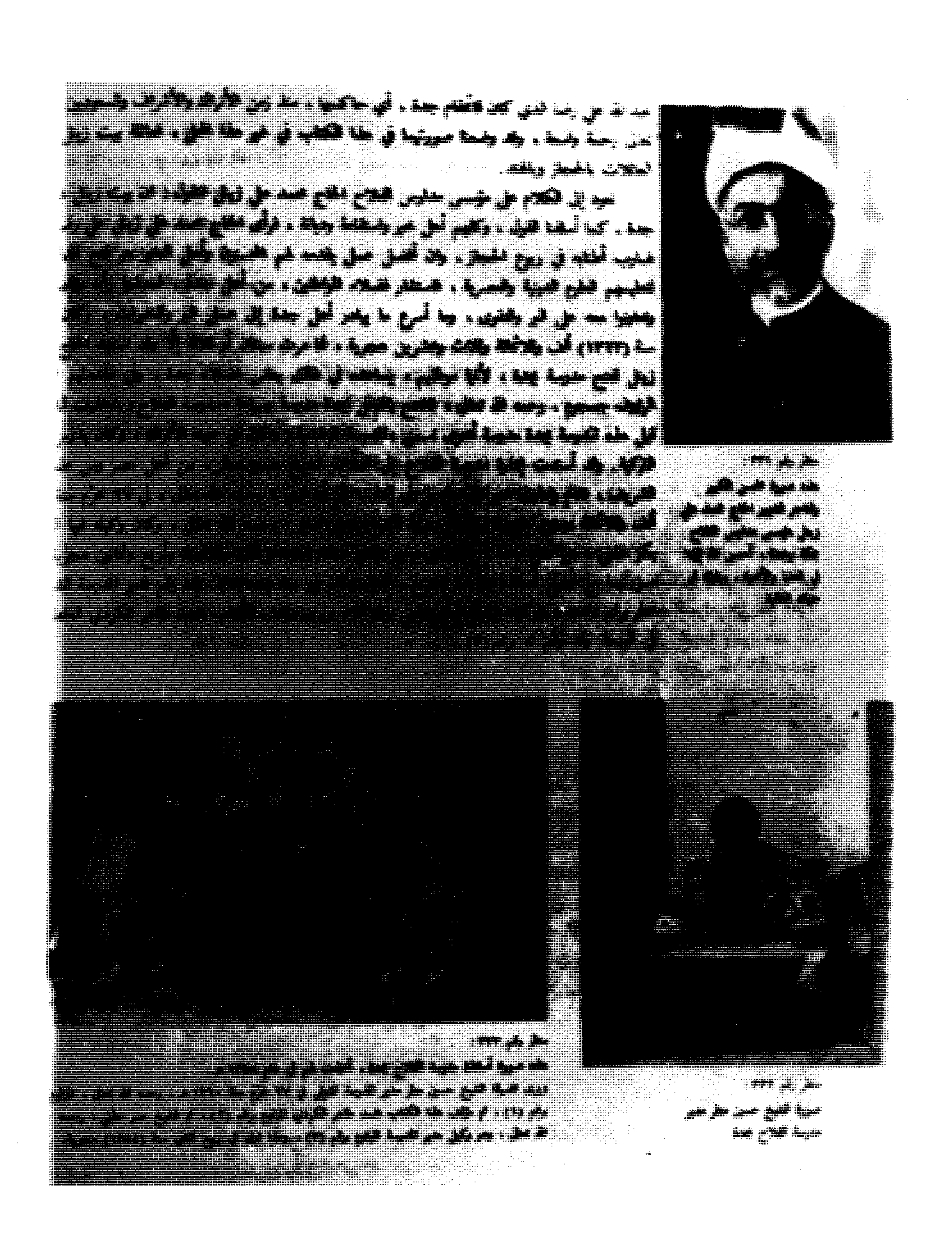
صورة رقم ٢٩٠

صورة رقم ٢٩١

صورة رقم ٢٨٩



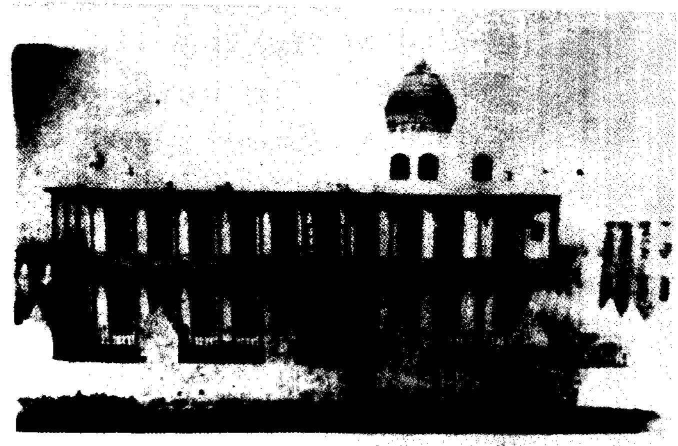
صورة رقم ٢٩٢



صورة رقم ٢٩٤

صورة رقم ٢٩٥

صورة رقم ٢٩٣



ولا نبالغ إن قلنا إن أكثر أهل جدة قد تعلموا فيها وتخرجوا منها . وبعد وفاة الشيخ عبد الرؤوف جمجوم
التي كانت في سنة (١٣٣٨) أصبح أخوه الشيخ محمد صالح جمجوم وكيلاً لمدارس الفلاح بجدة وبمكة . بعد
أن اتخذ الحاج محمد علي زينل مدينة بمبي مقر إقامته ومحل تجارته . وكان يعاون الشيخ محمد صالح جمجوم في
تجارته وأعماله الأخرى أخوه الشيخ صلاح جمجوم . وإليك صورتهما

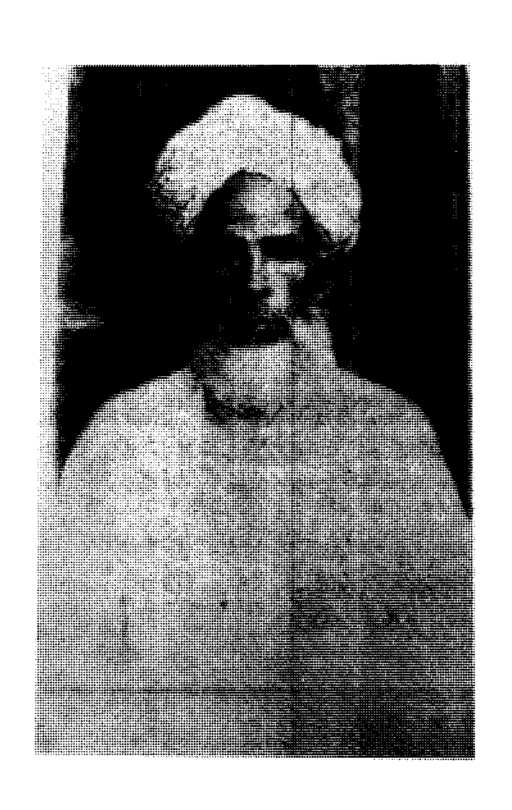




صورة رقم ٢٩٧

صورة رقم ٢٩٨

صورة رقم ٢٩٦

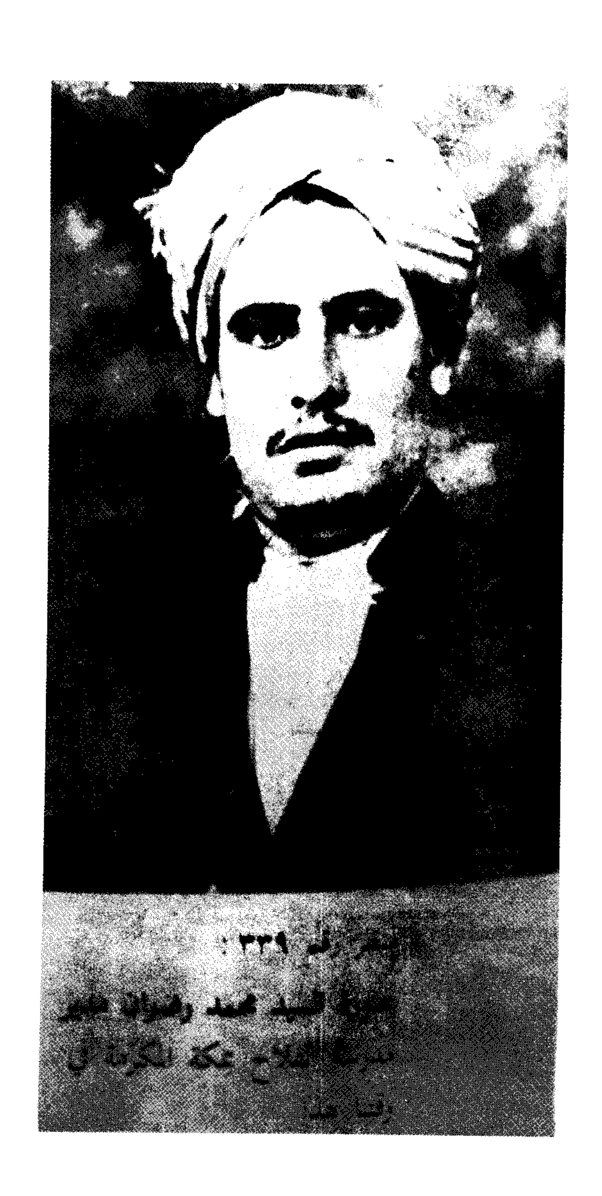


صورة رقم ٢٩٩

صورة المؤلف وهو على باب
مدرسة الفلاح بجدة . أخذت
سنة (١٣٥٢) هجرية



صورة رقم ٣٠٠



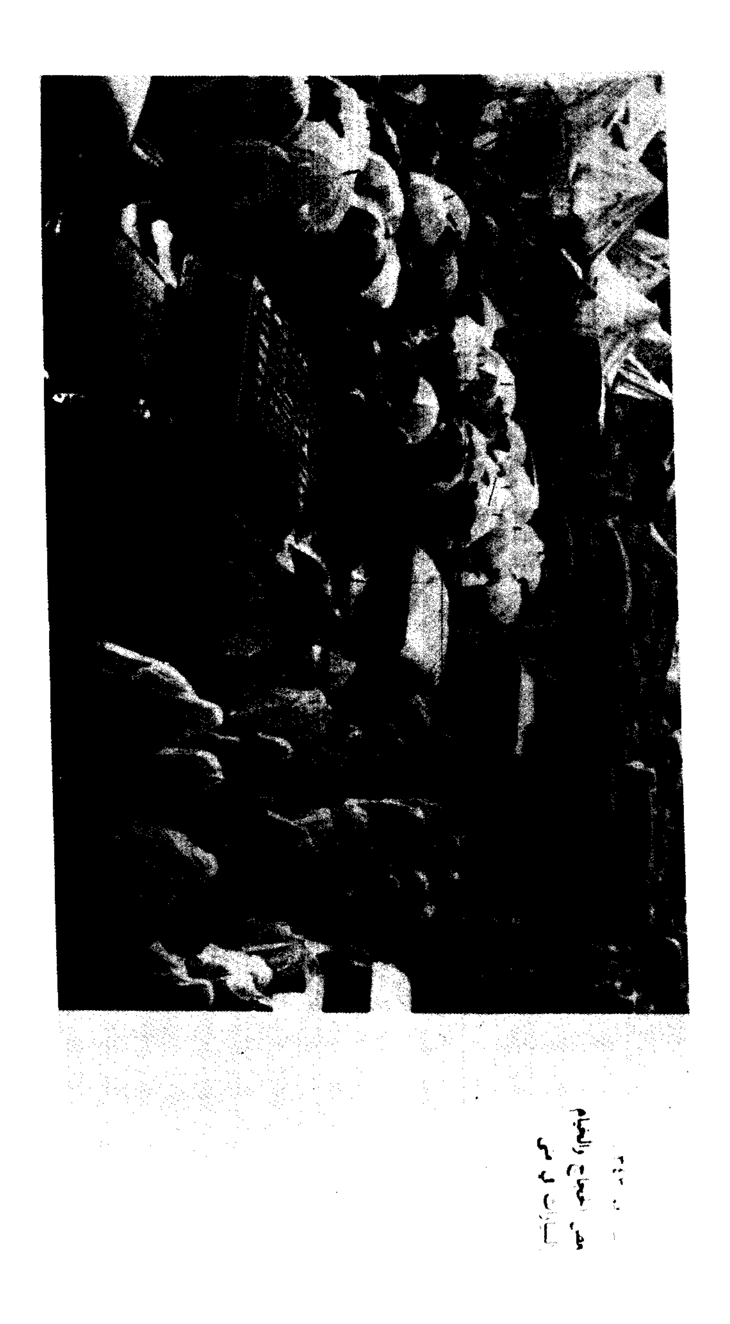
صورة رقم ٣٠١



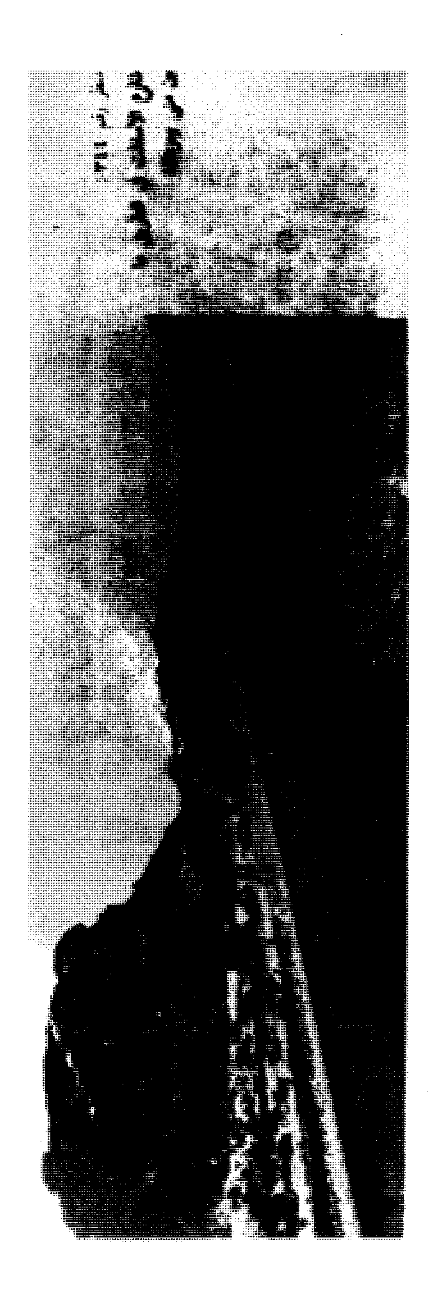
صورة رقم ٣٠٢



صورة رقم ٣٠٣



صورة رقم ٣٠٤



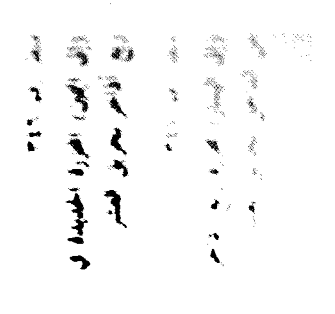
صورة رقم ٣٠٥



صورة رقم ٣٤٥

الشريف عون الرفيق حاكم
مكة المشرّفة وأميرها المتوفى بعد
عام (١٣٢٠) هجرية . رحمه
الله تعالى

صورة رقم ٣٠٦







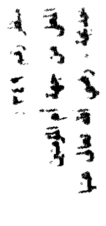
صورة رقم ٣٠٧ صورة رقم ٣٠٨

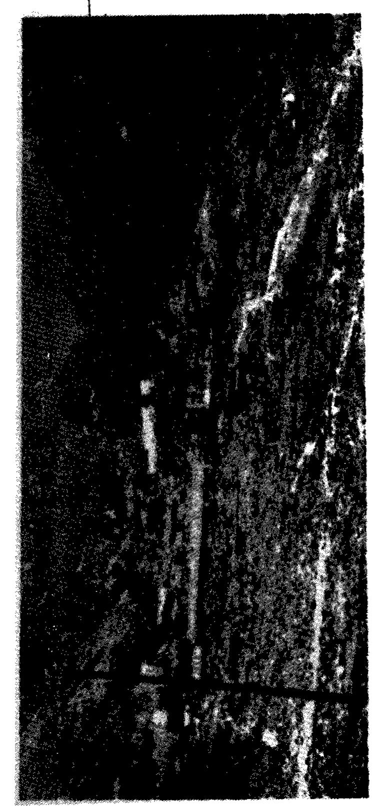


منظر رقم ٣٤٨ :

صورة صاحب المعالي الشيخ
محمد سرور الصبان وزير المالية
الأسبق والأمين للرابطة
الإسلامية

صورة رقم ٣٠٩

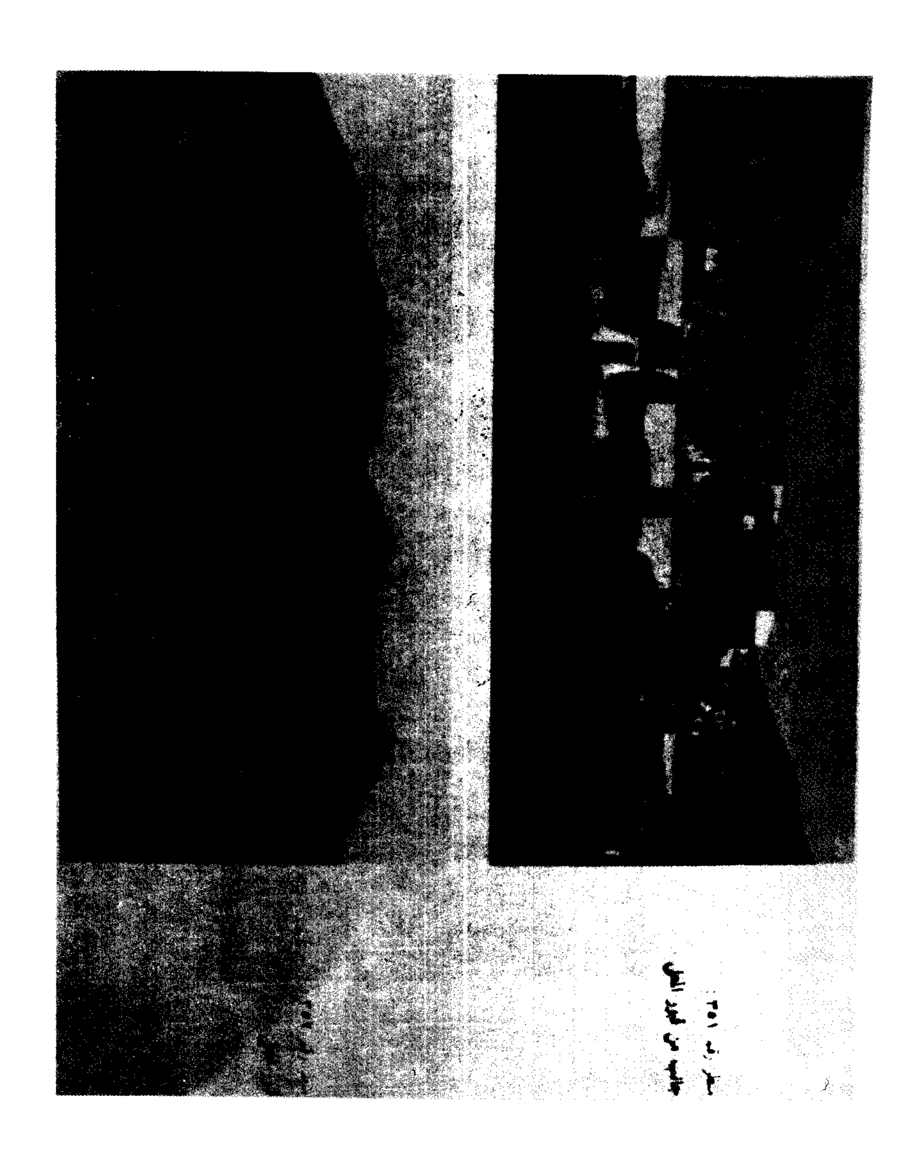




صورة رقم ٣١١

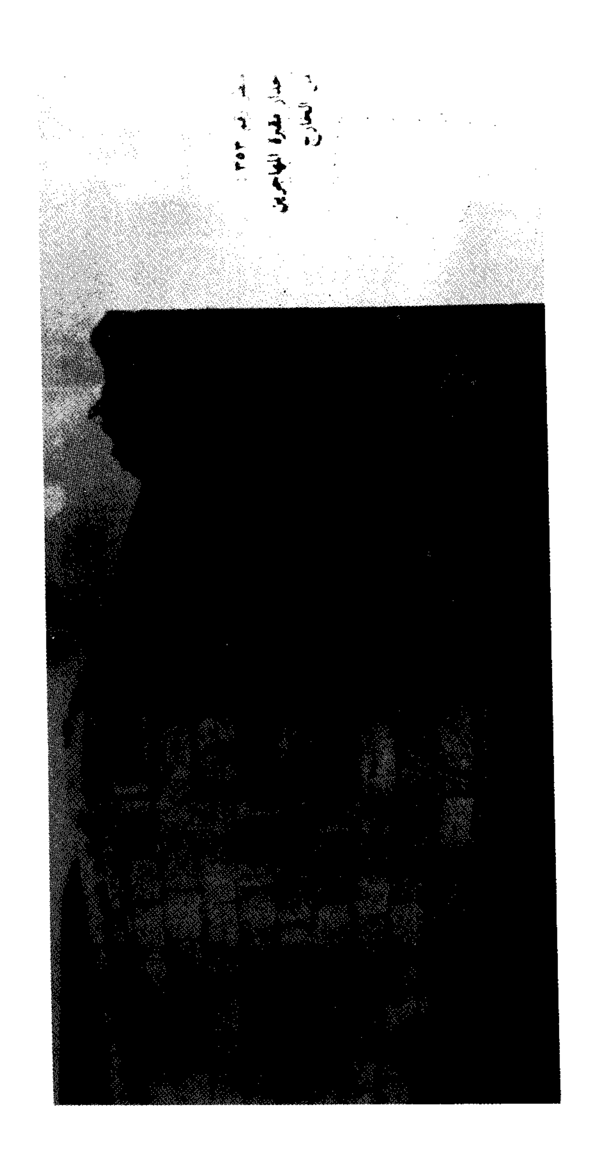


صورة رقم ٣١٠

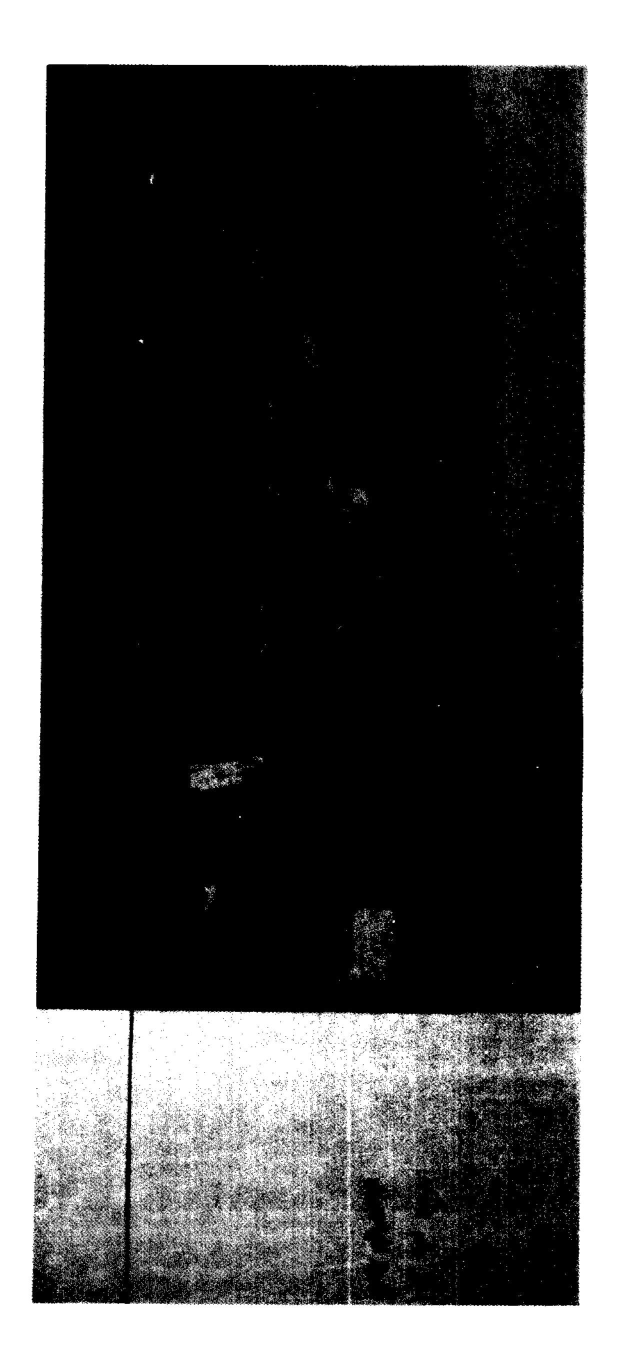


صورة رقم ٣١٣

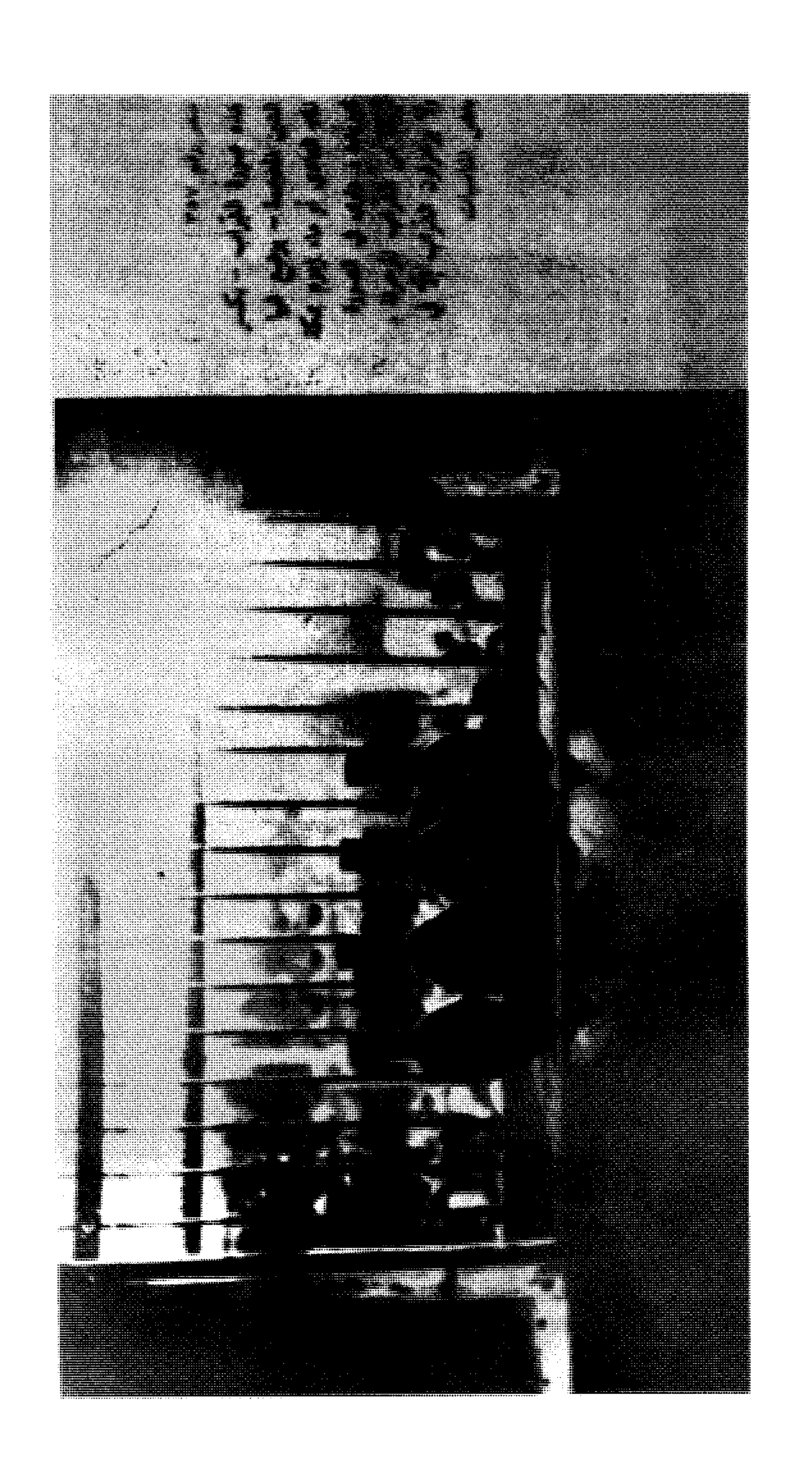
صورة رقم ٣١٢



صورة رقم ٣١٤



صورة رقم ٣١٥



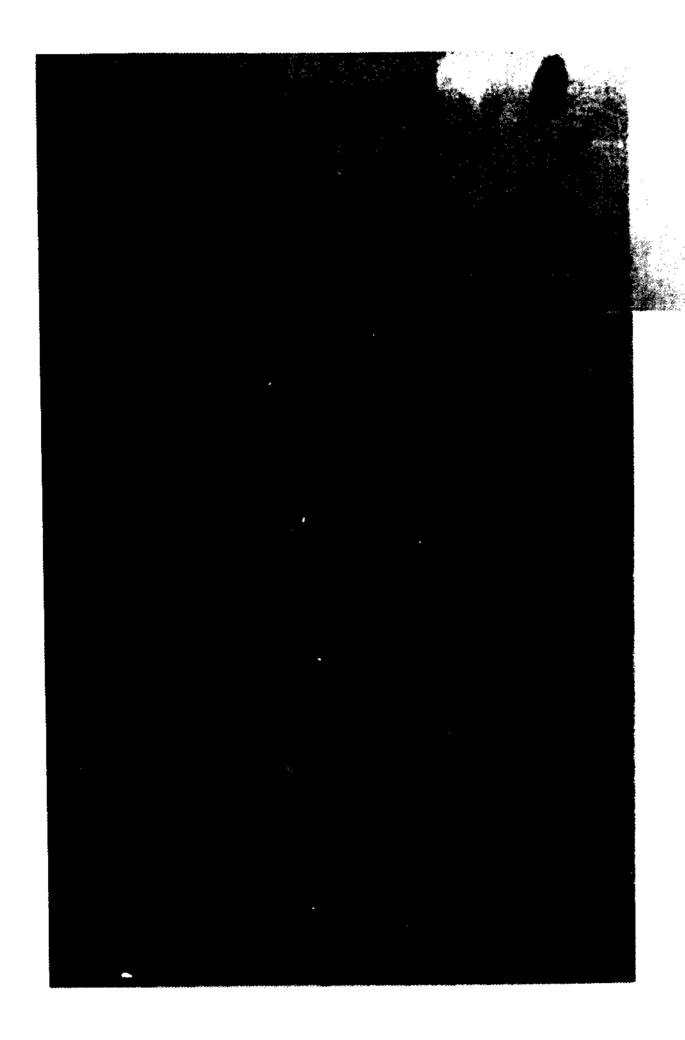
صورة رقم ٣١٦



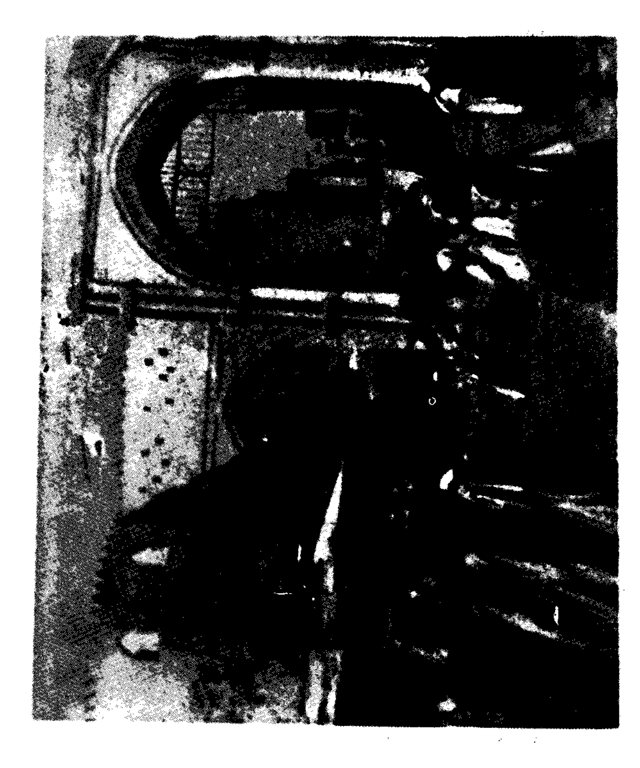
صورة رقم ٣١٧



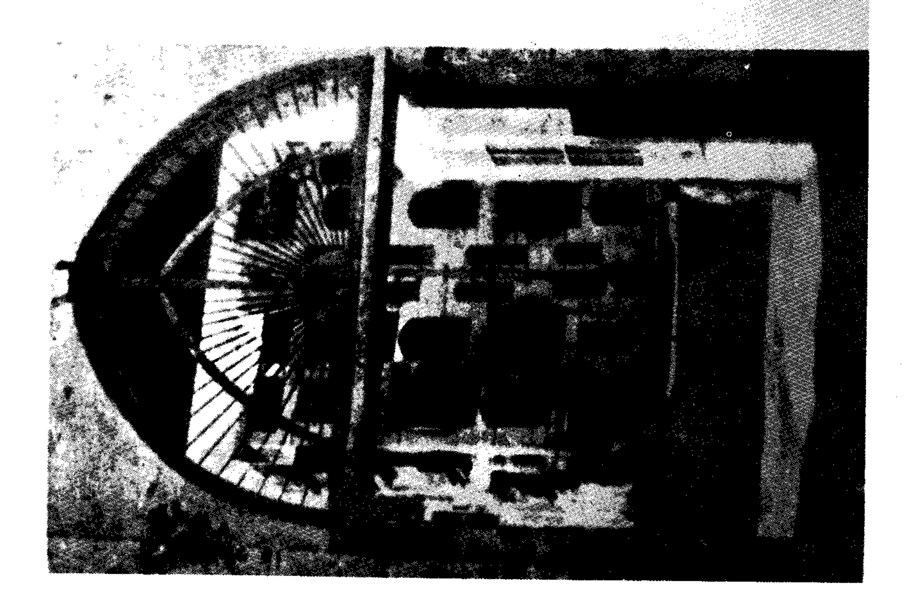
صورة رقم ٣١٨



صورة رقم ٣١٩



منظر رقم ٣٦٢ :
باب مكة المكرّمة من
الخارج . وسوق البدو



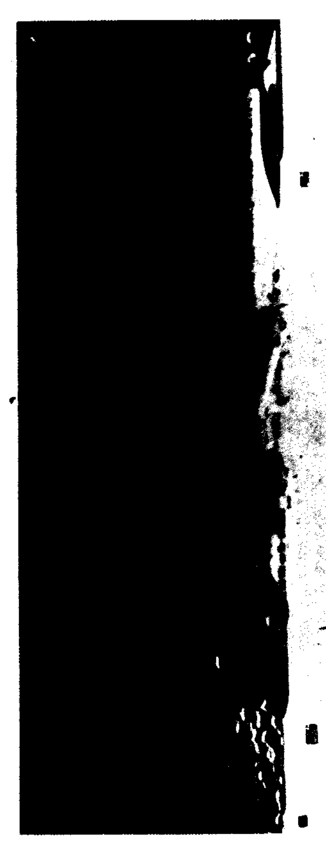
منظر رقم ٣٦٣ :
الباب الشمالي ، المخصص لعبور
السيارات بجدة

صورة رقم ٣٢٠

صورة رقم ٣٢١

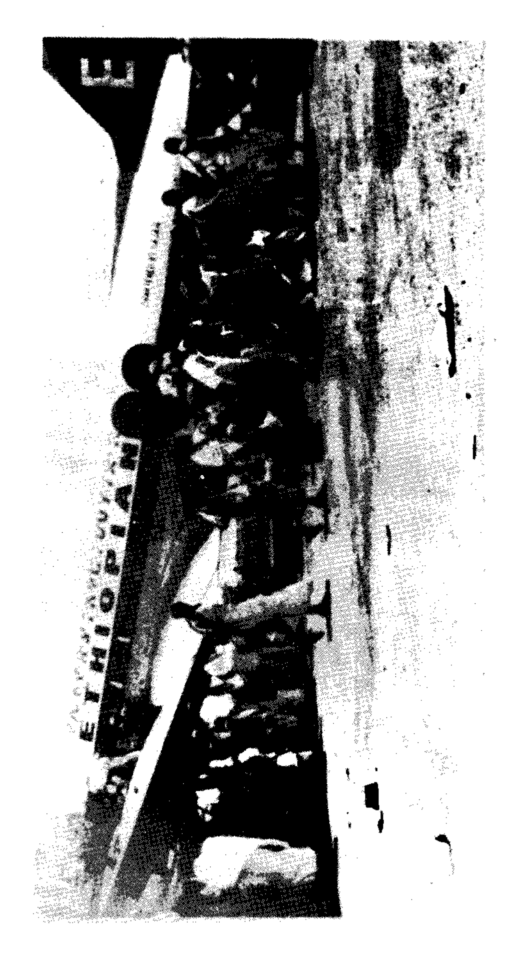


صورة رقم ٣٢٢



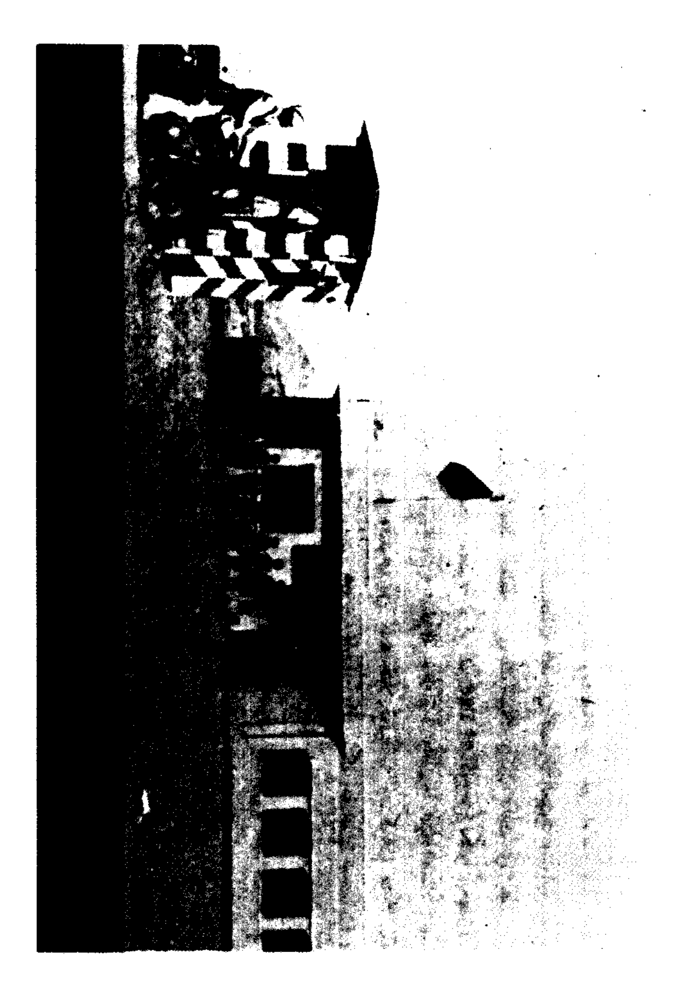
صورة رقم ٣٢٣





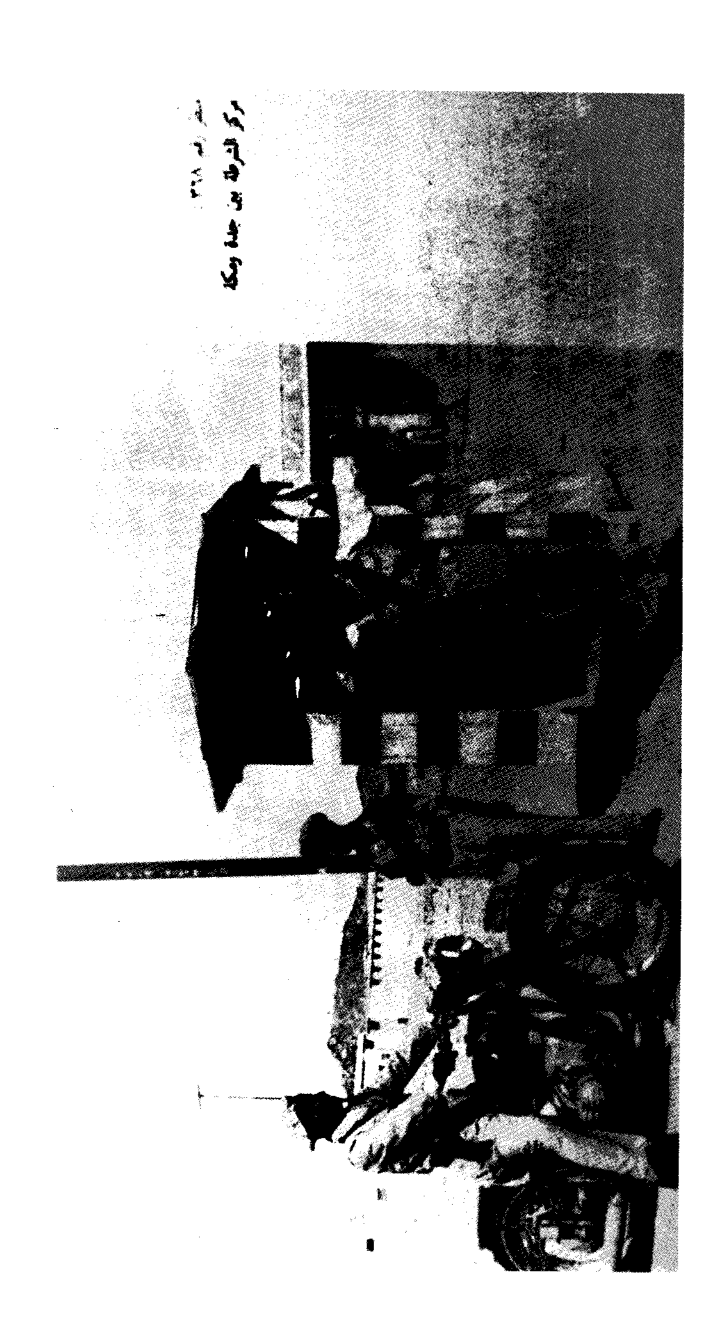


صورة رقم ٣٢٤



مركز الشرطة بين جدة ومكة

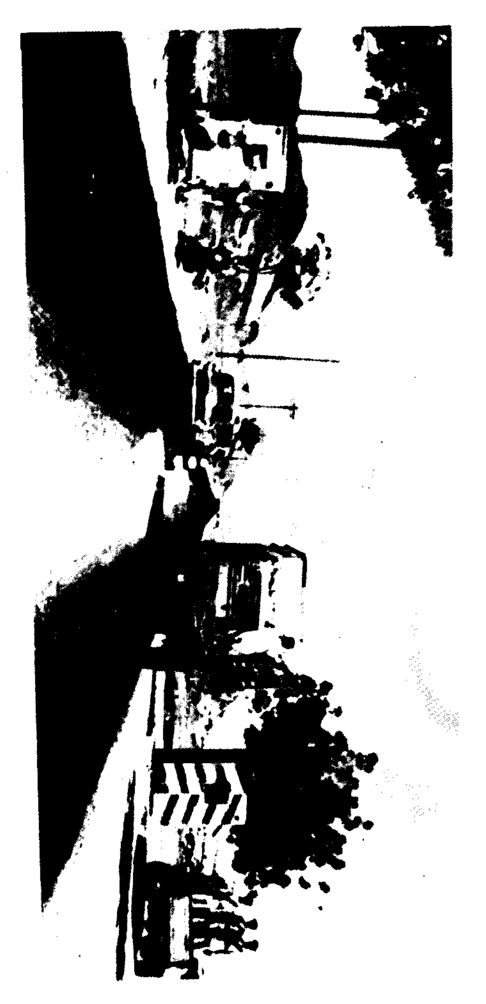
صورة رقم ٣٢٥



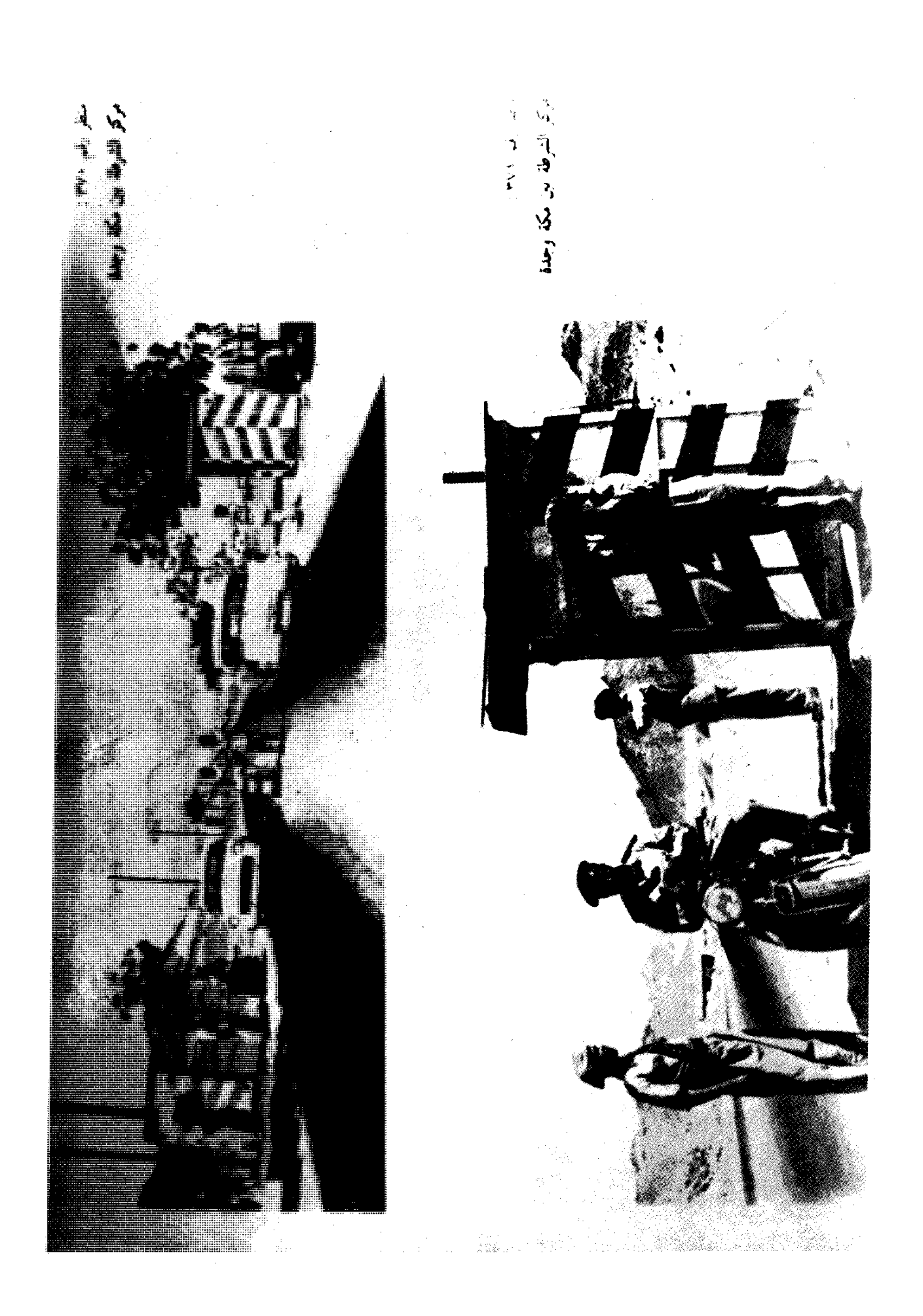
صورة رقم ٣٢٦



صورة رقم ٣٢٧



صورة رقم ٣٢٨



صورة رقم ٣٢٩



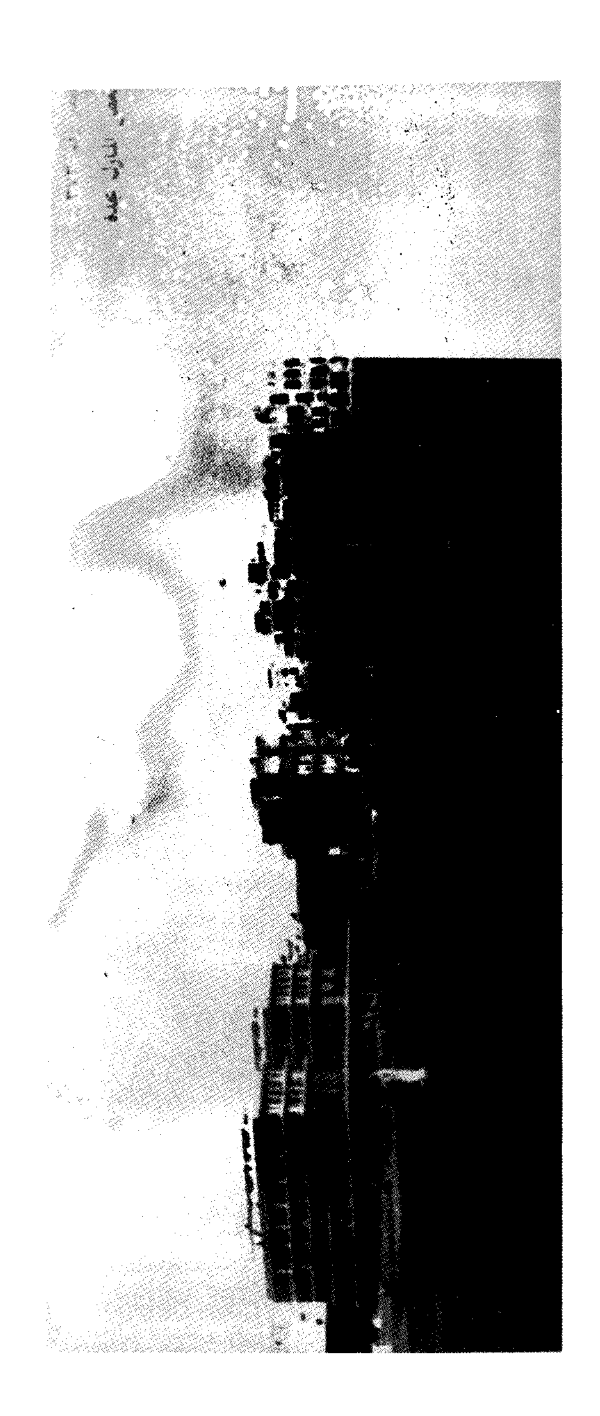
رقم ٣٧٢

صورة لأحد الشوارع القديمة

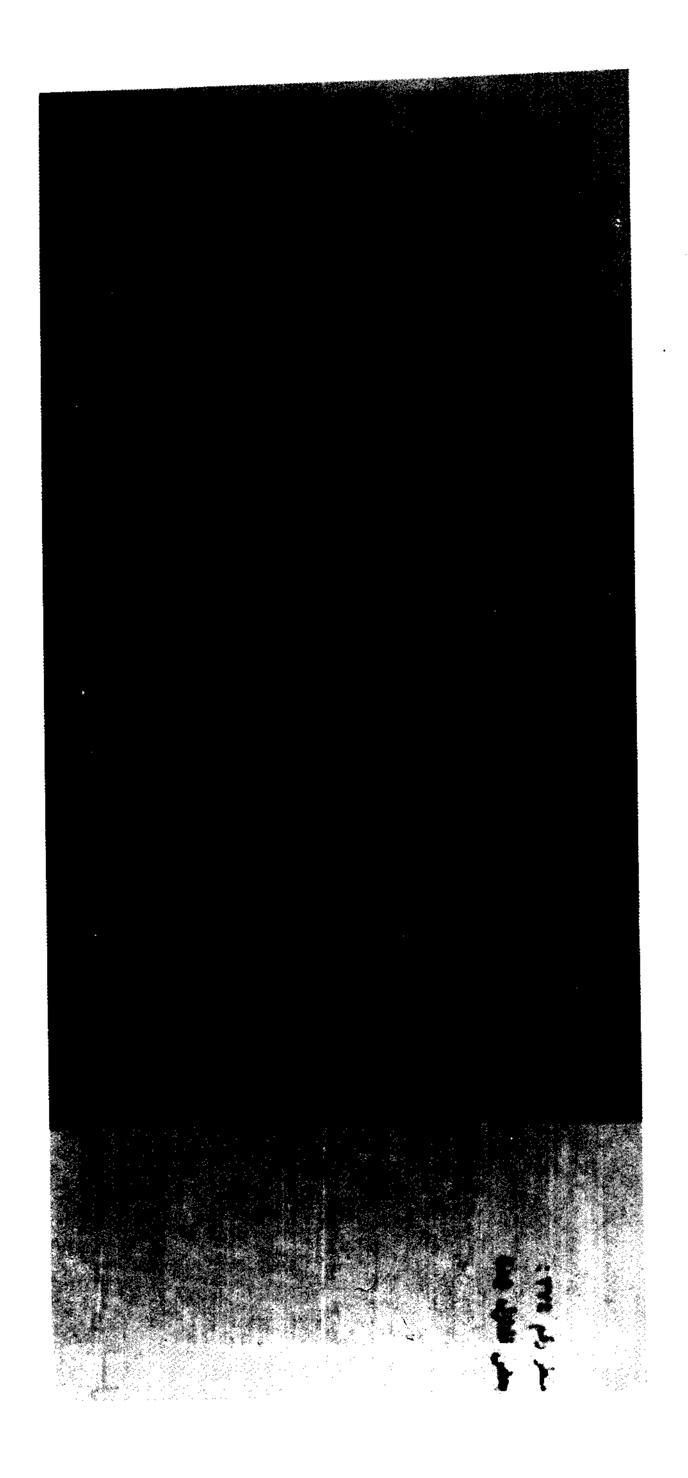
بجدة . أي قبل سنة (١٣٦٥)

هجرية

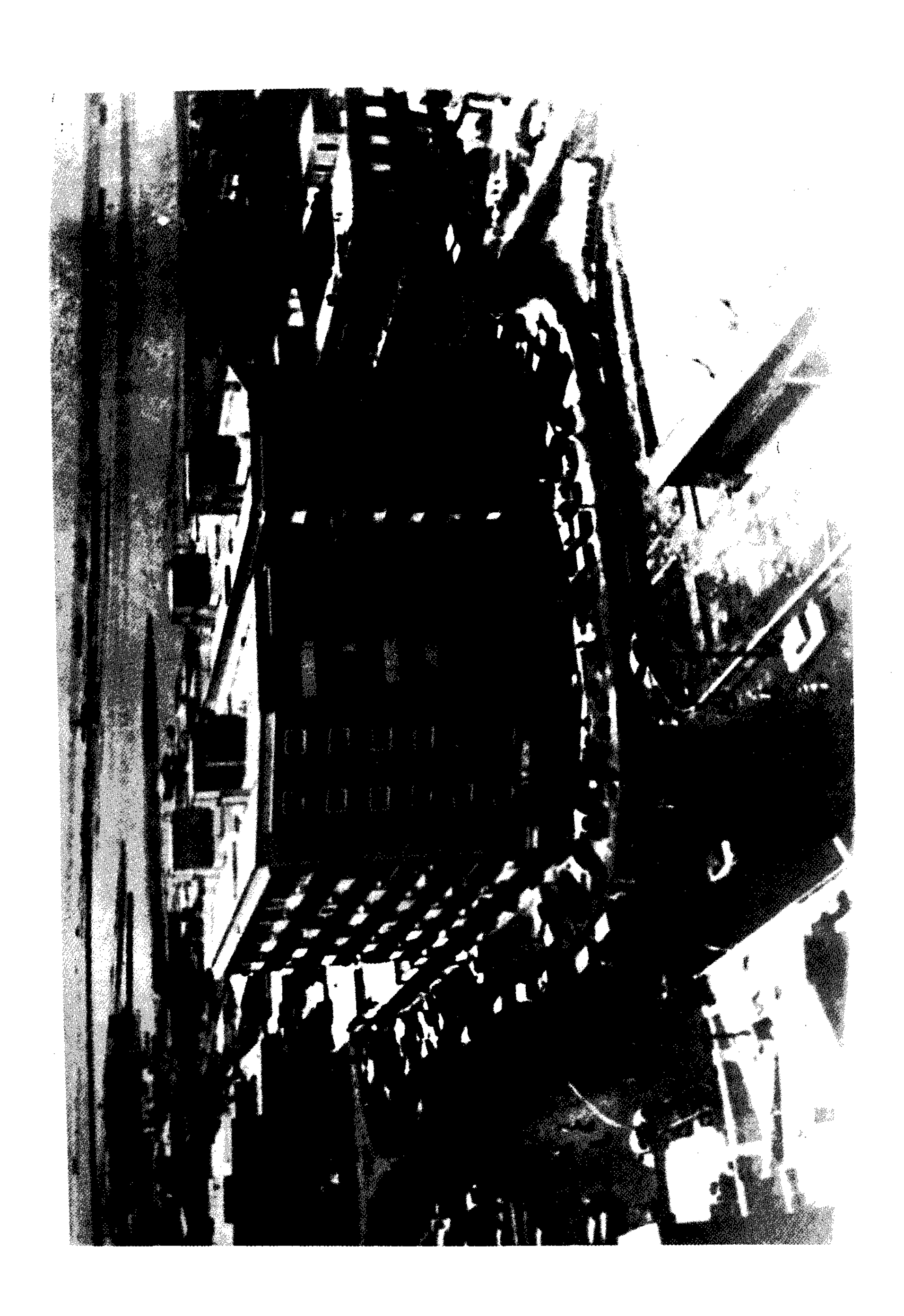
صورة رقم ٣٣٠



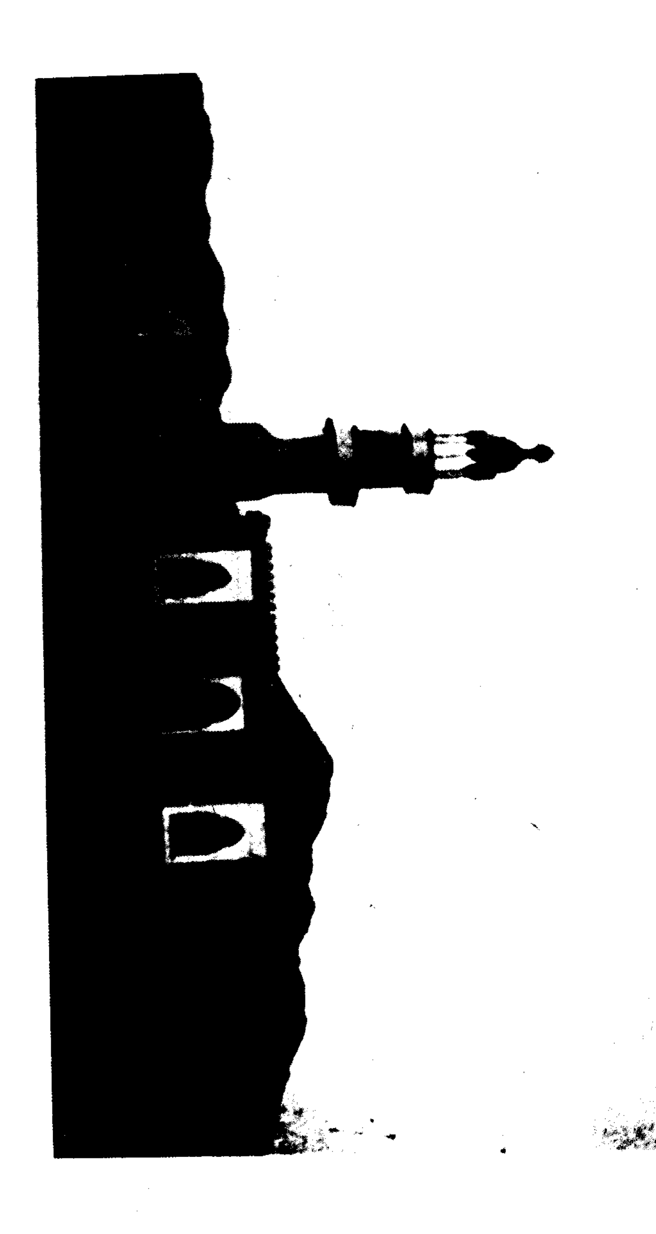
صورة رقم ٣٣١



صورة رقم ٣٣٢



صورة رقم ٣٣٣



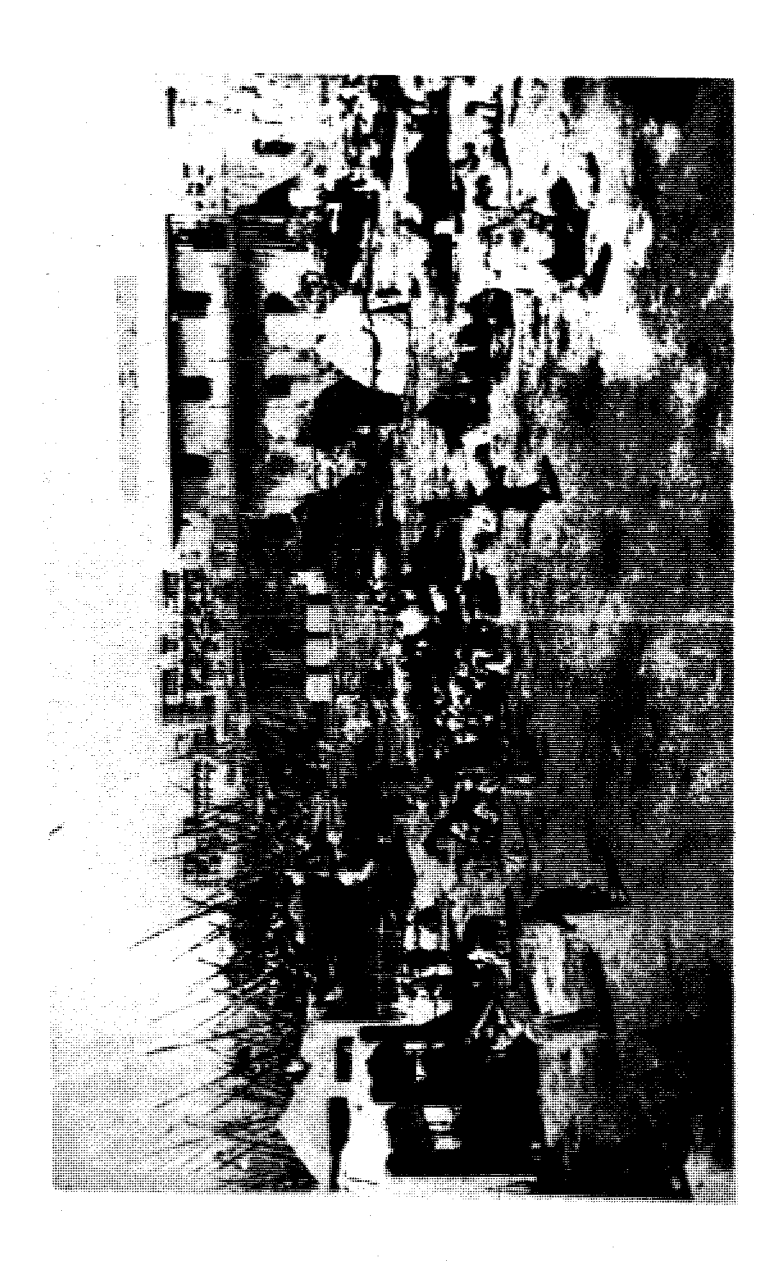
صورة رقم ٣٣٤



صورة رقم ٣٣٥



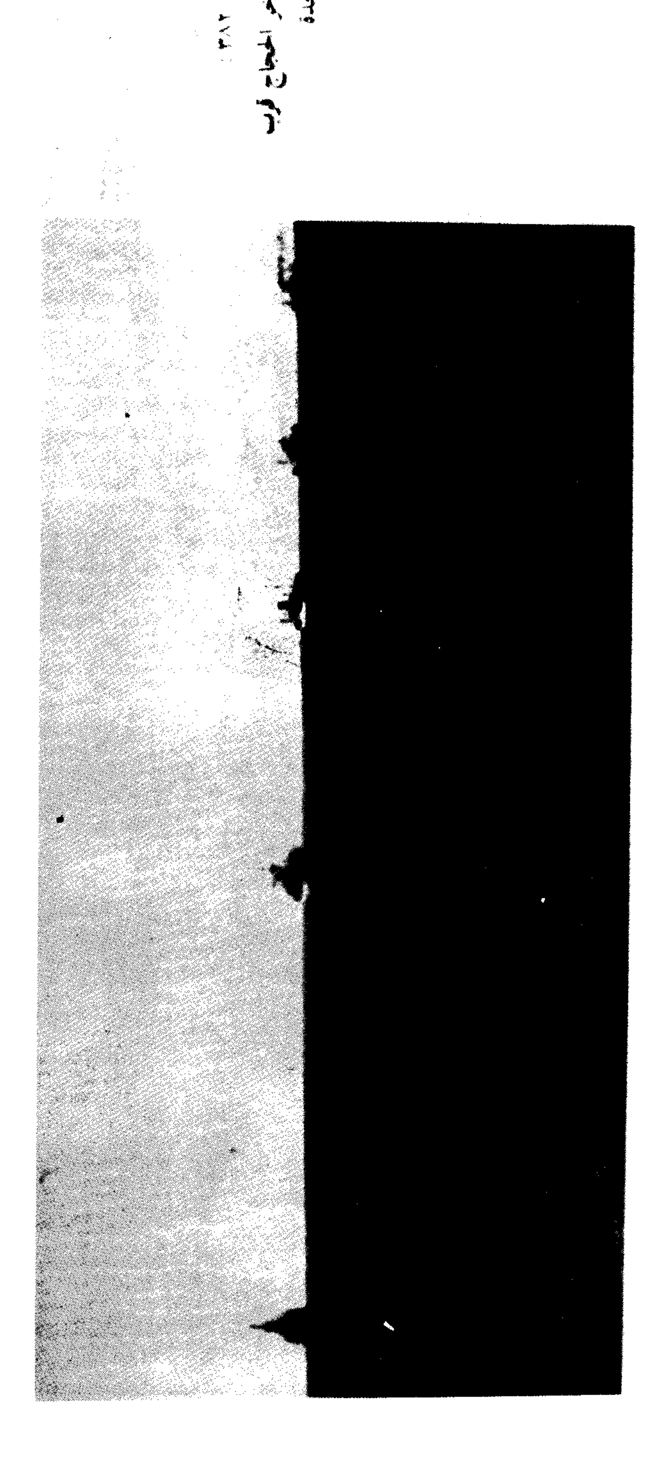
صورة رقم ٣٣٦



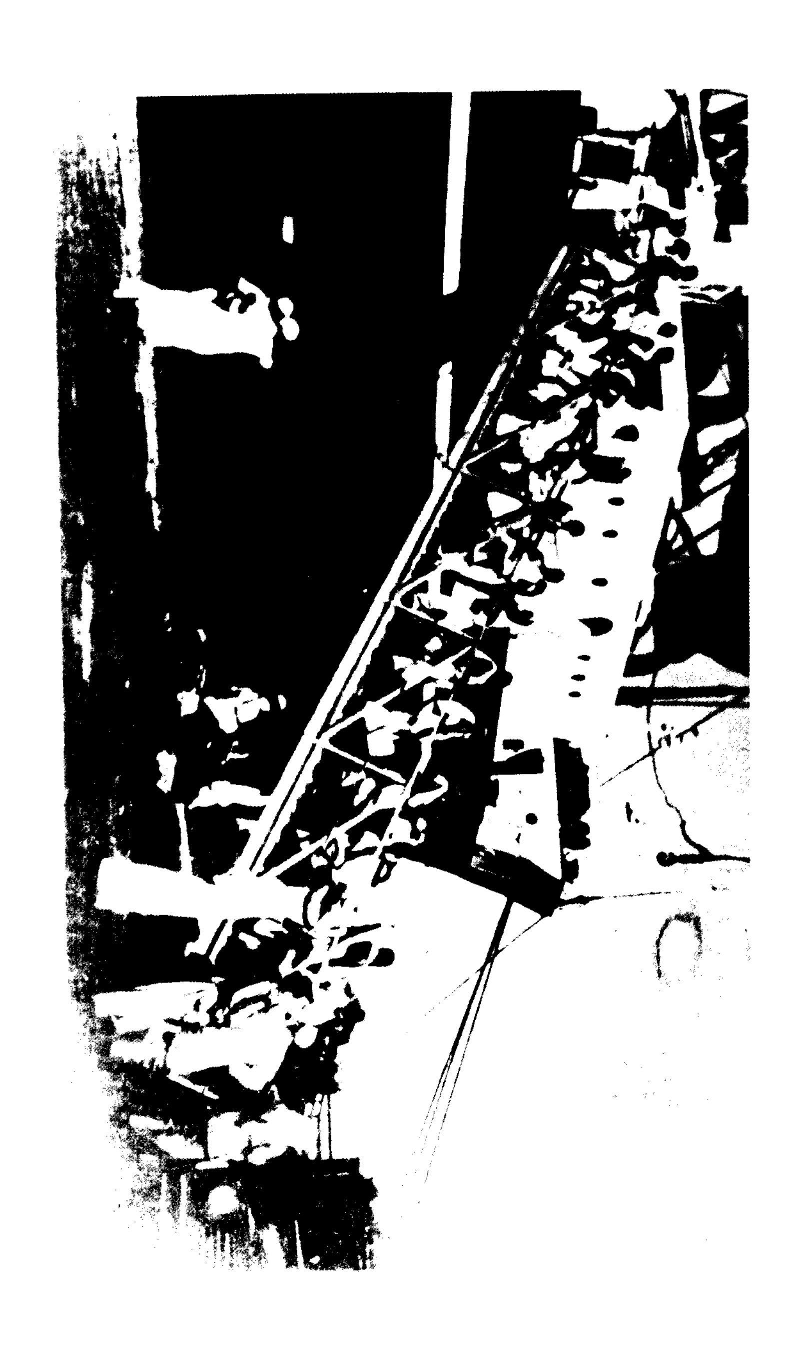
صورة رقم ٣٣٧



صورة رقم ٣٣٨



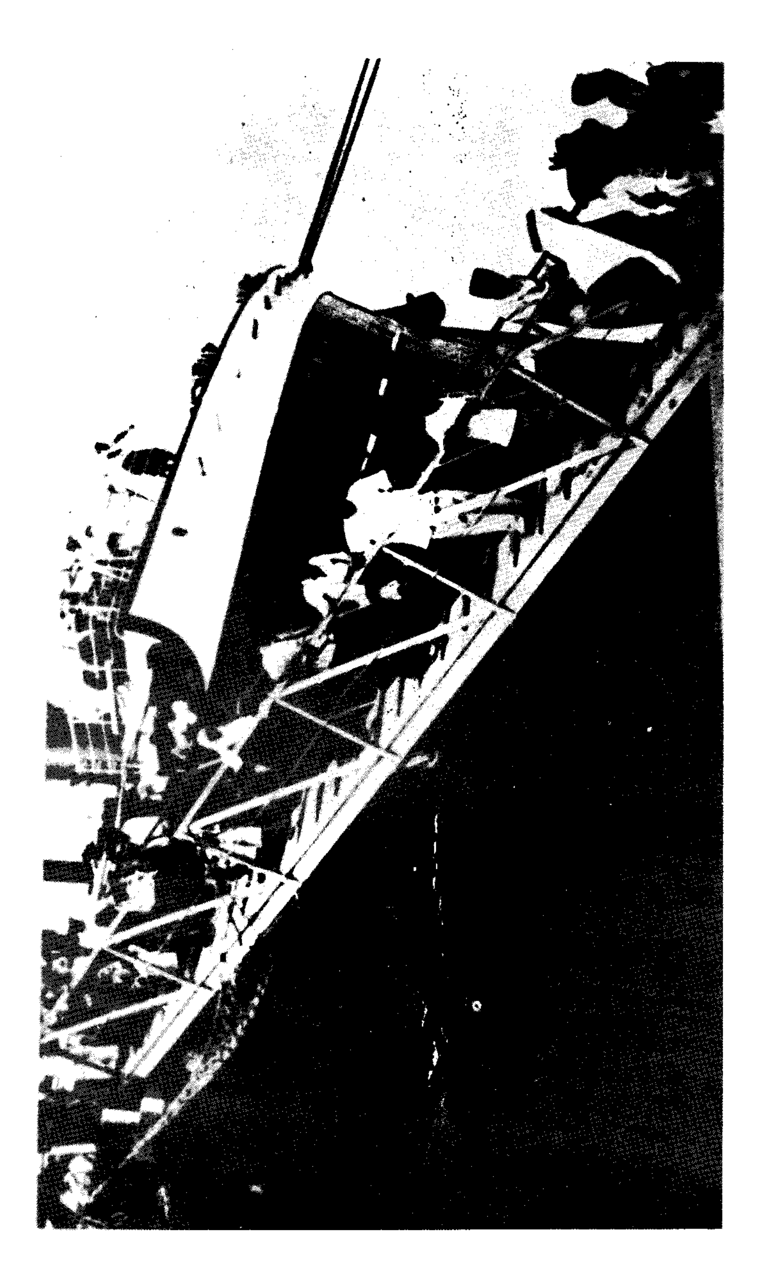
صورة رقم ٣٣٩



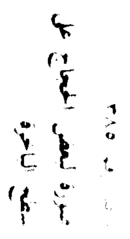
صورة رقم ٣٤٠

حجاج أندونيسيون ينزلون من الباخرة في جدة

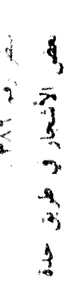
سنة ١٣٨٤



صورة رقم ٣٤١



صورة رقم ٣٤٢



صورة رقم ٣٤٣



صورة رقم ٣٤٥

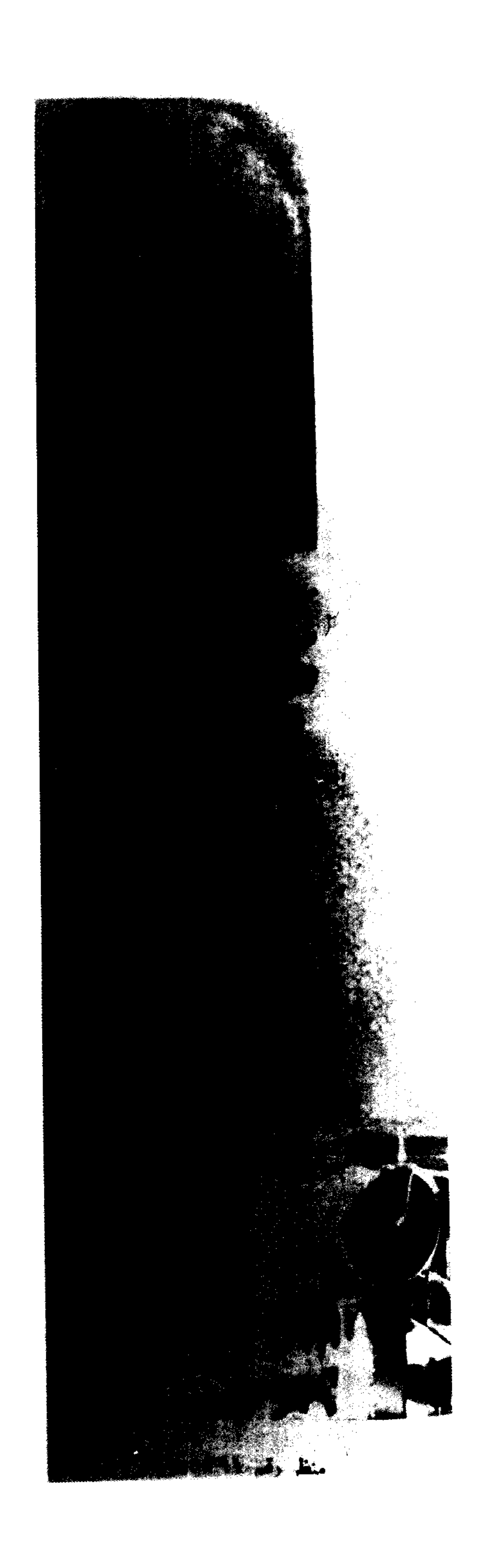
صورة رقم ٣٤٤



منظر رقم ٣٨٩ :

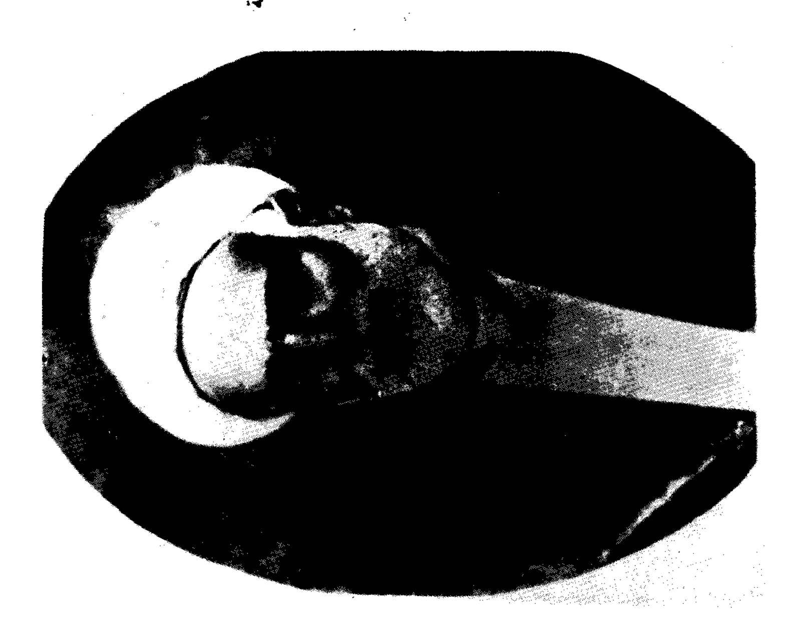
صورة الشيخ محمد صالح بن
علي باعشن . أحد وجهاء
جدة وتجارها . رحمه الله
تعالى . رحمة الأبرار

صورة رقم ٣٤٦



صورة رقم ٣٤٨

صورة رقم ٣٤٧

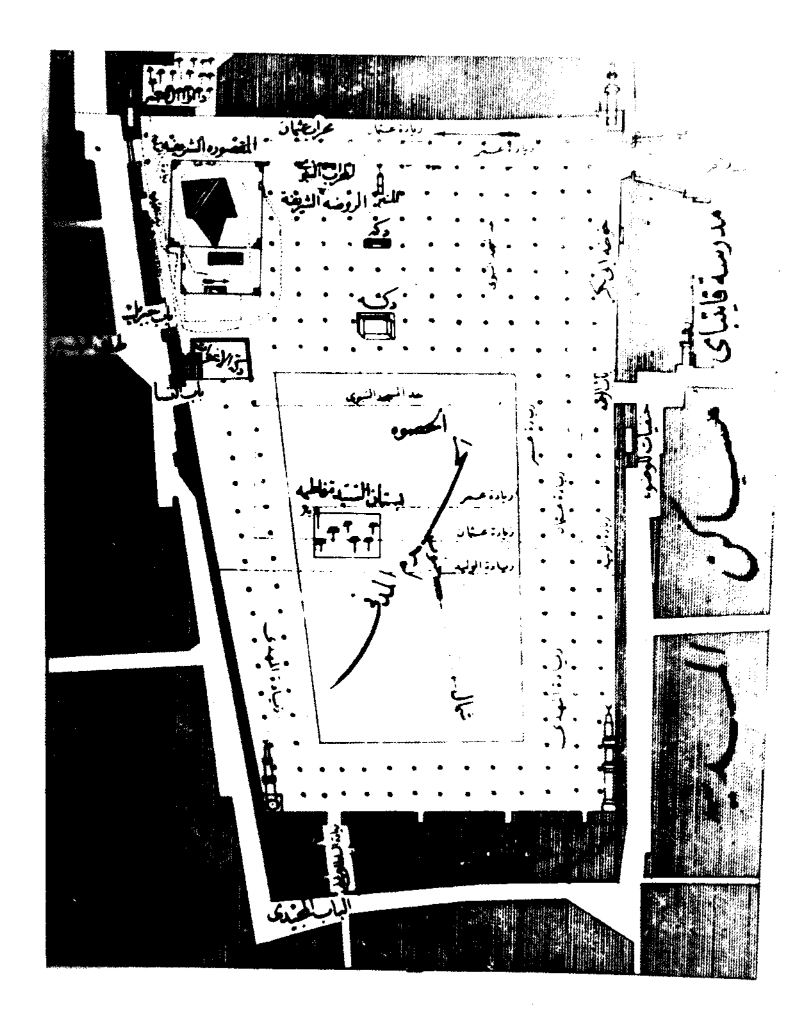


صورة الحاج عبد الله زينل . قائمقام جدة وأميرها المتوفى سنة (١٣٥١) هجرية . رحمه الله تعالى

صورة رقم ٣٤٩



صورة رقم ٣٥٠



منظر رقم ٣٩٤ :

خريطة الحرم الشريف

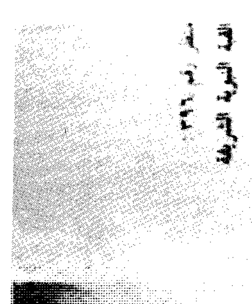
صورة رقم ٣٥١



منظر رقم ٣٩٥ :

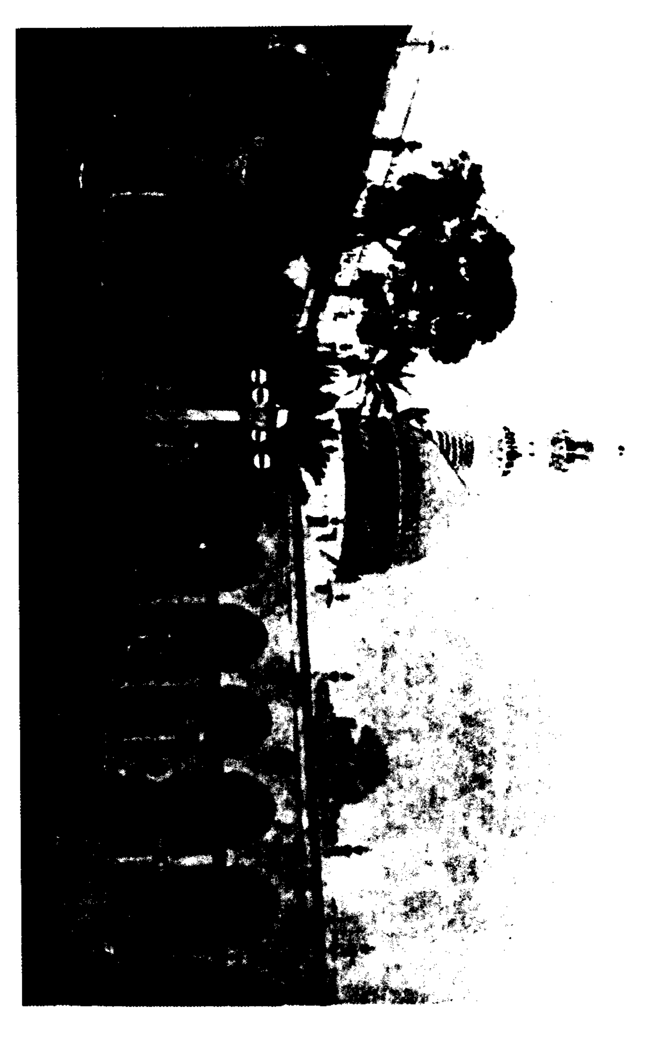
خريطة المدينة المنورة

صورة رقم ٣٥٢

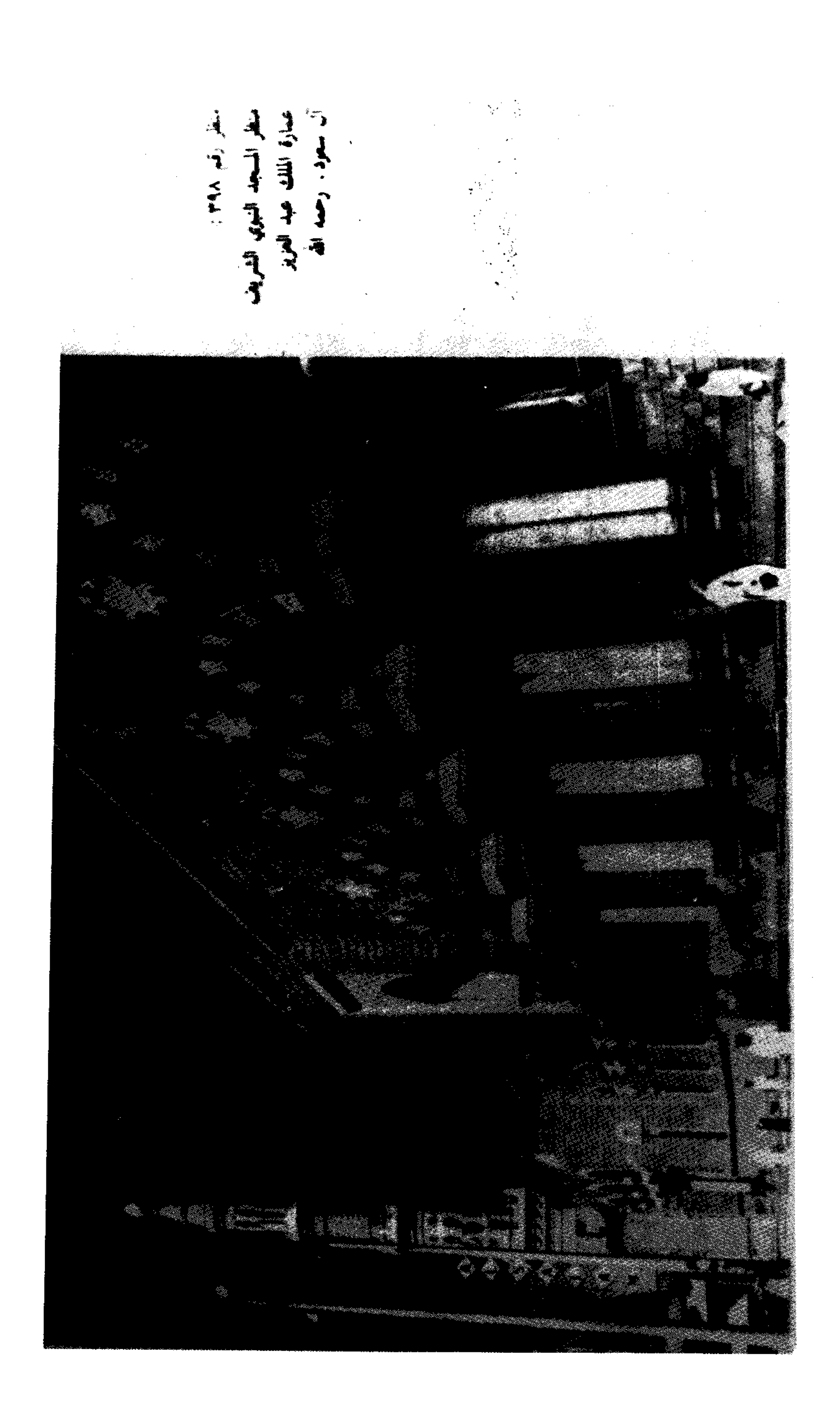




صورة رقم ٣٥٣

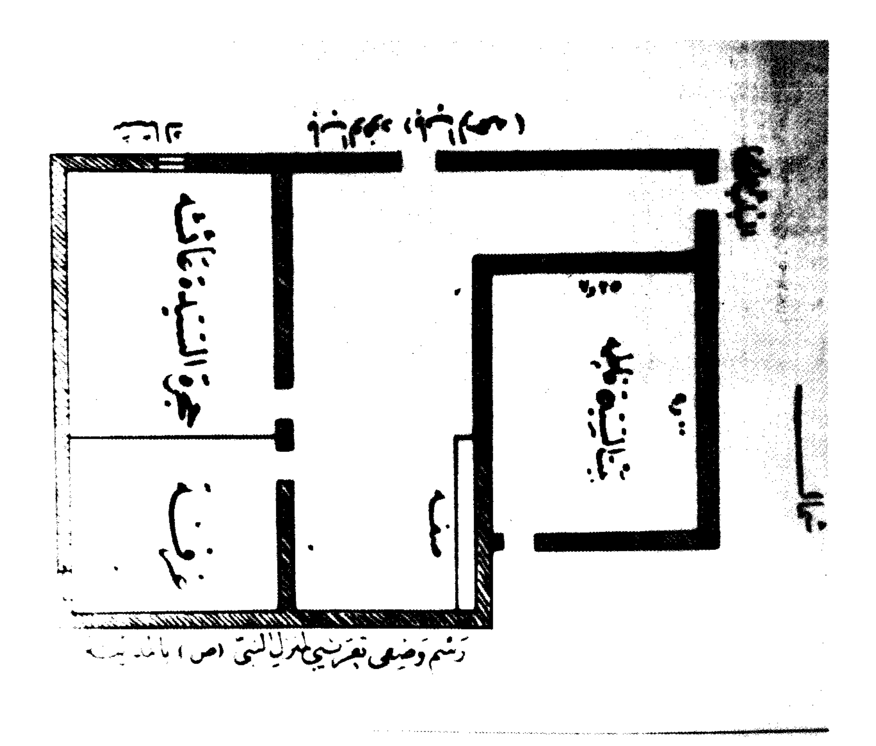


صورة رقم ٣٥٤



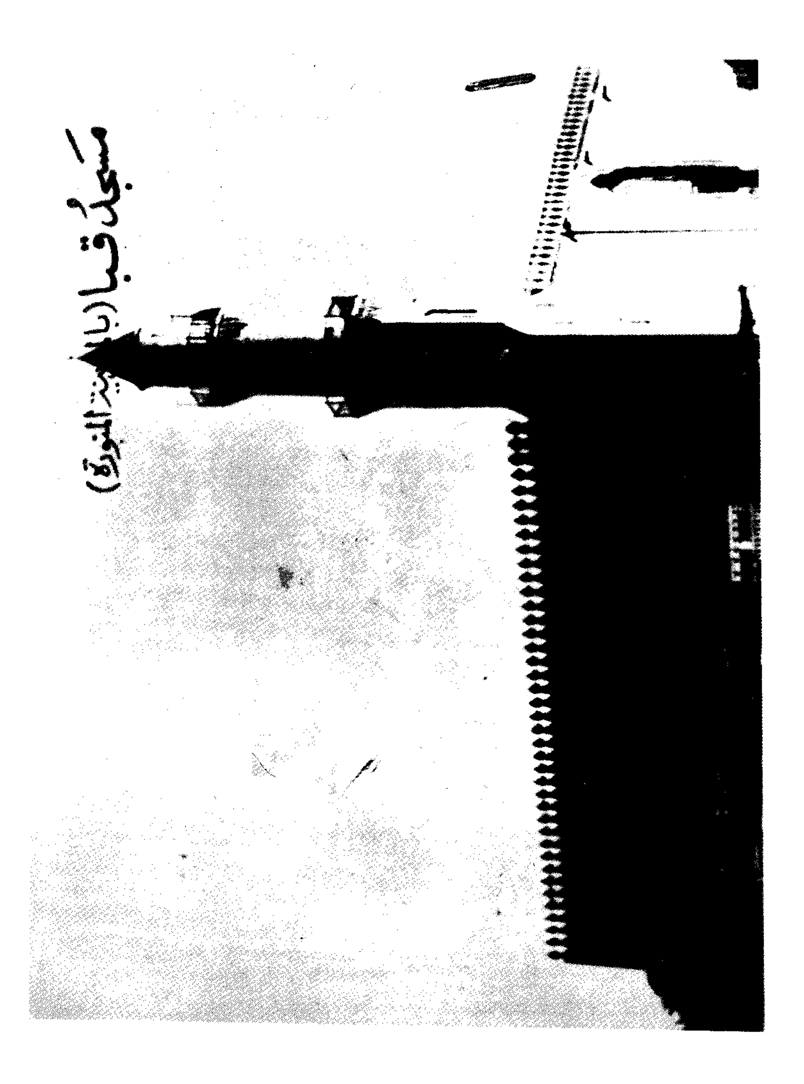
منظر رقم ٣٩٨ :
منظر المسجد النبوي الشريف
عمارة الملك عبد العزيز
آل سعود، رحمه الله

صورة رقم ٣٥٥



صورة رقم ٣٥٦

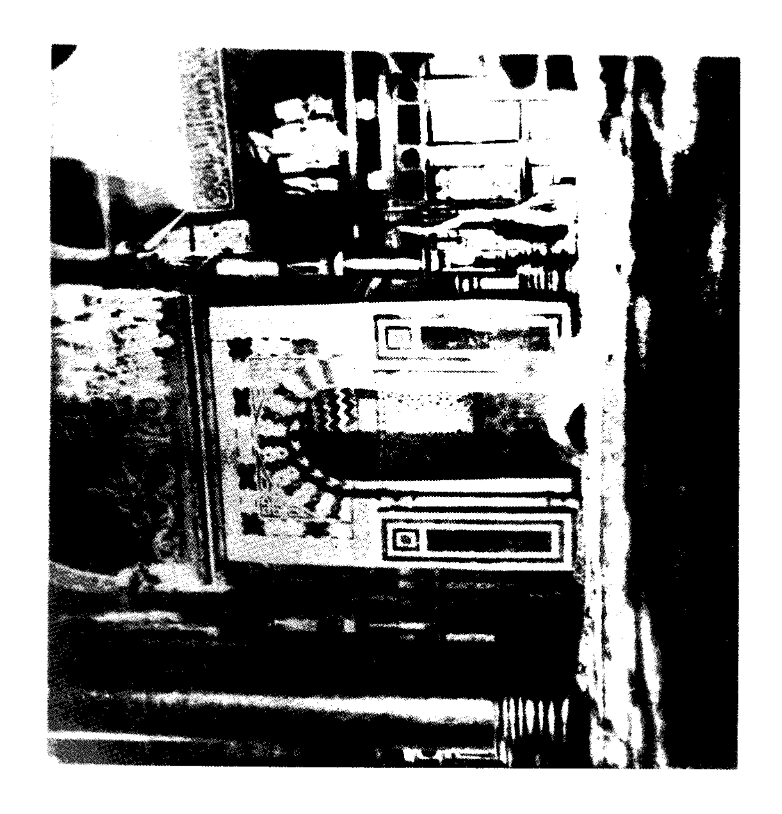
مسجد قبا (بالمدينة المنورة)



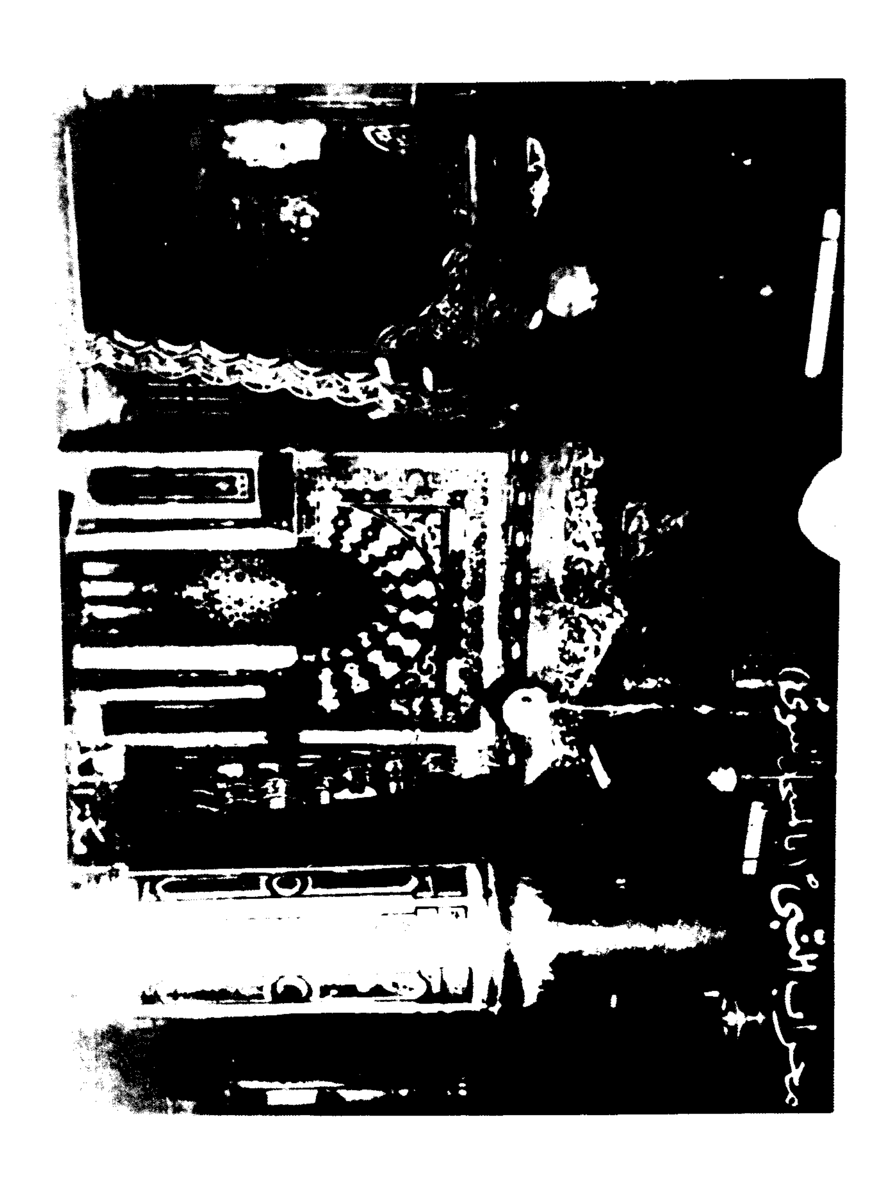
صورة رقم ٣٥٧



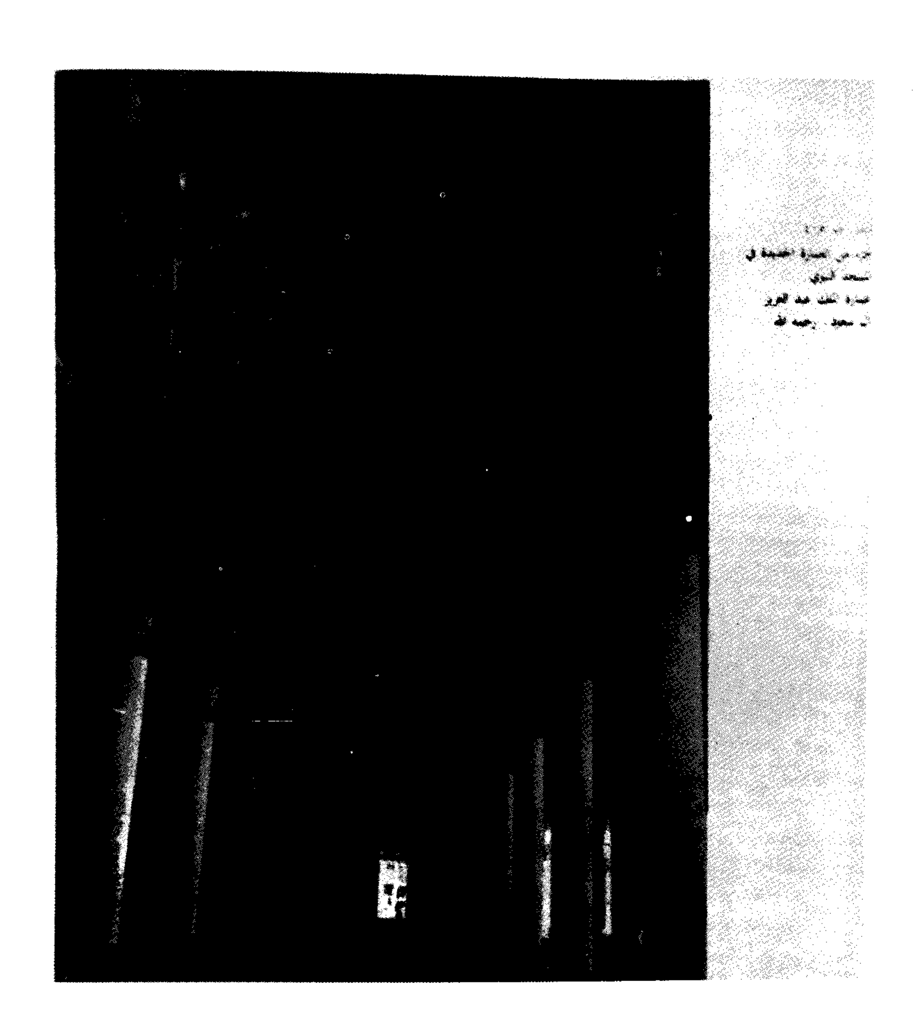
صورة رقم ٣٥٨



صورة رقم ٣٥٩

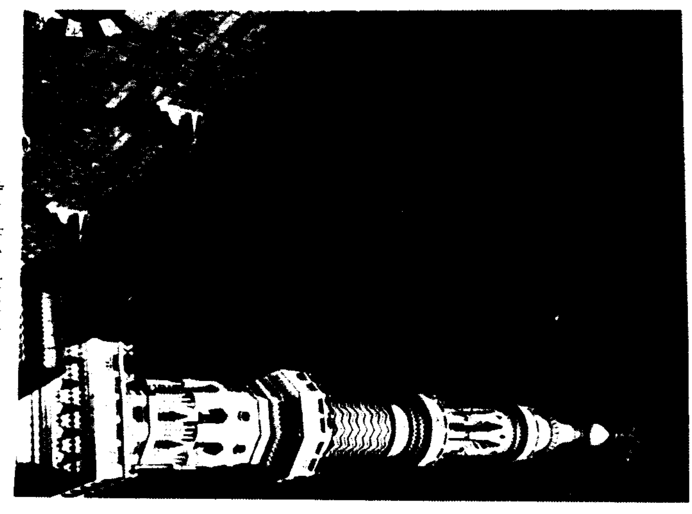


صورة رقم ٣٦٠


التوسعة الجديدة في
المسجد النبوي
الملك عبد العزيز
سعود رحمه الله

صورة رقم ٣٦١

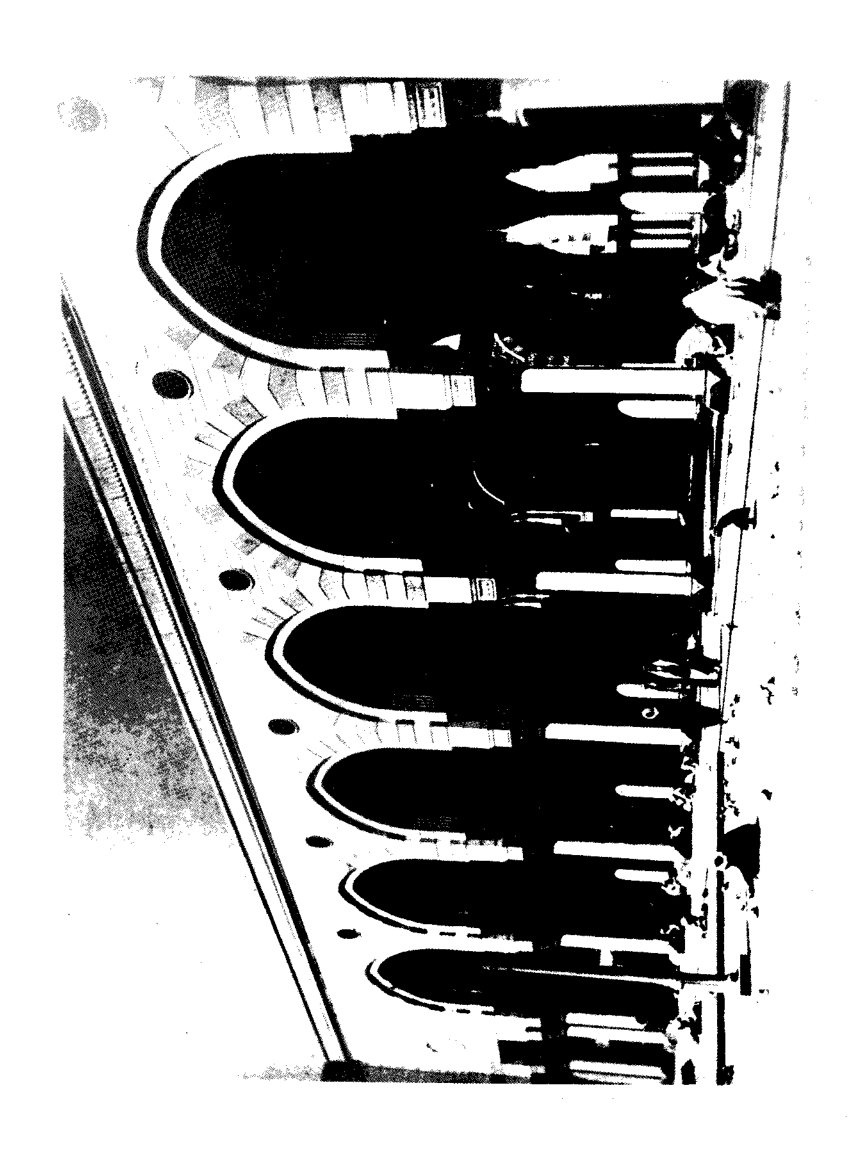
صورة رقم ٤٠٧ : أحد أبواب المسجد النبوي . عمارة الملك عبد العزيز آل سعود . رحمه الله



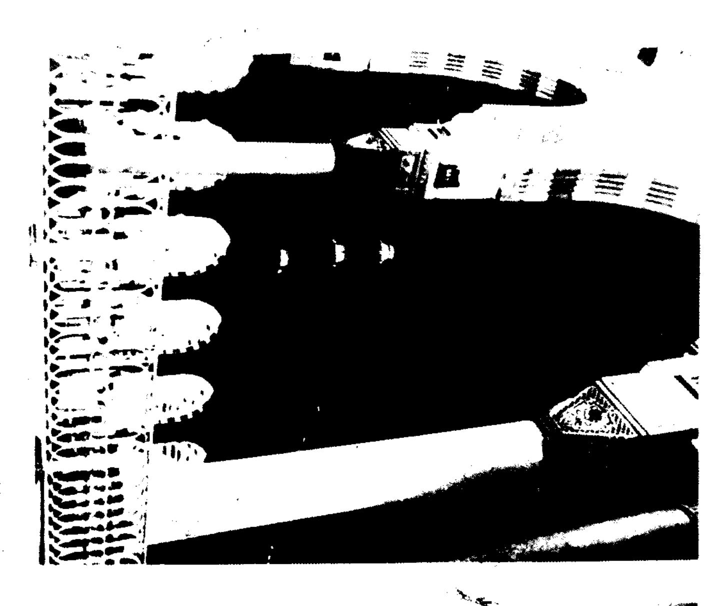
صورة رقم ٤٠٦ : جزء من العمارة الخليفية بالمسجد النبوي . عمارة الملك عبد العزيز آل سعود . رحمه الله

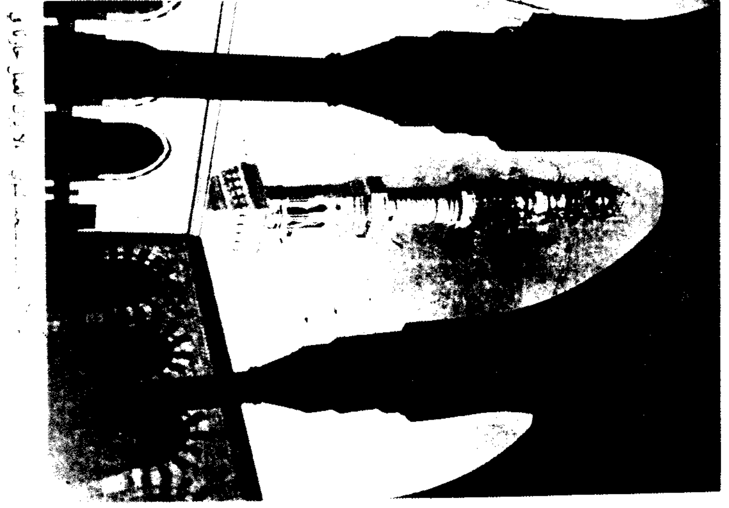
صورة رقم ٣٦٢

صورة رقم ٣٦٣



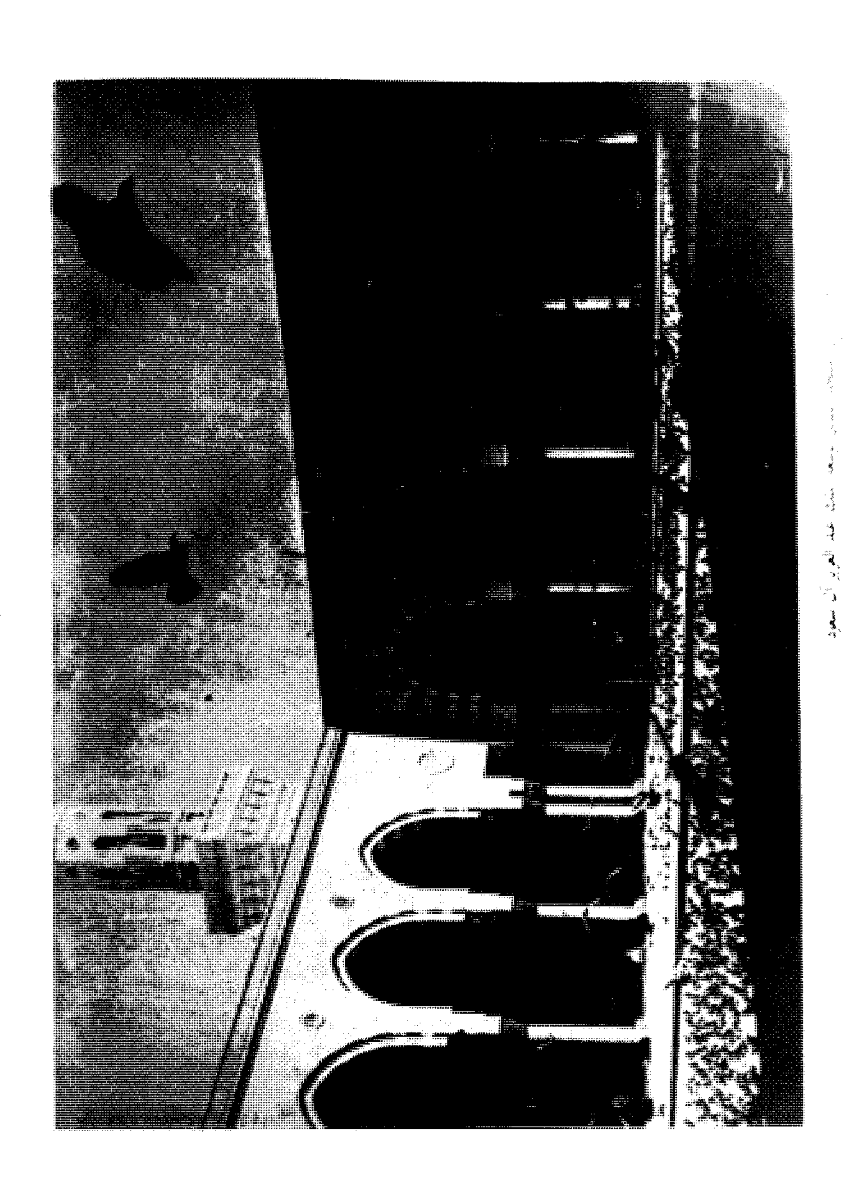
صورة رقم ٣٦٤





صورة رقم ٣٦٦

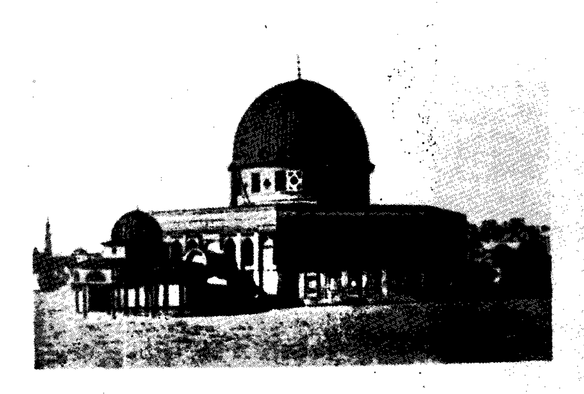
صورة رقم ٣٦٥



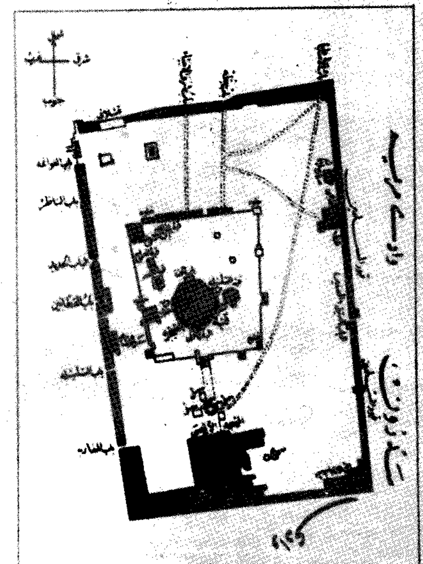
صورة رقم ٣٦٧



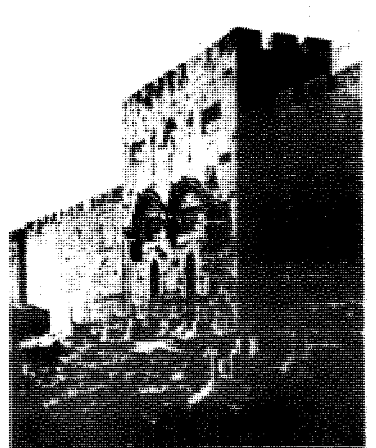
صورة رقم ٣٦٨



منظر رقم ٤١٣ :
قبة الصخرة وإلى جانبها قبة السلسلة



منظر رقم ٤١٤ :
خريطة المسجد الأقصى

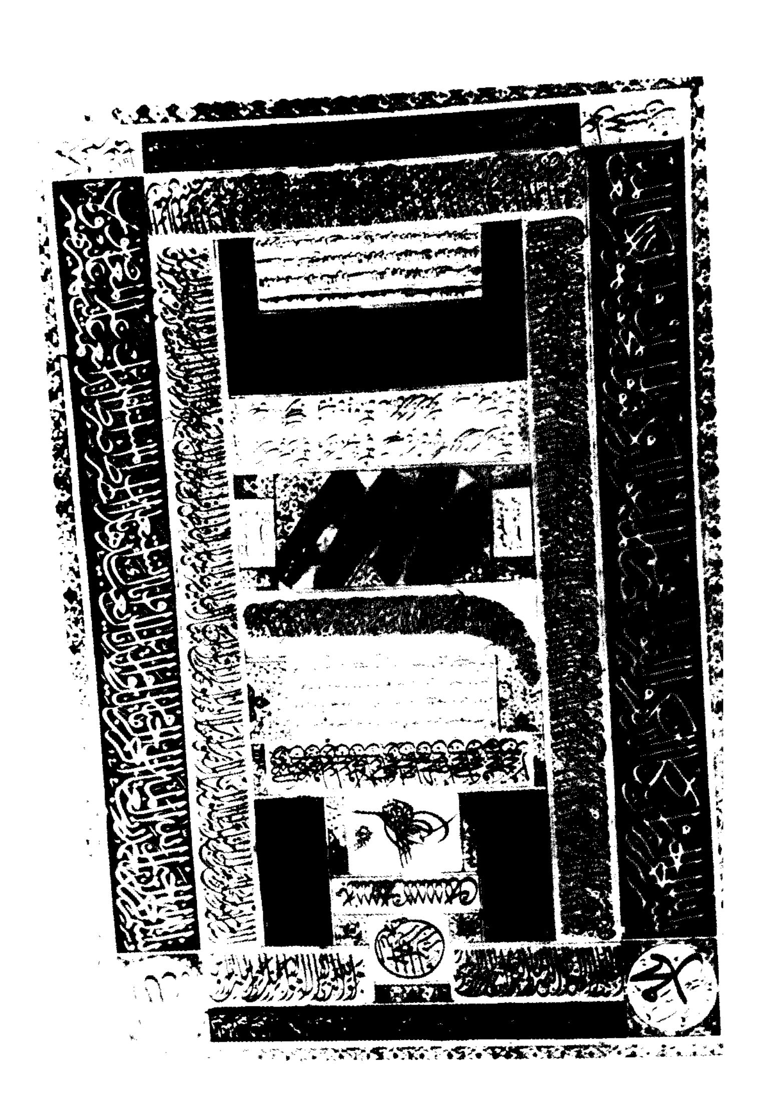


منظر رقم ٤١٥ :
الباب الذهبي للمسجد الأقصى

صورة رقم ٣٧٠

صورة رقم ٣٧١

صورة رقم ٣٦٩



صورة رقم ٣٧٢



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من برأ الخلق ، واسكنهم الحق

الحمد لله الذي خلق فهدى وعلم بالقلم ، علم الانسان من اليراع والابداع مالم يعلم ، سبحانه من اله اتقن الأشياء واحكم ، والصلاة والسلام على مظهر انوار الحروف ومبانيها ، وبدر سماء حسنها وكنز معانيها ، وعلى آله واصحابه مازخرفت لهم الجنان ودام وافيها ، اما بعد ؟ فان من احسن مايكتسبه الانسان وابهى ماتتزين به ذوات البال والشان ، فى غرف ساميات او رياض ذات افنان ، جودة الخط الذى حاكه القلم بالبنان ، وسما بحسن رونقه وتنميقه التلميذين الاقران ، وحيث لايخفى على ذوى الأذهان ، مافيه من رفعة القدر والشأن

فقد فاز بنيل هذه الشهادة فيه ولدنا ابن المحترم

تعليماً على استاذه الذى تغنى شهرته عن الايضاح الشيخ المعلم

بمدرسة الفلاح بجده جعل الله اعمال الجميع مقرونة بالنجاح انه كريم فتاح .

حرر فى سنة ١٣

عضو عضو معلم الخط امضاء المدير مهر المدرسه

شهادة الخط التي كانت مدرسة الفلاح بجدة تعطيها لبعض التلامذة المتفوقين في الخط

صورة رقم ٣٧٣